مكسيم غوركي



مكسيم
غوركي

مكسيم غوركى

المؤلفات المختارة فى ٦ مجلدات

المجلد ٢

بين الناس
جامعياتى

ترجمة المحامى سهيل ايوب

دار «رادوغا»
موسكو

М. ГОРЬКИЙ

Собрание сочинений
в 6-ти томах,
т. II

В людях
Мои университеты

На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

Г $\frac{4702010200-262}{031(01)-88}$ 066—88

ISBN 5-05-001726-2
ISBN 5-05-001728-9

بين النـــــاس

١

. . . وهذا انا بين الناس . انى «الصبي» فى مخزن «فاخر» لبيع الاحذية جاثم فى الشارع الرئيسى من المدينة .

معلمى مخلوق قَصُرتْ قامته واستدار جسمه ، محياه جامد التقاسيم حائل اللون بصبغة التراب ، واسنانه ضاربة الى الخضرة ، وعيناه بلون الماء العكر . خُيّل اليّ أنه أعمى ، فطفقت اكشّر فى وجهه بغية اثبات ظنى .

قال لى بصوت خفيض ، لكنه يطفح عزما :

– لا تَلْوِ بوزك هكذا !

كرهت ان تكون عيناه القاتمتان قادرتين على رؤيتي . ولم أصدق ذلك ، لعل المعلم خمّن ما فعلت ليس غير .

اصر بهدوء اكثر ، وهو يكاد الا يحرك شفتيه الثخينتين :

– قلت لك مرة ألا تلوى بوزك !

وجاءنى همسه القاسى فكأنه يزحف ورائى :

– ولا تحكّ يديك . تذكّر أنك تخدم فى مخزن من الدرجة الاولى واقع فى الشارع الرئيسى من المدينة . ينبغى للصبى ان يقف عند الباب جامدا لا حراك به كتمثال .

لم أك اعرف شيئا عن ماهية «التمثال» ، كما انى لم اكن استطيع سبيلا الى مقاومة الرغبة فى حك ذراعيّ ويديّ المكسوة جميعا بلطخ حمر وقروح متناثرة حتى المرفقين . كان مرض الحكة يلذعنى دونما رحمة او شفقة .

استوضحنى المعلم ، مختلسا نظرة الى يدى :

– ماذا كان عملك فى البيت ؟

حين اخبرته بما كنت اصنع هز رأسه المستديرة ، وقد التصق بها شعره الاشيب فى طبقات متكاثفة ، وقال مستآء منى :

– جمع الخروق البالية . . . هذا أسوأ من التسول ، بل من السرقة .

فأعلنت بلهجة لا تخلو من اعتزاز :

– ولقد سرقت ايضا .

عندئذ اعتمد راحتيه مثل هرّ يستند الى مخالبه ، وحدّق فىّ بعينين فارغتين مدهوشتين ، وصفر من فوق مكتبه :

– ما –ذ – ا ؟ قلت انك سرقت ؟

فشرحت له كيف وماذا سرقت . .

– حسنا ! فلنغضّ النظر عما مضى . لكنك اذا اخذت تسرق احذيتى او دراهمى ازج بك فى غياهب السجن حتى تبلغ سن الرشد .

قال ذلك بهدوء كثير . لكننى ذعرت ، الأمر الذى ضاعف كراهيتى له .

كان ثمة مساعدان فى المتجر بالاضافة الى المعلم : ساشا ابن خالى (ابن ياكوف) ، والمساعد الكبير ، وهو فتى ماهر ، لحاح احمر الوجنتين .كان ساشا يرتدى معطفا قصيرا احمر اللون ، وصديريا ، وربطة عنق منشاة ، وسروالا طويلا فوق حذائه . وكان عظيم الزهو بنفسه حتى ليتجاهـــل وجودى ويتنكّر لى .

حين اتى بى جدى الى المعلم وطلب من ساشا ان يساعدنى فى تلقن اسرار المهنة قطب ابن خالى مابين حاجبيه بمهابـــة وخطورة ، وقال :

– ينبغى له اول الامر ان يتعلم كيف يطيعنى .
فوضع جدى يده على رأسى ولوى عنقى ، قائلا :
– أطعه ، فهو يتقدمك فى السن والمركز . . .
عندئذ حملق فىّ ساشا بصورة ذات مغزى ، وقال :
– تذكر كلمات جدك !
واخذ يستثمر تقدمه علىّ فى المركز منذ اليوم الاول .
حذّره المعلم بقوله :
– كفاك تحملق ، يا كاشرين !
فاجاب ساشا ، مطرقا برأسه :
– أنا – انى لم أحملق .
ولم يكن المعلم قد انتهى من توجيه التعليمات اليه :
– ولا تشد ذقنك هكذا . . . فقد يظنك الزبائن تيسا . . .

فضحك المساعد الاكبر متحببا مسترضيا ، فيما مطّ المعلم شفتيه البشعتين . اما ساشا فاختبأ داخل المخزن وقد تضرجت وجنتاه بحمرة الخجل .

كرهت مثل هذه الاحاديث : هؤلاء الناس يستعملون كلمات غريبة كثيرة حتى ليتراءى لى احيانا انهم يتحدثون بلغة اجنبية .

كان المعلم ينتزع يده من جيبه اذا دلفت سيدة الى المخزن ، ويلمس شاربيه لمسا لطيفا ، ويفتر ثغره عن ابتسامة عذبة تغطى بالغضون خديه دون ان تبدل شيئا من سيماء عينيه الفارغتين . اما المساعد الاكبر فيشد نفسه ناهضا ، وذراعاه ملتصقتان بجانبيه ، ويداه تخفقان كمروحتين

عريضتين ، فيما يروح ساشا يطرف بعينيه بفعل ما يبذل من جهد لاخفاء عينيه الجاحظتين . وابقى انا عند الباب أحكّ يدى خلسة ، واراقب مراسم الصفقة من بعيد .

كان المساعد يفرد اصابعه دائما بصورة مدهشة عندما يجثو امام سيدة يجرب الحذاء فى قدميها ، وتأخـــذ يداه ترتعشان ، فيلمس الرجل وكأنه يخشى ان يكسرها رغم ان هذه الرجل تكون سمينة عادة مثل زجاجة مترهلـــة الاطراف مقلوبة رأسا على عقب .

تلوّت سيدة ذات مرة ، وسحبت عقبها بشدة ، وهى تنبر :

— آه ، يا الهى ! كيف تدغدغنى !

فكان جواب المساعد سريعا ومفعما حماسة :

— ما ذلك الا ادبا منى ، ياسيدتى .

كان منظره وهو يضطرب حول السيـــدة يبعث عـــلى الضحك ، فاستدير عنه دائما أردّ ضحكى عن شفتى . لكننى ما كنت استطيع مقاومـــة لاغراء الالتفاتات الى الخلف من جديد ، فقد كانت حركات المساعد واشاراته مسليـــة حتى الدرجة القصوى . وكان يخيل الىّ انى لن استطيع ابدا مـــا حييت ان احرك اصابعى واتلاعب بها بمثل هذا الادب الجم ، او أجرب الاحذية بمثل هذه المهارة الفائقة .

كثيرا ما كان المعلم ينسحب الى غرفة صغيرة تقـــع فى أقصى المخزن وينادى ساشا اليه ، تاركا المساعـــد الاكبر وحيدا مع المشتريـــة . واذكر انه مس ذات مرة ظهر قدم

سيدة شقراء وجمع اطراف اصابعه الى بعضهـــا بعضـــا وطبع عليها قبلة .

قالت المرأة بدلال :

– أوه ! يالك من فتى ماكر !

فنفخ خديه واطلق زفرة عميقة وقال :

– آه – ه – ه !

فانفجرت عندئذ اضحك بصورة مجنونـــة ، حتى تمسكت بقبضة الباب خشية السقوط . انفتح الباب وارتطـــم رأسى بالزجاج الذى تحطم وتساقط أرضا . شتمنى المساعد ضاربا الارض بقدميه ، فيما قرع المعلم رأسى بخاتمه الذهبـــى الثقيل . وجرب ساشا ان يشد اذنى . وحذّرنى بصرامة ذلك المساء فى طريق عودتنا الى البيت قائلا :

– سيكون نصيبك الطرد الاكيد اذا تصرفت هكذا . ماذا أضحكك حتى هذه الدرجة ، على اية حال ؟

ثم اوضح لى ان الاعمال تزدهر بمقدار ما تجـــد النساء المساعد ساحرا فاتنا .

– وحتى اذا لم تكن السيدة فى حاجة الى الاحذية فسوف تبتاع زوجين زائدين وكل غايتها ان تلقى نظرة اخرى على رجل جميل ليس غير . أفلا تستطيع ان تفهم هذا ؟ لا سبيل الى تلقينك اى شىء كان !

ساءتنى كلماته ، فليس احد فى المخزن ، وعلى الاخص ساشا ، حاول ان يعلمنى شيئا .

كانت الطاهية ، وهى امرأة غضوب معتلة البنيـــــة ، توقظنى كل صباح قبل ابن خالى بساعة كاملة ، فاشعـــــل

السماور ، واجلب ما يلزم من وقود للمدافئ جميعا ، واغسل أوانى الطعام ، وانظف ثياب معلمى والمساعد الاكبر وساشا وامسح احذيتهم . وبعد ان اجىء الى المخزن كنت اكنس ارضه ، وانفض غباره ، واعد الشاى ، واحمل الرزم الى الزبائن ، ثم أمضى الى البيت فآتى بطعام الغداء . وكان ساشا يأخذ مركزى عند الباب اثناء قيامى بهذه الاعمال ، فيزعق بى ، اذ يجد ان مثل هذه الوظيفة تحط من كرامته :

– ايها اللخمة ! تريدنى ان انجز عملك فى مكانك !

وجدت حياتى الراهنة باعثة على السأم والضجر بعدما ألفت الحياة المستقلة فى الحقول والغابات ، على طول ضفتى نهر الاوكا العكر ، او فى شوارع كونافينو الرملية . وكنت احن الى جدتى واصدقائى فلا القى انسانا اتحدث اليه ، فيما الجانب الكذوب الخداع من الحياة الذى أراه الآن يغيظنى ويثير حنقى .

وما اكثر ما كانت السيدات يغادرن المخزن دون ان يشترين شيئاً ، وعندئذ يغضب المعلم ومساعداه وقد لحق بهم الخذلان ، فيأمرنى المعلم وقد نفض عنه ابتسامته العذبة :

– كاشرين ، ارجع الاحذية الى أماكنها !

ثم ينثر الشتائم دون حساب :

– جاءت تدس خرطومها هنا ، تلك الخنزيرة ! لقد تعبت من الجلوس فى البيت فقررت تلك المجنونة العجوز ان تروح عن نفسها بالتجوال فى المخازن ! آه ، لو كانت زوجتى ، كنت اذن أريتها نجوم الظهر من أين تطلع . . .

كانت زوجته امرأة عجفاء القامة ، سوداء العين ، كبيرة الانف ، تصيح به وتضرب الارض بقدميها فكأنه خادم الدار .

وكان المعلم ومساعداه ، بعد ان يودعوا سيدة بانحناءات الاحترام وعبارات اللطف الكثير ، ينطقون باشياء قذرة مخجلة عنها ، فيحملنى ذلك على الرغبة فى الاسراع خلفها فى الشارع واطلاعها على كل ماقالوا بحقها .

كنت اعلم طبعاً ان البشر يميلون الى النيــــل من قدر الغائبين . ولكن هؤلاء كانوا يتحدثون عن جميع الناس بصورة مهينة خاصة كأنهـم ارفـــع الناس قدراً واعظمهـــم شأنا ، قد عينوا كى يدينوا سائر البشر على حد سواء ، وكانوا يحسدون معظم الناس ولا يمتدحون احدا ، ويحفظون بعض القصص المقيتة عن كل انسان كائنا من كان .

ذات يوم دلفت الى المخزن سيدة فى ميعة الصبا ، براقة العينين ، مضرجة الوجنتين ، ترتدى معطفا مخمليا ذا ياقة من الفرو الاسود . وكان محياها يعلو على الفرو اشبـــه بزهرة رائعة مدهشة ، بل لقد ازدادت جمالا عندما القت معطفها على ذراع ساشا . كانت حلقتان من الماس تبرقان فى أذنيها ، فيما ازداد جسدها الممشوق فتنة ببهاء ردائها الازرق الرمادى المشدود حول خصرها . ذكرتنى بفاسيليسا الجميلة ، بل كنت على يقين انها لابد ان تكون زوج الحاكم على اقل تقدير . استقبلوها باحترام خاص ، وانحنوا امامها كما ينحنى عباد النار وهم يتمتمون بكلمات معسولة . وطفق ثلاثتهم يندفعون بجنون فى المخزن ، تتضوأ انعكاساتهـــم فى زجاج الواجهات

فيصوّر لى ان كل شىء يلتهب وينصهر ، فهو سيتخذ فى الحال اشكالا وحدودا جديدة .

حين غادرت السيدة المخزن بعد ان انتقت بسرعة زوجين غاليين من الاحذية طقطق المعلم بلسانه ، وقال صافرا :

– الفاجرة !

واردف المساعد بأنفة وكبرياء :

– باختصار – ممثلة .

وانثالا يتبادلان الاخبار عن عشاق السيدة والحياة المرحة التى تعيشها .

اضطجع المعلم بعد الغداء بقليل فى الغرفـــــة الصغيرة الواقعة فى اقصى المخزن ، فنزعت غطاء ساعته الذهبية وصببت خلا على آلاتها . ولشد ما كان سرورى عظيما حين رأيته يدخل المخزن بعد يقظته ممسكا بالساعة فى يده ، وهو يتمتم فى حيرة :

– مارأيكما فى هذا الامر ؟ لقد اخذت ساعتى تعرق على غير انتظار . لم يحدث مثل هذا من قبل ابدا . ان تعرق ، فكرا فى ذلك ! هذا نذير شؤم ، ما ؟

كنت غارقا على الدوام فى موجة من السأم ، رغم الحركة الدائبة فى المخزن والعمل المرهق فى الدار . وكنت لا أنى أتساءل اكثر فاكثر : «ماذا استطيع ان افعل معهم كى يتخلصوا منى ؟» .

ان أناسا يغمرهـــم الثلج يمرون مسرعين امام ابواب المخزن ، يخيّل الىّ انهم متأخرون عن مأتم ما ، فهم يستحثون الخطا الآن صوب المقبرة ، وبغيتهم ان يلحقوا بالنعش الذى سبقهم . وكانت خيول النقل تجر عرباتها بمشقة خلال طبقات

الثلوج المتراكمة ، واجراس الكنيسة الواقعة خلف المخزن تجلجل يوميا بكآبة . فنحن فى فصل الصوم الكبير . كان قرعها المستمر يقع على الرأس اشبه بضربات المخدة ، لا يشعرك بالالم ، ولكنه يجعلك مذهولا اصم فى وقت واحد .

وفى ذات يوم ، بينما كنت افرغ صندوقا جديدا من البضاعة قرب باب المخزن ، اقترب منى حارس الكنيسة ، وهو رجل عجوز مشوه الكتفين ، رقيق مثل دمية من الخروق ، مهلهل فكأن الكلاب دقته دقا .

سألنى :

– أفلا تسرق لى خفين ، يا صغيرى !

لم ارد عليه ، فجلس على صندوق بضاعة فارغ ، وتثاءب ، ورسم اشارة الصليب على شفتيه ، وكرر سؤاله :

– أفلا تفعل ذلك الآن ؟

فاخبرته :

– السرقة أمر باطل .

فقال :

– لكنها تحدث . هيا يا صغيرى ، وافعلْ ذلك احتراما لشيخوختى .

كان يختلف عن القوم المحيطين بى بصورة تبعث على الراحة . وكان يلوح على يقين تام من اقدامى على السرقة ، حتى قبلت ان ارمى اليه خفين من خلال النافذة .

اعلن بهدوء ، ودون ان يبدو عليه اى رضى خاص :

– حسنا ! انت لن تخدعنى الآن ، اليس كذلك ؟ لا بأس ، لا بأس ، فانا ادرك انك لست من الذين يخدعون الناس ويسخرون منهم .

ظل جالسا هناك دقيقة او دقيقتين معتصما بالصمت يحك عقب حذائه على الثلج الرطب القذر ، ثم اشعل غليونه الخزفى ، وارسل نفحة من الذعر فى قلبى بصورة مباغتة :

– وماذا اذا كنت انا الذى اخدعك ؟ ماذا اذا حملت هذين الخفين بالذات الى المعلم وقلت له انك بعتنى اياهما بنصف روبل ؟ ثمنهما يزيد على روبلين وانت بعتهما بنصف روبل ، اى بالضبط ما تحتاج اليه لتبتاع لنفسك حلوى ؟

حدّقت فيه بذهول فكأنه انجز ما يتهددنى بانجازه ، فيما استرسل هو يتحدث بصوت خافت أخن ، شاخصا الى حذائه ، ملتف الرأس بالدخان الازرق :

– ماذا اذا كان المعلم نفسه دفعنى الى ذلك : «اذهب وجرّب هذا الصبى الذى يشتغل عندى وتحقق من مبلغ أمانته» ، ماذا عندئذ ؟

فقلت غاضبا :

– لن اعطيك الخفين !

فردّ قائلا :

– لا تستطيع فرارا من ذلك الآن بعد ان قطعت عهدا على نفسك !

أمسك بيدى وجذبنى اليه ، وتشدّق قائلا ، وهو يقرع جبهتى باصبع باردة :

– كيف قبلت هكذا بكل بساطة : «اليك ، خذ خفيك» ، ايه ؟

– انت طلبتهما ، أليس كذلك ؟

– استطيع ان اطلب اشياء كثيرة . اذا سألتك ان تسرق

الكنيسة فهل تسرقها ؟ كيف تستطيع ان تثق فى الناس هكذا ، ايها العبيط الصغير ؟

ودفعنى عنه ناهضا .

– انا لست فى حاجة الى اى خفين مسروقين . وانا لست على اى حال سيدا عظيما حتى البس خفين . كنت امزح فقط . لكن مادمت وثقت فىّ فسوف اسمح لك بالصعود الى برج الناقوس . تعال فى عيد الفصح حيث تستطيع ان تقرع الجرس وتنظر الى المدينة .

– انا اعرف المدينة .

– هى من البرج أجمل بما لا يقاس .

ابتعد متمهلا ، وهو يدفع عقبى حذائه فى الثلج ، حتى اختفى اخيرا خلف احدى زوايا الكنيسة . وبينا انا أراقبه وهو يذهب عنى رحت اتساءل فى قلق مؤلم : ماذا اذا كان الرجل العجوز يمازحنى حقا ، ام ان المعلم ارسله ليجربنى . وراودنى الخوف من العودة الى المخزن .

صاح ساشا بى ، وهو يدخل الساحة راكضا :

– ماذا كنت تفعل هنا طوال الوقت ، بحق الشيطان ؟

فلوحت بالكماشة فى وجهه وقد غمرتنى موجة مفاجئة من الغضب .

كنت اعرف انه يشترك مع المساعد فى سرقة المعلم . انهما يخفيان زوجين من الاحذية فى الموقد حتى يحين موعد اغلاق المحل ، فيغادران المخزن وقد أخفيا الحاجيات المسروقة فى اكمام معطفيهما . اغاظنى هذا واخافنى فى وقت واحد لاننى لم أنس بعد تهديد المعلم ووعيده .

سألت ساشا :

– هل تسرق ؟

فاجاب فى حدة :

– انا لا اسرق ، المساعد الكبير يسرق . انا اساعده فقط . يقول لى : «افعـــل ما اقول لك !» ولينتقمنّ منـى بخبث اذا لم افعل . اما المعلم – فمما لا ريب فيه انه كان مساعدا فى مخزن ذات يوم . وهو يعرف تلك الحيل باجمعها . لكن ، امسك لسانك انت !

كان يرنو الى صورته فى المرآة دون انقطاع وهو يتكلم ، ويصلح من ربطة عنقه ، بينا تتباعد اصابعه على طريقـــة المساعد الكبير المتصنعة . كان يلاحقنى ، عـلى الدوام ، بحقيقة انه اكبر منى سنا ، وحقه بالتالى فى اصدار الاوامـــر الىّ . وكان يزعق فى وجهـــى بصوت أجش ، ويومـىء لى بغطرسة وهو يصدر اوامره . ولقد كنت اطول منه قامـــة واصلب بنية ، لكننى نحيف اخرق ، بينا هـو لين العود ، ربع القامة ، طلق الحركات . الفيته مهيبا فى معطفه القصيـــر وسرواله الطويل ، لكن يبعث على السخرية نوعا ما . وكان يكره الطاهية ، تلك التى كانت فى الحقيقة امرأة غريبة – لم يك فى وسعك قط ان تقرر ما اذا كانـــت امرأة طيبـة ام شريرة .

كانت تقول ، وهى تحملق بعينيها السوداوين اللاهبتين :

– احب القتال اكثر من اى شىء آخر ! وليس يهمنى من يقاتل – ديكة ام كلاب ام رجال – جميعهم سواء بالنسبة الىّ . واذا نشب قتال بين الديكة او الحمام فى الساحة خارجـا

فهى تترك اعمالها وتقف فى جوار النافذة حتى ينتهى القتال ، صامة أذنيها عن اى حدث آخر . وفى العشيات تتوجه الى ساشا والىّ قائلة :

– فيم جلوسكما ههنا ، ايها الحدَثان ؟ لم لا تخرجان وتشتبكان فى معركة طيبة ؟

فيتقد ساشا غيظا :

– لست حدثا ، ايتها الحمقاء العجوز – فانا المساعد الاصغر !

– ما اصعب رؤية هذا ؟ سوف تظل حدثا فى نظرى حتى يوم زفافك .

– تبا لك من حمقاء عجوز ، خرقاء الرأس !

– الشيطان ذكى ، لكن الله لا يحبه !

كان ساشا يتضايق على الاخص من طريقتها فى الحديث . واذا اغاظها فهى تسحقه بنظرة عجلى وتقول :

– تفو ، أيها الصرصور الصغير – ياخطيئة الله الكبرى .

حاول ، اكثر من مرة ، اشراكى معه فى غرز الدبابيس فى وسادتها ، او تلطيخ وجهها بدهان الاحذية او الهباب وهى نائمة ، او القيام باية نكتة مضحكة اخرى . لكنى كنت ارهب جانب الطاهية ، وكنت على يقين من انها ستمسك بى لانها خفيفة النوم . وما اكثر ما كانت تستيقظ ، وتشعل القنديل ، وتجلس تحملق فى زاوية ما . وكانت تجيئنى احيانا اخرى ، الى الموقد ، حيث كنت انام وبعد ان توقظني تطلب منى بصوت أجش :

– لا استطيع ان انام مطلقا ، يا أليوشا ، فانا خائفة . قص عليّ شيئاً .

وأسرد لها بعض الاقاصيص ، نصف نائم نصف يقظان ، فتقبع هي مطبقة الشفتين تتأرجح الى الامام والخلف . ويتراءى لى ان جسدها الحار ينزّ رائحة من الشمع والبخور ، وانها سرعان ما ستموت ، لربما فى هذه البرهة بالذات – ستتهاوى على الارض وتموت . وأرفع صوتى ، والرعب يعتصرنى ، فتوقفنى قائلة :

– هس ! ستوقظ اولاد الزنى هؤلاء فيظنون انك عشيقى .

كانت تجلس أبدا جانبى فى وضع لا تغيره البتة – محنية الظهر ، يداها مغروزتان بين ركبتيها، وساقاها المتعظمتان مضغوطتان بشدة على بعضهما . وكانت اضلاع صدرها المسطح تبدو ، من تحت قميصها المنسوج من قطن خشن ، وكأنها اطارات برميل متيبس . تجلس صامتة زمنا طويلا ، ثم تهمس على حين فجأة :

– ليتنى مت وخلصت من هذا الشقاء !

او تستدير الى احدهم ، وتسأل :

– حسنا ، قضيت ايامى فما كان جدواها ؟

لم تك تتردد البتة فى مقاطعتى فى منتصف حكايتى لتنبس فى جفاء : «هيا الى النوم !» ثم تنهض وتتلاشى شهباء اللون فى ظلال المطهى .

كان ساشا يدعوها وراء ظهرها «الساحرة العجوز !» ،

فاقترحت عليه ذات مرة ان يناديها بهذا الاسم فى وجهها ، فنبر :

– أتحسبنى اخاف ؟

لكن ما عتم ان قطب وجهه ، واضاف :

– كلا ، لن اقول ذلك فى وجهها . لربما كانت ساحرة حقا وفعلا .

لم تك ترحمنى اكثر من اى شخص آخر ، وهى المتكبرة ، النزقة ، الغضوب ابدا . فتجرنى من قدمى منذ السادسة صباحا ، وتصيح :

– كفاك شخيرا ! هات الحطب ! سخن السماور ! قشِّر البطاطا !

وكان ذلك يوقظ ساشا من نومه ايضا ، فيعوى فى وجهها :

– علام تنبحين ؟ ساقول للمعلم انك لا تتركين لى فرصة للنوم .

فتنخطف عيناها الملتهبتان ارقا فى اتجاهه ، وهى تنقل بخفة ونشاط حزمة عظامها فى أرجاء المطهى :

– تفو ، يا خطيئة الله الكبرى ! لو كنت ربيبى للقنتك درسا !

فيشتمها ساشا :

– لعنة الله عليك !

ثم يخاطبنى ، ونحن فى طريقنا الى المخزن :

– سنجعلهم يتخلصون منها . سنضيف كمية من الملح الى الطعام فى غفلة عنها . واذا كان الطعام مالحا دائما ، فهم

سيطردونها ولا شك . او نضع بترولا . لم لا تفعل ذلك ؟

– ولِمَ لا تفعله انت ؟

فشخر فى وجهى :

– جبان رعديد !

ماتت الطاهية امام اعيننا . انحنت مرة لترفع السماور عن الأرض فتدهورت فجأة كأن احدهم لبطها على صدرها ، وتدحرجت على جنبها فى صمت ويداها ممدودتان والدم ينزّ من زاوية فمها .

أدركنا فى الحال ، نحن الاثنين ، انها فارقت الحياة ، لكن الخوف سمَّرنا هنالك نرنو اليها ، عاجزين عن النطق بحرف او كلمة . واندفع ساشا اخيرا خارج المطهى ، اما انا فضغطت نفسى على زجاج النافذة لا ادرى ما افعل ، مقابل ضوء الشارع بالذات . وقدم المعلم ، وقعد القرفصاء الى جانبها قلقا مرتبكا . ثم لمس وجهها ، وقال :

– لقد ماتت حقا . ما رأيك فى هذا ؟

والتفت جهة الايقونة الصغيرة لنيقولاى صانع المعجزات ، الموضوعة فى زاوية الايقونات ، ثم عجل يرسم اشارة الصليب . وما انتهت صلاته زعق عبر الممر :

– كاشرين ، طِرْ وخبِّر الشرطة !

جاء احد رجال الشرطة ، وراوح فى مكانه متثاقلا ، قبض بقشيشا ، ثم ذهب . وما اسرع ان رجع يصحبه سائق عربة ، حملا الطاهية من رأسها وقدميها ، ونقلاها الى الخارج . وكانت زوج المعلم تختلس النظر من فرجة الباب .

امرتنى :
– افرك الارض جيدا !
واعلن المعلم :
– حمداً لله انها ماتت مساء .
ولم افهم لم حمد الله على ذلك . . .
حين أوينا الى الفراش نبر ساشا فى رقة غير معهودة منه :
– لا تطفئ النور .
– أخائف أنت ؟

غطى رأسه باللحاف وجنح الى الصمت فترة طويلة . كان الليل ، هو الآخر ، وادعا صامتا فكأنه القى السمع الى شىء ما ، ينتظر شيئا ما . وصوّر لى ان رنين اجراس عديدة سيجلجل فى اللحظة التالية ، وان اهل البلدة سيهبون ويتدافعون وهم يصيحون ويزعقون فى حميا من الخوف والهلع .

اقترح علىّ ساشا فى لطف ، وقد اخرج انفه من تحت اللحاف :
– فلنضطجع جنبا الى جنب على الموقد .
– الحرارة شديدة على الموقد .
فغرق فى السكون من جديد . . .
قال أخيرا :
– أفلم ترحل عنا فجأة ؟ لقد حسبتها ساحرة . لست اتمكن من النوم .
– ولا انا .
وطفق يتحدث عن الاموات ، وكيف يخرجون من قبورهم

ويتجولون فى البلدة حتى ينتصف الليل ، باحثين عن دورهم واقربائهم .

همس قائلا :

– الموتى يتذكرون المدن فقط ، ولا يتذكرون الشوارع والبيوت .

وازدادت السكينة ، وتراءى أن الظلام يشتدُّ حلكــة . رفع ساشا رأسه ، وسأل :

– أتود رؤية ما يضمّ صندوقى ؟

كنت أتساءل ، منذ عهد بعيد ، عما يخبئ فى صندوقه . فهو يحتفظ به مقفولا على الدوام ولا يفتحــه الا باحتراس شديد وحيطة بالغة . واذا ما حاولت مرة ان القى نظرة خاطفة الى داخله كان يصيح بصوت فظ غليظ :

– قف ! عما تفتش ؟

اما الآن ، وقد اخبرته عن شوقى الزائد الى رؤية ذلك الصندوق ، فقد جلس على السرير دون ان ينزل قدميه منه ، وأمرنى على عادته بصوته الحازم ان اضعه عند قدميه على السرير . كان يحمل مفتاحه فى سلسلة تتدلى من عنقه مع صليب معموديته . وبعدما القى نظرة سريعة على عتمة المطهى الدكناء قطّب وجهه بوقار ، وفتح القفل ، ونفخ على الغطاء وكأنه حار محرق ، ومن ثم رفعه ، وسحب من جوف الصندوق بعض الملابس الداخلية .

كان الصندوق يمتلئ حتى نصفه بعلب الادوية الفارغة ، ورزم من ورق لف الشاى متعــدد الالوان ، وبعض علب السردين والبويا السوداء الفارغة .

– ما هذا كله ؟
– سترى .
ضغط الصندوق بين ساقيه وانحنى فوقه ، ثم رتّل بصوت هامس :
– أبانا الذى فى السموات . . .
أملت انى سأرى بعض الدمى : فانا لم املك دمى فى حياتى قط ، وبينا انا اعاملها باستخفاف واحتقار فى الظاهر كنت اضمر حسدا خفيا لكل من يقتنيها . وسررت لان ساشا يحتفظ ببعض الدمى رغماً عن هيئته الوقورة . من المؤكد انه يخبئها فى حياء ، ولقد قدرت خجله وحياءه .
فتح العلبة الاولى واخرج منها اطارا للنظارات . وضع الاطار على انفه ، ونظر اليّ بقسوة ، وقال :
– لا اهمية لفقدان زجاجها . فمن المفروض انهـــا دون زجاج .
– دعنى انظر من خلالها .
– انها لا تناسب عينيك . فهى للعيون السود ، وليست للعيون الصافية مثل عينيك .
شرح لى هذا وفى صوته نغمة من يقرر واقعا مفروغـــا منه ، ورن هذا الصوت عاليا بصورة غير متوقعة بحيث أجال نظرات خائفة فى ارجاء المطهى .
كانت احدى علب البويا السوداء تحوى مجموعة مـــن الازرار .
تبجّح قائلا :

– جمعتها من الشارع ، جمعتها كلها بنفسى . سبعة وثلاثون زرا .

وكانت العلبة الثالثة تضم بعض الدبابيس النحاسية الكبيرة عثر عليها فى الشارع ايضا – وثمة كمية من مسامير الاحذية – بعضها مهترئة وبعضها مكسورة ، وبعضها الآخر لا تزال سليمة ؛ وعدد من البزيمات ؛ وقبضة باب نحاسية ؛ وكرة من العاج ؛ ومشط نسائى ؛ وكتاب «تفسير الأحلام وفاتح البخت» ؛ واشياء اخرى ذات قيمة مماثلة .

كان فى مقدورى ان اجمع ، حين كنت افتش فى الشوارع عن الخروق المهترئة والعظام الملقية ، عشرة اضعاف مثل هذه النفايات فى شهر واحد . وصبت ثروة ساشا وممتلكاته فى نفسى خيبة أمل ، وقنوطا ، ورثاء له . كان يتفحص كل قطعة بانتباه وتدقيق ، ويربت باصابعه عليها بحب وحنان ، وقد تغضنت شفتاه الكثيفتان ، وتألقت عيناه النافرتان بالعطف والحنو . لكن نظارتيه اسبغتا على وجهه الصبيانى هيئة مضحكة .

– ماذا تريد ان تفعل بهذا المتاع ؟

فراش الىّ نظرة خاطفة انفذها عبر اطار نظارتيه ، وقال بصوت متكسر :

– اتريدنى ان اهب لك شيئا منها ؟

– كلا ، شكرا .

اسكت برهة ، وقد جرح رفضى وعدم اهتمامى بكنزه عواطفه على ما يظهر .

اقترح علىّ قائلا :

– خذ منشفة وسننظف هذه الاشياء جميعا ، فقد تراكم عليها الغبار .

وما ان تم تنظيفها وأعدناها الى امكنتها حتى تدحرج على جنبه وقد ادار وجهه شطر الحائط . كانت السماء قد انثالت تمطر ، والريح تضرب بعنف على النافذة .

خاطبني من غير ان يستدير الي :

–رويدا حتى تجف الارض فى الحديقة ، وسأطلعك على شيء يبهر أنفاسك .

وزحفت الى السرير صامتا لا اجيبه .

لم تمض بضع هنيهات حتى قفز فجأة ، وهبّ يخدش الحائط ، ثم نبر فى صوت دلنى تماما على مبلغ رعبه وهلعه :

– انا خائف . . آه ، يا الله ، لكم انا خائف ! يارب ارحمنى !

ودبت فى جسدى ، انا الآخر ، رعشة هلع باردة . وتراءى لى ان الطاهية تقف الى النافذة وقد أولتنى ظهرها ، تضغط جبهتها على زجاجها كما اعتادت ان تفعل دائما عندما تراقب قتال الديكة .

وجعل ساشا ينشـــج ، وهو لا يبرح يخدش الجدار ، وساقاه تهتزان بحركات تشنجية . وانطلقت عبر ارض المطهى وكأنما اجتاز حقلا من الجمر اللاهب المتأجج ، ثم تكوّمت الى جانبه .

بكينا حتى نال منا الاعياء فلجأنا الى النوم .

بعيد عدة ايام اطل علينا عيد لم نعمل فيه الا قبيـــل الظهر ، فعدنا ادراجنا الى البيت للغداء . وبعدما أوى المعلم وزوجه للقيلولة توجه ساشا الىّ خفية وقال :

– تعال معى !
حزرت انه فى سبيل اصطحابى لرؤية ذلك الشيء الذى سيبهر انفاسى .
هبطنا الى الحديقة . كان ثمة مجموعة من اشجار الزيزفون يتراوح عددها بين عشر وخمس عشرة شجرة عتيقة تنتصب فى بقعة ضيقة من الارض تمتد بين دارين ، جذوعها القوية مثقلة بالحشيش ، واغصانها العارية السود تتطاول معدومة الحياة شطر السماء . لم تكن الانظار تقع على عش غراب واحد بين هذه الاغصان ، فتلك الاشجار تنتصب مثل انصاب أضرحة عملاقة . ولم يكن هناك شيء غير هذه الاشجار – لا دغل ، ولا اعشاب . . . اما ارض الممرات فمتماسكة قويـــة سوداء كالحديد . وأيان استبانت ثغرات من التربة تحت الاوراق المتعفنة للسنة المنصرمة تكون متوجة بعفونة تشبـــه الماء الآسن فى المستنقعات .
استدار ساشا حول زاويـــة البيت ، ووجهه نحو سور الشارع ، ثم توقف تحت احدى شجرات الزيزفون ، وجمد هنالك برهة يحدّق فى نوافذ البيت المجاور القذرة . تقرفص ، وشرع يزيح كومة الأوراق بيديه ، كاشفا عن جذع سميك معوج وقرميدتين غارقتين فى الارض الى جانبـــه . وانتزع القرميدتين فاذا صفيحة من قصدير السطوح منشورة تحتهما ، وتحت تلك الصفيحة قطعـــة خشب مربعـــة وفى النهايـــة حفرة عريضة غائرة تحت جذع الشجرة .
تناول ساشا عود ثقاب وأشعل بقايا شمعة دسها فى تلك الحفرة ، وقال :

- أنظر . لكن ، لا تخف . . .

كان الخوف مرتسما على محياه بكل وضوح ، فالشمعة تهتز فى يده ، وهو أصفر اللون شفتـــاه مترهلتان بصورة قبيحة ، وعيناه مخضلتان ، وقد اخفى يده الطليقة خلســة وراء ظهره . وتسربت عدوى خوفــه الىّ ، فرنوت بأقصى احتراس الى ما تحت الجذع الذى يشكل قوسا لكهف صغير ، بينا أشعل ساشا ثلاث شمعات ملأت الكوة بضوء ازرق . كان الكهف عميقا عمق جردل عادى ، لكنه اعرض منه ، وجدرانه مرصعة بقطع من الزجاج الملون والفخار . وفى الوسط أكمة صغيرة مغطاة بقطعة من قماش احمر اللون عليها نعش صغير مصنوع من الخشب المكسو برقائق القصدير ، نصف مغطى بقصاصة من القماش تشبه النسيج الحريرى . وكانت تبرز من تحت هذا الغطاء مخالب رماديـــة لعصفور دورى ومنقاره الصغير ، فيما قام خلف النعش منبر يحمل صليب معمودية نحاسيا صغيرا ، تحترق على جوانبه الثلاثة بقايا الشمعات فى شمعدانات مزينة بورق ذهبى وفضى مما يستعمـــل لتغليف السكاكر والحلويات .

كان لهب الشمعات المتطاول يتجه نحو فوهة الكهف الذى يبرق داخله ، بغموض ، شرارات ولطخ مضيئـــــة متعددة الالوان . وهبّت على وجهى رائحة التربة والشمــــع الحار والعفونة فى امواج متلاحقة ، بينا وثبت الوان قوس قزح مكسر ترتعش امام عينى . وأثار هذا كله فىّ شعورا بالدهشة بدد خوفى وأخمده .

استوضح ساشا :

- أليس هذا جميلا ؟

– وما فائدته ؟

فأوضح لى :

– انه حَرَمٌ . أفلا يبدو كذلك ؟

– لست أدرى .

– العصفور الدورى يمثل الجسد . ولربما أضحى جثمانه ذخيرة مقدسة بمعجزة ، باعتبار انه قضى ضحية بريئة !

– أعثرت عليه ميتا ؟

– كلا ، فقد دخل السقيفة ، فاصطدته بقبعتى وخنقته .

– لم فعلت ذلك ؟

– هذا ما حصل .

وحملق فى عينى ، واستفسر من جديد :

– أليس هذا رائعا ؟

– كلا !

فانحنى على الكهف ، وسده على عجل بالقطعة الخشبية المربعة ، وقطعة الحديد ، واعاد القرميدتين الى موضعيهما ، ثم نهض واقفا ، ونثر التراب عن ركبتيه ، وقال بصوت جاف :

– لِمَ لمْ يرقك ذلك ؟

– لانى اشفق على العصفور الدورى .

فثبت فى نظرة عقيمة فكأنه فقد البصر على حين فجأة ، ثم ضربنى على صدرى ، ونبر صائحا :

– أحمق ! انت غيران فقط – ولذا زعمت ان ذاك لم يرقك . لعلك تعتقد انك رتبت الامور بصورة اجمل فى حديقتك ، هناك فى شارع الكاناتنايا ؟

فأجبت دونما تردد ، وقد تذكرت المخبأ الذى صنعته لنفسى :

– لقد كان الامر كذلك بكل تأكيد .

فخلع ساشا معطفه ، وألقاه ارضا ، ثم رفع كميه ، وبصق فى راحتيه ، وجهر :

– حسنا اذن ، فلنتقاتل !

لم تكن بى رغبة فى القتال . لقد اضجرنى ذلك كله ، فما عدت اطيق رؤية وجه ابن خالى الثائر الغضبان .

هجم علىّ ورمانى ارضا بعد ان نطحنى على صدرى ، ومن ثم جثم على اضلاعى ، وصاح :

– الحياة ام الموت ؟

كنت أقوى منه ، وقد هاج غضبى تماما الآن . ولم تمض دقيقة حتى كان متهالكا على وجهه يشخر ويخور ، ويداه فوق رأسه . حاولت انهاضه وقد داخلنى قلق شديد ، لكنه دفعنى عنه بيديه ورجليه ، فلم يفعل ذلك سوى مضاعفة قلقى . وابتعدت عنه لا ادرى ماذا افعل . فرفع رأسه وقال :

– تظن انك غلبتنى ؟ سأبقى مطروحا هكذا حتى يجدنى المعلم ، وسأخبره اذ ذاك بكل شىء فيطردك .

جعل يسب ويهدد ، الامر الذى أثار جنونى ، فطرت الى الكهف ، وانتزعت القرميدتين ، ورميت النعش والعصفور من فوق السور ، ونبشت الحفرة ، ثم وطئتها بقدمى .

– اليك ! اليك ! أرأيت هذا ؟

كان رد فعل ساشا على غضبى عجيبا حقا . قعد على الارض وفمه نصف مفتوح ، وحاجباه مقوسان ، يرمقنى دون ان

ينبس بكلمة . ولما انتهيت من فعلتى نهض على مهلته ، ونفض الغبار عنه ، ورمى معطفه على كتفيه ، وقال وفى صوته وعيد هادئ :

– لسوف ترى ما سيحدث . رويدك فقط . فعلت هذا خصيصا من اجلك ، انه سحر ! ولقد تم الآن !

فتدهورت كأنما حصدتنى كلماته ، وسَرَتْ فى أطرافى قشعريرة باردة كالجليد . ابتعد عنى دون أن يتكلف عناء النظر الى الخلف ، فحطمنى بروده تماما .

قررت ان افر صبيحة اليوم التالى من المدينة ، مــن المعلم ، من ساشا ومن سحره ، ومن تلك الحياة البليدة الموحشة .

وصاحت الطاهية الجديدة ، عندما اهبتنى من نومى فى بكور اليوم التالى :

– يا الهى ! ماذا حل بوجهك ؟

فقلت فى نفسى ، وشعور من الهلاك يتملكنى :

«لقد بدأ السحر فعله !»

غير ان الطاهية انفجرت فى ثورة من الضحك عاتية . بحيث لم اتمالك نفسى عن الابتسام . وتطلعت فى مرآتها . كان وجهى ممرغا بطبقة كثيفة من الهباب .

سألت :

– أساشا من فعل ذلك ؟

فضحكت الطاهية :

– لعلى انا الذى فعلته .

انشأت انظف الاحذية . وما كدت ادخل يدى الى احدها حتى وخزنى دبوس ، فقلت فى نفسى :

«وهذا ايضا من عمل السحر !»

كانت الدبابيس والابر مخبأة فى جميع الاحذية ، وباحكام ومهارة فائقتين بحيث لا بد ان تغرز فى لحمى . واخذت جرة من الماء البارد وأهرقتها بسرور فائق على رأس الساحر الذى كان يغطّ فى نومه بعد ، او يتظاهر بالنوم .

لكنى لم أبرح شقيا مع ذلك . لم اكن استطيع ان اتخلص من رؤيا النعش الذى يضمّ عصفور الدورى ومخالبه الرمادية الملتوية ومنقاره الكئيب الصغير المشمع ، بينما يتضوأ ما حوله بنور متباين الالوان يلوح انه يحاول ، عبثا ، التجمع على شكل قوس قزح . واتسع النعش ، وكبرت مخالب العصفور ، وراحت تنمو وتنمو ، ثم نبضت فيها الحياة .

عزمت على الهرب فى العشية . لكن فيما انا اسخن الحساء على الفرن قبيل الغداء غرقتُ فى بحران من الاحلام والتصورات ، وتركت الحساء يغلى كثيرا . وفى حميا مبادرتى لاطفاء النار قلبت القدر على يديّ فأرسلونى الى المستشفى .

وانى لاذكر كابوس ذلك المستشفى . ان صورا ترتدى اكفانا رمادية وبيضاء تحتشد وتهمهم وتئن فى ذلك الخلاء الاصفر المترجرج ، كما ان رجلا عملاقا ، يستند الى عكازين ، له حاجبان كالشاربين ، لا يفتأ يهز لحيته السوداء الطويلة ويزمجر :

— لسوف أشكوك الى صاحب السيادة المطران !

ذكرتنى الاسرّة بالنعوش ، فالمرضى الذين يضطجعون

وانوفهم ممتدة نحو السقف يشبهون العصافير الدورية الميتة . والجدران الصفر تترنح ، والسقف ينتفخ كالشراع ، والارض تتمايل فتؤرجح الاسرة الى الامام والخلف . كل شيء مرعب يائس ، بينا اغصان الاشجار العارية تتحرك خلف النوافذ كاسواط ترعصها يد خفية .

كانت جثة نحيلة حمراء الشعر ترقص فى فرجة الباب ، وهى تجر كفنها بذراعين صغيرتين وتزعق :

– لن اقبل احدا من مجانينكم !

فصاح الرجل ذو العكازين :

– صاحب السيادة المطران !

كان جدى وجدتى وكل انسان آخر يرددون دائما ان الناس يلقون مصرعهم فى المستشفى ، فقررت انا ان ايامى امست معدودة . وهذه امرأة ذات نظارتين – وهى الاخرى ترتدى كفنا – اقتربت منى وكتبت مالست ادرى بالحوّار على لوحة مثبتة عند رأس سريرى . وتكسر الحوّار ، وتساقطت قطعه على شعرى .

سألتنى :

– ما اسمك ؟

– لا اسم لى .

– لا اسم لك ؟

– كلا .

– كفاك هراء ، والا جُلِدْتَ .

ولأنى كنت على يقين من انهم سيجلدوننى رفضت اجابتها الى طلبها . هست كالقطة ، ثم اختفت متسللة كالهرة أيضا .

وأضيء قنديلان ، فتدلت كرتاهما الصفراوان من السقف كعينين فارغتين ، وراحتا تتذبذبان وتطرفان فكأنهما تسعيان الى الاتحاد . ابهر نورهما عيني ، فتألمتا .

قال احدهم من زاوية ما :

– هيا نلعب الورق .

– وكيف العب بيد واحدة ؟

– آها ، لقد قطعوا ذراعك اذن ، أليس كذلك ؟

توهمت فى الحال انهم قطعوا ذراعه لانه لعب الورق ، فرحت أتساءل ماذا سيفعلون بى قبل ان يقتلونى .

كانت يداى تحرقاننى وتؤلماننى ألما شديدا وكأن احدهم ينتش عظامهما . ورحت أبكى بصوت خفيض رعبا وألما ، مغلقا عينى بحيث لا يرى انسان دموعى ، ولكن الدموع انبثقت وتدحرجت على صدغى وفى أذنى .

وجاء الليل . فتمدد الجميع فى أسرتهم وخبأوا انفسهم تحت اغطية رمادية اللون ، وجثم السكون وطفق يزداد عمقا لحظة بعيد لحظة ، لا يقطعه الا صوت يدفّ من احدى الزوايا يتمتم :

– لن يؤدى ذلك الى اية نتيجة . فهو حيوان وهى حيوانة . . .

رغبت فى الكتابة الى جدتى التمس منها انقاذى ما دام ثمة متسع من الوقت بعد ، غير انى لا استطيع الكتابة بسبب من يدى ، ولانى لا املك ورقا . هل احاول ان اهرب من هنا ؟ هل انجح ام لا ؟

بدا لى ان الليل يطيل من جثومه كأن لا نهاية له . فطرحت

قدميّ بلطف على الارض واسرعت الى الباب المزدوج . كان نصفه مفتوحا ، فأبصرت على دكة فى الممشى تحت القنديل رأسا شائبة ، مشعثة الشعر ، يكللها الدخان ، عيناها السوداوان الغائرتان تحملقان فيّ . فلم اجد متسعا من الوقت للاختباء .

– من ذا يتجول هناك ؟ تعال هنا !

كان الصوت ناعم الرنة لا يوحى بالرعب مطلقا . فتابعت طريقى وتطلعت الى وجه مدور نبت شعره القصير . كان شعر رأسه الشعثاء اطول يتناثر فى جميع الاتجاهات مثل هالة من الفضة ، وسلسلة من المفاتيح تتدلى من حزامه . . . ولو كان له شعر ولحية أطول قليلا فقد كان يشبـــه القديس بطرس اذن الشبه كله .

– أأنت ذو اليدين المحروقتين ؟ فيم تجوالك فى عتمة الليل ؟ هذا مخالف للقواعد والأنظمة .

ونفخ سحابة من الدخان فى وجهى ، ثم لفنى بذراعـــه الدافئة ، وادنانى منه .

– أخائف انت ؟

– نعم .

– الجميع يخافون هنا لاول وهلة . لكن ليس هناك داع للخوف . وعلى الاخص معى ، فلن اترك احدا يصاب بأذية . أتريد ان تدخن؟ هذا حسن – فانت ما زلت صغيرا ، ولا حاجة بك الى ذلك –انتظر سنتين اخريين . أين أمك وأبوك ؟ لا أم لك ولا أب ؟ هذا حسن – لا حاجة بك اليهما . فستتدبر أمورك من دونهما . ما يهمّ هو الا يخيفك شيء . فاهم ؟

لقد انقضى زمن طويل لم اصادف فيه انسانا يتحدث بمثل هذه الكلمات البسيطة ، الودودة ، الواضحة ، وكان من دواعى غبطتى ان ارهف سمعى لما يقول .

عندما أعادنى الى سريرى رجوته :

– ابق معى برهة .

فاجاب :

– حسنا ، سأبقى .

– من أنت ؟

– جندى ، جندى حقيقى حارب فى القفقاس . ولقد خضت غمار معارك حقيقية . وهذا طبيعى . فالجندى يعيش ليخوض غمار المعارك . حاربت ضد الهنغاريين والشراكسة والبولونيين . الحرب ، يا أخى ، شر عظيم . . م .

اغلقت عينى برهة ، وحين فتحتهما القيت جدتى جالسة مكان ذلك الجندى مرتدية ثيابا داكنة ، وهو منتصب جوارها ، يقول :

– وهكذا مات الجميع ، ها ؟

أطلت الشمس البهية واختفت مثل طفل مرح ، وهى تصبغ كل شىء فى الغرفة باللون الذهبى ثم تختفى ، لتعود ادراجها من جديد بانفجارات اضوائها الباهرة .

انحنت جدتى علىّ تسألنى :

– ما الامر ، ياحمامتى ، هل آذوك ؟ لقد أخبرت ذلك الضبع الاحمر الرأس . . .

فقال الجندى ، وهو ينصرف :

– سأدبر كل شيء خلال هنيهات ، طبقا للانظمة والقوانين .

وقالت جدتي ، وهي تمسح الدموع عن وجنتيها :

– قد تبين ان هذا الجندى من بلدتنا بالاخنا . . .

فاعتصمت بالصمت ، معتقدا انى ما ازال سادرا فى بحر من الاحلام .

وقدم احد الاطباء وضمد يدى ، ثم رأيت نفسى وجدتى نجتاز شوارع المدينة فى عربة .

قالت :

– لقد فقد جدك رشده تماما وأمسى شديد البخل حتى ليثير الاشمئزاز . ولقد سرق السرّاج كليست – وهو صديق جديد له – ورقة من فئة المائة روبل من كتاب صلواته ، آه ، ياللضوضاء التى قامت وقتذاك ! او – و – وه !

كانت الشمس تتلألأ باشراق ، والسحب تطير مثل العصافير بيضاء طى السماء . واجتزنا الجسر الخشبى المار فوق الفولغا المتجلد حيث الجليد يطن ويموج . وكان الماء يطرطش تحت عوارض الجسر الخشبية . وثمة صلبان ذهبية تتضوأ فوق قبة كنيسة السوق الحمراء . والتقينا امرأة عريضة الوجه تحمل حزمة من قضبان الصفصاف القصيرة . ان الربيع على الابواب ! وسرعان ما سيحل عيد الفصح !

راح قلبى ينشد مثل قبّرة :

– لكم أحبّك ، ياجدتى !

فلم يدهشها ذلك .

قالت بكل بساطة :

– هذا طبيعى – فانت من اقربائى . لكننى استطيع ان اقول دونما ادعاء ان الغرباء يحبوننى ايضا ، فلتكن العذراء الطاهرة مباركة !

وتبسمت ، وأضافت :

– لسوف تغتبط سريعا – فابنهـــــا سيقوم من بين الاموات . اما ابنتى انا ، فاريوشا . . .

وجنحت الى الصمت . . .

٢

قابلنى جدى فى ساحة البيت حيث كان جاثيا يدبب عمودا بفاسه . رفع الفأس وكأنه يهم ان يضربنى على رأسى ، ثم نزع قبعته ، وقال بلهجة استهزاء واستخفاف :

– أهلا بكم بين ظهرانينا ، يا صاحب السعادة المبجَّل ! وهكذا انتهت خدمتك ؟ حسنا ، يمكنك الآن ان تعيش وفق ما يحلو لك . تفو !

فقاطعته جدتى في عجلة ملوّحة بيدها :

– نعرف هذا كله .

لما دخلنا الغرفة وبدأت تهيئ السماور التفتت الي ، وقالت :

– لقد افلس جدك تماما هذه المرة ! فقد اعطى كل ما لديه من مال لابنه فى المعمودية نيقولاى يستثمره لحسابه ، من دون ان يأخذ ايصالا بالمبلـــغ . لست ادرى ما حدث بالضبط ، لكنه فقد جميع ما يملك . طارت الاموال كلها . وما هذا الا لاننا لم نساعد الفقراء والمساكين ، لم نرحـــم

البؤساء ونشفق عليهم . وهكذا قال الله فى نفسه : «لماذا أرحم آل كاشرين هؤلاء ؟» . هذا ما حدّث نفسه به ، فأخذ منا كل شيء .

وتطلعت حواليها . وتابعت :

– وقد حاولت جهدى لاحنّن قلب الله قليلا ، بحيث لا يقسو كثيرا على الشيخ العجوز . وانا اخرج فى العشيات ، اوزع بعض الصدقات مما اكسبه ، نستطيع الذهاب معا هذه الليلة اذا شئت ، فلدىّ بعض المال .

ورَعَفَ الباب بجدى ، متجهّم الوجه كاسف الطلعة . قال :

– هل حصلتما على ما تملآن به معدتيكما ؟

فردت الجدة :

– لسنا نملأ معدتينا من اموالك . وتستطيع ، اذا شئت ان تجلس معنا . فثمة ما يكفينا .

جلس الى الطاولة ، وجمجم بوداعة :

– صبّى لى قدحا .

لم يتغير شيء فى الحجرة قط ، ما عدا زاوية أمى فهى مهجورة فارغة بصورة كئيبة ، وعلى الحائط فوق سرير جدى لُصقت قطعة من الورق كتب عليها بأحرف كبيرة تشبه حروفا مطبوعة : «خلّص ، أيها المسيح نفسى . . ولترافقنى رحمتك طوال أيام حياتى حتى ساعة وفاتى» .

– من كتب هذا ؟

فلم ينبس الجد بجواب ، بينا قالت جدتى مبتسمة بعيد هنيهة صمت :

– هذه الورقة تساوى مائة من الروبلات .
فزعق جدى :
– هذا لا يعنيك . ساعطى جميع ما املك للغرباء !
فردت جدتى بهدوء :
– لم يبق شيء تعطيه ، لقد ضننت باموالك عندما كانت لديك .
فجعر الجد :
– صمتا !
ان كل شيء مثلما ينبغى ان يكون – مثلما كان .
استفاق كوليا فى سلة الغسيل الموضوعة على صندوق فى الزاوية . ما كان نور عينيه الازرق يتميز من بعيد تحت حاجبيه الثقيلين الا بجهد فائق . لقد ازداد رقة وهزالا وغبنّة . لم يعرفنى ، بل استدار فى صمت وسكينة واغلق عينيه .
صادفتنى فى الشارع أخبار فاجعة : مات فياخير – «جرمه الجدرى» فى أسبوع الآلام . وانتقل خابى الى المدينة ، بينا فَقَدَ ياز القدرة على استخدام ساقيه فهو لا يستطيع براح الدار . وقال لى كوستروما الداكن العينين ، وهو يسرد على هذه الأنباء فى نبرة غاضبة :
– الاولاد يموتون سريعا !
– لم يمت غير فياخير .
– الأمر سيان . عندما يغادر الفتى الشارع يمكنك ان تعتبره ميتا . انت لا تكاد تتخذ لك أصدقاء ، وتشرع فى مؤالفة واحد منهم ، حتى يرسلوا به الى عمل ما او يطوى

الموت عمره . وقد سكن مستأجرون جدد فى ساحتك عند شيسنوكوف – انهم آل ييفسيينكو . وعندهم صبى اسمه نوشكا ، انه صبى طيب شديد الحذق ، وابنتان ، الواحدة صغيرة والاخرى عرجاء تسير على عكازين . وهى جميلة .

واضاف ، بعد فترة تفكير :

– لقد وقعنا انا وشوركا فى غرامها . ونحن نتخاصم طوال الوقت .

– معها ؟

– بالطبع لا . فيما بيننا . وقلما نتخاصم معها .

كنت اعرف ، طبعا ، ان الصبية الكبار وحتى الرجال البالغين يقعون فى الغرام . وكنت اعرف معنى الحب القاسى . لكننى تأثرت الآن ، واحسست بالاسف من اجل كوستروما الذى كانت رؤية جسده المتعظّم وعينيه السوداوين الكامدتين تبعث الخجل فى نفسى .

ورأيت الفتاة العرجاء فى ذلك المساء عينه . كانت تهبط السلم فى الساحة فسقطت عكازتها منها . وقفت هنالك عاجزة لا قدرة لها ، ضعيفة نحيفة القوام ، متشبثة بالدرابزون باصابعها الرقيقة . وحاولت التقاط العكاز ، لكن ضمادات يدى عصتنى ، فظللت الغط فترة طويلة حانقا مغتاظا فى حين انتصبت هى فى اعلى الدرجات تضحك فى رقة ولطف .

سألتنى :

– ماذا اصاب يديك ؟

– حرقتهما .

– وانا عرجاء . هل تقطن فى ساحتنا ؟ هل قضيت زمنا طويلا فى المستشفى ؟ انا قضيت فيه زمنا طويلا .

واضافت ، مصعّدة زفرة اخرى :

– زمنا طويلا هائلا .

كانت تلبس ثوبا أبيض قديما ، لكنه نظيف ، ومرصع بحدوات فرس زرق ، وكان شعرها المسرح ناعما يتدلى على صدرها فى جديلة قصيرة كثيفـــــة ؛ وكانت عيناها كبيرتين حزينتين تضيء فى اعماقهما الوادعة نار زرقاء تنير طلعة ضيقة شاحبة ، وكانت ابتسامتها حلوة عذبة ، لكنها لم ترقنى . ان كل كيانها المريض المدنف يكاد ان يقول :

«لا تلمسنى ، ارجوك !»

كيف استطاع رفيقاى وقوعا فى غرامها ؟

اخبرتنى بحزم ، وفى نغمـــــة صوتها شعلات من الفخر والكبرياء :

– انا مريضة منذ زمن طويـــــل . سحرتنى جارة لنا تشاجرت مع امى وسحرتنى كى تغيظها . اكانت اقامتك فى المستشفى مزعجة ؟

– نعم .

شعرت بالارتباك فى حضورها ، فعدت ادراجى الى البيت .

ايقظتنى جدتى بلطف حوالى منتصف الليل .

– هل نذهب ؟ اذا صنعت خيرا للاخرين فتبـــرأ يداك بسرعة .

امسكتنى من ذراعى وقادتنى خلال العتمة وكأننى أعمى . كان الليل قاتما رطبا ، والريح تعصف بثبات مثل نهر سريع

الجريان ، والرمل البارد يجلد اقدامنا . وكانت جدتى تقترب باحتراس من نوافذ بيوت الفقراء الفاحمة السواد ، وترسم اشارة الصليب ثلاث مرات على صدرها ، وتضـــع خمســـة كوبيكات وثلاث قطع من البسكوت على حافة النافذة ، ثم ترسم اشارة الصليب من جديد ، وعيناهــــا محلقتان الى السماء الخالية من مصابيح الدجى ، وتهمس :

– يا ملكة السموات الطاهرة ساعدى جميـــع الناس ، فنحن جمعيا خطأة امام عينيك ، ايتها الأم المباركة !

كانت الظلمة تتكاثف فحمة والاشياء التى حولنا تقفر اكثر فاكثر كلما اوغلنا فى بعدنا عن البيت . وكان يلوح ان القمر والنجوم ابتلعتها جميعا منذ الازل اعماق سماء الليل العميقة المهوى . وهب كلب من مجثمه وانتصب ينبحنا ، وعيناه تقدحان شررا فى العتمة الغلوس . فتعلقت بجدتى خائفا مرتجفا .

قالت :

– لا تخف . ما هذا غير كلب . لقد فات أوان الشيطان – فقد صاحت الديكة .

ونادت الكلب ، وربتت على رأسه ، وقالت :

– والآن ، ايها الكلب الصغير لا تخف حفيدى !

فاندسّ الكلب بين ساقى ومضى ثلاثتنا . كانت جدتى قد اقتربت من اثنتى عشرة نافذة وتركت على حفافها تلـــك «الصدقة الهادئة» . والتمعت السماء . فتبلجّت بيوت رمادية اللون من قلب العتمة ، وغدا برج اجراس كنيسة نابولنايا

ناصع البياض كالسكر ، وجدار المقبرة القرميدى يشف ويشف كأنه سور من الأغصان .

قالت جدتى :

– لقد تعبت جدتك العجوز ، وحان وقت العودة الى البيت . حينما تستيقظ النسوة من سباتهن فى الصباح الباكر سيجدون ان العذراء المباركة تركت لصغارهن شيئا من المال والبسكويت . الفقراء يسعدهم حتى القليل البخس فيرحبون به . أواه لو تعلم ، يا أليوشا ، أن عددا وافرا من الفقراء المساكين يعيشون على وجه البسيطة ، وليس من يلتفت اليهم او يوليهم شيئا من عنايته ورحمته .

الرجل الغنى لا يفكر فى الله ابدا ،
ولا فى يوم الدينونة ، او الكلمة المقدسة !
وقلبه بارد حيال الفقير المسكين ،
فكل اهتمامه منصرف الى الحصول على الذهب
انه سيحترق فوق جمر من الذهب
فى اعمق اعماق جهنم !

– وا أسفاه ! ان واجبنا ان نعيش متعاضدين نعنى ببعضنا بعضا ، بينما الله يعنى بنا جميعا . لكنى سعيدة لانك الى جانبى من جديد .

كنت انا الآخر سعيدا بطريقة هادئة ، احسُّ بغموض اننى احتككت بشىء لن انساه قط . وكان الكلب البنى ذو الوجه الثعلبى والعينين اللطيفتين المعتذرتين يكردح الى جانبى .

– هل سيحيا معنا ؟

– لم لا ؟ اذا اراد ذلك ! اليك ، سأعطيه قطعة من البسكوت – فما يبرح لدى الا قطعتان . فلنجلس على هذه الدكة برهة . يلوح اننى تعبة منهكة القوى نوعا ما .

اقتعدنا دكة قريبة من بوابة عريضة ، وقبع الكلب عند أقدامنا يقضم قطعة البسكوت الجافة . وتحدثت جدتى :

– ثمة امرأة يهودية تعيش هنا ، ولها تسعة اولاد اصغر من بعضهم بعضا . سألتها مرة : كيف تعيشين ، ياموسييفنا ؟ فردت تقول : اعيش مع الهى ، وهل أستطيع عيشا خلاف هذا ؟

وسرعان ما بخبخت فى النوم محتميا بجسد جدتى الدافئ .

تدفقت الحياة ، من جديد ، سريعة مترعة . وكان المجرى العريض الفسيح لكل نهار جديد يفعم روحى بانطباعات تخلبنى ، او تقلقنى ، او تشلنى ، او تحملنى على التأمل والتفكير .

وما اسرع ان عجت بصدرى ، انا الآخر ، رغبة عارمة فى رؤية تلك الفتاة العرجاء ما وجدت الى ذلك سبيلا ، والتحدث معها ، او الجلوس الى قربها بكل بساطة صامتا أبكم على الدكة قرب البوابة . كان حتى القعود بسكون فى حضورها امرا يبعث على الغبطة . كانت نظيفة كالطير ، تجيد بصورة رائعة وصف حياة القوزاق على ضفاف نهر الدون ، حيث عاشت فترة طويلة من الزمن مع عمها الميكانيكى فى معمل للزبدة والالبان ، ثم انتقل والدها البرّاد الى نيجنى نوفجورود .

– ولى عم آخر يشتغل فى خدمة القيصر نفسه .

كان الاهلون القاطنون ذلك الشارع يخرجون جميعا من دورهـــم فى امسيات الاعياد . فيذهب الفتيان والفتيات الى المقبرة للنزهة وانشاد الاغانى ، ويسعى الرجال الى الحانات ، ولا يتخلف فى الشارع سوى النساء والاولاد . فتجلس النسوة على الدكك او على الرمل بكل بساطـــة الى جانب البوابات ، ويثرن ضجيجا صاخبا بخصامهن وثرثرتهن . ويلعب الصغار بالطابة او الاطارات او «الشارمازلو» * فى حين تمتدحهـــم امهاتهم على حذقهم وذكائهم ، او يسخرن منهم لبلادتهم . كان الشارع اذن صاخبا بصورة تصـــم الآذان ، مرحا بصورة لا تنسى . وكان وجود الكبار وانتباههم يثيرنـــا نحن الصغار ، فنلعب فى حيوية ومنافسة وحشيتين . ومهما انهمكنـــا فى لعبنا – كوستروما شوركا وانا – فمن المؤكد اننا نجد بعض الوقت نسرع فيه الى الفتاة العرجاء ونتفاخر بقوانا ومهارتنا .

– أرأيت كيف رميت الاوتاد الخمسة بضربة واحدة ، يا لودميلا ؟ – فتبتسم فى رقة ، وتهز رأسها .

كانت جماعتنا ، فيما سبق ، تحاول دائما ان تكون فى جانب واحد من اللعبة ، الا انى لاحظت الآونة ان شوركـــا وكوسترومـــا يفترقان فى معسكرين مختلفين ، ويتوسلان بمختلف الطرق للتنافس فى القوة والمهارة حتى درجة القتال والبكاء احيانا كثيرة . وقد تقاتلا ذات مرة بعنف عظيم اضطر معه الكبار الى التدخل بالقاء الماء عليهما وكأنهمـــا كلبان يتشاجران .

---

* اللعبة المفضلة عند اولاد نيجنى نوفغورود فى فترة طفولة غوركى . وتتطلب قواعدها ايقاع الكرة فى حفرة خاصة . **الناشر** .

كانت لودميلا ، الجالسة على الدكة ، تضرب الارض بقدمها السليمة ، وكلما اقترب المقاتلان منها تدفعهما بعكازهـــا وتصرخ خائفة :

– كفى !

امتقع وجهها وغامت عيناها وشخصتا فكأنها على وشك الغيبوبة .

ذات مرة ، بعدما خسر كوستروما لعبة بشكل مخجل مشين ربحها شوركا ، مضى فاختبأ خلف صندوق للشوفان قرب دكان بقال مجاور وطفق ينوح فى صمت وسكينة . ذلك كان مشهدا يبعث على الهلع . فقد جعل يكزّ باسنانه حتى انتفخت عضلات حنكه ، وأمسى وجهه الرقيق يشبه الحجر الصلد ، بينا راحت دموع غزار تتدحرج من عينيه السوداوين الكئيبتين . ولما حاولت التخفيف عنه ومؤاساته همس والدموع تسيل مـــن عينيه :

– رويدك فقط . سأقذفه بقرميدة على رأسه . سترى !

اتخذ شوركا هيئة التعجرف والكبرياء . وأنشأ يختال فى وسط الشارع مثلما يفعل طالبو الزواج من الشباب ، قبعته على جانب رأسه ويداه فى جيبيه .

قال لى ، مظهرا آخر مفاخره بالبصاق من بين اسنانه :

– ساشرع فى التدخين عما قريب . لقد جربت ذلـــك مرتين ، لكنه لما يبرح يمرضنى .

ضايقنى هذا كله وكدّرنى . فانا ادرك انى بدأت افقد رفيقي ، والسبب فى ذلك لودميلا وحدها .

وذات مساء ، وكنت فى الساحـــة افرز العظام والخرق

والفضلات الاخرى التى جمعتها ، جاءت لودميلا ووقفت امامى وهى تؤرجح عكازتها ، وتلوّح بيدها اليمنى .

هزّت رأسها ثلاث مرات ، وقالت :

– مرحبا ، هل ذهب كوستروما معك ؟

– نعم .

– وشوركا ؟

– لم يعد شوركا يلعب معنا ابدا . وانت المسؤولة عن ذلك كله . فقد وقعا فى هواك ، وهذا ما يدفعهما الى الشجار .

فأحمرّ وجهها ، لكنها اجابت مازحة :

– لا تقل هذا ! ولم اكون مسؤولة ؟

– لم دفعتهما الى الهيام بك ؟

فردت غاضبة :

– لم أطلب منهما ذلك . – ثم اردفت ، وهى تنصرف :

– هذا هراء كله ! فانا اكبر منهما سنا . انا فى الرابعة عشرة من عمرى . والفتيان لا يغرمون بفتيات يكبرنهم سنا .

فصحت ، متعمدا اغضابها :

– حقا ! ألا انظرى الى صاحبة المتجر ، أخت كليست – فهى كبيرة بالفعل ، ومع ذلك فالصبية يلاحقونها !

فغاصت عكاز لودميلا عميقا فى الرمال وهى تستدير بعنف لتواجهنى .

قالت بسرعة ، والدموع تملأ صوتها ، وعيناها الجميلتان تلتهبان :

– أنت لا تفقه شيئا ، فصاحبة المتجر امرأة ساقطة ، اما انا – أتظننى كذلك ؟ انا صغيرة بعد . ولا يجب ان يمسنى

احد او يقرصنى – الخ . . . لو قرأت الجزء الثانى من رواية «الكامشادالكا» ما نطقت بمثل هذه الاشياء !

مضت باكية . شعرت بالأسف من اجلها . ان كلماتها لتحوى فى الواقع شيئا من حقيقة لم ادركها بعد . لماذا يقرصها رفيقاى ؟ وانهما ليدعيان الحب لها !

فى الغداة اردت ان أكفر عن خطيئتى ، فابتعت بسبعة كوبيكات «سكر النبات» ، وكنت اعرف انه الصنف المفضل من الحلويات عند لودميلا ، وسألتها :

– اتريدين شيئا من هذا ؟

فقالت ، وهى تتصنع الغضب :

– اليك عنى . لست أريد صداقتك !

لكنها ماعتمت ان تناولت سكر النبات ، واعلنت :

– كان ينبغى ان تلفها بورقة على الاقل . أنظر قذارة يديك .

– غسلتهما فلم يتغير لونهما .

فتناولت يدى فى يدها الجافة الحارة ، وفحصتها :

– لقد شوهت يديك .

– اصابعك مثقبة انت الاخرى .

– هذا من تأثير الابرة . فانا اخيط كثيرا .

واقترحت عليّ بعيد لحظات ، وقد امعنت النظر حواليها :

– فلنختبئ فى بقعة ما ونقرأ «الكامشادالكا» . ما رأيك ؟

قضينا فترة طويلة حتى وجدنا المكان الملائم . وعزمنا اخيرا على اللجوء الى ممشى غرفة الغسيل . انه مظلم حقا ،

بيد اننا نستطيع الجلوس الى النافذة المطلة على فسحة مفروشة بالقش تقع بين العنبر ومذبح اللحم المجاور . نادرا ما كان القوم يؤمون تلك البقعة .

وهكذا جلست لودميلا الى النافذة ، وساقها المريضة ممددة على دكة ، والساق السليمة مستندة الى الارض ، وكتاب مهترئ يصافح وجهها ، تصب على جدولا من كلمات كئيبة غير مفهومة . لكنني تأثرت من تلك الكلمات . كان فى مقدوری ، من حيث جلست على الارض ، رؤية اللهبين الازرقين اللذين تحرقهما عيناها الصادقتان المتحركتان عبر صفحات الكتاب ، انهما تتخضلان بالعبرات احيانا ، فيرجف صوت الفتاة وهى تتلفظ بكلمات غير مألوفة فى تراكيب غير مفهومة . وتشبثت بهذه الكلمات وحاولت نظمها شعرا ، وانا اقلبها على سائر الوجوه ، الامر الذى حال بينى وبين متابعة حوادث الكتاب .

غفا كلبى على ركبتى . كنت أطلقت عليه لقب «الريح» لان له جسدا طويلا وشعرا مشعثا ، وهو سريع الجرى ينبح مثل ريح الخريف حين تعصف خلال المدخنة .

استوضحتنى الفتاة :

– أأنت مصغ ؟

فاومأت برأسى . وازداد هياجى لاضطراب تلك الكلمات ، وسيطرت علىّ رغبة جامحة فى رصفها من جديد على شكل كلمات اغنية ، حيث تكون كل كلمة نجمة براقة متلألئة .

وما انتشرت العتمة حتى اسقطت لودميلا يديها الشاحبتين الممسكتين بالكتاب .

سألت :

– أليس هذا رائعا ؟ اخبرتك انه سيكون رائعا .

كثر ترددنا بعد ذاك على تلك البقعة ، والجلوس فى الممر المؤدى الى غرفة الغسيل . وما كان اعظم غبطتى حين ألقت لودميلا عنها كتاب «الكامشادالكا» . ولم يك فى مقدورى ان اقول لها كلمة واحدة مما ضمت تلك القصة التى لانهاية لها – لانهاية لها لان ثمة جزءا ثالثا يتبع الجزء الثانى الذى بدأنا به ،و اخبرتنى لودميلا عن جزء رابع آخر .

كانت السعادة تغمرنا خاصة فى الايام الماطرة ، اذا لم يحدث وهطلت الامطار ايام السبت حين يكون الحمام مشغولا .

ليس من يغادر داره والمطر ينصبّ من السماء مدرارا ، وهكذا لا تقذف المصادفة انسانا يمر بناحيتنا الداكنة . وكانت لودميلا ترتجف هلعا من ان يكتشف الناس مخبئنا ذاك ويمسكون بنا منفردين .

سألتنى بصوت خافت :

– أتدرى ماذا يجول بخاطرهم وقتذاك ؟

كنت ادرى ، ولذا كنت اخشى ان يكتشف أمرنا . فنحن نمكث هنالك ساعات طويلة نتحدث ونتسامر ، فاسرد عليها احيانا حكايات جدتى ، بينا تروى لى هى اطرافا من حياة القوزاق على ضفاف نهر ميدفيديتزا .

كانت تتأوه :

– ما اجمل الحياة هناك ! انها لا تشبه الحياة هنا ! فهذا المكان للفقراء المتسولين فقط !

قررت ان اذهب الى هنالك عندما اكبر لامتع الطرف بنهر ميدفيديتزا .

وسرعان ما استغنينا عن الجلوس فى الممر المؤدى الى غرفة الحمام . فقد وجدت ام لودميلا عملا عند تاجر فراء ، وذهبت اختها الى المدرسة ، واشتغل اخوها فى مصنع للقرميد . وحينما يسوء الطقس كنت اذهب فاساعد الفتاة فى الطهى وتنظيف الغرفة والمطهى .

ضحكت :

– نحن نعيش كزوج وزوجة ، لكننا لا ننام معا . بل نحن نعيش حياة افضل ، فالازواج لايساعدون زوجاتهم .

واذا صدف ان توفر لى شيء من المال فانا ابتاع قليلا من الحلوى ، ونتناول الشاى معا ثم نبرد السماور بالماء البارد حتى لا تخمن والدة لودميلا الغضوب اننا سخناه .

كانت جدتى تجيء فتجلس معنا احيانا ، تطرز او تعمل بالابرة وتقص علينا اساطير مدهشة . وكلما مضى جدى الى المدينة تأتى لودميلا لزيارتنا ، وفى هذه المناسبات نحتفل دون ان نأبه لاى شيء فى هذا العالم .

كانت الجدة تقول :

– نحن نحيا حياة رائعة . اليس كذلك ؟ من يمنعنى من الاكل ان كان المال مالى ؟

وشجعتنا فى صداقتنا .

– ما احلى ان تتوطد الصداقة بين فتى وفتاة ! لكن ينبغى الا يرتكبا اية حماقة !

ثم شرحت لنا بطريقة غاية فى البساطة ما معنى ارتكاب

«تلك الحماقة» . كان فى كلماتها فتنة ، وكان فيهـا الهـام حقيقى ، فادركت تماما انه لا يجوز مس الورد حتى يزهـر كليا ، والا فهو لن يعبق بالشذا الارج ، ولن يحمـل ثمارا على الاطلاق .

لم تك بى رغبة فى ارتكاب «اية حماقة» ، لكن هذا لـم يمنعنا ، لودميلا وانا ، عن التحدث فى الامور التى يتجاوزهـا الناس عادة فى صمت وسكينة . وطبيعى اننا لم نتحدث عـن ذلك الا عند الضرورة ، لان العلاقات بين الجنسين كثيرا مـا كانت تهب امامنا باشنع شكل فتسبب لنا اعمق الألم .

وكان ييفسيينكو ، والد لودميلا ، رجلا جميلا فى حوالى الاربعين من العمر ، مجعد الشعر والسالفين ، كـث الحاجبين اللذين يرفعهما فى شيء من الخيلاء . كان صموتـا بصورة غريبة – فلا اذكر اننى سمعته يوما يتفوه بحرف قط . انـه يهمهم كالأبكم حين يداعب اولاده ، بل هو يضرب زوجته مـن غير ان يندى عن شفتيه كلمة واحدة .

كان يرتدى فى امسيات الاعياد قميصـا ازرق ، وسروالا من الخمل ، وحذاء لماعا ، ويتخذ سمته الى البوابة واكورديون ضخم يتأرجح مربوطا الى كتفه بقشاط من الجلد ، وهنالك يقف كالجندى الذى يؤدى تحية عسكرية وبندقيته فى يديه . ان المتنزهين سيمرون آجلا ببوابتنا ، فتتعاقب الفتيـات والنساء كالأوز يرمين نظرات مسترقة الى ييفسيينكو من تحت اهدابهن ، او يحملقن فيه صراحة بعيون جائعة ، بينا ينتصب هو وقد قوس شفته السفلى ، وعيناه الداكنتان ترمقانهـن بصورة انتقائية . كان ثمة شيء من الشهوانية بصورة منفرة

فى ذلك الاتصال الصامت بالاعين ، فى ذلك الموكب النسائى البطئ الذى يمر امام الذكر . وكان يتراءى ان اشارة آمرة منه سوف تجعل ايا منهن تتهاوى جاثية على رمال الشارع القذرة .

زمجرت أم لودميلا :

– يغمز لهن ، ذلك التيس ! ذلك الخنزير الوقح !

كانت تشبه مكنسة بالية – طويلة ناحلة ، ذات وجه طويل مبثر ، وشعر التقمه المقص خلال نوبة من التيفوس .

جلست لودميلا الى جانبها ، وهى تحاول عبثا ان تبعثر انتباهها بشتى الاسئلة .

جمجمت الأم ، وهى تطرف قلقة :

– دعينى وشأنى ، ايتها العرجاء الشقية .

كانت عيناها المنغوليتان الضيقتان شاحبتين ثابتتين بصورة غريبة ، وكأنهما وقعتا على شىء سمرهما فى قوة وجبروت .

قالت لودميلا :

– لا تغضبى ، يا أم . فلا فائدة ترجى من الغضب . انظرى الى ارملة صانع الحصر كيف بهرجت نفسها !

فردت أمها بصوت قاس تخنقه العبرات ، وهى ترمق الارملة الجسيمة :

– كنت البس افضل منها لولا ان كاهلى ينوء بثلاثتكم . لقد التهمتمونى – لقد ازدردتمونى .

اما الارملة فكانت تشبه بيتا صغيرا ، يبرز صدرها فيه الى الامام كالشرفة . ووجهها الاحمر ، المعصوب بمنديل اخضر

اللون ، يذكرنى بكوة صغيرة تلمع تحت ملاطفات أشعة الشمس الغاربة .

ارجح ييفسيينكو أكورديونه على صدره وأخذ يعزف . فاطلقت الآلة الموسيقية من صدرها الحانا ثرية تجتنب المرء وتجره الى امكنة مجهولة ،وهرع الاطفال من ارجاء الشارع وتساقطوا عند قدمى الموسيقى ، حيث تمددوا مبهورى الانفاس نشوة وهياما .

حذرته زوجته قائلة :

– رويدك قليلا ، فسيدق احدهم عنقك ولا ريب .

فرماها بنظرة جانبية شزرة من غير ان يجيب .

وجلست ارملة صانع الحصر على دكة تواجه مخزن كليست ، وأرهفت سمعها ، ورأسها محنية على كتفها ووجهها ملتهب .

شرع الحقل المترامى خلف المقبرة يغتسل بحمرة الشفق الوردية التى تنثرها الشمس المضياف . وراحت تنثال على الشارع ، كما فى تيار ، كتل بشرية كبيرة مزركشة الثياب تتراقص باقات من الاطفال حواليها . وكان الهواء نسيما . وهبت من الرمال التى لفحتها حرارة الشمس فبعثت الدفء فى حناياها زفرة مركبة تغلبت فيها الرائحة الدهنية الدبقة المنطلقة من المسالخ – رائحة الدم – بينما انطلقت من ساحات صانعى الجلود لذعة حادة من الجلود المدبوغة . اما ثرثرة النساء ، وزمجرات الرجال السكارى ، وصيحات الاطفال الحادة ، ودندنة الاكورديون الخفيضة ، فقد اختلطت جميعا فى ايقاع نابض هو تنهد الارض القوية الخصيبة . كان كل شىء

قاسيا عريان ، يثير ايمانا قويا فسيحا بتلك الحياة المظلمة ، الحيوانية دون خجل ، الباحثة بهوس عن منفذ لقوتها المتكبرة .

ومن قلب هذه الضجة العامة تنبثق كلمات غريبة بصورة مخصوصة تضرب اوتار القلب ، وتحتفر لها فى الذاكرة مكانا لا يمحى :

– لستم تستطيعون الانقضاض عليه جميعا على حين غرة – فليضربه كل واحد بدوره .

– من ذا يرحمنا ان لم نرحم انفسنا ؟

– يبدو ان الله خلق النساء لمجرد التسلية .

كان الليل قيب قوسين فزادت رطوبة الهواء ، وأخذت الضجة تهدأ ، وانتفخت البيوت الخشبية واتسعت وكأنها تتلفّع بالظلال والاخيلة ، واقتيد بعض الاطفال الى الدور للنوم ، بينا غاب الآخرون فى لفائف الكرى فى ظلال الاسوار ، او عند اقدام امهاتهم او فى احضانهن . وفى الليل يجنح الاطفال الكبار الى الهدوء والوداعة . واختفى ييفسيينكو حين لم يكن احد ينظر اليه وكأنه ذاب فابتلعته الارض ، واختفت ارملة صانع الحصر بدورها ، بينا دفدف الآن صوت الأكورديون العميق الاجش من بقعة ما بعيدا خلف المقبرة . وجلست أم لودميلا على المقعد وقد تكورت على بعضها ، وتقوس ظهرها حتى أشبه ظهر القطة . وانطلقت جدتى تصيب شيئا من الشاى مع القابلة القوّادة التى كانت جارة لنا – وهى امرأة ضخمة ، هزيلة اللحم ، لها منقار بطة موضع

الأنف ، يتدلى على صدرها المسطح الشبيه بصدر الرجل وسام «الانقاذ» الذهبي .

كان شارعنا بأسره يخافها ويرهب جانبها ويحسب انها ساحرة . ولقد قيل انها حملت مرة زوج الكولونيل المريضة واولاده الثلاثة وخرجت بهم من منزل يحترق .

كانت وجدتي صديقتين ودودتين . واذا التقتا في الشارع فهما تبتسمان لبعضهما بود مخصوص وهما على مسافة شاسعة بعد .

انضممت وكوستروما الى لودميلا وجلسنا على دكة قرب بوابتنا ، اما شوركا فقد دعا شقيق لودميلا الى القتال . وهما الآن يثيران الغبار وقد تماسكا بصورة عنيفة .

صاحت لودميلا في خوف :

– كفى !

كان كوستروما يقصّ ، وقد ثبت فيها نظرة جانبية اطلقها من عينيه السوداوين ، قصة الصياد كالينين ، وهو رجل عجوز شائب الشعر ، خبيث العينين ، سمعته السيئة معروفة في الحي بأسره . ولقد مات حديثا ، لكن كوستروما يقول انهم لم يدفنوا نعشه في رمال المقبرة ، بل تركوه على وجه الارض ، بعيدا عن بقية الأضرحة . كان النعش الاسود يرتكز على ارجل عالية ، ومطلي غطاؤه بلون ابيض ، ومرسوم عليه صليب ورمح وعصا ، وعظمتان .

ويروى ان الرجل الشيخ ينهض من نعشه كل ليلة ، ويتجول في المقبرة يفتش عن شيء ما حتى يطلق الديك صيحته الاولى .

رجته لودميلا :

– لا تتحدث عن هذه الاشياء المخيفة .

وصاح شوركا ، وهو يحرر نفسه من قبضة أخيهـــا :

– دعنى !

والتفت الى كوستروما ، وقال ساخرا :

– لم تكذب ! لقد رأيتهـــم يحفرون حفرة للنعش ، ويضعون فوق القبر تابوتا فارغا كشاهد للضريح اما قصة شبحه المتجول فى ارجاء المقبرة فى الليالى فهى من تلفيـــق الحدادين السكارى !

فاقترح كوستروما دون ان يلتفت اليه :

– اذهب واقض الليل فى المقبرة اذا كنت متأكدا مـــن هذا ؟

وبدءآ يتجادلان ، فاستدارت لودميلا الى أمها وقد هزت رأسها هزة كئيبة :

– أيتجول الاشباح فى الليل ، يا أماه ؟

فصادقت أمها ، وكأنها نوديت من مكان ناء :

– اجل ، انهم يفعلون ذلك .

وتدحرج فاليوك السمين ، ابن صاحبة المتجر الاحمـــر الوجنتين ، البالغ العشرين من العمر ، واصاخ بسمعـــه الى مناقشتنا ، ثم قال :

– سأعطى عشرين كوبيكا وعشر لفائف لمن يضطجـــع عند رأس النعش حتى الصباح ، اما اذا خاف فسأشد اذنيـــه كما يروم قلبى . حسنا ، ما رأيكم ؟

فجثم صمت مطبق ، حطمه صوت والدة لودميلا :

– يا للهراء ! لست تستطيع ان تطلب الى الصغار القيام بمثل هذا العمل !

فخنخن شوركا :

– اعطنى روبلا ، فافعل ذلك .

واستوضح كوستروما فى حقد :

– أتخاف ان تفعل ذلك بعشرين كوبيكا ؟ اعرض عليه روبلا ، يا فاليوك . فهو لن يذهب ابدا . انه يتبجح فقط .

– حسنا ، سأدفع روبلا !

ونهض شوركا عن الارض ، وخطا ببطء متجها صوب السور . فوضع كوستروما اصابعه فى فمه وارسل صفرة حادة ، فى حين نبرت لودميلا قلقة :

– يا الهى ، لم يتبجح هكذا ؟

وجهر فاليوك :

– حزمة من الجبناء . أفضل المقاتلين فى الشارع – هه ! جراء ، تلك هى حقيقتكم !

لمما يحز فى النفوس ان نتقبل اهانته . ولم نك نستلطف هذا الفتى الشحيم اللحيم ، فهو ابداً يحث الصغار على الاذية والضرر ، ويروى لهم اقاصيص شائنة قذرة عن الفتيات والنساء ، ويعلمهم السخرية منهن والهزء بهن . وكان الصغار يطيعون أوامره ، ويدفعون ثمنا لذلك غاليا . وكان يكره كلبى لسبب من الاسباب ، فيرميه بالحجارة على الدوام ، وقد القى اليه مرة قطعة من خبز غرز فيها ابرة خياطة .

لكنه مما يحز فى النفس اكثر من ذلك ايضا رؤية شوركا يبتعد بصورة مخزية .

قلت لفاليوك :

– اعطنى روبلا فاذهب انا .

فناول أم لودميلا روبلا ، وقد اطلق قهقهة يقصد منها اخافتى .

قالت ، وهى تبتعد فى غضب :

– كلا لا اريده ، ولن آخذه !

رفضت لودميلا بدورها تناول الروبل ، وهذا ما زاد فى سخرية فاليوك . وكنت اوشك ان امشى دون ان اطلب المال ، واذا جدتى تصل فى تلك اللحظة . ولما سمعت القصة بكاملها تناولت الروبل وقالت لى بهدوء :

– البس معطفك وخذ حرامك ، فالبرودة تشتد قرابة الصباح .

فملأتنى كلماتها املا ، واوحت الي انه لن يحدث أمر مخيف قط .

اشترط فاليوك ان اضطجع او اجلس على النعش حتى الصباح ، وابقى هنالك مهما حدث ، حتى ولو شرع النعش يتأرجح عند ما يتحرك كالينين العجوز ليخرج منه . فاذا قفزت عن النعش ، فانا خاسر الرهان اذن .

حذرنى فاليوك :

– انتبه ! فسأراقبك طيلة الليل !

عندما انطلقت الى المقبرة رسمت جدتى اشارة الصليب فوق رأسى ، ونصحتنى :

– اذا بدا لك شىء ، فلا تتحرك ولا تضطرب ، بل صل للعذراء .

مشيت بخطوات متدفعة ، متشوقا لبدء وانهاء ذلك العمل . وصحبني فاليوك ، وكوستروما ، وبعض الصبية الآخرين . وبينا انا اتسلق الحائط القرميدي علقت يدي بحرامي فسقطت ، ثم قفزت حالا فكأن الرمل لفظني . وتناهت الى اصداء الضحك تدف من جانب الحائط الآخر . واصطفق شيء في صدري ، وسرت رعشة باردة غدوا ورواحا في ظهري .

وصلت الى النعش الاسود متعثرا في خطواتي . كان غارقا في الرمل من احد جانبيه ، بينا برزت في الجانب الآخر الارجل القصيرة والغليظة ، فكأن أحدهم أراد رفعه من محله ولم يستطع . وجلست على حافة النعش وتطلعت حوالى : ان المقبرة المتكتلة غاصة بالصلبان الرمادية التي كانت خيالاتها المتضوئة اشبه باذرعة متعظمة تعانق الاضرحة المنبجسة . وهنا وهنالك بين الصلبان تنهض اشجار بتولا صغيرة هزيلة ، تشتبك اغصانها فوق القبور المنفردة . وكانت الاعشاب تنبثق من قلب الدنتلة التي ترسمها خيالاتها على الارض ، وكانت هذه الرثاثة الرمادية اعظم ما يبعث على الهلع . وكانت كنيسة المقبرة تنهض الى العلاء مثل بناء عملاق من قطع الثلج ، وقمر ناحل يلمع خلال السحب الخامدة الجامدة .

وقرع والد ياز الملقب «بالرجل المتعفن» ، جرس الحراسة بكسل وفتور . وكان الحبل يعلق كلما شد عليه بقطعة من حديد السقف ترسل أنينا كئيبا يتبعه رنين قصير جاف لجرس صغير .

وتذكرت قول الحارس :

«احفظنا يا ربّ من الليالى المؤرقة» .

كان الجو يبعث على الهلع ، وكان خانقا ايضا لسبب لست ادريه . وتفصدت عرقا رغم ان الليل بارد ورطب . أفأستطيع بلوغ كوخ الحارس اذا حاول كالينين العجوز الخروج من نعشه ؟

كنت أعرف المقبرة حق المعرفة ، فلكم لعبت وياز وبقية اصدقائى الآخرين بين قبورها . وهنالك ، قرب الكنيسة ، ترقد أمى فى ضريحها .

لم ينم الجميع بعد ، اذ تدفّ من الحى رشرشات من ضحك ، وشظايا من غناء . وفى مكان ما على التلال ، او فى جوار رمال السكة الحديدية ، او قريبا من قرية كاتيزوفكا ، كان أكورديون ينشج ويلهث . وهذا الحداد مياتشوف ، السكران بصورة متصلة ، يدب على طول الجانب الآخر من حائط المقبرة — لقد عرفته من اغنيته :

أمنا خبيثة جدا
حتى تتكبر علينا هكذا
انها تضطهد أولادها جميعا
ارضاء لوالدى

ان الاصغاء الى مثل هذه التنفسات الاخيرة للحياة يشدد من عزمى ، لكن الهدوء يزداد مع كل قرعة جرس ، فينبثق السكون كالنهر فوق المروج ، يغرق كل شىء ويمحوه . وكانت روحى هائمة فى فضاء غير محدود ، فى عدم عميق المهوى ،

تذوب بكليتها فى محيط فارغ حيث لا يحيا ويشع غير النجوم التى لا يقصيها البصر ، بعدما فنى كل شىء آخر — فهو ميت غير مرغوب فيه .

لففت نفسى جيدا بحرامى ، وجلست وقد ثنيت ساقى تحت جسدى قبالة الكنيسة . وكان النعش يزقزق والرمل يصر مع كل حركة تصدر عنى .

وصدم شيء ما الارض خلفى مرة ، ومن ثم مرة ثانية ، وبعد ذلك سقطت قطعة من القرميد قرب النعش . وتملكنى الرعب ، ولكن سرعان ما ادركت ان فاليوك واصدقاءه يقذفون هذه الاشياء فوق السور لاخافتى . وطمأننى جوارى لمخلوقات بشرية وهدأ من مخاوفى .

جعلت افكر فى والدتى . فاجأتنى مرة وانا احاول تدخين لفافتى الاولى ، فانهالت تضربنى ، فقلت لها :

— لا تلمسينى ، يكفينى ما احس به من ضيق . انى مريض .

وبعدما نلت جزائى من الجلد زحفت الى ما وراء الموقد ، وسمعتها تخاطب جدتى :

— ياله من صبى متحجر القلب ! انه لا يحب احدا على الاطلاق .

آلمنى ان اسمعها تقول ذلك . كنت ارثى لأمى واخجل عنها كلما عاقبتنى دون ذنب او سبب ، الامر الذى كان يحدث كثيرا .

ثمة امور عديدة فى هذه الحياة تبعث على الالم حقا ! ولنضرب مثلا هؤلاء الفتيان خلف الجدار ، فهم يعرفون جيدا

ان بقائى وحيدا فى هذه المقبرة يرسل الهلع فى قلبى ، ومع ذلك يحاولون ان يزيدوا من خوفى . لم ذلك ؟

كنت اريد ان ازعق بهم :

«امضوا الى الشيطان !»

لكن فى ذلك خطرا جسيما . من يدرى كيف ينظر الشيطان اذن الى مثل هذا الامر ؟ مما لاريب فيه انه الآن فى مكان ما ، قريبا جدا .

كانت الرمال غاصة بشظايا من الميكا تلتمع باكتئاب تحت ضوء القمر ، فتذكرنى بما حدث ذات يوم ، وكنت مستلقيا على عوامة على نهر الاوكا احملق فى الماء ، اذ انبثق فجأة سمك صغير امام عينى ، وانقلب على جنبه الواحد فأشبـــــه خداً بشرياً ، وراح يرمقنى بعينه المدورة الصغيرة التى تماثل عين العصفور قبل ان يغوص فى الاعماق من جديد متأرجحا كورقة قيقب ساقطة .

اضحت ذاكرتى نشيطة حتى درجة بعيدة ، تكدس حوادث مختلفة من حياتى فى حاجز يقف حجرة عثرة فى طريق مخيلتى ، هذه المخيلة الدائبة على ابتداع مختلف انواع الاهوال .

هذا قنفذ مثلا يقترب منى ، يخبّ على الرمل بمخالبـــــه الصغيرة الوطيدة ، فيجعلنى افكر فى العفاريت البيتية التى لا تكبره حجما ولا تختلف عنه قباحة .

ومر فى مخيلتى كيف كانت جدتى تقعد القرفصاء امـــام الموقد وتنشد :

– ايتها الشياطين الصغيرة الطيبة ، التهمى الصراصيـر وكليها . . .

وهذه السماء ، خلف المدينة البعيدة عن مرمى البصر ، قد بدأت تصفو ، ونسيم الصباح الباكر يقرص وجنتى ، وأهدابى تزداد ثقلا . فتكورت كالطابة وجررت الحرام فوق رأسى . الا فليحدث ما يمكن ان يحدث !

واهبتنى جدتى من النوم . كانت منتصبة الى جانبى تشدّ الحرام عنى وتقول :

– انهض ! هل انت بردان ؟ حسنا ، أكان ذلك مخيفا ؟

– اجل ، كان مخيفا ، لكن لا تخبرى احدا . ولا تتركى الآخرين يعرفون .

فاستفسرت فى شىء من الدهشة :

– ولم لا ؟ اذا لم يكن هنالك ما يخيفك ، فلن يبقى لك ما تفخر به .

رجعنا ادراجنا الى الدار ، فقالت بحنان فى الطريق :

– يجب أن تختبر كل شىء بنفسك ، يا عصفورى الصغير . يجب أن تتعلم كل شىء من تلقاء نفسك . واذا لم تكتشف الأمور من ذاتك فليس هناك من يعلمك اياها .

وعند العشية أمسيت «بطل»شارعنا . سألنى الجميع :

– أفلم يكن ذلك مخيفا ؟

واذ اجيب : «اجل ، كان مخيفا !» ، فهم يهزون رؤوسهم ويقولون : «هذا ما قلناه لك !»

وأعلنت صاحبة المتجر فى ثقة عالية :

– اذن فقد كذب من قال ان كالينين ينهض من قبره . لو انه نهض لما كان بوسع الصبى ان يخيفه . لقد كان

يطوح به خارج المقبرة بضربة واحدة من يده ، والسماوات وحدها تعرف اين كان سيصل .

شخصت الىّ لودميلا باعجاب ودى . وبدا لى ان جدى نفسه سرّ ايما سرور ، فقد ظل يكشر فى وجهى . اما شوركا فقال مغموما :

– ذلك سهل بالنسبة اليه – فجدته ساحرة !

٣

ذبل أخى كوليا بصورة غير واضحة مثل نجمة فى ضوء الفجر . وكنا ، هو وجدتى وانا ، ننام فى عنبر صغير على أكوام من الخشب تغطيها اسمال مهترئة . وفى الجانب الآخر من جدار رقيق كان صاحب المنزل يحفظ دجاجاته . وكنا نسمع فى كل عشية اصوات الدجاجات الشبعى وهى تنتفض وتضرب أجنحتها ، بينما يوقظنا كل صباح صياح تبعثه حنجرة قوية لديك ذهبى .

كانت جدتى تجمجم كل صباح ، وهى تهب من نومها :

– كان يجب ان يقطعوا رأسك !

استيقظت بدورى ، وقعدت اراقب الشمس تنسل عبر شقوق الجدار ، وذرات الغبار الفضية تتراقص وسط اشعتها مثلما تتراقص الكلمات فى أساطير الجان والقصص الخرافية . وهبت الفئران تقرقع بين أكوام الحطب ، وراحت

حشرات صغيرة حمراوية اللون ذات اجنحة سود منقطة تراوح وتغادى هنا وهنالك .

وكنت ازحف احيانا خارج العنبر هاربا من روائح روث الدجاج الخانقة ، واتسلق حتى السطح ، ومن هنالك اجلس اراقب الجيران يستيقظون — ضخام الجثة ، عميان ، نفخهم النوم نفخا .

ان رأس البحار فرمانوف المتلبِّد ، هذا السكير الفظ ، تبرز من احدى النوافذ ويدير عينيه المنتفختين جهة الشمس ويقبع كالخنزير . ويركض جدى الى الساحة وهو يلمس شعره الاحمر القصير بكلتا يديه . انه يسرع الى الحمام للاغتسال بالماء البارد . وكانت طاهية صاحب المنزل الثرثارة تشبه طائر الوقوق بانفها الحاد ووجهها المبرقع بالنمش . اما صاحب الدار نفسه فيشبه حمامة سمينة عجوزا ، والجميع يذكروننى باصناف من الطيور او الحيوانات .

كان الصباح صافيا لطيفا لكننى احسست بالغم ، واشتقت للذهاب الى الحقول حيث اختلى بنفسى . كنت اعرف ان الناس سيشوهون ذلك اليوم الرائع بكل تأكيد .

نادتنى جدتى مرة ، وكنت مستلقيا على السطح ، وأفهمتنى بهدوء وهى تشير الى السرير :

— مات كوليا .

انزلق الصغير عن الوسادة الحمراء حتى الحصيرة . كان ازرق اللون عريان . التف قميصه حول عنقه كاشفا عن بطنه المنتفخة وساقيه المتعرجتين المتقرصتين . يداه

ملتويتان خلف ظهره وكأنه حاول انهاض نفسه . ومالت راسه قليلا على كتفه .

قالت جدتى ، وهى تسرح شعرها :

— شكرا للالهة على وفاته . كيف يمكن ان يعيش مثل هذا المخلوق الصغير المريض ؟

وجاء جدى يضرب الارض بقدميه كمن يرقص ، ولمس عينى الصغير المغلقتين بحذر واحتراس .

نبرت جدتى بحدة :

— لا تلمسه بيديك الوسختين !

فغمغم :

— اطلّ على الوجود ، تنفس ، أكل ، وذلك كله مقابل لا شيء . . .

فقاطعته جدتى :

— فكر فيم تقول !

فرماها بنظرة فارغة ، وخرج الى الساحة .

قال :

— افعلى ما تشائين . فلست املك مالا لدفنه .

— آه ، ايها المخلوق البائس !

وغادرت الدار ، ولم ارجع الا فى العشية .

دفن كوليا فى الصباح التالى . لم ادخل الى الكنيسة ، بل جلست حتى انتهت مراسيم الجناز الى جانب قبر أمى الذى فتح من جديد ليستقبل جثمان اخى الصغير . وقعد معى كلبى ووالد ياز . كان هذا الاخير قد تناول مبلغا زهيدا اجراً لحفره القبر ، فهو لا يبرح يتباهى بذلك الامر أمامى :

- ذلك لانك صديق لى ، والا كنت طلبت روبلا كاملا .

ولما تطلعت فى تلك الحفرة الصفراء التى تتصاعد من جوفها رائحة كريهة منفرة ، وقع بصرى على بعض ألواح خشبية سود ندية . وارسلت حركتى الخفيفة جداول من الرمل انسابت الى باطن الحفرة راسمة خطوطا على جوانبها . فتحركت متعمدا بحيث ينهال الرمل فيغطى تلك الالواح .

قال والد ياز ، وهو يدخن غليونه :

- دع عنك هذه الألاعيب ، يافتى .

جاءت جدتى تحمل نعشا صغيرا ناصعا ، وقفز «الرجل المتعفن» الى الحفرة وتناول النعش من يديها ووضعه فى جوار الالواح الندية ، ثم قفز من جديد خارج الحفرة وانثال يهيل التراب بقدمه ورفشه ، وغليونه يدخن مثل المبخرة . وساعده كل من جدى وجدتى فى سكينة . ليس ثمة كاهن ولا متسولين ، ليس سوى اربعتنا فى قلب ذلك الحشد من الصلبان .

جَهَرَتْ جدتى مؤنبة ، وهى تناول الحارس النقود :

- لكنك ازعجت عش فارفارتى ، أليس كذلك ؟

- لا حيلة لى فى الامر . ومع ذلك اخذت قليلا من ارض الجيران . لا بأس - فلم نؤذ احدا .

وانحنت جدتى حتى الارض امام الضريح ، وشهقت ، ونشجت ، ثم ابتعدت . وتدحرج جدى خلفها يرتب معطفه المهترئ ، وقد خبأ عينيه تحت طرف قبعته .

نبر فجأة ، مكردحا امامنا مثل غراب يشب فى أخدود فى الارض :

– زرعنا حبوبنا فى ارض غير مفلوحة .
فاستوضحتُ جدتى :
– ماذا قال ؟
فردت :
– الله وحده يدرى . ان له طريقة خاصة فى التفكير .
كان الطقس حارا . وجدتى تتهادى على مهلتها فى الطليعة ، وقدماها تنغرزان فى الرمل الحار ، ومن وقت لاخر تقف وتمسح وجهها بمنديلها .
سألتها فى جهد فائق :
– ذلك السواد فى القبر – أكان نعش أمى ؟
فقالت بكآبة :
– نعم . يا لذلك الحفار العجوز الابله ! لم تمض سنة بعد ، وها هى فاريا تفسخت ! وذلك بسبب من الرمل – فهو يسمح للمياه بالنفوذ . الطين أفضل .
– أيتفسخ الجميع ؟
– الجميع ، ما عدا القديسين .
– انت لن تتفسخى ابدا !
فوقفت ، واصلحت قبعتى على رأسى ، وقالت برزانة :
– لا تفكر فى هذا . لا ينبغى لك ذاك الآن ، اتسمع ؟
لكننى قلت فى نفسى :
«ما أبشع الموت وأقرفه ! ما أكرهه !»
وكنت احس ضيقا شديدا .
لما بلغنا الدار جهز جدى السماور وهيأ المائدة .
اعلن :

– سنصب قليلا من الشاى ، فالطقس حار جدا . سأهيئ من شايى – لنا جميعا .

واتجه صوب جدتى وربت على كتفها .

– حسنا ، ماذا تقولين ، يا أماه ؟

فحركت جدتى يدها :

– ماذا يمكن ان اقول ؟

– اليك هذا . الله يصب علينا جام غضبه ، يسلخنا قطعة قطعة . لو ان افراد العائلات يعيشون متحدين سوية ، مثل اصابع يدك . . .

لقد مرّ زمن طويل دون ان اسمعه يتحدث بمثل هذا اللطف وهذه الرقة . فوهبت له أذنى ، آملا انه سيخفف آلامى ويساعدنى على نسيان تلك الحفرة الصفراء ذات الالواح الرطبة السود .

لكن جدتى قاطعته بحدة وصرامة :

– كف عن هذا ، يا أبتاه ! لقد رددت مثل هذه الكلمات طوال حياتك ، لكن هل ساعدت احدا قط ؟ قضيت حياتك بكاملها تنهش فى الناس ، مثلما ينهش الصدأ فى الحديد .

فالهمها جدى بنظره مهمهما ، ثم جنح الى الصمت .

ورويت للودميلا فى العشية ، ونحن عند البوابة ، تفاصيل ما شاهدت عيناى فى الصباح ، فلاح لى ان ما رويت لم يجد صدى عندها .

– يفضل ان يحيا المرء يتيما . اذا ماتت أمى وأبى ، فسوف اترك اختى فى رعاية اخى واصبح راهبة للابد . ماذا استطيع ان افعل غير هذا ؟ فانا لن اتزوج قط لانى عرجاء

ولا قدرة لى على العمل . ولو تزوجت لانجبت الى هذا العالم مزيدا من اولاد يعرجون .

كانت تتكلم بصورة عاقلة ، مثلها مثل جميع النساء فى شارعنا ، لكن يبدو انى فقدت كل اهتمام بها بعد تلك العشية . والواقع ان حياتى لم تعد تتيح لى رؤيتها الا فى الندرى .

خاطبنى جدى بعيد ايام عدة من وفاة اخى قائلا :

– نم الليلة باكرا ، سأوقظك عند هبة الشمس ، وسنمضى الى الغابة نجمع حطبا .

واعلنت جدتى :

– وسأجمع أنا الأعشاب .

كانت غابة البتولا والتنوب التى تنمو قرب المستنقعات على بعد ثلاثة فراسخ من حينا تغص بالاغصان والفروع المكسورة . وهى تمتد من جهة نهر الاوكا ومن الجهة الثانية الى ما وراء طريق موسكو العامة . وكان ينهض فوق ادغالها اللطيفة ، مثل خيمة سامقة سوداء ، حزمة من اشجار الصنوبر اطلقوا عليها لقب «لِبدّة سافيلوف» .

كل هذه الثروة ملك للكونت شوفالوف الذى يتراخى فى حراستها . وكان سكان كونافينو يعتبرونها ملكا لهم ، فيقطعون اغصانها ، ويجتزون الاشجار الميتة والحية دون تفريق . ويؤمها فى الخريف عشرات من الناس يحملون فؤوسهم ويأتزرون بحبالهم يجمعون الحطب ويدخرونه لفصل الشتاء .

ما ان بزغ الفجر حتى كنا ، ثلاثتنا ، نعبر الحقول الخضراء الفضية الندية ، وشمس روسية كسولة تتصنع الرقة تزحف على مهلهـــا فوق الاوكا ، وفوق هضاب دياتلــوفى الموردة الاطراف ، وفوق نيجنى نوفجورد البيضاء الناصعة بحدائقها الخضر وقببها الذهبية ، وفوق نهر الأوكا الهادئ العكر تنسم انفاس رخية ناعسة ، وتتموج ورود الحب ، ورؤوس الاجراس الزرقاء قد انحنت تحت ثقل الندى ، وتدلت صامتة عـــلى الارض ،وباقات اخرى من زهور متعددة الالوان تنبثـــق بصلابة من الموجة المتمردة ، بينا القرنفل ، «هذه الفتـــن الليلية» ، يتفجر فى نجوم قرمزية .

كانت الغابة تتقدم لملاقاتنا بصفوفها السوداء المتفجعة ، واشجار الصنوبر المجنحة تشبه الطيور الكبيرة ، واشجار البتولا تشبه الصبايا العذارى . وفوق المروج تتدحرج رائحة المستنقعات الحادة . وهذا كلبى ، السائر الى جانبى مدليـــا لسانه القرمزى يتوقف ، ويشم ما حواليه ، ويهز رأســـه الشبيهة برأس الثعلب فى حيرة .

كان جدى يتلفع بمعطف جدتى القصير ، ويغطى رأســـه بقبعة عتيقة لا طرف لها . انه يبتسم فى نفسه ويضيق عينيه وهو يتقدم متلصصا على ساقيـــه الطويلتين كمن يزحـــف باحتراس . وكانت جدتى تلبس قميصا ازرق وتنورة سوداء ، وقد عصبت رأسها بمنديل ابيض ، تتدحرج بنشاط وحميـــة تجعلان اللحاق بها امرا عسيرا .

وكان جدى يزداد هياجا كلما اقتربنا من الغابة . وانشأ يخور ويستنشق الهواء فى تنفسات طويلة وهو يتحـــدث

بعبارات متشنجة متقطعة اولا ، ومن ثم بعبارات جميلـة يموج بها الفرح وكأنما استبد به السكر والنشوة :
– الغابات هى حدائق الله . وليس من يزرعهـا سوى الريح – الانفاس الالهية التى يرسلها من بين شفتيـه . فى الايام الغابرة ، فى تلال جيغولى ، فى سنوات فتوتـى ، يوم كنت حمالا – آه ، يا الكسى ، لن يتـاح لـك ان ترى ما رأيت ! على طول الاوكـا – الغابات مـن كازيموف الى موروم ! او خلف الفولغا – الغابات تمتد منبسطة حتى جبال الاورال ! يالها من اعجوبة لا نهاية لها !
رمقته جدتى من تحت حاجبيها وغمزتنى ، بينما ظل هـو يتهادى متعثرا بالجذوع وهو يبعثر قبضات جافة من كلمات تتأصل عميقا فى ذاكرتى .
– كنا نجرّ مركبا محملا بزيت بذور عباد الشمس مـن ساراتوف الى السوق فى عيد ماكار ، وكان على رأسنا مراقب اسمه كيريللو من مدينة بوريك ، وتترى مـن كازيموف يدعى عساف ان لم تخنى ذاكرتى . حسنا ، حين بلغنا جيغولى هاجت علينا ريح عصوف طرحت اعظمنا قوة عـلى الارض ، وارغمتنا على التوقف ، وخلفتنا هنالك نلهث ونتنهد ، وهكذا تسلقنا ضفة النهر لنغلى بعض الحساء . وكنا فى شهر أيار ، والفولغا عريض كالبحر ، والأمواج تزحف فوقه كقطيع من البجع – ألوف وألوف تندفع نحو بحر قزوين . وكانت هضاب جيغولى الخضراء فى الربيـع تكاد تصل الى السماء ، وغيوم ناصعة ترعى هنالك ، والشمس تنثر الذهـب عـلى الارض . وهكذا استرحنا وشبعت عيوننا بالمنظر حوالينا حتى ذابـت

قلوبنا . كانت الريح تلهو فوق النهر ، أما على الضفة فالطقس دافئ لطيف الانفاس . وحوالى المساء هب كيريللو ذاك – وهو رجل قاسى الطباع ذرف به العمر – ونزع قبعته عن رأسه ، وقال : «حسنا ياشباب . لم أعد الآن رئيسا لكم او خادما . فتابعوا الدرب من دونى لاننى منطلق الى الغابات !» . وقعدنا هناك فاغرين افواهنا . من تراه سمع مثل هذا الكلام ؟ لسنا نستطيع متابعة العمل بدون انسان مسؤول عنا امام معلمنا – فالناس لا يقدرون على التجوال من دون رأس . صحيح اننا كنا على الفولغا . لكن قد نضلّ رغم ذلك . والانسان أوحش الحيوانات – لا يوقفه شىء على الاطلاق . وهكذا اعترانا الخوف . لكنه أصر على رأيه : «لست اود متابعة الحياة على هذا المنوال راعيا لكم . انا ذاهب الى الغابات !» وكان بيننا من اراد ضربه وشد وثاقه ، وكان بيننا من يشد أزره ويفكر تفكيره . وصاحوا : «كفى !» ، واضاف التترى : «ساذهب معه !» . وكان ذلك سيئا للغاية . فمعلمنا مدين للتترى برحلتين ، وها نحن فى منتصف الرحلة الثالثة – وهذا يعنى مبلغا ضخما من المال تلك الايام . تصايحنا حتى جثم الليل ، وما ان لفنا بجلبابه حتى رحل سبعة منا وخلفونا وحيدين – اربعة عشر او ستة عشر رجلا . هذا هو ما تفعله الغابة بك !

– هل ذهبوا ليصيروا لصوصا ؟

– ربما ليصيروا لصوصا ، وربما نساكا . لم يك الناس يفرقون كثيرا فى تلك الايام .

فرسمت جدتى اشارة الصليب .

– آه ، يا أم الاله ! حينما يفكر المرء بالبشر ينزف قلبه ويدمى .

– لقد منحنا جميعا ما يكفى من الادراك لنميز اين يقودنا الشيطان .

ولجنا الغابة فوق درب ندية تنساب بين ادغال متناثرة من شجر التنوب ومستنقع عائم . وومضت فى خاطرى فكرة تقول ما اروع ان يدخل المرء الغابة الى الابد ، مثل كيريللو القادم من بوريك . فليس ثمة ثرثرة هنالك ، ولا خمرة ، ولا قتال ، هنالك تستطيع ان تنسى شراهة جدك وجدث امك فى الرمال – تنسى كل شىء يؤذى قلبك ويجثم عليه كالعبء الوزين .

قالت جدتى حينما بلغنا بقعة جافة :

– حان الوقت لنصيب شيئا . اجلسا .

وأخرجت من سلتها بعض خبز الجودار ، والبصل الاخضر ، والخيار ، والملح ، وبعض الجبن البيتى الملفوف . ورمق جدى ذلك كله وهو يطرف بحيرة :

– يا الهى . . . لكننى لم اجلب معى شيئا !

– ثمة مايكفينا نحن الثلاثة .

جلسنا وظهورنا الى جذع برونزى لصنوبرة طويلة . كان الهواء مشبعا برائحة الصمغ ونسيم لطيف يدف من الحقول ويقوس الاعشاب . قطفت جدتى حزمة من الاعشاب بيدها السمراء وهى تروى خصائص نبات لسان الحمل الشفائية ، وحشيشة القديس يوحنا ، والقوة السحرية الناتجة عن نبات السرخس ، ونبات الخلجان اللزج .

قطع جدى الشجيرات الصغيرة واوكل الي مهمة جمعها فى مكان واحد ، لكننى فررت وتبعت جدتى الى قلب الغابـــة ، وكانت قد اقلعت بين جذوع الاشجار الوافرة ، تنحنى عـــلى الارض المفروشة بالابر اللطيفة من وقت لآخر وكأنها تغطس فى الماء ، وهى تحدث نفسها لدى كل خطوة تخطوها :

– لقد طلع الفطر باكرا هذا العام – وهذا يعنى انـــه سيكون قليلا . انت لا تولى الفقراء عناية طيبـــة ، يارب – فالفطر طعام هؤلاء الذين لا يملكون شيئا .

انزلقت خلفها دون ان ينــد عنى ادنى صوت ، محاولا جهد المستطاع الا ادعها ترانى . لم أك احب قطع حديثها مع الله والضفادع والاعشاب .

غير انها ابصرتنى .

– هربت من جدك ، ها ؟

انحنت على الارض السوداء المرتدية ذلك الثوب الموشى بالنباتات ، وروت لى كيف غضب الله مرة على المخلوقـات البشرية بحيث ارسل الطوفان على البسيطة واغرق كل حـــى وصامت .

– لكن امه الطاهرة كانت قد جمعت فى الوقت المناسب كل البذور فى سلتها واخفتها . وانطلقت الى الشمس بعـــد الطوفان وقالت لها : «كونى طيبة وجففى الارض من اقصاها الى اقصاها ، وسيتغنى الناس الطيبون بمديحك الى الابد» . وهكذا جففت الشمس الارض ، فبذرت الطاهـرة الحبوب التى خبأتها . وتطلع الله فاذا الارض فاضت من جديد بالاعشاب والقطعان والناس ! وتساءل الرب : من ذلك الجسور الذى

خالف ارادتی ؟ وعند ذاك اعترفت له . كان الرب نفسه قد اسف لفراغ الارض واهمالها ، ولذا توجه الى العذراء قائلا : «ذلك عمل طيب قمت به ، يا أماه» . . .

احببت تلك القصة . لكنها ادهشتنى فقلت فى لهجة جادة :

– هل هذا صحيح ؟ لقد ولدت العذراء بعد الطوفان بزمن طويل .

وجاء دور جدتى الآن لتتملكها الدهشة :

– من اخبرك بهذا ؟

– فى المدرسة – فهذا مدون فى الكتب .

خفف ذلك عنها ، فقالت :

– لا تصغ لهم . انس ما هو مدّون فى الكتب . فالكتب تكذب .

وافترت شفتاها عن ابتسامة مرحة قصيرة ناعمة .

– كيف يخترعون مثل هذه الاشياء ، اولئك الحمقى ؟ وكأن الله يمكن ان يخلق من غير ام ! من هو ، اذن ، مَنْ اعطاه الحياة ؟

– لست ادرى .

– أرأيت ؟ ابلغت درجة «لست ادرى» فى ثقافتك ؟

– لقد قال الكاهن ان العذراء ابنة يواكيم وحنة .

كان ذلك آخر ما يطاق . رمقتنى الجدة بحدة فى عينى ، وقالت :

– وبكلمات اخرى فهى ماريا يواكيموفنا ؟ ساجلدك اذا جرؤت على التفكير بمثل هذه الامور !

واوضحت لي بعد دقيقة :

– ان العذراء الطاهرة موجودة ابدا – قبل اى مخلوق آخر . وهى التى ولدت الله ، ومن ثم . . .

– وماذا عن المسيح ؟

فأغمضت جدتى عينيها مرتبكة حائرة .

– المسيح ؟ آه ، نعم – المسيح . . . !

رأيت اننى انتصرت ، فقد اربكتها فى اسرار الخليقة الغامضة ، الامر الذى كدّرنى .

ظللنا نتوغل فى الغابة فى ذلك الضباب الازرق المبرقش باشعة الشمس المذهبة . ان للغابة الدافئة المصون ألحانها الخاصة ، ألحانها الحالمة ، مما يجعلك انت الآخر حالما . فالبلبل يغرد ، وعصفور سنّ المنجل يزقزق ، والوقوق يضحك ، والصفّارية تصفر ، والحسون الغيران ينشد اغنية مستمرة لاتنتهى ، بينا ذلك الطير الغريب ، شرشور الصنوبر ، يصدح متأملا متفكرا . وتواثبت بعض الضفادع الزمردية من تحت اقدامنا ، ورفعت أفعى الاعشاب رأسها الذهبى من وسط الجذور منتظرة فريستها ، ورفع سنجاب يثرثر باصطكاك اسنانه الحادة ، ذيله الشبيه بالريش بين فروع الصنوبر . ثمة مجموعة من الاشياء يمكن رؤيتها ، لكن الانسان يرغب فى رؤية المزيد – فى الانطلاق ابعد فابعد .

وهذه اشباح شفافة ضخمة تلوح بين جذوع الصنوبر لتختفى بعد لحظات فى الاعماق الخضر ، حيث تجئ ومضات من السماء الزرقاء والفضية . وكانت الارض منشورة ببساط مترف من الطحلب موشى بالتوت الازرق وحبال من التوت البرى . وكانت اوراق الاقحوان تتلألأ بين الاعشاب مثل

قطرات من الدماء ، بينما رائحة الفطر تهب الى الخياشيم فتفعمها اغواء واغراء .

ورتلت جدتى ، وهى تصعد تنهداتها :

– ايتها العذراء الطاهرة ، يا نور العالم !

كان يتراءى ان الغابة ملكها ، وهى نفسها ملك الغابة . فهى تتبختر مثل دبة كبيرة ، ترى كل شىء ، وتعجب من كل شىء ، وتغمغم كلمات شكر وحمد . وبدا كأنها تنشر الدفء فى الغابات ، وشعرت لذة خاصة لمشاهدة ذلك الطحلب ينهض مرة ثانية ويفلى نفسه بعدما داسته قدماها .

رحت افكر وافكر ، وانا اسير ، ما أحلى ان اصبح لصا أسرق من الاغنياء واعطى الفقراء . لو ان كل انسان يحس الغبطة والشبع ، لا يعرف الحسد ، ولا ينبح فى وجه اخوانه كالكلاب الثائرة ! ما اروع ان اذهب الى اله جدتى وعذرائها الطاهرة فاروى لهما الحقيقة الكاملة عن حياة التعساء البائسين ، وكيف يدفنون بعضهم بعضا فى الرمل المخيف بطريقة مؤذية راعبة ، وكم على وجه البسيطة من مؤذيات لاجدوى منها ! فان صدقتنى العذراء سألتها ان تمنحنى الحكمة الكافية لابدل هذه الامور واجعلها افضل وأكثر رخاء ، ان تجعل الناس يصغون لى ويؤمنون بى ، واذ ذاك اجد افضل طريقة للحياة بكل تأكيد ! ماذا يهم ان كنت ما ازال صغيرا ؟ كان المسيح يكبرنى بسنة واحدة فحسب عندما اصغى اليه الحكماء فى الهيكل .

استغرقت مرة فى افكارى هذه بحيث سقطت فى حفرة عميقة ، فخدشت جنبى بغصن ميت مقطوع ، وكشطت جلد

مؤخرة رأسى . وبينا انا جالس فى الطين الكثيـــف البارد فى بطن الحفرة ادركت وانا اموت خجلا انى لن استطيع خروجـا منها . ولم اكن اريد ان اصرخ فتخاف جدتى من صراخـــى وترتعب . لكن ، لم يكن ثمة مفر من ذلك .

اخرجتنى من الحفرة على الفور ، ورسمت اشارة الصليب وهى تقول :

– شكرا لك ، يارب ! من حسن الحظ انها فارغـــة . لكن ماذا لو كان الدب قابعا فيها ؟

ضحكتْ والدموع تترقرق فى مقلتيها . ثــم غسلتنـــى فى الجدول ، ووضعت بعض الاوراق عـــلى جروحـــى لامتصاص الالم ، ومن بعد ربطت تلك الاوراق بقميصها ، وقادتنـــــى الى مسكن حارس السكة الحديدية ، فقد كنت اضعف من ان اقوى على العودة الى الدار .

كنت اقول لجدتى كل نهار تقريبا :

– فلنمض الى الغابة !

فتوافق بكل سرور ، بحيث كنا نزجى اوقاتنا حتى اخريات الخريف نجمع الاعشاب وتوت العليق والفطر والجوز . وكانت الجدة تبيع مانجمع فنعيش من المال الذى نقبض .

زعق جدى مرة ، رغم اننا لم نكن نمس طعامـه قط :

– ياللطفيليين !

كانت الغابة تحيى فى قلبى شعورا بالسلام والطمأنينة ، وقد هدأ هذا الشعور من حموة ألمى ، وساعدنى على نسيـان الحوادث الفاجعة ، وفى ذات الوقت نمت فى قلبى بصيرة مـن

الفطنة والحذق : فاشتدت حاستا السمع والبصر ، ونشطت ذاكرتى ، واتسع مستودع انطباعاتى .

اصبح ذهولى حيال جدتى اعظم منه فى اى وقت مضى . كنت اعتبرها دائما مخلوقا أسمى من الآخرين ، وأرى انها الطف واحصف مخلوق على وجه البسيطة ، وكانت هى تؤكد هذا اليقين بصورة مستمرة .

وذات عشية ، وقد بلغنا حافة الغابة راجعين الى الدار من جولة قمنا بها لجمع الفطر ، جلست جدتى لتستريح ، بينا انطلقت أنا على أمل العثور على المزيد من ذلك النبات .

تناهى الىّ صوتها على حين فجأة ، ورميت ابصارى لارى اليها جالسة فى سكون فى ذلك الممر ، تقطع جذور الفطر الذى جمعناه ، وينتصب امامها كلب نحيل اغبر اللون وقد دلى لسانه .

كانت تقول :

— امض ، امض الآن . هذا حيوان لطيف . اليك عنى ، وليكن الله فى عونك !

كان فاليوك قد سمّم كلبى قبل ذلك بقليل ، فنويت ان اجتذب هذا الكلب الجديد لمرافقتى . ركضت حتى الممر ، فقوّس الكلب ظهره بغرابة دون ان يدير رأسه ، وحملق في بعينيه الخضراوين الباردتين الساغبتين ، ثم قفز صوب الغابة وذيله بين مؤخرتيه . لم تك مشية ذلك الحيوان تشبه مشية الكلب ، وما ان صفرت له حتى اختفى بجنون بين الادغال .

سألتنى جدتى ، وهى تبتسم :

– أرأيت هذا ؟ حسبته كلبا اول الامر . ولما رميته بنظرة ثانية فاذا انياب ذئب وعنقه . فخفت . وقلت في نفسي : حسنا ، اذا كنت ذئبا فيفضل ان تذهب عني . ومن حسن الحظ ان الذئاب مسالمة في فصل الصيف .

ما كانت لتضل دربها في الغابة ابدا ، ولم تك تخطئ طريق العودة الى الدار بتاتا . كانت تعرف ، من رائحة الاعشاب ، نوع الفطر النامي في ذلك المكان ، والنوع الذي ينمو في مكان آخر ، وهي ابدا تمتحن معرفتي :

– تحت اية شجرة ينمو الفطر الاحمر ؟ كيف تميز الفطر الجيد من السام ؟ أي صنف من الفطر يختبئ تحت السرخس ؟

وكان الخدش الصغير المتربع على جذوع الاشجار يقودها الى وكر سنجاب ما . فاتسلق الشجرة وافرغ العش من مؤونة الشتاء من الجوز ، واحيانا كثيرة كنت اجد من الجوز المخزون ما يزيد عن عشر اوقيات .

وبينا انا ، ذات مرة ، اقوم بهذا العمل ، دفن صياد في لحم جنبي الأيمن سبعة وعشرين حبة من الخردق الصغير . سحبت جدتي بابرتها احدى عشرة حبة ، وظلت البقية تحت جلدي عدة سنوات ، حتى خرجت منه شيئا فشيئا .

كانت جدتي تُسرُّ وتفرح عندما تراني اتحمل الألم بصبر .

وتقول لي :

– يا للفتى الطيب ! خبرتك تزداد بمقدار ماتصبر !

وكلما جمع لها مبيع الفطر والجوز مبلغا صغيرا من المال

فهى تضع «رحمتها الصغيرة» على حفاف النوافذ . وتبقى ، هى نفسها ، مرتدية الاسمال والخروق حتى فى ايام الاعياد .

همهم جدى فى وجهها مرة :

– مظهرك أسوأ من مظهر المستعطين – وهذا يجرُّ عليَّ العار .

– لا بأس . لست ابنتك ، وكذلك لست عذراء تبحث عن زوج لها .

كانت مشاجراتهما تزداد تكرارا يوما بعد يوم .

ويصيح جدى معبرا عن ألمه :

– لست اكثر من الآخرين ذنوبا ، ولكنى اكثرهم عقوبة .

فتغيظه جدتى :

– الشيطان يعرف قيمة الانسان .

وحين نصير وحيدين تشرح لى ذلك :

– ذلك العجوز يخاف الشيطان خوفا فظيعا . أرأيتَ اليه كيف هرم بسبب من ذلك الخوف ؟ آه لى ، يا للمخلوق المسكين !

شدّ ذلك الصيف الذى قضيته فى الغابة من قوة بدنى ، لكنه جعل منى امرءا غير اجتماعى . فقد فقدت الاهتمام برفاقى ولودميلا ، واصبحت حكمتها تبدو لى باعثة على الملل والضجر .

قفل جدى ذات يوم من المدينة وقد ابتلّ حتى العظام . كان الزمن خريفا ، والمطر لا يفتر عن التهطال . نفض نفسه كالعصفور الدورى على وصيد الباب . وقال بنغمة ظافرة :

– حسنا ، ايها الكسول ، ستذهب غدا الى العمل !

فسألت جدتى حانقة :

– اين ؟

– عند اختك ماتريونا – يعمل لحساب ولدها .

– لم تحسن الاختيار ، يا أبتاه !

– صمتا ، ايتها الحمقاء العجوز ! اربما جعلوا منه رساما .

خفضت جدتى رأسها ، ولم تقل شيئا .

اخبرت لودميلا ذلك المساء اننى سأذهب لاعيش فى المدينة .

قالت ، متفكرة :

– ساذهب الى هناك آجلا انا الاخرى . يريدهم ابى ان يبتروا ساقى . يقولون ان صحتى ستتحسن اذا فعلوا هذا .

لقد نحلتْ كثيرا وضمر عودها اثناء الصيف ، واتخذ وجهها صبغة ضاربة الى الزرقة ، واتسعت عيناها اتساعا هائلا .

سألتها :

– أخائفة انت ؟

فاجابت :

– نعم .

وانخرطت تبكى بكاء صامتا .

لم أك استطيع ان اعزيها ولا بكلمة واحدة . فانا نفسى خائف من الحياة فى المدينة . بقينا طويلا جالسين متلاصقين يسودنا صمت بائس .

لو ان الوقت صيفا اذن لسألت جدتى ان نخرج للتسول كما كانت تفعل وهى فتاة ، ونستطيع اصطحاب لودميـــــلا معنا – وسادفعها امامى فى عربة صغيرة .

سوى ان الفصل خريف . وريح رطبـــة تنزلـــق عبـر الشوارع ، والسماء تحتجب بغيوم لا نهاية لهــا ، والارض ذابلة تزداد قذارة وتبسّلا .

٤

ذهبت من جديد أعيش فى المدينة ، فى بيت ابيض مؤلــف من طابقين يشبه النعش ، مبنى بحيث يتسع لعدد غفير مــن الناس . كان البيت جديدا ، لكنه يبدو كمعتــل يتوجــع – منتفخ الاوداج كفقير هبط عليه ميراث كبير على غير انتظار فأكل فوق طاقته . كان البيت ينتصب بصورة جانبيـــة فى الشارع ، تطلّ النوافذ الثمانيـــة لكل طابق على زاويـــة الشارع ، وتطلّ النوافذ الاربـــع لكل طابق على الجهـــة المفروض فيها ان تكون واجهة له . اما النوافـــذ السفلى فتواجه ممرا ضيقا فى الساحة ، وتشرف النوافذ العلويـة ، من فوق السور ، على وهدة قذرة وبيت صغير تسكنــــه الغسالة .

لم يك ثمة شارع بالمعنى المألوف للكلمة ، بل تمتــد امام البيت تلك الوهدة القذرة التى يقسمها سدان ضيقان الى ثلاثة اقسام . وتمتد عن يسار الى عنبر المساجين حيث اختار

أهل البيت بقعـــة يفرغون فيهـــا النفايـــات فى قاع تلك الوهدة بركـــة القاذورات الخضراء الغامقـــة اللون . وتفضى تلك الوهدة عن يمين الى بحيرة زفيزدين المتعفنة . اما قلب الوهدة فيواجه بيتنا تماما ، يفيض نصفه بالنفايات ويعج بحشيش القريص ، والارقطيون ، ونبـات الحماض ؛ اما النصف الآخر فقد جعل منه الاب دوريمودونت بوكروفسكى حديقة . وينتصب فى الحديقة كشك من الخشـــب الاخضر يقرقع عندما تتهاوى الحجارة عليه .

كان المكان موحشا تعمّ فيه القذارة . وقد قسا عليـــه فصل الخريف فجعل من تربته الطينية الموحلة نوعا من القير يتشبث بقدمك فى قسوة وعناد . لم أك شاهدت فى حياتـــى مثل هذه القذارة فى مثل هذه البقعة الصغيرة . وبعدما ألفـــت نظافة الحقول والغابات واعتدت عليها افعمتنى هذه الزاوية الحقيرة غما وكآبة .

الى الخلف من تلك الوهدة تنتشر عدة اسوار رماديـــة متهدمة خربة اكتشفت بينها ذلك البيت البنى اللـــون الذى اقمت فيه شتاء حين كنت اعمل فى مخزن الاحذية . وقـــد زاد قرب هذا البيت من شعورى بالنفور والضيق . لماذا يجـــب علىّ ان أعيش فى ذلك الشارع مرة ثانية ؟

كنت اعرف معلمـــى الجديـــد ، فقد زارنا مـــرة وأخوه ، ايام كانت امى على قيـــــد الحياة وهذا الاخير هو الذى كان يصوصى بصورة مضحكة :

«اندريه بابا ، اندريه بابا» .

لم يتبدل فيهما شيء البتة . فكبيرهما ذو الانف الاقنـــى

والشعر الطويل لطيف وطيب القلب على ما يظهر ، اما فيكتور الصغير فله وجه كوجه الحصان ايضا يغطيه النمش . امـــا امهما فهى أخت جدتى ، لكنها كانت صاخبة غضوبـــا . كان الكبير متزوجا من امرأة وسيعة العينين سوداويتهما ، بيضاء البشرة ريانتها كالقطايف المصنوعة من الحنطة .

قالت لي مرتين خلال اليوم الاول :

– اعطيت امك مرة معطفا حريريا مزركشا بحبات مـــن الكهرمان الاسود .

ولسبب ما ابيت ان اصدق انها اعطت امى هدية ما ، وان امى قبلت تلك الهدية . قلت لها حينما ذكرتنى بذلك من جديد :

– إن كنت قدمت لها ذلك حقيقة ، فلماذا تتبجحين ؟

فانتفضت الى الوراء ، مصعوقة :

– ما . . ذ . . ذ . . . ا ! ؟ مع من تحســب نفســـك تتكلم ؟

امتلأ وجهها بقعا حمرا ، وجاحظت عينيها ، ونادت زوجها .

ولج المطهى يحمل فرجارا فى يده ، ويضع قلما خلـــف اذنه . قال لى ، بعدما اصغى الى امرأته :

– يتحتم عليك الا تكون وقحا قليل الحياء .

ثم استدار الى زوجته ، ونبر بصبر نافد :

– لا تضايقينى بمثل هذا اللغو والهراء !

– ماذا تعنى – لغو وهراء ! عندما اقرباؤك . . .

فزعق :

– اخذ الشيطان أقربائى .

واندفع خارجا .

كرهت ايضا ان يكون مثل هؤلاء من اقرباء جدتي ، وقد دلتني خبرتي ان الاقرباء يعاملون بعضهم بعضا أسوأ من معاملتهم للغرباء ، وما داموا يعرفون نواحي الضعف والهزأة عند بعضهم اكثر من اي انسان آخر فهم ينشرون بالتالي ثرثرة سيئة ، ويتخاصمون ويتشاجرون كثيرا .

احببت معلمي . كانت له طريقة فتانة في ترجيل شعره الى الخلف وتصفيفه وراء اذنيه ، وقد ذكرني لسبب ما بـ«هذا رائع» . كان يضحك من قلبه في اغلب الاوقات ، وعندها تشعُ عيناه الرماديتان بلطف وانشراح ، وتلوح على جانبي انفه الشبيه بأنف الصقر تجعدات وتغضنات مضحكة .

كان يتوجه الى أمه وامرأته مفترة شفتاه عن ابتسامة تكشف عن اسنان صغيرة متراصة :

– كفاكما قتالا ، ايتها الفرختان الصاخبتان !

كانت المرأتان تتخاصمان كل يوم ، ويحتدم قتالهما بسرعة غريبة تثير دهشتي . ومنذ البكور ، تنطلق المرأتان عبر الغرف مشعثتي الشعر عاريتي الصدر فكأن النار شبّت في اطراف الدار . كانتا تثيران الجلبة والضوضاء النهار بطوله ، فلا تستريحان الا ساعة الغداء والشاي والعشاء . وتأكلان وتشربان حتى تتخدّر اطرافهما ويستولى النعاس عليهما . وتتجادلان على مائدة الغداء في امور الطعام ، تتراشقان بكسل وفتور وكلمات لاذعة تهيئ لهما مشاجرتهما الجدية التالية . ومهما طهت الحماة للغداء فالكنة تنبرى قائلة لها :

– امى تصنع هذا الصنف على الشكل الآخر .
– اذن ، لا بد انها تصنعه بشكل اردأ .
– كلا ، ذلك لم يحصل – بل تصنعه بشكل افضل !
– اذن ، لمَ لا تنطلقين وتعيشين مع أمك ؟
– انا السيدة هنا !
– ومن انا فى رأيك ؟
فيتدخل الزوج قائلا :
– كفى ، أيتها الفرختان الصاخبتان ! ما بالكما – هل جننتما ؟

كان كل ما فى البيت غريبا مضحكا بشكل لا تفسير له . فاذا اردت الانتقال من المطهى الى غرفة الطعام تحتم عليك المرور عبر مرحاض صغير ضيق هو الوحيد فى البيت كله . وعبر هذا المكان كان الطعام والسماور يحملان الى المائدة ، الامر الذى كان موضع نكات ومهاترات مضحكة . وكانت واجباتى تتضمن صب الماء فى صهريج المرحاض اذا كان فارغا . وكنت انام فى المطهى مقابل باب المرحاض ، والى جانب الباب المفضى الى المدخل الامامي ، فيسخن رأسى بتأثير موقد المطهى ، بينما تتجمد قدماى بتأثير التيار الزاحف تحت عتبة الباب . وكنت قبل اللجوء الى النوم اجمع ما يقع تحت يدى من حُصر واكدسها فوق قدمى .

كانت الكآبة والفراغ يسودان حجرة الاستقبال الكبيرة بمرآتيها العموديتين القائمتين بين النوافذ ، وطاولتيها المصنوعتين للعب الورق ، وبمقاعدها الاثنى عشر المنتصبة المساند ، وبصورها المموهة الاطر بالذهب ، وهى هدايا

للمشتركين فى مجلة «نيفا» . اما القاعة الصغيرة فهى زاخرة بالمفروشات ، وفيها رفوف عاجة بالفضيات واوانى الشاى ، هذه الاشياء التى كانت جزءا من المهر . وكانت ثلاثة مصابيح ، تتبارى فى الحجم ، تؤلف قمة البهاء فيها . وكانت غرفة النوم الخالية من النوافذ تحتوى على سرير ضخم ، وبعض الصناديق والخزائن التى تفوح منها رائحة اوراق التبغ والبابونج . وكانت هذه الغرف الثلاث فارغة على الدوام ، بينا تنحشر العائلة فى حجرة الطعام حيث يضايق افرادها بعضهم بعضا ويقعون فى طريق بعضهم بعضا . وكان المعلم وأخوه ، بعد افطارهما فى الثامنة تماما ، يطيلان الطاولة المدادة ، ويغطيانها بصفائح من الورق الابيض ، ويحملان ادوات الرسم ، واقلاما ، وصحونا مليئة بالحبر الصينى ، ويجلسان للعمل ، احدهما فى طرف الطاولة البعيد وثانيهما قبالته . كانت الطاولة تتأرجح وتملأ الغرفة كلها ، ولا بد لمعلمتى الصغيرة والمربية حين تخرجان من حجرة الاطفال ان تصطدما بالضرورة بها .

صاح فيكتور مرة :

– أفلا تستطيعان تغيير الطريق ؟

فأدارت السيدة وجها متضايقا صوب زوجها ، ونبرت :

– قل له ، يا فاسيا ، ألا يصرخ فى وجهى .

فنصح زوجها بلغته المسالمة :

– لا تهزى الطاولة اذن .

– ولكننى حامل ، والمكان ضيق هنا .

– حسنا ، سنحمل عملنا الى حجرة الاستقبال .

فسمع جوابا غاضبا :

– يا للسموات ! هل سمعتم عن اناس يشتغلون فى حجرة الاستقبال ؟

ولاح على باب المرحاض وجه معلمتى الكبيرة ، ماتريونا ايفانوفنا ، احمر اللون كالشوندر من تأثير حرارة الفرن . صاحت :

– انظر الى هذا فقط ، يا فاسيا ! ها انت ذا تشتغل باصابعك ، وها هى ذى تقول ان اربع غرف لا تتسع لجرائها ! لقد تزوجت اميرة لا عقل فى رأسها !

فضحك فيكتور متشفيا .

وزعق الزوج :

– كفى !

فترامت زوجته على الكرسى ، بعدما وجهت سيلا من السباب الى حماتها ، وراحت تموء :

– سوف ارحل ! سوف اموت !

فصاح الزوج ، ابيض اللون من الجهد :

– انتما تؤخران عملى ، خطفكما الشيطان ! هذا ملجأ مجانين ! وفضلا عن هذا ، فمن اجلكما ، من اجلكم جميعا احطم ظهرى – وذلك لكى اطعمكم ، ايتها الفرختان الصاخبتان !

بثت هذه المشاجرات اول الامر الرعب فى قلبى . وتملكنى مرة هلع قتال حينما اختطفت الزوجة سكينا لقطع الخبز ، واغلقت الباب على نفسها فى المرحاض ، وانطلقت تطلق صراخا وحشيا لا يفتر له اوار . وساد سكون ميت

على كل شيء فترة قصيرة ، ومن ثم ركض الزوج الى الباب ، واستند اليه بيديه ، حانيا ظهره ، وصاح بي :

– هيا تسلق ! حطم النافذة وارفع المزلاج عن الباب !

قفزت على ظهره في الحال ، وكسرت الزجاج الموضوع فوق الباب ، وحين تطاولت لأرفع المزلاج ضربتني الزوجة على رأسي بعقب السكين . وتمكنت من فتح القفل على اية حال ، فقبض الزوج على امرأته كالعاصفة ، وجرها الى حجرة الطعام ، وانتزع السكين منها . وبينا انا قاعد في المطهى اعالج رأسي المصاب تأكدت من انني عانيت كثيرا من دون فائدة . فالسكين مثلومة بحيث يتعذر قطع الخبز بها ، فكيف بالاحرى حز العنق ؟ وكذلك لم يك من الضروري ان اتسلق ظهر معلمي ، ففي قدرتي كسر النافذة بأن أعتلي كرسيا ، وكان يستطيع رجل بالغ ان يرفع المزلاج بسهولة اكثر – فذراعاه اطول من ذراعي . وهكذا ، لم تعد المشاجرات في ذلك البيت تثير فيّ الرعب .

كان الاخوان عضوين في جوقة الكنيسة ، فهما ينشدان بلطف في بعض الاحيان اثناء عملهما . فيبدأ البكر الاغنية في صوت اجش :

في قلب الماء ، في قلبه
ألقيتُ يوما خاتم العذراء
فيضيف الصغير في صوت صادح :
نثرتُ في الموج على رحبه
اكداسَ فرحتي فضاعتْ هباء

ويدف صوت معلمتى الصغيرة من حجرة الاطفال يقول بصوت ساكن :

– أمجنونان انتما ؟ أفلا تعرفان ان الصغير غارق فى سباته ؟

او تقول :

– انت رجل متزوج ، يا فاسيا ، ولا يليق بك ان تنشد اغنيات عن الصبايا . وخلاف هذا ، فالناقوس سيعلن موعد صلاة الغروب الآن .

– حسنا ، فلنرتل التراتيم الدينية اذن .

اعترضت معلمتى بقولها ان التراتيم الدينية لا تنشد فى كل مكان ، وخاصة هنا (وأشارت بيدها الى باب المرحاض) .

فزمجر معلمى :

– لقد طفح الكيل ! يجب ان ننتقل الى جناح آخر .

اعلن مرارا وتكرارا انه يجب الحصول على طاولة جيدة ، لكنه ظل يردد هذا اكثر من ثلاث سنوات .

أيان سمعت هؤلاء الناس يتحدثون عن جيرانهم تقفز الى ذهنى ثرثرة متجر الاحذية . ووضح لى ان معلمىّ يعتبرون انفسهم افضل سكان المدينة ، فهم يعرفون جميع قواعد السلوك والتصرف الحسن ويحكمون على الناس فى قسوة وصلف استنادا الى هذه القواعد ، التى ما كنت استوعبها او أفقه لها معنى . وكانت الطريقة التى يصدرون بها احكامهم على الناس تثير فىّ شعورا بالامتعاض والاشمئزاز ضدهم وضد تلك القواعد التى تمنحنى الآن سرورا لا حدود له اذا انتهكت حرمتها .

وكان عليّ ان اعمل جاهدا . فأقوم بواجبات خادمة فى البيت ، فأمسح ارض المطهى ، وانظف السماور والاوانى النحاسية ايام الاربعاء ، بينما يتحتم عليّ ايام السبت ان اغسل ارض البيت كلها بما فيها الدرجين ، واقطع الحطب واجمعه للمواقد ، واغسل الصحون ، وانظف الخضراوات ، وامضى اتسوق مع معلمتى فأحمل سلتها ، واركض الى البقال والصيدلى .

وكانت معلمتى الكبيرة – اخت جدتى الصاخبة الغضوب – تنهض من فراشها فى السادسة صباحا . وبعد ان تغتسل على عجل تركع بقميص النوم امام الايقونات وتروح تشرح لله ، زمنا مديدا ، امور حياتها ، وولديها ، وكنتها .

وتشكو بصوت محزن ، وتلمس جبهتها برؤوس اصابعها المنضمة :

– يا إلهى ! انا لن اسألك شيئا ، يا إلهى – لن أسألك شيئا غير قليل من الراحة – قليل من السلام ، اذا سمحت مشيئتك بذلك .

كانت صيحاتها تهبنى من نومى ، فأضطجع اراقبها من تحت غطائى ، مرهفا سمعى فى خوف الى صلواتها الحارة ؛ والصباح الخريفى يرمقنا ، اغبش اللون ، من خلال نافذة المطهى التى يبللها الغيث ؛ وقامتها الشهباء ما تفتأ تنحنى فى ذلك الجو البارد حتى الارض وهى ترسم اشارة الصليب فى غيظ . وينزلق وشاحها عن رأسها الصغيرة تاركا شعرها الرقيق العديم اللون يتناثر حوالى كتفيها . وبينا هى تعيد

6*

الوشاح الى مكانه بحركة جافة من يدها اليسرى ، يطلق فمها هذه الغمغمة :

– هذه الخرقة الملعونة !

وتشخر بالتماسها ، وهى تضرب بقوة على جبهتها وكتفيها وبطنها راسمة اشارة الصليب :

– ان كنت تحبنى ، يا رب ، فعاقب كنتى . واجعلها تكفر عن اهاناتها لى ! وافتح عينى ولدى بحيث يرى حقيقتها ، وحقيقة فيكتور ايضا . وساعد فيكتور ، يا سيدى . وامنحه رحمتك .

كان فيكتور ايضا غائبا فى لفائف النوم على دكة مرتفعة فى المطهى . افاق على شكاوى امه ، وصاح والنعاس يجاول اجفانه :

– تعوين من جديد فى مثل هذه الساعة ! انما انت عقاب كاف ، يا امى !

فهمست امه معتذرة :

– حسنا ، حسنا ، اضطجع ونم .

ثم راحت تتأرجح الى الامام والخلف فى سكون مدة دقيقة ، وصاحت من جديد بلهجة حقود :

– ولينصب الجليد القارس فى مخ عظامهم ، ولتجف الدماء فى عروقهم !

ان جدى نفسه لم يرفع مثل هذه الصلاة الحقود .

وما ان تفرغ من صلاتها حتى تبعثنى من نومى :

– إنهض . كفاك نوما – فنحن لم نستأجرك للنوم .

اشعل السماور وهات الحطب . آها ! لقد اهملت ايضا تهيئة الاخشاب الصغيرة منذ العشية ؟

حاولت جهدى ان اعمل بسرعة بحيث لا اسمع همهمة العجوز المزعجة ، لكن ارضاءها امر مستحيل ، فهى تتدحرج مثل كتلة الثلج فى ارجاء المطهى ، وتخنخن :

– هس – س – س ، ايها الشيطان الصغير ! ستوقظ فيكتور ، واذا فعلت فلسوف ترى ! إركض الى البقال !

كنا نبتاع لفطور ايام الاسبوع اوقيتين من خبز القمح ، وبما يساوى كوبيكين من الكعك للمعلمة الصغيرة . وحين اعود بالخبز الى الدار ، تتفحصه المرأتان فى عناية وتدقيق ، وتقدران وزنه فى راحتيهما ، ومن ثم تستوضحان :

– أفليس ثمة قطعة صغيرة لضبط الوزن ؟ كلا ؟ تعال ، الآن ، وافتح فمك !

وعند ذاك تزعقان بصوت منتصر :

– لقد أكل القطعة ! لقد التهمها ! فهذه آثارها عالقة بين اسنانه !

. . . كنت اشتغل عن رغبة وطيب خاطر ، وأسر بتكنيس اوساخ البيت وغسل الارض ، وتنظيف الاوانى النحاسية ، ومقابض الابواب ، ودرفتى الموقد . وقد تناهى الى اذنى ، اكثر من مرة حين يسود السلام ، صوت المرأتين تتحدثان :

– انه يعمل جاهدا .

– انه نظيف .

– لكنه وقح .

– تذكرى من رباه !

حاولت كل منهما جهدها ان تفرض احترامها عــلىّ ، الا اننى كنت اعتبرهما نصف مجنونتين ، لا فائدة ترجى منهما ، فأرفض اطاعتهما ، واقسو فى الرد عليهما . ولا بد ان السيدة الصغيرة لاحظت كيف اجيب عن بعض ملاحظاتها ، فظلت تردد على مسمعى :

– لا تنس اننا انتشلناك من عائلة شحاذين . لقــد اعطيت امك مرة ثوبا من الحرير مزركشا بحبات من الكهرمان الاسود .

وقلت لها ذات يوم :

– أتودين سلخ جلدى عن جسمى ثمنا لثوبــك ذاك ؟

فزعقت فى خوف :

– يا للسموات ! انه يستطيع اضرام النار فى البيــت !

روّعنى كلامها هذا . لماذا اضرم النار فى البيت ؟

كانتا تشكواننى الى معلمى على الدوام ، فيقــول بحدة :

– يحسن بك ان تنتبه الى خطواتك ، ايها الفتى !

لكنه التفت ذات يوم الى امه وزوجته وقال :

– ما اجملكما ! فأنتما تركبان هذا الصبــى كالحصان . ولو كان احد غيره لهرب منذ زمن طويل ، او ربما مات مـــن الاعياء !

وهذا ما أسخط المرأتين حتى رقرقت الدموع فى عينيهما .

صاحت زوجته ، وهى تضرب الارض بقدميها فى غضب :

– كيف تجرؤ وتقول هذا الكلام امامه ، ايها الابلـــه

الطويل الشعر ! كيف يطيعنى بعدما سمع هذا الكلام ؟ لا تنسَ اننى حامل !

وناحت أمه فى حرقة :

– غفر الله لك ، يا فاسيلى . لكن تذكر ما اقول : لسوف تفسد الصبى .

وخرجتا غاضبتين .

التفت صوبى ، وقال فى قسوة :

– أترى هذا المشهد الذى كنت سببا فيه ، ايها الشيطان الصغير ! لسوف ارسلك الى جدك من جديد . هذا ما سأفعل . وتستطيع عندها العودة الى جمع الخرق .

فقلت مجيبا ، وقد عجزت عن تحمل الاهانة :

– افضل جمع الخرق عن العيش فى رفقتك . لقد جئت لأتمرن عندك ، لكن ماذا علمتنى ؟ كيف احمل النفايات وفضلات الطعام ؟

شدنى معلمى من شعرى فى لطف ، وحملق فى عينيّ وهو يقول :

– انت وغد صغير على كل حال ! هذا لن يحدث ، يا اخى ، لن يحدث ابدا ! . .

كنت متيقنا من انه سيعيدنى الى أهلى ، لكنه دخل المطهى بعد يومين يحمل قلما ، ومسطرة واداة اخرى ، وملفا من الورق .

قال :

– انسخ هذا عندما تنتهى من تنظيف السكاكين .

كانت الصورة تمثل واجهـــة بيت ذى طابقين يغصُّ بالنوافذ والزخرفة المصنوعة من الجص .

– هذا فرجار . قس الاسطر كلها ، ثم ضع نقاطا عـــلى الورق فى نهايات الاسطر ، وَصِلْ بينها بالمسطرة . ارســم اولا الخطوط الطولية – يعنى الافقية ، ثم من فوق الى تحت – يعنى العمودية . هيا !

غمرنى السرور لاننى أُعطيتُ عملا نظيفـا أبدأ بـــه دراستى ، غير اننى حملقت دهشا مرتعبا فى الورقة والادوات ، ولم افهم شيئا منها .

وعلى اية حال ، فقد غسلت يدىّ حالا ، وجلســـت للعمل . علّمت سائر الخطوط الافقية ووصلت بينها . جيـد جدا ! لكنى وجدت لسبب ما ثلاثة اسطر زائدة . ثم رسمت الخطوط العمودية ، فسيطرت علىّ دهشة بالغة اذ اكتشفـت ان المنزل قد تبدّل منظره بشكل غريب . فالنوافذ انزلقـت من اماكنها وكانت فى اماكن الفراغات بين النوافذ ، بينمــا تعلقت احداها فى الهواء خلف البيت ؛ كما ان مدخـــل الدار الرئيسى تسلّق حتى الطابـــق الثانى ، وبدا الافريز وسط السقف ، اما النافذة العليا فتربعت فى قمة المدخنة .

قبعت زمنا طويلا والدموع تترقرق فى مقلتىّ اراقب ذلك الشكل الشاذ المريع ، احاول ان افهم كيف امكن حدوثـه . وعزمت ، فى النهاية ، على تلافى ذلك بما تنفحنى به مخيلتى من مساعدة وعون . ورسمت على الافاريز وعلى طول حافـــة السطح مجموعة من العصافير الدورية ، والحمام ، والغربان . ورسمت على الارض امام البيت اناســا معوجـــى الساقين

يحملون مظلات لا تكاد تحمى عاماتهم . ثم غطيت وسط الصورة بخطوط متقطعة وحملت ذلك الى معلمى .

رفع حاجبيه ، وبرم خصلة من شعره ، واستفسر بصرامة :

– ماذا تسمى هذا ؟

فأجبت :

– السماء تمطر . ولما تمطر السماء تلوح الدور جميعا معوجة ملتوية لان المطر معوج ملتو . والعصافير – هذه عصافير جميعا – تختبئ بين الافاريز . وهى تفعل هذا كلما امطرت السماء ، وهؤلاء الناس يسرعون الى منازلهم . وهذه فتاة قد تعثرت ، وهذا بائع ليمون .

فقال معلمى ، وهو يميل على الطاولة فيمسح شعره الورقة ، وقد اخذ الضحك يهزه هزا :

– انى ممتنٌ لك فى الحقيقة .

واضاف :

– يجب ان امسحك عن وجه الارض . هذا ما ينبغى ان افعل ، ايها الدورى الصغير الصاخب !

ودخلت المعلمة الصغيرة ، وبطنها تتأرجح امامها كالبرميل ، وتفحصت رسمى .

خاطبت زوجها قائلة :

– اجلده !

فرد الزوج فى ثبات :

– أوه ، كلا ، لم اكن ارسم افضل من هذا يوم بدأت ارسم .

اشار الى الاخطاء بقلمه الاحمر ، ثم اعطانى ورقة اخرى .

– جرب ذلك من جديد . ستظل ترسم هذه حتى تنقلهـا بشكل حسن .

كانت محاولتي الثانية افضل من الاولى ، مـا عدا نافذة واحدة استندت على باب العتبة . وكرهت ان أرى ذلك البيت فارغا ، ولذا افعمته بجمع من الناس المتباينين . اجلسـت على النوافذ فتيات صبيات يروّحن بمراوحهن ، وشبابـا يدخنون اللفائف ، وتركت واحدا لا يحمل لفافة بل يسخـر منهم واضعا اصابعه فوق انفه . وتركت عند الباب عربـة صغيرة يرقد كلب صغير امام دولابها .

سألني المعلم غاضبا :

– لماذا لخبطت ذلك ثانية ؟

فبينت له ان الصورة كانت كئيبة جدا مـن دون اناس فيها ،لكنه انطلق يعنفني ويزجرني .

– لعن الله هذا . اذا رغبت في التعلّم ، فيجـب ان تعمل بصورة جدية . اما هذا فهراء كله .

ولشد ما كان سروره عظيما عندما رسمت في النهايـة صورة تشبه الأصل كثيرا .

– أرأيت ما تستطيع ان تفعل عندما تحاول ؟ اذا تابعت على هذا المنوال تتقدم في سرعة زائدة .

واعطاني وظيفة جديدة :

– إعمل مخططا للدار تبين فيه موضع الغرف ، والنوافذ ، والابواب ، وكل شيء آخر . لن ابيّن كيف يكون ذلـك . يتحتم عليك ان تصنع هذا من تلقاء نفسك .

ولجت المطهى ، وقعدت اعمل رأيي من اين ابدأ .

لكن دروسى فى الرسم انتهت عند ذلك الحد .

جاءتنى المعلمة الكبيرة وقالت بفجور :

– تريد ان تصير رساما ، ها ؟

قبضت على شعرى وضربت بالطاولة رأسى فى عنف بحيث جرحت انفى وشفتى ، وراحت تقفز علوا وهبوطا ، تمزق رسمى وتلقى بأدواتى على الارض ، ثم انتصبت ويداها على خصرها ، وزعقت ظافرة :

– حاول ذلك فقط ! وسوف ترى ما يحدث ! وهكذا ، فهو يريد شخصا آخر يشتغل معه ، ويتخلص من أخيه ، من لحمه ودمه !

دلف معلمى الى الغرفة راكضا وزوجه تخبّ فى اعقابه ، وتبع ذلك مشهد عنيف . فقد ارتمى الثلاثة على بعضهم بعضا ، يجمجمون ويعوون ، وانتهى الامر بانسحاب المرأتين تبكيان وتذرفان العبرات ، وبمعلمى يخاطبنى :

– يحسن بك ان تترك كل شىء فى الوقت الحاضر . كفّ عن الدرس . ففى استطاعتك ان ترى بنفسك ما هى النتيجة .

احسست بالأسف من اجله ، فهو على درجة عظيمة من الانسحاق والعجز ، حائرا ابدا بفعل صراخ تينك المرأتين .

كنت قد ادركت حتى قبل هذا الحادث ان العجوز تأبى علىّ العلم ، وتبذل قصاراها للتدخل فى هذا الامر . وكنت اتوجه اليها بالسؤال دائما قبل ان اجلس للرسم :

– أثمة عمل آخر تريدين منى انجازه ؟

فتجيب بشكاسة :

– سأخبرك اذا وجد شيء . هذا ما تصلح له فقط – ان تجلس هنالك تضيع وقتك على الطاولة .

ولا تمر لحظات حتى ترسلني في مهمة ما ، او تقول :

– يا لطريقتك في مسح السلم ! ان الزوايا تعج بالغبار والاوساخ ! هيا ، اخرج ونظفه من جديد !

واخرج لألقي نظرة ، فلا اجد غبارا على الاطلاق .

وكانت تزعق :

– انت تريد ان تجادلني اذن ، ها ؟

أهرقت مرة الكفاس على جميع رسومي ، وفي مرة ثانية دلقت عليها زجاجة من زيت الايقونات . كانت تفعل ذلك مثل طفلة صغيرة ، وبخبث صبياني ، بل وبخراقة صبيانية لاخفاء مكرها . لم أرَ قط شخصا يمكن ان يغضب بسرعة وسهولة مثلها ، او شخصا مغرما بالتذمر من كل شيء وكل انسان . والناس على العموم يستمتعون بالشكوى ، اما هي فتفعل ذلك بفرحة المغني بأغنيته .

كان حبها لولدها نوعا من الجنون ، يسرني ويرهبني في وقت واحد سيل قوته الجارف ، هذه القوة التي لا استطيع وصفها الا بالقوة المجنونة .

كانت تتسلق الموقد احيانا بعد صلواتها الصباحية وتتكئ بمرفقيها على حافة دكته ، وتهمس بحرارة :

– يا ولدي الطاهر ، يا دم دمي ، النقي كالماس ، البراق كريش الملاك : انه غائب في لفائف النوم . نمْ ، يا حبي ، نمْ وغلّف قلبك بالاحلام السعيدة . واحلم بخطيبة لك ، اجمل الجميلات ، اميرة غنية ، او ابنة تاجر ثري . وليمت اعداؤك

قبل ان يولدوا ، وليعش اصدقاؤك مئات السنين ، ولتترسم خطاك جميع الصبايا جماعات جماعات ،مثلما يتراكض البطء خلف ذَكَرِهِ .

ألفيت ذلك باعثا على الضحك . ذلك ان فيكتور الفظ الكسول يشبه نقار الخشب اكثر من اى شىء آخر ، بأنفه الطويل وثيابه المتعددة الالوان ، وعناده ، وغباوته .

كانت همسات أمه تُهبِّه من نومه احيانا ، فيجمجم والنعاس مسيطر عليه :

– أودك ان تذهبى الى الشيطان ، يا أم . فيمَ وقوفك ههنا تهسهسين فوقى ؟ ما من سبيل للعيش واياك !

وتهبط احيانا بوداعة ورقة ، وتقول مبتسمة :

– هيا هيا ، نم – نم ، ايها الجلف .

وتنهار ساقاها تحتها فى بعض الاحيان ، فتتدهور عن حافة الموقد وقد فغرت فمها ، تلهث وكأنها احرقت لسانها ، وتنبر بكلمات حادة :

– م . . ما . . ذا ؟ أترسل أمك الى الجحيم ، يا ابن الزنى ؟ هه ، يا وصمة على نفسى ، يا كسرة ملعونة رماها الشيطان فى قلبى ! أواه ، لو أنك تعفنت قبل ان تولد !

كانت تستعمل كلمات سكّيرى الشوارع البذيئة ، وكان الاصغاء الى تلك الكلمات امرا رهيبا حقا .

كانت تنام قليلا وبصورة قلقة ، وتنحدر فى الاحايين عن الموقد عدة مرات فى قلب الليل ، وترتمى على الوسادة حيث انام ، وتبعثنى من نومى .

– ما وراءك ؟

فتهمس ، وهى ترسم اشارة الصليب وتحملق فى شيء يجثم فى الظلمة :
– هسْسْ . آه ، يا إلهى . . . ايها النبى إيليا . . يا فارفارا الشهيدة الطاهرة . ..خلصانى من الموت المفاجئ . . .
وتشعل شمعة بيد مرتعشة مضطربة ، ووجهها المدور بأنفه العبل منتفخ جهدا ، وعيناها الرماديتان تطرفان بعصبية وهى تتفحص الاشياء المشوهة فى ضوء الشمعة الباهت . كان المطهى واسعا ، لكن وفرة من الصناديق والخزائن تجعله يلوح فى الليل صغيرا . وهذه اشعة القمر ترتاح فى هدوء ودعة ، ونار لا تخبو او تموت ترتعش امام الايقانات ، وسكاكين المطبخ تتضوأ على الجدران كالجليد ، بينا تتدلى المقالى السود عن الرفوف فتماثل وجوها عمياء قبيحة .
وكانت العجوز تنساب عن الموقد بحذر ابدا ، وكأنها تنحدر عن ضفة النهر الى الماء ، ثم تخطو متثاقلة عارية القدمين حتى الزاوية حيث إناء للماء معلق كرأس مقطوعة فوق جردل الاقذار . وكان هنالك برميل من الماء النقى النظيف ايضا .
وبعدما تشرب فى جرعات صاخبة تُنفذ بصرها من خلال المخرمات الزرق الجليدية المتجمعة على زجاج النافذة .
وتحتج بصوت خفيض :
– هلاّ رحمتنى ، يا رب ؛ هلاّ رحمت روحى !
وتطفئ الشمعة احيانا ، وتجثو على ركبتيها تهمهم بقسوة :
– ليس من يحبنى ، يا الله ، ليس هناك من يريدنى .
وتعود فتعتلى الموقد ، وترسم اشارة الصليب فوق باب

المدخنة ، ثم تدفع بيدها فى داخله لتتأكد من وجود سدادتها الحديدية فى مكانها . وتخرج يدها مغطاة بالهباب مما يجعلها تشتم وتسب بفظاظة . وتنام على الفور كأنها خاضعة لقوة مغناطيسية . وحينما تغيظنى فأنا افكر اذن كم من المؤسف ان جدى لم يتزوجها . كانت ستدبره تماما ! لكنها تنال نصيبها منه هى الاخرى . وكنت اتضايق كثيرا من سوداويتها وحقدها ، لكن وجهها المنتفخ القطنى كان يكتسى بالكآبة فى بعض الايام ، وتغرق عيناها بالدموع ، وتقول فى صوت تسمعنيه :

– أتحسبنى أتمتع بوقت هانئ ؟ لقد منحت اولادى الحياة ، وسهرت على العناية بهم ، ودفعتهم فى الحياة ، وماذا كان جزائى ؟ ان اعمل طاهية فى مطبخهم . أهذا شىء يسهل احتماله ؟ وهذا ولدى جاء بتلك المرأة تحتل مكانى – مكان دمه ولحمه ! أهذا عدل ؟

فأجبت بصدق :

– كلا ، ليس هذا بعدل .

– آه ، أرأيت ؟

وبدأت حملة من الطعن والتعيير المخجلين ضد كنتها :

– مضيتُ الى الحمام معها ورأيت كل ما يُرى فيها . ما الذى اغواه فيها ؟ أيمكن ان يستهوى المرء مثل تلك اللقمة السائغة ؟

كانت لا تفتر عن الحديث بأرذل طريقة ممكنة عن العلاقات بين الرجال والنساء . نفرت اول الامر من اقوالها ،

لكن ما اسرع ان امسيت اصغى بانتبـــاه واهتمام فائقين ، مستشعرا شيئا من الحقيقة المرة خلف كلماتها .

أعلنت ، وهى تضرب الطاولة براحة يدها :

– المرأة تحسن استعمال قوة خارقة . وقد عرفت كيف تخدع الله نفسه . وحواء هى التى كانت السبب فى ذهاب جميع الناس الى جهنم ، فلا تنسَ هذا .

كان فى استطاعتها ان تتحدث طويلا والى ما لا نهاية عن قوة المرأة ، فيلوح لى دائما انها تحاول اخافة شخص ما بمثل هذه الاحاديث . ولأتذكر خاصة قولها ان حواء خدعت الله .

كان ينتصب فى ساحتنا بيت آخر يماثل بيتنا اتساعا ، يقطن ضباط فى اربعة من جناحات البيتين الثمانية ، بينا يعيش كاهن الفرقة فى جناح آخر . اما الساحة فتعجُ على الدوام بالوصفاء الجنود وجنود المراسلة وصديقاتهم – من طاهيات وغسالات ، وخادمات . وكانت المطابـــخ على الدوام مسارح لفواجع وروايات تصاحبها الدموع والمشاجرات والخصامات . وكان الجنود يتقاتلون مع بعضهم بعضا ، او مع حفارى الخنادق ، او مع عمال الدار . وكان نصيب النساء الضرب على الدوام . كانت ساحتنا تغلى بما يسمونـــه الفجور والدعارة – الجوع الوحشى الذى لا يرتوى لشبان اصحاء . وكنت اصغى دائما فى ساعة الغداء ، او الشاى ، او العشاء ، الى معلمى ومعلمتىّ يتحدثون بتفصيل وقح عن هذه الحياة المشبعة بالشهوانية الفظة ، وبالوحشية البهيمية ، وبتبجح دنىء قذر عن النصر والغلبة . وكانت العجوز دائما ملمّة بجميـــع ما يحدث فى الساحة ، فتردّده باندفاع سافل .

كانت الزوجة الشابة تصغى صامتة الى تلك الاحاديث ، وابتسامة ما تترجح على شفتيها العارمتين . ويزمجر فيكتور ضحكا . اما معلمى فيتلع وجها مشمئزا ويقول :

– اكتفينا من هذا ، يا أماه .

فتتململ الأم :

– ايتها السماوات الطيبة ، انت لا تسمح لى حتى بمجرد فتح فمى .

فيشجعها فيكتور :

– لا بأس عليك ، يا أماه . ليس ما يمنع حديثك هنا . فليس ثمة غريب عن العائلة .

كان البكر يحسُّ شفقة كريهة تجاه أمه ، يتجنب الانفراد معها على الدوام ، واذا حدث ذلك مصادفة فهى تمطره بوابل من الشكاوى عن زوجته ، ومن ثم تنتهى ابدا الى ان تطلب منه مالا . وما اسرع ان يضع فى يدها روبلين او ثلاثة روبلات مع بعض القطع النقدية الصغيرة .

– حماقة منك ان تأخذى هذا المال ، يا امى . لست احسدك عليه ، لكن يجب عليك الا تأخذيه .

– انى آخذه للمتسولين فحسب – ولأبتاع لنفسى بعض الشموع فى الكنيسة . . .

– متسولون ! لسوف تسببين هلاك فيكتور .

– أنت لا تحب أخاك ، هذا عيب كبير !

فينصرف ، وهو يلوّح بيده نافد الصبر .

كان فيكتور قاسيا مستخفا بأمه ، اكولا بصورة لا تصدق . وكانت العجوز تعد بعض الفطائر ايام الآحاد وتخبئ

منها كمية فاخرة له ، تضعها فى جرة موضوعة تحت الكنبة التى أنام عليها . وما أن يرجع من القداس حتى يغرق باحثا عن الجرة ، ويهمهم :

– افلم يكن فى مقدورك ان تتركى اكبر ، ايتها الشحيحة العجوز ؟

– هيا التهم هذا قبل أن يراك أحد .

– اذا رآنى احد فسأقول انك تسرقين الفطائر من اجلى ، ايتها العجوز المزعجة .

اخرجتُ الجرة مرة واكلت فطيرتين . ضربنى فيكتور عقابا لى . كان يكرهنى بقدر ما اكرهه . وهو يغيظنى ، ويجبرنى على تنظيف حذائه ثلاث مرات فى اليوم الواحد . واذا اضطجع على دكته ابعد الشقوق عن بعضها ليبصق من بينها مستهدفا رأسى .

لعله غار من أخيه ، هذا الذى يدعو الناس جميعـــا بـ«الفراخ الصاخبة» ، فابتدع جملا أُولع بترديدها كثيرا . لكن تلك الجمل كانت على درجة عظيمة من الغباء والسخف .

– أماه ، انتبهى ! اين جوربى القصير ؟

كان يعذبنى بأسئلته الخرقاء ، فيقول مثلا :

– ألكسى ، لربما تستطيع ان تخبرنى لم يكتبون «ماية» ويلفظون الكلمة «مئة» ؟ ولمَ يقولون «عمود» عوضا عـــن «عامود» ؟ ولمَ يقولون «ندّد به» عوضا عن «ذمّه» ؟

ابغضت تلك الطريقة التى يتكلمون بها جميعا . ولما كنت نشأت على لغة جدتى وجدى الجميلة الفاتنة فلم اكن استطيع ان افهم ، بادئ الامر ، ذلك الامتزاج الغريب لكلمات غير

متجانسة مثل : «يبعث على السخرية بشكل هائل» ، «ميت من الجوع» ، «فرح مخيف» . كان يتراءى لى ان السخرية لا يمكن ان تكون هائلة ، والفرح لا يمكن ان يكون مخيفا ، ولم اجد شيئا يوحى بالموت فى شهية اولئك الناس .

سألتهم ذات مرة :

– أصحيح مثل هذا الكلام ؟

فأجابوا فى غضب :

– انظروا هذا الذى ينصب نفسه معلما لنا ! انه فى حاجة الى فرك اذنيه !

ووجدت عبارة «فرك اذنيه» غير صحيحة . تستطيع ان تفرك النباتات والورود والثمار ، اما الاذنان فلا .

شدوا اذنىّ ، محاولين ان يبرهنوا لى على امكانية فرك الاذنين ، لكننى لم اقتنع . صحت كالمنتصر :

– ان اذنىّ لم تُفركا على اية حال !

كنت لا أرى فيما حولى الا الشر الذى لا يعرف الشفقة ، والانحطاط السافل الدنس – وذلك بصورة تزيد كثيرا عنها فى شوارع كونافينو ، تلك التى لم تكن تنقصها بيوت الدعارة وفتيات الشوارع . لقد كان المرء يحسّ ، وراء قذارة كونافينو وشرورها ، حتمية تلك القذارة والشرور : العبودية ، والبؤس ، وحياة نصف ساغبة . اما هنا ، فالناس يعيشون فى نعيم وراحة ، والاضطراب المشوش يحل محل العمل ، ويجثم على كل شىء ظل من السآمة الخداعة المرهقة .

كنت تعيسا بصورة فائقة ، لكن تعاستى تزداد عندما تزورنى جدتى . كانت تلج المطهى دائما من الباب الخلفى ،

وبعدما ترسم اشارة الصليب امام الايقونات تنحنى حتى خصرها احتراما لاختها الصغرى . وكانت تلك الانحناءة تسحقنى فكأنها ثقل وازن يئيد عليّ .

كانت معلمتى تقول بنغمة باردة محتقرة :

– آه ، أهذه انت ، يا أكولينا ؟

ولا اعود اعرف جدتى . انها تزمّ شفتيها بتواضع بطريقة تبدل ملامحها جميعا . وتقتعد دكة قريبة من الباب فى صمت ، قرب برميل الماء القذر ، وتلوذ بالصمت فكأنها اقترفت ذنبا ما ، ترد على اسئلة اختها بلطف وصوت خفيض .

استقبحت ذلك ، فقلت غاضبا :

– فيمَ جلوسك ههنا ؟

فأجابت بتأثر ، وقد غمرتنى بحنان :

– أطبق شفتيك . فلست السيد هنا .

وقالت معلمتى ، بادئة شكاواها :

– انه يدس بأنفه دائما فيما لا يعنيه غير مبال مهما ضُرب او زجر .

وكانت تستوضح اختها احيانا بخبث :

– اذن أمسيتِ متسولة ، أليس كذلك ، يا أكولينا ؟

– ليس هذا بالامر السيئ كثيرا .

– ليس ثمة شيء مؤذ ، أللهم ما لم يكن مخجلا .

– يقال ان المسيح كان يتسول .

– البلهاء والهراطقة وحدهم يقولون هذه الاشياء ، وانت تعيرينهم سمعك ، ايتها الحمقاء العجوز ! لم يكن المسيح متسولا . لقد كان ابن الله . ولسوف يأتى كما هو مكتوب ،

ليقاضى الاحياء والاموات – حتى الاموات ، فانظرى ! ولا مجال للاختباء منه حتى ولو حرقت نفسك الى رماد . وسوف يحاسبك انت وفاسيلى لعجرفتكما وتكبركما ، لطردكما اياى يوم قدمت أطلب عونكما ، يا قريبىّ الغنيين الرائعين !

فردت جدتى دون ان تنزعج :

– لقد فعلت دائما ما فى طوقى من اجلك . ولكن الله رأى من المناسب ان يُنزل بنا عقابه ، انتِ تعرفين . . .

– هذا لا يكفيكما – لا يكفى !

تابعت اختها الحديث دون توقف ، تجلد جدتى بلسانها الجلود ، وكنت اتساءل وانا اصغى الى عوائها كيف تتحمل جدتى ذلك ، ولم أكن احبها فى مثل هذه الاحيان .

دخلت المعلمة الصغرى المطهى ، وهزت رأسهـــا فى لطف :

– تعالوا الى غرفة الطعام . هذا حسن – تعالوا ، هيا !

وزعقت العجوز ، وجدتى تحاول الدخول :

– إمسحى قدميك ، ايتها الكسيحة المتداعية !

وحياها معلمى ببشاشة :

– آه ، أكولينا الحكيمة ! كيف حالك ؟ اما زال العجوز كاشرين حيا يرزق ؟

فرمته جدتى بابتسامة من ابتساماتها الودية :

– اما تزال تكدُ ؟ تشتغل ابدا ؟

– اشتغل دائما ، كمحكوم بالاشغال الشاقة .

كانت جدتى تتحدث معه بحرارة وعطف ، لكن بلهجة من هو اكبر سنا . وكان احيانا يأتى على ذكر أمى :

– هِمْ – فارفارا فاسيلييفنا ، يا لها امرأة ! امرأة رائعة حقا !

فأضافت زوجته ، مستديرة صوب جدتى :

– أتذكرين انى اعطيتها ذلك المعطف الحريرى الاسود الموشى بالكهرمان ؟

– اجل ، بالطبع .

– لقد كان جيدا ، فكأنه جديد .

فتمتم معلمى :

– هِمْ – معطف – مقرف – فالحياة دُعابة .

فاستفسرت زوجته بريبة :

– ما هذا ؟

– أوه ، لا شيء – لا شيء على الاطــــــلاق . ان الايام السعيدة تنقضى ، وكذلك الناس الرائعون . . .

فقالت زوجته قلقة :

– لماذا تقول مثل هذه الاشياء بربك ؟

اخذوا جدتى اخيرا لترى الطفل الجديد ، بينما بقيت انا اجمع ادوات الشاى لغسلها .

قال معلمى بلطف ، وكأنه يحلم :

– جدتك عجوز رائعة .

كنت اغتبط كثيرا حين اسمع منه تلك الكلمات . وما أن انفردت بجدتى حتى قلت لها ، وقلبى يعتصره الألم :

– لماذا تجيئين الى هنا ؟ أفلا ترين ما هى حقيقتهم ؟

– أواه ، يا أليوشا ، فأنا ارى كل شىء .

اجابت بهذا ، وهى تحملق فىّ وابتسامة حنون ترتسم على صفحة وجهها الجميل ، ويا سرعان ما شعرت بالخجل : لمن المؤكد انها رأت كل شيء وعرفت كل شيء – حتى ما كان يعتلج فى باطنى تلك اللحظة .

وبعدما تطلعت حواليها فى حذر لترى ان كان ثمة من هو قريب منا ، عانقتنى وقالت بتأثر بالغ :

– طبعا ما كنت لأجيء الى هنا لولاك – فماذا اريـــد منهم ؟ جدك مريض ، وانا اعنى به ولا اعمل شيئا ، ولذا فلستُ أملك نقودا . . . وولدى ميخايلو طرد ولده ساشا ، وهكذا اضطررت لتقديم الطعام والشراب له . وقد وعدوا ان يدفعوا لك ستة روبلات فى السنة ، فقلت فى نفسى – لعلهم يدفعون روبلا واحدا الآن . فلقد مضى عليك ما يقرب من نصف سنة وانت تشتغل ، أليس كذلك ؟

انحنت علىّ اكثر من ذى قبل وراحت تهمس فى اذنى :

– اوعزوا الىّ ان اوبخك – وقالوا انك لا تطيع احدا . لو كنت تعيش ههنا فترة ، يا حمامتى الصغيرة – حاول تحمل ذلك سنة او سنتين حتى تشتد قوتك وتثبت على قدميك . . .

فوعدتها بذلك . لكن الامر كان عسيرا بالنسبة الىّ . فقد جثم علىّ ذلك البؤس بكلكله ، وذلك الوجود المضجر ، اذ ادور وادور منذ الصباح حتى المساء سعيا وراء ما يسدُّ نهم المعدة . لقد كنت اعيش وكأننى فى حلم شرير .

كنت اعزم احيانا على الهرب . لكن الشتاء اللعين يربض بثقله . فالعاصفة الثلجية تنفخ فى الليل ، والريح تعول فى

الطابق العلوى ، واخشاب السقف تقرقع تحت ضغط الجليد . فكيف استطيع الفرار ؟

لم يكن مسموحا لى بالخروج من الدار لألعب ، والحقيقة انه لم يكن لدىّ الوقت الكافى لذلك . وانقضت ايام الشتاء القصيرة فى دوامة من الاعمال الكئيبة .

لكنى كنت مرغما على الذهاب الى الكنيسة — ايام السبت لصلاة الغروب ، وايام الآحاد لقداس الصباح الاخير .

كنت ابتهج بالذهاب الى الكنيسة . انى انتخب زاوية معتمة منعزلة ، فأقف هناك معجبا بالايقونسطاس ، هذا الذى يلوح من بعيد وكأنه يذوب فى لهيب الشموع فى جداول ذهبية عريضة فوق الارض الحجرية . وتضطرب وجوه الايقونات السود بلطف ، وتنعكس الشعاعات الفرِحة على المخرمات الذهبية للباب الملوكى . وكانت الشموع معلقة فى الهواء الازرق كنحلات من الذهب ، ورؤوس النسوة والصبايا تبدو كالازهار .

كان كل ما يحيط بى يذوب بتناسق ، وايقاع غناء الجوقة وكل شىء يعيش فى حياة من اساطير الجنيات ، والكنيسة كلها تترنح ببطء مثل ارجوحة تتمايل فى الظلمة ، كثيفة كالزفت .

كانت الكنيسة تتراءى لى احيانا وكأنها تغوص فى بحيرة ، تختبئ عن العالم لتعيش حياة منفردة خاصة ، تختلف كل الاختلاف عن كل حياة اخرى . ولربما كانت هذه الفكرة وثبت الى رأسى من تأثير حكايات جدتى عن مدينة كيتيز الخرافية . وغالبا ما كنت اغرق فى ما يحتف بى — تهدهدنى اناشيد

الجوقة ، والصلوات الصامتة ، وزفرات المصلين وتنهداتهم – فأتلو على نفسى هذه القصة العذبة الحزينة :

وقدم التتار عند ذاك فى حشود كافرة ،
جاؤوا فوق احصنهم المطهمة ، مسلحين حتى الاسنان ،
وحاصروا مدينة كيتيز الجميلة ،
ساعة صلوات الصباح الطاهرة .
آه ، يا سيد الكون ،
آه ، يا والدة الاله الطاهرة ،
تعاليا لمساعدة عبيد الله ،
فينهون صلواتهم فى اطمئنان وسكينة ،
ويتشربون كلمتك فى خضوع وضعة ،
لا تدع معبدك يتدنّس ،
وشرف العذارى يُهتك ويُغتصب ،
والاطفال الابرياء يذبحون ،
والشيوخ والمقعدون يموتون ،
وعندئذ فان الإله القدير يهوه ،
والعذراء الطاهرة النقية ،
قد حركتهما هذه التفجعات الاليمة
واثارتهما هذه التوسلات الكئيبة .
فتكلم اذ ذاك الإله يهوه العظيم
مخاطبا ميخائيل ، رئيس الملائكة المقدس :
«اهبط الى ارض البشر ، يا ميخائيل ،
وهزّ الارض تحت مدينة كيتيز

بحيث تطوق الارض هذه المدينة .
عندئذ يستطيع عبيد الله
ان يصلّوا دون قلق ،
يصلّوا دون انقطاع ، يصلّوا دون خوف ،
من صلاة الصباح حتى صلاة الغروب ،
عبر مختلف الخدمات المقدسة ،
سنة بعد سنة ،حتى الابد !

كنت ، فى ذلك الحين ، مشبعا بقصائد جدتى كخلية تزدحم بالعسل . وكان يلوح لى ان افكارى نفسها تنتظم شعرا على اوزان قصائدها .

لم اصلّ فى الكنيسة قط – كنت اتردد فى اعادة صلوات جدى الحقودة ومزاميره الكئيبة امام إله جدتى . وكنت واثقا ان إله جدتى سوف يبغضها مثل بغضى لها . وفضلا عن ذلك فهى مطبوعة فى الكتب بكاملها ، وهذا يعنى ان الله يحفظها عن ظهر قلب دون ريب مثل اى رجل متعلم .

ولهذا السبب ، وحينما يعتصر قلبى نوع من الاكتئاب الحلو ، او تخدشه بعض من تلك الآلام اليومية الصغيرة ، فانا احاول ان ابتدع صلوات خاصة بى . كان يكفينى ان افكر بمصيرى البائس الذى لا احسد عليه ، حتى اجد الكلمات تتجمع من تلقاء ذاتها دون اى جهد او عناء :

آه ، يا إلهى ، يا إلهى ، ما أشد تعاستى !
انى لأرجو من الله ان اغدو رجلا !

سامحنى ، يا رب ، ان انا قتلت نفسى ،
فلقد ضجرت ومللت الحياة .
انهم لا يعلموننى شيئا ههنا ؛
واخت جدتى ، هذه الساحرة البشعة ،
لا تفتأ تعنفنى وتشد اذنى ،
والحياة نفسها كلبة مخيفة !

وانا لا ابرح اذكر ، حتى اليوم ، عددا من «صلواتى» . ان الاعمال التى يقوم بها عقل الصغير تخلف آثارا عميقة فى النفس لا يقوى النسيان عليها حتى يطويها الموت .

كنت احب ان اغدو الى الكنيسة ، وانى لأجد الآن فيها تلك الراحة التى كنت اجدها ، فى الايام الغابرة ، فى الحقول والغابات . كان قلبى الصبيانى ، وقد غدت الجروح خدنه الأليف وصبغته قسوة الحياة ، تغسله هنا احلام مبهمة لكنها جارفة قوية . ولم اكن انطلق الى الكنيسة الا فى ايام البرد القارسة ، او حين تهب عاصفة ثلجية تجتاح المدينة ، تجمد السماء وتبرقعها بسحب من الثلوج ، بينا الارض ، وقد تجمدت هى الاخرى تحت اكوام الثلج ، تبدو وكأنها لن تستفيق مطلقا . . . او انها لن تعود الى الحياة من جديد قط .

وكنت اوثر ، فى الليالى الساكنة ، التجول فى انحاء المدينة اصعد شارعا واهبط آخر ، وأجوب الزوايا السحيقة النائية . كنت أغذُ السير كما لو كنت أطير بجناحين ، وحيدا كالقمر فى السماء ، وظلى يتراكض امامى يمحو لمحات الضوء عن الثلج ويتسلق متسليا الاعمدة والاسوار . وينحدر على

طول وسط الشارع الخفير الليلى يتعطف فروة ضخمة ، ويحمل قطعتين من الخشب مصفقا بهما ، وكلبه يتواثب الى جانبه . ان هيئتـــه الضخمـــة تذكرنى بمأوى كلب القى خارج احدى الساحات يتحرك وسط الشارع لهدف مجهول ، والكلب القلق يعدو فى إثره .

والتقى احيانـــا فتيات ضاحكـــات يصحبهن الصبيان ، فاستنتج أنهم فروا ، هم الآخرون ، من صلاة الغروب .

كانت روائح غريبة تنصب فى بعض الاحيان عبر النوافذ المضاءة - روائح ناعمة ، غير مألوفة ، تنمُّ عن حياة اخرى اجهل كنهها . وكنت اتصلب تحت النوافذ ، اشمُّ وابذل جهدا عظيما لأخمِّن ماهية اولئك القوم الذين يعيشون هناك وكيف يعيشون . وفى الوقت الذى يجب ان يكون فيه القوم المحترمون جميعـــا فى صلاة الغروب ينطلق هؤلاء يضحكون ويثرثرون ويعزفون على قيثارة من نوع خاص ترسل من النافذة نغمات حلوة .

ولقد اثار فضولى ، بنوع خاص ، منزل منخفض من طابق واحد يقوم فى زاوية شارعين هادئين هما شارع تيخونوفسكيا وشارع مارتيونوفسكايا . عثرت عليه فى ليلـــة قمراء خلال الذوبان الربيعى للثلوج الذى يسبق ايام المرافـــع . كان ينصب من النافذة المفتوحة ، مصحوبـــا بنوع من البخار ، صوتٌ مدهش فكأن انسانا قويا جدا وطيبا جدا يغنى من خلال شفتين مطبقتين ؛ كانت الكلمات مبهمة ، لكن الاغنية بدت لى مألوفة جدا يدركها العقل فى بساطة ، ولم تكن تصل الى اذنى فى سهولة ، اذ تعترضها بعض الالحان الوترية التى لا تبرح

تعوق تدفق الاغنيـــــة . واتخذت جذع شجرة مقعـــدا لى ، واستنتجت ان مصدر الموسيقى كمان يملك قوة رائعة ، بل قوة لا تطاق . كان الإصغاء يكاد يؤلمنى ، فالكمان ينشـــد احيانا بقوة صاخبة يلوح معها ان البيت يرتجف من اساساته ، مما يجعل الزجاج فى النوافذ يطنّ بشدة . وكان يسّاقط من السقف قطرات من الماء يبعث بها الثلج الذائب ، وقطرات من الدموع تنحدر على وجنتىّ تبعثها عيناى .

لم انتبه الى اقتراب الخفير الليلى حتى دفعنى فى كتفـــى فهويت على جذع الشجرة .

سأل :

– فيمَ تكاسلك ههنا ؟

فشرحت له :

– الموسيقى . . .

– وما أهميتها ؟ إذهب !

فركضت مسرعا ، ودرت حول الحى ، ورجعت الى مجثمى السابق . لكن العزف انقطع . وراح يتساقط من النافـــذة صخب مرحٍ وجلبة لا تشبه مطلقا تلك الموسيقى الكئيبـــة حتى خيّل الىّ انى حلمت بها .

صرت اهرع الى ذلك البيت كل سبت تقريبا ، لكنى لم اسمع ذلك التشيلو غير مرة واحدة فى الربيع . ظل يطلـــق انغامه دون توقف حتى منتصف الليل . ولما رجعت الى البيت نلت نصيبى من الضرب .

لقد اغنتنى كثيرا تلك الجولات الليلية تحت مصابيـــح دجى الشتاء ، على طول شوارع المدينة المقفرة . وكنت اختار

عامدا شوارع الضاحية ؛ ان الشوارع الرئيسية مضاءة بالعديد من الانوار ، واذا ما لمحنى اصدقاء مخدوميّ فلسوف يكتشفون انى لا احضر صلوات الغروب وفضلا عن ذلك فان جولاتى فى الشوارع الرئيسية قد يشوشها السكارى ، ورجال الشرطة ، وعاهرات الليل . اما فى الشوارع المنعزلة ففى استطاعتى ان اتطلع عبر نوافذ الطوابق الارضيـــــة اذا لم تكن الستائر تسترها او الجليد يغطيها .

اطلعت فى مشاهد لا عدد لها من خلال تلك النوافذ . رأيت قوما يصلّون ، ويقبلون بعضهم بعضا ، ويتعاركون ، ويلعبون الورق ، ويتبادلون احاديث جدية لا ضوضاء لها . كانت تمر امام عينى مشاهد خرساء تشبـــه حياة الاسماك وتماثل تلك التى نشاهدها فى صندوق العجائب .

وقع بصرى مرة من خلال نافـــذة قبو على امرأتين — احداهما صبية والاخرى أكبر سنا جلستا الى مائدة . وقبالتهما جلس طالب طويـــل الشعر يقرأ لهما كتابـــا وهو يلوّح بذراعيه . اسندت الصبية ظهرها الى مقعدها ، وقد ارهفت سمعها ، وزوّتْ ما بين حاجبيها بقسوة . اما المرأة الثانية — النحيلة الجسم الكثة الشعر — فقد غطت فجأة وجهها بيديها وراحت تنشجُ حتى اهتز كتفاها فرمى الطالب كتابه . وما كادت الصبية تثب على قدميها وتنطلق خارج الغرفة ، حتى جثا على ركبتيه امام المرأة الكثة الشعر وراح يقبل يديها .

ورأيت من خلال نافذة اخرى رجلا ضخما ملتحيا يمسك بامرأة فى قميص احمر على ركبتيه ، وهو يهدهدها كطفـــل صغير . وكان يبدو انه يغنى ، اذ كان يفتح فمه ويحملق

بعينيه . وكانت المرأة تنفجر ضحكا وتطوح نفسها بين ذراعيه ، وترفس الهواء بقدميها . واجلسها الرجل من جديد ، وتابع غناءة ، وعاودت ضحكها . وجعلت اراقبهما فترة طويلة ، ثم تركتهما مستشعرا ان حبورهما سيمتد الليل بطوله .

ان مشاهد كثيرة من هذا النوع انطبعت فى ذاكرتى الى الابد . وكثيرا ما كانت هذه الانطباعات تردنى الى البيت فى ساعة متأخرة ، فيثير ذلك ارتياب مخدومى وشكوكهم .

كانوا يستوضحوننى :

– الى اية كنيسة ذهبت ؟ من هو الكاهن الذى خدم القداس ؟

كانوا يعرفون الكهنة جميعا فى البلدة ، واى فصل من الانجيل كان قد قُرِئ ، فما أسهل ما يصطادوننى بالجرم المشهود .

كانت المرأتان تعبدان إله جدى الغضوب – إلها يريد ان يخافه الناس ويرهبونه . وكان اسمه يتردد ابدا على شفاههما ، حتى وهما تتخاصمان . كانت احداهما تتوعد الاخرى :

– انتظرى فحسب ! لسوف يعاقبك الله . سيغضن لحمك ، ايتها الفاجرة !

وصنعت العجوز ، فى الاحد الاول من الصوم الكبير ، كعكا راح يلتصق بالمقلاة .

صاحت فى ثورة من غضب ، ووجهها يتورد بفعل انعكاس النار :

– اخذك الشيطان !

وعلى حين فجأة ، بينا هى تشم المقلاة ، ازداد وجهها ظلمة ، وطوحت بالمقلاة على الارض ، وزعقت :

– ايها الاله الطيب ! لقد كان فى المقلاة دهن ! انى نسيت ان احرق عنها هذا الدنس يوم اثنين السجدة ! يا إلهى !

ارتمت على ركبتيها ، وراحت تتضرع باكية :

– يا إلهى العزيز ، سامحنى ، انا الخاطئة ، بشفاعة رحمتك . لا تنزل عقابك بعجوز حمقاء مثلى ، يا إلهى العزيز . . .

القوا بالكعك المحترق للكلب ، ونظفت المقلاة جيدا ، لكن السيدة الصغيرة ظلت تذكر العجوز بهذه الحادثة ، فهى تخاطبها على الدوام حين تختصمان :

– لقد قلوت الكعك فى مقلاة غير طاهرة خلال الصوم الكبير !

كانتا تجران الله الى جميع المنازعات البيتية ، الى كل زاوية مظلمة من حياتهما الحقيرة . وكان يبدو ان ذلك يمنح وجودهما البائس معنى واهمية ، فكأن كل دقيقة مكرّسة لخدمة قوة علوية ما . وكانت العدوى قد اصابتنى من عاداتهما فى ادخال شخصية الله فى كل تفاهة ، فصرت استرق النظر الى الزوايا دون وعى منى ، مستشعرا ان عينا غير مرئية تراقبنى ، بينا اروح فى الليل ارتعش من جراء خوف بارد يجتاح جسدى . كان هذا الخوف يصدر من زاوية المطبخ حيث ثمة قنديل لا يبرح يحترق امام الايقونات العاتمة .

وكانت نافذة ضخمة تقوم الى جانب رف الايقونة ، يفصل

قضيب حديدى ما بين مصراعيها ، وفيما وراء النافذة يمتد فراغ ازرق فسيح ، فيبدو ان البيت ، والمطبخ ، وكل شيء آخر ، بما فى ذلك انا نفسى ، معلقين جميعا على حافة ذلك الفراغ ، وان اية حركة طفيفة ستطوح بنا فى هاوية زرقاء باردة من خلف النجوم الى الصمت الميت ، مثل حجر قذف به الى الماء . وكنت استلقى دون حراك فى سريرى طوال زمن مديد ، خائفا من اتيان اية حركة ، منتظرا نهاية العالـــم المخيفة .

ولست اذكر الآن كيف شفيت من ذلك الخوف ، لكننى شفيت حقا وبسرعة كلية . لا ريب ان إله جدتى الطيب هب لمساعدتى . ويبدو اننى كنت ، فى ذلك الوقت ، مدركا هذه الحقيقة البسيطة : انى لم اقترف شرا ، وليس ثمة قانون يمكن ان ينالنى بالعقاب اذا كنت بريئا ، ولا يمكن ان اؤخذ بجريرة الآخرين اطلاقا .

كنت اهرب من حضور خدمة قداس ما بعد الظهر ايضا ، وخاصة فى الربيع . ان القوى القاهرة للطبيعة المولودة الى الحياة من جديد لا تنى تقودنى بعيدا عن الكنيســـة . فاذا اعطونى ، مثلا ، بعض كوبيكات ابتاع بها شمعة للمذبح ، فهم ضيّعونى حقا . كنت ابتاع بالمال كعابـــا وانصرف الى اللعب طوال فترة القداس ، ومن ثم اعود ، حسب العادة ، متأخرا الى البيت . وذات يوم خسرت عشرة كوبيكات اعطونيها لأقدمها ذبيحة وصلاة على نية الموتى ، وكان من نتيجة ذلك ان سرقت قربان شخص آخر من الصينية التى حملها الشماس من المذبح .

كنت شغوفا باللعب اندفع اليه بحماسة وغيرة . ولقد كنت قويا وماهرا ، فما اسرع ان اكتسبت شهرة فى حيّنـــا بألعاب الكرة ، والكعاب ، والاوتاد .

ارغمت خلال الصوم الكبير على الاستعداد لتناول القربان . فمضيت الى جارنـــا ، الاب دوريميدونت بوكروفسكى ، كى اعترف له بخطاياى . وكنت اعتبره مخلوقا قاسيا ، ولم اكن متغافلا عن الخطايا الكثيرة التى اقترفتها بحقه : أتلفت كشك حديقته بضربه بالحجارة ، وتقاتلت مع اولاده ، واتيت عدة جرائم اخرى لا بد ان تثير نقمته ضدى . كان هذا كله يجول فى خاطرى وانا واقف فى ذلك الركن القذر من الكنيسة انتظر دورى فى الاعتراف ، وقلبى يخفق بشدة .

بيد ان الاب دوريميدونت قابلنى بترحاب لطيف . قال :

– آه ، يا جارنا ! حسنا ، إركع على ركبتيك . وارو لى خطاياك .

غطى رأسى بقطعة من المخمل الثقيل ، فاذا برائحة البخور والشمع تضيق علىّ الخناق ، وتجعـــل من الصعب ان اتفوه بالكلمات التى لم تكن بى رغبة فى النطق بها .

– أتطيع من يكبرك سنا ؟

– كلا .

– قل : «انا مخطئ» .

فانفجرت ، وقد تملكتنى الدهشة :

– لقد سرقت قربان الذبيحة .

فاستفسر الكاهن فى روية ، بعدما امعن التفكير برهة :

– ماذا تقول ؟ أين ؟

– فى كنيسة القديسين الثلاثة ، وفى كاتدرائية بوكروف ، وكنيسة نيقولاى المقدس .

– مهلا ، مهلا ، أتعنى انك سرقت من الكنائس كلها ؟ هذا عمل قبيح ، يا ولدى . خطيئة ، هل تفهم ؟

– نعم .

– قل : «انا مخطئ» . ايها الصبى الاحمق – هل سرقت القربان لتأكله ؟

– كنت آكله احيانا ، وفى احيان اخرى كنت اخسر نقودى فى اللعب ، وكان يجب علىّ ان احمل خبز القربان الى البيت ، ولذلك كنت أسرقه .

فتمتم الاب دوريميدونت بعض جمل قصيرة فى صوت خافت . وطرح علىّ بعض الاسئلة الاخرى ، ثم سألنى فجأة فى صوت حاد :

– هل قرأت كتبا طبعت بصورة سرية ؟

فلم افهم سؤاله .

استفسرت :

– ماذا ؟

– كتبا ممنوعة ، هل قرأت شيئا منها ؟

– كلا ، لم اقرأ شيئا .

– حسنا . مغفورة لك خطاياك . إنهض .

فتطلعت الى وجهه فى شىء من الدهشة . كانت سيماؤه لطيفة تنم عن تفكير عميق ، فاستشعرت خجلا . كانت معلمتاى حين بعثتا بى الى الاعتراف قد اخبرتانى بأشياء عديدة راعبة لتخيفاننى وتدفعان بى الى الاعتراف بكل شىء .

قلت :

– لقد قذفت الكشك الصيفى فى حديقتك بالحجارة .

فرفع الكاهن رأسه :

– وهذا ايضا عمل قبيح ، هيا انصرف الآن .

– وكلبك ايضا .

فقال الاب دوريميدونت ، وقد حول انظاره عنى :

– من دوره الآن ؟

انصرفت وانا اشعر بالاذية والخداع . ان انتظار هذا الاعتراف ارعش اعصابى ، وانتهى الى لا شىء على الاطلاق حتى انه لا يثير ادنى اهتمام . الشىء الوحيد الباعث على الاهتمام هو سؤاله عن هذه الكتب السرية . وتذكرت ذلك الطالب الذى كان يقرأ للمرأتين فى القبو ، وتذكرت «هذا رائع» . كان يملك كتبا كثيرة سوداء ضخمة تحوى كثيرا من الصور الغامضة .

اعطونى فى اليوم التالى خمسة عشر كوبيكا وارسلونى الى الكنيسة . كان عيـــد الفصح قد أطلّ متأخرا هذا العام ، فالثلوج ذابت ، وراحت نفخات صغيرة من الغبار تدوم فوق الشوارع الجافة . كان يوما اشرقت السماء فيـــه بالشمس والحبور .

وكان ثمة جماعة من العمال يلعبون فى هياج عند جدار الكنيسة . وخطر لى انه لا يزال لدىّ متســـع من الوقت للمناولة .

سألت العمال :

– هل تسمحون لى باللعب ؟

فأعلن شاب احمر الرأس منقط الوجه فى لهجة لا تخلو من الفخر :

– الشوط بكوبيك واحد .

فرددت عليه بمزيد من الفخر :

– انى اضع ثلاثـــة كوبيكات تحت الوتد الثالث من اليسار .

– ارنا نقودك .

وبدأ اللعب !

صرفت الخمسة عشر كوبيكا ووضعت ثلاثـــة منها تحت وتدى : ان من يرميه سيربح المال ؛ ومن يخطئه يدفع لى ثلاثة كوبيكات كاملة . وكنت محظوظا : فقد صوب شخصان الى وتدى فأخطآه ، وهذا يعنى انى ربحت ستة كوبيكات – من الكبار ! وهذا ما رفع معنوياتى وحلق بها . واعلن احـد اللاعبين :

– راقبوه ، يا شباب ، والا هرب بما ربح منا .

فأغضبنى ذلك .

رفعت صوتى زاعقا :

– تسعة كوبيكات على الوتد الاخير الى اليسار !

وبدا ان تفاخرى لم يؤثر فى اللاعبين الا قليلا ، الا ان صبيا يماثلنى فى العمر صاح بهم محذرا :

– راقبوه جيدا ! انه شيطان محظوظ ! وانا اعرفه !

فرد عامل نحيل القامة يبدو انه دباغ جلود فى سخرية :

– أتقول انه شيطان ؟ هم م – م ، لسوف نرى !

وصوب جيدا واطاح بوتدى . وسأل ، وقد استـــــدار صوبى :

– هل تستمر فى اللعبة ؟

فعقبت اقول :

– ثلاثة كوبيكات اخرى تحت الوتد الاخير الى اليمين .

فتبجح الدباغ :

– سوف اربحها .

لكنه خسر .

كانت قواعد اللعبة تمنع الرهان على وتد اكثر من ثلاث مرات متعاقبة . فشرعت اصوب على اوتاد الآخرين وربحت اربعة كوبيكات وعددا كبيرا من الكعاب . وما ان عاد دورى حتى خسرت كل شىء . حدث ذلك حين انتهت خدمة القداس تمامـــا . وراحت الاجراس تقرع والناس يدلفـــون خارج الكنيسة .

سأل الدباغ ، وهو يحاول ان يشدنى من شعرى :

– هل انت متزوج ؟

لكنى تملصت منه واطلقت ساقى الريح . والتقيت شابا يرتدى بزة نهار الاحد ، فخاطبته متأدبا :

– هل اشتركت فى المناولة ؟

فرد مجيبا ، وهو يرمقنى متشككا :

– وماذا فى ذلك ؟

فرجوته ان يخبرنى كيف تكون المناولة ، وماذا يقول الكاهن فيها ، وماذا ينبغى على الذى يشترك فيها ان يفعل .

فخفض الشاب رأسه ، وزمجر فى وجهى كالثور :

– لقد هربت من المناولة . أليس كذلك ، ايها الهرطوقى ؟ حسنا ، سوف لن اخبرك شيئا . فليجلدك والدك عقابا لك !

ركضت الى البيت ، عارفا انهم سيطرحون عليّ اسئلتهم ، وسيكتشفون انى لم اشترك فى سر المناولة .

غير ان العجوز لم توجه الىّ غير سؤال واحد ، وذلك بعد ان هنأتنى :

– كم اعطيت الشماس ؟

فأجبت دون تفكير :

– خمسة كوبيكات .

– كانت ثلاثة كوبيكات تكفيه حقا ، وكان يتبقى لك سبعة كوبيكات ، يا غبى .

جاء الربيع . فراح كل يوم يتجلى بحلة جديدة اشد ضياء وروعة من اليوم المنصرم . وانثال شذى فتان يفوح من النبات الفتى وخضرة البتولا الطرية . وكان يحدونى اشتياق لا يقاوم للانطلاق الى الحقول حيث استطيع الاستلقاء على ظهرى على الارض الدافئة مرهفا سمعى الى شدو القبرات . ولكن هذا انا انظف الثياب الشتوية واساعد فى طيها وترتيبها فى الصناديق ، وافتت اوراق التبغ ، وامسح الغبار عن الاثاث – منهمكا منذ الصباح حتى الليل فى واجبات الفيتها كريهة لا فائدة ترجى منها .

لم اكن اجد ما يشغلنى فى اوقات الفراغ . ان شارعنا القبيح لا يأسر اللبّ ، والخروج محظور عليّ . وكانت ساحتنا تعج بحفارين شرسين تعبين ، وطاهيات وغسالات شعث ، وفى

كل عشية يحدث اشنع تزاوج يخطر فى بال انسان فأجد ذلك كله مقرفا مزعجا حتى لأود ان اكون أعمى .

اخذت مقصا وبعض الاوراق الملونة ورقيت الى الطابق العلوى ، حيث رحت اقص نماذج مخرمة ازخرف بها الاعمدة . ان فى ذلك ، على الاقل ،مايذهب عنى ضجرى . كانت تتملكنى رغبة جموح فى الانطلاق الى مكان يقلُّ فيه نوم الناس ومشاجراتهم ، وينعدم فيه ازعاج الله بالشكاوى الدائمة او ازعاج الناس بآرائهم المؤذية .

وفى يوم السبت الذى سبق عيد الفصح جيء بأيقونة عذراء فلاديميرسكايا العجائبية من دير اورانسكى الى بلدتنا . ستنزل العذراء ضيفة على البلدة حتى منتصف شهر حزيران ، حيث تزور خلال هذه الفترة كل منزل .

وصلت الى منزل مخدومى ذات يوم من ايام الاسبوع ، وكنت فى المطهى انظف الاوانى النحاسية حين سمعت المعلمة الصبية تصيح فى صوت خائف يدفُّ من الغرفة الاخرى :

– طرْ وافتح الباب الخارجى ! انهم يحملون الينا عذراء اورانسكايا .

هبطت السلم مندفعا دون ان اغسل يدى من الدهن والسواد ، وفتحت الباب . ثمة كاهن فى ميعة العمر ينتصب على العتبة وقد حمل فى يده قنديلا وفى الاخرى مبخرة .

كان يهمهم :

– فيمَ هذا التأخر ! أنائمون انتم ؟ تعال ساعدنا .

وراح اثنان من السكان يحملان ايقونة ضخمة يرقيان السلم الضيق . ساعدتهما بان دفعت بكتفى تحت زاوية الاطار

وحملته بيدى الوسختين . وانطلق خلفنا بعض الرهبان ذوى البطون الضخمة وهم ينشدون فى اصوات جشاء :

- ايتها العذراء الطاهرة ، تشفعى من اجلنا . . .

حدثت نفسى فى بؤس :

«لسوف تسبب لى تصلبا فى شرايين ذراعى لانى احملها بيدى الوسختين .»

وضعوا الايقونة فى زاوية الايقونات على كرسيين غطتهما ملاءة بيضاء . وقد انتصب على جانبى الايقونة راهبان جميلان فى شرخ الشباب عيونهما البراقة وشعرهما الغزير ووجهاهما السعيدان تضفى عليهما هيئة الملائكة .

وابتدأ الاحتفال الدينى .

انثال كاهن ضخم الجثـــة يرتل فى صوت حاد ، وهو يتحسس باصبعه شحمة اذنه الحمراء المتورمة المختبئـــة فى كتلة من الشعر :

- يا ام الإله المباركة . . .

فردّ الرهبان عليه فى صوت متعب :

- ايتها العذراء الطاهرة ، اسبغى علينا رحمتك .

احببت العذراء . انها ، على ذمة اقاصيص جدتى ، من تفرش الارض بالازاهير والسعادة ، وكل ما هو طيب وجميل ، كتعزية للفقراء . ولما ازف الوقت لتقبيلها وضعت شفتى ، وانا ارتعش ، على فمها دون ان ألحظ كيف فعل الكبار ذلك .

لكن يدا قوية القت بى الى الزاوية قريبا من الباب . ولا اذكر كيف انصرف الرهبان حاملين الايقونة ، لكنى اذكر جيدا

اسيادى وسيداتى المنتصبين حوالى حيث جلست على الارض ، يتناقشون فى اضطراب وخوف ما عسى ان يحل بى .

خاطبنى المعلم فى تعنيف رقيق :

– يجب ان نخبر الكاهن ، فهو يفهم هذه الامور افضل منا . انت ، ايها الأبله ! أفلا تعرف انه يجب الا تقبل العذراء فى شفتيها ؟ انت الذى تعلمت فى المدرسة !

رحت اترقب طيلة ايام لامتناهية فكأنى محكوم بالاعدام . لقد حملت العذراء بادئ الامر بيدين وسختين ، ومن بعد قبّلتها كما لا يجب ان افعل . أواه ، لسوف اؤدى الحساب عن ذلك ! لسوف ادفع الثمن بكل تأكيد !

لكن يبدو ان العذراء صفحت عن اخطائى غير الارادية التى اوحتها لى المحبة الخالصة . او ربما كان عقابها لى طفيفا جدا بحيث لم اشعر به فى زحمة تلك العقوبات المتتابعة التى انزلها بى اولئك القوم الطيبون .

كنت ألاحظ فى الاحايين ، متعمدا اغاظة المرأة العجوز :

– ليبدو ان العذراء سهت عن معاقبتى .

فترد علىّ مجيبة :

– انتظر فقط ، لم ينته الامر بعد !

. . . وبينا كنت ازين الاعمدة فى الطابق العلوى بأغلفة علب الشاى الوردية اللون وخيوط من قصدير واوراق واشياء اخرى ، كنت انظم اشعارا تتعلق بما يجول فى خاطرى ، واروح ارتلها كما ترتل الاناشيد الدينية ، وكما يفعل الكالميكيون وهم يتجولون على احصنتهم .

ها أنذا اجلس من جديد
على ارض الطابق العلوى الكبير ،
أقص قطعا من الورق
واذوب قطعا من قصدير ،
اتمنى لو كنت كلبا
بحيث استطيع الفرار ،
هنا يخاطبنى الجميع قائلين :
اخرس ، ايها المغفل ،
وتعلم كيف تطيع الكبار .

لما رأت العجوز ما فعلت من زخرفة فى الطابق العلوى راحت تهمهم وتهز رأسها .

قالت :

– لم لا تزخرف المطبخ على هذا الشكل ؟

وصعد معلمى ذات يوم الى الطابق العلوى ، وتفحص عملى ، وقال وهو يصعّد تنهيدة عميقة :

– انت هزأة ، يا بشكوف . ما عساك تصبح فى المستقبل ؟ ساحر ، ها ؟ لا اعلم . . .

وناولنى قطعة من فئة الخمسة كوبيكات من عهد نيقولاى الاول .

صنعت أنشوطة لتلك القطعة من العملة من اسلاك رقيقة وعلقتها ، فكأنها مدالية ، فى اجمل بقعة ظاهرة للعيان بين اشغالى الملونة .

وفى اليوم التالى لم اعثر لقطعة العملة او انشوطتها على اثر . وانى على يقين من ان العجوز سرقتها .

٥

هربت أخيرا مع طلة الربيع .

ذات صباح ، وانا اشترى الخبز لطعام الفطور ، كان الخباز يتشاجر وزوجته فضربها بأحد الاوزان الثقيلة على جبهتها ، فركضت الى الشارع حيث تهاوت على الارض . وتجمهر الناس ، ووضعوا المرأة فى عربة ونقلوها الى المستشفى ، فأسرعت خلف العربة . ومن بعد ، دون ان انتبه او ادرى ، وجدتنى على ضفة الفولغا وفى يدى عشرون كوبيكا .

كان النهار الربيعى يبتسم فى حنان ، والفولغا طغت مياهه وازدادت اتساعا ، والارض فسيحة صاخبة ، بينما انا قضيت حياتى حتى ذلك اليوم مثل فأرة تعيش فى جحرها . قررت الا اعود الى دار معلمى ، والا ارجع ادراجى الى بيت الجدة فى كونافينو . انا لم اف بوعدى لها واخجل من رؤيتها . وفضلا عن ذلك ، سيعقّب جدى على عودتى ساخرا .

ظللت طوال يومين او ثلاثة ايام اتجول على ضفة النهر يطعمنى الحمالون الطيبون ، وانام معهم على الارصفة ليلا . وقد خاطبنى احدهم اخيرا بقوله :

– لا خير يرجى من تطوافك ههنا ، يا صبى . لماذا لا تعمل على «الدوبرى» ؟ يحتاجون الى غسال للصحون هناك .

ذهبت من فورى . تأملنى رئيس الخدم ، وهو شخص

طويل ملتح يرتدى قبعة سوداء من الحرير بدون حافة بعينين غائمتين تربعت نظارتان فوقهما .

قال بصوت هادئ :

– روبلان فى الشهر . هل تحمل هوية ؟

لم اكن احمل هوية . فتفكر رئيس الخدم برهة ، ثم قال :

– جئنى بأمك .

فأسرعت الى جدتى ، فوافقت على الخطوة التى اتخذتها واقنعت جدى ان يذهب الى مجلس ادارة الحرفيين فيحصل لي على هوية . ورافقتنى الى المركب بنفسها .

قال رئيس الخدم ، وهو يختلس النظر الينا :

– حسنا . هيا بنا .

اقتادنى الى مؤخرة المركب حيث ثمة طاه ضخم البنية يلتف بمعطف ابيض وطاقية بيضاء يجلس الى طاولة يرتشف الشاى ويدخن لفافة غليظة من التبغ . دفعنى رئيس الخدم فى اتجاهه ، قائلا :

– غسال صحون .

وانصرف بسرعة . فشخر الطاهى ، وانتفش شارباه الاسودان وهو يصيح خلفه :

– انت تستخدم الشيطان نفسه شريطة ان يتقاضى اجرا زهيدا !

وطوح رأسه الضخمة المغطاة بشعر اسود قصير الى الخلف غاضبا ، وحملق فيّ بعينين مظلمتين ، ونفخ خديه ، وصاح بى :

– من انت ؟

لم يعجبنى ذلك الرجل ابدا . كان يلوح قذرا ، بالرغم من الثياب البيضاء التى يرتديها . اصابعه مفروشة بالشعر ، وشعرات طوال تتدلى من اذنيه الكبيرتين . قلت :

– انى جائع .

طرف بعينيه . وتبدلت طلعة وجهه القاسى على غير ما انتظار . وارسلت ابتسامة عريضة خديه المتوردين يتقهقران فى تموجات متتابعة صوب اذنيه ، كاشفتين عن اسنان ضخمة اشبه بأسنان الحصان . وانحنى شارباه فى لطف ، فغدا اشبه بمدبرة منزل سمينة طيبة القلب .

افرغ ما تبقى فى كأسه من فوق حافة المركب ، وصب كأسا جديدة ودفعها صوبى مع قطعة من الخبز الابيض وشريحة كبيرة من اللحم المقدد :

– إطعم . الك أم وأب ؟ اتعرف كيف تسرق ؟ لا تقلق ، فالجميع لصوص ههنا – لسوف اعلـّمك فى القريب العاجل .

كان ينبح كلماته نباحا . وكان خداه العريضان مزرقين بفعل الحلاقة ، والبشرة القريبة من انفه مغطاة بشبكة رائعة من الاوردة . وكان انفه الاحمر المنتفخ يهبط فوق شاربيه ، وشفته السفلى الغليظة تتدلى فى احتقار ، وثمة لفافة تحترق في زاوية فمه . والظاهر انه خرج لتوّه من الحمام ، فهو يعبق برائحة اغصان البتولا ومنقوع الغار ، بينا تندى عنقه وصدغاه بالعرق .

وما كدت انتهى من طعامى حتى ناولنى روبلا :

– اذهب واشتر مئزرين ومريلتين . انتظر ! سأبتاع ذلك بنفسى .

وسوى طاقيته وهبط عن سطح المركب ، يتمايـــل متثاقلا من جانب الى آخر ، ويضرب بقدميه كالدب .

. . . الليل . والقمر ينطلق هاربا من المركب الى المروج الفيح القائمة على اليسار ، ومركبنا العتيق الاصهب ، بمدخنته المخططة بالابيض ، يضرب المياه الفضية بمجاذيفه فى كسل ؛ وضفتا النهر السوداوان تنهضان على مهل لملاقاة المركب فترميان ظلالا تبرق بانعكاسات الاضواء المنسابة من نوافذ الاكواخ ؛ وصدى غناء يدف من القرية - ان الفتيات يقمن بنزهة غنائية ، فتتردد لازمة «آى لولى» اشبـــه ما تكون بـ«هاللويا» .

مركبنا يجر خلفه قاربا للنقل شدّ اليـــه بسلسلـــة طويلة . كان القارب اشهب اللون ايضا ، وعلى ظهره قفص حديدى كبير ، وفى ذلك القفص سجناء حكموا بالنفى والاشغال الشاقة ، وحربة الحارس المنتصب فى مقدمة القارب تشع مثل ضوء الشمعة ،والنجوم فى السماء العميقة الزرقاء تلتمع مثل شموع صغيرة . السكون يخيم على ظهر القارب ، يغمره ضوء القمر . وثمة اخيلة مدورة شهباء تلمح خلف قضبان القفص الحديدية . انهم السجناء ، يقبعون ويمدون نظرهم الى الفولغا . وكانت المياه تخرخر - لعلها تبكى وتنتحب ، او لعلها تضحك فى رقة . كان ثمة شىء يشبه جو الكنيسة يخيم على كل شىء وحتى رائحة الزيت توحى بالبخور .

حين رجّعت البصر فى ذلك القارب تذكرت طفولتى الباكرة : الرحلة من استراخان الى نيجنى نوفجورود ؛ ووجه امى الشبيه بالقناع ؛ وجدتى التى قادتنى الى مثل هذه الحياة الشاقة لكن

الماتعة . وحين تخطر جدتى على صفحة ذاكرتى ، فأنا انسى كل ما هو بغيض وشرير فى الحياة . ان كل شىء يتبدل ، ويغدو اكثر اهمية وغبطة ، بينـــا الناس يتراؤون لى اكثر طيبة ومحبة .

اشجانى جمال تلك الليلة بحيث كدت ابكى ؛ القارب يفتننى ، هذا القارب الذى يشبه نعشا والذى يبدو فى غير مكانه على صدر هذا النهر المتدفق الفسيح ، فى سكون تلك الليلة الدافئة المتفكرة . وكانت حدود الشاطئين الوعرة ، وهى ترتفع حينا وتنخفض حينا آخر ، تسرع ضربات قلبى وتجعلنى اتمنى ان اكون طيبا ، ان اقدم للانسانية شيئــا نافعا .

كان المسافرون يتمتعون بشىء فذّ لا نظير له . وصوّر لى انهم جميعا – من شيب وشبان ورجال ونساء – يشبهون بعضهم بعضا . كان مركبنا يتحرك فى بطء ؛ ان الناس الساعين وراء اعمالهم يسافرون فى قوارب البريد ، فلا يتركون لنا الا المسافرين العاطلين عن العمل . انهم ، منذ الصباح حتى الليل ، يأكلون ويشربون ويوسخون عددا لا يستهان به من الصحون ، والسكاكين ، والشوك ، والملاعق . وكان عمـــلى ينحصر فى غسل هذه الصحون وتنظيف الشوك والسكاكين ، فأروح اشتغل منذ السادسة صباحا حتى منتصف الليل ، اما بعد الظهر بين الساعتين الثانية والسادسة ، وفى العشية بين العاشرة والثانية عشرة ، فان عملى يقل نوعا ما لان المسافرين لا يفعلون سوى شرب الشاى والجعة والفودكا بعد وجبــات الطعام .

خلال هذه الساعات كان الخدم - وهـــم من رئاستى - ينعمون بالراحة والحرية ، ويتحلق جمهور منهم عادة يشربون الشاى على مائدة قريبة من المدخنة . وفى عداد هذا الجمهور كان سمورى الطاهى ، وياكوف ايفانوفيتش مساعده ، ومكسيم غسال الصحون فى المطبخ ، وسيرجى الذى يخدم المسافرين على ظهر المركب ، وهو رجل احدب ذو وجه عريض مجدور وعينين زيتيتين . ويروح ياكوف ايفانوفيتش يسرد على الجماعة حكايات سافلة ، وهو يضحك ضحكته الناشجة ، معريا اسنانه المتعفنة . ويشق سيرجى فمه الشبيه بفم الضفدعة فيمتد فى تكشيرة تبلغ حتى اذنيه ، بينا يرهف مكسيم المكتئب اذنيه فى صمت ، ويروح يراقب الآخرين بعينين قاسيتين غامضتى اللون .

ويصيح الطاهى من وقت لآخر بصوته القاصف :

- ايها المتوحشون ! ايها الموردوفيون !

ابغضت اولئك الناس جميعـــا . ان ياكوف ايفانوفيتش السمين الاصلع لا يتحدث الا عن النساء ، وبطريقة قذرة على الدوام . كان له وجه خال من اى تعبير تغطيه بقع زرق ، وعلى خده ثؤلول يفرشه شعر احمر يفتله فيجعل منه خيطا رفيعا . وحين تمرّ على المركب سيدة طائشة ، فهو يقفو خطاها بوداعة مثل متسول ويخاطبها فى نغمة حلوة شاكية ، وشفتاه تبتلان بزبد يروح يلعقه بحركات سريعة من لسانه القذر . ولسبب ما رحت اتصور ان الجلادين يجب ان يكونوا مثل هذا الرجل السمين .

توجه مرة بالخطاب الى سيرجى ومكسيم اللذين منحاه سمعهما فى انتباه ، وهما ينتفخان ويحمران :

– يجب على الرجل ان يعرف كيف يثير المرأة .

فانفجر سمورى مشمئزا :

– ايها المتوحشون !

نهض على قدميه فى تباطؤ ، وقال لى :

– بشكوف ! تعال الى هنا !

ولما دلفنا الى غرفته ناولنى كتابا صغيرا غلافه من جلد ، وتمدد على دكته القريبة من جدار غرفة المحفوظات الباردة :

– إقرأ لى !

فجلست على صندوق معكرونة ، ورحت اقرأ فى طاعة :

– ان الامبراكولوم * ، المبذور بالنجوم ، يعنى نقطة اتصال مناسبة مع السماء ، وهذا يعنى انهم حرروا انفسهم من الدجالين والانبياء . . .

وينفث سمورى سحابة من الدخان ، ويشخر :

– الجمال ! ما هذه السخافات التى يكتبون !

– نهد عريان الى اليسار يعنى قلبا طاهرا .

– اى نهد عريان الى اليسار ؟

– انهم لا يقولون .

– اذن ، ذلك يعنى نهد امرأة . آه ، يا للفاسقين !

* المقصود هنا كتاب «الماسونى بلا قناع» من تاليف ولسون . وهو كتاب يتضمن مراسم الماسونية وتفسير مصطلحاتها . **الناشر** .

اغلق عينيه ، واضطجع وقد شبك يديه خلف رأسه . والصق لفافته فى زاوية فمه وعدل وضعها بلسانه وسحب منها نفسا عميقا بحيث صفر شيء فى صدره ، وغطت وجهه سحابة من الدخان . ويخيل الى فى الاحايين انه استسلم لسلطان الكرى . فأتوقف عن القراءة ، واجلس احدق فى ذلك الكتاب اللعين الذى مللت منه الى درجة الغثيان .

ويزمجر سموری :

– إقرأ !

– واجاب الرجل الوقور : مهلا ، يا اخى الحاكم الطيب . . .

– القاسى .

– لقد كتبوا : الحاكم .

– الى الجحيم ! ثمة شيء من الشعر فى اسفل الصفحة . ابدأ قراءتك عندها .

وهكذا ابدأ قراءتى :

آه ، ايتها المخلوقات الخرقاء ،
التواقة الى معرفة اعمالنا !
ان عقولكم الفقيرة
لن تفقه لذلك قط معنى !
وحتى اناشيد الاخوة
ستظل بعيدة عن افهامكم !

ويصيح سموری :

– قف ! هل تسمى هذا شعرا ؟ اعطنى الكتاب .

ويروح يقلب غضبان صفحات الكتاب الكثيف الازرق ، ثم يطوح به تحت الدكة .

– فلنجرب كتابا آخر .

ويشاء حظى التاعس ان يملك كمية لا بأس بها من الكتب فى صندوقه الاسود المشبك بالحديد . ومن تلك الكتب : وصايا اومير ، ومذكرات مدفعـــى ، ورسائـــل اللورد سيدينجالى ، وكتاب البق ، هذه الحشرة الضارة كيف تبيدها وتتقى شرها . كانت ثمة كتب لا بداية لها ولا نهاية . وكان الطاهى يأمرنى احيانا ان ارتبها واقرأ له عناوينها . وبينا انا افعل ذلك ، يروح يغمغم غاضبا :

– هذا الذى يكتبون ، اولئك الاوباش ! لكأنهم يصفعونك على وجهك دونما سبب على الاطلاق . جيرفاسى ! وماذا يهمنى جيرفاسى هذا ؟ الامبراكولوم !

كانت الكلمات الغريبة والاسماء غير المألوفة تلتصق فى ذاكرتى بشكل مزعج ، وتثير فى لسانى الما مرا وانا ارددها ، فكأن التلفظ بها سيميط اللثام عن معانيها . وكان النهر ، ما وراء النافذة ، يتابع اغنية لا تفتر ولا تهدأ . اشتقت ان اصعد الى مؤخرة المركب حيث يجلس الملاحون والوقادون على صناديق البضائع يغنون او يتحدثون ، او ينهبون المسافرين فى لعب الورق . ما اجمل ان يقعد الانسان معهم ، وان يرهف السمع الى كلماتهم البسيطة المفهومـــة ، ويسرح النظر فى شواطئ نهر الكاما ؛ وفى جذوع الصنوبر الشامخة الى العلاء المشدودة مثل اسلاك النحاس ؛ وفى المروج حيث خلفت المياه الفائضة بحيرات صغيرة تعكس السماء الزرقاء على صفحتهـــا

فكأنها شظايا مرآة مكسورة . كان مركبنا بعيدا على الارض ، لا يبرح محافظا على المسافة بينه وبينها ، الا ان صوت ناقوس احدى الكنائس غير المرئيـــة دف الينا من الشاطئ في هدأة الغسق ، حاملا الينا معه افكارا عن المدن والناس . وراح قارب صيد يتأرجح على الماء مثل كسرة من الخبز ؛ وتبدت في مسرح الرؤية صورة قرية ؛ وبعض الاطفال الصغار يطرطشون الماء ، وفلاح يرتدى قميصا احمر يتدحرج على شريط اصفر من الرمل . ان كل شيء يلوح ،في المنتأى البعيد ، خلابا يفتن الالباب . والاشياء تتبدى شبيهة بالدمى ، صغيرة ملونـــة بشكل مسل . وددت لو اهتف في اذن الشاطئ بشيء لطيف رقيق — في اذن الشاطئ والقارب معا .

فتنت بذلـــك القارب الاصهب ، فاذا بي اجلس مأخوذا طيلة ساعات كاملة ، اراقبه وهو يدفع انفه الفظ في المياه الموحلة ، والمركب البخارى يجره مثل خنزير مربوط بحبل . وحين تتراخى السلسلة احيانا فهي تصفـــع المياه ثم تعود فتشتد من جديد ، قاطرة الماء وهي تقطر القارب من انفه . كنت تواقا الى القاء نظرة على وجوه اولئك الناس الجالسين مثل الحيوانات في ذلك القفص الحديدى . وحين انزلوهم الى اليابســة في بيرم تسلقت جسر القارب ، فاذا عشرات مـــن المخلوقات الرمادية يمرون امامي ثقيلي الخطوات ، تقرقـــع سلاسلهم ، وهم رازحون تحت ثقل اكياسهم . كانوا رجالا ونساء ، شيوخا وشبانا ، قبيحين وجميلين ، مثل بقية البشر . سوى انهم يلبسون بشكل مختلف وقد تشوهت سحناتهم لان

شعورهم جزت . والحقيقة انهم من قطاع الطرق ، لكن جدتى سردت عليّ اشياء كثيرة جميلة عن قطاع الطرق !

وكان سمورى يشبه احد قطاع الطرق البائسين اكثر من اى واحد منهم .

كان يغمغم ، وهو يرمق القارب بنظراته العابسة :

– فلتجنبنى السماء مثل هذا المصير !

قلت له ذات يوم :

– كيف اصبحت طاهيا بينا الآخرون لصوص وقتلة ؟

فردّ علي ، وهو يبتسم :

– انا لست طاهيا . انا رئيس طهاة . ليس من طهاة غير النساء .

ثم اضاف بعد فترة من التأمل :

– ان الفرق بين البشر موجود فى رؤوسهم . فثمة ناس اذكياء ، وناس اغبياء وآخرون لا حد لغباوتهم . يمكنك ان تصير ذكيا اذا قرأت كتبا منتقاة – السحر الاسود وما شابه . يجب ان تقرأ الكتب كلها ، فهذه هى الطريقة الوحيدة كى تكتشف المفيدة منها .

كان لا ينفك يردد على مسامعى :

– اقرأ . اقرأ كثيرا . واذا لم تفهم كتابا ، فاقرأه سبع مرات . وان لم تفهمه ايضا فاقرأة اثنتى عشرة مرة .

كان سمورى يخاطب الجميع على المركب بلهجة جافة خشنة ، بما فيهم رئيس الخدم الصموت ؛ وحين يتكلم يدلى شفته السفلى فى ازدراء ، ويرعص شاربيه ، ويبصق الكلمات فكأنها حصى . ولكنه كان لطيفا طيبا معى ، وكان فى طيبته ما

يرعبني ويخيفني قليلا . واحيانا كنت اشعر ان الطاهى ، مثل اخت جدتى ، ليس طبيعيا تماما .

كان يقول احيانا :

– كف عن القراءة !

ويضطجع طيلة فترة مغلق العينين ، يتنفس بخشونة من خيشوميه ، وبطنه السمين يهتز ، ويداه متصالبتان على صدره مثل يدي انسان ميت ، واصابعه المحروقة المفروشة بالشعر تتحرك وكأنه يحيك جوربا خفيا بابر خفية . . .

ثم ينفجر متمتما على حين غرة :

– الدماغ ، مثلا ! اليك ، خذه بين يديك وانظر ماذا يمكن ان نفعل به ! وزعت الادمغة ببخل ودونما عدل على الاطلاق . اواه لو ان الجميع يملكون نفس القدر منه – ولكن ذلك ليس متاحا . هذا الفتى يفهم ، وذلك لا يفهم ، والآخر لا يملك رغبة فى الفهم .

ويروح يسرد عليّ ، وهو يتعثر بالكلمات ، اقاصيص من حياته وهو جندى . لم استطع قط ان اكتشف اية فائدة لاقاصيصه ، فهى على الدوام عديمة الجدوى ، خاصة وانه لا يبدأها من اولها بل من حيث تصوّر له مخيلته .

– وهكذا نادى آمر الفرقة الجندى وقال له : بماذا امرك الملازم ؟ فأجاب بكل شيء ، مثلما حدث تماما ، لان من واجب الجندى ان يقول الحقيقة . وتطلع اليه الملازم فكأنه جدار من الحجر ، ثم استدار عنه واغمض عينيه . هِمْ .

ويشهق الطباخ بقرف ، ويغمغم :

– لكأننى اعرف ماذا يفترض فى المرء ان يقول ، وماذا

يفترض فيـــه ألا يقول ! وساقوا الملازم الى السجن ، اما امه . . . أوه ، يا الهى الطيب ! ان احدا لم يعلمنى شيئا !

كانت الحرارة شديدة .وكل شيء يهتز ويتأرجح فى لطف . وخلف جدران الغرفة المعدنية كانت رحى السفينة البخاريـــة تقرقع والماء يطرطش . فاذا نظرت من كوة الغرفة شاهدت النهر يتدفق فى مجراه العريض وخيطا من المروج يتبدى عن بعد ، والاشجار تنبثق فى مدى النظر . وقد اعتادت أذنى هذه الاصوات بحيث لا انتبه الا الى الصمت حينما يخيم ، على الرغم من ان احد الملاحين فى مقدمة المركب لا يفتأ يردد بصوت لانغمة فيه :

– سبـ . . . – عة ! سبـ . . . – عة !

وتمنيت ان اظل بعيدا عن كل شيء – الا اصغى ، والا اعمل – بل اجلس فى مكان ما تحيطنى الظلال ، بعيدا عـــن رائحة المطبخ الحارة العابقة بالدهن – ان اجلس واحملـــق ناعسا فى تلك الحياة المتعبة الطافية على وجه الماء .

أمرني الطاهى بقسوة :

– إقرأ !

كان خدم المرتبة الاولى يخافونه ، كما يهابـــه رئيس الخدم الوادع الصموت .

كان سمورى يصيح بخدم المقصف :

– ايه ، يا خنزير ! اقترب منـــى ، يا لص ! ايهـــا المتوحشون ! يا امبراكولوم !

كان الملاحون والوقادون يعاملونه باحترام ، بل يتملقونه ويتزلفون اليه . وكان ينفحهم باللحم من القدر ، ويستفسر

منهم عن احوال عائلاتهم وحياتهم فى القرية . وكان الوقادون البيلوروس بوجوههم القذرة وملابسهم المتسخة بالزيت ، يعتبرون ثمالة المركب . وكان الروسيون يلقبونهم بالبقر ، ويغيظونهم بقولهم :

– يا بقرة ، يا بقرة ، ماذا فى الحفرة ؟ !

وكان هذا يثير الغضب فى قلب سمورى . فينتفش ، ويحمر وجهه ، ويزعق بالوقادين :

– لماذا تسمحون لهم بالهزء منكم ، وحق الجحيم ؟ حطموا لهم حنكهم ، اولئك الاوغاد !

وتوجه اليه عريف نواتى المركب ، وهو رجل خبيث انيق ، قائلا :

– الروسى والبيلوروسى لا فرق بين الواحد والآخر .

فأطبق عليه الطاهى والتقطه من حزامه وياقته ، وحمله عن الارض وراح يؤرجحه فى الهواء .

زعق به :

– أتريدنى ان اسحقك سحقا !

ما أكثر ما كانت المنازعات تنتهى الى القتال ، لكن احدا لم يجسر قط على ضرب سمورى ، بسبب قوته الجبارة من جهة ، ومن جهة اخرى بسبب احاديثه الكثيرة واللطيفة مع زوج القبطان ، وهى امرأة فارعة القد ، انيقة الطلعة ، ذات وجه رجولى وشعر املس كشعر الصبيان .

كان يحتسى كميات هائلة من الفودكا ، بيد انه لا يثمل قط . يبدأ بمعاقرة الخمرة منذ الصباح ، فيجرع زجاجة كاملة على اربع دفعات ، ويرتشف الجعة طيلة النهار . ويروح وجهه

يتورد شيئا فشيئا ، وتتسع عيناه السوداوان فكأن الدهشة باغتتهما .

كان يجلس فى العشيات أحيانا على الدكة طيلة ساعات ، صورة ضخمة بيضاء صامتـــة تحدق فى اكتئاب فى المنتأى المتقهقر . وفى مثل هذه اللحظات ينتاب الجميع خوف خاص منه ، اما انا فأشفق عليه .

وينبثق ياكوف ايفانوفيتش من المطهى ، أحمر الوجه عرقان ، ويكرش رأسه الصلعاء ، ويختفى ملوحا بيده فى يأس ، او صارخا من بعيد :

- السمك انتن .

- حضّر الكرنب به .

- واذا طلب أحد شوربة سمك او سمك مسلوق ؟

- جهزه له . سيأكلون اى شىء نقدمه لهم .

كنت اجد الجرأة احيانا فاقترب منه .

ويلتفت اليّ فى جهد ، ويستفسر :

- ماذا تريد ؟

- لا شىء .

- حسنا .

قلت له مرة :

- لماذا يخافك الجميع هكذا ؟ انت طيب القلب .

ولشدّ ما كانت دهشتى عظيمة اذ لم يغضبه سؤالى .

رد مجيبا :

- انا طيب القلب فى معاملتك وحدك .

ثم اضاف فى نغمة متفكرة لطيفة :

– أو لعلى طيب القلب مع الجميع . لكننى لا اظهر ذلك . يجب الا تظهر للناس انك طيب القلب . والا التهمـوك . فالناس يركبون الرجل الطيب مثلما يركبون بقعة من الارض الجافة فى مستنقع ، يدوسونه باقدامهم . انطلق وجئنى بقليل من الجعة .

وما ان افرغ الزجاجة ، كأسا تلو كأس ، حتى مسـح شاربيه وقال :

– لو كنت أكبر سنا بقليل لكنت لقنتك اشياء كثيرة . انى اعرف شيئا او شيئين لا بأس بهما – فما انا ابله . يجب ان تقرأ الكتب . فالكتب تخبرك بكل ما يجب ان تعرف . الكتاب شىء نادر ثمين . أتريد شيئا من الجعة ؟

– انا لا أحبها .

– حسنا . لا تشرب . فالشراب بلية كبرى . والفودكا رجس من عمل الشيطان . او كنت ثريـا لارسلتـك الى المدرسة . فما الفتى الجاهل غير ثور ، يضعون النير فى عنقه او يسلخون اللحم عنه – وليس بمستطيع الا الاذعان .

نفحته زوج القبطان بكتاب من مؤلفات غوغول . وقرأت له «الانتقام المريع» وأعجبت بها جدا ، لكن سمورى صاح غاضبا :

– هراء وسخف ! انا واثق ان ثمة انواعا اخرى مـن الكتب .

واخذ الكتاب منى ، وجاء بكتاب آخر من زوج القبطان . أمرنى بصوت قاس :

– اليك . اقرأ «تاراس» . . . ما أسمه الآخر ؟ اقرأ

الكتاب . انها تقول انه كتاب جيد . جيد بالنسبة الى من ؟ لربما كان جيدا بالنسبة اليها وسيئا بالنسبة الي . أرأيت كيف قصت شعرها ؟ لماذا لم تقص اذنيها ؟

لما بلغنا المقطع الذى يتحدى فيه تاراس ابنه أوستاب للقتال ، ضحك الطاهى بصوت أجش :

– ما رأيك فى ذلك ؟ أحدهما يملـــك دماغا ، والآخر يملك قوة . يا للهراء الذى يكتبون ، أولئك الجمال !

وأصغى فى انتباه ، وهو يهمهم بين فترة واخرى :

– آه ، سخافة ! انت لا تستطيع ان تشطر الانسان من كتفه الى بطنه بضربة واحدة ، ذلـــك محال . ولا يمكن ان ترفع انسانا بحربة لانها تنكسر . أفلم اكن جنديا ؟

وقد أثارته خيانة أندريه :

– ذلك الوغد ، ايه ؟ من اجل امرأة ! تفو !

وحين قتل تاراس ابنه ، دلى الطاهى قدميـــــه مـــن السرير ، وأطبق على حافته بيديه ، وقوس ظهره ، وراح يبكى . انثالت الدموع تتدحرج على خديه فى بطء ، وتساقط على الارض . وشهق وتمتم :

– يا الهى ، يا الهى !

وزعق فى وجهى ، على غير انتظار :

– تابع قراءتك ، يا ذرية الشيطان !

ازداد نواحه حدة ومرارة حين هتف أوستاب بأبيه قبل ان يموت : «أبتاه ، هل تسمعنى ؟» .

وهمس سمورى :

– لقد ضاع كل شيء . كل شيء . هذه هى النهاية اذن ؟ آه ، يا للنهاية الملعونة ! لقد كانوا رجالا حقيقيين فى تلك الايام . وتاراس هذا ، ايه ؟ رجل حقيقى ، وحق الله !

وتناول الكتاب من يدى ، وراح يتمعنه فى انتباه ، وهو يغسل الغلاف بدموعه :

– الكتاب الجيد هو عيد حقيقى !

قرأنا بعد ذلك «ايفانهو» ، فأعجب سمورى بريتشارد بلانتاجينه .

قال ، وقد تحركت عواطفه :

– هذا ملك حقيقى !

اما انا فوجدت الكتاب يبعث على الضجر .

كانت اذواقنا متنافرة على العموم . فقد فتنتنى «قصة توماس جون» . وهى ترجمة قديمة لكتاب «تاريخ توم جون ، اللقيط» .

غمغم سمورى :

– هراء ! ماذا يهمنى من توماس هذا ؟ وماذا أبغى منه ؟ لا بد ان ثمة كتبا اخرى .

اخبرته ذات يوم ان ثمة كتبا اخرى – كتبا ممنوعة ، كتبا سرية ، لا يمكن قراءتها الا فى الاقبية بعد انتشار الظلمة .

فاتسعت عيناه ، وارتقص شارباه ، وقال :

– ما هذا ؟ بماذا تهرف ؟

– انا لا اهرف . لقد سألنى عنها الكاهن مرة اثناء الاعتراف ، ومن قبل كنت قد رأيت اناسا يقرأونها ويبكون .

فحملق فيّ الطاهى بكآبة .

سأل :

– من ذا بكى ؟

– سيدة كانت تصغى الى القراءة . وثمة سيدة اخرى هربت مذعورة .

فنبر سمورى ، وهو يضيق فرجة عينيه فى بطء :

– استيقظ ، فأنت تحلم .

واضاف ، بعد فترة صمت :

– من دون ريب ، يجب ان يكون هنالك شيء سرى . فى مكان ما ، لا ريب فى وجوده . . لكننى عجوز هرم . . . ولست من ذلك النوع . . ومع ذلك ، فحين تفكر فى الامر . . .

كان يتحدث بمثل هذه البلاغة طيلة ساعة . . .

وتملكتنى الرغبـــة فى القراءة دون ان اشعر ، فكنت استسلم لها مسرورا . ان ما تتحدث عنه الكتب يبعث الغبطة فى النفس على خلاف الحياة التى تصبح اتعس منها قبلا .

ازداد شغف سمورى بالكتب ، فكان ينتزعنى من عملى ، ويخاطبنى قائلا :

– بشكوف ! تعال واقرأ .

– هنالك تلة من الصحون يجب ان اغسلها .

– سيغسلها مكسيم .

ويدفع بخشونـــة كبير غسالى الصحون للقيام بعملى ، فينتقم هذا بتحطيم الكؤوس .

حذرنى رئيس الخدم مرة بهدوء :

– سأطردك من المركب .

وذات يوم عمد مكسيم عن قصد الى ترك بعض الكؤوس فى حوض المياه القذرة ، فلما أفرغت الحوض من فوق حافة المركب سقطت الكؤوس فى الماء .

وقال سمورى لرئيس الخدم :

– انها غلطتى . قيد ثمنها فى حسابى .

وراح الخدم ينظرون الي شزرا . كانوا يقولون :

– حسنا ، يا حشرة الكتب ، ماذا تحسب نفسك تفعل لتستحق أجرك ؟

ويراكمون العمـــل عليّ ، ويوسخون الصحون قصدا . وشعرت ان ذاك سينتهى وبالا عليّ ، ولم أكن مخطئا .

ذات مساء صعدت الى المركب فى محطة صغيرة امرأة حمراء الوجه تصحبها فتاة تلتف بمنديل اصفر وبلوزة جديدة وردية اللون . كانتا ثملتين قليلا . وراحت المرأة تبتسم وتنحنى للجميع ، وتلحن كلماتها كشماس الكنيسة :

– اعذرونى ، يا أحبائى ، لقد تناولت قطرة صغيرة . واقتادونى الى المحكمة واطلقوا سراحى . فشربت شيئا من الخمرة فى غمرة فرحى .

وكانت الفتاة تخرخر بالضحك ، وتلقى نظرات مبهمة الى الجميع ، وتدفع المرأة فى ضلوعها :

– الى الامام ، ايتها البلهاء ، الى الامام !

نزلتا قرب عنبر الدرجة الثانية قبالة الحجرة التى ينام فيها ياكوف ايفانوفيتش وسيرجى ومكسيم . واختفت المرأة سريعا ، واتخذ سيرجى مجلسه الى جانب الفتاة ، وقد تراخى فمه الضفدعى فى تكشيرة فاجرة .

وبعد الانتهاء من العمل ، وبينا انا اتسلق الطاولة حيث انام ، جاءني سيرجي وقبض عليّ من يدي :

— تعال ، سوف نزوجك .

كان سكران ، فحاولت افلات يدي من بين يديه ، لكنه صفعني :

— تعال !

وأسرع مكسيم ، سكران ايضا ، واجتازا بي المسافرين النائمين ، واقتاداني الى حجرتهما ، لكن سموري كان يقف قرب الباب ، وعلى العتبـــة ينتصب ياكوف ايفانوفيتش امام الفتاة ، وهي تنهال على ظهره ضربا بقبضتيها .

كانت تصيح في صوت سكران :

— دعني أذهب !

انتزعني سموري من بين يدي سيرجي ومكسيم ، وامسك بهما من شعرهما ودق رأس كل منهما بالآخر ، وطوح بهما على الارض .

زعق بياكوف ، وهو يصفع الباب في وجهه :

— ايها المتوحشون !

ثم دفعني عنه ، وهو ينبح :

— اخرج من هنا !

ركضت الى مؤخرة المركب . كانت الليلة غائمة والنهر اسود . وفي إثر المركب يمتـــد خطان أشهبان يصلان حتى الشواطئ الخفية . وبين هذين الطريقين راح القارب يسير . وثمة اضواء حمر لا تنير شيئا تظهر تارة الى اليمين وتارة الى

الشمال ، ثم تختفى سريعا خلف منعطفات النهر . فيلوح الليل حين تغيب اشد سوادا منه قبلا ، واكثر بؤسا .

جاء الطاهى وجلس الى جانبى ، وأرسل تنهيدة عميقة وهو يشعل لفافة :

– هل أخذاك الى تلك الانثى ؟ الخنازير ! لقد سمعتهما حين هجما عليها .

– هل أنقذتها من براثنهما ؟

– هى ؟

لعن الفتاة ، وتابع حديثه فى نغمة مؤلمة :

– انهم كلهم متوحشون هنا . المركب اسوأ من القرية . هل كنت فى القرية ؟

– لا .

– القرية متعفنة حتى اعمق جذورها . وخاصة فى الشتاء .

ورمى عقب لفافته من فوق حافة المركب ، صمت برهة ، وتابع :

– لسوف تضيع بين هذه الخنازير جميعا . وانى لأرثى لك ، ايتها الفأرة الصغيرة . أرثى للجميع . فاحيانا لا اعرف ما انا قمين بفعله – ان اركع على ركبتى واخاطبهم قائلا : «ماذا تفعلون ، يا وحوش ؟ أعميان انتم ، أم ماذا ؟ ايها الجمال !»

وتعالى من المركب صفير طويل ، وصفعت المرساة صفحة الماء ، وراح ضوء فانوس يتأرجح فى قلب الظلمة ، معينا موقع رصيف الميناء ، بينما اضواء اخرى ضئيلة تنبثق من قلب العتمة .

تمتم الطاهى :

– المحطة «غابة سكرى» . وهناك نهر – «نهر سكران» . كان هنالـــك ، فى يوم من الايام ، موظف جرايات يدعـــى سكيروف ، وموظف يدعى مخموروف . سأنزل الى اليابسة .

كان ثمة نسوة قويات البنية من مقاطعة نهر كاما يحملن الحطب على حمالات طويلة ، ويتقدمن بخطوات صغيرة مرنة ، رازحات تحت عبء ما يحملن ، زوجين زوجين ، الى الفتحـــة السوداء لعنبر الموقد ويلقين اليها قطعا كبيرة من قرم الشجر ، صائحات باصوات مرنة :

– هى – ى – ى !

وبينا هن يمررن باحمالهن ، كان الملاحون يمسكون بهن من سيقانهن وصدورهن ، فيزعقن ويبصقن فى وجوههم . وفى طريق عودتهن كانت النسوة يدافعن عن انفسهن من القرص واللمز ، فينهلن على من يجرؤ على ذلك بحمالاتهن الفارغة . ولقد رأيت ذلك كثيرا – فى كل رحلة . ان الشىء يحدث كل مرة نرسى فيها ونتموّن بالحطب .

وبدا لى أنى كنت رجلا عجوزا عشت على ذلك المركب سنوات عديدة . فانا اعرف ما سيحدث فى الغداة ، او الاسبوع المقبل ، او الخريف القادم .

وبدأ النور ينتشر الآن ، فظهرت فوق رصيف المحطـــة غابات كبيرة من الصنوبر على كثيب رملى . كانت النســـاء يتسلقن التلة من الغابات ضاحكات منشدات زاعقات ، وكن يشبهن الجنود وقد تسلحن بحمالاتهن الطويلة .

تاقت نفسى الى البكاء ، وراحت الدموع تغلى فى صدرى ، تضغط على قلبى ، وكان ذلك أليما . بيد انى خجلت من البكاء ، فاندفعت الى مساعدة الملاح بورين فى غسل ظهر المركب .

كان بورين فتى مبهم الملامح ، شاحب الوجه لا لون له ، ينزوى فى اماكن منعزلة حيث يجلس طارفا بعينيه الصغيرتين . قال لى مرة :

– الحقيقة ان لقبى ليس بورين ، بل عورين ، باعتبار ان أمى كانت زانية ! وان لى أختا ، وهى زانية ايضا . ليبدو ان ذلك مصيرهما . المصير ، يا أخى ، هو حجر معلق حول عنقك . فانت تريد ان تنهض ، وهو يمنعك عن ذلك .

أما هذه المرة فتوجّه اليّ قائلا ، وهو يمسح ظهر المركب ، فى صوت هادئ :

– أترى كيف يتساقطون على الفتيات ؟ فكّر فقط ! أنت تستطيع ان تؤجج النار فى قرمة ندية اذا ثابرت فى محاولات احراقها . وانا لا احب ذلك ، يا أخى . لا اهضمه . لو كنت فتاة لاغرقت نفسى فى بحيرة سوداء ، وحق الله ! ليصعب عليك جدا ان تفعل ما يجب ان تفعله كما يجب ان تفعله ، وهم يسعّرون عواطفك على هذا الغرار ! أقول لك ان الخصيان ليسوا مجانين . هل سمعت عن الخصيان ؟ وهم قوم أذكياء جدا – ضمنوا الطريقة المثلى للحياة . يطرحون جميع الامور التافهة الصغيرة فى الحياة ويخدمون الله فى طهارة ونقاء .

مرّت بنا زوجة القبطان مشمرة ثوبها لتتجنب مواقع المياه المتجمعة . انها ، ابدا ، اول من ينهض فى الصباح ، طويلة

القامة قوية البنية ، ذات وجه صريح بسيط بحيث وددت ان أركض خلفها واهتف بها من اعماق قلبي :

– اروى لى شيئا ما ، أرجوك ! . .

ونزح المركب متحركـــا فى بطء ، مبتعدا عن رصيف المحطة .

قال بورين ، وهو يرسم اشارة الصليب :

– ها نحن ذاهبون .

٦

ترك مكسيم المركب فى سارابول . انصرف فى صمت ، دون ان يودع احدا ، بهدوء ورزانـــة . ولحقت به المرأة ضاحكة ابدا ، والفتاة مرهقة منتفخة العينين . أما سيرجى فبقى فترة طويلة جاثيا على ركبتيه امام غرفة القبطان ، يقبـــل مصراعى الباب ويضرب عليه بجبهته ، وهو ينوح :

– أغفر لى ، لم تكن خطيئتى . انها غلطة مكسيم وحده .

كان البحارة والخدم وبعض المسافرين يعرفون انه كاذب فيما يدعى ، ولكنهم يستحثونه مشجعين :

– هيا ، هيا تابع ! لسوف يصفح عنك بكل تأكيد .

غفر القبطان له فرفسه بقدمه رفسة بعثت به يتشقلب على المركب . ولم تمض لحظات حتى كان سيرجى يتراكض على ظهر المركب يحمل اطباق الفطور ، وهو يرمق الناس بنظرة عابسة مثل جرو نال نصيبه من الجلد .

استخدموا بدلا من مكسيم جنديا سابقا من فياتكا ، وهو

فتى قميء ذو رأس صغيرة وعينين بنيتين . ارسله الطاهى الثانى على الفور يذبح بعض الدجاج فذبح الجندى اثنتين ، وانطلقت الدجاجات الاخرى على ظهر المركب . حاول الركاب الامساك بها ، فطار ثلاثة منها من فوق حافة المركب . واعتمل الغم فى قلب الجندى ، فجلس يائسا على كومة من الحطب امام المطبخ وانخرط يبكى بمرارة .

سأل سمورى فى دهشة :

— ما بالك ، ايها الاحمق ؟ من ذا سمع عن جندى يبكى ؟

فرد الجندى عليه فى لطف :

— انا لم اكن محاربا .

وكان فى ذلك هلاكه . فقد بدأ المسافرون ، بعد نصف ساعة ، يضحكون منه . فهـــم يجيئون جماعات يحدّقون فى الجندى ، ويسألون «هو» ، ثم يغرقون فى لجة صخابة مـــن الضحك .

لم ينتبـــه الجندى اول الامر الى ما يفعلون ، ولم يعر ضحكهم التفاتا . بل هو يجلس هنالك يمسح دموعه بكمّ قميصه القطنى المهترئ فكأنه يخفى عينيه بساعديه . لكن سرعان ما اخذت عيناه البنيتان تتضوآن غضبا ، فيروح يقعقع بلهجة أهالى فياتكا المزغردة :

— فيمَ تحملقون فيّ ؟ امضوا الى الشيطان وابقوا عنده الى الابد !

كان ذلك يدغدغ القوم اكثر فاكثر . فيروحون يدسون اصابعهم فى ضلوعـــه ويشدون له قميصـــه ومئزره ، ويضايقونه دون رحمة او شفقة حتى حان موعد الغداء . وبعد

الغداء علق احدهم قشرة ليمونة فى نهاية ملعقة خشبيــــة وربطوها بحبال المئزر على ظهره . فراحت الملعقة تتأرجح الى الامام والخلف مع دبيب الجندى هنا وهناك ، فيخرخر الجميع بالضحك ، بينا هو مضطرب مثل فأرة فى قفص دون ان يخمن سبب بهجتهم .

كان سمورى يراقبه دون ان تندّ عنه كلمة واحدة ، وبجد ورزانة ، وقد رقّ وجهه ولطف فكأنه وجه امرأة .

وبدأت احس بالأسف على الجندى .

سألت سمورى :

– أيمكنني اخباره بقصة الملعقة ؟

فأومأ مجيبا .

ما ان أخبرته بالسبب الذى يُضحك الجميع حتى اختطف الملعقة ، وفك حبلتها ، وطوح بها على الارض ، وداس عليها ، ثم قبض عليّ من شعرى بكلتا يديه . وبدأنا نتقاتـــل ، باعثين الغبطة فى قلوب النظارة الذين تحلقوا حولنا فى سرعة غريبة .

شقّ سمورى دربه فى قلب ذلك الحشد وفرّق بيننا ، وضغط على أذنى قليلا ثم أمسك الجندى من أذنه . وضجّ القوم حين شاهدوا ذلك الفتى النحيـــل يتلوى وينطّ محاولا تخليص نفسه ، وراحوا يصفرون ويضربون الارض باقدامهم يكادون ينشقون من الضحك .

– مرحى للحامية ! انطح الطاهى فى بطنه !

أثار فىّ ذلك الفرح الجنونى لذلك الرهط من المخلوقات

البشرية رغبة جامحة فى ان اتناول جذع شجرة واحطم بـــه رؤوسهم .

أطلق سمورى سراح الجندى واستدار الى القوم مثل دب متوحش ، ويداه خلف ظهره ، وقد تعرت اسنانه وشارباه يرقصان .

– كل رجل الى محله – امشوا ! ايها المتوحشون !

رمى الجندى نفسه عليّ مرة ثانية ، بيد ان سمورى رفعه عن الارض بيد واحدة وحمله الى المضخة ، ودس رأسه تحت الماء وعصر جسد الجندى النحيل فكأنه دمية بالية .

جاء بعض الملاحين والعريف والوكيـــل الاول يهرعون ، وتحلّقت جمهرة جديــــدة من الناس . وبدت فوق رؤوس الجميع طلعة رئيس الخدم ، أنيسة صامتة مثلها أبدا .

جلس الجندى فوق كومة من الحطب ونزع حذائيه بيدين مرتجفتين وشرع يعصر الخروق التى لف بها قدميه ، لكنها كانت جافة . وكانت المياه تتساقط من شعره المشعث مما أثار عاصفة جديدة من الضحك .

نبر الجندى فى صوت رفيع عالى الرنة :

– انتظروا فقط . لسوف أقتل ذلك الصبى !

حملنى سمورى من كتفى ، وهمس شيئا فى أذن الوكيل الاول . وراح الملاحون يبعثرون الحشد .

توجه سمورى الى الجندى قائلا ، حين تفرق الجميع :

– ماذا سنفعل بك ؟

فلم يفه الجندى بحرف . كان يحدق فيّ بعينين متوحشتين وجسده يرتعش بشكل غريب . أمره سمورى :

– استعد ! يا ثرثار !

فردّ الجندى :

– كلام فارغ ! هذا ليس بالجيش !

استطعت ان ارى ان هذا افقد الطاهى صوابه ، فترهلت وجنتاه المنتفختان ، فبصق وسار مبتعدا بعد ان اصطحبنى معـــه . كنت مرتعش الاوصال ، فرحت اختلس النظر الى الجندى ، لكن سمورى همهم مندهشا :

– فتى ديكىّ ، ايه ؟ هيا بنا الآن .

ولحق بنا سيرجى ، وهمس :

– انه يريد أن يحزّ عنقه بالسكين !

فزعق سمورى :

– ماذا ؟

ورجع راكضا .

كان الجندى عند باب غرفة الخدم يحمل سكينا عريضة تستعمل لفصل رؤوس الدجاج والديكة وتقطيع خشب المدفأة . كانت شفرتها ملثومة محزّزة كالمنشار . وقد تحلّق جمع من الناس امام الغرفة يراقبون ذلك الرجل الصغير الهزأة بشعره المبلول . وكان وجهه الافطس الانف يرتجف مثل المرق وقد فغر فمه ، وارتعشت شفتاه ، وراح يهمهم دون انقطاع :

– اباليس ! ا – با – ليس !

قفزت فوق شيء لا أذكره الآن ، ورحت اتطلع من فوق رؤوس القـــوم الى وجوههـــم . كانوا يضحكون ويقهقهون ويخاطبون بعضهم بعضا :

– انظروا ، انظروا !

ولما شرع الجندى يعيد قميصه تحت سرواله بيده المتعظمة الشبيهة بيد الاطفال اعلن رجل يافع يقف الى جوارى ، وهو يرسل تنهيدة حرى :

– فيما يهندم سرواله ان كان سينتحر ؟

فارتفع ضحك الجمهور . كان من الواضح ان احدا منهم لا يصدق انه قادر على الانتحار . وكذلك لم اصدق انا . غير ان سمورى ، بعد ان رماه بنظرة مختصرة ، شرع يدفع الناس ببطنه وهو يصيح :

– تفضلوا بالابتعاد من هنا ، أيها الاحمق !

كان يحب استعمال هذه الكلمة كصيغة للجمع . فهو يقترب من حشد من الناس ، ويخاطبهم جميعا بقوله :

– تفضلوا بالابتعاد ، أيها الاحمق !

كان ذلك مسليا ، وكانت الحقيقة ذلك اليوم ، منذ الصباح الباكر حتى المساء ، ان الناس جميعا غدوا شخصا واحدا احمق كبيرا .

ما ان بعثر ذلك الحشد حتى انطلق الى الجندى وأمسك به من يده :

– أعطنى هذه السكين .

فأجاب الجندى ، وهو يناوله السكين :

– لا فائدة ترجى من ذلك .

ناولنيها الطاهى ودفع بالجندى الى الغرفة .

– اضطجع واستسلم للنوم . ماذا اصابك ، على اية حال ؟

جلس الجندى على الدكة دون ان يعطى جوابا .

– لسوف يحمل اليك شيئا تطعمه وقليلا من الفودكا . أتشرب الفودكا ؟

– قليلا .

– حذار ان تمسه بأذى . ليس هو من يهزأ بك ، أتسمع ؟ انا اقول لك انه لا يهزأ بك .

فاستفسر الجندى فى رفق :

– لماذا يعذبوننى على هذا الشكل ؟

فجنح سمورى لحظة الى الصمت ، ثم اجاب :

– أتظننى أعرف لماذا ؟

ورجعنا ادراجنا معا الى المطهى .

همهم قائلا ، ونحن فى الطريق :

– هم – لقد وقعوا على رجل مسكين فقير دون ريب . أرأيت ذلك ؟ الناس قد يحملونك على الجنون ، يا أخى . انهم يستطيعون ذلك . يسقطون عليك مثل البقة ، وتحل نهايتك ماذا كنت أقول – البقة ؟ انهم أشر الف مرة من البق !

لما حملت الى الجندى قليلا من الخبز واللحم والفودكا كان جالسا على الدكة يتأرجح الى الامام والخلف ويبكى فى هدوء مثل النساء . وضعت الصحن على الطاولة وقلت :

– كلْ .

– اغلق الباب .

– فتسود الظلمة .

– اغلق الباب ، والا رجعوا اليّ .

خرجت . كنت ابغض ذلك الجندى . فهو لم يثر فى فؤادى

شيئا من العطف او الشفقة ، وهذا ما كان يضايقنى . فقد كانت جدتى تخاطبنى على الدوام بقولها :

– يجب ان نعطف على الناس . . . جميع الناس تعساء ومساكين ، الحياة شاقة لدى الجميع .

توجّه الىّ الطاهى عندما رجعت الى المطبخ مستفسرا :

– هل أعطيته ذلك ؟ حسنا ، كيف حاله الآن ؟

– انه يبكى .

– هه ، ياللعفريت ! ويسمى نفسه جنديا ؟

– انى لا احس شيئا من الشفقة تجاهه .

– ما هذا ؟

– ويجب على المرء ان يعطف على الناس .

فأمسك سمورى بيدى ، وشدنى اليه . قال بتأثر :

– انت لا تستطيع ان ترغـــم نفســـك على الاحساس بالشفقة ، والكذب عاقبتـــه وخيمة ، أتسمعنى ؟ اياك أن تتذبذب ، اعرف عقلك تماما .

دفعنى عنه ، وأضاف عابسا :

– هذا مكان لا يناسبك . اليك ، خذ لفافة .

كانت مشاعرى قد تأثرت عميقا بسبب من تصرف اولئك المسافرين .

استشعرت شيئا من الظلم لا يمكن وصفـــه فى تلك الطريقة التى يغيظون فيها الجندى ، ويضحكون ملء أشداقهم حين امسك به سمورى من أذنـــه . كيف يمكن ان تغتبط قلوبهم من اى شىء تمجه النفس ويرثى له ؟ وماذا يمكن ان يجدوا فيه مما يبعث على السخرية المرة ؟

مرة اخرى راحوا يجلسون ويضطجعون على الدكـــة ، يأكلون ويشربون ويلعبون الورق ، ويتحدثون بهدوء واحترام ويراقبون النهر فكأنهم يختلفون عن أولئـك الناس الذين كانوا ينعقون ويصفرون بوحشية فائقة قبل ساعة من الزمن . لقد خلدوا الى الهدوء والكسل من جديد مثلهم ابدا ، وراحوا يتجرجرون على المركب فى بطء ، من الصباح الى المساء ، مثل البعوض او ذرات الغبار تحت أشعة الشمس . وجماعات منهم تتراكم الآن فى قمة اللوح الطويل الذى يصـل بين المركب والبر ، يرسمون اشارة الصليب قبل ان يهبطوا الى رصيف الميناء ، بينا جماعات اخرى تشبههم الشبه كله ، يلبسون نفس الثياب ، وينحنون نفس الانحناءة تحت ثقل اكياسهم واحمالهم ، يصعدون المركب من جديد .

هذا التبدل المتتابع للناس لم يكن يحمل فى طياته اى تبدل للحياة على ظهر المركب . فالمسافرون الجدد يبحثون ذات الامور التى كان الآخرون يبحثونها : الارض ، والعمل ، والله ، والنساء حتى انهم يستعملون ذات كلماتهم ايضا .

– انها مشيئة الله فى ان نتحمـل ونقاسى ، وهكذا سنتحمل ونقاسى . ليس ثمة ما يمكن ان نفعل من اجل هذا . انه نصيبنا .

كان مما يثير الاشمئزاز والاكتئاب ان ترهف اذنيك اليهم وهم يتفوهون بمثل هذه الامور . لم أكن اطيق الوساخة ، ولم اكن املك اية رغبة فى ان اتحمل معاملتهـم لى بقسوة ووحشية . كنت واثقا انى لم افعل شيئا يستحق مثل تلك

المعاملة . وكذلك لم يكن الجندى يستحق ذلك . ولعله هو نفسه يرغب ان يكون هزأة . . .

لقد طردوا مكسيم الطيب القلب الرزين من المركب ، بينا هم يحتفظون بسيرجى الخسيس اللئيم . هذا ما لا يجب ان يحدث . وفيم هؤلاء الناس ، والقمينين بتعذيب المرء حتى درجة الجنون ، يطيعون طاعة عمياء تلك الاوامر الوحشية التى يصدرها البحارة ، ويتقبلون التوبيخ البذىء دون اى امتعاض او تكدر ؟

كان ناظر المركب يصيح ، وهو يضيّق عينيه الجميلتين ولكن الخبيثتين :

– تنحوا عـــن طرف المركب ! ألا ترون ان المركب يتأرجح ؟ عداوه ، ايها الشياطين !

فيركض أولئك الشياطين فى طاعة عمياء الى الطرف الآخر من المركب ، حيث يطردون من جديد مثل قطيع من الغنم .

– آه ، ايتها الجرذان !

وفى الليالى الحارة كان الجو لا يطاق تحت تلك المظلة المعدنية التى تخزن الحرارة طيلـــة النهار . وكان الركاب يتفرقون مثل الصراصير ، وينامون حيثما يروقهم . وكلما توقف المركب ، يوقظهم البحارة بالرفس والضرب .

– هيا ، نظفوا الطريق ! عودوا الى اماكنكم !

فينهضون ، ثم يتبعثرون فى الزوايا والنعاس يرنق فى عيونهم .

كان البحارة يختلفون عن المسافرين بثيابهم وحدها ، ومع ذلك يثقلونهم بالاوامر مثل رجال الشرطة .

الامر الذى يلفت الانظار أكثر من سواه فى أولئك القوم هو خجلهم واستحياؤهم واستسلامهـم المفجع ، ومن الغريب والراعب عندما كانت قشرة ذلك الاستسلام تتحطم على حين فجأة فى لحظات من الطرب الوحشى نادرا ما تبعث على الغبطة . وكنت احس ان أولئك الناس لا يعرفون الى اين ينقادون ، ويبدو انهم لا يعبأون بالجهة التى سيقذفهم المركب فيها . وحيثما أبروا ، فهم يتراخون على الشاطئ فترة قصيرة من الزمن قبل ان يستقلوا ذلك المركب او سواه من جديد ، فيحملهم مرة اخرى الى جهة مجهولة . كان الجميع جوابى آفاق لا بيوت لهم ، جميع الاراضى غريبة بالنسبة اليهم ، وجميع الناس جبناء رعاديد ايضا .

وذات مرة ، بعد منتصف الليل بقليل ، تحطمت احدى الآلات فى انفجار يشبه طلقة المدفع . وما أسرع ان غرق ظهر المركب بسحابة من البخار الابيض تدفقت من غرفة الآلات ، وراح يتمعج بكثافة عبر الشقوق .

صاح أحدهم بصوت أصم :

- جافريلو ! أعطنى قطعة من اللباد وبعض الرصاص الاحمر .

كنت انام الى جانب غرفة الآلات على المائدة التى أغسل الصحون فوقها . ولما استيقظت بتأثير الانفجار والضجة كان كل شيء على ظهر المركب هادئا ساكنـــــا . وكانت الآلات تهسهس بالبخار والمطارق تقرقع بسرعة . ولم تمر لحظة واحدة حتى كان المسافرون على ظهر المركب يصيحون وينبحون بطريقة راعبة حقا .

وراح يندفع ، فى قلب ذلك الضباب الابيض الذى انقشع بعد لحظات ، نساء شعث الشعور والهندام ، ورجال عيونهم تشبه عيون السمك ، يطيحون ببعضهم بعضا على الارض ، يتعثرون بالاكياس والحقائب والصرر ، فيقعون ويتدحرجون ، وهم يستشفعون بالله والقديس نيقولاى . ويضربون بعضهم بعضا . كان المنظر مخيفا ، لكن يبعث على الاهتمام . ورحت أركض خلف القوم كى القى نظرة واستخلص ما حدث .

تلك كانت تجربتى الاولى فى ليلة منذرة بالخطر ، فرحت أستشعر لسبب ما ان ذلك كله لم يكن غير خطيئة . وظلّ المركب يسير فى سرعته المعتادة ، والى الضفة اليمنى ، قريبا جدا ، ترتفع ألسنة لهب مخيمات حصادى العشب ، والليل تشع ذراته براقة ينيرها قمر أضحيان تكبد اعالى السماء .

ظل الناس يتدافعون من هنا وهناك فى جنون متزايد . وأسرع المسافرون فى الدرجات الاولى فأطلوا برؤوسهم على السطح . وقفز أحدهم من فوق حافة المركب وتبعه آخرون . وتناول اثنان من المسافرين وراهب بعض جذوع الأشجار اقتلعوا بها احدى الدكك المربوطة فى ظهر المركب . وطار قفص الدجاج وانزلق من فوق المقدمة . وجثا فلاح فى وسط المركب قرب السلم المؤدى الى غرفة القبطان ، وانثال ينحنى لأولئك الذين يمرون به ويعوى كالذئب :

– آه ، أيها المؤمنون الحقيقيون ، اننى خاطئ ملعون !

وصاح سيد سمين لا يلبس غير سروال ، وهو يضرب صدره بقبضة يده :

– اين قارب الانقاذ ، ايها الشياطين ؟

انطلق البحارة يتواثبون ههنا وهناك ، يجرون الناس من ياقاتهم ، ويضربونهم على رووسهم ، ويدفعونهم جانبا . وتدحرج سمورى بثقل ، وقد ألقى على ثيابه الليلية معطفا ما .

راح يعطس فى وجه الجميع فى صوت راعد :

– ألا تخجلون قليلا ! هل جننتم جميعا ؟ المركب متين انه لا يغرق . ها هو شاطئ النهر . ان حُصّادى العشب يلتقطون أولئك الحمقى الذين قفزوا الى الماء – هاهم هنالك . أترون ؟ ثمة قاربان مزدحمان .

وأخذ يهوى بقبضتيه على رؤوس ركاب الدرجة الثالثة ، فيتهاوون على الارض كالاكياس .

وقبل ان تهدأ تلك الضجة الصاخبة اندفعت سيدة ترتدى بلوزة من غير كمين تلوح بملعقة صوب سمورى ، وزعقت :

– كيف تجرؤ على ذلك !

أمسك بها سيد يرشح عرقا ، ودفعها الى الخلف .

قال فى نزق ، وهو يلعق شاربه :

– دعيه وشأنه ، هذا المتحجر الرأس .

هزّ سمورى كتفيه ، وطرف بعينيه فى ارتباك ، واستدار الي قائلا :

– أأحببت هذا ؟ ماذا تبغيه منى هذه المرأة ، على اية حال ؟ انا لم أرها من قبل قط فى حياتى بأسرها !

ونفخ رجل صغير الدم المتدفق من منخريه ، وصرخ :

– تبا لهم من قوم ! تبا لهم من قطاع طرق !

لقد كنت شاهدا ، خلال ذلك الصيف ، مرتين على مثل

ذلك الهلـــع يسرى على المركب ، وفى كلا المرتين لم يكن السبب الخطر الحقيقى ، بل الخوف المجرد من احتمال وقوع الخطر وفى مرة ثالثة قبض المسافرون على لصين أحدهما يتخفى بثيات راهب . واقتادوهما بعيدا عن قبضة البحارة وضربوهما طيلة ساعة من الزمن . وحين أنقذهما البحارة اخيرا ، أهرع الجمهور البهيم وزعق :

– لصوص يخفون لصوصا ايضا ، نحن نعرف جبلتكم !

– انتم لصوص ايضا ، ولذلك تشفقون عليهم !

لقد ضرب اللصان ضربا حتى كانا عاجزين عن الوقوف على أقدامهما حين سلما الى الشرطة فى المحطة التالية .

كانت مثل هذه الحوادث تجرى غالبا ، وباسلوب خطر بحيث يروح المرء يتساءل ما اذا كان الناس بالفطرة طيبين ام اشرارا ، هادئين ام يغلون انفجارا .

فيم هؤلاء الناس على هذه الدرجة من القسوة ، اشرارا كاسرين ، مطيعين الى درجة تثير الخجل ؟

اذا توجهت بمثل هذا السؤال الى الطاهى ، فهو سيخفى وجهه بدخان لفافته ويجيب فى ضيق :

– وماذا يهمك هذا ؟ الناس هم الناس . واحد ذكى ، وآخر أحمق . اقرأ الكتب وكفّ عن تعذيب دماغك . لسوف تجد الأجوبة المطلوبة فى الكتب ، اذا كانت هذه الكتب جيدة .

لم يكن يحب الكتب الدينية او سير القديسين .

كان يقول :

– انها تخص الكهنة ، او ابناء الكهنة .

حينما عزمت مرة ان اقدم له خدمة طيبة قررت ان اهدى

له كتابا . فدفعت فى قازان خمسة كوبيكات ثمنا لكتاب «كيف أنقذ جندى حياة بطرس الأكبر» . كان الطاهى مخمورا مريعا فى تلك اللحظة ، فقررت ان اقرأ تلك «الاسطورة» قبل ان اقدمها له . فتنتنى روعة – كل شىء فيها بسيط واضح ، مختصر يبعث على الاهتمام . وكنت واثقا من ان الكتاب سيهرق كثيرا من الغبطة فى قلبه .

ولكنى لم أكد اناوله اياه حتى جمعه فى قبضة يده دون ان ينبس بكلمة ، وقذف به الى النهر .

قال فى فظاظة :

– اليك كتابك ، ايها الاحمق ! ها أنذا هنا ، ادربك طيلة الوقت فكأنك كلب للصيد ، وانت ما تزال تلتهم العصافير .

وضرب الارض بقدمه ، وصاح بى :

– اى نوع من الاسماء تطلق على هذا الكتاب ؟ لقد قرأت هذه السخافات كلها ! أصحيح ما كتب فيه ؟ تعال ، خبرنى !

– لست ادرى .

– حسنا ، انا ادرى . لو انهم اجتزوا رأس أول فتى ، لكان تدحرج على السلم فما تجاسر الآخرون على الصعود الى مخزن العشب . ليس الجنود بأغبياء ! كان يمكن ان يشعلوا النيران فى العشب المجفف ، ويكون ذلك نهايـــة كل شىء . اتسمع ؟

– نعم .

– اذن ، هذا ما يحدث ! انى اعرف كل شىء عن ذلك القيصر بطرس – ان شيئا من ذلك كله لم يحدث له ! امض من هنا !

وتيقّنت ان الطاهى على صواب ، لكننى ما زلت مغرما بالكتاب . اشتريت «الاسطورة» وقرأتها مرة اخرى ، فاكتشفت لشدة عجبى ان الكتاب لا يساوى شيئا فى الحقيقة . أخجلنى ذلك ، فصرت أنظر الى الطاهى باحترام اكثر واخلاص متزايد ، بينا ظل هو يهمهم على الدوام ، وينعم صوته فى ضيق متزايد:

– ايه ، يجب ان تدرس ! هذا المكان لا يلائمك !

ولقد شعرت انا ايضا ان ذلك المكان لا يلائمنى . وكان سيرجى يعاملنى فى كراهية . وقد قبضت عليه عدة مرات يأخذ ادوات الشاى من على طاولتى ويبيعها الى المسافرين ، مغتنما فرصة ذهول رئيس الخدم عن ذلك . كنت اعرف ان ذلك يسمى سرقة .

حذرنى سمورى أكثر من مرة :

– انتبه ! حذار ان تترك الخدم يأخذون ادوات الشاى عن مائدتك !

وكان ثمة امور اخرى كثيرة تنذرنى بالشؤم والشر ، فاروح اعزم على هجران المركب فى المحطة التالية والهرب الى الغابات . وكان سمورى يجذبنى ، اذ يعاملنى بلطف متزايد ، وكذلك فتنة المركب وسحره بحركته الدائبة المستمرة . وكرهت تلك الوقفات على أرصفة الموانئ ، وانتظرت حدوث امر ما ينقلنا من نهر كاما الى بيلايا ، ومن ثم الى فياتكا ، او الى الفولغا ، حيث اشاهد شواطئ ومدنا وقوما جديدين .

لكن شيئا من ذلك لم يحدث . آلت حياتى على المركب الى خاتمة مخجلة مبتورة . ذات مساء ، وكنا نبحر من قازان

الى نيجنى نوفجورود ، أرسل رئيس الخدم يطلبنى . ولما مثلت فى حضرته أغلق الباب وتوجه الى سمورى ، وكان هذا يجلس مكتئب الطلعة على كرسى واطئ تغطيه سجادة صغيرة ، وخاطبه قائلا :

– هذا هو .

وسألنى فى جفوة :

– هل كنت تعطى سيرجى ملاعق واشياء اخرى ؟

– انه يأخذها بنفسه فى غيابى .

فقال رئيس الخدم فى هدوء :

– انت لم تره يفعل ذلك ، ولكنك كنت تعرف انه يفعل هذا .

وأهوى سمورى بقبضته على ركبته ، ثم حك مكان اللطمة ، وقال :

– انتظر قليلا . فليس ثمة ما يدعو الى العجلة .

ثم جنح الى التفكير .

تطلعت الى رئيس الخدم وتطلع هو اليّ ، ولكنى لم أر عينيه خلف نظارته .

كان يعيش فى هدوء ، ويخطو دون ان يحدث ضجة ، ويتحدث فى نغمة خافتة الجرس . وفى بعض الاحيان كانت لحيته الذاوية اللون وعيناه البلهاوان تومض من خلف احدى الزوايا ، ثم تختفى على الفور . وقبل ان يمضى الى فراشه فهو يركع طويلا امام الايقونة ، ولهب القنديل يحترق تحتها على الدوام . لم أكن أشاهده يصلى ، مهما أطلت اختلاس

النظر اليه عبر وصواص الباب ، بل هو يجثو بكل بساطة ويحدق فى اللهب والايقونة ويتنهد ويمشط لحيته .

استفسر سمورى بعد لحظة من صمت :

– هل أعطاك سيرجى اية نقود ؟

– كلا .

– ابدا ؟

– ابدا .

فقال سمورى لرئيس الخدم :

– انه لا يكذب .

فاجاب هذا الاخير بهدوء :

– ذلك لا يجعل الامر يختلف ابدا .

صاح الطاهى ، وهو يخطو مقتربا من مائدتى . ويصفعنى على مؤخرة رأسى :

– هيا ، تعال . احمق ! وانا احمق ايضا ! كان يجب ان أراقبك على الدوام .

لما وصلت الى نيجنـــــى نوفجورود انهى رئيس الخدم حساباته معى . فقبضت حوالى ثمانية روبلات – وهو اول مبلغ جسيم ربحته فى حياتى .

قال سمورى فى وحشة ، وهو يغادرنى :

– هِمْ . أبق عينيك مفتوحتين فى المستقبل . أتسمع ؟ يجب ألا تصير صيادا للذباب !

ووضع كيس التبغ المطرز فى يدى .

– اليك ، خذ هذا . عمل رائع – لقد صنعته من اجلى

ابنتى فى المعمودية . حسنا ، وداعا . اقرأ الكتب – هذا أفضل شىء تفعله !

أمسك بى من تحت ذراعى ورفعنى فى الفضاء وقبلنى ، ثم وضعنى على رصيف المرفأ . وشعرت بالأسف من اجله ومن اجلى . وفى الحقيقة ، لم أكن استطيـــع حبس دموعـــى الا بصعوبه ، وانا اراقب ذلك الرجل الضخم ، المتثاقـــل ، الوحيد ، يدفع طريقه بين الحمالين عائدا الى المركب .

كم من اناس بسطاء – لطفاء ، وحيدين لفظتهم الحياة – التقيت بهم فى السنوات التالية !

٧

رجع جدى وجدتى الى المدينة من جديد . وصلت اليهما فى حال فكرية ثائرة ناقمة . وكان الغمّ يثقل على صدرى . لماذا عوملت مثلما يعامل اللص ؟

استقبلتنى جدتى استقبـــالا مؤثرا ، واسرعت تهيئ السماور على الفور . وسألنى جدى بصوت ساخر على مألوف عادته :

– هل وفّرت ذهبا كثيرا ؟

اجبت ، وانا آخذ مجلسى امام النافذة :

– ما وفّرته يخصنى وحدى .

واخرجت من جيبى فى وقار علبة لفائف واشعلت واحدة .

قال جدى ، وهو يتابع بنظراته كل حركة من حركاتى :

– أو هوّ ! هذا ما وصلنا اليه ! وهكذا اعتدت على عشب الشيطان ، أليس كذلك ؟ أليس الوقت مبكرا ؟

فقلت متباهيا :

– انهم حتى اهدونى كيسا للتبغ .

فاطلق جدى صرخة حادة :

– كيسا للتبغ ! ماذا تفعل ؟ تحاول اثارتى ؟

انقض علىّ ، وقد نشر ذراعيه النحيلتين القويتين ، وعيناه الخضراوان تقدحان شررا . قفزت ونطحته فى بطنه . فانهار الشيخ على الارض ، وظلّ طوال ثوان متوترة جالسا هنالك يطرف بعينيه صوبى وقد تملكته الدهشة ، وانفرج فمه الاسود . وقال اخيرا فى صوت هادئ :

– وهكذا انا من القيت ارضا ، انا جدك . والد امك ؟

غمغمت ، وقد ادركت انى اقدمت على عمل سيئ للغاية :

– تلقيت منك ما يكفى من الضرب .

نهض جدى فى خفة ورشاقة وجلس الى جانبى . انتزع اللفافة من يدى والقى بها من النافذة .

استوضح فى صوت مرتاع :

– ايها المأفون ! الا تدرك ان الله لن يغفر لك فعلتك هذه مهما امتد بك العمر ؟

واردف مخاطبا جدتى :

– فكرى فقط ، ايتها الام ! هو ، لقد ضربنى انا . اسأليه ان لم يفعل ذلك .

لم تكلّف نفسها عناء السؤال ، بل اكتفت بالاقتراب منى ، وراحت تهزنى من شعرى . قالت :

– هذا جزاؤه ! اليك هذه ! وهذه !

لم تسبب لى الما جسديـــا ، غير ان مشاعرى انجرحت عميقا ، وخاصة بسبب من ضحك جدى اللاذع . كان ينطّ صعودا وهبوطا على كرسيه ، ويضرب ركبتيه بيديـــه ، ويغمغم :

– هكذا ، هكذا تماما !

تخلصت من جدتى وركضت الى الرواق ، وطوّحت نفسى فى احدى الزوايا ، مرهقا ، فارغ الرأس ، ارهف سمعى الى همهمة السماور .

اقبلت جدتى واكبّت علىّ ، وهمست فى صوت جد خفيض :

– سامحنى . انا لم اؤذك حقا ، أليس كذلك ؟ فعلت ما فعلت ذرا للرماد فى العيون ، ولم يكن هنالك ما يمكن ان افعل سوى ما فعلت . وفوق هذا كله فجدّك رجل هرم . واحترامه واجب عليك . مصائبه كبيرة وقلبه عامر بالحزن ، فلا ينبغى ان تجرحه . فما انت بولد صغير بعد . وانت قادر على الفهم ، يا أليوشا . انه مجرّد طفل كبير – لا اكثر ولا اقلّ .

سبحت كلماتها فوقى فى لطف مثل ماء دافئ . وكان همس حديثها الودود يخفف من المى ويشعرنى بالخجل . فشددتها الىّ فى عنف ، وتعانقنا ، وقبّلنا بعضنا .

– امض اليه ، امض قدما ، وينتهى كل شىء الى خير . لكن ، حذار من العودة الى التدخين امامه فى الحال على هذا الغرار . دعه يتعوّد ذلك مع الزمن .

حين ابت الى الغرفة ورميت جدى بنظرة لم استطع منع

نفسي عن الضحك . كان مغتبطا حقا مثل طفل صغير ، وجهه يتألق ، وهو يضرب الارض بقدمه ، والمنضدة بقبضة يده المفروشة بوبر احمر .

– حسنا ، ايها التيس الصغير . أتريد ان تنطحني بقرنيك من جديد ؟ آه ، ايها اللص الصغير ، انت ! انت صورة من ابيك ! تدخل الى البيت من دون ان ترسم اشارة الصليب ، وتشرع في التدخين فورا . تفو ، ايها البونابرت الصغير الذي لا يساوي غير كوبيكين !

لزمت الصمت . اعوزته الكلمات فلزم الصمت متعبا ، ولكنه جعل يعظني خلال تناولنا الشاي :

– ان خشية الله ضرورية للانسان مثلما اللجام ضروري للحصان . ليس هنالك من ناصر لنا غير الله . فالانسان هو العدوّ الالدّ للانسان !

صعقتني حقيقة كلماته ، وان الرجال اعداء . ولكن بقية حديثه لم تؤثر فيّ على الاطلاق .

– ينبغي ان تعود الى عملك لدى الخالة ماتريونا الآن ، وفي الربيع تستطيع العودة الى المركب . امض الشتاء عندهم ، ولا تخبرهم انك ستفارقهم مع طلّة الربيع .

تدخلت جدتي في الحديث ، وكانت قد خدعت جدي قبل قليل بالضرب الزائف الذي عاقبتني به :

– فيمَ خداع الناس ؟

اصرّ جدي قائلا :

– لا تستطيعين الاستمرار في الحياة من دون خداع الناس . ليس من يستطيع ذلك على الاطلاق .

في ذلك المساء ، حين جلس جدى يقرأ المزامير ، توجهت وجدتى خارجين من البوابة الى البرارى . كان الكوخ الصغير ذو النافذتين حيث يعيش جدى يقوم فى اقصى اطراف البلدة ، فى نهاية شارع كاناتنايا حيث امتلك مرة منزلا فيما غبر من الزمان .

ضحكت جدتى قائلة :

– انظر الحال التى هبطنا اليها ! فالجد لا يحظى بمكان يجد فيه الراحة والهدوء ، ولذلك يبقى دائم التنقل . وهذا لا يلائمه فى حين انه يلائمنى تماما .

على مسافة ثلاثة فراسخ امامنا يمتد منبسط معشب ضيق تتخلله اخاديد وينتهى على شكل صف من اشجار البتولا يحدد الطريق الى قازان . وفوق الاخاديد تبرز اغصان جرداء من ادغال تبدو اشبه ما تكون بسياط مبقعة بالدم تحت ضوء اللمعان البارد لغروب الشمس . وكان نسيم العشية الخفيف يهدهد اعناق العشب . وتتكرر هذه الحركة فيما وراء الاخدود الاقرب من قبل الاشكال الشبحية للعشاق القادمين من البلدة . وبعيدا ناحية اليمين ينتصب الجدار الاحمر لمقبرة «المنشقّين» المعروفة باسم «صومعة التاجر بوغروف» ، أما ناحية اليسار فثمة مجموعة سوداء من الاشجـــار فوق الاخدود هى مقبرة اليهود . كل ما يحيط بنا يبدو هزيلا حقيرا ، وكل شىء يلتصق فى صمت بالارض المحفرة . ونوافذ اكواخ البيوت الصغيرة المتناثرة على اطراف البلدة تبدو وكأنها تغمز فى رقة للطريق المعفرة ، حيث تسرح افراخ دجاج هزيلة الجسم ، سيئـــة الغذاء . ويصل الى سمعنا خوار ابقار تمرّ قرب دير ديفيتشى .

ومن معسكر قريب يدفّ صدى موسيقى عسكريـــة ، ابواق نحاسية تهدر وانفار ترعد .

مرّ سكّير يترنّح ، وهو يعزف بوحشية على آلة أكورديون ويتمتم :

– لسوف اقبض عليك – من دون ريب .

قالت جدتـــى ، وهى تحدج ضوء الشمس الاحمر بنظرة شزراء :

– على من ستقبض ، ايها الابلـــه ؟ لسوف تهوى الى الارض وتستغرق فى النوم ، وخلال نومك يعرّونك – حتى انهم سيأخذون منك هذا الأكورديون – وهو ما يهرق الغبطة فى قلبك .

ظللت اسرّح الطرف فى ما يحيط بى وانا اقصّ على جدتى قصة حياتى على المركب . وبعدما رأيت ما رأيت وجدت ما يحدق بى باعثا على الحزن ، فشعرت بالبؤس . اصغت الىّ جدتى فى انتباه كلى ، مثلما كنت اصغى اليها على الدوام ، وحين حدثتها عن سمورى رسمت اشارة الصليب فى حماسة ، وقالت :

– آه ، يا للرجل الطيب العزيز ! فلتكن العذراء المباركة فى عونه ! حذار ان تنساه ! احفظ فى ذهنك دائمـــا الخير والصلاح . أما الشر فاطرده عنك بعيدا .

كان يصعب علىّ كثيرا ان اعترف لها لماذا طردونى من المركب ، ولكنى افلحت بعدما استجمعت كلّ ما فىّ مـــن شجاعة وجرأة . لم تترك القصة فى نفسها اثرا على الاطلاق ، بل اكتفت بالاشارة فى شىء من عدم الاكتراث :

– ما زلت صغيرا بعـــد ، ولا تعـــرف كيف يجب ان تعيش . . .

– جميع الناس يخاطبون بعضهم بعضا انهم لا يعرفون كيف يجب ان يعيشوا ! الرجال ، وعمال المركب ، والخالة ماتريونا التى لا تفتأ تعالن ولدها . فما هذا العلم ؟

كزّت جدتى على شفتيها ، وهزت رأسها ، واجابت :

– هذا ما لا اعرف عنه شيئا !

– ولكنك تدأبين على الحديث به !

فاجابت جدتى فى هدوء :

– لِمَ لا ؟ لكن ، لا تأخذنك الحمية ، فما زلت بعـــد صغيرا ، ولا يفترض فيك ان تعرف كيف تعيش . ومن تُرَى يعرف كيف يجب ان يعيش ؟ اللصوص وحدهم ! خذ جدك مثلا – فهو ذكى ومثقف ، ولكنّ هذا لم يساعـــده فى شىء اطلاقا .

– وهل عشت انت حياة جميلة ؟

– انا ؟ آه ، بلى ، عشت عيشة طيبة ، كما عشت عيشة سيئة . حياة متقلّبة .

كان الناس يمرون بنا متماهلين ، يجررون وراءهم ظلالا متطاولة ، والغبار يهبّ تحت اقدامهم مثـــل الدخان ويدفن ظلالهم . وكانت كآبة المساء تنتشر وتمتدّ . وانحدر صوت جدى المزمجر الينا من النافذة .

– ايها الربّ ، ارفع نقمتك عنى ، وعاقبنى على قدر طاقتى . . .

ابتسمت جدتى ، وقالت :

– لا ريبة انه اسقم الله واتعبه ! فى كل مساء ينتحب على هذا النحو ، فما الفائدة من نحيبه ؟ امسى شيخا ، ولم يعد فى حاجة الى شيء ،وما همه غير الانين والشكوى ! والله يبتسم حين يسمع صوته كل مساء فى جوقة الاصوات فيقول : «ها هو فاسيلي كاشرين يبحّ صوته من جديــــد !» . هه ، حسنا . هيا بنا ، الى النوم . . .

عقدت العزم على الانصراف الى صيد العصافير المغردة . منّيت النفس بربح وفير من جراء هذا الصيد . التقطها انا وتقوم جدتى ببيعها . وهكذا اشتريت شبكة ، وطوقا ، وبعض الفخاخ ، وصنعت عددا من الاقفاص . وهذا انا عندما بزغ الفجر اتربّص فى ادغال الوادى ، وجدتى تجوس الغابة المجاورة بكيسها وسلّتها باحثة عما يمكن ان تعثر عليه من فطر وعنب برى وجوز .

شمس ايلول التى لا يزال التعب آخذا باهدابها قد اشرقت لتوها ، واشعتها الشاحبة تنصهر فى الغيوم تارة وتارة تنتشر مروحتها الفضية على آثارى . وفى اعماق الوادى لا تبرح الظلال مخيمة تبعث ضبابا ابيض . كانت احدى ضفتيــــه المنحدرة الغضارية قاتمة جرداء . أما الضفة الاخرى فهى تميل فى انحدار خفيف ، تغطيها اعشاب ذابلة وادغال كثيفة متوهجة باوراق حمراء وصفراء تنتزعها الريح وتبعثرها فى الوادى .

وبين شجيرات الأرقطيون فى الاسفــل تغرّد الحساسين ، وبين النباتات الشهباء لمحت القلنسوات القرمزية على رؤوسها

الصغيرة المتغطرسة . وعصافير القرقف الفضولية تغرّد حوالي وتنفخ خدودها البيضاء بصورة غريبة مضحكة ، وتضج صاخبة كفتيات كونافينو ايام العيد . انها خفيفة الحركـــة ، ذكية ، خبيثة تريد معرفة كل شيء ، ولمس كل شيء ، واذا هي تقع في الفخ واحدة بعد الاخرى .كان منظرها وهي تتخبط يثير الشفقة في النفس ، ولكن القضية في نظري هامة جدية – فانا اقوم بعمل . وادخل العصافير في القفص المعدّ لها واغطّيه بالكيس كيما اجعلها تجنح الى الهدوء .

وهذا سرب من عصافير السميلي يحطّ على اجمة عليـــق برى تداعبها اشعة الشمس فتفرط العصافير في تغريدها المرح وقد افعمتها الشمس غبطة فكأنها جماعة من التلاميذ الاغرار . وهذا طائر دغناش نهم مقتصد لم يفطن الى الطيران جنوبـــا توقف على غصن متأرجح من اغصان الخليج يملس بمنقاره ريش جناحيه ، وعيناه السوداوان تنقبان فيما يراه ، وطار عاليا على حين غرة قبل قبّرة واختطف في طيرانه نحلة طنانة ليثبتها على شوكة زعرور . وجعل يتلفت الى كل ناحية وهو يلوى ويدير رأســـه الرمادي اللصوصي . ومرّ عصفـــور دوري – مهوى احلامي – دون ان يثير اى ضجيج . وهو طير ينبيء عن الطالع الحسن . ما اكثر ما احبّ ان اظفر بواحد منه ! وهذا صفو ، احمر مزهوّ مثل جنرال ، قد انفرد عن رفاقه واختبأ في شجيرة حور رومـــى ، يبعث بين حين وآخر صراخا غاضبا ويهزّ منقاره الاسود صعودا وهبوطا .

كلما ازدادت الشمس صعدا في سمتها ازدادت الطيور عددا والتغريد بهجة . وزخر الوادى باسره بنغمات موسيقية

يهيمن عليها جميعا حفيف وريقات العلّيق التي تعبث بها الريح بلا فتور . ان اصوات الطيور الطائشة تعجز عن كبت هذا اللغط الشجي الوادع الهنيء . سمعت فى هذا الانشاد اغنية وداع الصيف . انه يهمس فى اذنى عبارات تتجمع وتنسجم تؤلف قصيدة ، فى حين تعود بى ذاكرتى الى الماضى على غير ارادة منى فتثير المشاهد الراقدة .

نادت جدتى من مكان مرتفع مجهول :

– اين انت ؟

كانت جالسة فى اعلى المنحدر ، وقد نشرت على العشب الى جانبها منديلا وضعت عليه الخبز والخيار والفجل وبعض التفاح . وبين هذه الاشياء المباركة كلها يزهو اناء زجاجى صغير غاية فى الجمال بسدادته المصنوعة من الكريستال ، وتمثل رأس نابليون . كانت الزجاجة تحوى قليلا من الفودكا المعطرة باعشاب خاصة .

هتفت جدتى مستبشرة :

– يا الهى ، ما اجمل هذا كله !

– لقد نظمت اغنية .

– حقا ؟

تلوت عليها ما يشبه الشعر :

هجم الشتاء وماتت الازهار
يا صيف شمسك للهوى اسرار

لم تنتظر ان انتهى ، بل قاطعتنى قائلة :

– هنالك مثل هذه الاغنية ، ولكنها اجمل منها .
وشرعت تنشد :

تولّت شعاعات شمس النهار
وطارت عنادل تلك الديار
وصرت وحيدة . . فتاة وحيدة
يتوق الى فرحة الصيف قلبى

اتوه صباحا على كلّ درب
واذكر حُبّى . . وضمّة حبىّ
على الدرب فاضت عيونى حنينا
وتحت سماء تموج انينا
تناوح برد . . وفارق ورد

صديقات قلبى ، حبيبات قلبى
اذا نفخ البرد فى كل درب
تعالين خذن فؤادى لمرج
وغطّين قلبى باكوام ثلج

لم تصب كرامتى كشاعر باذى على الاطلاق ، فقد اعجبت باغنيتها جدّ الاعجاب ، اثارت الفتاة فىّ شفقة .

قالت جدتى :

– هكذا يكون التعبير الغنائى عن الالم ! الفتاة التى غنّت هذه الاغنية قامت مع حبيبها بنزهات فى فصل الصيف ، وحين اقبل الشتاء هجرها ونأى عنها ربما للذهاب الى فتاة اخرى .

فتألمت وبكت . ان ما لا يمكن ان يعانيه المرء لا يمكنك التعبير عنه غناء . انظر هذه الفتاة كيف استطاعت ان تنظم اغنية لا مثيل لها !

حين باعت جدتي طيورا للمرة الاولى وربحت اربعين كوبيكا ثمنا لها استبدت بها الدهشة :

– ما هذا ! كنت اظن ان المسألة عبث – مجرد لعبة صبيانية ، فانظر كيف هي تدرّ علينا الربح .

– لقد بعتها بثمن بخس . . .

– وهل كنت اعرف !

فى ايام السوق كانت تربح روبلا او اكثر ، ولا تفارقها الدهشة . لكم يستطيع الانسان ان يربح من اشياء تافهة !

كانت تقول لى :

– كيف ، ان امرأة تقضى يومها فى غسل الثياب او مسح الارض تحصل على خمسة وعشرين كوبيكا ! المرء لا يفهم شيئا من هذا . انه عمل خاطىء . كما ان زجّ العصافير فى الاقفاص عمل خاطىء ايضا . يجب ان تكفّ عن هذا العمل ، يا أليوشا .

غير ان صيد العصافير استولى على مشاعرى . استمتعت به ، واستعدت حريتى من دون ان اضايق سوى العصافير المسكينة . سلحت نفسى بادوات جيدة ، وتعلمت اشياء كثيرة من الحديث مع صيادى العصافير المحنكين . وشرعت اذهب وحيدا الى مسافة لا تقلّ عن ثلاثين فرسخا – الى غابات كستوفو على ضفة الفولغا حيث استطيع ان اصطاد فى شجر الصنوبر عصافير القرزبيل ، او مجموعة خاصة من عصافير القرقف الرائعة التى يقدرها عشاق العصافير حقّ قدرها ، وهى

العصافير البيضاء ذات الذنب الطويل والجمال النادر .

كنت امضى احيانا عند المساء واتجوّل الليل بطوله على طريق قازان ، وخاصة خلال امطار الخريف ووسط اوحال عميقة . كنت امضى وعلى ظهرى كيس من المشمّع فيه افخاخى واقفاصى وعصافير محنطة لجذب العصافير الاخرى ، وفى يدى عكاز صلب من خشب الجوز . كان الطقس باردا يبعث على الرهبة فى دياجير الخريف ، يبعث على الرهبة حقا . وعلى جانبى الطريق اشجار ضخمة من البتولا حطمتها الصاعقة ، اغصانها المبللة تنبسط فوق رأسى . والى اليسار ، عند اسفل الهضاب على جانب الفولغا الاسود المياه ، تسبح بعض الاضواء القليلة فى صوارى المراكب وقوارب النقل المتأخرة ، تبدو وكأنما تسير نحو هاوية لا قرار لها . وكنت اسمع نعيب أبواقها ولطمات عجلات محركاتها وهى تضرب صفحة المياه .

من اعماق الارض النحاسية اللون تبرز اكواخ القرى التى امرّ بها . وكلاب جائعة شرسة تندفع صوب ساقىّ ، وحراس الليل يضربون القطع الخشبية ببعضها ويصرخون باصوات خائفة :

— من يمشى هناك ؟ من هذا الذى يبعثه الشيطان — هذا الاسم الذى يخيف المرء فى الليل ؟

كنت اخشى ان يستولى الحراس على افخاخى ، فاحمل على الدوام قطعا من فئة الخمسة كوبيكات ارشوهم بها . وتوثقت اواصر الصداقة فى قرية فوكينو بينى وبين الحارس الذى لا ينفك عن الانشداه من جراء مآثرى .

كان يقول :

– هذا انت من جديد ؟ يالك من عصفور ليلى دائب الحركة لا يهاب شيئا ما ؟

كان يدعى نيفونت . وهو قصير الجسم ، رمادى الشعر ، يشبه احد القديسين . وما اكثر ما كان يخرج من تحت قميصه فجلة او تفاحة أو قبضة من الحمص ويدسها فى يدى قائلا :

– خذ ، يا صغيرى . وفرّت هذا الشىء القليل لك . ارجو ان تتمتع به .

ويرافقنى حتى طرف القرية .

– وداعا ، وليحفظك المولى !

كنت ابلغ الغاب عند بزوغ الفجر ، فانصب افخاخى واعلّق اقفاصا فيها عصافير محنطة ، ثم اضطجع عند طرف الغاب منتظرا قدوم النهار . السكون يخيّم على كل شىء حوالىّ . فكأنه يغط فى نوم خريفى عميق . وعند سفح التلال المغطاة بالضباب المح تلك المروج الفسيحة المنبسطة التى يجتازها الفولغا ، واجزاؤها المتنائية تذوب فى سجف الضباب . هنالك فى الابعاد ، وراء الغابات التى تقوم على اطراف المروج ، تشرق الشمس على مهلة ، مرسلة الاضواء فوق قمم الغابات السوداء ، وعندها تبدأ حركة غريبة تحرك عواطف المرء . فالضباب يصعد بسرعة متناهية ويتوشّى بالفضة تحت شعاعات الشمس ، ويكشف فى الوقت ذاته ، تحته على الارض ، الادغال والاشجار واكوام العشب والعلف . كان يبدو ان المروج تذوب تحت حرارة الشمس وتتدفق فى جداول ذهبية سمراء الى جميع الاتجاهات . وهذه الشمس تلمس المياه الراقدة قرب الشاطىء فيلوح النهر باجمعه وكأنه

يندفع ويتجمع فى الجهة التى غطست فيها اصابعها الذهبية . وفيما القرص الذهبى يتسلّق صعدا يشرع يهرق بركتـــه السعيدة فيما يحيط به ، فيدفئ الارض الباردة المرتعشة ، فتروح تطلق اشذاء الخريف العذبة فى امتنان وتبجيـــل . والنسيم الرقيق الشفاف يجعل البرية مترامية الاطراف لا حدّ لعرضها واتساعها . كان كل شىء يعدو نحو الابعاد ويستهويك لتجوب اقاصى الارض الزرقـــاء . شاهدت الشمس تشرق فى هذا المكان مرات لا تحصى ، وفى كل مرة تتكشف لى عن عالم جديد - عالم بهىّ شامل الفتنة والروعة .

كنت احبّ الشمس محبة خاصة ، احبّ اسمها ، ورنينه العذب ، وصداه الثرىّ . احبّ ان اغلق عينىّ وادير وجهى لاشعتها الدافئة ، او ان اقبض عليها حين تمرّ على راحة يدى كالسيف من خلال شق فى سور او من خلال اغصان شجرة . وكان جدى يكنّ احتراما عميقا «للامير ميخائيل تشيرنيغوفسكى والنبيل فيودور اللذين رفضا الانحناء للشمس» . ولكننـــى كنت اتخيلهما رجلين اثيمين ، نكدين ، اسودين كالغجر ، بعينين متقرحتين كعيون الفلاحين الموردوفيين الفقـــراء . واذا اشرقت الشمس على المروج كنت اتبسم لها متهللا بصورة غريزية على الرغم منى .

فوقى يتعالى حفيف اغصان شجرة الصنوبر الدائمة الخضرة وتنفض قطرات الندى عن اغصانها . وفى الظلّ تحت الاشجار لمحت التخريمات الفضية لجليـــــد الصباح على اوراق نبات الخنشار المقصوصة اطرافها . أما العشب الاسمر الذى امالته الامطار وطوّحت به فيتراخى على الارض بدون حراك ، وما

ان يمسّه شعاع وضّاء حتى يرتعش ارتعاشة خفيفة لعلهـــا آخر ما يبذله من جمد فى محاولة عودته الى الحياة .

الطيور نفضت عنها غلالـــة الرقاد . ومن فنن الى فنن تتواثب كرات رمادية زغباء — طيور القرقف . وذوات المناقير المتصالبـــة والجسوم النارية اللون تنبش الاكواز فى ذرى اشجار الصنوبر . وفى طرف احد الاغصان يتأرجح طير القرقف الابيض اللون وجناحاه الطويلان يضربان الهواء ، وعينـــه السوداء الماكرة الحذرة على شبكتى . وعلى حين غرة أحسست الغابة باسرها ، الغابة الهاجعة الحالمة منذ هنيهـــة ، تعجّ بمئات اصوات العصافير ، وتضجّ باصفى وانقى ما فى الكون من مخلوقات حية ، وعلى صورتها ومثالها خلق الانسان ، والد الجمال الارضى ، وسائر المجموعة الملائكيـة بشتى الاشكال تخفيفا عن آلامه وعزاء لنفسه .

كنت اشعر بشىء من الشفقـــة من صيد هذه الطيور وبالخجل من حبسها فى اقفاص . وكنت انغمر بغبطة لا حدود لها من مجرد مراقبتها . بيد ان ولعى بالصيد ورغبتى فى الكسب يخنقان فىّ هذه الشفقة .

كانت الطيور تسليني بحيلها . هذا قرقف ازرق اطال دراسة الفخ دراسة مفصلة وفى كثير من الانتباه ، وادرك ما يتهدّده فاقترب على حذر من جانبه واستولى بمهارة ودون التعرض لادنـــى خطر على الحبوب المنثورة بين قضبانـــه الخشبية . هذه العصافير على غاية من الذكاء ، لكنها شديدة الفضول ، وهذا ما يؤدى بها الى التهلكـــة . أما الدغناش الرصين فطائر احمـــق تتدفق اسرابـــه فى شبكتى زرافات

كالبورجوازيين الاثرياء السمان حين يؤمون الكنيسة . فاذا اطبق الفخ عليها اخذتها الدهشة فتروح تدير عيونها وتنقر اصابعى بمناقيرها الثخينـــة . أما ذوات المنقار المتصالب فتمضى الى الفخ فى هدوء وصمت ورزانة . بينما يمكث العصفور ذو الرأس الاسود طويـــلا امام الفخ محركا فى بطء منقاره الطويل من جانب الى جانب ، مقعيا على ذيله العريض . كان من عادته ان يركض على جذوع الاشجار صعودا وهبوطا مثل نقار الخشب فى اعقاب القرقف . ثمـــة شىء مروّع فى هذا العصيفير الدخانى اللون اتخيله يعيش وحيدا منفرا كأنه لا يأنس الى مخلوق ولا يأنس به مخلوق ، فهو كالعقعق يلتذّ بسرقة الاشياء الصغيرة البراقة واخفائها .

حوالى الظهر كنت افرغ من الصيد واعود الى البيت عبر الغابات وفوق منبسطات الحقول . لو سلكت الطريق الرئيسية الممتدة بين القرى سيتعرض لى الصبيـــة الصغار والكبار ويستولون على اقفاصى ويحطمون افخاخى .

كنت آوى مساء مضنى جائعا ، ولكننى اشعر اننى كبرت ، واننى تعلمت شيئا جديدا ، وغدوت اقوى شكيمة واصلب عودا . كانت هذه القوة تساعدنى على تحمل سخريات جدى وهزئه ، وقد لحظ ذلك منى فبدّل لهجته نحوى وحدثنى بصورة جادة :

– آن لك ان تدع الامور التافهة . اطرحها عنك اقول لك . فما من احد استطاع ان يشق لنفســـه طريقا فى هذا العالم من بيع العصافير . اختر لنفسك عملا يساعدك فى تنمية ذكائك . فالانسان لم يخلق ليقضى الحياة فى امور صبيانية .

انه بذرة الهية ، ويجب ان يغدو سنبلـــة جيدة ! الانسان كالروبـــل – اذا القيت به فى مكان مناسب اعطاك ثلاثـــة اضعافه . أتحسب الحياة سهلة ؟ كلا . الحياة شيء صعب ! العالم مثل الليلة الحالكة لا بدّ فيه لكل انسان من ان ينير سبيله بنفسه . ولدنا جميعا لا تزيد اصابعنا عن العشرة ، وكل واحد منا يريد ان تصل يداه الى ابعد الحدود وان تقبضا على كل شيء . يجب ان تكون قويا ، فاذا اعوزتك القوة يجب ان تكون ماكرا . ان من كان صغيرا وضعيفا لا بدّ ان يفشل . عش فى المجتمع البشرى مع الناس ، لكن تذكر دائما انك وحيد . ارهف سمعك الى الناس جميعا ، لكن لا تصدّق احدا . اذا صدقت احدا خسرت . كن صموتا . فاللسان لا يشيـــد البيوت والمدن ، بل الروبل والمطرقة يفعلان ذلك . وانت لست بشكيريا او كالميكيا لا يملك شيئا الا الغنم والبق ...

كان فى وسعه ان يفيض فى مثل هذه الاحاديث العشيـــة بطولها . وكنت احفظ اقواله عن ظهر قلب . كانت كلماته تعجبنى ، ولكن معانيها لا تبعث فىّ ثقة كاملة . استنتجت مما ترمى اليه ان ثمة قوتين تجعلان الحياة صعبة : الله والناس .

كانت جدتى تجلس امام النافذة تغزل خيطا للمطرزات والمغزل يدوّى بين اصابعها الرشيقة . وبعد ان تصيـــخ بسمعها الى كلمات جدى فترة من الوقت دون ان تنبس ببنت شفة تقول بغتة :

– كل شيء يتمّ حسب مشيئة امّ الله .

فيصيح جدى :

– ماذا تقولين ؟ الله ؟ انا لم انسه : انا اعرف الله

تماما ! أتحسبين ان الله خلق الاغبياء على ارضنا ، ايتها العجوز الحمقاء ؟

. . . كنت اتصوّر ان ليس فى العالم من يعيش عيشة هناء وسرور كالجنود والقوزاق . كانت حياتهم بسيطة مرحة . فى الصباحات الرائعة يظهرون وراء الوادى قبالة منزلنا ، ويتبعثرون فى الحقل ، ويقومون بالعاب متشابكة شيقة . كان اولئك الرجال الاقوياء الرشيقون يندفعون عبر الحقل بقمصانهم البيضاء والبنادق فى ايديهم ، ويتوارون فى الوادى . وعند نداء البوق يظهرون بغتة ويتدافعون فى الحقل من جديد وهم يصيحون «هورا !» . وعلى هدير الطبول يهرعون توا فى اتجاه شارعنا وحرابهم مشرعة ، فيخال لى وكأنهم سيحملون مسكننا ويبعثرونه كما تبعثر كومة القش .

وكنت انا ايضا اصيح «هورا !» واركض فى اعقابهم . ان قرع الطبل العنيف يثير فى نفسى رغبة عارمة فى تهديم شيء — تخريب سور او ضرب احد الناس .

فى وقت الفراغ كان الجنود يقدمون لى تبغا بيتى الصنع ، ويعرضون علىّ بنادقهم الثقيلة . كان احدهم يصوّب حربته الى بطنى احيانا ويصيح فى صوت شرس مازحا :

— لنمزقنّ الصرصور !

فتلتمع الحربة فى الشمس كأنها تنبض حياة ، وتتلوّى كالافعى تتأهب للعضّ . كان المشهد يبعث بعض الرهبة . . . ولكنه لذيذ رائع !

علمنى الجندى الموردوفى ضارب الطبـــل كيف أستخدم عصوى القرع . كان يقبض اولا على يدىّ بين يديه ويشدهما شدا موجعا ، ثم يضع العصىّ بين اصابعى المخدّرة .

ويزأر بصوت خشن ، محملقا فىّ بعينيه الشبيهتين بعينى طائر :

— اضرب : واحد . ومرة اخرى — واحد ، ومرة اخرى ! تا — تا — تا . . ! اضرب بهدوء باليسار ، وبقوة باليمين — تا — تا — تا . . !

كنت اقطع الحقول ركضا مع الجنود حتى انتهاء التمرين ، ثم ارافقهم عبر البلدة الى ثكناتهم ، مستمعا الى اناشيدهـــم المدوية ، ناظرا الى وجوههم اللطيفة التى تبدو لى كلها جديدة براقة مثل قطع العملة من فئة خمسة كوبيكات الصادرة لتوها من دار الصك .

ان هذه الكتلة البشرية المتماسكة ، المتماثلة ، تمر فى الشوارع بهية مرحة ، فتجذب اليها القلوب وتستثير الشوق للانضمام اليها مثلما تنضم الجداول الى النهر ، وان تدخل فيها كما تدخل الى الغابة . هؤلاء لا يهابون شيئا ، وينظرون الى كل شىء نظرة جريئة . ففى قدرتهم التغلب على كل صعب وبلوغ كل ما يشتهون . وفوق هذا كله فهم بسطاء طيبو السريرة .

ذات يوم ، خلال فترة استراحة ، قدّم لى احد ضباط الصف لفافة غليظة :

— دخّن ، فهى سيكارة فاخرة — ماكنت لاعطيها الى احد غيرك . فانت ولد رائع !

اشعلتها . ابتعد الرجل عنى خطوة الى الوراء . وعلى حين غرة انبعث منهـــا لهيب احمر اللون غشى على عينىّ واحرق اصابعى وانفى وحاجبىّ . واذا رائحة كريهة من الكبريت تثير سعالى وعطاسى . اخذت اقفز فى مكانى وقد نال منى العمى والرعب . فتحلـّق الجنود حوالى وهم يضجون ضاحكين مرحين . عدت الى البيت . وسمعت ورائى ضحكهم وصفيرهم وفرقعتهم مثل سوط الراعى . كانت اصابعى تؤلمنى ووجهى يخزنى والدموع تسيل من عينى ، لكن ما كان يرهقنى ارهاقا شديدا ليس الالم بذاته ، بل بلادة هذا المزاح . لماذا فعلوا بى ما فعلوا ؟ ولماذا يراه مثل هؤلاء الناس الطيبين شيئا مسليا ؟ حينما وصلت الى البيت صعدت الى العلـّية وتمددت هنالك زمنا طويلا استعيد جميع المحن القاسية المبهمة الكثيرة التى شاهدت فى حياتى القصيرة . كانت ذاكرتى حية خاصة بشأن الجندى الصغير من سارابول . كان ينتصب امامى حقيقيـــا كالحياة ذاتها .

سأل :

– حسنا . هل تفهم ؟

لكن سرعان ما كنت شاهدا على شيء اكثر وحشية وفجيعة .

شرعت اتردد الى المعسكرات حيث يعيش القوزاقيـــون قريبا من بيشيرسكايا سلوبودا . كان القوزاقيون يختلفون عن الجنود – ليس بسبب من انهم كانوا خبراء فى ركوب الخيل ويرتدون ثيابا افضـــل بمقدار ما كانوا يتحدثون بطريقـــة مختلفة ، ويغنون اغنيات مختلفة ، ويرقصون رقصات رائعة . كانوا يتجمعون احيانا فى العشايا ، بعد ان يسوسوا خيولهم ،

فى حلقة قريبة من الاسطبلات ويروح قوزاقى صغير احمر الرأس يطوّح شعره المتماوج الى الوراء ويشرع فى الغناء بصوت مرتفع شبه صوت الكلارينيت . كان يقف هنالك منتصب الجذع متوتر الاعصاب وينشد اغنية حزينة ناعمة عن الدون الهادىء او الدانوب الازرق . اغلق عينيه مثل طائر الفجر ، هذا الذى يغنى احيانا الى ان يسقط على الارض وقد فارق الحياة . كان قميصه مفتوحا عند العنق ، يكشف عن ترقوته البارزة مثل قطعة من عدة حربية ، فى حين تلوح هيئته كلها وكأنها قدّت من البرونز . كان يقف هنالك فاقد البصر ، يلوّح بذراعيه ، يتأرجح على ساقيه الهزيلتين فكأن الارض تنهار تحتهما ، ويلوح وكأنه كفّ عن كونه رجلا وغدا بوق احد البواقين او ناى احد الرعاة . وكنت اتصوّر احيانا انه سيسقط الى الوراء على الارض ويفقد الحياة مثل طائر الفجر لانه اهرق روحه كلها ، وقوته كلها ، فى الأغنية التى تطلقها حنجرته .

ويقف رفاقه حواليه وايديهم فى جيوبهم او وراء ظهورهم العريضة ، يحدقون بثبات فى وجهه البرونزى ويديه الملوحتين ، وهم يغنون فى هدوء واصوات مؤثرة اشبه ما يكونون بجوقة فى كنيسة . فى مثل تلك اللحظات يشبهون جميعا ، اصحاب اللحى ومن هم حليقوها ، الأيقونات – وكأنهم صارمون ، كأنهم بعيدون بعيدون . وتنتشر الاغنية وتتسع مثل درب عريضة عريضة وعامرة عامرة بحكمة السنوات . وانا اصغى انسى ما اذا كان الوقت ليلا ام نهارا ، وما اذا كنت انا طفلا ام شيخا . كل شىء يضيع فى مطاوى النسيان ! وتموت

اصوات المغنين بحيث نستطيع ان نسمع اخفت حركة من حركات الليلة الخريفية تزحف فوق الحقول ، وتنهيدات الخيول وهي تحلم بحرية السهوب . وينتفخ قلبي الى درجة الانفجار من جراء ازدحامه بهذا الشعور الغريب ، ومن جراء الحب الابكم الشامل للناس وللارض .

ويخال لي ان القوزاقي البرونزي الصغير هو اكثر من رجل – هو شيء اكثر تميزا – هو مخلوق اسطوري ابعد واسمى من جميع البشر الفانين . وكنت اعجز عن مخاطبته . لو انه طرح عليّ سؤالا فقد كنت ابتسم مغتبطا ، ولكنني ابقى صامتا يخبلني الارتباك . وكنت على اهبة الاستعداد للحاق به هنا وهناك مثل كلب مطيع لو كان لحاقي به يتيح لي رؤيته اكثر والاصغاء اليه وهو يغني .

رأيته ذات يوم يقف في ركن من الاسطبل يتفحّص خاتما فضيا عاديا في اصبعه . كانت شفتاه الرائعتان تتحركان ، وشاربه الاحمر الصغير ينتفض ، ووجهه يحمل تعبيرا حزينا يعصره الالم .

وفي عشية مظلمة اخرى حملت اقفاصي الى حانة في ساحة ستارايا سينّايا . كان صاحب الحانة مولعا بالعصافير المغردة ، وغالبا ما كان يشتريها مني .

كان القوزاقي جالسا في زاوية قريبة من المشرب ، فيما بين الموقدة والجدار . وكانت امرأة سمينة تجلس الى جانبه يكاد حجمها ان يكون ضعف حجمه . كان وجهها المدوّر يتألق مثل جلد مراكشي ، وهي ترنو اليه بنظرة مستهامة لكن مشوبة بالقلق تشبه نظرات الامهات . كان ثملا ويظل ينقل قدميه

على الارض . لا ريب انه رفسهـــا ، فقد اجفلت وعبست وخاطبته فى لطف قائلة :

– كفّ عن هرائك !

رفع القوزاقى حاجبيه فى جهد جهيـــــد ، وما اسرع ان اسقطهما من جديد . كان محرورا ، وقد فتح معطفه وقميصه معريا حلقه . ورفعت المرأة منديلها عن رأسها الى كتفيها ، ووضعت ذراعيها البيضاوين القويتين على المنضدة ، وتشابكت اصابعها بقوة بحيث ازدادت مفاصلها بياضا . وكلما اطلت النظر اليهما ازداد تصوّرى ان القوزاقـــى كان ولدا أذنب مع ام حنـــون . كانت تنتهره فى وداد فى حين يظـــلّ هو معتصما بصمت رقيق . لم يكن ثمة عتاب يمكن ان يحتجّ به امامها .

نهض فجأة على قدميه كمن لسعته عقرب ، وشدّ قبعته حتى جبهته ، ثم ضربها براحة يده وخطا صوب الباب دون ان يزرّر معطفه . ونهضت المرأة بدورها .

قالت تخاطب صاحب الحانة :

– سوف نعود فى غضون دقيقة ، يا كوزميتش .

ورافقت ذهابهما ضحكات الزبن ونكاتهم .

قال احدهم فى وقار :

– حين يعود الملاّح سيؤدّبها !

ركضت وراءهما . اجتازا فى الظلمة عدة خطوات امامى ، واجتازا الساحة الموحلة ، واتخذا سبيلهما الى ضفة الفولغا العالية مباشرة . كنت ارى المرأة تترنّح وهى تجهد لدعم القوزاقى ، وكنت اسمع الطين يطرطش تحت اقدامهما .

ظلت المرأة تستفسر فى عذوبة :

– الى اين انت ذاهب ؟ الى اين انت ذاهب ؟

لحقت بهما عبر الطين على الرغم من ان دربى كانت تمتد فى ناحية اخرى . وحين بلغا الضفة توقف القوزاقى ، وتراجع خطوة ، ولطمها فجأة على وجهها . فصرخت فى صوت مرعوب مشدوه :

– أوه ، فيمَ فعلت ذلك ؟

ارتعبت بدورى فركضت اليهما . ولكن القوزاقى امسك بالمرأة من خصرها ، وطوّح بها فوق الحافة ، ووثب وراءها ، وراحا يتدحرجان منحدرين فى كتلة واحدة سوداء على اعشاب الضفة . صعقت ، ووقفت متحجرا اصغى الى عراكهما وتمزيق ثيابهما وصدى انفاس القوزاقى الخشنة هنالك فى الاسفل . وظلت المرأة تتمتم فى صوت خفيض :

– سوف اصرخ . . . سوف استغيث . . .

واطلقت من بعد زمجرة موجعة صاخبة ، وهدأ كل شىء . التقطت حجرا والقيت به فوق الضفة . فلم اسمع غير خشخشة العشب . انفتح باب الحانة الزجاجى بصوت عال ، وجعر احدهم بعد ان سقط على الارض ، وخيّم الصمت من جديد ، صمت زاخر رعبا خفيا .

من وراء منحدر الضفـــة ظهر شىء كبير ابيض اللون . راح يتسلقها فى بطء مترنح الخطوات ، وهو ينشج ويهمهم . عرفت فى ذلك الشىء تلك المرأة . كانت تصعد الضفة على اربعتها ، مثل غنمة ، وكنت استطيع ان ارى انها عارية حتى وسطها . كان ثدياها المدوران الضخمان يتلألآن بياضـــا ،

بحيث بدا ان لها ثلاثة رؤوس . وصلت اخيرا الى الدرابزون وجلست الى جانبى وهى تشخر مثـــل حصان مبهور الانفاس وتحاول اصلاح شعرها المتشابك . كانت لطخ سوداء مـــن الطين ظاهرة على جسدها الابيض . ناحت ومسحت عبراتها فى حركات تشبه حركات قطة تغسل وجهها . صرخت فى هدوء وقد لمحتنى :

– ياللسماوات ! من انت ؟ اذهب ، ايها الصبى الوقح !

لم استطـــع ذهابا . كنت اسير بانشداه عنيف وحزن مرير . وتذكرت كلمات شقيقة جدتى :

«المرأة قوة يجب ان تحسب لها حسابا . أفلـــم تخدع حواء الله نفسه ؟»

نهضت المرأة ، وغطت ثدييها ببقايا ثوبها ، فعرّت بذلك ساقيها ، وخطت مبتعدة فى خطوات سريعة . وتسلق القوزاقى الضفة ، وهو يلوّح ببعض الثياب البيضاء فى الهواء . اطلق صفرة خافتة ، ثم قال فى نبرة مسرورة :

– داريا ! حسنا ، أفلم اخبرك ان القوزاقى يحصل دائما على ما يريد ؟ هكذا خطر لك انى سكران ، ما ؟ أوه كـــلا ، كان ذلك لمجرد خداعك ، يا داريا !

انتصب ثابتا على قدميه ، ورنّ صوته وقورا ساخرا . انحنى ومسح الوحل عن جزمته بثياب المرأة ، واسترســـل يقول :

– اليك ، خذى بلوزتك ! تعالى ، يا داريا ، لا تحزنى !

واطلق عليها اسما بذيئا فى صوت عال .

بقيت جالسا هنالك على كومة من الاحراش اصغى الى ذلك الصوت الوحيد فى هدأة الليـــل ، المتغطرس بصورة ساحقة .

تراقصت امام عينىّ اضواء المصابيح فى الساحة . وبانت من خلال اجمة من الأشجار السوداء الى اليمين مدرسة «بنات النبلاء» البيضاء . واجتاز القوزاقى الساحة وهو يطلق كلماته البذيئة فى كسل ويلوّح بالثياب البيضاء ، ثم اختفى مثـــل حلم مزعج .

دفت من برج المياه فى الاسفل اهداء بخار يهسّ وهو يخرج من انبوب حديدى . ومرت عربة تقعقع على طول المنحدر الى النهر . ولم يكن ثمة انسان فى الجوار . سرت على طول طرف الضفة مكروبا ، احمل فى يدى حجرا باردا انتويت ان اضرب القوزاقى به . اوقفنى عند كنيســة القديس جورج الفاتح خفير ليلى وسألنى فى غضب عن هويتى وماذا أحمل فى الكيس الملقى على ظهرى .

حين رويت له قصة القوزاقى زمجر ضاحكا . صاح :

– هذا درس لـــك ! القوزاقيــون لا يظهرون تكلفا ، ياأخى ! وهم ليسوا اقرانا لنا . والمرأة كانت كلبة على ايــة حال !

وانفجر من جديد فى نوبات من الضحك ، فى حين تابعت انا طريقى ، متسائلا ما الذى يجعله يضحك على هذا الغرار .

ظللت افكر فى رعب : ماذا لو كانت تلك المرأة امى او جدتى ؟

٨

حين جعلت أولى ندف الثلج تتساقط أعادنـى جدى الى بيت شقيقة جدتى . قال لى :

– لن يضيرك البقاء هنا – لن يضيرك !

شعرت أننى خلال هذا الصيف عشت كثيرا ، وبلوت الكثير من الصعاب ، وغدوت أكبر سنا وأكثر تعقلا ؛ فى حين غدت الحياة فى بيت معلمى أكثر سأما منها قبلا . كان اولئك الناس ، مثلهم دائما ، يسممون أنفسهم بالافراط فى الطعام : وكانوا يتحدثون عن امراضهم المزمنة بذات التفصيل الرتيب ؛ وأخت جدتى العجوز لا زالت تواظب على ابتهالاتها الى الله بالتهديد والخبث المعروف عنها . أما معلمتى الصبية فاعتراها النحول عقب انجابها ولدا ثانيا : وظلت حركاتها رشيقة مزهوة على ما كانت عليه وهى حامـــل . وحين تروح تخيط الثياب لوليدها فهى تدمدم فى هدوء اغنيتها المعروفة التى لا تتغير مدى الدهر :

فانيا ، فانيا ، فانيوشكا ،
أخى فانيا ، أخى الصغير .
سأجلس على الزحافة
وتجلس خلفى . . ونطير

فاذا دخل احدهم الحجرة تتوقف حالا عن الغناء ، وتصيح مغتاظة :

– ماذا تريد ؟

كنت واثقا انها لا تعرف أغنية سواها .

في العشاء تدعوني معلمتاي الى غرفة الطعام وتقولان :

– أخبرنا كيف كانت حياتك على المركب .

وكنت اجلس على كرسي قريب من باب المرحاض ، وأروي لهما كل شيء . وكنت أسرّ بتذكر تلك الحياة وسط هذه الحياة التي أحيا عندهم مكرها . وحين أستغرق في رواية قصتي أنسى المستمعين الىّ مدة وجيزة من الزمن ، فالنسوة ماركبن مركبا قط ، وكن يسألنني :

– ولكن ، ألم تكن خائفا ؟

– لا افهم لماذا أخاف منه .

– ماذا لو انقلب المركب فجأة في مكان عميق ، وغرق ؟

وينفجر معلمي ضاحكا . وفي حين كنت اعرف ان المراكب البخارية لا تنقلب او تغرق في الاماكن العميقة ، كنت اخفق في اقناع المرأتين بذلك فالعجوز واثقة ان المراكب لا تسبح على سطح الماء بل هي تدرج بعجلاتها على قعر النهر مثلما تدرج العربات على الطريق .

– كيف تستطيع العوم وهي مصنوعة من حديد ؟ الفأس لا تعوم ، أليس كذلك ؟

– لكن المغرفة تعوم !

– ما هذا التشبيه ؟ المغرفة صغيرة وفارغة !

وحين تحدثت عن سموري وكتبه راحوا يحدجونني بنظرة ارتياب وشك . وأكدت العجوز ان الاغبياء والهراطقة وحدهم يؤلفون الكتب .

– ما قولك فى كتاب المزامير ؟ والملك داود ؟
– المزامير كتاب مقدس ، والملك داود نفسـه طلب الغفران من الله بعدما ألّفه . . .
– وأين مكتوب هذا ؟
– فى باطن كفى سأصفعك صفعة طيبة على مؤخرة رأسك فأعلمك اين !
كانت تعرف كل شىء وتتحدث عن كل شىء – وفى سخف دائما – بثقة تامة .
– مات التتارى فى شارع بيتشوركا ، وفاضت روحه من حلقه ، سوداء كالقطران .
فقلت :
– الروح هى نفس . . .
فهتفت فى احتقار :
– أنا اتحدث عن تتارى ، ايها الابله !
ومعلمتى الصبية تخشى الكتب أيضا .
قالت :
– القراءة شرّ مستطير ، ولا سيما حين تكون صغيرا بعد . كان هنالك فتاة تعيش فى شارعنا – شارع غريبيشوك – انحدرت من أسرة طيبة ايضا ، ولكنها شرعت تقرأ الكتب ، وجعلت تقرأ حتى وقعت فى غرام الشماس ! ويا للثورة التى شنتها عليها زوج الشماس ! ثورة ضارية ! هنالك فى الشارع وأمام جميع الناس ! كان ذلك شيئا مرعبا !
كنت أستخدم احيانا كلمات من كتب سمورى ، هذه الكتب التى قرأت فى واحد منها – وهو خال من الصفحات

الاولى والاخيرة – مايلى : «اذا اردنا الدقة فى الحديث فان أحدا لم يخترع البارود . لقد ظهر البارود نتيجة معالجة طويلة لملاحظات واكتشافات ثانوية» .

التصقت هذه الكلمات فى ذهنى لسبب غامض لم ادرك كنهه . وغدوت مولعا بصورة خاصة بتعبير «اذا اردنا الدقة فى الحديث» . هذا التعبير الذى بدا لى مؤثرا الى درجة بعيدة . وقد كلفنى استخدامه عناء كثيرا – عناء لا ضرورة له .

ذات عشية ، حينما طلبت الىّ الاسرة ان اروى لها قصة اختباراتى على المركب البخارى ، اجبت قائلا :

– اذا أردنا الدقة فى الحديث فليس ثمة ما يستأهل أن يروى .

ارتبكوا ، وشرعوا ينقّون :

– ما هذا ؟ ماذا قلت ؟

وانفجر اربعتهم فى عاصفة من الضحك .

وجعلوا يكررون ويعيدون :

– «اذا اردنا الدقة فى الحديث !» ايتها السماوات الطيبة !

وخاطبنى المعلم نفسه قائلا :

– هذه جملة سخيفة اذا جعلت ترددها !

وظلوا ينادوننى فترة طويلة بعد ذلك بلقب «اذا اردنا الدقة فى الحديث» .

– هاى ، أنت ، يا «اذا اردنا الدقة فى الحديث» ! ما رأيك فى أن تجىء الى هنا وتمسح الارض وراء الطفل ، يا «اذا اردنا الدقة فى الحديث» ؟

كانت هذه المضايقات الخالية من الشعور تدهشنى أكثر مما تغضبنى .

كنت اعيش فى ضباب تعاسة مخبلة حاولت الافلات من قيدها بالانكباب على العمل بأقصى جهودى . ولم يكن العمل يعوزنى . ففى البيت طفلان ، وباعتبار ان المرضعات لا يحظين برضى اسيادى الذين يدأبون على الشكوى ويبدلونهنّ بصورة مستمرة ، فقد وجب علىّ اذن ان اعنى بالطفلين . كنت كل يوم اغسل خرقهما ، واذهب مرة فى الاسبوع الى «نبعة الدركى» لاغسل الثياب . وكانت الغسالات هنالك يهزأن بى .

كن يسألننى :

– فيم تقوم بهذا العمل الذى هو من عمل النساء ؟

كن يضايقننى أحيانا فلا اتمالك ان اقذفهنّ بحزمة من الغسيل المبلل ، فيرددن لى الضربة بمثلها ، فاجد لذة ومتعة بوجودى بينهنّ .

ان «نبعة الدركى» تتدفق من اعماق واد سحيق ، وينحدر مجراها الى نهر الاوكا . كان هذا الوادى يفصل المدينة عن بقعة من البرية تحمل اسم آله شمس قديم يدعى ياريلو . وكان سكان المدينة يؤمون هذا الحقل للتنزه فى ارجائـــه ترويحا عن النفس ايام العيد الربيعى ولعبادة ارواح الموتى . وقد قصّت علىّ جدتى أن الشعب ، يوم كانت صبية بعد ، كان لا يزال يؤمن بالاله ياريلو ويضحّى له القرابين . فكانوا يأتون بعجلة يحيطونها بالقطن المغمس بالقطران ويدفعونها بعد ان يشعلوا النار فيها ، فتنحدر عن التلة وسط الاناشيد والصيحات . واذا بلغت نهر الاوكا فمعنى ذلك ان ياريلو

قبل هذا القربان . وكان الصيف ينغمر اذن بالشمس ويحمل الغبطة الى كل انسان .

كان عدد كبير من الغسالات يعشن فى حقول ياريلو ، وجميعهنّ من النسوة حادات اللسان . وكنّ على علم بما يجرى فى المدينة . وكانت ثرثرتهنّ تثير اهتمامى فهى تدور حول التجار والموظفين والضباط الذين يشتغلن عندهم . ان غسل الثياب شتاء فى ماء النبعة المتجمد عمل مرهق ، فأيدى الغسّالات تتجمّد حتى يتشقق الجلد . كن ينحنين على الحوض الخشبى الذى يتدفق فيه الماء ، لا يدفع عنهن الريح والثلج غير سقف خشبى قديم متشقق . وجوههن تحتقن احمرارا وبردا ، وأصابعهن المتألمة ترفض الانطواء ، والعبرات تسحّ من عيونهنّ ، ومع هذا كله فهنّ يثابرن على الثرثرة ، تقص احداهن على الأخرى آخر الأنباء والأحداث ، متقبلة الأمور والناس فى شجاعة لا مثيل لها .

كانت ناتاليا كوزلوفسكايا أحسنهن حديثا ، وهى امرأة تجاوزت الثلاثين من عمرها ، نضرة الوجه ، قوية البنية ، ساخرة النظرات ، زلقة اللسان ، لاذعة الكلام . وكانت تحظى باصغاء رفيقاتها اصغاء كاملا . وجميعهن يستشرنها ويحترمنها لانها بارعة فى عملها ، تلبس ثيابا لائقة وترسل ابنتها الى المدرسة الثانوية . وحين تهبط السفح ، فى الدرب الزلقة ، رازحة تحت عبء سلتين مملوءتين ثيابا مبللة ، فقد كن يستقبلنها استقبالا مرحا .

كن يستوضحنها :

– كيف حال ابنتك ؟

- على ما يرام . ليكن اسم الرب مباركا . انها تدرس .
- سوف تغدو سيدة قبل ان تشعرى بذلك .
- لهذا السبب أرسلتها الى المدرسة . من اين تنحدر السيدات الانيقات ؟ لقد انحدرن من طبقتنا ، من قلب حثالة مجتمع الارض . كلما ازددت علما ازدادت غناء . بعث بنـــا الله الى الارض شبابا بلهاء ، ولكنه يريدنا ان نرجع منها عجائز حكماء . فينبغى علينا اذن أن ندرس ونتعلّم !

اذا تحدثت صمتت الاخريات واصخن الى احاديثها المتوالية بانتباه . انهنّ يسبغن عليها المديح فى غيابها وفى حضورها ، ويبدين الاعجاب بثباتها على العمل وذكائها . ولكن ليس بينهنّ من حاولت ان تحذو حذوها . لقد صنعت لنفسها من اعناق الاحذية أكماما من الجلد كيما تحمى ذراعيها حتى مرفقيهـا ، وتمنع تبليل ثيابها بالماء . كان لهذا الاختراع أثر كبير فى النفوس ، ولكن أيا من هاتيك النسوة الفاضلات لم يخطر فى بالها السير على غرارها . وحين فعلت أنا مثلها سخرن بى . رحن يعنفننى :

- هو ! هو ! : يتعلّم من امرأة !

ويقلن عن ابنتها :

- يا للآنسة الصبية الباعثة على الاهتمام ! حسنـــا ، سيزيد عدد السيدات واحدة ، فماذا ينتج عن هذا ؟ لربما لن يتاح لها أن تنهى دراستها - ولربما ماتت قبل ذلك !
- ليست الحياة سهلة بالنسبة الى المثقفات أيضا . خذن ابنة باخيلوف مثلا - وتذكرن كم طالت مدة دراستها . وماذا

جرى لها فى نهاية المطاف ؟ صارت معلمة . وحين تصير الفتاة معلمة فهذا يعنى أنها ستصير عانسا .

– من دون ريب . لسوف يختطفك الرجل دون أن يلقى بالا الى ما درست ، طالما أن هنالك ما يختطفه منك !

– دماغ المرأة لا يوجد فى رأسها !

كان من الغرابة والازعاج أن تصغى اليهن يتحدثن عن أنفسهن على هذه الصورة المخزية . كنت أعرف كيف يتحدث الجنود والبحارة وحفارو الخنادق عن النساء . وسمعت رجالا يفاخرون بعضهم بعضا بخصوص فحولتهم وأعداد النساء اللواتى استحمقوهن . وكنت استشعر عداوتهم «لمرتديات الفساتين» . وحيثما سمعت رجلا يتحدث عن انتصاراته فقد كان تبجحه مصحوبا بشىء يقودنى الى التفكير فى أن كلماته تتضمن من المبالغة أكثر مما تتضمن من الحقيقة .

لم يكن الغسالات يحدثن بعضهن عن غرامياتهن ، اما حين يتحدثن عن الرجال فهن يفعلن ذلك فى سخرية وتشف يؤيدان مقولة ان النساء قوة يجب أن يحسب حسابها .

قالت ناتاليا ذات يوم :

– مهما حاول الرجال التغاضى عن النساء فمن المؤكد انهم سيرجعون اليهن حتما .

صاحت شمطاء عجوز فى صوت خشن :

– انها الحقيقة الصراح . أفما هجر الرهبان والنساك الله نفسه وجاؤوا الينا ؟

هذه الاحاديث المتناقلة تحت خرير المياه الباكى وخبط الثياب المبللة ، هنا فى حفرة موحلة ، فى اعماق الوادى الذى

لا يستطيع الثلج نفسه ان يغطيه – مهما امتد به الزمن – ببساطه النقى الناصع ، جميع هذه الاحاديث القذرة المخجلة عن احجية عظيمة ، عن منبت الأشخاص والقبائل كانت تبعث فى نفسى اشمئزازا مروعا وتجعل تفكيرى ومشاعرى ينأيان عن «القضايا الغرامية» التى أرهقتنى لشدة انتشارهـا حوالى . فالقضايا الغرامية ليست فى نظرى غير حكايات سافلة تمجها النفس .

مع ذلك كله كنت ارى الحياة فى الوادى ، بين الغسالات او فى المطابخ بين خدم الضباط او فى الاقبية بين الحفارين ، أكثر متعة واقرب الى النفس منها فى بيتى ، حيث العبارات والافكار والاحداث تدور على وتيرة واحدة ، وتكاد تقتلنى ضجرا . فأسيادى يعيشون وسط دائرة ضيقة من الطعام والمرض والنوم ، واستعداد محموم للطعام والنوم . انهم يتبادلون دائما الاحاديث عن الخطيئة وعن الموت الذى يثير فيهم ذعرا لا يوصف ، ويضطربون ملثما تضطرب الحبوب حول الرحى تنتظر فى خوف دور انسحاقها وطحنها .

فى ساعات الفراغ كنت أنصرف الى المستودع اكسر الحطب لاخلو الى نفسى . بيد انى لم اكن احظى بما اصبو اليه فى كثير من الاحيان ، اذ ان خدم الضباط يفاجئوننى ويعيدوننى الى مجرى الحياة فى الساحة .

كان اكثرهم ترددا الى المستودع يرموخين او سيدوروف . الاول رجل من كالوغا ، فارع البنية ، مقوس الظهر ، لـه رأس صغير وعينان شاردتان ، يبدو مجبولا بقوة عضلية لا حدود لها . كان كسولا ، مفرطا فى بلاهته ، حركاته هوجاء

بطيئة . حين يرى امرأة يجعر وينحنى الى الامام وكأنه ينتوى ان يهوى على قدميها . والجميع فى باحتنا يذهلون لسرعة انتصاراته فى غزواته بين الطاهيات وخادمات غرف النوم ، فيحسدونه ويهابونه لقوته الهائلة . أما سيدوروف فهزيل الجسم ينحدر من تولا . كان دائم الكآبة ، يتحدث فى صوت خافت ويسعل فى حذر ، عيناه تبعثان نظرات مروعة ويحدق على الدوام فى الزوايا القاتمة . وسواء همس شيئا ام لبث منطويا على نفسه وهو جالس على مقعده فهو يشخص الى اشد الزوايا حلكة .

– فيم تتطلع ؟

– قد تخرج فأرة . أحب الفئران – فهى أشياء صغيرة هادئة سريعة الحركة . . .

كنت اكتب رسائل للخدم – الى خليلاتهم او اسرهم فى القرية . وكان هذا العمل يهرق فى السرور ، وخاصة مع سيدوروف . فهو يرسل كل يوم سبت رسالة الى شقيقته المقيمة فى تولا .

كان يدعونى الى مطبخه ، ويجلس الى جانبى عند المنضدة ، ويفرك رأسه الحليق فركا شديدا ، ويهمس فى أذنى :

– طيب ، فلنبدأ . اولا – كما تتطلب قواعد المجاملة : «أختى المحترمة المحترمة ! اسبغ عليك المولى صحة جيدة سنين طويلة» . انتهيت ؟ حسنا . والآن أكتب : «استلمت روبلك . ولكنه لا ينبغى ان تفعلى ذلك ، واشكرك مزيد الشكر . لست فى حاجة الى شيء ، فنحن نعيش حياة جيدة» .

نحن لا نحيا ابدا حياة جيدة . نحن نعيش مثل عصبة من الكلاب . ولكن لا تخبرها بذلك . أكتب «نحن نعيش بصورة جيدة» . فهى لا تزال صغيرة السن لا تتجاوز الرابعة عشرة . فما الفائدة من اطلاعها على كل شيء ؟ والآن استمر فى الكتابة واكتب لها ما تعلمه نفسك . . .

كان يميل على كتفى الايسر ، ويرسل انفاسه القوية الحارة فتلفح وجهى ، ويهمس فى نبرة ملحاحة :

– قل لها الا تدع الصبيان يحتضنونها او يلمسون نهديها او اى موضع آخر . أكتب اليها : «اذا حدثك احد عن الحب فلا تصدقيه ، فهو لا يريد غير التغرير بك وخداعك» .

كان يبذل جهده كى يكبت سعاله ، فيحتقن وجهه الترابى ويحمر ، وتنتفخ وجنتاه ، وتتألق عبراته فى عينيه ، وينطوى على المقعد ، ويدفعنى .

– أنت تدفع ذراعى !

– لا بأس . استمر فى كتابتك : «حذار من السادة المتأنقين بصورة خاصة . انهم يخدعون الفتاة لاول وهلة . هم يعرفون كيف يتحدثون ويستطيعون الحديث فى كل مضمار . فان صدقتهم فلن يبقى امامك سوى الذهاب الى الماخور . ان وفرت روبلا فاعطيه الى الكاهن ، ولسوف يخبئه لك اذا كان رجلا فاضلا . والافضل ايضا ان تدفنيه تحت التراب فى مكان ما – تأكدى الا يراك احد ، وتذكرى موضعه» .

ما اشد الكآبة التى يثيرها فى سماع هذا الهمس يغشى عليه صفير مفصلات النافذة الصغيرة فوق رأسى . كنت أنظر

الى شدق الفرن الاسود والى خزانة الاوانى التى فرشها وسخ الذباب . وكان المطهى على غاية القذارة ، يعشش البق فيه ، ويزخر برائحة قوية من الدخان والبترول والدهن المحروق . والصراصير تسمع حركتها وهى تسرح على الموقـــد وبين شظايا الحطب ، واليأس يأخذ بمجامع نفسى ويعتريـنـــى الاشفاق على هذا الجندى وشقيقته حتى تكاد الدموع أن تطفر من مآقى . هل يمكن ان يحيا المرء مثل هذه الحياة ؟

كنت استمر فى الكتابـــة دون ان اعير همس سيدوروف انتباها . اكتب كيف ان الحياة مملة مخجلـــة ، فيتنهـــد ويشجعنى :

— لقد كتبت كثيرا . شكرا ! لسوف تعلم الان ما يجب عليها ان تخشى . . .

فأقول فى نبرة متبرمة ، مع أنى فى الحقيقة أخشى أمورا كثيرة :

— يجب ان لا تخشى أنت شيئا .

— غبى ! كيف لا يمكن ان تخاف ؟ مارأيك فى السادة المتأنقين ؟ ما رأيك فى الله ؟ واشياء أخرى كثيرة ؟

وحين كان يتلقى رسالة من شقيقتـــه يأخذه الخوف فيتوسل الى :

— أرجوك ان تسرع وتقرأها لى .

ويضطرنى الى تلاوة الرسالة المكتوبة بخط غير واضح ثلاث مرات ، تلك الرسالة المختصرة الباعثة على السأم .

كان لطيفا طيب السريرة ، لكن موقفه تجاه النساء شبيه بموقف أى انسان كان — خشن وبدائى . وفى الوقت الذى

كنت فيه شاهدا بطوعى ورغمى على العلاقة التى تطورت امام عينى بسرعة مذهلة من البداية حتى النهاية ، فقد لاحظت ان سيدوروف كان يستثير شفقـــــة المرأة بشكاواه عن الحياة القاسية للجندى ، ويدير رأسها بمشاعر ملفقة ، فى حين انه ، فيما بعد ، وحين يروح يروى ليرموخين حديث انتصاره ، فهو يبصق ويكتئب فكأنه ابتلع دواء كريها . آلمنـــى ذلـــك وجرحنى ، فسألت ذلك الجندى فيم يكذبون جميعا ويخدعون ويهزأون بالنساء ، ويمررونهن من واحد الى آخر ، حتى انهم يضربونهن فى اغلب الاوقات .

ضحك فى لطف ، واجاب :

– لا تلق بالا الى مثل هذه الامور . انها فاسدة بـــل خاطئة . وأنت صغير صغير بعد . والوقت مبكر جدا لتعرف هذه الامور .

ولكننـــى نجحت ذات يوم فى الحصول على جواب أكثر وضوحا ، جواب لا يمكن ان انساه ابد الدهر .

خاطبنى قائلا ، وهو يغمز لى ويسعل :

– اتحسب انها لا تعرف انى اخدعها ؟ هى تعرف ذلك حق المعرفة ! وهى تريدنى ان اخدعها . الجميع يكذبون فى مثل هذه الامور . انهم يشعرون بالخجل لان احدا منهم لا يحب احدا آخر حبا حقيقيا – بل هم يفعلون ذلك على سبيل التسلية . وهذا يندى له الجبين خجلا . انتظر قليلا وسوف تتعلم ذلك بنفسك . ينبغى ان تفعله ليلا ، اما اذا كان فى وضح النهار فيجب أن تختبئا فى أحدى الزوايا المظلمة مثل غرفة الأخشاب . بسبب من هذا طرد الله آدم وحواء من جنة

الفردوس ، وبسبب من هذا يشعر جميـــع الناس بالبؤس والشقاء .

اعلن ذلك بصورة لطيفة واضحة ، وفى كثير من الحزن ، ونبرة لها فحة ندامة تعوض ، الى حد ما ، عن «قضاياه» . كنت احس بالصداقة تشدنى اليه اكثر من يرموخين الذى أكرهه واحاول كل يوم أن أزعجه واسخر منه . كانت محاولاتى تكلل بالنجاح ، فيروح يطاردنى فى اغلب الاحيان عبر الساحة وفى نيته الاساءة الى ، فتخذله خراقته فى بلوغ مشتهاه .

قال سيدوروف :

– ذلك محظور .

كنت أعرف أن ذلك محظور ، ولكننى لم أكن اؤمن انه السبب فى التعاسة الانسانية لاننى غالبا ما كنت الاحظ تعبيرا غريبا فى عينى اولئك الذين يأسرهم الحب ، وأستشعر النزعة النادرة الى الخير المعتملة فى قلوب المحبين . كانت متعة أن اشاهد ولادة حب فرحة القلب .

وبمقدار ما انا اذكر ، فان الحياة فى تلك الفترة بدت وكأنها تنمو وتزداد كآبة وقسوة ، وتتجمد نهائيا فى أشكال وعلاقات كنت الاحظهـا من يوم الى آخر . ولم اكن اعتبـــر امكانية أى شيء افضل مما هو كائن ، اكثر مما يواجهنى ، يوما بعد يوم ، من دون تقييد أو تبديل .

فى احدى المرات قص علىّ الجنود حكاية أثارت شجونى . فى شقة من أحد البيوت يقيم ترزى صاحب اكبر دكان للخياطة فى المدينة . وهو رجل أجنبى هادىء الطباع ، متواضع النفس ، كانت زوجته امرأة صغيرة لم تنجب اولادا تدمن القراءة ليل

نهار . فى زحمة ضجيج بيوت ساحتنا و بين جميع السكارى الذين يتكدسون فى بيوتنا يعيش هذان الزوجان فى صمت وهدوء ، لا يفطن لوجودهما احد ، ولا يزورهما انسان ، ولا يقصدان مكانا عدا المسرح ايام الاعياد .

فالزوج فى عمله منذ اشراقة الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل . والزوجة التى تبدو فتاة فى بكرة الصبا تقصد المكتبة مرتين فى الأسبوع بعيد الظهر . وما اكثر ما كنت اراها تسير فى الزقاق بخطوات صغيرة تترنح كأنها تعرج قليلا ، يداها الصغيرتان تلبسان «جوانتى» ، تحمل كتبها فى حزمة تشدها اشرطة جلدية مثل اى تلميذة صغيرة - بسيطة ، طرية ، جديدة ، ونظيفة . كان لها وجه شبيه بوجه العصفور بعينيه الصغيرتين الرشيقتين ، وهى جميلة مثل لعبة حلوة من الخزف على رف مصطلى . كان الجنود يؤكدون ان احد اضلاعها فى الجهة اليمنى ناقص ، وهذا ما يجعلها تظلع فى مشيها . ولكننى احببت هذه العاهة فيها . فهى تفرزها على الفور عن نساء الضباط فى الباحة . هؤلاء النسوة ، على الرغم من أصواتهن الصاخبة وتبرجهن المتكلف وتنوراتهن الواسعة ، اراهن عجائز باهتات كأنما انسدل عليهن ستار النسيان فى مستودع حالك الظلام بين اشياء عديدة لا فائدة منها .

كان الجوار ينظرون الى المرأة الصغيرة نظرتهم الى مجنونة ، يقولون انها فقدت صوابها من كثرة المطالعة ، وانها لا تستطيع الاهتمام بشؤون بيتها . فزوجها يشترى الحاجيات من السوق ، ويوصى الطاهية باعداد الطعام ، والطاهية امرأة غير روسية الاصل كئيبة هائلة الجثة ، احدى عينيها حمراء

اللون ندية ابدا ، وفى مكان العين الاخرى شق ضيق ، وردى اللون . أما ربة البيت ، كما يقولون ، فلا تستطيع ان تفرق بين العجل والخروف . وقد ابتاعت مرة فجلا حارا بدلا مـــن البقدونس .

تصوروا وحسب العار الناجم عن ذلك !

كان ثلاثتهم غرباء فى ذلك البيت ، يلوح انهم سقطوا فى هذا القن بطريق الصدفة ، مثل طيور بحثت عن ملجأ مـــن زوابع الشتاء فدلفت طائرة عبر نافذة مأوى بشرى خانق قذر .

روى لى الخدم عندها ان الضباط يتلهون بلعبة خبيثة مع زوجة الخياط الصغيرة . ففى كل يوم تقريبا يرسل احدهـــم رسالة غرام تفصح عن آلام المتيم الولهان وتتغنى بجمالها . فترد الجواب وترجوهم ان يتركوها هادئة آمنة ، وتعبر عن أسفها لما تسبب لهم من احزان ، متوسلة الى الله أن يلهمهم الكف عن عشقهـــا . وكان الضباط يقرأون هذه الأجوبـــة مجتمعين ، بعد استلامهم لها ، ويضحكون كثيرا ، ويحررون فى الحال رسالة حب اخرى يذيلونها باسم أى واحد منهم .

كان الخدم ، وهم يروون لى هذه الحكايـــة ، يضحكون بدورهم وينحون باللوم والشتائم على المرأة .

ويقول يرموخين بصوته العميق :

– تلك الحمقاء الصغيرة العرجاء الغبية !

ويؤيد سيدوروف قوله فى دعة :

– النساء جميعا يحببن أن يخدعهن الرجال . وهن يعرفن ذلك حق المعرفة .

لم اصدق ان زوجة الخياط عرفت انهم يهزؤون بهـــا ،

فعزمت على اطلاعها على هذا الامر . وذات يوم لمحت طاهيتها تهبط الى القبو ، فصعدت السلم الخلفى سريعا الى مسكن المرأة الصغيرة ، وولجت المطهى فوجدته خاويا ، ودخلت غرفة النوم فرأيتها جالسة الى منضدة وفى يدها فنجان ذهبى اللون وفى الاخرى كتاب مفتوح . ما ان رأتنى حتى عراهـا خوف ، فشدت الكتاب الى صدرها ، وأخذت تصرخ فى صوت مخنوق :

– من هذا ؟ أوغوستا ! من انت ؟

فجعلت القى اعترافى فى صوت عجول النبرات ، وقد خطر لى انها ستقذفنى بالكتاب أو الفنجان . كانت جالسة فى مقعد وثير بنفسجى اللون ، ترتدى ثوبا ازرق موشى فى اسفله ، وفى اعلاه وكميه تخريم ، وقد تناثر شعرها الاشقر المتموج على كتفيها . كانت تشبه ملاكا مرسوما على الباب الملوكى فى الكنيسـة . وكانت ترنو الىّ ، من حيث استندت الى ظهر المقعد ، بعينين مدورتين تجلى فيهما بادئ الامر ذعر وخوف ، ثم سرعان ما تلطفت ملامح وجهها وطافت فيهـا ابتسامـة متسائلة .

بعدما رويت لها كل شىء استدرت الى الباب اطلب الرحيل وقد خانتنى جرأتى ، فهتفت بى :

– انتظر !

وضعت الفنجان فى صينية ، وألقت الكتاب على المنضدة ، ضمت يديها الى بعضهما ، وشرعت تتحدث فى صوت عميق يشبه صوت رجل كبير :

– يالك من ولد غريب ! اقترب منى !

اقتربت منها مترددا ، فأخذت يدى وداعبتها باصابعها الصغيرة الباردة ، وسألت :

– ألم يرسلك احد تروى علىّ هذا ، قل ، أليس كذلك ؟ حسنا . أصدقك – لقد خطر فى بالك وحدك .

أرخت يدى وغطت عينيها ، وقالت فى صوت خافت موجوع :

– هذا ما يتحدث به عنى اولئك الجنود القذرون !

نصحت لها فى صوت عميق :

– يجب ان ترحلى .

– لماذا ؟

– لانهم قد يجرون عليك الويلات . . .

فضحكت ضحكا مرحا ، واستفهمت :

– هل كنت فى المدرسة ؟ أتحب المطالعة ؟

– لا أجد وقتا لذلك .

– لو كنت تحب المطالعة وجدت الوقت الكافى . حسنا ، أشكرك جزيل الشكر .

مدت لى يدها الصغيرة وقطعة فضية بين أبهامها وسبابتها . خجلت من تناول هذه الهبة الباردة ، لكننى لم اجرؤ على الرفض . وتركتها عند انصرافى على درابزون السلم .

تركت هذه المرأة فى نفسى أثرا عميقا ، جديدا فى نظرى . وخيل الى ان فجرا أشرق فى حياتى . وعشت بضعة أيام بعد ذلك فى جو مرح كلما تذكرت الحجرة الفسيحة وزوجة الخياط الصغيرة فى ثوبها الازرق بهية مثل ملاك . كان كل ما حولها ينطق بجمال خفى ، السجادة الذهبية السميكة الممدودة تحت

قدميها ، وضياء اليوم الشتوى الذى يصل اليها من خلال زجاج النوافذ الفضى وكأنه ينشد الدفء والحرارة فى حضورها .

اودنى الشوق الى رؤيتها مرة ثانيـــة . ماذا يحدث لـو أطلب منها كتابا ؟

عدت الى بيتها فرأيتها فى المكان ذاتـــه والكتاب بين يديها . ولكن وجهها كان معصوبا هذه المرة بمنديل اسود واحدى عينيها متورمة . اعطتنى كتابا مجلدا بغلاف اسود ، وتمتمت بضع كلمات غامضة . أخذت الكتاب فى كآبة . وكانت تفوح منه رائحة العطر ونقيع اليانسون . وعند وصولى الى البيت لففت الكتاب بقميص نظيف وورق ، وخبأته فى العلية خشية من ان يراه الاسياد ويمزقوه .

كانوا مشتركين فى «النيفا» بسبب نماذج تفصيل الثياب والهدايا التذكارية التى توزع معها . وما كانوا يقرأون المجلة قط ، بل هم يتفرجون على الصور ، ثم يضعونها على ظهر خزانة للثياب فى غرفة النوم . وفى نهاية السنة يربطونها مع بعضها ويخبئونها تحت السرير بالاضافة الى ثلاثة مجلدات من «المجلة المصورة» . وحينما كنت اغسل أرض غرفة النوم تتبلـــل الكتب بالمياه القذرة . واشترك معلمى فى صحيفة «الرسول الروسى» .

كان يقول غاضبا حين يقرأها فى العشيات :

– وحده الشيطان يدرى فيم يكتبون مثل هذه السخافات !

لكم كان ذلك يبعث على الضجر !

بينما انا انشر الغسيل فى العليـــة يوم السبت تذكرت

الكتاب . فاخذته واخرجته من لفافته وقرأت السطر الأول فيه :

«البيوت كالبشر ، لكل منها ملامح خاصة» .

ادهشتنى صحة هذه العبارة . تابعت قراءتى وانا اقف امام الكوة حتى نال منى البرد الشديد . فى ذلك المساء حين انصرف اسيادى الى حضور صلاة الغروب نزلت بالكتاب الى المطهى ، وغرقت بين صفحاته المجعدة الصفراء كاوراق الخريف . نقلتنى بسهولة الى عالم آخر ، باسماء وصلات مختلفة ، حيث التقيت ابطالا نبلاء النفس ، واشخاصا اشرارا يختلفون عن الناس العاديين الذين عرفت . كان رواية طويلة من تأليف مونتيبان ، غنية بالاشخاص والمغامرات ، تمثل حياة زاخرة غريبة . كل ما فى الرواية مشرق بصورة تبعث على الدهشة ، فكأن ضياء كامنا بين السطور يسطع على الخير والشر ، ويساعد القارئ على الحب والبغضاء ، ويضطره الى الاهتمام بمصائر الاشخاص الذين يعجون فيها . وفى الحال خامرتنى رغبة شديدة فى مساعدة هذا البطل وخلق الصعوبات امام الآخر . ناسيا تماما ان هذه الحياة التى تتكشف أمامى فجأة انما هى موجودة على الورق ليس غير . والحقيقة انى نسيت كل شيء فى غمرة هذا الصراع ، يعترينى الفرح حينا والحزن حينا آخر .

استغرقت فى القراءة الاستغراق كله حتى اننى حين سمعت قرع جرس الباب لم ادرك لاول وهلة من كان يقرعه ولاى سبب .

كانت الشمعة قد احترقت تقريبا بجملتها ، والشمعدان

الذي نظفته صباحا امتلأ شحما ، وقنديل الايقونات الذى وجب عليّ ان اسهر عليه وازيده زيتا مالت فتيلته عن مركزها وانطفأت . اندفعت فى المطبخ فى جيئة وذهوب ساعيا الى محو آثار جريمتى بان دسست الكتاب تحت الموقد ، وملأت القنديل .

صاحت مربية الاولاد ، وهى تركض خارجة من غرفة النوم :

– هل انت اصم ؟ الا تسمع الجرس يقرع ؟

هرولت الى الباب الامامى .

سألنى المعلم فى نبرة قاسية :

– أنائما كنت ؟

شكت زوجه أنها أصيبت بالبرد حتى الموت بسبب منى ، فيما شرعت امه توبخنى . وما ان دلفت الى المطهى حتى ابصرت تلك الشمعة المحترقة ، فشرعت تسألنى ماذا كنت أفعل .

كان الخوف من عثورها على الكتاب قد صعقنى ، فكأننى وقعت من مكان عال جدا ، فخرست .

وراحت العجوز تصرخ وتصيح انى قد احرق البيت اذا لم ينتبهوا لى . ولما اقبل المعلم وزوجه لتناول العشاء اعادت القول :

– انظروا . . لقد احرق الشمعة كلها ، وقد يسبب حريق البيت . . .

وفيما الاربعة يتناولون العشاء ظلوا يوبخوننى ويتذكرون جميع زلاتى المقصودة والعفوية ، مقسمين انى اسعى الى حتفى بظلفى ، بيد انى كنت اعلم ان كلماتهم لا يشوبها خبث او

تسامح ، ولكنهم يثرثرون لما يعتريهم من ضجر وملل . والغريب فى الامر اننى كنت أراهم على شىء كثير من السخف والغباوة المضحكة بالنسبة للاشخاص المذكورين فى الكتاب .

لما فرغوا من الطعام اثقلهم الغذاء فمضوا الى اسرتهم منهكى القوى . وبعدما وجهت العجوز الى الله بادئ الامر شكاواها وتبرماتها تسلقت الموقد وصمتت . نهضت آنئذ واخرجت الكتاب من مخبئه ودنوت من النافذة . كانت الليلة مشرقة وقمر براق يشع فى السماء . بيد ان الحروف ادق من ان اميزها . كنت اعانى شوقا ملحا الى القراءة . فاخذت من الرف قدرا نحاسية وحاولت ان اعكس بها نور القمر على الصفحات فلم انجح – بل ازداد الظلام شدة . صعدت عندئذ على الدكة فى الزاوية وجعلت اقرأ واقفا على نور قنديل الايقونات. ولما نال منى التعب نمت على الدكة واستيقظت على صراخ العجوز وضربها . كانت تقف هنالك عارية القدمين ، لا يسترها غير قميص النوم ، تهز رأسها الاحمر وقد انفجر وجهها غضبا ، تحمل كتابى وتضربنى به على كتفى . واخذ فيكتور يعول من فراشه :

– ما بالك ، يا أماه ؟ كفى عن هذا الصياح ! لا وسيلة للراحة معك . . .

قلت فى نفسى :

«هذه هى نهاية الكتاب . ولسوف تمزقه .»

أثناء تناول الشاى فى صباح اليوم التالى استدعيت لتأدية الحساب .

استنطقنى معلمى بصوت قاس :

– من اين اخذت هذا الكتاب ؟

وكانت المرأتان تصيحان فى وجهى ، وفيكتور يدس انفه فى الكتاب متشمما ، ويقول :

– رائحة عطور . . . أقسم بشرفى . . .

ما كنت أقدر أن أقول لهم الحقيقة ، وقلت أننى أخذته من سيدوروف جندى المراسلة عند كاهن الفوج .

– ردّ الكتاب اليه ، حذار أن تفعل هذا مرة ثانية !

حين اخبرتهم ان الكتاب يخص الكاهن تفحصوه جميعا مشدوهين مستائين من ان كاهنا يقرأ روايات . ومع ذلك هدأ روعهم قليلا . ودأب المعلم فى عدة مناسبات يردد على ان القراءة خطرة ومضرة :

– هم ، قارئو الكتب ، نسفوا الخطوط الحديدية فى محاولة لقتل . . . *

قاطعته زوجه ، وقد خامرها الخوف:

– هل جننت ؟ ما هذه الافكار التى تدسها فى رأسه ؟

حملت مونتيبان الى الجندى ورويت له الحكاية كلها . فاخذه سيدوروف دون ان ينبس بحرف ، وفتح صندوقا صغيرا واخرج منه منشفة نظيفة ، ولف بها الكتاب ، وخبأه فى الصندوق . وقال :

– لا تلق اليهم بالا . تعال اقرأ هنا . لن اخبر احدا ! اذا جئت ولم ترنى تجد المفتاح وراء الايقونة . افتح الصندوق واقرأ ما طاب لك . . .

ضاعف موقف اسيادى من الكتاب اهتمامى به ، وخلع عليه

* المقصود هنا محاولة اغتيال القيصر الروسى الكسندر الثانى فى كانون الاول ١٨٧٩ . **الناشر** .

قيمة تضاهى قيمة احجية هامة مروعة . فالواقع ان بعض «القراء» كانوا قد نسفوا القضبان الحديدية ليقتلوا لا ادرى اى شخص لا يهمنى امره ، ولكننى تذكرت سؤال الكاهن اثناء اعترافى ، وقراءة الطالب فى القبو ، واقوال سمورى عن «الكتب التى يجب ان اقرأ» ، وتذكرت ايضا ما كان يقول جدى عن «الماسونيين» الذين يقرأون كتبا سوداء ويعملون بالسحر الاسود :

«وخلال الحكم المقدس للقيصر الكسندر بافلوفيتش ، تآمر النبلاء مع تجار الكتب السوداء والماسونيين لتسليم الشعب الروسى باسره الى بابا روما ، يالهم من جزويت . وهنا تدخل الجنرال أراكشييف وقبض عليهم جميعا وارسلهم الى سيبيريا ، دون ان يبالى برتبهم ومناصبهم . وهنالك عملوا مثل بقية المحكوم عليهم حتى دب اليهم العفن مثل اى قاذورة أخرى . . .»

وتذكرت ايضا «الأومبراكول المبقع بالنجوم» ، «غيرفاسى» وهذه الكلمات الساخرة الوقورة : «آه ، ايتها المخلوقات الخرقاء التواقة الى معرفة اعمالنا ، ان عقولكم الفقيرة لن تفقه لذلك معنى ابدا !»

احسست اننى على عتبة لغز عظيم ، فجعلنى هذا الاحساس أحيا كالمأخوذ الذاهل . وددت ان انهى الكتاب ، وخفت ان يضيع او يتمزق فى صندوق الجندى . فكيف اشرح ذلك لزوجة الخياط ؟

ظلت العجوز تراقبنى بعينين ساهرتين كيلا ازور الجندى ، ولم تفتر عن النق فى وجهى :

– يا عثة الكتب ! لا تفيد الا لتعلم السفالة ! انظر الى تلك التى تزجى اوقاتها تلتهم الكتب – انها اعجز من ان تذهب وحدها الى السوق . ولكنها بدلا من ذلك ترتبط بعلاقات مع الضباط . أفلا تعرف انها تأذن لهم بزيارتها فى وضح النهار ؟

اردت ان اصيح بها :

– هذا كذب ! انها لا ترتبط بعلاقات معهم !

ولكنى خشيت عاقبة الدفاع عن زوجة الخياط ، فقد تستتشم العجوز ان الكتاب كتابها .

لبثت بضعة ايام فريسة الألم الممض ، وغدوت فى الوقت ذاته ضائع الشهية ، يجافينى النوم ، ارتعد فرقا على مونتيبان . ورأتنى طاهية زوج الخياط ذات صباح فاوقفتنى فى الباحة ، وقالت لى :

– ارجع الكتاب !

اخترت مناسبة بعد الغداء ، واسيادى مستسلمون الى قيلولتهم ، فصعدت الى زوج الخياط مرهق الاعصاب مضطربا .

رأيتها مثل ما رأيتها فى المرة الاولى : لكن لباسها تغير . كانت ترتدى تنورة رمادية اللون وقميصا من مخمل اسود ، وصليبا من الفيروز فى عنقها فذكرتنى بطائر القرقف .

حين قلت لها ان الوقت لم يتسع امامى لقراءة الكتاب ، وانهم يحظرون على المطالعة ، اغرورقت عيناى بالعبرات لحرمانى من القراءة وشدة فرحى بلقائها .

قالت ،وقد زوت بين حاجبيها :

– تبا لهم من اغبياء ! مع ان معلمك حسن الوجه . لا تغتم . سافكر فى الامر . ساكتب اليه !

روعتنى هذه الفكرة ، فاخبرتها اننى كذبت وقلت لاسيادى ان الكتاب يخص الكاهن .

قلت متوسلا :

– لا تكتبى ارجوك ! فلسوف يسخرون منك ويتلفظون بعبارات بذيئة . ليس فى بيتنا كله من يحبك ، والجميع يجعلونك موضع هزئهم ، وينعتونك بالحماقة ، ويقولون ان صدرك ينقص ضلعا من اضلاعه . . .

انهمرت كلماتى دفعة واحدة ، وما ان نطقت بها حتى أدركت اننى تفوهت بامور مثيرة . عضت على شفتها العليا وضربت خصرها كمن تمتطى صهوة حصان . فارتبكت وطأطأت رأسى ، وتمنيت لو انشقت الارض وابتلعتنى . بيد ان المرأة تراخت على كرسى وطفقت تضحك فرحة وهى تردد :

– اوه ، ما اشد بلاهتهم ! ما اشد بلاهتهم ! ولكن ، ماذا فى مقدورى ان افعل ؟

ساءلت نفسها ، وهى تنظر الى فى انتباه . ثم أردفت ، وهى تتنهد :

– انت ولد غريب الاطوار – غريب الاطوار جدا . . .

القيت نظرة على المرآة المعلقة الى جانبها ، فرأيت وجها افطس الانف ، بارز العظام ، تحز جبهته ندبة كبيرة ، وشعره المشعث لم يعرف مقص الحلاق منذ عهد بعيد ، بل ينتصب فى كل جهة على شكل خصل خشنة . أهذا وجه من تسميه «ولدا غريب الاطوار» ؟ طبيعى أنه ليس ثمة شبه بين هذا الصبى الغريب وتلك الدمية الخزفية اللذيذة .

– أنت لم تأخذ النقود التى اعطيتك فى المرة الماضية ، فلماذا ؟

– لم أحتج اليها .

فزفرت ، وقالت :

– حسنا ، ليس باليد حيلة . اذا سمحوا لك بالقراءة تعال الى ، فاعطيك كتبا . . .

كان على رف المصطلى ثلاثة كتب . وكان الكتاب الذى اعدته اشدها كثافة . نظرت اليه نظرة كئيبة . فمدت زوج الخياط الى يدها الصغيرة الوردية قائلة :

– والآن ،وداعا !

لمست يدها فى خفة وحذر ، وأسرعت خارجا .

لربما كان صحيحا ما قالوه عنها : انها لا تفهم كل شيء . أفلم تسمى الآونة العشرين كوبيكا نقودا ؟

ولكننى احببت ذلك فيها . . .

٩

حين افكر الآن فيما جره على ولعى المفاجئ المتزايد بالمطالعة من صنوف الحرمان والاذلال والهموم يتنازعنى الحزن والفرح فى آن واحد .

بدا لى ان كتب زوج الخياط باهظة الثمن ، فحملت نفسى على محاولة نسيانها خشية ان تجعلها العجوز طعمة للنيران ، فانصرفت الى تناول كراريس صغيرة ملونة من الدكان التى كنت ابتاع منها الخبز لطعام الفطور .

كان البقال رجلا تشمئز النفس منه – مكتنز الشفتين ، لا ينضب عرقه ، ممتقع الوجه كامد اللون ، تغشاه بقع

وندوب خنازيرية ، ابيض العينين ، متورم اليدين قصيرتى الاصابع .

وكانت دكانه تتحول فى العشيات الى منتدى يقصده الشبان والفتيات الطائشات فى شارعنا . وكان شقيق معلمى يؤم ذلك المكان ليحتسى الجعة ويلعب الورق كل مساء تقريبا ، وما اكثر ما كانوا يرسلوننى لاناديه اذا حان اوان العشاء ، وابصرت اكثر من مرة زوجة البقال الغبية المتضرجة الوجنتين على ركبتى فيكتور او شاب آخر فى الغرفة الصغيرة الضيقة الواقعة وراء الدكان . ولم يكن يبدو على الزوج امتعاض او تأثر ، كما انه لا يستاء ايضا حين تستسلم شقيقته التى تساعده فى خدمة الزبائن الى احضان الجنود والمغنين وكل من اشتهى ذلك ورغب فيه . لم يكن فى المخزن بضائع كثيرة ، والبقال يبرر ذلك بقوله انه لم يستقر فى الدكان بعد ولم يتح له الوقت ان ينظم اموره ، مع انه فتح هذه الدكان فى الخريف . انه يعرض على الزبائن صورا بذيئة قذرة ، ويسمح لاى كان ان ينقل الاشعار المنحطة .

كنت اطالع كتبا مضجرة لميشا ييفستغنييف وادفع كوبيكا مقابل مطالعة كل كتاب . ووجدت الاجر باهظا والفائدة قليلة والمتعة معدومة . «غواك ، او صادق حتى الموت» ؛ «فرانسيل الفينيسى» ؛ «المعركة بين الروسيين والكاباردنيين ، او المسلمة المخلصة التى ماتت على نعش قرينها» . مثل هذه الآداب لم تكن تستهوينى ، بل ما اكثر ما اثارت سخطى ! كان يبدو ان هذه الكتب تحاول ان تستغفلنى بان تروى لى مثل هذه الاحداث البعيدة عن الاحتمال بمثل هذه اللغة الخرقاء .

وكانت كتب من امثال «رجال المشاة» و«يورى ميلوسلافسكى» ، و«الراهب الغامض» ، و«يابانشا الفارس التتارى» تهرق فى نفسى مزيدا من السرور . انها تترك فى نفسى شيئا من الانطباع على اقل تقدير . ولكن اكثر ما كان يستهوينى هو «حياة القديسين» . ههنا اشياء جدية ومقنعة ، بل تثير احيانا احاسيس عميقة فى . فالشهداء يذكروننى جميعا ، لسبب أو آخر ، «بهذا رائع» ، والشهيدات يذكرننى بجدتى ، بينا بعض القديسين يذكرنى بجدى فى ساعات صفائه .

كنت اطالع فى العلية او فى السقيفة حين امضى لتكسير الحطب . وكان المكانان يتساويان فى البرودة والازعاج . فاذا استهوانى كتاب بصورة خاصة احيانا ، او تحتم على الانتهاء منه بسرعة ، فانا استيقظ فى الليل واقرأ على نور الشمعة . غير ان العجوز لاحظت ان الشموع تنقص خلال الليل ، فجعلت تقيسها بقطعة من الخشب وتخبئها . كنت أكتشف قطعة الخشب عادة فاكسرها بطول الشمعة المحترقة . اما اذا فشلت فى ذلك ، واكتشفت هى فى الصباح الفرق فى الطول بين الشمعة والخشبة فهى تدب بالصياح فى المطبخ بحيث يستشيط فيكتور غيظا ويصرخ من اعلى مرقده :

– كفى عن نباحك ، يا اماه ! لا مجال للراحة معك ! طبيعى انه يحرق الشمعة لانه يقرأ كتبا – هو يأخذها من عند البقال . لقد شاهدته . اذهبى وفتشى العلية . . .

أسرعت العجوز فى الصعود الى العلية حيث عثرت على كتاب صغير مزّقته اربا .

مما لا ريبة فيه ان ذلك كان ضربة بالنسبة الى ، ولكنها

شدت من شهوتى الى القراءة . كنت واثقا انه لو اتيح لأحد القديسين ان ينزل فى هذا البيت فان معلمتى ستشرعـان فى تعليمه كيف ينبغى ان يتصّرف ، وبصورة عامة تقولبانـه على الشكل الذى تريانه مناسبا . ولسوف تفعلان ذلك لمجرد انهما لا تجدان شيئا آخر أفضل تشتغلان به . او انهما كفتا عن الصياح واطلاق الاحكام جزافا على الناس والسخرية بهم فلسوف تغدوان خرساوين ، عاجزتين عن الكلام اطلاقـا ، جاهلتين نفسيهما الجهل كله . كيما يعرف المرء نفسه تماما يتعين عليه ان يشعر بعلاقة واعية بالآخرين . وكانت الصلة الوحيدة التى يعرفها معلمى هى التعليم واصدار الاحكام ، واذا ما جعل المرء نفسه يعيش على غرارهم فلسوف يطلقون عليه احكامهم ايضا . تلك كانت طبيعتهم فى الحياة .

لجأت الى جميع انواع الحيل للمواظبة على القراءة . اتلفت العجوز عدة مرات كتبى ، فوجدتنى أخيرا مدينا للبقال بمبلغ كبير يعادل سبعة واربعين كوبيكا . الح على البقال فى طلب المال وهددنى بحسم المبلغ من مال اسيادى حين اتيت يوما لشراء الخبز .

سألنى ساخرا :

– ماذا يحدث عندئذ ؟

كرهته كرها شديدا ، وشعر هو بذلك فيما يبدو . فقد وجد لذة خاصة فى تعذيبى بسائر أنواع الوعيد . وحينما كنت الج دكانه يبتسم وجهه المبقع ، ويسألنى فى صوت يتصنع فيه اللطف :

– أجئت بالمال الذى تدين لى به ؟

– كلا !

ويلوح أن جوابى ساءه ، فيقطب حاجبيه :

– كلا ؟ ماذا يفترض فى ان افعل معك ؟ اقيم الدعوى عليك كى يبعثوا بك الى اصلاحية للاحداث ؟

لم تكن لدىّ وسيلة تمكننى من الحصول على المال . فقد كان اجرى يعطى الى جدى . ولم اعرف ماذا افعل . وحين رجوت البقال ان يمهلنى مدة مد لى يده السمينة الملساء مثل فطيرة بالزيت ، وقال :

– قبلها ، فامهلك .

التقطت ثقلا عن النضد وصوبته الى رأسه . فانحنى مراوغا ، وصاح :

– هاى ، ماذا تفعل ؟ كنت أمزح فحسب !

ادركت انه لم يكن يمزح . فعزمت على السرقة للخلاص منه . غالبا ما كنت وانا انظف ثياب معلمى بالفرشاة اعثر فى جيب سرواله على قطع فضية تتساقط احيانا على الارض . وفى احد الايام تدحرجت احداها الى كومة من الحطب تحت السلم . نسيت اخبار معلمى بالامر طوال فترة من الزمن ، ولم افطن الا حين عثرت على عشرين كوبيكا بين الحطب . وحين اعدتها اليه قالت له زوجه :

– أرأيت ؟ يجب ان تحصى مالك اذا تركت شيئا منه فى جيوبك .

فاجاب ، وهو يبسم لى :

– اعرف . انه لا يسرق شيئا !

اما الآن ، وقد عقدت العزم على السرقة ، فقد عادت كلماته الى ذاكرتى مع بسمته الواثقة ، وشعرت بصعوبة .

كم مرة اخرجت من احدى الجيوب بضع قطع فضية ، واحصيت عددها – واعدتها ! صارعت نفسي ثلاثة ايام . واذا الامر يسوى فجأة على ابسط صورة .

سألنى معلمى بصورة غير متوقعة :

– ماذا اصابك هذه الايام ، يا بشكوف ؟ هيئتك قلقة . فهل انت مريض ؟

بسطت له بصراحة همومى كلها ، فغمغم وهو يتجهم :

– أرأيت اين توصلك هذه الكتب ! ستؤذيك عن هذه السبيل او تلك !

أعطانى خمسين كوبيكا وزجرنى مهددا :

– حذار ان تدع زوجتى او امى تعرفان ، والا وقعت الواقعة !

واردف بابتسامة ودية :

– أنت شيطان صغير عنيد ، لعنة الله على كل شيء ! ولكن لا بأس – فليس هذا خلة سيئة . دع الكتب ! فى رأس السنة ساشترك فى جريدة محترمة وعندها تستطيع ان تجد شيئا تقرؤه . . .

فعل ذلك . وصرت بين وقت تناول الشاى والعشاء اقرأ لمعلمى بصوت مرتفع جريدة «كراسة موسكو» التى تنشر روايات من تأليف فاشكوف وروكشانين ورودنيكوفسكى وغيرهم من المؤلفين الذين كتبت رواياتهم للناس الذين يقتلهم الضجر .

لم اكن احب القراءة بصوت مرتفع فهى تشوش فهمى لمضمون ما اقرأ ، على حين كان معلمى يصغون بانتباه وشيء

من الحماسة المستفيضة ، فيلهثون ، يدهشون من الخساسة المرتكبة ، ويقول بعضهم لبعض متباهين :

– ها نحن نعيش هنا فى وداعة وهناء ، ونجهل كل ما يجرى فى الخارج من أحداث . فليتبارك اسم المولى !

كانوا يخلطون كل شىء ، فيعزون الافعال التى قام بها قاطع الطرق الشهير شوركين الى سائق العربة فوما كروشينا ، ويخلطون على الدوام بين الاسماء ، وحين أصححها لهم يقولون والاستغراب فى وجوههم :

– يا للذاكرة التى يتمتع بها هذا الصبى !

كانت «كراسة موسكو» تنشر بين حين وآخر شعرا بقلم ليونيد غرافه . وكنت اهيم به ولعا وانسخه فى دفتر صغير ، ولكن معلمتى تتحدثان عن الشاعر قائلتين :

– فكروا فى ذلك فحسب – رجل شيخ يكتب الشعر !

– الامر سيان بالنسبة اليه ، سكران وابله !

كنت استلطف شعر ستروجكين والكونت ميمينتو-مورى ولكن المرأتين ، العجوز والصبية ، تصران على ان ذلك الشعر مجرد عبث وهراء وان ليس من يدلى بالشعر الا الممثلون فى مسرح العرائس ومسرح الكبار .

ما كان امضّ تلك الامسيات الشتوية المنصرمة فى الحجرة الصغيرة وانظار اسيادى مركزة على . فالليل ، والهدوء العميق كالموت ، يخيمان خارج البيت . وبين آونة وأخرى تدف قرقعة الجليد ، فيما الناس يجلسون حول المائدة يرين عليهم الصمت كانهم اسماك مجلدة ، او ان العاصفة الثلجية تصفع الجدران وزجاج النوافذ ، وتصفر فى المداخن ، وتعبث فى

جنون بالصمامات الهوائية . فيما يتسرب من غرفـــة الاطفال عويلهم ونواحهم . كان ذلك يجعلنى اود ان اقبع فى زاوية قاتمة أعوى كالذئب .

كانت المرأتان تقيمان فى طرف المائدة تخيطان او تحيكان الجوارب ، وفى الطرف الآخر ينحنى فيكتور ينسخ مخططات وهو يصيح بين آونة واخرى :

– لا تهزوا المائدة ! لا مجال للحياة معكم ! ايتهـــا النقاقتان ، يا مقرعتا المطرقة !

فى زاوية منعزلة يقيم المعلم امام اطاره الضخم يطرز غطاء مائدة من القماش . وتحت اصابعه تنبثق اسراب من السرطانات الحمراء والاسمـــاك الزرقـــاء والفراشات الصفراء والاوراق الخريفية السمراء . لقد ابتكر بنفسه هذا الرسم ، وظل يعمل فيه طوال ثلاثة شتاءات . لقد مله أخيرا . وفى كثير من الاحيان اذا فرغت من عملى خلال النهار فهو يخاطبنى بقوله :

– حسنا ، يا بشكوف . اشرع فى العمل فى غطاء المائدة !

فالتقط الابرة الغليظة واباشر العمـــل . كنت اشعر بالاسف على معلمى واتوق دائما الى مساعدته فى اعماله على قدر طاقتى . وكان يخيل الى انه فى يوم من الايام سيكف عن الرسم والتطريز ولعب الورق ، ويقبل على اى عمل آخر ، عمل ممتع ومفيد ، عمل يفكر فيه دون انقطاع . فهو يتوقف عن الشغل احيانا ، على حين غرة ، ويحدق فيه بنظرات شاخصة مبهوتة وكأنه يراه للمرة الاولى . كان يقف هنالك وشعره متناثر على حاجبيه ووجنتيه ، خالعا على نفسه مظهر مترهبن فى دير .

وتسأله زوجه :

— فيم تفكر ؟

ويجيب ، وهو يعاود عمله :

— لا افكر فى شىء مخصوص .

وافيض انا دهشة ، لكن من دون ان انبس بحرف : كيف ترى يمكنك أن تسأل انسانا فيم يفكر ، وكيف يمكنه الاجابة عن مثل هذا السؤال ؟ المرء يفكر فى اشيـــاء كثيرة فى وقت واحد — فى كل ما يقع تحت عينيه الآن ، وما رآه البارحة او السنة الماضية ، ويتشابك كل شىء ويختلط ، ويفر ويتحرك ويتحول .

كانت موضوعات «كراسة موسكو» تنفد فى امسية واحدة فاقترحت ان اقرأ لهم المجلات المكدسة تحت السرير فى غرفة النوم .

لكن معلمتى الصبية قالت فى شىء من الحذر :

— ماذا فيها يصلـــح للقراءة ؟ لا شىء غير صور ليس غير . . .

غير ان «المجلة المصورة» لم تكن المجلة الدورية الوحيدة المخزونة تحت السرير . كانت هنالك ايضا «الشعلة» ، وشرعت اقرأ فيهـــا روايـــة «الكونت تياتين بالتييسكى» من تأليف سالياس .

اغتبط معلمى من بطل هذه القصة الاحمق ، فكان يضحك حتى تطفر العبرات من عينيه من مغامرات ذلك السيد الشاب الحزينة .

كان يهتف:

- ما ابعث هذا على الضحك !

فتتدخل زوجه فى الحديث مبدية استقلالها فى الرأى :

- بل انها مجرد اكاذيب . . .

ادت لى المجلات المكدسة تحت السرير خدمـــة جلى . فبسببها نلت الحق فى حمل المجلات الى المطبخ وقراءتها ليلا .

كانت العجوز ، لحسن حظى ، ترقد فى غرفة النوم بعد ان تستسلم المربية لنوبة من السكر الشديد . ولم يكن فيكتور يعارض فى قراءتى ، وحين يستسلم كل من فى البيت الى غفوة الكرى فهو يرتدى ثيابه من دون ضجة ويتوارى عن الانظار حتى الصباح . وكانت معلمتى تأخذ الشمعة الى الغرفة الاخرى بحيث ابقى دون ضوء . ولما كان المال يعوزنى لشراء الشمع فقد لجأت عندئذ الى جمع ما يتبقى من ذبالة الشموع خفية ، واضعها فى علبة سردين فارغة ، واملأ بقية العلبة بالزيت المعد للاحتراق امام الايقونات ، واغرز فيه فتيلـــة مـــن الخيوط . وهكذا حصلت على نوع من قنديل مدخن وضعته على الموقد .

كان لســـــان اللهيب الاحمر الصغير يرتعش ويضطرب ويكاد ينطفىء كلما قلبت صفحة من صفحات المجلد الضخم ، وتغرق الفتيلة كل لحظة فى الزيت الكريه ، والدخان يؤذى عينى ، ولكن هذه المزعجات جميعـا تزول فى غمرة سرورى وأنا أتفحص الصور واقرأ الشروحات المطبوعة فى أسفلها .

كانت هذه الصور تكشف امامى اوسع فاوسع العالـــم المزين بالمدن المدهشة ، والجبال الشامخة ، وشواطىء البحار الساحرة . والحياة تتجلى بصورة عجيبة والارض تزداد فتنة

فيما أن اتعرف الى تلك الوفرة القائمة فيها من المدن والناس والمصالح . واصبحت حينما القى بصرى الى الابعاد المترامية وراء الفولغا ادرك انها تمثل أكثر من اتساع فارغ . وكنت ارى ، من قبل ، هذا المشهد حتى يخامرنى الملل والسأم : فالمروج تنبسط جرداء على الارض ، لا يخفف من رتابتها غير رقع من الآجام السوداء ووراء المروج ينهض صف مشوه من الغاب ، ومن فوقه سماء باردة مزروعة بالسحب . اما الارض فخاوية وحيدة . ولم يكن قلبى يقلّ عنها فراغا ، ونفسى تزخر بكآبة هادئة ، فتتلاشى آمالى جميعا ، ويقفر تفكيرى من كل شيء ، فيشدنى الشوق الى اغلاق عينى . والفراغ الكئيب لا يدع مجالا للآمال وكأنه يمتص عصارة قلبى .

كانت الشروحات المدونة تحت الرسومات تتحدث بلغة سهلة عن بلدان أخرى وشعوب أخرى . كانت تروى عن أحداث متنوعة من الماضى والحاضر لا أفقه شيئا عن كثير منها ، الامر الذى ضايقنى . وكان ذهنى يمتلئ احيانا بكلمات غريبة مثل «الميتافيزياء» و«العقيدة الألفية» و«الشارتية» . وكانت تقلقنى حتى الموت ، وتروح تنمو فى ذهنى حتى تطغى على كل شيء آخر ، فيلوح لى انى لن افهم شيئا اذا انا فشلت فى اكتشاف معانى هذه الكلمات . وحدها هذه الكلمات تنتصب خفيرا على عتبة جميع ألغازى . وكانت جمل بكاملها تبقى حية فى ذاكرتى فى اغلب الاوقات ، فكأنها شظايا غارزة فى اللحم ، وتمنعنى عن التفكير فى اى شيء آخر .

واذكر انى قرأت بعض سطور غريبة :

فوق الصحراء يركب أتيلا
قائد «الهون» المكسّو بالفولاذ ،
اسود صامتا مثل القبر .

وتركب وراءه سحابة سوداء من المقاتلين ، وهم يصيحون :

اين هى روما ، روما الجبارة ؟

أعرف ان روما كانت المدينة ، لكن من هم «الهون» ؟ هذا ما ينبغى ان اكتشفه .

توجهت بالسؤال الى معلمى حين سنحت فرصة مناسبة . استوضح فى شىء من الانشداه :

– الهون ؟ وحده الشيطان يعرف هويتهم . يا للسخافة !

وهزّ رأسه مستهجنا :

– رأسك مزدحمة بالنفايات ، يا بشكوف ، وهذا سيىء حقا !

يجب ان أعرف سواء كان الامر طيبا ام سيئا .

حسبت ان سولوفيوف ، كاهن الفرقة ، لا بد ان يعرف من يكون الهون ، فطرحت عليه سؤالى حين التقيته فى الباحة .

كان شاحب اللون مريضا ، مضطربا على الدوام ، ذا عينين حمراوين ومن دون حاجبين ، وله لحية صغيرة صفراء .

استفهم ، وهو يدسُّ عكازه السوداء بين الاوساخ :

– ما أهمية ذلك بالنسبة اليك ؟

وحين ألقيت السؤال على الليوتنان نيستيروف اجابنى فى احتداد :

– ما . . . ذا ؟

قررت ان أذهب الى الصيدلية وأسأل الصيدلى الذى تنم نظراته الموجهة الىّ عن اللطف والحنان . كان له طلعة ذكية ويضع نظارة ذهبية الحفاف على أنفه العبل .

قال الصيدلى بافل غولدبرغ :

– كان الهون شعبا بدويا مثل القيرغيزيين . لم يعد لهم وجود اليوم – انقرضوا جميعا .

تضايقت واشمأززت ، ليس لأن شعب الهون انقرض ، بل لأن معنى هذه الكلمة التى عذبتنى كثيرا كان سهلا لا أهمية له على الاطلاق بالنسبة الىّ . ولكننى كنت ممتنا للهون . فبعد تجربتى معهم كفت الكلمات عن مضايقتى ، وشكرت أتيلا الذى اتاح لى التعرف الى الصيدلى غولدبرغ .

لان ذلك الرجل يعرف أبسط معانى الكلمات العلمية ، وفى يديه مفاتيح جميع الاسرار . كان يصلح من وضع نظارته باصبعين ، ويحدّق فى عينىّ من خلال العدستين الكثيفتين ، ويخاطبنى كمن يدقّ فى جبهتى مسامير صغيرة :

– الكلمات ، يا صديقى الصغير ، تشبه اوراقا على شجرة . كيما تتوصل الى فهم الاوراق وشكلها ووظائفها يجب ان تعرف كيف تنمو الشجرة . يجب ان تدرس ! الكتب ، يا صديقى الصغير ، تشبه بستانا فاتنا تجد فيه كل شىء يدفق الغبطة ويقدّم المنفعة . . .

ما اكثر ما كنت أمضى الى الصيدلية لشراء الكربونات والمنجانيز لمعلمى الذين يشكون ويتألمون دائما من عسر الهضم ، او شراء المراهم والمسهلات للاولاد . وكانت دروس

الصيدلى الموجزة توحى لى دائما باجلال متزايد ومحبة فائقة للكتب ، وغدت بالنسبة الىّ ،شيئا فشيئا ، ودون ان ألحظ ذلك ، لا تقلّ ضرورة عن ضرورة الفودكا للسكير .

كشفت لى عن حياة مغايرة لحياتى ، حياة تفيض عواطف متأججة ، ورغبات جامحة ، وتدفع الناس الى مغامرات او جرائم بشعة . لاحظت ان من كان يحيط بى من البشر ليسوا أهلا للخير او الشر . انهم يحيون فى معزل عن كل ما تعالجه الكتب وتهتم به . وكان من العسير علىّ ان اعثر على اقل شىء ممتع فى حياتهم . وكنت افقه شيئا واحدا – كنت امقت ان اعيش الحياة التى يعيشون .

عرفت مما هو مكتوب تحت الرسومات انه ليس فى وسط مدن براغ وباريس ولندن اخاديد او طرق مفعمة بالاوساخ . هنالك الشوارع عريضة مستقيمة ، والمساكن والكنائس تختلف عما هى عليه هنا . والناس لا يحبسون فى بيوتهم من جراء شتاء يمتد ستة اشهر . وليس هنالك صوم كبير يتحتم على المرء ألا يأكل فيه غير الملفوف الحامض ، والفطر المملح ، وطحين الشوفان ، والبطاطا المغمورة بزيت الكتان الذى أنفر منه . قراءة الكتب محظورة اثناء الصوم الكبير . وتؤخذ منى «المجلة المصورة» ، وأُرغم ان اغدو جزءا من هذه الحياة الفارغة . انا الآن فى وضع يسمح لى ان افاضلها مع الحياة الموصوفة فى الكتب ، فتبدو لى اشدّ تعاسة وتجهما . كنت أرانى وانا أقرأ أشد قوة وأوفر صحة . وكنت اقوم بعملى بصورة افضل واسرع اذ كان ثمة هدف نصب عينىّ : فكلما بكّرت فى قضاء عملى اتسع امامى الوقت

للانكباب على القراءة . اما وقد حرّمت عليّ الكتب فقد اصبحت كسولا ، لا أبالي بشيء او اكترث لشيء . بل استولى علـــيّ ذهول مريض لم اكن اعرفه قبل الآن .

اذكر انه خلال هذه الفترة من الايام الكئيبة وقع حادث مفاجئ غريب . في احدى الليالي ، والجميع يتأهبون للنوم ، قرع ناقوس الكاتدرائية على حين فجأة ، فعكّر بجلجلة صفو سكان البيت ، فهرولوا جميعا نصف عراة الى النوافذ .

تساءلوا :

– هل دقّ نذير الخطر ؟ هل شبّ حريق ؟

كنا نسمع الناس في الشقق الاخرى يتراكضون ، والابواب تفتح وتغلق في صخب . واسرع رجل وسط الباحة يقـــود حصانا من لجامـــه . واخذت معلمتي العجوز تصيـــح ان الكاتدرائية نُهبتْ . لكن معلمي هدأ روعها :

– هدوء يا أماه . الجميع يعرفون ان هذا ليس نذيـــر خطر !

– اذن ، أمات رئيس الأساقفة . . .

هبط فكتور من اعلى مرقده . غمغم ، وهو يرتدي ثيابه :

– انا أعرف ما حدث ، أعرفه !

بعث بي المعلم الى العلية لأرى ان كان في السماء احمرار . اسرعت فتسلقت الى السطح من الكوّة ، فما شاهدت شيئا غريبا . ولكن الناقوس الكبير استمر يقرع على مهل في الفضاء الساكن البارد ، بينما التصقت المدينـــة وسنى بالارض ، وتكسر الثلج تحت اقدام اناس يركضون . وهنالك صرير

زلاجات تجرها خيول على الثلج . وصوت الناقوس الكبير يزداد جهمة وكآبة . ورجعت ادراجى الى البيت .

– ليس ثمة حريق .

فقال معلمى ، وقد ارتدى معطفه ووضع قبعة على رأسه :

– الله المبارك !

كان قد رفع ياقته وشرع يدفع قدميه فى حذائه المطاطى مترددا .

توسلت اليه زوجته :

– لا تخرج ! لا تخرج !

– هراء !

واخذ فكتور ، وقد ارتدى قبعته ومعطفه ، يثير قلق الجميع بقوله :

– انا اعرف ما جرى !

حين انصرف الشقيقـــان امرتنـــى المرأتان ان أدفئ السماور ، واتخذت كل منهما لنفسها مركزا عند نافذة ، ولكن سرعان ما قرع الجرس ورجع المعلم ، وصعد السلم فى سكون على عجل ، وفتح باب الردهة واعلن فى صوت خشن :

– اغتيل القيصر !

فأوضحت العجوز :

– افلحوا فى قتله !

– بلى ، لقد قتلوه . اخبرنى ضابط بذلك . ما عسى ان يحدث الآن ؟

وقرع الجرس ورجع فكتور ايضا وتمتم غاضبا ، وهو يخلع ثيابه :

– ظننت ان الحرب نشبت !

جلس الجميع بعد ذلك لتناول الشاى ، وهم يتجاذبون اطراف حديث هادئ فى اصوات خافتة حذرة . واستتب الهدوء فى الشارع ايضا ، وانقطع قرع الناقوس . ظلوا طوال يومين يتهامسون . وذهبوا الى مكان ما ، واقبل عليهم زوار ، ورووا شيئا ما فى تفصيل دقيق . بذلت جهدى لأفهم ما حدث ، لكن معلمى خبأوا عنى الصحف ، وحين سألت سيدوروف عن سبب اغتيال القيصر اجاب فى صوت خافت :

– التحدث عن هذا محظور . . .

وسرعان ما طوى النسيان كل شيء ، وتلاشى فى زحمة الاعمال اليومية ، وبعد ذلك بقليل وقعت حادثة مروعة .

ذات أحد حين بكرت العائلة لحضور الصلاة ، وانصرفت انا الى ترتيب الشقة بعدما اشعلت السماور ، انسلّ اكبر الاولاد سنا الى المطبخ وفتح صنبور السماور وقبع تحت المنضدة يلعب به . كان انبوب السماور مليئا بالفحم المشتعل ، بحيث انه بعدما سال الماء كله بدأت الغلاية تذوب . سمعت من الغرفة الاخرى السماور يصفر صفيرا غير عادى ، فاندفعت الى المطبخ ورأيت ، من شدة ذعرى ، انه غدا اسود اللون ، يتمايل كأنما اصابته البرداء . لقد ذاب موضع الصنبور ذوبانا تاما وتدلى بشكل مروّع . ومال الغطاء . وسالت قطرات القصدير من كل جانب . وكان السماور الازرق البنفسجى يترنّح كأنما فى حالة سكر شديد . صببت الماء عليه ، فجعل يصفر . وتداعى بكآبة على الارض .

فى تلك اللحظة قرع الجرس . حينما فتحت الباب سألتنى

العجوز قبل كل شيء عما اذا كان السماور يغلى . فأجبتها فى ايجاز :

– اجل . هو يفعل ذلك .

هذا الجواب الذى أملاه الذعر والخجل من دون ريب اعتبر بمثابة محاولة لوقاحة فائقة ، فتضاعفت عقوبتى من جراء ذلك . انهالوا علىّ ضربا ، ولجأت العجوز الى ضربى بحزمة من اغصان الصنوبر . لم يكن الضرب موجعا ابدا ، ولكن النتيجة جاءت اشواكا عميقة انغرزت فى لحمى . وما ان اقترب المساء حتى انتفخ ظهرى مثل وسادة . وعنـــد ظهيرة اليوم التالى اضطر معلمى ان ينقلنى الى المستشفى .

فحصنى الطبيب الذى كان مفرط الطول والهزال الى حد بعيد ، واعلن فى صوت هادىء عميق :

– لا بد لى من اقامة الدعوى لسوء معاملته وضربه .

احمرّ وجه المعلم ، وحرّك قدميه ، وشرع يهمس شيئا فى أذن الطبيب . فنظر هذا من فوق رأس المعلم وأجاب فى اختصار :

– لا استطيع ان افعل ذلك . ليس فى حقى .

والتفت الىّ ، وقال :

– أتريد ان ترفع شكوى ؟

كان ظهرى يؤلمنى ، فقلت :

– كلا . اريد ان أشفى سريعا . . .

ذهبوا بى الى غرفة مجاورة ، ومددونى على منضدة ، وشرع الطبيب ينتزع الاشواك بملقطه البارد ويقول مازحا :

- لقد اعتنوا بجلدك عناية تامة ، ايها الصغير . وسوف تصبح من اصحاب الجلود المدرعة من الآن فصاعدا . . .

وبعدما اتمّ عمله الذى كان يدغدغنى دغدغة لا تطاق ، خاطبنى قائلا :

- انتزعت من جلدك اثنتين واربعين شوكة ، ايهـــا الصغير ! هذا شىء تفخر به امام اقرانك ! تعال غدا فى مثل هذا الوقت لتبديل الضماد . هل يضربونك كثيرا ؟

اجبت بعد تفكير قصير :

- كانوا يضربوننى اكثر من الآن . . .

فضحك الطبيب بصوته العميق :

- اذن الامور فى تحسُّن مستمر ، ايها الصغير . الامور كلها فى تحسن !

حين عاد بى الى معلمى توجه اليه قائلا :

- ها هو ذا . لقد رقّعته . فكأنه صنع حديثا . ارسله غدا فسوف نبدل له ضماده . من حسن حظك انه يأخـــذ الامور بعين المزاح . . .

وفيما نحن نعود فى العربة قال لى المعلم :

- كانوا يضربوننى انا ايضا ، يا بشكوف وانا صبى . ما حيلتنا فى ذلك ؟ لشد ما كانوا يضربوننى ، يا أخى ! انت تلاقى منى شيئا من العطف على أقل تقدير ، اما انا فلم يشفق على احد يومذاك . لا احد على الاطلاق . رعاع من الناس فى كل مكان ، وليس ثمة ابن زنا واحد يبدى لك شيئا من حنان . آه ، يا الهى ! يا للدجاجات الصائتة !

كان لا يفتر عن الحديث على هذا الغرار اثناء الطريـــق

كله . كان يستدر حناني ، وكنت ممتنا له لأنه حدثني بلغة على قدر كبير من الصراحة .

حينما وصلنا الى البيت استقبلت استقبال بطل منتصر ، واضطرتني المرأتان ان أروى لهما فى كثير من التفصيل كيف اخرج الطبيب الشظايا ، وماذا قال ، وهما تقاطعان حديثى فتصيحان أوه وآه ، وتطقطقان بلسانيهما فى لذة ، وتعبسان لدى سماعهما التفصيلات المثيرة . كان اهتمامهما الشديد بالمرض والاوجاع الجسدية وكل شىء كريه يزيدنى دهشة واستغرابا .

لمست رضاهما وسرورهما لرفضى الشكوى بحقهما . فاغتنمت هذه السانحة وطلبت السماح لى باستعارة كتب من زوج الخياط . لم يجرؤا على الرفض خلال ذلك ، ولكن العجوز هتفت فى انشداه :

— ألست شيطانا صغيرا !

فى اليوم التالى وجدتنى أقف امام زوجة الخياط أسمعها تخاطبنى فى لطف قائلة :

— ولكنهم اخبرونى أنك كنت مريضا ، ونقلت الى المستشفى ! أترى كثرة كذب الناس !

لزمت الصمت . خجلت من اطلاعها على الحقيقة — فيم أزعجها بالحديث عن امور فظة محزنة ؟ لشد ما اغبطنى انها لم تكن تشبه غيرها من الناس .

بدأت من جديد أقرأ المجلدات الضخمة من تأليف دوماس الأب ، وبونسون دى تيرايل ، ومونتيبان ، وزاكون ، وكابوريو ، وايمار ، وبواغوبه . التهمت هذه الكتب على

عجل ، الواحد بعد الآخر ، فأهرقت السعادة فى جوانحـــى . شعرت انى اساهم فى حياة خارقة ، وهذه الحياة اثارت عواطف حلوة افعمتنى حيوية . ومرة اخرى صار قنديلى البسيط يرسل دخانه ، فانا أقرأ الليل بطوله حتى اطلالة الفجر . وأصبت بشيء من الآلام فى عينى . وكانت معلمتى العجوز تحادثنى فى شيء من الارتياح والحبور :

– انتظر فحسب ، يا عثة الكتب ، ينفجرن بؤبوا عينيك فتصاب بالعمى !

سرعان ما ادركت على الفور ان جميع هذه الكتب المثيرة ، رغم حوادثها الاخاذة المدهشـــة ، ورغـــم اختلاف البلدان والمدن ، تدور حول قصة واحدة لا تتغير : قصة اناس شرفاء كان يطاردهم الاشرار . فالاشرار دائما اكثر سعادة واوفــر ذكاء من الشرفاء . اما فى النهاية فينطرح الاشرار تحت عبء شيء لا يُدرك ، وينتصر الاخيار انتصارا لا محيد عنه . ومللت من «الحب» الذى يتلفظ به سائر الرجال والنســاء بكلمات واحدة . ففضلا عن انه مضجر جدا ، فقد أثارت هذه التفاهة فى شكوكا مزعجة مرهقة .

كنت اخمنّ احيانا منذ قراءة الصفحات الاولى من الكتاب من سيكون الغالب فى النهاية ومن يكون المغلوب . ومنذ ان تبرز عقدة الحوادث احاول ان انهيها بقوة مشيئتى وارادتى .

كنت أضع الكتاب جانبا ، واروح أسائل نفسى عنـــه فكأنه مسألة حسابية . وغالبا ما اكون مصيبا فى حلولى حول مَنْ مِنْ الاشخاص سيستقر فى الفردوس ومن سَيُبْعَثُ به الى المطهر .

كنت ارى وراء هذا كله انعكاس حقيقـــة حية هامة فى نظرى ، ومظاهر حياة مغايرة وعلاقات مغايرة . كان واضحا بالنسبـــــة الىّ ان السائقين والعمال والجنود وسائر افراد الشعب الفقير لم يكونوا فى باريس كما هم عليه فى نيجنـــى نوفغورود وقازان وبيرم . انهم هناك اكثر جرأة فى مخاطبتهم الاسياد ، ويقفون منهم موقفا اشد فخرا واستقلالا . هذا جندى هنا ، ولكنه لا يشبه فى شىء اى جندى من معارفى – حتى ولا سيدوروف ، او الجنـــدى على المركب البخـــارى ، او حتى يرموخين . ان له صفات انسانية اكثر مما لديهم جميعهـــم . كان فيه شىء مشترك مع سمورى ، بيد انه اقل فظاظـــــة ووحشية ، او ههنا صاحب دكان ، ولكنه هو الآخر افضل من اى صاحب دكان من معارفى . كما ان الكهنة فى هذه الكتب لا يشبهون الكهنة الذين أعرف . انهم اشد عطفا وحنوا عــلى الناس . والحياة هناك بصورة عامة ، كما يقول الكتاب ، أمتع وأيسر وأجمل من الحياة التى أعرفها . فى البلدان الاجنبيـــة الناس لا يتضاربون بوحشية كثيرا ، ولا يهزأون بوحشية من رجل مثلما فعل المسافرون بذلك الجندى على سطح المركب البخارى ، ولا يصلون الى الله بهذه الطريقة المزعجة التى تتبعها معلمتى العجوز .

لاحظت خاصة انه حين تصف الكتب الاوغاد والسفلـــــة والطماعين فهى لا تظهرهم أسرى تلك الوحشيـــة التى يتعذر تفسيرها وذلك الميل الى السخرية من الآخرين اللذين كانا مألوفين لدى . ان الاوغاد فى الكتب متوحشون باسلوب عملى ، ووحشيتهم شىء ممكن تفسيره وفهمه على الدوام . ولكننى

شاهدت وحشية لا معنى او هدف لها ، وحشية لمجرد التسلية ليس غير من دون اى هدف او مقصد آخر .

كل كتاب جديد كان يبرز بصورة اوضح الفارق بين الحياة الروسية والحياة فى البلدان الاخرى ، ويبعث الاشمئزاز فى نفسى ، وفى الوقت ذاته يزداد شكى فى صحة اقوال هذه الوريقات المهترئة المصفرة ذات الجوانب القذرة .

وقعت بين يدى بغتة رواية من تأليف غونكور هى «الاخوان زمغانو» . قرأتها فى ليلة واحدة ، وادهشنى فيها شىء لم اشعر به قبل الآن . فأعدت قراءة هذه القصة البسيطة الحزينة . لم يكن فيها تعقيد او اثارة خاصة . كانت جافة وجدية منذ صفحاتها الاولى ، مثلها مثل «حياة القديسين» . لغتها الواضحة كل الوضوح الخالية من اى زخرف لفظى تركت فى نفسى أثرا سيئا اول الامر ، بيد ان العبارات الموجزة والجمل المنحوتة نقشت على صفحة قلبى بسهولة ويسر . كانت تسرد بدقة مأساة اخوين بهلوانين حتى ان يدى ترتعشان من الفرحة بوجود الكتاب . كنت ابكى حتى احس ان قلبى سيتمزق عندما تسلق ذلك البهلوان ، وساقاه مكسورتان ، كيما يصل الى حيث كان شقيقه فى العلية يمارس بصورة خفية فنهما المحبب .

حين أعدت هذه الرواية الجميلة الى زوجة الخياط رجوتها ان تعطينى كتابا آخر من النوع ذاته .

سألتنى ، وهى تضحك :

– ماذا تقصد بكتاب آخر يشبه تماما ؟

اربكتنى ضحكتها . وحين لم افلح فى تبيان ما اريد قالت :

– هذا كتاب ممل . انتظر ، وسأجد لك ما هو افضل منه ، ما هو اكثر امتاعا . . .

بعيد عدة ايام اعطتنى «قصة حقيقية لمتشرد صغير» من تأليف غرينوود . لم يقع العنوان من نفسى موقعا حسنا . لكن الصفحة الاولى ملكت على مشاعرى وانتزعت منى بسمة اعجاب وافتتان . وبهذا الشعور نفسه التهمت الكتاب وأخذت أعيد قراءة بعض الفصول مرتين او ثلاث مرات .

وهكذا فان الصغار فى البلدان الاجنبية ايضـــا يجدون الحياة صعبة ! والحقيقة ان حياتى كانت تبدو سهلة بالمقارنة معهم . وبكلمات اخرى ، فلم يكن ثمة ما يدعونى الى القنوط .

لقد بعث غرينوود فى نفسى شجاعة فائقة ، وما اسرع ان حصلت بعد ذلك على كتاب من الكتب «العظيمـــــة» حقا – «أوجينى غرانديه» .

ان غرانديه العجوز يذكرنى بجدى تماما . لشد ما تأثرت وأسفت لقصر القصة ، وسحرت بالحقيقة الكاملة التى يحويها . جعلت الحياة هذه الحقيقة مألوفة تماما لدى ، ولكن الكتاب كشفها تحت ضوء جديد ، ضوء الملاحظة الهادئة النزيهة . ان جميع المؤلفين الذين قرأت كتبهم ، فيمـــا عدا غونكور ، يصدرون حكمهـــم على الناس باسلوب صاخب صارم مثـــل اسلوب معلمى ، وغالبا ما يجعلون القارئ يتعاطف مع الوغد ويسخط على الاشخاص الطاهرين الفاضلين . وكنت على الدوام اشعر بالحنق وانا أرى انه مهما بذل المرء من فكر وجهد ستبقى أبحاثه مخذولة من قبل الناس الاطهار الذين يقفون فى طريقه منذ اول صفحة من صفحات الكتاب حتى آخر صفحة ،

لا يمكن اجتيازهم فكأنهم جدار حجرى . ومن المؤكـــــد ان الاغراض الشريرة للرذيلة كان يمكن ان تتحطم شظايا متناثرة على ذلك الجدار ، لكن الحجر ليس مادة يمكن ان تستحث عواطف المرء . مهما يكن الجدار قويا وجميلا ، وانت راغب فى الوصول الى التفاح النامى وراءه ، تتملكك نزعة صغيرة من الاعجاب بحجارته . وكان يخال لى على الدوام ان ما هو اكثر حقيقة واهمية يظل مخبوءا وراء اولئك الناس الطاهرين . . .

فى مؤلفات غونكور وغرينوود وبلزاك لا يعثر المرء على انذال او بطال ، بل هنالك اناس بسطاء يعيشون كما لو فى الواقع . وليس هنالك من يشـــــك ان كل ما يقولون او يفعلون سبق ان قيل وأنجز على ذلك الغرار ، ولا يمكن ان يقال او يفعل بوسيلة اخرى .

على هذا النحو تعلمت معرفة السرور العظيـــم من قراءة «كتاب جيد ، كتاب مضبوط» . لكن ، كيف استطيع العثور على مثل هذا الكتاب ؟ ان زوجة الخياط لا يمكن ان تساعدنى .

– هذه بعض الكتب الجيدة .

كانت تقول ذلك ، وهى تقدم لى كتاب ارسين هوساى «يدان مملوءتان وردا وذهبا ودماء» بالاضافـــة الى روايات لبالو ، وبـــول ده كوك ، وبول فيفال . وها أنذا اصرف فى الآونة الأخيرة جهدا على قراءة تلك الكتب .

كانت تستمتع بقراءة روايات ماريبيت وفرنر . فى حين وجدتها انا باعثة على الضجر . كما اننى لم احب شبيلهاغن . وكنت أجد لذة كبيرة فى اقاصيص أويرباخ . وافضل روايات ولتر سكوت على مؤلفات سو وهوغو . وأريد كتبـــا تحرك

16*

عواطفى وتغدق على السرور ، كتبا مثل كتب بلزاك الرائعة . صارت زوجة الخياط تشبه الدمية الخزفية ، تثير فى غبطة اقل .

عندما كنت امضى لرؤيتها فانا ارتدى قميصا نظيفا ، وامشط شعرى ، وابذل اقصى ما فى وسعى كى أظهر فى مظهر لائق . وقلما كنت أفلح فى ذلك . الا اننى كنت اؤمل ان تلحظ عنايتى ، وتكلمنى بطريقة أبسط وأقرب الى القلب من دون تلك البسمة الجامدة على وجهها النظيف بملامحه المصطنعة . بيد انها كانت تبسم وتسألنى فى صوتها الحلو المتعب :

— هل قرأته ؟ هل أحببته ؟

— كلا .

فترفع قليلا حاجبيها الرقيقين ، وتقول وهى تشخص نحوى وتتنهد فى صوت حاد مألوف :

— لماذا ؟

— لأنى قرأت كتبا كثيرة حول هذا الموضوع .

— اى موضوع ؟

— الحب . . .

فتضحك ضحكة عذبة قصيرة ، وهى تقطب وجهها :

— يا الهى ! لكن جميع الكتب تتحدث عن الحب !

كانت وهى جالسة على مقعد وثير كبير تهز قدميها الصغيرتين المحتذيتين حذاء من الفرو ، وتتثاءب ، وتشد على كتفيها ثوبها الازرق ، وتنقر بأصابعها الوردية على غلاف الكتاب الموضوع فى حجرها .

كنت أتوق الى سؤالها :

«لماذا لا تنتقلين من هنا ؟ لا يبرح الضباط يكتبون اليك الرسائل ويسخرون منك . . .»

لم اكن أجد الجرأة على الكلام ، فأنصرف وفى يدى مجلد ضخم يعالج «الحب» ، وفى قلبى خيبة أمل عميقة .

هنالك فى الباحة كان الحديث عن هذه المرأة يزداد سخرية وخبثا . وكنت أتألم لسماع هذه الشائعات القذرة والكاذبة دون ريب ، وحين لا أكون معها تخامرنى الشفقة والخوف عليها . وحين أكون أمامها وأشاهد عينيها النافذتين ، وانوثة جسدها الصغير اللدن ، وملامح وجهها الباسم على الدوام يتبدد خوفى وعطفى مثلما ينقشع الضباب .

فى الربيع رحلت فجأة ، وبعد ايام قلائل انتقل زوجها .

كانت شقتهما خالية بعد فى انتظار النزلاء الجدد حين صعدت ونظرت الى الجدران العارية المشوهة بمسامير معوجة وحفر مسامير ، حيث البقع المغبرة اللون فى المكان الذى كانت الصور معلقة . وكانت الارض المدهونة تعج بالورق وقطع قماش براقة وعلب دواء وزجاجات عطور فارغة يبرق بينها دبوس كبير من النحاس .

فاض صدرى كآبة ، وأخذنى الشوق الى رؤية زوجة الخياط الصغيرة ، مرة اخرى ، كيما اعبر لها عن امتنانى وشكرى . . .

١٠

قبل رحيل الخياط وزوجته كانت الشقة القائمة تحت شقتنا مشغولة من قبل امرأة فى ريعان الصبا ، سوداء

العينين ، تقيم مع ابنتها الصغيرة وأمها ، وهى عجوز بيضاء الشعر تدخن دائما وابداً لفافات فى مبسم من حجر الكهرب . كانت المرأة انيقة انيقة ، شامخة الأنف مستبدة ، تتكلم فى صوت لطيف عميق ، ولها اسلوب فى القاء رأسها الى الوراء وتضييق فرجة عينيها حين تخاطب الناس وكأنهـــم يبعدون عنها كثيرا بحيث لا تراهم . وكان الجندى توفياييف يقبـــل كل يوم تقريبا ، ويأتى حتى باب شقتها بجواد كميت ، دقيق القوائم ، اصهب اللون . وتخرج السيدة مرتدية ثوب ركوب من مخمل رمادى ، مفرطا فى الطول ، وتحتذى جزمة صفراء ، وتضع فى يديها قفازين طويلين ابيضين . كانت ترفع ذيل ثوبها الطويل وتحمل سوطا يزين قبضته حجر بنفسجى فى احدى يديها ، وفى اليد الاخرى تداعب رأس الحصان الذى يعرى لها اسنانه بلطف ويميل عينيه ويضرب الارض القاسية بحوافره والرعشة تسرى فى جسده .

قالت فى صوت مهموس ، وهى ترتب على عنق الحصان الانيق المقوس :

— روبر ، روبر !

وتضع قدمها على ركبة توفياييف ، وتقفز الى السرج فى خفة . ويمضى الحصان فى زهو واعتزاز على طول الطريق . كانت تجيد الركوب حتى تحسبها ولدت على سرج حصان .

كانت على جمال بارع ، نادر المثال ، من نوع ذلك الجمال الذى يبدو دائم الجدة أخاذا يفعم القلب بمرح لذيذ ونشوة ساحرة . وكنت احسب وانا ارنو اليها ان ديانا بواتييـــه

والملكة مارغو والآنسة لافاليير وغيرهن من بطلات رواياتي التاريخية كن مثلها من دون ادني ريب .

كان يحيط بها بصورة دائمة عدد من ضباط الحامية المعسكرة في مدينتنا . وفي كل مساء يتزاحمون على بيتها فيعزفون على البيانو والكمان والقيثارة ، ويغنون ويرقصون . وكان الماجور اوليسوف اكثر المدعويين التصاقا بها ، يحوم حولها بساقيه الصغيرتين القصيرتين . كان سمين البنية ، شعره رمادي ووجهه احمر ، وغير مهندم الثياب مثل وقاد في مركب . وكان يجيد العزف على القيثارة ، ويتصرّف على الدوام وكأنه الخادم المطيع لما تأمر به السيدة .

اما ابنتها الممتلئة المجعدة الشعر التي تغازل الخامسة من عمرها فلا تقل عنها جمالا . كانت نظرة عينيها الكبيرتين الزرقاوين هادئة جدية مترقبة فيها شيء يدل على التفكير ولا يمتّ الى الطفولة بصلة .

كانت الجدة تهتم بشؤون البيت وقضاياه من الصباح حتى المساء ، يساعدها الجندي توفياييف العبوس الصامت ، وخادمة بدينة ضعيفة البصر . لم يكن للطفلة مربية ، فهي تعيش اكثر ايامها دون مراقبة ، منصرفة الى اللعب على الشرفة ، او على كومة من الاخشاب في الساحة . وكنت في الأمسيات أذهب للعب معها على الغالب . وانتهى بي الامر اخيرا الى التعلّق بها . وألفتني هي في سرعة فائقة . فكانت تستسلم الى الرقاد بين ذراعي وانا اروي على مسامعها قصصا خرافية . وحين تنام احملها الى فراشها . وسرعان ما تملكتها هذه العادة حتى اذا اوت الى سريرها ألحت في طلبي لأجيء واتمنى لها ليلة هانئة .

فاذا دخلتُ غرفة نومها تمدُّ لى فى رزانة ووقار يدها الصغيرة البضة ، وتقول :

– وداعا الى الغد ! ماذا يجب ان اقول ، ايتها الجدة ؟

فتجيب الجدة ، وسحب من الدخان تنبعث من بين اسنانها وانفها الرفيع :

– حفظك المولى !

فتردد الفتاة ، وهى تلتف بلحاف مزركش مخرم :

– حفظك المولى الى الغد . والآن سألجأ الى النوم .

فتصلح لها الجدة :

– ليس الى الغد ، بل الى الأبد !

– أليس الغد هو الأبد ؟

كانت تحب كلمة «الغد» وتستعمل صيغة المستقبل لكل ما احببته . فتغرس فى التراب ازهارا مقطوفة او اغصانا مكسورة وتقول :

– فى الغد ستكون هذه حديقة . . .

او تقول :

– فى الغد سأشترى لنفسى حصانا اركبه كما تفعل أمى . . .

كانت متوقدة الذكاء ، ولكنها لم تكن كثيرة المرح . فما اكثر ما كانت وهى تلعب لعبة بهيجة تتوقف بغتة وتغرق فى التفكير ، ثم تسأل على غير انتظار :

– لماذا يحتفظ الرهبان بشعر مثل شعر النساء ؟

وخزها القريص ذات يوم ، فهزت اصبعها متوعدة وهددت قائلة :

– حذار والا ابتهلت الى الله ان ينزل بك العقـــاب الأليم .. . انه قادر على انزال العقاب الاليم باى كان ، حتى أمى . . .

وتعتريها احيانا كآبة هادئة . فتندسُ فيّ وترفـــع الى السماء عينيها الزرقاوين المترقبتين ، وتقول :

– جدتى تعنفنى احيانا ، اما أمى فلا تفعل ذلك ابدا . هى تضحك دائما . الجميع يحبون أمى لأنها على عجلة مـــن أمرها دائما ، ولان وفود الزوار لا ينقطع لرؤيتها . فهم لا يشبعون من النظر اليها لانها جميلة . امى ظريفة . هذا ما يقوله اوليسوف ايضا . ام ظريفة !

كنت أحبُ الاصغاء الى حديث هذه الفتاة عن عالم غير مألوف عندى ، ومعينها لا ينضب من الحديث عن أمها . وشيئا فشيئا تتكشف امامى حياة جديدة ، وترجع بى الذكرى مـن جديد الى الملكة مارغو . وكان هذا يزيد ثقتى بالكتب واهتمامى بما يحدث حولى من امور .

فى امسية احد الايام ، وانا جالس احمل بين يدىّ الفتاة الصغيرة النائمة وانتظر عودة معلمىّ من نزهتهم على ضفة الفولغا ، اقبلت الأم على جوادها ، وقفزت برشاقـــة عن سرجها ، وألقت برأسها الى الوراء ، سألتنى :

– أهى نائمة ؟

– نعم .

– حقا ؟

اسرع الجندى توفيابيف وقاد الجواد . ثبّتت السيـــدة سوطها فى حزامها ، وصاحت بى وهى تبسط ذراعيها :

– اعطنيها !
– سأحملها بنفسى !
صاحت السيدة بى وكأننى حصانها ، وهى تضرب الارض بقدمها :
– كلا ، لن تفعل ذلك !
استيقظت الصغيرة وطرفت بعينيها ، ولمحت أمها فمدت لها ذراعيها . وانصرفت الاثنتان .
كنت قد اعتدت ان يُنْدَّهَ علىّ . لكننى نفرت بصورة خاصة لأن هذه المرأة صرخت فى وجهى . كان الجميع يطيعونها مهما كانت اوامرها التى تصدر بصوت ناعم رقيق .
بعد بضع دقائق جاءت الىّ الخادم ذات العينين الكليلتين ونادتنى : أبت الفتاة فى عناد ان تنام قبل ان تتمنى لى ليلة طيبة .
ولجت وانا شديد الاعتزاز غرفة الجلوس حيث كانت السيدة جالسة والفتاة فى حجرها تنزع عنها ثيابها بحركات رشيقة .
قالت :
– حسنا . هذا هو . لقد جاء ، غولك هذا !
– هو ليس بغول ، ولكنه رفيقى فى اللعب . . .
– حقا ؟ حسنا . سنقدم لرفيقك فى اللعب هدية . اتريدين ؟
– أوه ، اجل . فلنفعل ذلك !
– حسنا جدا . اركضى الى سريرك وسأقدم له هدية .
فقالت الفتاة الصغيرة ، وهى تمدُّ لى يدها :

– وداعا الى الغد . حفظك المولى حتى الغد . . .
فصاحت المرأة مبهوتة :
– من علّمك هذا الكلام ؟ جدتك ؟
– نعم . . .
حين خرجت الفتاة اشارت السيدة الىّ باصبعها :
– ماذا تريد ان اعطيك ؟
اجبت انى لا اريد شيئا ، لكن ربما تأذن لى باستعارة كتاب أقرأه .
رفعت ذقنى بأصابعها الدافئة المعطرة ، وسألتنى بابتسامة خلابة :
– انت تحب القراءة اذن ! ما هى الكتب التى قرأت ؟
ازداد جمالها فتنة لما ابتسمت ، فذكرت لها والارتباك يعرونى اسماء بعض الروايات .
استوضحت ويداها تنقران على المنضدة :
– ماذا وجدت من سرور فى هذه الروايات كلها ؟
كانت رائحة ذكية وقوية فى آن واحد تفوح منها وتمتزج بشكل غريب برائحة الحصان القوية . نظرت الىّ من خلال اهدابها الطويلة مفكرة صامتة . انها نظرة فريدة لم يخلعها علىّ انسان من قبل .
بدت الحجرة صغيرة فكأنها عش عصفور بسبب من الاثاث الجميل الكثير الذى تزدحم به . وكانت اوراق الجنائن تحجب النوافذ بستارها الكثيف ، وبلاط الموقد الابيض الناصع يتألق فى ذلك الظل ، وهنالك بيانو أسود براق الى جانب الموقد ، وعلى الجدران أطر من الذهب الكامد اللون لشهادات

قاتمة تغطيها احرف كبيرة سلافية قديمة ، وتحت كل شهادة من هذه الشهادات خاتم كبير أسود اللون معلق بحبل . كانت جميع هذه الاشياء تنظر مثلى الى السيدة نظرات فيها خنوع ووجل .

شرحت لها كيفما اتفق لى ان الحياة شاقة مرهقة جدا ، وان قراءة الكتب تساعدنى على نسيانها .

قالت ، وهى تنهض :

– حقا ؟ هذا قول حسن . اظنك على صواب . . . لكننى اعتقد انه لا حيلة لنا فى الامر . . . يسرنى كثيرا ان أعطيك كتابا . ولكن الكتب ليست فى متناول يدى الآن . . . ومع ذلك فى مقدورك ان تأخذ هذا . . .

أخذت عن الكنبة كتابا مجعدا اصفر الغلاف . قالت :

– بعد ان تنتهى منه اعطيك المجلد الثانى – فهو يتألف من اربعة مجلدات .

انصرفت احمل كتاب «اسرار سان بطرسبورغ» من تأليف الامير ميشيرسكى . وشرعت أقرأه فى انتباه عظيم . وما اسرع ان وضح لى ان «اسرار» سان بطرسبورغ اكثر سأما من اسرار مدريد ولندن وباريس . الشىء الوحيد الذى أثار اهتمامى فى الكتاب هو اسطورة الحرية والهراوة .

قالت الحرية :

«انا اسمى منك لاننى اكثر حكمة» .

فاجابت الهراوة :

«أوه ، ابدا ! انا اسمى منك لانى اقوى ساعدا» .

وحمى وطيس الجدال فترة من زمن ، وانتهى الامر بهما

الى القتال . وصرعت الهراوة الحرية فيما اذكر ، فلقيت الاخيرة في المستشفى حتفها .

احد شخصيات الكتاب كان نهلستيا . ولا ازال اذكر حتى الآن ان النهلستي ، كما يرى الامير ميشيرسكي ، يطفح سما حتى ان نظرة واحدة منه تكفي لقتل دجاجة . بدت لي كلمة «نهلستي» مثيرة فاضحة ، ولم أفهم اكثر من هذا ، فاعتراني اليأس . لا ريب انني لا اجيد تذّوق الكتب الجيدة . وكنت قانعا ان هذا الكتاب لا بد ان يكون كتابا جيدا ، فان سيدة على هذا الجمال والرفعة لن تقدم على قراءة الكتب الرديئة .

حين أعدت اليها رواية ميشيرسكي سألتني :

- هل اعجبتك ؟

وجدت كثيرا من العناء كيما اجيبها نفيا ، فقد خشيت ان تغضب .

ضحكت ، وتوارت وراء سجف الباب المؤدي الى غرفة نومها ، ورجعت بكتاب صغير مغلف بغلاف من جلد ازرق .

- سيعجبك هذا من دون ريب . لكن لا توسخه !

كان الكتاب مجموعة من قصائد بوشكين : قرأته دفعة واحدة . واخذتني النشوة التي تساور المرء اذا وجد نفسه في مكان رائع الجمال ، كل زاوية فيه يودّ ان يكتشفها دفعة واحدة . كان كمن يخرج من مستنقع ويجد نفسه في بقعة نيِّرة جافة تشرق فيها الشمس وتنعشها الازهار ، حيث يقف فترة من زمن مبهوتا قبل ان يركض من طرف الى طرف ثملا جذلان ، تبعث فيه كل خطوة فوق الاعشاب الطرية لذة هانئة عذبة .

سحرتني بساطة قصائد بوشكين وموسيقاها حتى ظللت

مدة طويلة اشعر ان النثر مخالف للطبيعة ، وقراءته عسيرة عليّ . ان مقدمة قصيدة «روسلان ولودميلا» اشبه بخلاصة لأروع اقاصيص جدتى ، وبعض الابيات اسكرتنى بصحتهـــا ودقتها ووضوحها :

هنالك ، على الدروب المجهولة ،
آثار بهائم لا اسماء لها . . .

وانا اردد فى فكرى هذه الابيات الساحرة أرى تلـــك الدروب القليلة الوضوح التى أعرفها حق المعرفة ، واكتشف الآثار الغريبة التى يدل عليها العشب المداس المتوّج بقطرات من الندى لا تبرح تلتمع عليه مثل قطرات من الزئبـــق . تذكرت فى سهولة خارقة القصائد ذات الجرس الموسيقى التى تخلع على كل ما تصوّره حلة قشيبة زاهية . كنت نشوان ، وغدت الحياة فى نظرى رضية لذيذة . كانت هاتيك القصائد حقا ايذانا بحياة جديدة واعلانا لها . ما اسعـــد من يعرف القراءة !

حكايات بوشكين الرائعة هى افضل ما قرأت واقربه الى افهامى من آثاره الاخرى . ولكثرة ما اعدت مطالعتها حفظتها عن ظهر قلب . فحين الجأ الى فراشى أردد القصائد وانا مغلق العينين حتى استسلم الى الرقاد . وما اكثر ما كنت اسرد هذه الاساطير على خدم الضبـــاط فينفجرون ضاحكين مقهقهين ، ويقذفون الشتائـــم دونما خبث ، ويداعب سيدوروف رأسى متمتما :

— ما أجملها ، ايه ؟

لم يخف التأثر الذى اخذ بتلابيب نفسى على معلمتىّ ، فشرعت العجوز تزمجر معنفة :

— هذا الوغد لا عمل له الا الاسترسال فى القراءة . وقد انقضت اربعة ايام لم يمسح خلالها السماور او ينظفه ! فاذا اسرعت اليه بالعصا . . .

ما هى العصا بالنسبة الىّ ؟ كنت أدافع عن نفسى بهذه الاقوال الشعرية :

. . . الساحرة العجوز
تآخت روحها السوداء مع الشر . . .

ازدادت السيدة الجميلة فى نظرى قدرا ورفعة ! هذا هو اذن الصنف الذى تقرأ من الكتب ! وهى لا تشبه فى شيء دمية الخياط الخزفية !

يوم حملت اليها الكتاب والكآبة تطفح فى صدرى قالت لى فى صوت واثق :

— أعجبك الكتاب ، أليس كذلك ؟ هل سمعت شيئا عن بوشكين ؟

أجبت نفيا ، فى حين كنت قرأت مقالة عن الشاعر فى احدى المجلات . لكننى أردت ان أسمعها تخبرنى ما تعرف عنه .

روت لى فى اختصار قصة حياة بوشكين وموته ، وختمت كلامها ببسمة ندية مثل بسمة يوم من ايام الربيع :

— أرأيت ما أشد خطر ان تحب أمرأة !

بالنسبة الى جميع الكتب التى قرأت كان ذلك خطراً دون ريب ، ولكنه . . . جيد .

قلت :

– قد يكون خطرا ، لكن الجميـــع يقعون فى الغرام ! والنساء يقاسين منه بدورهن . . .

نظرت الىّ من خلال اهدابها المسبلة ، مثلما تنظر الى كل شىء ، واعلنت فى صوت وقور :

– حقا ؟ أتعرف ما معنى هذا ؟ ان كنت تعرف فانا آمل ألا تنساه !

واخذت تسألنى عن القصائد التى أفضلها عن غيرها .

جعلت أجيب وأنشد القصائد غيبا وانـــا ألوّح بيدى . اصغت الىّ صامتة مفكرة ، وشرعت تراوح وتغادى فى الحجرة وهى تقول فى صوت متفكر :

– كان يجب ان تواظب على المدرسة ، يا قردى الصغير الغالى ! يجب ان افكر فى الأمر . هل تمتّ الى معلميك بصلة قربى ؟

اجبت بالايجاب ، فهتفت وكأنها تنحى علىّ باللائمة :

– أوه !

اعطتنى كتاب «اناشيد بيرانجيه» فى طبعة فاخرة مذهبة الاطراف ، وغلاف جلدى أحمر اللون تزينه الرسوم . جنّ جنونى لهذه القصائد التى هى مزيج غريب من مرارة مؤلمة ومرح أخاذ .

تجمد دمى فى عروقى وانا أقرأ الكلمات المريرة «المتسول الشيخ» :

لمَ لا تسحقونني تحت أقدامكم
مثل حشرة كريهة ، ايها الناس الطيبون ؟
أواه ! أليس لديكم سوى ان تعلمونى
ان أكدح فى سبيل البشرية !
وعندها ، تلجأ الى ملاذ من عواصف الشتاء ،
وتغدو هذه الدودة نملة كدودة .
احببتكم مثل حب الأخ لأخيه ،
اما الآن ، وقد صرت شيخا متشردا ،
فأموت عدوا لكم .

بعد ذلك مباشرة ضحكت حتى بكيت وانـــا أقرأ «الزوج الباكى» .واذكر بصورة خاصة ملحوظة بيرانجيه من أن :

النفس البسيطة لا يصعب عليها
ان تتعلم فنّ الحياة المرح ! . .

اثار بيرانجيه فى جوانب نفسى ضربا من جرأة فاجرة وميل الى الوقاحة ورغبة فى مجابهة الناس بأقوال حادة طائشة . وفى وقت وجيز اصبحت سيّد هذا الفن . حفظت قصائده عن ظهر قلب ، ورددتها على الخدم فى المطابخ بسرور فائق .

ولكننى ما لبثت ان عدلت عن زياراتى القصيرة الى مطابخهم لان الابيات التالية :

أليست اية قبعة تليق
بصبية فى السابعة عشرة ؟ !

اثارت ذات يوم محاورة قذرة عن النساء . احفظتني هذه الاهانة واخرجتني عن طورى ، فاضطررت الى ضرب الجندى يرموخين على رأسه بمقلاة . فأسرع سيدوروف وغيره من الخدم الى انتزاعى من بين يديه الوحشيتين . ولكننى منذ ذلك الحين لم أجرؤ على التعرض لخطر دخول مطابخ الضباط .

كان التنزه محظورا علىّ ، والحقيقة انه لم يكن لدىّ وقت للنزهة . فعملى فى ازدياد مستمر . فعلاوة عما يتحتم علىّ القيام به من اعمال عادية مألوفة هى اعمال خادمة ومنظفة فناء وساعى بين البيت والسوق كان من واجبى ايضا ان أمدّ كل يوم قطعة قماش فوق اطار خشبى كبير ، وأثبتها عليه بمسامير ، وألصق عليها رسومات معلمى ، ثم أنسخ رسوم البناء ، واحسب ما تكلّف من نفقات ، وادقق قوائم المتعهدين . وكان معلمى يشتغل دون كلل من الصباح حتى المساء كالآلة .

فى هذه الفترة من الزمن كانت ابنية المعرض التابعة للبلدية فى طريق تحويلها الى ملك خاص للتجار . وبذلت جهود مكثفة لبناء المحلات التجارية ، ووقع معلمى عقودا لاصلاح الدكاكين القديمة وبناء دكاكين جديدة . وقد رسم مخططات من اجل «تبديل عوارض خشبية وبناء نوافذ صغيرة» ، وما شابه ذلك من أمور . كنت آخذ الرسومات ، مع مغلف فيه قطعة نقدية من فئة الخمسة وعشرين روبلا ، الى مهندس معمارى عجوز يدوّن على الرسومات بعد قبضه المبلغ الكلمات التالية : «تم تدقيق المخططات على الابنية الفعلية ، وجرى تنفيذ العمل بأسره تحت الاشراف الشخصى للموقع

ادناه» . والحقيقة ان شيئا لا يتمّ تدقيقه على الابنية الفعلية . كما انه لم يكن ، هو ، قادرا على الاشراف على عمليات البناء باعتبار ان حاله الصحية ترغمه على البقاء فى منزله بصورة دائمة .

كنت اسلم رشاوى الى المفتش المشرف على السوق وغيره من الموظفين ، واستلم منهم «أذونات لاعمال مختلفة مخالفة للقوانين» كما يسمى معلمى تلك المستندات . ومقابل ذلك يؤذن لى ان انتظر معلميّ فى الباحة فى الامسيات عندما يقومون بزيارة ما . نادرا ما كان هذا العمل يحدث ، واذا حدث فهم يعودون بعد انتصاف الليل ، الامر الذى يتيح لى ان أجلس خلال ساعات متواصلة عند المدخل ، او على كومة من الاخشاب قبالته ، أنظر عبر النوافذ الى الشقة التى تقطنها سيدتى ، واصغى باهتمام الى الانغام الموسيقية والاحاديث المتبادلة المرحة .

النوافذ تكون مفتوحة ، ومن بين الستائر واوراق الازهار ابصر قامات الضباط الممشوقة الذين يروحون ويجيئون فى القاعات ، والماجور السمين يتدحرج وراء سيدتى المرتدية على الدوام ثيابا مدهشة فى بساطتها وجمالها .

وكنت ادعوها بينى وبين نفسى الملكة مارغو .

«هذه هى الحياة المرحة التى تتحدث عنها الكتب الفرنسية» . على هذا النحو كنت أفكر وانا القى نظرى الى النوافذ . كنت أشعر بشىء من الحزن . فان غيرتى الصبيانية تثور متألمة لرؤية الرجال يتهافتون حول الملكة مارغو مثلما تحوّم جماعات النحل حول زهرة .

هنالك ضابط مديد القامة ، مكتئب السحنة ، على جبهته ندبة ، وعيناه عميقتان عميقتان . كان اقل الآخرين زيارة لها . وكان يحمل معه على الدوام كمانه ، ويعزف عليه عزفا ساحرا خلابا يضطر معه المارة الى الوقوف مرهفين اسماعهم ، وأهل شارعنا يحتشدون جالسين على كومة الاخشاب ومعلميي انفسهم يفتحون النوافذ حين يتواجدون فى البيت ويمتدحون العازف ويصغون الى موسيقاه . لا اذكر انهم امتدحوا انسانا آخر غير شماس الكاتدرائية . وكنت اعرف انهم يستلطفون فطائر السمك اكثر من هذه الموسيقى او سواها .

واحيانا كان الضابط يغنى او ينشد اشعارا بصوته الأجش ، فيلهث بصوت عال ويده تضغط على جبهته . وفى احد الايام ، وانا ألعب مع الفتاة الصغيرة تحت النافذة ، توسلت اليه الملكة مارغو ان يغنى ، فرفض فترة من الوقت ، وانتهى به الامر اخيرا الى الاعلان بصوت واضح :

وحدها الانشودة يُعوزها الجمال
اما الجمال فلا تعوزه انشودة

أخذ هذا الشعر بمجامع قلبى ، وبدأت اشعر بعطف على الضابط دون ان اعلم السبب .

اكثر ما كنت أحب هو التطلع الى سيدتى حيث تجلس الى البيانو وحدها فى الغرفة . فالموسيقى تسكرنى فلا أبصر غير النافذة ، ولا أرى بعدها ، تحت ضياء المصباح الاصفر ، الا شبح المرأة منسجما رشيقا ، وهى شامخة الأنف ويداها البيضاوان ترفرفان على المفاتيح مثل العصافير .

كنت انظر اليها واستمع الى النغم الشجى ، واحلم احلاما خيالية : سأكتشف ذات يوم كنزا مدفونا واعطيها اياه بكامله – لتصير غنية ! لو كنت سكوبيليف لأعلنت الحرب من جديد على الاتراك ، فانتصر وأنال مكافأة على الأسرى وابنى لهـا منزلا على ضفة الفولغا ، فى اكثر امكنة المدينة جمالا ، بحيث تنتقل من منزلنا وتبعد عن شارعنا حيث لا يتحدث الناس عنها الا لتلويث سمعتها والحط من كرامتها .

جميع الخدم العاملين فى منزلنا وجميع الجيران – وخاصة معلميى – يحكمون على الملكة مارغو مثلما حكموا على زوجة الخياط بالبذاءة والقذارة ذاتهما ، ولكن فى حذر اشد وصوت اكثر خفوتا كيلا يسمعهم انسان .

لربما هم يخافونها لانها أرملة رجل رفيع المكانة . روى لى الجندى توفياييف مرة (وكان رجلا مثقفا ويقرأ الانجيل على الدوام) ان جميع الوثائق المعلقة على جدارها منحها لاجداد زوجها قياصرة متعددون من بينهم غودونوف والكسى وبطرس الاكبر . بل لعل الناس يحاذرون جانبها ايضا خشية ان تنهال عليهم بسوطها ذى القبضة المزينة بحجر بنفسجى . ويقولون انها لجأت اليه مرة فعاقبت به موظفا خطيرا .

بيد ان العبارات التى تقال همسا لم تكن افضل مـن العبارات التى لا أفهم لها معنى وتؤلمنى اشد الألم . اخبرنا فكتور مرة انه حين كان عائدا ذات ليلة بعد منتصف الليل ألقى نظرة على نافذة غرفة نوم الملكة مارغو ، ورآها جالسة فى قميص النوم على الكنبة والماجور جاث امامها يقلّم أظافر قدميها ويمسحها باسفنجة .

بصقت معلمتى العجوز وشتمت ، فى حين احمرّت الصبية سخطا .

زعقت :

– أواه ، يا فكتور ! ألا تخجل ؟ ما احقر هؤلاء الناس الرائعين !

ابتسم معلمى ولزم الصمت ، كان امتنانى لصمته عميقا ، بيد أنى خشيت ان يساهم هو الآخر فى هذه الحفلة الزاخرة بالسباب والشتائم . كانت النسوة يتأففن ويهتفن أوه وآه ويستوضحن فكتور عن جميع التفاصيل : كيف كانت السيدة جالسة ، وكيف كان الماجور جاثيا . وكان فكتور يزيـــــد تفاصيل جديدة :

– كان وجهه أحمر اللون ولسانه متدليا . . .

لم أرَ فى قيام الماجور بتقليم اظافر السيدة شيئا يندى له الجبين خجلا ، ولكننى لم استطع تصديق قوله انه كان يمد لسانه . بدا لى ذلك كذبا فاضحا ، فقلت لفكتور :

– لو كان هذا كلــــه عارا فلماذا تسترق النظر من النافذة ؟ انت لست ولدا صغيرا . . .

بدهى انهم قذفونى بسيل من السباب ، ولكن الشتائم ما كانت تنال منى . فلم يكن يساورنى غير شىء واحـــد – النزول الى الطابق الأسفل والركوع امام سيدتى كما فعـــل الماجور ، ومن ثم اقول لها :

«انتقلى من هذا البيت – أرجوك ان تنتقلى !»

منذ عرفت ان هنالك وسيلة اخرى للحياة ، واناســا آخرين وافكارا وعواطف اخرى ، اخذ هذا البيت بجميع من

فيه يثير فى اعماق نفسى اشد الكره واعمق الاشمئزاز . كان غارقا فى شبكة من الشائعات القذرة التى لم ينجُ منها انسان . وكان يقال عن كاهن الفرقة ، وهو رجل مريض مسكين ، انه سكير مدمن وفاسق ؛ فى حين ان جميع الضباط وزوجاتهم ، فى رأى معلميى ، يعيشون فى كنف الخطيئة . وشرعت اشمئز من الحديث المضجر الذى يطلقه الجنود حول النساء ، والاكثر من ذلك كله انى كنت أنفر من معلميى . كنت اعرف حق المعرفة القيمة الحقيقة للاحكام القاسية المولعين باصدارها فى حق الآخرين . فالحكم على رذائل الناس هو التسلية الوحيدة المجانية ، ولذلك غدت تسليتهم الوحيدة . وكان تعذيبهم الآخرين عن طريق سلقهم بألسنتهم يثير فى نفوسهم شعورا بالرضى واللذة . وكان يبدو انهم ينتقمون لحياة المعاناة والضجر والكدّ التى يعيشون .

حين يروون اقاصيص بذيئة عن الملكة مارغو يثور كيانى وتهتاج مشاعرى رغم صغر سنى . يتفجر قلبى كرها وحنقا على مثيرى الشائعات ، وتساورنى رغبة ملحة فى شتمهم وايذائهم رغم انى فى اوقات اخرى يأخذنى الاشفاق على نفسى وعلى سائر هؤلاء الناس . غير ان هذا الاشفاق الاصم كان اكثر تعذيبا وايلاما من الكراهية .

انا اعرف عن ملكتى اكثر مما يعرفونه عنها ، وانا اخاف ان يتساووا معى فى الاطلاع امورها .

فى صباحات ايام الآحاد ، حين تمضى الأسرة الى الكاتدرائية لحضور القداس ، كنت انصرف صباحا الى زيارة سيدتى ، فتدعونى الى غرفة نومها حيث اجلس على مقعد وثير يغلفه حرير

ذهبى اللون . وتتسلق الفتاة الصغيرة على ركبتىّ ، فأروح اخبر أمها عن الكتب التى قرأت . وتضطجع ملكتى فى سريرها العريض وخدها على يديها الصغيرتين ، وجسدها يحجبه لحاف ذهبى اللون كسائر ما فى غرفة النوم ، وشعرهـــا الأسود المضفور على شكل جديلة يساقط على كتفيها ويتدلى احيانا عن حافة السرير حتى يصل الى الارض .

كانت وهى تصغى الىّ ترمينى بنظرات رقيقة ، وتقول وظل ابتسامة يطوف بثغرها :

– حقا ؟

كان يخيل الىّ ان ابتسامتها لا تختلف قط عن ابتسامة كيسة لملكة . وكانت تتحدث فى صوت عميق حنون ، اما انا فأشعر انها تردد دائما وابدا الشىء ذاته :

«اعرف انى أفضل وأسمى كثيرا من الآخرين ، كما أنى لست فى حاجة الى اى منهم» .

كنت اجدها احيانا جالسة امام مرآتها على مقعد منخفض ، تسرِّح شعرها الطويل الكثيف كشعر جدتــــى . كان يلامس ركبتيها ويتناثر على متكئى مقعدها ويغطى ظهره حتى يبلــــغ الارض . وكنت اشاهد فى المرآة ثدييها القاسيين الاسمرين . كانت تلبس جوربيها وقميصها فى حضورى ، الا ان عريهـــا الصافى النقى لم يكن يثير فىّ أيـــة شهوة ، بل كنت سعيدا وفخورا بجمالها . كان شذى الازهار يفوح من كيانها ، وهذا الشذى . هو الذى يدفع عنها الافكار الشريرة .

كنت قوى البنية ، حسن الصحة ، اعرف كل المعرفـــة

اسرار العلاقات الجنسية . ولكننى سمعت الناس يتحدثون فى بذاءة وفظاظة وسرور خبيث عن الجنس بحيث لم اكن أقوى على ان اتصوّر هذه المرأة بين ذراعى رجل . كان عسيرا علىّ ان افكر ان هنالك من يحق له ان يلمس هذه المرأة بجرأة وسفاهة ، او ان يكون سيد جسدها . كنت قانعا ان الحب فى المطابخ ومستودعات الحطب شىء مجهول من الملكة مارغو ، وانها تعرف فرحا آخر ، وحبا آخر أسمى وأرفع .

ولكنه فى عصر احد الايام ، وانا ادخل غرفة الجلوس ، جمدت فى مكانى وانا اسمع ضحكتها الرنانة الصاخبة وصوت رجل يدمان من وراء السجف المؤدية الى غرفة النوم . وكان الرجل يترجى :

— لا تعجلى . . . يا للسموات الطيبة ! أكاد لا أصدق .

كان يجب علىّ ان انسحب . شعرت بذلك تماما ، بيد انى فقدتُ القوة على تنفيذه . . .

نادت :

— من هناك ؟ أوه ، هذا انت ؟ أدخل . . .

كان هواء الغرفة خانقا ، مشبعا بشذى الازهار ، والجو قاتما والستائر مسدلة ، والملكة مارغو مستلقية فى السرير واللحاف يغطيها حتى ذقنها . والى جانبها يجلس وظهره الى الجدار الضابط العازف على الكمان فى قميصه ، مكشوف الصدر ، وأثر جرح كبير يمتدّ من كتفه اليمنى الى حلمة صدره ، احمر اللون بحيث يظهر بوضوح حتى فى ذلك الظل . كان شعر الضابط مشعثا بصورة تبعث على الضحك ، وتلك اول مرة أرى فيها على وجهه الكئيب المخطط بالندوب آثار

بسمة . كان يبتسم بشكل غريب ، وعيناه الكبيرتان الرقيقتان مصوبتين الى ملكتي وكأنه يقف في هذه الآونة فقط على جمالها .

قالت الملكة مارغو :

– هذا صديقي .

لم أدر ما اذا كانت كلماتها موجهة اليه ام اليّ .

وجاء صوتها يرن كأنما هو آت من مكان ناء بعيد :

– ماذا أخافك ؟ تعال الى هنا !

لما اقتربت منها لفت ذراعها العارية الدافئة حول عنقي ، وقالت :

– حين تكبر ستتذوق السعادة انت ايضا . اذهب الآن !

وضعت الكتاب على رف وتناولت غيره من بين صف الكتب وخرجت .

تحطّم شيء في قلبي . بدهي انني لم اتصور قط ان ملكتي يمكن ان تحب مثلما تحب بقية النساء ، ولم يخطر لي في بالي مثل هذا الشيء عن هذا الضابط ايضا . ظللت أتمثل ابتسامته . كان يبتسم في سذاجة وصفاء مثل ولد اخذته الدهشة . وتبدلت معالم وجهه الكئيب تبدلا غريبا . لا ريب انه يحبها – وهل في استطاعة المرء ان «لا» يحبها ؟ وكان ثمة سبب وجيه في ان تقدم له حبها ، فهذا الرجل يجيد العزف وينشد القصائد في تأثر وصدق . . .

ولكن اضطراري الى اللجوء الى مثل هذه المبررات المطمئنة يدل على ان موقفي مما رأيت ومن الملكة مارغو لم يكن كله

قويما . شعرت أننى فقدت شيئا . وقضيت بضعة ايام تنتابنى الاحزان العميقة .

. . . ذات يوم تصرفت تصرفا خليعا ، فحين دخلت الى منزل سيدتى سعيا وراء كتاب آخر خاطبتنى فى حدة :

– يبدو انك وحش صغير حرون ! لم يخطر لى انك على هذا الغرار !

كان ذلك اقسى مما احتمل ، فشرعت أروى لها ما عانيت من الحياة وكيف كرهتها وانا اسمع الناس يتحدثون عنها اشياء شريرة . وقفت قبالتى ويدها على كتفى ، وراحت تصغى الىّ اول الامر فى انتباه كلىّ ، وما لبثت ان قهقهت ضاحكة ، ودفعتنى عنها فى لطف :

– كفاك ! اعرف هذا كله . هل تفهم ؟ اعرف كل شىء ، كل شىء !

وامسكتنى بيدى الاثنتين ، وقالت فى صوت رقيق :

– كلما اقللت من الالتفات الى هذه الاقوال السخيفة ازدادت حالتك النفسية تحسنا . انت لا تهتم بنظافة يديك جيدا . . .

كان بمقدورها ان تضرب صفحا عن هذه الملحوظة . لو كانت تنظف النحاس وتمسح الارض وتغسل الخرق والاقمطة لما كانت يداها اكثر نعومة ونظافة من يدى ، فيما يخيّل الىّ .

وقالت فى صوت مغرق فى التفكير :

– ان كان المرء يعرف كيف يحيا يحسده جميع الناس ويكرهونه . وحين لا يعرف كيف يحيا فان الجميع يحتقرونه .

رفعتنى وجذبتنى اليها ، وحدّقت فى عينىّ واستوضحت :

– أتحبنى !

– نعم .

– كثيرا ؟

– نعم .

– لكن – لماذا ؟

– لست أدرى .

– شكرا . انت ولد محبوب ! انا احب ان يحبنى الناس . . .

اطلقت ضحكة قصيرة . وبدا انها تودّ ان تقول شيئا آخر ، ولكنها صعدت تنهيدة ولزمت الصمت دون ان تفلتنى :

– تعال الىّ دائما . تعال حين تتاح لك فرصة . . .

اهتبلتُ سانحة تلك الدعوة ، واستغللت صداقتها كثيرا . بعد الغداء ، حين يستسلم معلموى الى القيلولة ، انزل الدرج سريعا ، فاذا لقيتها فى البيت اجلس معها ساعة او ربما اكثر .

كانت تعلمنى ، وهى تدسُّ بأصابعها الدقيقة الوردية الدبابيس فى شعرها المعطر :

– يجب ان تطالع كتبا روسية . يجب ان تطلّع على دقائق الحياة الروسية الصميمية .

ثم تعدد لى اسماء الكتاب الروسيين ، وتسألنى :

– هل تتذكرهم ؟

وما اكثر ما كانت تشرح لى فى شىء من أسى واكتئاب :

– يا إلهى ! كان ينبغى ان تتهالك على الدراسة . ولكننى كثيرة النسيان !

اذا انتهت الزيارة أصعد من جديد وفى يدى كتاب جديد، وكأن قلبى طهر من الأدران .

كنت قد قرأت كتاب «الحياة العائليـــــة» مـــن تأليف أكساكوف ، والقصيدة الروسيـــة الجميلـــة «فى الغابات» ، و«مذكرات صياد» المذهلة ، وبعض مجلدات من كتب غريبنكا وسولوغوب وقصائد فينيفيتينوف واودويفسكى وتيوتشيف . هذه الكتب غسلت نفسى وازالت عنها ما علق بها من اقذار الحقيقة المريرة المؤلمة . ادركت الآن قيمة الكتب العظيمة ، وادركت ايضا مدى ضرورتها لى وعدم استغنائى عنها . فقد اثارت الكتب فى نفسى شيئا فشيئا ثقة لا تتزعزع وهى انى لم أعد وحيدا فى هذا العالم ، وانى سأشقُّ لنفسى دربا فى الحياة !

جاءت جدتى لزيارتى ، فحدثتها فى اندفاع وحماسة عـــن الملكة مارغو ، فنشقت قليلا من النشوق ، وقالت فى ثقة :

– هذا يفرح القلب ! الاخيار كثيرون على هذه الارض ، والمهم ان تبحث عنهم ، ولسوف تجدهم من دون ريب !

اقترحت علىّ ذات يوم :

– لربما وجب علىّ ان اذهب اليها فاقدم لها شكرى على ما تبديه نحوك من لطف ؟

– كلا ، لا تذهبى .

– حسنا ، لن اذهب . . . يا إلهى ، يا إلهى ، ما أحسن

ان يتم كل شيء على ما يرام ! افيض سرورا لو اننى أحيا الى ابد الآبدين !

لم يسنح الوقت للملكة مارغو كى تنصرف الى ادخالى مدرسة ، ففى ايام عيد الثالوث المقدس حدث حادث مكدر كاد يودى بى الى الهلاك .

قبل حلول هذا العيد بوقت قصير أصيب جفناى بتورّم شديد أطبق عينى اطباقا تاما ، وخشى معلموى ان افقد البصر . وكنت خائفا بدورى . اخذونى الى طبيب من معارفهم يدعى هنريخ رودزيفيتش . كان من اطباء الامراض النسائية . شق باطن جفنى ، وتحتم علىّ الاستلقاء فى البيت اياما عديدة معصوب العينين ، اعانى مرارة سوداء مرهقة . وقبل يوم العيد نزع الضماد عن عينىّ ، ونهضت من الفراش كمن ينهض من قبر دُفن فيه حيا . ليس ثمة ما هو ادهى واشد سآمة من فقدان البصر . انه أسى لا يوصف ، وفراق عن العالم يكاد ان يكون تاما .

فى يوم الثالوث البهيج ، وقد تحررت منذ الظهيرة من جميع واجباتى بسبب من مرضى ، جعلت انتقل من مطهى الى مطهى اقوم بزيارة الخدم . كان الجميع سكارى فيما عدا توفيايف الصامت . وعند العشية ضرب يرموخين سيدوروف على رأسه بجذمور من الخشب فتهاوى هذا الاخير فاقد الوعى على ارض الرواق ، وهرب يرموخين وقد تملكه الرعب للاختباء فى الوادى .

انتشرت بسرعة فى الساحة اشاعات تقول ان سيدوروف لاقى حتفه مقتولا . فتجمهر حشد صغير من الناس عند درجات

المدخل يحدقون فى الجندى المستلقى دون حراك بين المطهى والرواق . وتهامس الناس انه ينبغى استدعاء الشرطة ، لكن أحدا لم يفعل ذلك ، كما ان احدا لم يجرؤ على لمس الجندى .

جاءت الغسالة ناتاليا كوزلوفسكايا مرتدية عباءة جديدة ارجوانية اللون وقد لفت كتفيها بشال ابيض . دفعت الناس جانبا فى غضب ، وخطت الى المدخـــل ، وتقرفصت الى جانب الجسد .

صرخت فى صوت عال :

– انه حىّ ، ايها الحمقى ! جيئونى بقليل من الماء !

فحذروها قائلين :

– لا تدسّى انفك فى شؤون الناس الآخرين !

فصاحت كمن يشارك فى اطفاء حريق :

– قلت ماء !

وشدت عباءتها الجديدة فوق ركبتيها ، وهزت تنورتها ، ووضعت رأس الجندى النازف فى حجرها .

وتفرق المشاهدون الرعاديـــد المستهجنون . وكان فى مقدورى ان أرى ، على ضوء الرواق نصف العاتم ، عينـــى الغسالة الطافحتين دموعا فى وجهها الابيض المدوّر . حملت اليها سطلا من الماء . فأمرتنى ان أسفحه على رأس سيدوروف وصدره .

وحذرتنى بقولها :

– لكن ، حذار ان تبللنى – فانا سأقوم بزيارة .

استردّ الجندى وعيه ، وفتح عينيه المزججتين ، وارسل أنينا .

قالت ناتاليا ، وهى تضع يديها تحت ابطيه وتسنده على مدى ذراع بحيث لا يتبلل ثوبها :

– إرفعوه !

حملناه الى المطهى واضجعناه على السرير . مسحت له وجهه بقطعة قماش مبللة وخرجت وهى تقول :

– استمر فى تبليل القماش ووضعه على رأسه ريثما انطلق وأعثر على ذلك المغفل . يا للشيطانين الأحمقين ، لسوف يشربان ويشربان الى ان يستضيفهما السجن يوما .

خلعت تنورتها الملطخة ورفستها فى الزاوية ، وملست فى عناية ثوبها الجديد الأجعد ، وخرجت .

مدد سيدوروف نفسه وهو يحزق ويئنّ ، فى حين ظل الدم الاسود يتدفق من رأسه على قدمىّ العاريتين . لم يرقنى ذلك ، لكن الرعب منعنى عن تحريك قدمىّ .

كان استيائى مريرا . فكل شىء فى الخارج ينمّ عن العيد ، الشرفات والبوابات مزينة باغصان شجر بتولا صغيرة ، واغصان من شجر القيقب والسمّن ربطت بكل عمود ، واخضر الشارع كله مما يثير فى النفس سرورا وفرحا . وكل شىء جديد وفتىّ . فى بكور الصباح خيل الىّ ان عيد الربيع أطلّ وسيبقى ، وان الحياة بعده ستغدو اكثر نقاء ولمعانا وبهجة .

جاء الجندى فملأ المطهى برائحة نتنة لفودكا حارة وبصل . وبين زمن وآخر جعلت وجوه غير واضحة المعالم مسطحة بأنوفها المهروسة تنضغط على زجاج النافذة ، وراحات اليدين عن جانبيها تشبه آذانا بشعة .

راح الجندى يتمتم ، وهو يسترد صفاء ذهنه :

– كيف هذا ؟ هــل وقعت ؟ يرموخين ؟ يا لذلـــك الصديق !

سعل وبكى عبرات سكرى ، وناح :

– يا أختاه الصغيرة ، يا اختاه الصغيرة المسكينة !

جمع نفسه ونهض على قدميه ، مبللا قذرا نتن الرائحة ، وترنح ، وارتمى متثاقلا على السرير مرة اخرى ، وقال وهو يدير عينيه مرعوبا :

– لقد قتلتنى تماما !

اثارت هذه الكلمات سخريتى ، فضحكت .

استفسر الجندى ، وهو يحملق فىّ فى لامبالاة :

– ماذا يضحكــك ، ايها الشيطان ؟ كيف تجرؤ عــلى الضحك – وانا مقتول على هذا الشكل – هكذا وكأن الامــر مقضى ؟ . .

وشرع يدفعنى بيديه الاثنتين ، وهو يغمغم :

– إيليا النبى بين نشر وطىّ ؛ عند الحاجة تقع اللجاجة ؛ ابعد عن دربى ، ايها الشيطان !

قلت :

– كفّ عن هرائك !

زمجر فى غضب ، وقد حرك قدميه :

– انا مقتول ، وانت . . .

ضربنى على عينىّ بيده الثقيلة الرخوة القذرة . اطلقت صرخة واندفعت كالأعمى الى الساحة حيث التقيت ناتاليا تجر يرموخين من ذراعه ، وهى تصيح :

– إمش معى ، ايها الحصان !

واعقبت ، حين وقع بصرها عليّ :
– ماذا جرى ؟
– انه يقاتل . . .
كررت ناتاليا فى انشداه :
– يقاتل ؟
دفعت يرموخين ، وخاطبته قائلة :
– حسنا ، فلتشكرنّ الرب هذه المرة !

غسلت عينى بماء بارد ورجعت ادراجى ألقى نظرة عبر الباب الى المطهى ، حيث شاهدت الجنديين يبكيان ويتعانقان فى مودة جياشة . وحاولا من بعد عناق ناتاليـــا التى دفعت ايديهما عنها وصاحت :

– ابعدا مخالبكمـــا عنـــى ، ايهـا الخسيسان ! ماذا تحسبانني ، احدى الشعثاوات من صاحباتكما ؟ اضطجعا الآن واغنما فترة من النوم قبل ان يعود اسيادكمـــا الى الدار – انتعشا الآونة والا وقعتما فى متاعب !

ارغمتهما على الاستلقاء مثل طفلين صغيرين – احدهما على سرير نقال والآخر على الارض . وحين راحا يشخران دلفت هى الى الرواق .

– انظروا فحسب الى ردائى – تغضن كله ، وانا التى خرجت بزيارة ! هل ضربك ؟ . . يا للاحمق الغبى ! هذه هى الفودكـــا التى تشربون ! لا تشرب ، يا صغيرى . حذار ان تتملكك هذه العادة . . .

جلست الى جانبها على الدكة قريبا من البوابة ، وسألتها كيف لا ينتابها الذعر من السكارى .

– وانا لا أخشى الذين لا يسكرون ايضا .

اردفت ، وهى ترينى قبضتها الحمراء المنقبضة :

– هكذا انا اصدهم ! ذلك الذى كان زوجا لى ، وقد مات الآن ، اعتاد ان يشرب حتى يخضر لونه . كنت اربطه ، يدين وقدمين ، وحين يستيقظ انزع عنه سرواله واضربه بعدد من القضبان القوية الطيبة . «كف عن معاقرة الخمرة ، وحذار ان تدمنها ! اذا حصلت على زوجة فاليها ينبغى ان تنصرف لإمتاع نفسك وليس الى الخمرة !» هكذا هى الامور ! واظل اضربه حتى ينهكنى الضنى ، وبعدها يغدو بين يدىّ مثل العجينة الطرية !

قلت ، وانا اذكر حواء التى خدعت الله نفسه :

– انت قوية .

اجابت ناتاليا ، وهى تتنهد :

– المرأة تحتاج الى القوة اكثر من الرجل . تحتاج الى قوة عنها وعنه ، والله يخدعهـــــا فى هذا الخصوص . ولا تستطيعن الاعتماد على رجل .

كانت تتحدث فى هدوء ودونما شىء من خبث ، وقد جلست هنالك وذراعاها مطويتان على صدرها العبل ، وظهرها مستند الى السور ، وعيناها مثبتتان فى أسى على السد الموحل . نسيت كل شىء عن الوقت وانا اصغى الى ملحوظاتها الحكيمة . وعلى حين فجأة لمحتُ معلمى وقد شبكت زوجته يدها فى يده قادمين من طرف السد النائى . كانا يخطوان متماهلين وفى شىء من العنجهية ، مثل ديك ودجاجة ، يحدقان فينا ويتبادلان الحديث .

ركضت افتح الباب الامامى . وبينا نحن نرقى فى السلم قالت معلمتى فى سخرية لاذعة .

— وهكذا وانت تغازل الغسالة ، أليس كذلك ؟ أهذا ما تعلمت من السيدة فى الأسفل ؟

كانت الملحوظة اغبى من ان تثير غضبى . جرحنى بمرارة اكثر صوت معلمى الذى اضاف ، وهو يطلق ضحكة قصيرة :

— حسنا ، لقد حان الوقت ، أليس كذلك ؟

فى اليوم التالى ، حين نزلت صباحا الى المستودع لاحضار الحطب ، عثرت على محفظة نقود فارغة الى جانب الثغرة التى تتسلك منها القطة فى الجدار . كنت قد رأيتها عشرات المرات بين يدى الجندى سيدوروف ، فعدت بها اليه على الفور .

سألنى ، وهو يبحث فيها باصبعه :

— واين المال ؟ روبل وثلاثون كوبيكا . هاتها !

كان يلف رأسه بمنشفة ، وجهه اصفر نحيل ، يطرف بعينيه المنتفختين فى وجهى ، رافضا ان يصدق انى وجدت المحفظة فارغة .

فى تلك اللحظة بدا يرموخين ، وجعل يحاول اقناعه انى اللص .

قال ، وهو يدل علىّ برأسه :

— هو سرق المال ! خذه الى معلميه . فالجندى لا يسرق اخاه الجندى !

جعلتنى هذه العبارات أوقن انه هو الذى سرق المال ، وانه ألقى المحفظة فى مستودع الحطب . صحت به ، وانا احدق فى وجهه :

– هذا كذب . انت هو اللص !

قنعت نهائيا ان ظنونى فى محلها ، فقد ارتسمت على وجهه الغليظ امائر الغضب والرعب فورا ، اخذ يصرخ فى صوت ثاقب :

– هات برهانك !

كيف آتيه ببرهان ؟ وجرنى يرموخين خارج المطهى وهو يصيح لاعنا . ولحق بنا سيدوروف وهو الآخر يصيح شاتما ، وظهر فى النوافذ الناس من سكان البيت وفى عدادهم ام الملكة مارغو ، وهى تدخن فى دعة وسكون . وادركت اننى فقدت منزلتى فى عينى سيدتى . وجن جنونى .

لا ابرح اتمثل ان الجنديين قبضا علىّ من ذراعى وجرانى امام معلمّى الذين جعلوا يومئون برؤوسهم وهم يسمعون الاتهام ضدى .

قالت معلمتى الصبية فى نبرة اقناع :

– لا شك انها فِعلتُه ! رأيته يتحبب الى الغسالة الليلة الماضية . ولا شك انه كان غنيا بالمال – فهو لا يجنى منها شيئا دون مال . . .

وهتف يرموخين :

– هذا صحيح !

ترنح رأسى ، وغمرتنى نوبة غضب جنونيـــة ، فأخذت اشتم معلمتى ، ونلت قسطا وافر قاسيا من الضرب .

بيد ان التفكير فيما يمكن ان تذهب اليه الملكة مارغو بشأنى كان اشد على واقسى من الضرب كله . كيف استطيع

ان أبرىء نفسى فى نظرها ؟ كنت شديد البؤس والتعاسة آنئذ .

من حسن حظى ان الجنديين اشاعا هذه الحادثة حالا فى ارجاء الشارع بأسره . وما ان حل المساء وانا متمدد فى غرفة العلية حتى تناهى الى مسمعى من الأسفل صوت الغسالة ناتاليا كوزلوفسكايا :

– فيم احتفظ بفمى مغلقا ؟ تعال الى هنا ، يا رجلى الطيب ، تعال الى هنا ، والا ذهبت وقابلت رئيسك فيرغمك على المجىء . . .

فهمت على الفور ان اللغط يمت الىّ بصلة . كانت الغسالة واقفة تصرخ قرب مدخل بيتنا ، وقد ازداد صوتها رنة وانتصارا :

– كم أريتنى البارحة من مال ؟ ومن أين حصلت عليه ؟ ايه ؟ قل ذلك .

وفى غمرة غبطتى ونشوتى سمعت سيدوروف يقول بكآبة :

– أوه ، يرموخين ، يرموخين . . .

– والولد اتهم وضرب !

تمنيت ان انزل الى الباحة بسرعة ، وارقص طربا ، واقبّل يد الغسالة . ولكن المعلمة صاحت فى الوقت ذاته ، ولعلها كانت تطل من النافذة :

– ضرب الولد لوقاحته . وانت الوحيدة التى خطر لك انه سرق المال ، ايتها السافلة !

– سافلة أنت ! يا سيدتى ، وانت بقرة سمينــــة اذا سمحت لى ان اقول ذلك .

كان شجارهما مثل نغم موسيقى فى اذنــــى . وتدفقت فى قلبى دموع الألم وعرفان الجميل لناتاليا ، ورزحت تحت عبء كبت هذه الدموع .

صعد معلمى الى العلية فى بطء ، وقعد الى جانبى عـــلى عارضة خشبية ، وقال لى وهو يملس شعره :

– يبدو انك قليل الحظ ، يا بشكوف .

استدرت عنه دون ان أجيب .

اردف قائلا :

– ولكن ، ليس هنالك من ينكر انك تشتم الناس شتما مقذعا .

فابديت له فى صوت خافت :

– حين اصبح قادرا على النهوض سأرحل عنكم . . .

جلس يدخن دون ان ينبس ببنت شفة فترة من الوقت . وقال بصوت خفيض ، وهو يرنو الى عقب لفافته :

– حسنا . هذا شأنك ! فلم تعـــد ولدا صغيرا . انت تعرف ما هو افضل بالنسبة اليك .

نهض وهبط السلم . شعرت نحوه بمحبة وعطف مثلما أشعره دائما .

بعد اربعة ايام فارقت عملى . رغبت يائسا فى المضى الى الملكة مارغو اودعها ، لكن الشجاعـــة خانتنى للذهاب الى رؤيتها . والحقيقة انى انتظرت ان تدعونى اليها .

عند استئذانى الفتاة الصغيرة اوصيتها قائلا :

– اخبرى امك انى اشكرها جزيل الشكر . جزيل الشكر . ألا تنسين ؟

وعدتنى بابتسامة رقيقة عذبة :

– كلا . الوداع الى الغد !

بعد عشرين عاما رأيتها من جديد . كانت قد غدت زوجا لاحد ضباط الدرك .

١١

مرة اخرى غدوت غسالا للصحون على سطح «البيرم» هذه المرة ، وهو مركب بخارى فسيح ، عظيم السرعة ، يضاهى البجعة بياضا . هذه المرة عملت غسالا فى المطبخ ، أو كنت «صبى المطبخ» كما يقولون ، أتقاضى سبعة روبلات فى الشهر . وكانت مهمتى أن أساعد الطاهى .

كان خادم المقصف شخصاً سمينا يتمايد غطرسة ، أصلع الرأس مثل طابة من مطاط . كان يشبك يديه وراء ظهره ، رائحا غاديا على سطح المركب النهار بطوله مثل خنزير يبحث فى نهار قائظ عن بقعة من فىء . وكانت زوجته تشرف على المقصف ، وهي امرأة تخطت الأربعين ، فى سيماها بقايا فتنة ماضية مرّأها الاستعمال . وكانت تستخدم مقدارا كبيرا من الذرور يتناثر عن خديها مغطيا ثوبها المزخرف الألوان بطبقة سميكة من الغبار الأبيض .

وكان المطهى خاضعا لرئاسة الطاهى إيفان إيفانوفيتش ،

الملقب «بالدب الصغير» ، وهو رجل قصير القامة ، مترهل الأعضاء ، أقنى الأنف ، ساخر العينين ، متأنق الثياب ، يرتدى على الدوام ياقات منشاة ويحلق ذقنه يومياً مما أكسب خديه صبغة مزرقة . وكان يحمل شاربين أسودين ملفوفين إلى العالي ، يروح يفتلهما فى أوقات فراغه بأصابع حمراء ، ناظرا إليهما فى فخار فى مرآة يد صغيرة .

أبعث الأشخاص على الاهتمام فى المركب هو الوقاد ياكوف شوموف ، وهو رجل قوي البنية ، عريض المنكبين ، محياه الأفطس الأنف عريض مثل المجرفة ، وعيناه الفظتان تنظران من تحت حاجبين كثين ، وخداه مغموران بلحية مجعدة أشبه بطحلب المستنقعات . وشعر رأسه بحلقات سميكة حتى ليصعب عليه أن يدفع فيها أصابعه الملتوية .

كان مقامرا ناجحا وأكولا مدهشا . يدور حوالى المطهى مثل كلب ساغب يتوسّل من أجل قطعة من اللحم أو قدر من العظام . فإذا حلّ المساء جلس يشرب الشاي مع «الدب الصغير» ويروي عن نفسه أخبارا عجيبة .

فى طفولته ساعد راعي المدينة فى ريازان حتى اجتذبه راهب عابر إلى أحد الأديرة حيث قضى أربع سنوات كمبتدىء . وكان يقول بطريقته الهازلة :

– وكنت لا أبرحُ راهبا كوكبا أسود من كواكب الله ، لولا امرأة تقية من بنزا جاءت إلى ديرنا ذات يوم . كانت صغيرة رائعة الحسن فأدارت رأسي تماما . قالت : «أواه ، يا لك من فتى جميل . أوه ، ويا لك من فتى قوى . وهذى

أنا ، أرملة شريفة ، ووحيدة أيضا» . وقالت : «أفلا تريد أن تعمل عندى كمدبِّر لشؤون البيت ؟ إن بيتى ملكى ، وأنا أشتغل بتجارة ريش الدجاج وما شابه» . ولم أعترض ، بحيث أخذتنى مدبرا لشؤون بيتها ، وأخذتها خليلة لى ، وقضيت حياة لطيفة طوال ثلاث سنوات . . .

فقاطعه «الدب الصغير» ، وهو يتفحَّص فى قلق بثرة فى أنفه :

– أنت كذاب جرىء . لو كان الناس يكسبون مالا عن طريق الكذب ، فقد كنت تصير غنيا إذن .

ويمضغ ياكوف بفكيه ، فتتحرك الحلقات الشائبة على خديه فى صمود وهبوط ، وتتراقص أذناه الفرويتان . وإذا سكت الطاهي فهو يتابع حديثه بأسلوبه الهادئ السريع :

– كانت تكبرنى سنا ، فأصابنى الضجر ، ومللتها . لقد مللتها وأقمت علاقات مع ابنة أخيها . وبلغها ذلك ، فأمسكت بى من جلد رقبتى ورمتنى خارجا . . .

فقال الطاهى بذات أسلوب ياكوف السلس :

– دفعتْ لك أجرك بطريقة مناسبة .

فألقى الوقاد قطعة سكَّر فى فمه ، واستطرد يقول :

– وهكذا رحت أهيم على وجهى فترة من زمن إلى أن التقيت تاجرا عجوزا من فلاديمير ، فرحت وإياه نجوب آفاق نصف العالم . . . ذهبنا إلى الجبال المدعوة البلقان ، وإلى الأتراك والرومانيين واليونان ، وإلى النمساويين المتنوعين . . . إلى مختلف أنواع الناس . . . نشترى من شخص ونبيع إلى شخص آخر . . .

فاستفسر الطاهي في جدٍّ ورزانة :

– هل سرقتما ؟

– لم يسرق الرجل العجوز اطلاقا . . . وقال لي : «سرْ بأمانة على الأجنبية ، فمن المتعارف عليه هناك أن يقطعوا رأس المرء لأتفه سرقة» . أوه ! حاولت أن أسرق طبعا ، لكنني لم أنجح . جرِّبت أن أقود حصانا ، خارج إسطبل أحد التجار . حسنا ، لكنني لم أعرف كيف أتدبر أمري . فقبضوا عليَّ . وراحوا يضربونني من دون ريب ، وحين شبعوا من ضربي جروني إلى مركز الشرطة . وكان هناك اثنان منا – الواحد سارق أحصنة محترف حقيقي ، وأنا الذي كان الفضول يدفعني إلى السرقة . ولقد كنت أشتغل لحساب ذلك التاجر في ذلك الحين – كنت أجهز حمامه الجديد بموقد . ومرض التاجر ، وصار يراني في أحلامه السيئة . وذعر ، فذهب إلى أصحاب النفوذ وقال لهم : «أطلقوا سراحه – يعني أنا – أطلقوا سراحه . فحسب رؤيتي له في أحلامي لا بدّ أن أموت إذا لم أصفح عنه . مؤكد أنه ساحر» – يعني أن الساحر هو أنا . حسنا ، كان التاجر رجلا شهيرا . وهكذا أطلقوا سراحي .

– ما كان ينبغي أن يطلقوا سراحك . كان ينبغي أن يعلِّقوا حول عنقك حجرا ويغرقوك في النهر طوال ثلاثة أيام حتى ينتزعوا كل ما فيك من حماقة .

فالتقط ياكوف الفكرة سراعا ، وقال :

– أنت على حقٍّ بشأن الحماقة الكبيرة التي في نفسي – وإذا أردت الحقيقة ، فإن فيَّ من الحماقة ما يكفي لتوزيعه على قرية كاملة .

فوضع الطاهى إصبعه تحت ياقته وجعل يشدُّ عليها بغضب ، وهو يهز رأسه ويقول متضجرا :

– تفوا مثل هذا المجرم يتجوَّل فى الأرض وهو يسكر ويأكل وينام ، فلماذا ؟ أخبرنى . . . لماذا أنت تعيش ؟

فمضغ الوقاد مطقطقا بشفتيه ، وأجاب :

– هذا ما لا أعرفه . أنا أعيش بالضبط مثل باقى الناس . البعض ينامون ، وآخرون يتجولون ، الكتبة يجلسون على مؤخراتهم طوال النهار ، لكنْ لا بدّ لكل امرئ أن يأكل .

فلم يفعل كلامه سوى مضاعفة ضجر الطاهي :

– إن حماقتك لأعظم من أن يعبرٍّ عنها بالكلام . أنت لا تصلح أن تكون أكثر من طعام للخنازير ، وهذا كل شىء . . .

فاستفهم ياكوف فى دهشة :

– ما الذى يثير جنونك على هذا الغرار ؟ نحن الرجال جميعا ثمار ذات الشجرة الواحدة . لا تجنّ ، فذلك لن يجعلنى أفضل فى حال من الأحوال .

ما أسرع أن تعلّقت بهذا الرجل . كنت أحملق فيه بإعجاب مستمر وأصغي إليه بفم مغفور ، يتراءى لى أنه شيّد داخل نفسه بنيانا راسخا من تجربة الحياة . إنه يخاطب سائر الناس دون شكليات ، وينظر إلى الجميع من تحت حاجبين منفوشين بنفس الصراحة ، ويضع الجميع – القبطان وخادم المقصف والركاب الهمامون فى الدرجة الأولى – فى ذات المستوى مع الملاحين ، والنادلين فى غرفة الطعام ، وركاب الدرجة الثالثة ، وهو نفسه .

وكان يقف فى الأحايين أمام القبطان أو المهندس الأول وذراعاه الطويلتان الشبيهتان بأذرع القرود خلف ظهره ، يصغي فى سكون إلى توبيخاتهما له بسبب كسله أو غشه المقصود فى لعب الورق . وكان من الواضح أن التوبيخ لا يؤثر فيه مطلقا ، وأن التهديد بطرده من المركب في المرفأ التالي لا يخيفه البتة .

كان فى ياكوف شيء غريب ، مثله فى ذلك مثل «هذا رائع» . والظاهر أنه كان مقتنعا ، هو الآخر ، بأنه شخص من طينة مختلفة لا يستطيع الآخرون أن يفهموه .

لم أر هذا الرجل قط مفكرا أو متجهما ، ولا أذكر أن لسانه كان يهدأ فى فمه على الإطلاق . كانت الكلمات تتدفق من فمه فى تيار متصل ، رغما عن إرادته على ما يبدو . وحين يعنف أو تروى له قصة مثيرة تتحرك شفتاه وكأنه يردد فى نفسه ما سمعت أذناه ، أو لعلّه كان يجسد بهدوء أفكاره الخاصة . وكان يخرج من العنبر كل يوم ، حين ينتهى عمله ، متصببا عرقا ملطخا بالزيت ، حافى القدمين ، مفتوح القميص الرطب عديم الحزام ليعرض على الأنظار صدرا غمره شعر مجعد . وعندئذ كنا نسمع صوته العميق الرتيب يبعثر الكلمات على السطح مثل قطرات من المطر .

— تحياتى ، يا أم . أين تذهبين ؟ إلى شيستوبول ؟ أعرف هذا المكان ، فقد اشتغلت عند مزارع تترى غنى هناك اسمه يوزان غوبايدولين . وقد كان للشيخ ثلاث زوجات : كان رجلا قاسيا ، أحمر الوجه . وكانت إحدى زوجاته الشابات امرأة تترية فاتنة — وقد عشت فى الخطيئة معها .

كان في كل مكان ، وعاش فى الخطيئة مع سائر النساء اللائى التقى بهن فى حياته . كان يروى هذه الأشياء جميعا بطريقة هادئة لطيفة ، وكأن إنساناً لم يهنه أو يسيء معاملته قط . ولا تمضي دقيقة واحدة حتى يتردد حديثه فى مكان ما فى مؤخرة المركب .

— أثمة من يريد أن يلعب بالورق ؟ أية لعبة تشاؤون ؟ إن الورق شيء مريح . ما عليك غير ان تجلس وتجرّ النقود مثل التجار .

لحظت أنه نادرا ما يستخدم كلمات «جيد» أو «ردىء» أو «شرير» ، بل يكاد يدعو الاشياء على الدوام «فاتنة» أو «مريحة» أو «عجيبة» . كانت المرأة الجميلة بالنسبة إليه «شيئاً صغيرا فاتنا» ، والنهار المشمس الرائع «يوما مريحا» . وكانت عبارته المفضلة هى التالية : «أبصق عليه» .

كان الجميع يعتبرونه كسولا ، لكنه يلوح لى أنه يشتغل قرب المواقد هناك ، فى ذلك العنبر القذر الخانق ، بوجدان لا يقل عن وجدان أى شخص آخر ، بالرغم من أنى لم أسمعه قط يشكو الاعياء مثلما يفعل غيره من الوقادين .

وذات يوم سرق كيسا للنقود من امرأة عجوز من بين الركاب . كانت الأمسية صافية هادئة ، ومزاج الجميع على خير ما يرام . وأعطى القبطان المرأة خمسة روبلات ، وجمع لها الركاب مبلغا آخر من المال . وحين قدموا لها هذا المال رسمت على صدرها إشارة الصليب وانحنت للركاب حتى خصرها ، وهى تقول :

– آه ، يا أعزائى ! لقد أعطيتمونى ثلاثة روبلات وعشرة كوبيكات زيادة عما كان فى كيسى .

فصاح أحدهم فى مرح :

– خذيها ، يا جدة ، وكونى شاكرة . إن زيادة ثلاثة روبلات هى شىء قريب التناول دائما .

وقدم شخص آخر هذه الملحوظة المأثورة :

– ليس المال كالناس ، فهو لا يكون قط غير مرغوب فيه .

بيد أن ياكوف قصد المرأة العجوز باقتراحه العملى قال :

– أعطينى المال الاضافى . سألعب به الورق !

ضحك الحاضرون ، حاسبين أن الوقاد يمزح . لكنه أصر على قوله جادا :

– هيا ، يا جدة . ماذا تبغين من المال ؟ لسوف تزحفين إلى قبرك فى الغداة . . .

صرخوا فى وجهه منتهرين ، وطردوه بعيداً . قال لى متسائلا فى انشداه ، وهو يهز رأسه :

– يا لهم عصابة غريبة ! ماذا يريدون من حشر أنوفهم فى أمور الآخرين ؟ هى نفسها قالت إنها لا تحتاج المال الزائد ، وثلاثة روبلات تحمل إلىّ راحة عظيمة . . .

كان يبدو انه يسر من مجرد رؤية المال . كان يصقل ، أثناء حديثه ، قطعة فضية أو نحاسية على بنطاله ثم يرفعها أمام أنفه الأفطس يعاين بريقها ويحرك حاجبيه . لكنه لم يكن جشعا .

دعانى ذات يوم لنلعب الورق ، الامر الذى كنت أجهله .

قال مشدوها :

– لا تعرف كيف تلعب ! كيف ذلـــك ؟ وأنت تعرف القراءة ! يجب أن أعلمك . هيا ، سوف نلعب لمجرد التسلية ، ونراهن على السكّر . . .

ربح منى نصف أوقية من قطع السكّر التى دفعها فى فمه قطعة إثر قطعة . وحين شعر أنى أصبحت أفهم اللعب خاطبنى قائلا :

– لنلعب الآن بصورة جدية – مقابل المال . ألديك شيء منه ؟

– خمسة روبلات .

– وأنا املك ما يزيد قليلا عن روبلين اثنين .

طبيعى أنه ربح كل شيء منى . وحين رغبت أن أعوّض خسارتى رهنت معطفـــى الخفيف مقابل خمســـة روبلات وخسرتها . ورهنت حذائى الجديد مقابل ثلاثـــة روبلات – وخسرتها أيضا . عندئذ خاطبنى ياكوف ثائرا ، بل غاضبـــا تقريبا :

– أنت لست مقامرا . . . أنت شديد التهوُّر . استرجع معطفك وحذاءك ، فأنا لا أريدهما . خذهما . وخـــذ نقودك أيضا – اربعة روبلات – أما الخامس فهو أجرى على الدرس الذى لقنتك إياه ، إذا لم يكن لديك مانع .

وكنتُ شاكرا له .

قال ، ردا على امتنانى :

– أبصق عليـــه ! اللعب هو اللعب ، يعنى لمجرد التسلية . لكنك تقدم عليه فكأنه قتال . ولا حاجة بك إلى

التهوّر حتى فى القتال . أقدم على ذلك ببرودة . ما الذى يحملك على التهوّر ؟ أنت صغير بعد ، وعليك أن تكون واثقا من نفسك . إخسر مرة ، إخسر خمس مرات ، إخسر سبع مرات . . . أبصق عليه ! تراجع قليلا ، إملك زمام نفسك ، وعد إلى اللعب من جديد . هكذا يجب أن تلعب !

ظللت أحبه أكثر . . . وأقلّ . وفى الاحايين يروح يذكرنى بجدتى حين يتحدث . كان فيه شىء كثير يجتذبنى اليه ، لكن تلك القشرة السميكة من اللامبالاة حيال الناس كانت تنفّرنى ، وهى قشرة سيتميز بها فى حياته كلها على ما يبدو .

وذات يوم ، عند الغروب ، سكر تاجر سمين من مدينة بيرم ، وكان يسافر فى الدرجة الثانية ، وسقط إلى الماء من فوق حافة المركب . فسبح فى الماء الأحمر الذهبى خلف المركب ، وهو يلوّح بذراعيه بصورة مجنونة . أوقفت الآلات فورا وتوقف المركب عن السير ؛ بينا دواليب المركب تلقى إلى الاعالى أمواجا من الزبد حمراء بلون الدم فى ضوء الشمس الغاربة . وكان جسد أسود يناضل فى هذا الدم الفائر ، وقد ابتعد الآونة عن مؤخرة المركب ، بينا صراخ يمزّق نياط القلب يرتفع من الماء . وكان الركاب يصيحون أيضا ، ويتدافعون ، ويتجمهرون عند مؤخرة المركب . وراح صديق الغريق ، وهو رجل أصلع أحمر البشرة ، سكران هو الآخر ، يشقّ طريقه فى الزحام بقبضتيه مزمجرا :

– أفسحوا الطريق ! سوف أصل إليه !

كان بحاران قد غطسا فى الماء أثناء ذلك وجعلا يسبحان

نحو الغريق ، وأُنزل إلى النهر قارب للنجاة . وكان صوت ياكوف الأجشّ الهادئ يُسمع فوق صراخ البحارة وزعيق النساء :

– سوف يغرق على اية حال لانه يرتدى معطفا . المرء يغرق حتما حين يكون مرتديا ثيابا طويلة . خذوا النساء مثلا . . . لماذا يغرقن دائماً قبل الرجال ؟ ذلك بسبب من تنانيرهنّ . فالمرأة لا تكاد تصطدم بالماء حتى تغوص إلى القاع مثل حجر ثقيل . أنظروا . . . لقد غرق وانتهى الأمر . ماذا أخبرتكم ؟

كان الرجل قد غرق فعلا . وظلوا طوال ساعتين يبحثون عبثا عن جسده . وكان صديقه ، وقد صحا الآونة ، جالسا فى مؤخرة المركب قانطا ، وهو يردّد همسا :

– أنظروا ماذا حدث ! ما العمل الآن ؟ ما عسانى أقول لذويه ؟ له أهل . . .

وقف ياكوف قبالته ، ويداه وراء ظهره ، يقدم اليه كلمات التشجيع :

– لا بدّ مما ليس منه بد ، أيها التاجر ! وليس انسان يعرف كيف سيلاقى حتفه . قد يحدث أن يأكل المرء فطرا ، وهذا هو – بف – يذهب الى لحده ! ان آلافا من الناس يأكلون الفطر ويسمنون ، وواحدا فقط يقضى نحبه منهم . وما هو الفطر فى آخر تحليل ؟

انتصب قبالة التاجر ، عريضا قاسيا مثل حجر المسن ، ناثرا كلماته مثل القش . وبكى التاجر بادئ الأمر بصوت

لطيف ، ماسحا الدموع عن لحيته براحة عريضة ، لكنه انفجر في عويل صاخب عندما أدرك معنى كلمات ياكوف :

– اذهب ، أيها الشيطان ! ما الذى يحملك على اعتصار نفسى على هذا الغرار ؟ أيها المؤمنون الصادقون خذوه عنى ، والا لن أكون مسؤولا عما يحدث !

فانسحب ياكوف فى هدوء قائلا :

– الناس غريبو الأطوار حقا ! اتق شر من احسنت اليه .

كان يخيل الى فى الاحايين ان الوقاد انسان ساذج التفكير ، لكنى غالبا ما كنت اشعر انه يتظاهر بالسذاجة فحسب . وكنت اريد بصورة يائسة ان اسمع منـــه عن الاماكن التى زارها والاشياء التى رآها ، بيد انه لم يرض فضولى قط . كان يلقى برأسه الى الخلف ويغمض قليلا عينيه السوداوين الفظتين ، ويروح يمسح على محياه كثيف الشعر ، وهو يتشدق بالذكريات :

– هناك اناس فى كل مكان ، ايها الاخ ، مثـــل النمل ! اناس هنا ، واناس هناك . . . قطعان كاملة منهم . ومـــن الطبيعى ان الفلاحين هم الكثرة فيهم ، فهم منتشرون على سطح الارض كلها مثل اوراق الخريف . البلغار ؟ من المؤكد انى شاهدت البلغار ، واليونان ايضا ، كما شاهدت الصربيين ، والرومانيين ، وغجريين متنوعين . . . من مختلف الاجناس ! ماذا يشبهون ؟ ايه ، ما عساهم يشبهون ؟ فى المدن سكان المدن . وفى الريف الريفيون . مثل اناسنا تماما . الناس جميعا متشابهون ، بل ان بعضهم يتكلمون مثلنا ، ليس بلغتنا بل بصورة رديئة مثل التتريين او الموردوفيين مثلا . ولا يستطيع

اليونانيون ان يتكلموا مثلنا . . . انهم يثرثرون باى شيء يخطر فى بالهم ، وتتردد الاصوات الصادرة عنهم اشبه بالكلمات ، لكن دون ان تفهم معنى لها . ولا بد لك ان تتحدث اليهم بيديك . وذلك الرجل العجوز الذى رافقته ، لقد كان يتظاهر انه يفهم اليونانيين ايضا - فهو لا يبرح يثرثر بكلمات غريبة : كالامارا ، كالامارو ! لقد كان داهية بالفعل ، وكان يخدعهم بمهارة . ما هذا ؟ تسألنى من جديد ما عساهم يشبهون ؟ انت صبى ساذج ، فما عساهم يشبهون ؟ انهم سمر بكل تأكيد ، كما ان الرومانيين سمر ايضا . . . وللجميع ايمان واحد . والبلغار سمر ايضا ، بيد انهم يصلون مثلنا . اما اليونان . . . فانهم مثل الاتراك . . .

احسست انه لم يرو لى كل شيء ، وان ثمة شيئا يخفيه عنى .

عرفت من صور المجلات ان أثينا عاصمة اليونان ، وهى مدينة قديمة وجميلة . لكن ياكوف هزّ رأسه متشككا وانكر وجود اثينا .

- كانوا يكذبون عليك هناك ، ايها الاخ . ليس هناك اى اثينا ، بل هنالك آتون فقط ، وهو ليس مدينة ، بل هو جبل على قمته دير كبير . هذا كل شيء . وهو يسمى جبل آتون المقدس . وهناك صور عنه ، وقد باعها الرجل العجوز . وهناك مدينة بلغورود على نهر الدانوب ، وهى شبيهة بياروسلافل ، او نيجنى نوفغورود . ولا تستحق مدنهم الحديث عنها ، اما قراهم . . . فانها شيء مختلف تماما ! ونساؤهم ايضا . . . انهن اكثر فتنة مما تستطيع الكلمات

ان توحى . ولقد كدت ابقى هناك بسبب من واحدة منهن . ماذا كانت تدعى ، يا ربى ؟

وحك راحتيه على وجهه بسرعة مما جعل لحيته تطقطق فى لطف ، فيما ندت من مكان ما عميقا فى حلقه قهقهة اشبه برنين اجراس محطمة :

– لشد ما ينسى المرء الامور ! ولقد كنا ، انا وهى . . . بكت حين قلت لها وداعا ، وبكيت انا الآخر ، صدق او لا تصدق . . .

وشرع يعلمنى ، فى صفاقة هادئة ، كيف ينبغى ان اتصرف مع النساء .

كنا جالسين فى مؤخرة السفينة ، يسبح لملاقاتنا ليل دافئ يغمره ضوء القمر ، والحقول عن يسارنا تكاد تغيب عن الرؤية وراء المياه الفضية ، والتلال عن يميننا تتألق باضواء صفراء راعشة مثل نجوم اسيرة . كان كل شىء فى حركة متصلة ، يرتعش باليقظة ، ويعيش حياة هادئة ، لكنها عارمة شديدة . وكانت كلماته الجشاء تساقط فى السكون اللطيف المكتئب :

– وكان يحدث ان تفتح ذراعيها العاريتين تماما . . .

كانت قصة ياكوف سليطة ، لكنها غير منفرة ؛ لم يكن فيها اى تباه ، او قسوة ، او تفنن ، كما انها لم تكن خالية من بعض الحنين . وفى السماء عاليا كان عرى القمر على مثل تلك السلاطة ، يبعث فى باطنى تلك الكآبة ذاتها . كنت لا اتذكر سوى الاشياء الجيدة : الملكة مارغو ، والابيات التى جعلتها حقيقتها غير قابلة للنسيان :

وحدها الانشودة يعوزها الجمال ،
اما الجمال فلا تعوزه انشودة . . .

نفضت عنى مزاجى المتفكر مثل نوبة من النعاس ، ورحت استحث الوقاد من جديد كيما يحدثنى عن حياته ومشاهداته . قال :

– انت غريب الاطوار حقا . ماذا عسانى اروى لك ؟ لقد شاهدت كل شىء . دير ؟ اجل ، لقد شاهدت ديرا . وخمارة ؟ وشاهدت خمارة ايضا . شاهدت حياة النبلاء ، وحياة الفلاحين . ولقد حصلت على اشياء كثيرة ، ولم احصل على شىء . . .

ويروح يتذكر الماضى على مهلته ، فكأنه يجتاز جسرا متزعزعا فوق تيار عميق :

– اليك هذا مثلا : انا فى مركز الشرطة بسبب من سرقة الاحصنة . رحت افكر فى نفسى : هذه المرة سيرسلوننى الى سيبيريا من دون ريب ! وهذا ضابط الشرطة يشتم المواقد التى تدخن فى منزله الجديد . وهكذا قلت له : «استطيع ان اصلحها لك ، يا صاحب السعادة» . لكنه هاجمنى بالظفر والناب : «اخرس ! ان افضل صانع مدافئ فى المدينة لم يستطع اصلاحها» . لكننى عدت اقول : «يتفوق الاحمق فى الاحايين على السيد» . كانت سيبيريا التى تحملق فى وجهى هى التى بعثت فى كل هاتيك الجرأة . قال : «حسنا ، فلنجرب . لكن اذا راحت المدافىء تدخن اكثر من ذى قبل ، فسوف اسحقك سحقا» . حسنا . لقد اصلحت المدافئ خلال يومين . ولم يستطع ذلك الضابط ان يصدق الامر ، فراح يهاجمنى من

جديد : «ايها الاحمق ! ايها الغبى ! أتسرق الاحصنة وانت مثل هذا الخبير ؟ كيف تفسر مثل هذا الامر ؟» . وهكذا اجبت : «السبب فى ذلك بلاهتى ، يا صاحب السعادة» . فقال : «انت على حق . البلاهة فحسب . يا للاسف ! انى آسف عليك» . هذا ما قال لى ، هل تسمع ؟ ضابط شرطة ، لا تسمح له وظيفتـه ان يكون ليناً فقط ، ومع ذلك يرثى لحالى . . .

واستفسرت :

– حسنا ، وماذا حدث بعد ذلك ؟

– لا شيء . لقد رثى لى فقط . ماذا تريد غير ذلك ؟

– ولماذا يرثى لك ؟ انك قوى مثل صخرة صماء !

فضحك ياكوف فى انشراح :

– يا لغرابـــة اطوارك ! تقول صخرة صماء ؟ الصخرة تستحق الشفقة ايضا . ان للصخــرة عملهــا الخاص الذى يتوجب عليها القيام به . لقد كانوا يعبدون الطرق بالصخور . كل شيء يستحق الشفقة . ولكل شيء فائدته . خذ الرمل . ما هو الرمل ؟ ومع ذلك ينمو العشب منه . . .

حين كان الوقاد ينطق بمثل هذه الاشياء يتضح لى بصورة خاصة انه يملك معرفة تتجاوز فهمى .

سألته :

– ما رأيك فى الطاهى ؟

فاستفسر ياكوف فى لامبالاة :

– من ؟ الدب الصغير ؟ ما عسى ان يكون رأيى فيه ؟ ليس هناك ما يستحق الرأى .

كان على حق . ان ايفان ايفانوفيتش املس جدا وقويم

جدا بحيث لم يبق فيه شيء تتعلق الافكار به . كان فيه شيء واحد وجدته باعثا على الاهتمام ، الا وهو كراهيته للوقاد وصياحه المستمر فى وجهه . ومع ذلك ، فقد كان يدعوه أبدا الى مشاركته الشاى .

قال مخاطبا ياكوف ذات يوم :

– لو كان عندنا رقيق بعد وكنت سيدا لك ، فقد كنت ادبغ جلدك سبعة ايام كل اسبوع ، ايها الكسول !

فلاحظ ياكوف فى جد ّ :

– سبعة ايام كل اسبوع شيء كثير علىّ !

وبالرغم من تعنيفه المتصل ، فقد كان الطاهى لا يبرح يطعمه لسبب ما . كان يقدم له شيئا يأكله ، ويقول :

– اليك ، ايها الاكّال !

فيقول ياكوف ، وهو يمضغ الطعام دونما عجلة :

– انى اخزن قدرا كبيرا من القوة بفضلك ، يا ايفان ايفانوفيتش !

– وماذا تريد ان تصنع بكل هذه القوة ، ايها الكسول ؟

– ماذا تعنى ؟ لا يزال امامى حياة طويلة .

– ولماذا تريد ان تحيا ، ايها الشيطان العجوز ؟

– الشياطين تريد ان تحيا ايضا . او لعلك لا تجد فى الحياة لذة ؟ الحياة شيء مسلّ ، يا ايفان ايفانوفيتش .

– يالك من ابله !

– ماذا تقول ؟

– ابـ . . . ـلـــ . . . ـه !

فيسأل ياكوف فى دهشة :

– من سمع قط بمثل هذه الكلمة ؟

فيقول الدب الصغير ، موجهاً حديثه الىّ :

– انظر فقط . انت وانا نتصبب عرقا ونجهد انفسنا امام هذه المواقد اللعينة ، وهو لا يفعل غير القعود ههنا يأكل مثل الخنزير !

فيقول الوقاد ، وهو يمضغ طعامه دون انقطاع :

– لكل امرئ نصيبه من الحياة .

كنت اعرف ان القاء الفحم فى مواقد السفينة اشدّ حرارة وصعوبة من الوقوف امام افران المطهى ، لانى حاولت مرة او مرتين ان اشتغل ليلا الى جانب ياكوف . ولم اكن افهم سببا لعدم اشارته الى كون عمله هو العمل الاشد قسوة من عمل الطاهى . ولم يفعل موقفه هذا سوى زيادة يقينى بامتلاكه معرفةً مخصوصة .

كان الجميع يشكون منه – القبطان ، والميكانيكى ، والملاحون – كل من له ادنى علاقة به . وكنت اتساءل لماذا لا يتخلصون منه . وكان الوقادون وحدهم اكثر لطفا حياله ، وان كانوا يسخرون هم ايضا من ثرثرته المتصلة وتعلقه بلعب الورق .

سألتهم ذات مرة :

– هل ياكوف فتى طيب ؟

– ياكوف ؟ انه طيب ، وهو لا يغضب ابداً . انت تستطيع ان تصنع به ما تشاء ، حتى درجة وضع الجمر اللاهب فى ياقة عنقه . . .

كان الوقاد ، على الرغم من عمله المرهق وشهيته

الهائلة ، لا ينام الا قليلا جدا ، فهو لا يكاد ينتهى من نوبته حتى يظهر على السطح ، قذرا يتصبب عرقا ، ودون ان يبدل ثيابه على الاغلب ، ويقعد هناك الليل بطولــه يتحدث الى الركاب او يلعب الورق معهم .

كان بالنسبة الىّ مثل خزانة مغلقة ، احس ان شيئا لا غنى عنه مخبوء فيها ، فأبحث فى عناد عن المفتاح الذى يمكن ان يفتحها .

قال ، وهو يتفحصنى بعينين مختفيتين عميقا تحت حاجبيه :

– لست افهم ما الذى تسعى وراءه ، ايها الاخ . تريد ان تسمع الحديث عن العالم ؟ صحيح انى سافرت فى مختلف ارجائه . لكن ما معنى ذلك ؟ انك غريب الاطوار حقا ! إليك ، اصغ الى ما جرى لى ذات يوم .

وروى لى القصة التالية : «فى قديم الزمان ، وسالف العصر والآوان ، كان يعيش فى مدينة صغيرة قاض شاب مسلول وزوجته الالمانية ، وهى امرأة عاقم قوية البنية . وقد وقعت هذه المرأة فى غرام تاجر ولدت له زوجته الجميلة ثلاثــة اولاد . وحين لاحظ التاجر ان المرأة الالمانية مغرمة به قرر ان يمزح معها ، فدعاها الى ملاقاته فى الحديقة ليلا ، واخفى صديقين له فى الدغل القريب .

ان الامر يبعث على الاهتمام الآن ! جاءت المرأة الالمانية ، لاهبة مهتاجة ، واعلمته انها تمنح له نفسها لمجرد ان يطلب ذلك . لكنه خاطبها قائلا : «لا استطيع ان امتلكك ، يــا سيدتى . فأنا رجل متزوج . لكننى جئتــك باثنين مــن اصدقائى – احدهما عازب والآخر ارمــل» . واطلقت المرأة

صيحة قوية ، وصفعته بقوة حتى قلبته عن الدكة التى كان يقتعدها ، ثم شرعت تركل بوزه دون هوادة . وكنت انا الذى جئت بها الى الحديقة ، باعتبارى بوابـــا للقاضى ، فتلصصت من خلال شق فى السياج وشاهدت المعركة : قفز الصديقان من الدغل وهجما عليها وجراها بعيدا من شعرها . وقفزت بدورى من فوق السياج وصحت بهما : «لا حق لكما فى هذا السلوك ! جاءته السيدة بنية صافية ففضحها على هذا الغرار المهين !» واخذتها بعيدا . فضربانى بآجرة على رأسى . . . كان ألمها عظيما ، فهى لا تبرح تذرع ارض الباحة بخطواتها ، لا تدرى ما عساها تفعل بنفسها . وقالت لى : «سوف اعود ادراجى الى اهلى الالمان ، يا ياكوف . حالما يموت زوجى سأعود ادراجـــى» . فقلت : «حسنا تفعلين . يجب ان ترجعى الى هناك طبعا» . حسنا . مات القاضى وذهبت هى . لقد كانت امرأة لطيفة وحساسة ، وكان القاضى رجلا لطيفا ايضا ، رحمه الله !»

حين عجزت عن ادراك معنـــــى القصة لزمت الصمت . احسست ان فيها شيئا قاسيا وعديم المعنى بصورة مألوفة ، لكن ما عسانى اقول ؟

استوضح ياكوف :

– احببت القصة ؟

فتمتمت شيئا فى نبرة مغيظة ، لكنه راح يوضح لى فى هدوء :

– ان امثال هؤلاء الناس ، الاغنياء الميسورين ، يحسون ميلا الى بعض التسلية فى الاحايين ، لكنهم لا ينجحون فى ذلك دائما . . . انهم لا يعرفون كيف يفعلون . وان ذلك لطبيعى

تماما لانهـــم الجنس الرزين ، اصحاب الاعمال . ان الاعمال تتطلب تفكيرا متصلا ، والمرء يضجر من اعمال الفكر طوال الوقت ، فيريد ان يتسلى قليلا .

كان النهر لا يبرح يمخض بعيدا عن مؤخرة المركب فى سحابة من الزبد ؛ وكان فى مقدورنا ان نسمع صخب المياه وان نرى ضفاف النهر السوداء وهى تتراجع عنا على مهل . وتردد على السطح شخير الركاب ، فى حين راحت امرأة طويلة ناحلة ، تلبس ثيابا سوداء شيباء الرأس ، تشق لنفسها فى هدوء طريقا بين المقاعد الخشبية والاجساد النائمة . ولكزنى الوقاد وقال فى بطء :

– انظر . . . انها حزينة .

بدا لى انه يجـــد لذة خاصـــة فى مشاهدة آلام الناس الآخرين .

كان يروى لى طوال الوقت اقاصيص اصغى اليها فى شوق زائد . وانى لاذكر سائر اقاصيصه ، لكنى لا استطيع ان اذكر قصة مرحة واحدة . كان يتحدث بصورة اقل تحيزا من الكتب . ذلك انى غالبـــا ما كنت اشعر فى الكتب بعواطف المؤلف – فرحه وغضبه ، حزنه وسخريته . بيد ان الوقاد لم يكن يسخر قط او يدين احدا ، فليس ثمة شىء يسره او يؤلمه بصورة ملحوظة . انه يتحدث مثل شاهد حيادى فى محكمة ، مثـــل شخص سواء فى نظره السجين والنائب العام والقاضى . وكانت هذه اللامبالاة تضجرنـــى وتؤلمنى وتثير عدائى نحوه .

وكان يبدو ان الحياة ترقص امامه مثل اللهب فى المواقد

تحت المراجل ، بينما يقف هو بمطرقة خشبية فى يده الضخمة ، يطرق بهدوء الرافعة التى تزيد او تنقص من تدفق الوقود .

سألته :

– هل آذاك انسان قط ؟

– من يستطيع ان يؤذينى ؟ ان قوتى قمينة بالتغلب على اى امرئ كان . . .

– ليس هذا ما عنيتُ . كنت اريد ان اقول هل آذاك فى باطنك . . . فى نفسك .

فقال :

– ليس فى مقدورك ايذاء نفس الانسان . فالنفس لا تغضب . بل انت عاجز عن لمسها . . . عاجز عن ذلك باى شيء على الاطلاق .

كان الركاب من الدرجة الثالثة والبحارة ، وكل انسان آخر ، يتحدثون عن النفس كثيرا وبقدر ما يتحدثون عن الارض ، او عملهم ، او عن الخبز او النساء . فالنفس كلمة مألوفة فى قاموس بسطاء الناس ، لا تقل انتشارا عن قطعة نقدية من فئة الخمسة كوبيكات . وكنت اسف لان ألسنة دبقة اطبقت بقوة على هذه الكلمة ، فاحس وخزة مباشرة فى قلبى كلما راح رجل يستخدم لغة مبتذلة يلعن بها النفس ، سواء جدا او هزلا .

وانى لاذكر جيدا باى احترام كانت جدتى تتحدث دائما عن النفس ، هذا المستقر العجيب للحب ، والفرح ، والجمال . وكنت اعتقد بصورة راسخة ان الملائكة البيض ، حين يموت

الانسان ، تحمل نفسه بعيدا الى السماء الزرقاء ، الى الـه جدتى اللطيف الذى يستقبلها فى حنان فائق .

– آه ، يا حبيبتى ، يا طاهرتى . . . أقضيتِ وقتـا سيئا هناك ، وقتا مؤلما ؟

وعندئذ ينعم على النفس باجنحة ملاك السيرافيم البيضاء الستة .

كان ياكوف شوموف يتحدث عن النفس باحترام واحجام وفى الندرى مثل جدتى . لم يلعن النفس قط فى شتائمه ، فاذا سمع الآخرين يفعلون ذلك جنح الى الصمت ، واحنـى رأسه فوق عنقه الاحمر الثخين .

وحين كنت اسأله عن ماهية النفس ، فقد كان يجيبنى بقوله :

– انها روح ، نسمة من الله . . .

لم يكن ذلك يرضينى ، فاذا رحت ألاحقه باسئلة اخرى طأطأ رأسه ، وقال :

– الكهنة انفسهم لا يعرفون الشىء الكثير عن النفس ، ايها الاخ . انها شىء خفى . . .

كنت افكر فيه على الدوام . اركز سائر جهودى كيمـا افهمه . لكن عبثا ! لم اكن استطيع ان ارى شيئـا سوى ياكوف ، كان الجرم الفخم لجسده يخفى عنى كل شىء آخر .

وكانت زوجة خادم المقصف معنيـة بى بصورة مثيرة للشكوك . كنت اسكب لها الماء لتغسل وجهها كل صباح ، الامر الذى كان من واجب لوشا بالاحرى ، وهى الفتاة الصغيرة النظيفة المرحة التى تشتغل فى الدرجة الثانية . واما كنت اقف

فى الحجرة الضيقة بجانب هذه المرأة ، العارية الجسم حتى خصرها ، كنت احس بالاشمئزاز من جسدها الباهت اللون ، المترهل مثل العجين الحامض ، فلا استطيع الامتناع عن مقارنته بجسد الملكة مارغو البرونزى المتين . وكانت المرأة لا تكف عن الثرثرة بشىء ما ، فى تمتمة شاكية تارة ، وفى غضب ساخر تارة اخرى .

ولم اكن افهم الافكار التى تصدر عنها ، وان كنت استطيع ان اخمن معناها جيدا . ولقد كان معنى سافلا مخجلا ، لكنه لا يؤثر فىّ مطلقا . كنت احيا فكريا فى منتأى عن زوجة خادم المقصف ، وعن كل ما يجرى فى المركب . كانت صخرة عملاقة ، مكسوة بالشعر – وهى ياكوف شوموف – تفصلنى عن العالم من حولى ، هذا العالم الذى لا يبرح يتدفق يوما بعد يوم .

وترددت فى اذنى كلمات لوشا الساخرة فكأنها فى حلم :

– ان زوجة خادم المقصف واقعة فى غرامك قلبا وقالبا . اسعد نفسك ما دامت الفرصة سانحة . . .

لم تكن الوحيدة التى تسخر منى ، فسائر الخدم فى غرفة الطعام على علم بتعلق هذه المرأة ، كما ان الطاهى احظ ذات مرة مكشرا :

– لقد تذوقت السيدة كل شىء آخر ، وهكذا فهى تحب الآن ان تجرب بعض الحلويات الفرنسية ! تفو ! خذ حذرك ، يا بشكوف ، وإلا وقعت فى متاعب . . .

وعرض علىّ ياكوف بدوره النصح الابوى :

– بالتأكيد ، لو انك اكبر سناً بسنتين كنت اتحدث اليك اذن بصورة مختلفة . اما فى سنك . . . من الافضل ألا

تستسلم . وعلى اية حال ، فانت حرّ فى التصرف كما تشاء . . .
فقلت :
– إنسَ ذلك . يا للهراء !
– طبعا .
لكنه ارسل اصابعه حالا فى شعره المتشابك وراح ينسج من جديد كلماته المدورة الصغيرة :
– يجب ان ننظر فى وجهة نظرها هى الاخرى . . . ان حالتها كئيبة مبتئسة . ان الكلب يجب ان يُدلل قليلا . . . فكم بالاحرى الكائن البشرى ! ان المرأة تحيا على الملاطفات ، مثلما يحيا الفطر على المطر . ويبدو انها تخجل من ذلك . لكن ما عساها تفعل ؟ ان الجسد عاهر ، وهذا كل شىء .
حدقت فى عينيه الغامضتين ممعنا ، وانا اسأل :
– هل تشعر بالاسف من اجلها ؟
– انا ؟ ليست هى امى ، اليس كذلك ؟ وبعض الناس لا يستشعرون اسفا حتى من اجل امهاتهم . انت حقا غريب الاطوار !
وارسل ضحكته الناعمة الشبيهة برنين اجراس محطمة .
وفى الاحايين ، حين انظر اليه ، يخال لى انى اغطس فى فراغ ساكن ، فى بئر مظلمة لا قرار لها .
– كل الناس يتزوجون ، يا ياكوف . لم لا تتزوج انت ؟
– لماذا ؟ فى مقدورى دائما ان احصل على امرأة . . . ذلك امر يسير والحمد لله . من واجب الرجل المتزوج ان يقعد فى البيت ويشتغل فى الارض . وليست ارضى جيدة ،

وليست هي كبيرة ، والارض التي كانت لي استولى عمـــي عليها . ورجع اخي من الجندية وشرع في الصراع مع عمي . . . وضربه على رأسه . فارسلوا اخي الى السجن لمدة سنـــة ونصف السنة ، وبعد ذلك . . . ليس امام المجرم السابق غير سبيل واحدة ، وهذه السبيل تعود به الى السجن دائما . ولقد كانت زوجته شيئا صغيرا فاتنا . لكن ، ما عسانـــي اقول ؟ حين يتزوج المرء لا يبقـى امامـــه غير الاستقرار والجلوس في بيته . لكن الجندي لا يستطيع قط ان يسيطر حتى على حياته الخاصة .

– هل تصلي الى الله ؟

– يا لغرابة اطوارك ! انا اصلي طبعا .

– كيف ؟

– بطرق مختلفة .

– ما هي الصلوات التي تعرفها ؟

– لا اعرف اية صلوات مطلقا . فانا اقول فقط : ايها الرب يسوع اشفق على الاحياء ، وارحم الموتى ، وانقذنا من المرض ، و . . . حسنا ، هنالك بعض اشياء قليلة اخرى .

– ما هي ؟

– أوه ، لا ادري . ان كل ما تقوله يبلغ اسماع الرب !

كان يعاملني بلطف وشيء من الفضول فكانني جرو ذكي يستطيع القيام بحيل مسلية . واحيانا اكون جالسا الى جانبه مساء ، وهو يعبق برائحة الزيت والنار والبصل – كان يحب البصل ويأكلـــه مثـــل التفاح – فاذا هو يعلن بصورة مفاجئة :

– تعال الآن ، يا اليوشا . فلنتل بعض الاشعار !
كنت احفظ عن ظهر قلب قصائد عديدة ، وفيما عدا ذلك املك دفترا سميكا نسخت عليه سائر قصائدى المفضلة . وكنت اتلو «روسلان ولودميلا» ، فيصيخ الىّ سمعه دون حراك – مغمضا عينيه ، مطبقا شفتيه ، ممسكا تنفسه الخشن . ومن بعد يقول بصوت لطيف :
– هذه قصة فاتنة . هل اخترعتها بنفسك ؟ تقول بوشكين ؟ هنالك نبيل يدعى موخين-بوشكين ، وقد شاهدته شخصيا .
– ليس هو ، لان بوشكين هذا قتلوه قبل زمن طويل .
– لماذا ؟
روبت له القصة باختصار كما سمعتها من الملكة مارغو . وحين انتهيت قال فى هدوء :
– ان كثيرين من الناس يدمرون انفسهم بسبب من النساء . . .
ما اكثر ما كنت اروى له قصصاً من الكتب . كانت هذه القصص جميعا متشابكة متداخلة بحيث تشكل قصة طويلة واحدة ، صاخبة وجميلة ، ملأى باهواء الناس ، والمغامرات المجنونة ، والابطال الشرفاء ، والحظ السعيد بصورة لا تصدق ، والمبارزات والموت ، والكلمات الرائعة والافعال الخبيثة . وكنت اضفى على روكامبول الصفات الفروسية التى يتجلى بها لامول ، وهانيبال ، ودى كوكوناس ؛ وعلى لويس الحادى عشر صفات الاب غرانديه ؛ كما ان كورنيت أوتليتاييف كان يختلط بهنرى الرابع . وكنت ابدل اخلاق

الناس واعيد ترتيب الحوادث حسب ما يمليه عليّ إلهامى ، فاخلق بذلك عالما اسود عليه بصورة اعتباطية مثلما يسود إلـه جدى ، هذا الإلـه الذى كان يتلاعب كذلك بالكائنات البشرية على هواه . وكانت فوضى هذا العالم الكتابى ، دون ان تمنعنى من رؤية واقع الحياة ، ودون ان تضعف من رغبتى فى فهم الناس ، تشكل قناعا شفافا لكنه كتيم يحمينى من القذارة السامة ومن الاوبئة العديدة المتوارية فى الحياة من حولى .

ولقد جعلتنى الكتب عصيا على اشياء عديدة . وان معرفتى بالناس كيف يحبون ويتألمون جعلت من المحال بالنسبة الىّ دخول بيت للدعارة . وكان رخص مثـــل هذه الدعارة يثير اشمئزازى حيالها ونفورى من اولئك الذين يجدونهـــا امرا لطيفا . لقد علمنى روكامبول ان اقاوم بربـاطــة جأش قوة الظروف ، بينما ملأنى ابطال دوماس بالرغبة فى وهب حياتـــى لقضية عظيمة هامة . كانت شخصيتى المفضلة الملك الطروب هنرى الرابع . وكان يخيل الىّ ان بيرانجيه كان يعنيه حين قال :

كان يتصل بسائر الناس البسطاء
ونعرف انه كان يسكر ايضا .
لكن لِمَ لا يكون الملك طروباً
ما دام ملكه طروباً له ؟

كانت الروايات تصوّر هنرى الرابع رجلا لطيفا ، حبيبا الى قلوب شعبه . وكان لمعان خلقه يبعث فىّ يقينا راسخا بان فرنسا هى اروع بلد فى العالـــم ، بلد الفروسية حيث

الناس الذين يرتدون ثوب الفلاحين لا يقلون نبلا عن اولئك الذين يلبسون الثياب الملكية . ان أنج بيتو لا يقل فروسية عن دارتانيان . وحين قتل هنرى رحتُ ابكى من اعماق نفسى واصر بأسنانى حقدا على رافياك . وكان هنرى بطل سائر القصص التى ارويها للوقاد تقريبا ، وكان يبدو لى ان ياكوف انتهى بدوره الى التعلق به وبفرنسا .

كان يقول ملاحظا :

– انه فتى رائع ، هذا الملك هنرى . تستطيع الذهاب الى صيد السمك معه او اى شىء آخر .

لم يكن يغرق فى النشوة مطلقا او يقاطع قصصى بالقاء الاسئلة . كان يصغى فى سكون ، معقود الحاجبين ، وفى ملامحه تعبير جامد لا يتبدل – صخرة عتيقة كساها الطحلب . لكننى اذا توقفت لسبب ما عن السرد ، فما اسرع ان يسألنى :

– أهذا كل شىء ؟

– كلا ، ليس بعد .

– اذن لا تتوقف !

وذات مرة ، وكنا نتحدث عن الفرنسيين ، اعلن متنهدا :

– انهم يعيشون حياة ظريفة باردة . . .

– ماذا تعنى ؟

– انت وانا نعيش فى الحرّ ، نشتغل ابدا . اما هم فيعيشون حياة ظريفة باردة . انهم لا يفعلون شيئا – بل يشربون ويتقلبون فقط . وانها لطريقة مسلية فى الحياة !

– انهم يشتغلون ايضا .

فلاحظ الوقاد عن حق :

– ليس هذا واضحا من القصص التى ترويها .

ادركت بصورة مباغتة ان الغالبية الساحقة من الكتب التى قرأتها لا تقول اى شىء تقريبا عن طريقة الناس فى العمل ، او عن العمل الذى يتدارك الابطال الرفيعو المحتد معاشهم منه .

قال ياكوف ، وهو ينقلب على قفاه :

– حسنا ، اعتقد انى سأغفو قليلا .

ولم تمض دقيقة واحدة حتى راح يشخر فى سلام .

فى الخريف ، حين انقلبت ضفاف نهر كاما حمراء مسمرة ، واصبحت الاشجار مذهبة اللون ، وشحبت شعاعات الشمس المائلة ، غادر ياكوف المركب البخارى بصورة مفاجئة . قال لى عشية رحيله :

– بعد غد نصل انت وانا الى بيرم ، يا أليوشا ، ونغدو الى الحمام ونستحم على هوانا ؛ ومن هناك نقصد بصورة مباشرة الى خمارة فيها موسيقى . ذلك شىء ظريف . وانا احب ان اسمع عزف آلة موسيقية !

بيد ان رجلا سمينا مترهلا ، حليق الذقن ، مخنث الملامح ، له قسمات امرأة ، صعد الى سطح المركب فى سارابول . كان معطفه الطويل وقبعته ذات الحواشى من فرو الثعلب يضاعفان من تخنثه . اختار فى الحال طاولة فى زاوية دافئة قريبة من المطبخ ، وطلب شاياً ، وشرع يحتسى المنقوع الغالى دون ان يخلع معطفه او قبعته ، والعرق يتصبب منه بغزارة .

كانت سحب الخريف ترشح رذاذا خفيفا ، فيلوح ان هذا الرذاذ يتضائل كلما جفف الرجل وجهه بمنديله المربع ، بينا يشتد الرذاذ كلما تصبب عرقا .

وسرعان ما قعد ياكوف الى جانب ذلك الرجل وطفقا يدرسان خريطة فى كتاب التقويم السنوى . رسم الراكب شيئا باصبعه ، فقال الوقاد فى هدوء :

– وماذا فى ذلك ؟ هذا امر يسير بالنسبة الى فتى مثلى . أبصق عليه !

فقال الراكب بصوت مرتفع النبرة ، وهو يعيد التقويم الى حقيبة جلدية مفتوحة عند قدميه :

– حسنا .

واستمرا يتجاذبان اطراف الحديث فى هدوء ويجرعان الشاى .

سألت ياكوف ، قبل ان تبدأ نوبته ، عن هوية ذلك الرجل ، فأجاب وهو يطلق ضحكة قصيرة :

– يبدو كأنه امرأة ، أليس كذلك ؟ هذا يعنى انه مخصى . لقد جاء من سيبيريا النائية . رجل غريب الاطوار . . . يبدو انه يعيش حسب خطة موضوعة . . .

ابتعد عنى ، طارقا سطح المركب بعقبيه العاريين ، الاسودين القاسيين مثل حافرين . لكنه توقف ملتفتا الى الوراء ، وقال وهو يحكّ اضلاعه :

– لقد اجرته نفسى . حالما نبلغ بيرم اغادر المركب ويكون الفراق ، يا أليوشا . سنذهب بالقطار ، ثم على سطح نهر ، ومن بعد على ظهر الجياد . وسوف نقضى خمسة اسابيع

حتى نصل الى هناك . يا للزوايا النائية التى يزحف اليهـــا الناس !

فسألت ، مشدوها لقرار ياكوف غير المنتظر :

- هل تعرفه ؟

- كيف يمكن ان اعرفه ؟ لم اره من قبل قط ، كما لم امرّ ابدا فى المكان الذى يعيش فيه . . .

وظهر ياكوف صباح اليوم التالى فى فروة قصيرة قذرة وقبعة من القش عتيقة لا حافـــة لها ، وكانت تخص الدب الصغير فى ماضى الايام ، وصندلين ليفيين مهترئين . شدّ على يدى باصابع حديدية ، وقال :

- تعال معى ، ايه ؟ انه سيشغلك ، ذلك المخنث ، انت ايضا اذا قلنا له ذلك . اتريدنى ان اقول له ذلك ؟ لسوف يقتطع ما تستطيع عنه استغناء ، ويعطيك قليلا من المال . انه عيد حقيقى بالنسبة اليهم حين يخصون احـــد الفتيان . وهم يدفعون له لقاء ذلك ايضا . . .

ان المخصى يقف عند الدرابزون ولفافـــة بيضاء تحت ذراعه ، يحدق فى ياكوف بعينين غامضتين ، ووجهه ثقيـــل متورم مثل وجه رجل غريق . لعنته فى صوت مهموس ، فشدّ الوقاد مرة اخرى على يدى :

- ابصق عليه ! كل امرىء يغنى على ليلاه . . . فما يعنيك من ذلك ؟ حسنا ، وداعا . ارجو ان تكون سعيدا !

وذهب ياكوف شوموف ، منطلقا مثل دب كبير ، تاركا قلبى نهباً لعواطف متنافرة : كنت آسفا من اجـــل الوقاد ، ومتضايقا منه ، متسائلا فيما اذكر فى شىء من الحسد والذعر

عن السبب الذى يحمله على الذهاب الى مثل ذلك المكان النائى المجهول .

ومن عسى ان يكون على اية حال ، ياكوف شوموف هذا ؟

١٢

فى اواخر الخريف ، حين اضطر المركب البخارى الى التوقف عن رحلاته ، اصبحت اجيرا فى معمل لرسم الايقونات . بيد ان معلمتى ، وهى سيدة عجوز ناعمة ، مدمنة على الشراب ، عالنتنى فى اليوم التالى من التحاقى بالعمل قائلة بنبرة اهالى مدينة فلاديمير :

– الايام قصيرة فى هذا الوقت والامسيات طويلـــــة . فاريدك ان تذهب كل صباح الى الدكان تساعـــد فى اعمال البيع ، ثم تعود لتدرس مساء .

سلمتنى الى احد باعة المحل ، وهو فتى قصير القامة سريع الحركات ، جميل الطلعة بطريقة سكرية . وكنا ، هو وانا ، نعبر المدينة فى ظلمة الفجر الباردة على طول شارع ايلينكا الناعس حتى نبلغ السوق السفلى حيث يقع الدكان فى الطابق الثانى من خان تجارى . كانت الدكان ، وهى مخزن سابق ، صغيرة عاتمـــة ذات باب حديدى ونافذة واحدة صغيرة تطلّ على شرفة حديدية السقف . كانت دكاننا غاصـــة بالايقونات واطاراتها الكبيرة والصغيرة ، بعضها مسطحة وبعضها الاخرى مزخرفة . وكانت تحتوى ايضا على كمية من الكتب الدينيـــة المجلدة بجلد اصفر والمطبوعة باللغة السلافية القديمـــة .

وكانت دكان اخرى لبيع الايقونات والكتب المقدسة تقوم الى جوارنا ، يديرها تاجر اسود اللحية تصله قرابة باحد اتباع الايمان القديم ، ذائع الصيت على طول نهر كيرجينيتس ، ما وراء الفولغا . وكان للتاجر ابن نشيط فى مثل سنى ، نحيل الجسم ، ذابل الوجه مثل رجل طاعن فى العمر ، ذو العينين التائهتين .

كان من واجبى ، بعد فتح الدكان ، ان اسرع الى اقرب حانة سعيا وراء الماء الحار . وكنا نتناول نصيبا من الشاى ، ثم اعمد الى ترتيب المحل ونفض الغبار عن الكتب والايقونات . وحين انتهى من هذا العمل فقد كان المطلوب منى هو الوقوف عند باب المحل والعمل على اجتذاب الزبائن الى دكاننا بالاحرى من دكان جارنا .

كان البائع يعالننى فى ثقة :

— الزبائن حمقى . سواء لديهم المكان الذى يبتاعون حاجتهم منه ، شرط ان تكون رخيصة : انهم لا يعرفون الصالح من الطالح !

ويصفق حوافى الايقونات ببعضها بعضا برشاقة وهو يلقننى دروسى ، مبينا معرفته بشؤون التجارة :

— هذه قطعة رائعة . . . رخيصة جدا ، قياسها ثلاثة فى اربعة . . . تساوى ثمنها . وهذه قطعة اخرى : ستة فى سبعة . . . تساوى ثمنها ايضا . اتعرف القديسين ؟ حاول ان تتذكر : فونيفاتى . . . لعلاج السكارى ؛ الشهيدة فارفارا . . . لوجع الاضراس والموت المبكر ؛ فاسيلى القديس . . . للحمى والهذيان . هل تعرف العذارى ؟ انظر :

العذراء الحزينـــة ؛ العذراء ذات الاذرع الثـــلاث ؛ العذراء الباكية ؛ ايتها العذراء خففـــى بؤسى ؛ عذراء قازان ؛ عذراء بوكروف ؛ عذراء سيمستريلنايا . . .

وسرعان ما حفظت اسعار الايقونات تبعـــا لحجمهـــا وصناعتها ، وتعلمت ان اميز صور العذراء المختلفة ، لكنى وجدت صعوبة كبرى فى حفظ الفوائـــد المخبأة لدى مختلف القديسين .

كان بائع المحل يمتحن معرفتى كلما ضبطنى غارقـــا فى احلام اليقظة عند الباب :

– من هى العذراء التى تخفف آلام الولادة ؟

فاذا كان جوابى خاطئا قال فى احتقار :

– ما فائدة رأسك اذن ؟

لكن حث الزبائن على الشراء كان اصعب من ذلك على ايـــة حال . كنت اكره الوجوه القبيحة المصورة على الايقونات ولا ادرى كيف ابيعها . ولقد اوحت لى اقاصيص جدتى ان العذراء صبية وطيبة وجميلة . وهكذا كنت اجدها فى صور المجلات ؛ لكنها كانت تبدو فى الايقونات عجوزا خبيثة ، لها انف طويل معقوف ويدان قصيرتان .

كانت اعمالنـــا تسير بصورة ممتازة فى ايام السوق – الاربعاءات والجمع . فلا يبرح يتسلق درجاتنا فلاحون مختلفون وعجائز ، وفى الاحايين عائلات كاملة – وهم جميعا من اتباع الايمان القديم ، اناس عابسون ، متشككون ، من الغابات الواقعة ما وراء الفولغا . كنت اشاهد رجلا ضخما ، مقمطا بثيابه المصنوعة من الغزل البيتى وجلد الخراف يقترب متمهلا

على طول الشرفة فكأنه يخاف من انهيار مفاجىء ، فيجتاحنى الخجل والضيق من الاقتراب منه . وكنت ابذل جهدا فائقا كى انتصب فى طريقه واروح ارقص حوالى حذائيـــه الضخمين واوزّ مثل البعوضة :

– ماذا تريد ، يا سيدى ؟ كتب الصلوات ، المزامير مع هوامش وتعليقات ، مؤلفات يفريم سيرين وكيريـــل . هلا تفضلت والقيت نظرة . لدينا مختلف الايقونات . . . اسعار مختلفة ، واجود صناعة ، والوان عاتمة . ونحن على استعداد لرسم اى قديس او عذراء حسب الطلب . لعلك تريد ان توصى على القديس الشفيع لاحد معارفك ، او قديس العائلة ؟ ان معملنا هو افضل معمل فى روسيا . ومحلنا افضل محل فى المدينة !

كان الزبون غير المتأثر يحدق فى تحديقا صامتا فترة من زمن ، فكأنى كلب . ثم يدفعنى جانبا على حين غرة بيد قاسية ويدخل الدكان المجاور ، بينا يحك البائع فى محلنا اذنيه الكبيرتين ، ويتمتم فى غضب :

– لقد افلته اذن . تفو ! يا لك من بائع رائع !

وفى هذه الاثناء يدفدف الينا من المحل المجاور صوت ناعم يسكب كلمات معسولة :

– يا صاحبى العزيز ، نحن لا نتاجر بجلود الخراف ، ولا بالاحذية الجلدية ، بل ببركات الله ، وهى اثمن بما لا يقاس من الفضـــة والذهب ، بل هى تتجـــاوز اى ثمن دنيوى . . .

ويهمس عامل محلنا فى غيرة واعجاب :

– لعنة الله ! اصغ اليه كيف يمسح بالزبدة اذنى ذلك الزبون ! تعلم منه !

جربت مخلصا ان اتعلم ، مؤمنا انى ما دمت قبلت هذا العمل فلا بد لى من القيام به بصورة جيدة . لكننى كنت قليل المهارة فى الايقاع بالزبائن واقناعهم بالشراء . كنت ارثى ابدا لهؤلاء الرجال الساكتين ، العابسين ، واولئك العجائز البائسات الشبيهات بالفئران بملامحهن المذعورة الذليلة . وكنت احس ابدا الرغبة فى ان اهمس فى آذانهم بما تساويه الايقونات حقا وفعلا ، بحيث لا يخدعون فيدفعون عشرين كوبيكا زيادة عن استحقاقهم . وكانوا جميعا يتراءون فى ناظرى على درجة عظيمة من الفقر والجوع بحيث كنت اتساءل كيف يستطيعــون ان يدفعوا ثلاثة روبلات ونصف الروبــل ثمنا لكتاب المزامير ، وهو اكثر الكتب شعبية .

كنت ادهش لمعرفتهم بالكتب المقدسة وتقديرهم لرسم الايقونات . وذات يوم ، قال لى رجل عجوز كنت احاول اغراءه بالدخول الى الدكان :

– انت لا تقول الحقيقية ، يا صبى ، عندمـــا تعلن ان معملكم هو افضل معمل فى روسيا . ان افضل معمل هو معمل روغوجين فى موسكو .

خطوت جانبا وقد غمرنى الخجل ، بينا تابع العجوز سبيله فى بطء دون ان يدخل المحل المجاور .

قال بائع المحل فى غيظ :

– هل ضبطك ؟

– انت لم تحدثني قط عن معمل روغوجين . . .

فراح البائع يسبّ ويلعن :

– المخلوقات الهادئة المتلصصة من امثالـــه هي التي تتجول فى مسكنة دائما ، عارفة كل شيء ومتحدثة عن كل شيء . يا للأفعى !

كان هذا الرجل المغرور المتعجرف ، بسيماه الجميلـــة الناعمة ، يضمر حقدا عظيما للفلاحين ، وقد قال لى ذات مرة وقد صفا مزاجه :

– انا ذكى ، واحب الاشياء النظيفة والروائح الجيدة – البخور ، وماء الكولونيا ، وما شابه من اشياء . فتصوّر اذن شخصا له ذوقى يضطر الى الانحناء والتزلف للفلاح كيمـــا تحصل صاحبة المتجر على كوبيكاتها الخمسة ! كيف تحسب انى اهضم ذلك ؟ وما هو الفلاح على اية حال ؟ جلد نتن ! فأر يزحف على الارض ! وانا . . .

وسكت حائرا .

كنت احب الفلاحين ، واحس شيئا خفيا فى كل منهم ، مثلما كانت حالى مع ياكوف .

ويدلف الى المحل شخص متثاقل الحركات ، يرتدى ثوبا طويلا ضيقا فوق فروته ، ويخلع طاقيته الفرائية ، ويرسم اشارة الصليب على وجهه باصبعين فقط ، وقد تعلقت عيناه بزاوية الايقونات حيث يلتهب القنديل ، ثم يلتفت متفاديا رؤية الايقونات غير المقدسة . ويعلن اخيرا ، ملقيا حواليه نظرة صامتة :

– اعطنى احد كتب المزامير مع تعليقات !

ويقلب كمى ثوبه ويروح يجهد نفسه طويلا فوق حروف

الصفحة الاولى ، محركا دونما ضوضاء شفتيه المتشققتين ، المصبوغتين بلون الارض .

– لعل لديكم شيئا اقدم من هذا ؟

– الكتب المقدسة القديمة تكلف ، كما تعلم الاف الروبلات . . .

– اعلم ذلك .

ويرطب اصبعه ويقلب الصفحة ، تاركا فى هامش الصفحة لطخة قاتمة . ويحملق بائع المحل حانقا فى قمة رأس المشترى ، ويقول :

– الكتب المقدسة تعود جميعا الى ذات التاريخ الواحد . فالرب القدير لا يبدل كلامه . . .

– سمعنا هذا كله . الرب لا يبدل كلامه ، لكن نيكون يفعل ذلك . . .

ويطبق الزبون الكتاب ، ويغادر الدكان صامتا .

كان هؤلاء الناس يناقشون احيانا عامل المحل ، فأرى انهم يعرفون الكتب المقدسة بصورة افضل من معرفته بها .

ويتمتم البائع :

– يا للوثنيين الموحلين !

وكنت أرى كذلك ان الزبون ، رغما عن عدم محبته للكتب الحديثة ، ينظر اليها باحترام ويمسك بها بحذر ، فكأنه يخاف ان تطير كالعصفور من يده . ولقد سرنى ذلك كثيرا ، لانى كنت ارى فى الكتاب شيئا مدهشا ، يضم بين دفتيه روح المؤلف . ولقد كنت احرر هذه الروح كلما قرأت كتابا ، فاذا هى تتصل بى بصورة عجيبة .

وكثيرا ما كان هؤلاء الرجال والنساء المتقدمين فى السن يعرضون علينا ان نبتاع منهم كتبا عتيقة يعود تاريخها الى ما قبل نيكون المصلح ، او كانوا يأتون الينا بقوائم عن هذه الكتب ، مكتوبة بخط جميل لبعض الراهبات فى مناطق نهرى ارجيز او كيرجينيتس ، وكانوا يحملون الينا كذلك نسخا عن «حياة القديسين» لم تراجع من قبل ديمترى روستوفسكى ، وايقونات قديمة ، وصلبانا واطارات ثلاثية نحاسية مطلية بالميناء مصنوعة فى المنطقة البحرية ، وملاعق فضية اهداها امراء موسكوفيون الى اصحاب الحانات الذين نالوا رضاهم . وكانت سائر هذه الاشياء تفرض علينا فى الخفاء ، مع نظرات سريعة موجهة الى مختلف الانحاء .

وكان بائع محلنا والجار حريصين على تلقف مثل هذه العروض ، يتسابقان فى عقد مثل هذه الصفقات الماكرة ، ولا يدفعان اكثر من بضعة روبلات ثمنا لكنوز قديمة يبيعانها فيما بعد فى الاسواق بمئات الروبلات للاثرياء من اتباع الايمان القديم . وكان بائع المحل يحذرنى قائلا :

— افتح عينيك جيدا على مثل هؤلاء العفاريت والساحرات . انهم يحملون ثروات فى لفائفهم .

واذا ما تلقى عرضا جيدا اسرع يرسلنى خلف بيوتر فاسيليفيتش الذى كان يملك معرفة كاملة بشؤون الكتب والايقونات القديمة ، وما شابهها من اشياء .

وكان بيوتر فاسيليفيتش رجلا عجوزا مديد القامة ، ذكى العينين ، لطيف المحيا ، ذا لحية طويلة اشبه بلحية فاسيلى المقدس . وكان يحمل عصا على الدوام لانه فقد اصابع احدى

قدميه ويظلع فى مشيته . وكان يرتدى صيف شتاء معطفا خفيفا يشبه ثوب الكهنة ، ويلبس قبعة مخملية حوضية الشكل . على الرغم من اعتدال ظهره ونشاط حركاته فقد كان يحنى كتفيه حالما يدلف الى الدكان ، ويقوس ظهره ، ويروح يتنهد بلطف ويرسم اشارة الصليب باصبعين على طريقة اتباع الايمان القديم ، متمتما بالصلوات والمزامير . وكان ضعف الشيخوخة هذا والتقوى يوحى بالعطف والثقة لبائعى الاشياء النادرة .

ويسأل العجوز :

– ما هو العمل الدنيوى الذى تطلبون منى ؟

– لقد جاءنا هذا الرجل بايقونة . . . وهو يزعم انها من طراز ستروغانوف .

– طراز من ؟

– طراز ستروغانوف .

– ان سمعى ثقيل قليلا ، فالرب قد حمى أذنى ضد الاشياء الشريرة التى ينشرها اتباع نيكون . . .

ويخلع طاقيته ، ويمسك بالايقونة بصورة افقية ، ويروح يتفحص سطح الدهان ، ثم جوانب الايقونة ، والاطار الخشبى ، مضيّقا فرجتى عينيه ومتمتما :

– ان اتباع نيكون الهراطقة ، وقد رأوا اعجابنا بالصناعة القديمة ، وتعلموا من الشيطان حيله ، ينسخون هذه الايام الصور المقدسة بمهارة نادرة . . . بمهارة مذهلة حقا . وان الصورة لتلوح لدى النظرة الاولى من طراز

ستروغانوف فعلا ، او أوستيوغ ، او حتى سوزدال . لكن نور العين الباطنة يفضحها حالا بوصفها تزويرا !

واذا سمّى الايقونة تزويرا فهى نادرة غالية الثمن من دون ريب . وعندئذ يروح يلقن بائع المحل ، بعبارات متفق عليها سلفا ، المبلغ الذى يمكن ان يدفعه ثمنا لها او لكتاب نادر . وهكذا عرفت ان كلمتى «الكآبـــة والانكسار» تعنيان عشرة روبلات ، بينا «النمر نيكون» تعنيان خمسة وعشرين روبلا . وكان أسلوبهما فى خداع صاحب اللقية مخجلا حقا .

بيد أن اللعبة التى يلعبها الرجل العجوز تثير فضولى :

– ان اتباع نيكون ، هؤلاء الذرية السود للنمر نيكون ، قد تعلموا من الشيطان ان يصنعوا مختلف الامور . . . خذ هذه الايقونة مثلا . انت تحسب ان اساسها صحيح ، وان الثياب رسمها رسام واحد ، لكن انظر الى الوجه فحسب . . . الوجه مصنوع بفرشاة اخرى . ان المعلمين القدامى ، حتى اذا كانوا هراطقة مثل سيمون اوشاكوف ، كانوا يرسمون الصورة كلها بايديهم . . . الثياب ، والوجـــه ، وينحتون السطح ، ويضعون الاساس . لكن المخلوقات البائســـة فى ايامنا الحاضرة لا تستطيع ذلك ! لقد كان رسم الايقونات فى الماضى عملا سماويا . اما الآن ، ايها المؤمنون الحقيقيون ، فهو مجرد صنعة !

واخيرا يضع الايقونة على الطاولة فى حذر ويلبس طاقيته قائلا :

– فلتثقلن الخطيئة ارواحهم !

وهذا يعنى : عجّل واشتر الايقونة .

وكان صاحبها يسأل متهيبا ، وقد جرفته بلاغة العجوز واذهلته معرفته الواسعة :

– وماذا عن الايقونة اذن ، ايها الاب المحترم ؟

– ان الايقونة من صنع اتباع نيكون .

– لكن كيف يمكن ان يكون ذلـــك ؟ اجدادنا واجداد اجدادنا صلّوا لهذه الايقونة . . .

– لقد عاش نيكون قبل اجداد اجدادك .

ويرفع العجوز الايقونة امام وجه صاحبها ، ويقول بنغمة ذات معنى :

– أنظر البهجة التى فيها . . . أتسمى هذا ايقونة ؟ هذه صورة مجردة ، فن اعمـــى ، هوى من اهواء اتباع نيكون . وليس فى مثل هذا العمل اى روح على الاطلاق . اترانى كنت انطق بالكذب ؟ انا رجل عجوز ، مضطهد من اجل الايمان ، وسرعان ما سأغدو لملاقاة ربى . ما عسانى اربح حتى أبيع روحى ؟

ويخرج من الدكان الى الشرفـــة ، متظاهـــرا بضعف الشيخوخة ، وبالتأثر من التشكك الذى قوبل حكمه به . وكان بائع المحل يدفع بضعة روبلات ثمنا للأيقونة ، ثـــم يخرج صاحبها وهو ينحنى كثيرا لبيوتر فاسيليفيتش ، فيما ارسل بدورى لاجلب من الحانة ماء ساخنا . وكنت اجد عند عودتى الرجل العجوز وقد استردّ من جديد مرحه ونشاطه يحدّق فرحا فى الايقونة المشتراة ، ويقول للبائع :

– انظر مبلغ الروعة والبساطة فى تصويرها . ان مخافة

الله ظاهرة بين الخطوط . . . وكل ما هو انسانى مطروح بعيدا . . .

ويسأل بائع المحل ، وهو يقفز فى ارجاء المكان فى هياج ، متألق العينين :

– من هو صانعها ؟

– ليس لك بعد ان تعرف ذلك .

– كم يدفع رجل مطلع ثمنا لها ؟

– لا أدرى . سوف أريها لاحدهم . . .

– آه ، بيوتر فاسيليفيتش . . .

– واذا بعتها ، فسيكون نصيبك خمسين روبلا ، وكل ما زاد عن ذلك فهو لى !

– آه . . .

– دعنى من تنهيداتك . . .

ويجرعان الشاى وهما يناقشان الصفقة دونما خجـــل ، ويتفحصان بعضهما بأعين لصوصية . وكان من الواضح ان بائع المحل واقع بصورة كلية تحت رحمة العجوز الذى لا يكاد يغادر المكان حتى يخاطبنى البائع قائلا :

– حذار ان تعرف صاحبة المحل شيئا عن هذه الصفقة !

وحين تتم الترتيبات الخاصة ببيع الايقونة ، يعلن بائع المحل قائلا :

– ماذا فى المدينة من جديد ، يا بيوتر فاسيليفيتش ؟

فيربت العجوز على شاربيه بيد صفراء ، كاشفا عن شفتيه الزيتيتين ، ثم ينطلق فى حديث طويل عن حياة التجار الأغنياء ، والصفقات الناجحة ، والامراض ، وعقود الزواج ، واحداث

الخلاعة ، وخيانات الأزواج والزوجات . كان يطبـــخ هذه الاقاصيص بمهارة الطاهى المجرب ، ومن ثم يصب عليهـــا عصير ضحكه الصافر . وكان وجه بائع المحل المدور يحمر بسرور غيور ، بينا تروح عيناه تبرقان بصورة حالمة وهو يقول متنهدا :

– يا للحياة التى يعيشها بعض الناس ، فيما أنا . . .

فيهدر العجوز قائلا :

– لكل انسان نصيبـــه فى الحياة . فهذا انسان صنعت الملائكة حياته بمطارق فضيـــة صغيرة ، وذاك انسان صهر الشيطان حياته بالنهاية اللاهبة لفأس حديدية .

كان هذا العجوز القوى الضليع يعرف كل شيء – حياة المدينة بأسرها ، وجميع اسرار التجار ، والموظفين ، والكهنة ، واصحاب الحرف . وكان حاد البصر مثل النسر ، وفيه خصائص الذئب والثعلب على السواء . وكنت اود على الدوام ان اعنفه ، لكن طريقته فى التحديق فىّ فكأنه يرانى من بعد بعيد تجردنى ابدا من سلاحى . وكان يصور لى أنه محاط بهاوية ستبتلع كل من يجرؤ على الاقتراب منه . وكنت احس ان ثمة شيئا مشتركا بينه وبين الوقاد ياكوف شوموف .

كان بائع المحل مفتونا بذكاء العجوز ، يعترف بذلك فى وجهه ووراء ظهره ، لكن ثمة لحظات يريد فيها هو الآخر مثلى انا ان يغضبه ويهينه .

قال للعجوز ذات مرة ، وهو يحدّق فيه متحديا :

– يا لك من ماكر خداع !

فاجاب العجوز مقهقها بتكاسل :

- الله وحده لم يخدع الناس قط ! اما نحن الآخرين ، فاننا نحيا من خداع الحمقى من الناس . اذا كنت لا تستطيع ان تخدع رجلا احمق ، فما الفائدة منه اذن ؟

فاستشاط بائع المحل غضبا :

- الفلاحون ليسوا حمقى جميعا . فالتجار انحدروا منهم !

- اننا لا نتحدث عن اولئك الذين صاروا تجارا . الحمقى لا يصبحون مختلسين قط . الحمقـــى قديسون لا عقول فى رؤوسهم . . .

كان العجوز لا يبرح يتشدّق بكلماته المتمهلة بصورة مثيرة حتى الدرجة القصوى . كان أشبه بامرئ يقف على كتلة من التراب فى وسط مستنقع . وكان ازعاجه امرا مستحيلا ، فاما أنه لم يكن عرضة للغضب مطلقا ، او انه كان يعرف كيف يخفى عنى هذا الغضب .

لكنه ما اكثر ما كان يحاول اغاظتى ، فيقرب منى وجهه ، ويقهقه فى لحيته ، ويقول :

- قل لى مرة اخرى ماذا تدعو ذلك الكاتب الفرنسى - بونتوس ؟

كانت طريقته فى تشويه الاسماء تثير نقمتى ، لكنـــى اتمالك نفسى واجيب :

- بونسون دى تيرال .

- من يتبع ؟

- لا تكن احمق . . . انت لم تعد طفلا .

- انت على حق ، فأنا لست طفلا . ما هذا الذى تقرأ ؟

- يفريم سيرين .

- من يكتب بصورة افضل - كتّاب القصص ام هو ؟
فما أعطيت جوابا .
عاد يقول :
- ما الذى يكتب عنه كتاب القصص غالبا ؟
- عن كل ما يجرى فى العالم .
- عن الكلاب والجياد ؟ هؤلاء يجرون ايضا .
فقهقه بائع المحل واستشطت انا غضبا . ولم استطع امتناعا عن الفرار الا بصعوبة جمة ، لكننى اذا حاولت مغادرة المكان فلسوف يهتفن البائع بى اذن :
- اين تذهب ؟
واستمر العجوز فى اختبار قدرتى على الصبر :
- حاول اذن ان تحل هذه الاحجية ، يا طويل الرأس : الف انسان عار يقفون امامك - خمسمائة رجل وخمسمائة امرأة ، وبينهم آدم وحواء . وكيف تستطيع ان تعرف آدم وحواء من بينهم ؟
وبعد ان يضايقنى برهة من الزمن يعلن ظافرا :
- ايها البليد ! لقد خلقهما الله دون ان يولدا ، وهذا يعنى انهما عديما السرّة !
كان العجوز يعرف عددا لا يحصى من هذه «الاحاجى» ولا يبرح يعذبنى بها .
كنت رويت للبائع ، فى الايام الاولى من وجودى فى المحل ، اقاصيص بعض الكتب التى قرأتها ، الامر الذى ندمت له فيما بعد . ذلك ان البائع رواها من جديد لبيوتر فاسيليفيتش ، مشوها اياها عن قصد ، معطيا لها تفسيرا

فاجرا . وكان العجوز يساعده فى هذا المضمار بما يطرح عليه من أسئلة بذيئة . وهكذا دنس لساناهما القذران شخصياتى المحبوبة ، اوجينى غرانديه ، ولودميلا ، وهنرى الرابع .

وعرفت أن الضجر او بالاحرى الخبث هو الذى يحملهما على ذلك ، لكن معرفتى هذه لم تخفف العبء عن قلبى . كانا يتمرغان كالخنازير فى وحل من صنعهما ويقبعان بلذة تدنيسهما للاشياء الجميلة ، هذه الاشياء التى يجدانها غريبة عصية على الفهم ، وبالتالى مضحكة .

كان الخان بأسره ، بتجاره وباعته ، يعيش نوعا مخصوصا من الحياة ، واجدا لذة فى لعب حيل لا تقل بلاهتها وحذرها عن شرها . فاذا ما سأل فلاح هبط مدينتنا للمرة الاولى عن عنوان ما ، فقد كانوا يرسلونه دائما فى الاتجاه المعاكس . ولقد اصبح هذا العمل سلوكا مبتذلا جدا حتى لم يعد مسليا فى حال من الاحوال . وكان التجار يمسكون بجرذين ويربطون ذنبيهما ، ثم يروحون يراقبونهما وهما يتخبطان ، يعضان بانيابهما ، ويضربان بارجلهما ،ويندفعان فى اتجاهين متعاكسين . بل لقد كانوا يصبون فى الأحايين بترولا على المخلوقين البائسين ويشعلون النار فيهما . وفى اوقات اخرى يربطون وعاء من القصدير فى ذيل كلب ، فيندفع الحيوان المذعور نابحا ، والوعاء يضج الى الوراء منه ، بينا الحضور ينفجرون ضاحكين .

كانوا يقومون بعدد كبير من امثال هذه الالاعيب ، فكأن كل الناس – وعلى الاخص الفلاحين القادمين من القرى – لا غاية لوجودهم سوى تسلية اهل الدكاكين . كان التجار

وعمالهم يبحثون باستمرار عن فرصة للسخرية من امرئ ما او ايلامه وازعاجه ، وكان من الغريب ان الكتب التى قرأتها لا تقول شيئا عن هذا الانحراف .

ولقد أثارت احدى هذه التسليات فى الخـــان اشمئزازى بصورة مخصوصة .

كان فى متجر الصوف واللباد الواقع تحت دكاننا عامل طارت له شهرة فى النهم فى مختلف انحاء السوق السفلى . وكان صاحب المتجر يتباهى بقدرة عاملـــــه على استهلاك الطعام مثلما يتباهى الناس بوحشية كلابهم او قوة جيادهم . وكثيرا ما كان يتراهن مع جيرانه :

– من يراهن على عشرة روبلات ؟ أنا مستعد لاراهن أيا كان على ان ميشا سيبتلع عشرة ارطال من لحم الخنزير فى ساعتين !

لكن احدا لم يكن يشك فى قدرة ميشا على هذا الصنيع ، فهم يقولون :

– اننا لا نراهن . لكننا مستعدون لشراء اللحـــم . فليأكله ويدعنا نراقبه .

– لكن الارطال العشرة يجب ان تكون من اللحم الخالى من العظام !

ويناقشون الرهان فترة من الزمن بداعى الضجر ، حتى يتسلق اخيرا من المخزن العاتم فتى نحيل ، حليق الذقن ، بارز عظام الوجنتين ، يرتدى معطفا طويلا تغطيه خصـــل الصوف ويحزمه فى وسطه زنار احمر . ويعرى رأســـه باحترام ، ويوجه نظرة غامضة من عينين غائرتين الى وجـــه

معلمه المدور المترهل ، الاحمر اللون ، المغطى بلحية شائكة خشنة .

ويسأل المعلم :

– أتستطيع ان تأكل هذا اللحم ؟

فيجيب ميشا فى صوت رفيع رزين :

– فى كم من الوقت ؟

– فى ساعتين .

– سيكون ذلك امرا شاقا !

– ليس شاقا عليك !

ويسأل ميشا :

– أتضيفون اليه زجاجتين من الجعة ؟

فيقول المعلم :

– هيا . باشر !

ويلتفت الى جيرانه متباهيا :

– لا تحسبوا ان معدته فارغة الآن . أوه ، كلا . لقد أفطر هذا الصباح على رطلين من الخبز ، وتناول ظهرا غداء دسما . . .

ويأتون بلحم الخنزير ، ويتجمع جمهور من المتفرجين ، جميعهم من التجار المجربين ، تقمطهم بشدة معاطف شتوية ثقيلة تعطيهم مظهر اثقال ضخمة . انهم اناس كبار البطون ، مدفونة عيونهم الصغيرة فى الشحم ، ناعسة مليئة بالضجر .

يدخلون ايديهم فى اكمامهم العريضة ، ويزدحمون فى حلقة ضيقة حول الفتى الاكول ، المسلح الآونة بسكين ورغيف من خبز الشعير . ويتخذ الفتى مجلسه على كومة من الصوف ، بعد

ان يبدأ قبلا يرسم اشارة الصليب عدة مرات بسرعة فائقة ، ويضع اللحم على صندوق خشبى ، ويتفحصه بعينين فارغتين .

ومن ثم يقتطع شريحة رقيقة من الخبز وشريحة سميكة من اللحم ، ويضع الشريحة الواحدة بعناية فائقة فوق الشريحة الاخرى ، ويرفعهما بكلتا يديه الى فمه . ويلحس شفتيه الراعشتين بلسان طويل ، مثـــل كلب يكشف عن اسنان صغيرة حادة ، ويطبق أخيرا فكيه على طعامه مثل الكلب .

– لقد بدأ !

– سجلوا الوقت !

وتشخص العيون جميعا الى وجه الاكول ، الى فكيـــه الماضغين ، والى البروزين المتحركين الى الامام من أذنيه ، والى الصعود والهبوط الموقعين لذقنه . ويتبادلون الآراء بين الفينة والفينة .

– انه يمضغ مثل الدب !

– أرأيت قط دبا يأكل ؟

– وهل عشت فى الغابات ؟ ذلك مجرد قول سائر : انه يمضغ مثل الدب .

– ان القول يقول : يمضغ مثل خنزير .

– الخنازير لا تأكل لحم الخنازير .

ويضحكون بصورة كئيبة . ويضيف أحد المتفلسفين :

– الخنزير يأكل كل شيء . . . حتى ذريته ، او شقيقته ذاتها . . .

ويصير وجه الاكول احمر اللون بصورة تدريجية ، وأذناه

زرقاوين ، وتجحظ عيناه الغائرتان ويخشن تنفسه . لكن ذقنه يتابع حركته بانتظام دون هوادة .

ويستحثونه :

– اسرع ، يا ميشا . . . فوقتك يكاد ينتهى .

فيلقى على بقية اللحم نظرة قلقة ، ويتناول جرعة من الجعة ، ويستمر يمضغ . ويزداد هياج الحاضرين ، ويتطلعون مرارا وتكرارا الى الساعة فى يد معلم ميشا . ويبدأون ويحذرون بعضهم بعضا :

– حاذر ان يرجع العقارب الى الوراء . يفضل ان نأخذ الساعة من يده .

– راقب ، ميشا جيدا ، فقد يحاول دس شىء من اللحم فى كمه !

– انه لن يأكل المقدار كله فى الوقت المحدد !

ويهتف معلم ميشا فى طيش :

– أراهن عليه بخمسة وعشرين روبلا ! لا تخذلنى ، يا ميشا !

ويهتف الحضور مشجعين ، لكن ايا منهم لم يقبل الرهان .

ويستمر ميشا يمضغ ويمضغ ، وقد اصبح وجهه شبيها باللحم الذى يطعمه ، بينا أنفه الحاد الغضروفى يصفر شاكيا . كانت رؤيته امرا مخيفا ، وانا اتوقع منه فى كل برهة ان ينفجر باكيا ويصيح :

«ارحمونى !»

أو لعله سيتهاوى عند اقدام المتفرجين ويلفظ انفاسه الاخيرة ، فيما يكون حلقه مليئا باللحم حتى الذروة تماما .

وينهى ميشا لحم الخنزير اخيرا ، فيدير فى الحاضرين أبصاره ويلهث اعياء :

– أعطونى جرعة ماء .

ويتطلع معلمه الى الساعة ، ويهمهم :

– لقد تأخر اربع دقائق ، ابن الحرام . . .

فيسخر الجمهور منه :

– من المؤسف اننا لم نقبل رهانك . لقد كنت تخسره اذن .

– لكنه ليس ثمة مجال لانكار قدرة الفتى !

– ان مكانه فى السيرك .

– يا للعجائب التى يصنع الرب احيانا فى بعض الناس !

– حسنا ، فلنتناول قليلا من الشاى . ايه ؟

ويجرون صوب الحانة مثل قافلة من السفن الضخمة .

وكنت اتساءل ما الذى يجعل هؤلاء الناس المهيبين ، ذوى الجثث الضخمة ، يزدحمون حول ذلك الفتى البائس . اية تسلية يجدون فى مثل هذا النهم الضار ؟

ان رواق الخان الضيق يمتدّ عاتما كئيبا ، مزروعا ببالات الصوف ، وجلود الخراف ، والقنب ، والحبال ، واحذية اللباد ، واسرجة الاحصنة . وكان ينفصل عن ارض الشارع بأعمدة من الآجر ، كثيفة مشوّهة ، هدمها القدم وسودتها اوساخ الشارع . ويبدو أنى أحصيت آلاف المرات عدد الآجرات والشقوق التى بينها ، بحيث ان شبكة تقاطعها تغور عميقا جدا فى ذاكرتى .

كان المشاة يسيرون على الرصيف فى بطء ، فيما العربات

المحملة بالبضائع وعربات الركاب تنطلق فى الشارع بصورة لا تقل عنهم تمهلا . وكانت ساحة تقوم فى آخر الطريق تحيطها دكاكين مبنية من الاجر الاحمر ، تتألف كل منها من طابقين ، وكانت الارض هنا مزروعة بالصناديق الفارغة ، والقش ، وورق اللف ، وقد تمرغت جميعا فى الثلج القذر .

وكان يلوح ان هذه الاشياء جميعا ، بما فيهـــا الناس والجياد ، جامدة لا تتحرك رغما عن الحركة الدائبة وانها تدور فى بقعة واحدة قيدتها اليها سلاسل خفية . كنت اجد ان هذه الحياة تشكو فقرا عظيما فى الاصوات يجعلها بكماء على وجه التقريب . ان دواليب العربات تصر فوق الثلـــج ، وابواب الدكاكين تصطفق ، وبائعى الفطائر والحلويات ينادون على بضاعتهم ، لكن الاصوات الانسانية كئيبة ميتة متشابهة حتى درجة بعيدة بحيث تكف الاذن سراعا عن سماعها .

وكانت اجراس الكنائس تدق بصورة جنائزية . ولن انسى قط صداها الموحش الكئيب . كان هذا الصدى يسبح منذ الصباح حتى الليل فوق محلة السوق ، مخترقا سائر افكار المرء وعواطفه ، مغطيا سائر انطباعاته براسب نحاسى .

كان ضجر بارد مرهق يشع من كل شيء — من الارض تحت غطائها من الثلج القذر ، ومن الثلج الرمادى المتراكم فوق السطوح ، ومن قطع آجر الابنية المحمرة بلون اللحم . وكان الضجر ينسل من دخان المداخن العاتم ويزحف عبر السماء الواطئة ، الرمادية ، المقفرة . وكان الضجر يموج من أعطاف الجياد ومناخر الناس . ولقد كانت له رائحته الخاصـــة المتميزة — الرائحة المرهقة الثقيلة للعرق ، والشحـــم ،

والدخان ، وزيت بذور القنب ، والفطائر الدسمة . انه يطبق على الرأس مثل طاقية ضيقة حارة وينفذ فى المسام ، مسببا نوعا من التسمم يجعل المرء راغبا فى اغلاق عينيه ، والصياح بكل قواه ، والاندفاع نحو اول جدار ليدق به رأسه .

وما أكثر ما كنت ادرس وجوه التجـــار - هذه الوجوه البشماء ، المشبعة دما كثيفا غنيا ، الملسوعة بالصقيع ، الجامدة فكأنها غارقة فى النوم . وما اكثر ما كانوا يتثاءبون ، فيفتحون أشداقهم مثل السمك الملقى على الشاطىء .

كسدت التجارة فى الشتاء ، فاذا عيون التجار ينقصها ذلك البريق الحذر الذى كان يحييها ويكاد ان يجملها صيفا . وكانت معاطفهم الثقيلة تعوق حركاتهم وتسمرهم فى الارض . انهم يتحدثون فى تكاسل ، ويتجادلـــون اذا مـا غضبوا . وكان يخيّل الىّ انهم يفعلون ذلك عمدا - انهم ليفعلون اى شىء ليبرهنوا لبعضهم انهم أحياء !

وكنت أرى بكل وضوح انهـــم يذوون تحت وطأة هذا الضجر الذى يهلكهم جميعا ، فلا استطيع ان افسر تسلياتهم القاسية العديمة المعنى الا بوصفها جهدا يائسا فى سبيـــل مكافحة ذلك الضجر .

كنت اتحدث احيانـــا الى بيوتر فاسيليفيتش فى هذا الموضوع . ان موقفه منى على العموم مشبع سخرية وتهكما ، لكنه مسرور مع ذلك من حبى للكتب ، وهو يرنو الىّ مـــن حين لآخر بصورة جدية .

قلت :

- انا لا احب اسلوب التجار فى الحياة .

فسأل ، وهو يلف باصبعه قسما من لحيته :

– كيف لك ان تعرف كيف يعيشون ؟ او لعلك تذهب الى زيارتهم كثيرا ؟ هذا هو الشارع ، يا صغيرى ، والناس لا يحيون فى الشارع . انهم يتاجرون فى الشارع ، او يعبرونه مسرعين ، فى طريقهم الى البيت . ان الناس ، فى الشارع ، يلتقون بثيابهم ، ولا يمكن بالتالى ان نعرف ما هى حقيقتهم تحت الثياب . ان المرء لا يعيش حياته علنا الا عندما يكون فى بيته ، بين جدرانه الاربعة . لكن كيف تكون حياته اذن ؟ هذا ما لا قبل لك بمعرفته .

– لكن افكارهم هى نفسها ، سواء فى البيت ام هنا .

فقال العجوز فى نقمة ثقيلة ، محدقا فىّ بصرامة :

– من يستطيع ان يعرف فيم يفكّر جاره ؟ الافكار كالقمل ، حسب تعبير القدامى ، لا يمكن احصاؤها . لعل شخصا ما يتهاوى على ركبتيه ، حين يصل الى بيته ، بل يروح يبكى ويصلى : «أغفر لى ، يا رب ، لانى اخطأت فى نهارك المقدس !» ، او لعل بيته يكون ديرا له حيث يعيش مع الله وحيدا . ان لكل عنكبوت زاويتها الخاصة – انسجى شباكك ، لكن اعرفى وزنك ، كيما تحملك تلك الشباك . . .

كان صوته يزداد عمقا حين يتحدث جادا ، فكأنه يسر الىّ سرا عظيما .

– هذا انت تناقش الامور ، والوقت لا يبرح مبكرا بالنسبة اليك كى تفعل ذلك . فى سنك يجب عليك الا تحيا بعقلك ، بل بعينيك . وبكلام آخر ، انظر ، وتذكر ، لكن أمسك لسانك . ان العقل مخصص للعمل مثلما الايمان مخصص

للروح ! وانه لمما يُنصح به ان يقرأ المرء كتبا ، لكن هنالك حدودا لكل شيء . وان بعض الناس يفرطون فى القراءة حتى يفقدوا عقولهم ، ويفقدوا الّهمم . . .

كان يصور لى ان الموت لا يمكن ان يطاله ، فما كنت استطيع ان اتخيله يتبدل او يشيخ . وكان يحب ان يروى قصصا عن تجار او لصوص او مزيفى نقود اصبحوا ذائعى الصيت . لقد سمعت عددا كبيرا من هذه القصص من جدى ، لكن جدى كان يرويها بصورة افضل منه . بيـــد ان فكرة القصص كانت هى نفسها على الدوام : كان الحصول على الثروة يتحقق ابدا عن طريق ارتكاب الخطيئـــة ضد الله وضد الانسان . ولم يكن بيوتر فاسيليفيتش يضمر اية محبـــة للبشر ، لكنه يتحدث بحب عن الله ، متنهدا وخافضا عينيه اثناء حديثه .

– انظر كيف يخدع الناس الّههـــم ، لكن الرب يسوع يراهم ويبكى من أجلهم : «أواه ، يا شعبى ، يا شعبـــى ، يا شعبى المسكين . ان الجحيم ينتظركم !»

وذات مرة وجدت الجرأة كى اقول له :

– لكنك تخدع انت الآخر الفلاحين . . .

ولم يغضب ، بل قال :

– هم . أنا لا ارتكب الا قليلا من الأذى ! كل ما افعل هو الحصول على ثلاثة او خمسة روبلات – هذا وليس شيئا آخر مطلقا .

وحين كان يرانى أقرأ ، فقد كان يأخذ الكتاب من بين

يدى ، ويسألنى باصرار عن محتوياته ، ويستدير نحو بائع المحل بشىء من الدهشة المتشككة :

– انظر اليه . . . انه يفهم الكتب ، هذا القرد الصغير !

ومن ثم يستدير الىّ يعلمنى بطريقة دقيقة غير قابلة للنسيان :

– أصغ الى كلماتى – فهى ستنفعك جيدا ! كان ثمة اثنان يدعيان كيريلوس ، وكلاهما من الاساقفة ، أحدهما أسقف الاسكندرية ، والآخر أسقف القدس . ولقد حارب أولهما الهرطوقى اللعين نطوريوس بتعاليمه الدنسة القائلة ان العذراء ليست سوى مجرد فانية من العالم ، وبالتالى فهى لا تستطيع أن تلد الالـه ، بل ولدت فقط انسانا يدعى المسيح ، مخلص العالم ، بحيث ينتج عن ذلك اننا لا نستطيع ان ندعوها ام الالـه ، بل ام المسيح . أتفهم ؟ وهذا ما يسمى هرطقة . أما كيريلوس القدس فقد حارب الهرطوقى اريوس . . .

كنت ادهش لمعرفته التاريخ الكنسى ، فيروح يمسح على لحيته بيد ناعمة بابوية ، ويقول متباهيا :

– انى جنرال فى هذه الامور . ولقد ذهبت الى موسكو فى عيد الثالوث المقدس لاصارع الالسنة المسمومة لاتباع نيكون المثقفين ، من كهنة وعلمانيين . ولقد تناقشت مع اعلم علمائهم . بل ان أحدهم اصيب برعاف لكثرة ما جلدته بلسانى . تصور ذلك !

وتوردّت وجنتاه ولمعت عيناه .

كان من الواضح انه يعدّ هذا الرعاف اعظم نصر حققه فى

حياته ، ياقوتة براقة فى تاج مجده الذهبى . وكان يتحدث عنه بلهجة ظافرة :

– كان فتى جميلا ، عملاقا حقيقيـــا . ووقف هناك ، فى المنبر ، دامى الانف ، دون ان يلحظ العار الذى لحق به . ولقد كان متوحشا مثل الليث ، صوته أشبه بناقوس طنّان . وكنت طوال الوقت ارمى كلماتى مثل الخناجر فى نفسه ، بكل هدوء ، بين الاضلاع تماما . وكان يتأجج بهرطقته الشريرة حتى أصبح حاميا مثل قمة المدفأة . تلك كانت اياما عظيمة !

وكان يؤم دكاننا رجال عقيدة آخرون ايضـــا . فهناك باخومى ، وهو رجل سمين ، بارز الكرش ، أعور ، مترهـــل الوجه ، اخن الصوت ، يرتدى على الدوام معطفا عتيقا دبقا . ثم هناك لوكيان العجوز ، وهو رجل صغير هزيل مثل الفأر ، طيب القلب ونشيط . وكان يرافقه ابدا انسان عريض الجسم عابس المحيا ، اشبه ما يكون بحوذى فظ ، اسود اللحية ، جامد العينين ، تحمل ملامحه الجميلة ، لكن الكريهة مع ذلك ، تعبيرا جامدا لا يتغير .

وكانوا يجربون بصورة دائمة تقريبا ان يبيعونا كتبـــا قديمة ، وايقونات ، ومباخر ، وآنيـــة كنسيـــة . وكانوا يصطحبون من حين لآخر أشخاصـــا آخرين – رجلا او امرأة عجوزا من وراء الفولغا – يعرضون علينا كذلك اشياء للبيع . واذا ما تمت الصفقة كانوا يجلسون على حافة المكتب مثـــل الديكة على السياج ، ويحتسون الشاى مع الفطائر او السكاكر المصنوعة مع الثمار ، ويتحادثون عن اضطهادات من جانب الكنيسة النيكونية . ان منزلا قد تعرّض للتفتيش وصودرت

منه كتب مقدسة ، او معبدا أغلق من قبل الشرطـــة الذين ساقوا المتعبدين فيه الى المحكمة بتهمة خرق المادة ١٠٣ .

كانت المادة ١٠٣ موضوع حديثهم المفضل ، لكنهم لا يشيرون اليها الا على مضض ، فكأنها امر محتوم ، مثلها مثل الجليد فى الشتاء .

وكانت كلمـــات الشرطـــة ، والتفتيش ، والسجن ، والمحكمة ، وسيبيريا — وهى كلمات لا يكفون عن استخدامها فى احاديثهم عما يلاقون من آلام فى سبيل الايمان — تسقط مثل الجمر اللاهب على قلبى ، مورثة فيه العطف والارادة الطيبة حيال هؤلاء الشيوخ . وكانت الكتب التى قرأت قد علمتنى الاعجاب بالشجاعة الاخلاقية واحترام أولئك الذين لا يترنحون فى تحقيق اهدافهم .

ونسيت ما لهؤلاء الرسل المبشرين بايمان قديم مـــن نقائص فردية ، واعيـــا فقط لصبرهم الهادىء الذى يقوم تحته — او هكذا خيـــل الىّ — ايمان لا يتزعزع فى صواب قضيتهم ، واستعداد لتحمل سائر المصاعب والالام فى سبيل هذه القضية .

وفيما بعد ، اثر التقائى بعدد كبير من مثل هؤلاء الناس بين المثقفين وبين الناس البسطاء على حدّ سواء ، أدركت ان صبرهم لا يعدو كونه سلبية أولئك الناس الذين لا يعرفون اين يذهبون بعد المكان الذى استقروا فيـــه ، والذين لا يملكون فى الحقيقة أدنى رغبة فى الذهاب قدما ، وقد وقعوا فى شباك الكلمات العقيمة والمفاهيم المهترئة . ولقد وهنت ارادتهم وأصبحت عاجزة عن التطور نحو المستقبل ، فلو

انهم تحرروا بصورة مفاجئة لتدحرجوا صوب الهاوية بصورة آلية ، مثل صخرة تتهاوى على عطف جبلى . لقد كانوا اسرى مقبرة من الافكار الميتة ، تسجنهم فيها قوة معدومة الحياة توجه انظارهــــم الى الوراء باستمرار ، وحب مريض للعذاب والاضطهاد . ولو انهم حرموا من فرصة العذاب ، فمما لا ريبة فيه أنهم سينضبون من كل جوهرهم ، ويتلاشون مثل السحب فى يوم لطيف شديد الرياح .

ومما لا يتطرق الشــــك اليــــه ان الايمان الذى كانوا مستعدين ليضحوا فى سبيله بانفسهم بمثل تينك اللهفــــة والكبرياء الذاتية ايمان ثابت الاركان ، لكنه يشبه ثيابــــا عتيقة جلبها الغبار والقذارة حتى جعلاها عصيــــة على تدمير الزمان . لقد اعتادت أفكارهم وعواطفهــــم ان تكون أسيرة صندوق ضيق من الاوهام والعقائد ، أما انهم قد تشوهوا وانغرسوا فى الارض ، فتلك حقيقة لم تكن تزعجهم فى حال من الاحوال .

وان هذا الايمان بحكم العادة يشكــــل ظاهرة من أكثر الظواهر شرا وضررا فى حياتنا . ان كل شىء جديد ينمو ببطء ، ملتويا هزيلا ، فى قيود مثل هذا الايمان ، كما لو فى ظلّ جدار من حجر . ان قليلا جدا من شعاعات الحب تنفذ فى هذا الايمان الظليل ، وبالمقابل فان عددا هائلا من سهام الانتقام والخبث والحسد تنصب عليه . ان الحقد وحده ينمو فيه ، وليست ناره سوى مجرد البريق الفوسفورى للانحطاط .

ولكنه لم يكن لى بدّ من سنين عديدة من الحياة الشاقة ، ومن تحطيم عدد كبير من الأصنام ، ومن اقتلاع عدد كبير من

الافكار لاقناعي بهذه الحقيقة . والواقع اني حين التقيت هؤلاء الرسل للمرة الاولى في ملء الحياة الكئيبة العابثة المحيطة بي صوّر لي انهم يملكون قوة اخلاقية هائلة ، وانهم ملح الارض في الحقيقة . لقد مروا جميعا على وجه التقريب ، في وقت من الاوقات ، بالمحاكم والسجون ، وتعرضوا للطرد من المدن ، وأجبروا على قطع طريق النفى المرهق جنبا الى جنب مع مجرمين آخرين . وكانوا جميعا يحيون في حالة من التوتر الشديد ، وفي الخفاء .

ومهما يكن من امر ، فقد لاحظت انهم لا يتورعون ، وهم يشكون في ممارسة النيكونيين «لمطاردة الروح» ، عن مطاردة بعضهم بعضا بكل طيبة خاطر ، بله بسرور واضح ايضا .

كان الأعور باخومي ، حين يكون ثملا ، يحب ان يظهر قوة ذاكرته المرموقة حقا . انه يعرف بعض الكتب المقدسة «بالاصبع» ، كما يعرف الكتبة اليهود التلمود . انه يشير باصبعه ، لا على التعيين ، الى كلمة ما في الكتاب ويروح يتلو عن ظهر قلب ، ابتداء من تلك الكلمة بصوت خفيض أخن . وكان يخفض نظرته نحو الارض دائما ، بينما تروح عينه الوحيدة تتواثب حواليه بلهفة ، فكأنها تبحث عن شيء عظيم القيمة . وكان يلجأ في أغلب الاحيان الى كتاب الامير ميشيتسكي «عناقيد روسيا» للبرهنة على موهبته . وكان يعرف ، أكثر من أي شيء آخر ، «آلام الشهداء الابطال غير الهيابين» . وكان بيوتر فاسيليفيتش يحاول ابدا ان يمسك خطيئة عليه .

– أخطأت ! لقد حدث ذلك لدنيس الطاهر ، وليس لكيبريانوس المقدس .

– دنيس ؟ من سمع قط عن دنيس ؟ الاسم هو ديونيزيوس .

– لا تماحك حول اسم !

– وأنت لا تحاول ان تعلمنى !

ولا تمضى دقيقة واحدة حتى يروح كلاهما يقولان ، وقد أحمر وجهاهما غضبا وطفقا يحملقان فى بعضيهما :

– أيها السكّير ، ايها الجشع ، أنظر الى كرشك !

ويردّ باخومى كأنه يعدّ باصابعه :

– وأنت تيس ، فاجر ، وعبد للنساء .

وكان البائع يبتسم بخبث ، ويداه فى كميه ، ويشجع هذين الحارسين للايمان القديم فكأنهما تلميذان :

– ردّ عليه ! فعلت حسنا !

وذات يوم نشب قتال حقيقى بين العجوزين . لطم بيوتر فاسيليفيتش باخومى على وجهه بمهارة غير متوقعة وأجبره على الفرار ، صائحا فى أعقابه وهو يجفف العرق عن جبينه :

– انتظر وسوف ترى – فهذه الخطيئة ستثقل على نفسك ! فأنت الذى حملت يدى على ارتكاب هذا الاثم . ألا خسئت !

وكان يجد لذة مخصوصة فى اتهام رفاقه بنقص الايمان ، وبالوقوع فى «السلبية» .

– هذا كل ما يثيره ألكسندر فيك ، هذا الديك الذى يصيح !

كانت كلمة «السلبية» تغضبه وتخيفه فيما يبدو . واذا ما سئل عن معنى هذا التعليم فهو يعجز اذن عن تقديم الايضاحات اللازمة :

- «السلبية» هى امر هرطقة لانها تحذف الله من الوجود ، ولا تحتفظ بغير العقل . خذ القوزاق - انهم لا يعترفون بغير التوراة ، والتوراة المأخوذة من الألمان فى ساراتوف - من لوثرهم الذى قيل عنه : «لقد سمى لوثر بحق ، فلوثر مشتقة من لوسيفر ؛ لوثر الفاسق ، الفسقى لوثر» . وهذا كله يأتى من الغرب ، من الهراطقة الذين هناك .

ويضرب الارض برجله العرجاء ، ويستطرد بصرامة باردة :

- أولئك هم الذين يجب ان يضطهدوا ويحرقوا على الخازوق ، وليس نحن ! نحن روسيون من أزمان غابرة ، وايماننا هو الايمان الشرقى الحقيقى ، الايمان الروسى حتى الصميم . اما الايمان الآخر فهو مستورد من الغرب برمته - من التفكير الحر الأعوج ، من الالمان ، من الفرنسيين . واى شىء جيد يمكن ان يصدر عنهم ؟ انظروا فقط الى الوراء قليلا ، الى عام ١٨١٢ . . .

وينسى فى حميته انه يخاطب صبيا صغيرا ، فيطبق على حزامى بيده القوية ، يجذبنى اليه تارة ويبعدنى عنه تارة أخرى ، مستطردا فى حماسة فتية رائعة :

- ان حكمة الانسان تتيه عمياء خلال الغابة التى صنعتها بنفسها ، تتيه مثل ذئب مفترس ، وقد أوحى اليها الشيطان

ان تهلك النفس البشرية ، هذه النفس التى هى أعظم منح الله . ما الذى اخترعه ، خدام الشيطان هؤلاء ! اليك تعاليم كهنة السلبية ؛ ان ابليس أيضا هو ابن الله ، الاخ الأكبر للمسيح يسوع – تصوّر ذلك ! وانهم ليعلمون الناس ان يتحدوا السلطة ، وان يهملوا عملهم ، وان يهجروا نساءهم واولادهم ، فليس شيء مطلوبا من الانسان – لانظام – بل فليعش عـــلى هواه ، او حسب أوامر الشيطان . آه ، هذا ألكسندر مرة أخرى ، الحشرة البائسة . . .

وكان البائع ينادينى فى الاحايين للقيام بمهمة ما ، فيتابع الرجل العجوز ، وقد بقى وحيدا عند الباب ، حديثه مخاطبا الفراغ من حوله :

– أواه ، أيتها النفوس العديمة الاجنحة ! أواه ، ايتها الجراء العمياء ، ايان عسانى أطير بحثا عن مأوى !

ومن ثم يروح يحدّق ممعنا فى السماء الرمادية الشتوية وقد ألقى رأسه الى الوراء ، واراح راحتيه على ركبتيه .

وأصبح مع الزمن اعظم عطفا على وأكثر اهتماما بشؤونى . وأيان رآنى أقرأ كتابا فهو يربت على كتفى ويقول ؛

– أجل ، يا فتى . تابع مطالعاتك ، فسوف يعود ذلك كله عليك بالخير . يبدو ان على كتفيك رأسا جيدة ، ومن المؤسف انك لا تصغى لمن يكبرونك سنا ، بل تتحرش بكل من يصادفك . اين سيذهب بك مثل هذا السلوك السيىء فى رايك ؟ ليس ابعد من طغمة الاجرام ، يا فتى . اجل . تابع قراءة كتبك . لكن حذار ان تنسى – ان الكتاب يظل مجرد كتاب ليس غير ، ومن واجبك ان تعمل ذهنك . كان ثمة معلم

بين فرقة «الخليستى» * ذات مرة يدعى دانييل ، وكان يزعم ان الكتب عديمة الجدوى ، القديمة منها والجديدة على السواء ، فكان يأخذها جميعا ويرمى بها فى النهر . ان ذلك السلوك بعيد عن العقل ايضا . ثم هنالك ذلك الشرير ألكسندر الذى لا يبرح يشوّش عقول الناس . . .

كان ذكر ألكسندر هذا يتردد علـى شفتيـه بصورة متزايدة ، وفى ذات يوم دخل الدكان وعلى محياه نظرة قلقة ، وتوجه الى البائع قائلا فى قسوة :

– ان ألكسندر هنا فى المدينة – لقد وصل البارحة . ولقد فتشت فى كل مكان ، ولكنى لم أجده بعد . انه يختبىء ! سأجلس هنا بعض الوقت ، فلعلّه يمرّ . . .

فقال البائع فى نبرة عدائية :

– لست أعرف اى انسان او اى شىء !

فهزّ الرجل العجوز رأسه ، وقال :

– هذا حسن . أنت لا تعرف من الناس سوى الشارين والبائعين . . . وليس هناك انسان آخر بالنسبة اليك . هل فى مقدورك دعوتى على قدح من الشاى . . .

وحين رجعت بالغلاية النحاسية الكبيرة ملأى بالماء الحار وجدت فى الدكان ضيوفا جددا . كان أحدهم العجوز لوكيان ، مكشرا بسعادة ظاهرة ، فى حين جلس فى زاوية عاتمة خلف الباب رجل غريب يرتدى جزمتين عاليتين من اللباد ، ومعطفا

---

* طائفة صوفية نشأت فى روسيا فى اواخر القرن السابع عشر واوائل القرن الثامن عشر . **الناشر** .

دافئا ذا حزام اخضر ، وقبعة مشدودة كثيرا فوق عينيه . وجدت محياه باعثا على النفور بالرغم من انه كان متواضعا هادئا . كان يشبه مساعدا فى متجر سرّح لتوّه من عمله ، فانهار بلطف تحت وطأة هذه الحقيقة .

كان بيوتر فاسيليفيتش يقول شيئا ما فى كثير من الرزانة دون ان يلتفت ناحية الغريب ، بينا هذا الاخير لا يبرح ينقّل طاقيته بحركة تشنجية من يده اليمنى . انه يرفع ذراعه فكأنه يريد ان يرسم اشارة الصليب ، لكنه لا يفعل سوى اعطاء طاقيته دفعة خفيفة ، ثم دفعة ثانية وثالثة ، حتى تتهدل فى اضطراب على مؤخرة رأسه ، وعندئذ يعود فيشدها فوق عينيه . واثارت هذه الحركات التشنجية فى نفسى ذكريات قديمة عن المجنون ايجوشا ، «حامل الموت فى جيبه» .

قال بيوتر فاسيليفيتش :

– كثيرة هى الاسماك التى تسبح فى مياهنا الموحلة ، فتزيد من عكرها .

فسأل الرجل الذى يشبه المساعد فى صوت هادىء مخفوض :

– أتعنينى انا بهذا الكلام ؟

– وماذا اذا كنت أعنيك ؟

فاستفهم الرجل مرة اخرى بهدوء ، لكن بصورة ثاقبة :

– وماذا تقول اذن عن نفسك ، يا صاح ؟

– انى اتحدث عن نفسى الى الله وحده – فذلك شأنى .

فقال الرجل الغريب بلهجة الظافر :

– أوه ، كلا ، يا صاح ، فذلك من شأنى انا ايضا . لا

تستدر عن الحقيقة ، ولا تعم عينيك بكبريائك ، لان الخطيئة عظيمة امام الله والانسان !

راقنى انه ينادى بيوتر «يا صاح» ، كما تأثرت من صوته الهادىء الثرى . كان يتحدث مثلما يتلو كاهن طيب صلاة «ايها الرب الآله ، خالق هذا الجسد . . .» ، ولا يبرح يتنحنح متقدما مقعده ، ملوّحا بيده امام وجهه .

– لماذا تديننى ؟ انى لست خاطئا اعظم منك . . .

وقال بيوتر العجوز متعمدا افساد الحديث :

– السماور يرسل رذاذا ورشاشا شديدين !

بيد ان الغريب استطرد ، دون ان يلتفت الى كلامه :

– يعرف الله من يعكّر أكثر من سواه ينابيع الروح القدس . لعلّ تلك هى خطيئتك ، خطيئة الناس المعلمين ، الغارقين بين الكتب . انا لا أعرف كتبا ولا علما ، ولست اكثر من انسان حىّ بسيط . . .

– انى اعرف بساطتك هذه – وقد سمعت الكثير عنها !

– أنتم الذين تشوشون عقول الناس ، أنتم قراء الكتب ، الفريسيون ، مشوهو الافكار البسيطة . اما انا . . . اتستطيع ان تقول لى ماذا أعلّم ؟

فقال بيوتر فاسيليفيتش :

– الهراطقة !

لكن الغريب لم يفعل سوى رفع راحته امام وجهه فكأنه يقرأ شيئا مكتوبا فيها ، واستطرد فى حمية :

– أتحسب انك تحسن حالة الناس بنقلهم من زريبة الى اخرى ؟ انى أقول لك – ليس الامر كذلك ! انى أقول

لك – حرر نفسك ، ايها الانسان . ما هو بيتك ، وزوجتك ، ومتاعك كله امام وجه الله ؟ حرر نفسك ، ايها الانسان ، مر كل ما يؤدى الى العنف والقتل – من الذهب ، والفضة ، وسائر الثروات ، لانها ليست سوى غبار ورماد ! الانسان لن يجد الخلاص فى حقول هذا العالم ، بل فى وديان الفردوس ! انى اقول لك : انكر على نفسك كل شىء ، حطّم سائر الروابط ، وسائر القيود ، وكل ما يغلّك الى هذا العالم لانها جميعا من صنع المسيح الدجال . انا اسير فى الطريق القويمة الضيقة ، ثابتا فى الروح ، ناكرا هذا العالم . . .

فقاطعه الرجل العجوز فى غيظ :

– وهل تنكر الخبز والماء والغطاء لجسدك ؟ انها جميعا من هذا العالم !

لم تؤثر هذه الكلمات فى ألكسندر ، بل استمر يتحدث فى حرارة ولطف . وبينا صوته هادىء ، فقد كان يلوح مثل من ينفخ فى بوق نحاسى :

– اين تقوم كنوزك ، ايها الانسان ؟ فى الله وحده توجد الكنوز . قف امامه طاهر الذيل ، وانزع من نفسك اغلال هذا العالم ، وانظر الى الـهك : انت وحدك ، وهو وحده ! هكذا تستطيع الاقتراب من الـهك ، لانه ليس سوى طريق واحدة تقود اليه ! ولقد قيل : اسع الى الخلاص بمغادرتك اباك وامك ، بهجرانك كل شىء ، وباقتلاع العين التى تخزك ! من اجل الله اقتل جسدك وانقذ نفسك ، كيما تشع نفسك بالمحبة الالـهية الى ابد الآبدين . . .

فقال بيوتر ، وهو ينهض :

— تفو ! لعنك الله ! حسبت انك ستزداد تفهما منذ السنة الاخيرة ، لكن يبدو انك اسوأ من اى وقت آخر . . .

واتجه العجوز صوب الشرفة وهو يعرج ، الامر الذى اثار قلق ألكسندر . استوضح فى سرعة وشىء من الدهشة :

— هل أنت راحل ؟ لكن — كيف ذلك ؟

فغمز لوكيان اللطيف معزيا ، وقال :

— لا بأس ، لا بأس !

بيد ان ألكسندر اندفع نحوه :

— أنت ايضا ، ثرثار من هذا العالـــم ، تزرع بذورك العقيمة . ما معنى ذلك ؟ مرتين فلنهلـّل — ثلاث مرات * . . .

واتجه لوكيان بدوره صوب الشرفة وهو يبتسم له ، بينما استدار الغريب نحو البائع وقال فى قناعة :

— ان قوة روحى كثيرة عليهما — كثيرة جدا . انهما يفران مثل الدخان من النار . . .

ألقى البائع اليه نظرة من تحت حاجبيـــــه ، ولاحظ فى جفوة :

— انا لا اتدخل فى مثل هذه الامور .

بهت الغريب لهذه الكلمات كما يبدو ، وشدّ طاقيته فوق عينيه ، وتمتم :

---

* كان اتباع الايمان القديم ينادون بترديد «فلنهلل» اثناء الصلوات مرتين فى حين ينادى اتباع نيكون بترديدها ثلاث مرات . **الناشر** .

- كيف يمكنك ألا تتدخل فيها ؟ مثل هذه الاشياء . . . انها تتطلب ان يتدخل المرء فيها . . .

ظلّ جالسا هناك برهة او بعض برهة فى سكون ، محنى الرأس ، ومن ثم ناداه الرجلان العجوزان . فذهب ثلاثتهم دون ان يلقوا سلاما .

كان الغريب قد انبثق أمامى مثل كرة نارية فى دكنة الليل ، تتأجج وتخمد ، مؤثرا فىّ بشىء من الصواب فى انكاره لهذا العالم .

انتهزت لحظة مناسبة ذلك المساء ووصفته فى حماسة لايفان لاريونيتش ، وهو رجل هادىء لطيف ، يرأس العمل فى المعمل . وحين انتهيت من حديثى ، قال :

- لا بدّ انه من الهاربين - وتلك طائفة لا تقبل اى شىء على الاطلاق .

- وكيف يعيشون ؟

- فى الهرب . . . انهم يضربون على وجوههم فى انحاء الارض . وهذا هو السبب فى تسميتهم الهاربين . هم يقولون ان الارض وكل ما عليها يجب انكاره . وتجدهم الشرطة ضارين ، فتعتقلهم . . .

كانت حياتى مريرة بما فيه الكفاية ، ومع ذلك لم استطع ان افهم كيف يمكن لاى امرىء ان ينكر كل شىء على الارض . وكنت اجد فى الحياة من حولى ، فى ذلك الحين ، اشياء كثيرة عزيزة وباعثة على الاهتمام ، فسرعان ما خبت صورة ألكسندر فى ذاكرتى .

بيد انه كان يعاود الظهور من حين لآخر ، فى الاوقات

العصيبة ، يجتاز دربا رمادية عبر الحقول والغابات وجهته . انه يدفع الى الخلف طاقيته بحركة تشنجية من يده البيضاء التى لم يلوثها العمل ، ويتمتم :

– انى اسير فى الطريق القويمة الضيقة وانكر كل شىء . حطَم سائر الروابط . . .

وكنت ارى الى جانبه والدى كما تراءى لجدتى فى أحلامها ، فى يده عكاز من خشب الزان ، وفى اعقابه كلب مبقع ، متدلى اللسان . . .

١٣

كان معمل الايقونات يقع فى غرفتين من بناء كبير نصف حجرى ، فى احداهما ثلاث نوافذ تطل على الساحة ونافذتان اخريان تطلان على الحديقة ، بينما لا تملك الغرفة الثانية سوى نافذة واحدة تقابل الطريق ، ونافذة اخرى تقابل الحديقة . وكانت النوافذ صغيرة مربعة ، اصطبغ زجاجها بألوان قوس قزح باهتة بفعل القدم ، فهو يكاد يمنع أشعة الشتاء الضعيفة المبعثرة .

وكانت الغرفتان غاصتين بالطاولات التى ينحنى فوق كل منها رسام او رسامان . وكانت كرات زجاجيـــة ملأى بالماء تتدلى بحبال من السقف لتعكس نور المصابيح فى اشعة باردة بيضاء على الواح الايقونات المربعة .

وكان الجو فى المعمل حارا خانقا . ان عشرينا من «رسامى الله» ، قادمين من باليخ وخولوى ومستيرا يحتشدون ههنا ، وجميعهم يرتدون قمصانا من القطن مفتوحة الياقات ، وسراويل

من قماش الكتان ، ويقومون حفاة او يحتذون نعالا شائنة . وكانت رؤوسهم غارقة فى سحب رمادية من دخان التبغ البيتى الصنع ، بينا الهواء مثقـــل برائحـــة الزيت الذى يجف ، والدهان ، والبيض الفاسد . وان اغنية شعبية شائعة فى بلدة فلاديمير تسيل فى هذا الجو بثقل مثل قطران حار :

أواه ، يا لكم أناسا أدنياء
حتى تدعوا فتى يخدع فتاة . . .

كانوا ينشدون اغانى اخرى خالية من المرح ، لكن تلك كانت اغنيتهم المفضلة . ولم يكن اللحن الممطوط يعرقل افكار المرء او يعوق حركة فرشاته المصنوعة من شعر القاقم وهى ترسم خطوط الصورة ، او تلوّن طيات ثوب القديس ، او تضيف ملامح الالم على الوجوه المتعظمـــة . وكانت اصوات مطرقة الحفار غوغوليف ، وهو عجوز سكّير ذو انف قرمزى ضخم ، تدفّ الينا عبر النافذة . ان قرع المطرقة الحاد يشكل ايقاعا للاغنية الكسلى ، موحيا الى المرء صورة حشرة تحتفر جذع شجرة .

لم يكن احد معنيا برسم هذه الايقونات . ان عبقريا شريرا قسم هذه المهمة على سلسلة من العمليات الخالية تماما من كل جمال ، بحيث كان من المحال ان يحسّ المرء أدنى حب او اهتمام بهذا العمل . ان النجار الاحول بانفيل – وهو رجل خبيث ساخر – يجلب الواحا مختلفة الحجوم من خشب السرو او الزيزفون بعد ان يكون جلاها ودبقهـــا ، ويضع الفتى المسلول دافيدوف الاساس ، فيما صديقه سوروكين يهيىء

اللوح لتمويهه بالذهب . ويخط ميلياشين رسما بالقلم للايقونة منسوخا عن احد الاصول ، ثم تمرّ اللوحة بين يدى غوغوليف العجوز كيما يموهها بالذهب ويحفرها . وعندئذ يرسم رسامو «السطوح الخلفية» المشهد الخلفى للصورة ، ويرسمون ثياب القديسين ، ومن بعد تستند الصورة الحائط ، معدومة الرأس واليدين ، تنتظر رسامى «الوجوه» ليضيفوا اليها نصيبهم من العمل .

لشدّ ما كانت رؤية الايقونات الكبيرة الخاصة بالايقونسطاس وابواب الهيكل تبعث على النفور ، وهى تنتصب هنالك دون رؤوس او ايد او افدام – فهى مجرد اثواب ، او دروع ، او قمصان قصيرة يرتديها الملائكة . كانت هذه الالواح المرسومة بصورة براقة تنشر احساسا بالموت : ان الحياة التى يجب ان تحييها معدومة ، لكنه يلوح انها كانت موجودة من قبل ، ثم أفلتت بصورة عجائبية ، مخلّفة وراءها كساءها المضجر .

وكان عامل خاص يتلقى الايقونة حين ينتهى رسامو «الوجوه» منها ليضيف اليها طلاء من المينا على الحافات المذهبة ، ثم تمر الى عامل أخصائى يكتب عليها الكلمات المناسبة . واخيرا يلمّعها ايفان لاريونيتش نفسه ، وهو شخص هادىء الطباع مكلف بالاشراف على المعمل .

كان اسمر الوجه اشيب اللحية الناعمة الحريرية ، تلوح عيناه الرماديتان عميقتين كئيبتين بصورة غير مألوفة . وكانت له ابتسامة لطيفة ، لكن المرء يشعر ان مبادلته الابتسام امر خاطىء . وكان يشبه ايقونة القديس سيميون ، فهو مثله

نحولا وضعفا ، كما ان عينيه الثابتتين تمتلئان بذات التعبير اللامبالى حين يشخص الى المنتأى ، ما وراء الجدران والناس .

بعيد ايام قليلة من التحاقى بالعمل جاء رسام «الرايات الصغيرة» الى العمل سكران ، وهو قوزاقى من اراضى الدون ، جميل الطلعة ، قوى البنية ، يدعى كابنديوخين . لم يكد يدخل المكان حتى شرع ينهال على الجميع بقبضتين حديديتين ، وقد اطبق اسنانه وضيق عينيه المخنثتين الجميلتين ، دون ان ينبس ببنت شفة . وكان جسده الرشيق ، المتوسط القامة ، يدور فى ارجاء المعمل مثل قط فى سقيفة تعج بالفئران . وطفق العمال الذاهلون يتراكضون نحو الزوايا يفتشون عن مخبأ لانفسهم ، ومن هنالك شرعوا يصيحون ببعضهم بعضا :

– ألقوه ارضا !

استطاع رسام «الوجوه» يفجينى سيتانوف ان يصعق الثور الهائج بضربة من كرسى على رأسه ، فتهاوى القوزاقى على الارض . واطبق العمال عليه فى الحال ، ومددوه وقيدوه بالمناشف فى مثل لمح البصر ، فجعل يعضها ويمزقها باسنانه الحادة . وجن يفجينى لهذا السلوك ، فقفز فوق طاولة وضغط ذراعيه على خاصرتيه استعدادا للقفز فوق القوزاقى . ومما لا ريبة فيه ان جسده الثقيل الطويل كان يسحق صدر كابنديوخين لولا ان ظهر لاريونيتش الى جانبه فى تلك اللحظة بالذات ، مرتديا قبعته ومعطفه . هزّ اصبعه فى وجه سيتانوف ، وتوجه الى الآخرين قائلا فى صوت هادىء جدّى :

– خذوه الى المدخل ، واتركوه حتى يصحو . . .

جروا القوزاقى خارج المعمل ، واعادوا ترتيب الطاولات والمقاعد ، وباشروا اعمالهم من جديد ، متبادلين الملحوظات حول قوة كابنديوخين ومتنبئين بانه سيلاقى حتفه بكل تأكيد فى احدى معاركه الكثيرة .

لاحظ سيتانوف فى هدوء عظيم ، مثلما يتحدث المرء عن عمل يعرفه حقّ المعرفة :

– سيكون قتله أمرا صعبا للغاية .

اختطفت نظرة الى لاريونيتش ، وحاولت ان افهم لماذا يطيعه هؤلاء الناس الاقوياء ، الفوضويون ، بمثـــل هذه السرعة .

كان يبين للجميع كيف ينبغى ان يشتغلوا ، فيصغى الى نصائحه حتى اكثر المعلمين تجربة بكل طيبة خاطر . وكان يبذل من وقته وكلماته على تعليم كابنديوخين اكثر مما يبذل لاى من الآخرين .

– فنان . . . هذا هو اسمك ، يا كابنديوخين . يجب على الفنان ان يجعل عملـــه أشبه ما يكون بالحياة ، على الطريقة الايطالية . ان التصوير الزيتى يتطلب وحدة فى مختلف الخطوط والالوان الدافئة ، لكن انظر الى اللون الابيض الذى وضعته هنا : هذا هو السبب فى البرود والبلادة الظاهرين فى عينى العذراء . ان الخدين مدوران احمران ، لكن العينين لا تتفقان معهما . ثم ان مكانهما غير مضبوط – فالعين الواحدة قريبة من الانف ، والاخرى منحرفـــة قليلا نحو الصدغ ، وهكذا ، بدلا ان يتحلى الوجه بنظرة نقية مقدّسة يلوح للعيان خبيثا دنيويا . انك لا تعنى كثيرا بعملك ، يا كابنديوخين .

ويلوى القوزاقى وجهه وهو يصغى الى ما يقال له ، ثم يبتسم دون حياء بعينيه المخنثتين ويقول فى صوت لطيف ، أجش قليلا من كثرة اغتباق الشراب :

– يا ايفان لاريونيتش ، يا معلمى العزيز ، ليس هذا العمل عملى ، لقد ولدت موسيقيا فاصبحت راهبا !

– تستطيع ان تتقن اى شىء كان اذا بذلت الجهد الكافى فى سبيل ذلك .

– ومن ترانى حتى افعل هذا ؟ كان يجب ان اكون حوذيا على عربة مجنحة الجياد . . . آخ !

ويشرأب عنقه ، ويطلق لحنا طويلا متوحشا :

آه ، لسوف أجهز عربتى سريعا ،
بفرسين وكميت ،
آه ، وسوف أسوقها خببا
الى حيث حبى فى البيت !

ويستسلم ايفان لاريونيتش مبتسما ، ويصلح من وضع نظارتيه فوق أنفه الأزرق المكتئب ، ثم يبتعد عن القوزاقى . بينا تروح عشرة اصوات تردد الاغنية ، منصهرة جميعا فى تيار قوى يلوح انه يرفع المعمل كله فى الهواء ويرنحه بلطف الى الامام والخلف .

الجياد تعرف الطريق جيدا ،
الطريق الى حيث تقيم سيدتى . . .

ويقود الصانع باشكا أودينتسوف ، وهو يعمل فى فصل

مح البيض وفى كل من يديه قسم من القشرة ، الكورس فى صوت رفيع رائع .

وينسون كل شيء ، منجرفين مـــع تيار اللحن ، فهـــم يتنفسون بصورة متحدة ، يملؤهم انفعال وحيد . ولم تكن انظارهم تفارق القوزاقى الذى يصبح ، حين يغنى ، سيـــد المعمل دون منازع وكان الجميع يستديرون نحوه فى مثل هذه الاوقات يتابعون حركات ذراعيه اللتين يموجهما فكأنه يوشك ان يحلّق فى الهواء . وانى لواثق من انه لو قطع اغنيته كيما يصيح بمن حوله : «تعالوا ، فلنحطم كل شيء !» ، فقد كانوا يطيعونه اذن ، بما فيهم اكبر الاسطوات واكثرهم وقارا ، فيقلبون المعمل الى كومة من الانقاض فى دقائق معدودة .

نادرا ما كان يغنى ، لكنه اذا فعل ذلك فأغانيه المثيرة تتمتع بقوة ظافرة لا سبيل الى مقاومتهـــا . كان ينجح فى استثارة الناس ، مهما تكن معنوياتهم خفيضـــة ، فيوترون اعصابهم ويصبحون وقد انصهرت قواهم جميعا ارغنا جبارا واحدا .

وكانت هذه الاغانى تثير فى اعماقى الغيرة من المغنى ومن القوة الرائعة التى يمارسها على الناس . وكان قلبى يمتلئ بألم مرتعش ، فينتفخ بصورة موجعة جدا ، بحيث تجتاحنى الرغبة فى البكاء والهتاف بالمغنين :

«لكم أحبكم جميعا !»

كان دافيدوف المسلول ، الشاحب اللون ، المكسو بشعر كثيف جدا ، يفتح هو الآخر فمه على سعته مثل فرخة عقعق رأت لتوها النور .

لكن القوزاقى وحده يثير مثل هذه الاغانى المرحة المتوحشة . اما الرسامون فيغنون عادة مقطوعات كئيبة مطاطة مثل «قاسية هى قلوب الناس» ، او «أواه ، عبر الغابات ، الغابات الصغيرة» ، او تلك الاغنية عن موت ألكسندر الاول : «كيف جاء ، قيصرنا ألكسندر ، يفتش قواته الشجاعة» .

وفى الاحايين ، بناء على اقتراح من جيخاريف ، افضل رسام «وجوه» فى معملنا ، يشرعون فى ترتيل موسيقى كنسية . لكنهم نادرا ما ينجحون فى مثل هذه المحاولات . وكان جيخاريف يحن ابدا الى الحان لا يفهمها احد سواه ، ولا يبرح ينتقد غناء الآخرين .

كان ناحل القوام يناهز الخامسة والاربعين ، تغطى قمة رأسه الصلعاء نصف دائرة من الشعر المجعد الغجرى ، بينما حاجباه الكثيفان أشبه بشاربين كثين . وكانت لحية ثخينة مدببة تشكل الزينة الوحيدة فى محياه الادكن الرقيق السيماء ، هذا المحيا الخالى تماما من الملامح الروسية الصحيحة . وكان انفه المعقوف يبرز من فوق شاربين لا مكان لهما فى وجهه حيال حاجبيه ، وعيناه الزرقاوان مختلفتين — ان يسراهما اوسع من اليمنى بصورة ملحوظة .

نادى باشكا ، الصانع الثانى ، بصوته الاجش المرتفع :

— هيا ، يا باشكا ، وانشدنا : «ليكن اسمك مباركا» . أصغوا ، يا قوم !

فنشف باشكا يديه فى مريلته ، وشرع يرتل :

— لي . . يكـ . . كن اسم . . .

فدوت اصوات عديدة تنشد :

- ا - . . . . - . . . م الر . . . ر . . . رب . . .

بيد ان جيخاريف صاح مهتاجا :

- أنت هناك ، يا سيتانوف ! اخفض صوتك حتى يخرج من اعماق نفسك !

فقعقع سيتانوف فى صوت تردد كأنه يقرع قعر برميل فارغ :

- يا عبيد الر . . . ر . . . رب . . .

- تفو ، ليس هكذا ! عليك ان ترتــل بحيث ترتجف الأرض ، وتنفتح الأبواب والنوافذ من تلقاء ذاتها !

فتلوى جيخاريف فى هياج غير مفهوم ، وحاجباه المدهشان يرتفعان وينخفضان ، وصوته ، يتهدج ، واصابعه تشدّ على اوتار خفية .

سأل فى نبرة ذات مغزى :

- يا عبيد الرب - ألست ترى ؟ يجب ان تحس ذلك حتى لبابه ، وان تتجاوز القشرة الخارجية منه . ليكن الرب مباركا ، أيها العبيد ! ألا تستطيعون ان تحسوا ذلك ، ايها القوم الطيبون ؟

فعلّق سيتانوف فى لباقة :

- نحن لم ندرك ذلك قط بصورة صحيحة ، لو تعلم .

- حسنا اذن ، فلندع ذلك !

وعاد جيخاريف الى عمله ، مغيظا نوعــا ما . لقد كان أفضل معلمينا - انه يستطيع ان يرسم وجها على الطريقة البيزنطية او الفرنسية او الايطالية . وكلما قبل لاريونيتش طلبــا لايقونسطاس يستشير جيخاريف الذى كان على اطلاع

واسع بالاصول . وكانت سائر النسخ الغالية من الايقونات العجائبية ، كعذارى فيودوروف وسمولنسك وقازان ، تمرّ بين يديه . لكنه كان يرفع عقيرته بالشكوى في صوت حانق كلما تفحص أحد الأصول :

– لقد قيدونـــا الى هذه الأصول – هذا ما فعلـــوا بالضبط – قيدونا اليها !

وبالرغم من أهمية مركزه في المعمل كان أكثر تواضعا من الآخرين ، وأكثر لطفا حيال الاجيرين – بافل وأنا . وكان الوحيد الذي ابدى رغبة في تعليمنا ذلك الفن .

كان صعبا على الفهم . لم يكن ، على العموم ، رجلا مرحا ، فقد يشتغل احيانا طوال اسبوع دون ان تصدر عنه كلمة واحدة فكأنه أصم أبكم . وانه لينظر الينا اذن في دهشة وكأنه يرانا للمرة الاولى في حياته . وكان يلوذ بصمت مطبق في مثل هذه الاوقات بالرغم من تعشقه للغناء ، بل يبدو كأنه لا يسمع غناء الآخرين . ويروح الجميـــع يحدقون فيـــه ، ويتغامزون عليه بصورة خفية ، فيمـــا هو منحن فوق لوح الايقونة المائل ، المستند باحدى حافتيه الى ركبتيه وبالحافة الاخرى الى طرف الطاولة ، وفرشاته الرقيقة ترسم ملامح وجه لا يقلّ عن محياه دكنة وغرابة .

ويقول فجأة بكل دقة ، وبلهجة مغيظة :

– «بريدتيشا» – ما معنى هذه الكلمة ؟ ان «تيش» في اللغة السلافية القديمة تعني «ذهبَ» . اما «بريد» فتعنـــى «قبلا» . وهكذا فان «بريدتيشا» تعني «الذاهب قبلا» ، يعني الهارب ، ولا شيء أكثر من ذلك . . .

ويكشر الجميـــع فى صمت ، ويرسلون اليــــه نظرات سريعة ، بينا لا تبرح كلماته الغريبة ترنّ فى السكون :

- ما كان ينبغى رسمه فى فروة خروف ، بل باجنحة . . .

فيغامر احد الحاضرين سائلا :

- عمّن تراك تتحدث ؟

فلا يجد جوابا ، اما لانه لم يسمع السؤال او لانه لا يتنازل للرد عليه . وتسقط كلماتـــه مجددا فى السكون المطبق :

- علينا ان نعرف حيواتهم ، ومن يعرفها تلك الكتب المقدسة ؟ ماذا نعرف ؟ نعيش وحيدين - دونما أجنحة . . . اين هى النفس - النفس ؟ هذا ما اسألكم اياه ! ان لدينا الاصول ، وهذا صحيح . لكن دون قلب . . .

وتحمل هذه الافكار المعبر عنها بصوت مرتفع الابتسامات الى شفتى كل من الحاضرين باستثنـــاء سيتانوف . ويلاحظ احدهم ساخرا بصورة دائمة تقريبا :

- لسوف يعاقر الخمرة مساء السبت . . .

ويحدق سيتانوف الطويل القامة ، المعروق البنية ، وهو فتى يناهز الثانية والعشرين ذو وجه مدور خال من اللحية وحتى من الحاجبين ، فى زاوية من المعمل فى رزانة وحزن .

وانى لأذكر كيف اعلن جيخاريف ذات مرة بصوت مرتفع مهتاج ، وهو يضع على الطاولة نسخـــة منتهيـــة من عذراء فيودوروف لارسالها الى كونغور :

- انتهيتِ ، ايتها الام المقدسة ، يا كأسا لا قرار

لها سوف تتدفق فيها الدموع المريرة المنتزعة من قلوب البشر . . .

ومضى فى اتجاه الحانة ، وقد ألقى على كتفيه معطف احد الرسامين . وضحك الشبان وصفروا ، وتنهد الأكبر سنا بينهم فى شيء من الغيرة ، لكن سيتانوف ذهب الى الايقونة ، وتفحصها بانتباه ، وقال :

– مؤكد انه سيسكر . لسوف يسكر من ألمه لفراق لوحته . وهذا ما لا يستطيع الجميع فهما له . . .

كانت سكرات جيخاريف تبدأ ايام السبت دائما ، ولم يكن منشؤها الغلو المألوف الذى يتعرض له المعلمون المدمنون على الكحول . كانت تلك السكرات تبدأ على النحو التالى : يكتب فى الصباح ورقة صغيرة ويبعث بها مع بافل ، ثم يتوجه الى لاريونيتش قائلا قبل موعد الغداء تماما :

– سأذهب اليوم الى الحمام .

– هل ستغيب طويلا ؟

– حسنا ، اعتقد . . .

– ارجوك ألا تطيل غيبتك اكثر من يوم الثلاثاء !

فيهزّ جيخاريف رأسه الصلعاء بالايجاب وحاجباه يرتعشان .

وحين يعود من الحمام يرتدى ثيابه الأنيقة ، ويلبس قميصا منشّى ، وربطة عنق ، ويعلق بصديريته الحريرية سلسلة فضية طويلة . ويغادر المكان محذرا بافل واياى :

– اعتنيا جيدا بتنظيف المعمل هذا المساء . اغسلا الطاولة الطويلة ونظفاها جيدا !

ويسيطر على الجميع مرح مفاجئ ، فينتعش الرسامون وينظفون ملابسهم ، ويسرعون الى الحمام ، ويتناولون عشاء سريعا . وحين ينتهي العشاء يظهر جيخاريف مزودا بالجعة والخمرة والطعام ، تدبّ خلفه امرأة عظيمة الجثة حتى تكاد ان تكون مسخا . انها تبلغ فى الارتفاع ست أقدام بحيث تبدو سائر مقاعدنا مثل الدمى امامها ، بل ان سيتانوف الطويل يتراءى مثل صبى صغير بالمقارنة معها . وكانت قوية البنية ، بيد ان صدرها يتكوّم عاليا تحت ذقنها . وكانت سائر حركاتها بطيئة خرقاء . وكان وجهها المدّور ، العديم التعبير ، بعينيه الضخمتين الشبيهتين بعيون الجياد ، لا يبرح طريا ناعما بالرغم من سنواتها الاربعين ، فيما يلوح فمها الرقيق كأنه مرسوم بالفرشاة ، مثله مثل فم دمية رخيصة . وكانت المرأة تبتسم وتمدّ الى الجميع يدا عريضة دافئة ، تصافحهم وهى تبدى ملحوظات لا ضرورة لها :

– كيف حالكم ؟ الطقس بارد هذا النهار . يا للرائحة التى تملأ غرفتكم – لا بد انها رائحة الصور . كيف حالكم ؟

كان النظر اليها يبعث على السرور ، فقد كانت قوية رصينة مثل نهر جار عريض ، لكنها تصبح مضجرة حالما تتكلم ، فهى لا تعرف ان تقول سوى اشياء سخيفة لا معنى لها . وكانت تنفخ خديها الضاربين الى اللون القرمزى قبل ان تنطق باية كلمة ، الأمر الذى يضاعف من استدارة وجهها .

وكان الشبان يقهقهون ويتهامسون :

– يا لها من امرأة !

– انها تصلح برجا لكنيسة !

كانت تجلس الى المائدة ، خلف السماور ، وقد ضمت شفتيها وطوت ذراعيها تحت ثدييها ، تنظر الى الجميع بعينيها الطيبتين الواسعتين .

كان الجميع يعاملونها فى احترام ، بل ان الشبان يخشونها قليلا . وقد يحدق أحد الفتيان بنهم ، فى جسدها العبل ، لكن ما اسرع ان يطأطىء رأسه خجلا اذا التقت عيناه مصادفة بنظرتها التى تعانق الاشياء كلها . وكان جيخاريف يعاملها باحترام ايضا ، يخاطبها بصيغة الجمع ، ويناديها «الجارة» ، منحنيا كثيرا كلما قدم اليها شيئا على الطاولة .

وتتشدق بلطف :

— أوه ، لا تزعج نفسك من أجلى . حقا ، انك تزعج نفسك كثيرا !

وكان يبدو انها ليست قط فى عجلة من أمرها . ولم تكن ذراعاها تتحركان الا من المرفق فما دون ما دام العضدان منطبقين ابدا على خاصرتيها . وكان جسدها يعبق برائحة قوية من الخبز الطازج .

كان العجوز غوغوليف يقدم لها مديحا لا ينضب وهو يهمهم فى اشراق فكأنه شماس يقرأ صلاة الخدمة الالهية فتصغى الى مديحه وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة لطيفة . وكلما تخبط فى حديثه أسرعت تمدّ اليه يد المعونة :

— لم أكن جميلة حين كنت صبية ، هذا كله ناشيء من تجربة امرأة نّصفٍ . وحين بلغت الثلاثين كنت قد اصبحت جذابة جذابة ، بحيث راح النبلاء أنفسهم يلاحظون ذلك ، بل وعدنى أحدهم بتقديم عربة وزوجين من الخيول . . .

ويطلق عليها كابنديوخين ، وقد ثمل فى هذه الاثنــــاء واشعث شعره ، نظرة عدائية ويقول بقسوة :

– مقابل ماذا ؟

فتوضح الضيفة :

– من اجل حبى بطبيعة الحال .

فيزمجر كابنديوخين ، متضايقا نوعا ما :

– حب . ماذا تعنين بالحب ؟

فتجيب ببساطة :

– ان فتى جميلا مثلك يجب ان يعرف كل شىء عن الحب .

فيهتزّ المعمل بالضحك ، ويتمتـــــم سيتانوف فى أذن كابنديوخين :

– انها حمقاء . . . او أسوأ من ذلك أيضا . ولا بد من ألم هائل كى تقع فى غرام مثل هذه المرأة ، هذا امر لا جدال فيه . . .

امتقع وجهه بتأثير الخمرة ، وتندى صدغاه عرقـــا ، واشتعلت نيران متوعدة فى عينيه الذكيتين . ويهز العجوز غوغوليف أنفه القبيح ويمسح عينيه المظلمتين بأصابعه ، وهو يسأل :

– كم ولدا رزقت ؟

– ولد واحد . . .

ان مصباحا يتدلى فوق الطاولة ، ومصباحا آخر يضىء فى الزاوية وراء الموقد يترك نورهما الهزيل زوايا المعمل غاصة بأخيلة كثيفة تطلّ منها صور لا وجوه لها . ان اللطخ الداكنة الصماء مكان الايدى والوجوه تثير فى النفس أوهاما غريبة ،

موحية أكثر من اى وقت آخر ان اجساد القديسين ولت الادبار بصورة عجيبة مخلفة وراءها ، فى الغرفتين القاتمتين ، اثوابها المصبوغة . وكانت الكرات الزجاجية مرفوعة ومعلقة فى السقف حيث تتألق بلون مزرق فى ملء سحب الدخان المتكاثفة .

وكان جيخاريف يتجول دون كلل حول المائدة ، يلعب دور المضيف مع الحاضرين جميعا ، وقحفه الأصلع منحن نحو هذا الشخص تارة ، ونحو ذلك الشخص تارة اخرى ، واصابعه المتعظمة تتحرك دون انقطاع . لقد ازداد نحولا كما ازداد أنفه المعقوف حدة ، فأنفه يلقى خيالا أسود مديدا على خده حين يقف بجانب النور .

ويقول بصوته الأجش الرنان :

– كلوا واشربوا ما طاب لكم ، ايها الاصدقاء !

فتترنّم المرأة وكأنها سيدة المجلس :

– لمَ تزعج نفسك ، أيها الجار ؟ ان لكل من الحاضرين ذراعيه الخاصتين وقابليته الخاصة ، وليس فى مقدور اى امرئ ان يأكل اكثر مما يريد ان يأكل !

فيصيح جيخاريف فى هياج :

– متعوا أنفسكم ، يا قوم ! نحن جميعا عبيد الرب ، يا اصدقاء . فلنرتل : «ليكن اسمك مباركا» .

ويبوء الترتيل بفشل ذريع : ان الطعام والفودكا قد اثقلا اعضاء الجميع فى هذه الاثناء . ويتناول كابنديوخين أكورديونا ، بينا يروح الفتى فيكتور سالوتين ، وهو عابس مظلم مثل الغراب ، يقرع دفا يرسل قعقعة عميقة ترافقها

الجلجلة المرحة للاقراص التى تطوق حافات الدف .
ويصدر جيخاريف أمره :
- اعزفوا رقصة روسية !
ويلتفت نحو المرأة :
- ايتها الجارة ، هلا تفضّلت !
فتتنهد المرأة :
- آه ، يا الهى !
وتنهض ، وهى تقول :
- لشدّ ما تزعج نفسك !

وتخطو الى منتصف الغرفة وتقف هناك ، قوية متينة مثل برج الكنيسة . انها تلبس تنورة بنية عريضة وصديرية قطنية صفراء وتلفّ رأسها بمنديل أحمر .

ويعزف الأكورديون لحنا مرحا ، وترن أجراسه الصغيرة . بينا يروح الدف يرسل جعيرا ثقيلا وكئيبا ينفر الاسماع ، فكأن مجنونا يبكى ، ويتنهد ، ويضرب رأسه بجدار .

لم يكن جيخاريف يجيد الرقص . انه ينقل قدميه بكل بساطة ، يضرب الأرض بعقبى جزمتيه اللماعتين او يقفز قفزات صغيرة مثل العنزة لا تتفق والايقاع الموسيقى فى حال من الاحوال . ويتراءى ان قدميه لا تخصانه ، بينا يتلوى جسده بصورة رهيبة بشعة ، مثل دبور فى شبكة او سمكة فى مصيدة . ذلك كان مشهدا يبعث على الكآبة ، لكن الجميع - بما فيهم السكارى - يتابعون انتفاضاته بانتباه ، وعيونهم معلقة بوجهه ويديه . وكانت ملامح جيخاريف تتغير بصورة مذهلة ، فهى رقيقة خجولة تارة ، ومتكبرة تارة اخرى ،

وعابسة بجفوة فى لحظات اخرى . ويروعه شيء ما بصورة مفاجئة يحمله على الصياح واغلاق عينيه ، فاذا فتحهما من جديد بدا ان الحزن يطغى عليه . وانه ليطبق قبضتيه ويقترب من المرأة ، ثم يرتمي فجأة امامها على ركبتيه ، وقد ضرب الارض بقدميه ، فاتحا ذراعيه بشدة ، رافعا حاجبيه وهو يرسل اليها ابتسامة لاهبة . وتتطلع اليه ، وتبتسم فى لطف ، وتحذره فى اسلوبها الهادئ :

– لسوف تنهك نفسك ، ايها الجار !

وتجرب ان تغلق عينيها برشاقة ، لكن هاتين العينين ، المساويتين فى الحجم لقطعة من فئة الثلاثة كوبيكات ، تعصيانها وترفضان الانغلاق ، فاذا الغضون الناتجة لا تفعل غير زيادة قبحها .

كانت هى الاخرى راقصة فاشلة . ان كل ما تستطيعه هو هز جسدها الضخم فى بطء وتنقيله دون صوت من مكان الى آخر . وانها لتمسك فى يدها اليسرى منديلا تموّجه بكسل ، بينا يدها اليمنى لا تبارح وركها ، الامر الذى يجعلها تشبه جرة عملاقة .

وتتزاحم انفعالات متنازعة فى وجه جيخاريف وهو يدوّم دون انقطاع حول هذا التمثال . كان يبدو انه ليس الوحيد الذى يرقص هناك ، بل عشرة رجال ، وجميعهم يختلفون عن بعضهم بعضا . ان أحدهم خجول متواضع ، والآخر عبوس يبعث على الرهبة ، والثالث خائف من شيء ما فهو يرسل صيحات صغيرة اثناء محاولاته الانفلات من هذه المرأة العملاقة المنفرة . ويظهر رجل آخر على حين غرة ، يعرى أسنانه

ويتلوى بجسده مثل كلب جريح . كانت هذه الرقصة البشعة تثقل عليّ وتثير فى نفسى ذكريات رديئة عن جنود وخادمات ، وغسالات وتزاوج بين الكلاب .

وانا أذكر كلمات سيدوروف الهادئة :

«كل انسان يكذب فى هذه الامور . انهم يخجلون لانـــه ليس هنالك من يحبّ حقـــا . انهـــم يفعلون ذلك لمجرد التسلية .»

لم اكن اريد ان اصدّق ان «كل انسان يكذب فى هذه الامور» . ماذا عن الملكة مارغو ؟ من المؤكد ان جيخاريف لا يكذب . وكنت اعرف ان سيتانوف احب فتاة من الشارع نقلت اليه عدوى مرض مخجل ، لكنه لم يضربها لهذا السبب كما نصح له رفاقه ، بل استأجر لها غرفة وراح يداويها ، وهو يتحدث عنها دائما بحنان وحياء خاصين .

ان المرأة الضخمة لا تبرح تترنح هناك ، ابتسامتهـــا المتصنعة تملأ وجهها ، والمنديل يتموّج فى يدهـــا . وان جيخاريف لا يبرح يقفز حواليها بصورة تشنجية ، فرحت أفكر وانا اراقبهما : أيمكن ان حواء ، التى خدعت الله نفسه ، كانت شبيهة بهذا الحصان ؟ وبدأت ابغضها .

كانت الايقونات العديمة الوجوه تحدق الينا من عـــلى الجدران المظلمة ، والليل العاتم يضغط على زجاج النوافذ ، والمصباحان يحترقان على مهل فى المعمل الخانـــق . وكنت استطيع ان اسمع ، بالرغم من قرع الاقدام وهمهمة الاصوات ، صدى الماء يتساقط بسرعة من الوعاء النحاسى الكبير فى سطل الاقذار .

ما ابعد الشبه بين هذه الحياة والحياة التى قرأت عنها فى الكتب ! ان الفارق بينهما لرهيب ! وما اسرع ان طغى الضجر على الجميع ، فدفع كابنديوخين الأكورديون بين يدى سالوتين ، وصاح :

– هيا ، فلنجعل الالواح تدخن !

كان يرقص مثل فانكا تسيجانوك ، فكأنه يطير عبر الهواء ، ومن ثم يقوم بافل أودينتسوف وسوروكين ببعض الخطوات السريعة والرشيقة ، بل ان دافيدوف المسلول نفسه ، يتنقل ايضا عبر الغرفة ، وهو يسعل بسبب من الغبار ، والدخان ، ورائحة الفودكا الحامضة والمقانق الداخنة ، وهذه الأخيرة توحى الى الذهن دائما بصورة الجلد المدبوغ .

ويستمرون على هذا المنوال ، يرقصون ، ويغنون ، ويصيحون . لكنه يتراءى لى انهم يتظاهرون بالمرح فقط ، فهم يختبرون قدرة بعضهم بعضا على ادعاء السرور والصبر .

ويتنقل سيتانوف ، وقد دارت الخمرة الآن برأسه ، بين الحاضرين مستفسرا بلهجة نشوانة :

– كيف يستطيع ان يحب مثل هذه المرأة ، ايه ؟

ويبدو لى انه على وشك ان ينفجر بكاء .

فيهز لاريونيتش كتفيه المتعظمتين ، ويجيب :

– ليست هى اسوأ من غيرها . وما شأنك فى ذلك ؟

لكن سرعان ما يختفى الزوجان اللذان يتحدثان عنهما .

ويسأل سيتانوف ، وهو يكتسح الغرفة بعينيه الكئيبتين المزرقتين :

– هل ذهبا ؟

ذهبا فعلا ، وانا اعرف ان جيخاريف لن يعود الى المعمل قبل يومين او ثلاثة ايام . ولسوف ينكب فى زاويته على عمله ، بعد زيارة للحمام ، ساكتا ، رزينا ، منعزلا طوال اسبوعين ونيف .

كان لسيتانوف وجه مترهل القسمات ، ليس فيه شيء من الجمال ، باستثناء عينيه الصافيتين اللطيفتين .

كان لطيفا معي ، الامر الذى أدين به الى دفترى السميك الغاص بالاشعار . لم يكن يؤمن بالله ، بيد انه من الصعب على اية حال تحديد من يؤمن به ويحبه فى هذا المعمل ، باستثناء لاريونيتش . كان الجميع يتحدثون عن الله فى شيء من السخرية ، مثلما يتكلم العمال عن مخدومهم . ومع ذلك كانوا يرسمون اشارة الصليب كلما جلسوا الى مائدة الطعام ، ويتلون صلواتهم عندما يفدون الى فراشهم ، وكانوا جميعا يذهبون الى الكنيسة ايام الاحاد .

بيد ان سيتانوف لم يكن يفعل شيئا من هذه الامور . وكان يعتبر ملحدا .

كان يؤكد :

– ليس هناك آله .

– اذن ، من اين جاء كل شيء ؟

– لست ادرى .

قلت له ذات مرة :

– كيف يمكن ألا يكون هناك آله ؟

فأجابنى ، وهو يمدّ ذراعه الطويلة فوق رأسه ويشير الى الارض :

– ألا ترى – ان الله هو الاعالى ، والانسان هو الاعماق . أليس الامر كذلك ؟ لكنه قيل : «وخلق الله الانسان على صورته» . على صورة من خلق غوغوليف ؟

غلبني ذلك على أمري . لقد كان غوغوليف السكير ، القذر ، بالرغم من تقدمه فى السن ، يحمل خطيئة أونان . وتذكرت كذلك اخت جدتى ، والجندى يرموخين القادم من فياتكا ، اية آثار من صورة الله يمكن اكتشافها فى هؤلاء الناس ؟

قال سيتانوف :

– الناس خنازير .

لكنه اسرع على الفور يحاول تعزيتى :

– لا تقلق ، يا مكسيميتش ، فبينهم أناس طيبون ايضا – فى الحقيقة ان هناك مثل هؤلاء الناس .

كنت ارتاح معه ، وكان يعترف بكل صراحة بالامور التى لا يعرفها ، فيقول :

– لا اعلم . انى لم افكر فى هذا الامر !

وكان هذا شيئا غير مألوف ايضا . ان سائر الناس الاخرين الذين التقيتهم يشعرون انهم يعرفون كل شيء . فما كانوا يترددون فى خوض مضمار اى موضوع دون تفريق .

وجدت من الغرابة بمكان ان يضم دفتره ، الى جانب اشعار رائعة مثيرة ، قصائد عديدة تتضرّج لها الوجنات خجلا . وحين حدثته عن بوشكين أشار الى قصيدة «غافريليادا» التى نسخها . . .

– بوشكين ؟ لا استطيع ان آخذه بعين الجد . اما

بينيديكتوف – هذا شاعر يتعين عليك ان تعيره انتباهك ، يا مكسيميتش !

ويغلق عينيه ، ويروح يترنم فى صوت ناعم :

أنظر الصدر الناهد
لهذه السيدة الفاتنة . . .

وكان يشدد بصورة مخصوصة ، لسبب أجهله ، على أبيات ثلاثة يتلوها فى كبرياء مرحة :

ولا تستطيع عين النسر النافذة كالسهم
ان تخترق هذه الابواب الموصدة
لتختطف نظرة الى باطن فؤادها . . .

– هل فهمت ؟

كنت اخجل من الاعتراف انى لا أفهم ما يبعث فى قلبه هذه البهجة كلها .

١٤

لم تكن الواجبات المترتبة عليّ فى المعمل كثيرة التعقيد . كنت أسخن السماور من اجل الرسامين صباحا قبل ان يستيقظ اى منهم ، ثم أعمد وبافل ، بينا هم يتناولون الشاى فى المطهى ، الى تنظيف الغرفتين ، وفصل المح من البيض المستخدم لمزج الالوان ، ثم أنطلق الى المحل التجارى . وفى

المساء ، كنت امزج الالوان و«أشاهد» المعلمين اثناء العمل . ولقد كنت «أشاهد» بادئ الامر باهتمام عظيم ، لكننى سرعان ما أدركت ان معظم هؤلاء الرجال يبغضون عملهم المجزأ ويتعذبون تحت وطأة ضجر لا يطاق .

ولما كنت عاطلا عن اى عمل ، فقد كنت اقضى الامسيات محدثا الرسامين عن الحياة على ظهر المركب ، او قاصا عليهم أقاصيص مستقاة من الكتب ، فما اسرع ان اصبحت ، دون ان الاحظ ذلك ، احتلّ مركزا خاصا فى المعمل — مركز القارئ والراوية .

وتحققت سراعا ان ايا من هؤلاء الناس لم يحتك بالحياة ويشاهدها قدر احتكاكى بها ومشاهدتى لها . ان معظمهم قد قبعوا ، منذ طفولتهم الاولى ، داخل قفص حرفتهم الضيق ، ولم يستطيعوا خلاصا منه منذ ذلك الحين . وان جيخاريف وحده ، من بين سائر العاملين فى ذلك المعمل ، زار موسكو وكان لا ينى يتحدث عن ذلك ، وقد قطّب حاجبيه بصورة رزينة :

— انت لا تستطيع الاستيلاء على موسكو بالدموع . هناك يجب ان تحتفظ بعينيك مفتوحتين بشدة !

ولم يكن اى من الآخرين قد ذهب أبعد من شويـا او فلاديمير . واذا ما ورد ذكر قازان كانوا يسألوننى :

— أيوجد عدد كبير من الروسيين هناك ؟ وهـل هناك كنائس ايضا ؟

كانت بيرم تعنى سيبيريا عندهم ، اذ ما كانوا يصدقون ان سيبيريا تقع ما وراء الاورال .

— أليسوا يأتون باسماك الاورال من وراء ذلك ، من

بحر قزوين ؟ هذا يعنى ان الاورال يجب ان تكون فوق ذلك البحر !

وكنت احسب أحيانا انهم يقصدون السخرية مني حين يقولون ان انكلترا واقعة خلف المحيط ، وان بونابرت ينحدر من صلب عائلة نبيلة من كالوغا . ولما كنت أحدثهم عن امور شاهدتها بامّ عينيّ ، فنادرا ما كانوا يصدقوننى ، بيد انهم يحبون الاستماع الى روايات يقف لها شعر الرأس ، والى قصص تعج بالعقد المحيرة . وحتى الشيوخ كانوا يفضلون الخيال على الحقيقة . وكنت أرى بكل وضوح ان انتباههم يعظم بقدر ابتعاد القصة عن الواقع ، وبقدر اغراق الاحداث فى الكذب . وعلى العموم ، لم يكن الواقع يشدّ اهتمامهم كانوا جميعا يرسلون نظرات تواقة الى المستقبل ، متلهفين الى طمس بشاعة الحاضر وفقره .

ولقد أثار هذا عجبى كثيرا لانى كنت اكتسبت حسا حادا بالتناقضات القائمة بين الحقيقة والوهم . هؤلاء البشر الحقيقيون شاخصون قبالتى ، لكننى لم أجد قط انسانا شبيها بهم فى الكتب ، لم أجد قط شخصا مثل سمورى ، والوقاد ياكوف ، او الكسندر فاسيليف الهارب ، او جيخاريف ، او نساء غسالات مثل ناتاليا . . .

كان فى صندوق دافيدوف مجموعة مهترئة من الأقاصيص بقلم غوليتسينسكى ، وكتاب بولغارين «ايفان فيجيغين» ، ومجلد للبارون برامبيوز . ولقد قرأت جميع هذه الكتب للرسامين الذير استمتعوا بها كثيرا .

لاحظ لاريونيتش :

– القراءة تقضى على الضوضـــاء والخصام ، وهذا شيء جيد !

بدأت ابحث عن الكتب ، وكنت اقرأ للرجال من حولى كل ما أعثر عليه منها . تلك كانت أمسيات لا تنسى : المعمـــل يعجّ بسكون أشبه ما يكون بسكون منتصف الليل ، والكرات البلورية تتدلى فوق الرؤوس مثل نجوم بيضاء باردة ، وأشعتها تضيء الرؤوس الصلعاء او الكتلة المنحنية فوق الطاولات . وكنت اشاهد وجوها هادئة ، مغرقة فى التفكير . ومن حين لآخر ينطق أحدهم بكلمـــــة مديح فى حق مؤلف الكتاب او البطل . وكان هؤلاء الناس الخجولون ، المرهفون السمع ، لا يشبهون ذواتهم النهاريـــــة الا قليلا . وكنت فى مثل هذه اللحظات أحبهم حبا جما ، فيمـــا هم ينجذبون نحوى . كان يلوح أنى وجدت مكانى .

قال سيتانوف ذات يوم :

– شأن هذه الكتب شأن الربيع ، حين تفتح النوافـــذ وتترك الهواء اللطيف يتدفق الى الداخل للمرة الاولى .

وكنت الاقى صعوبات كبيرة فى الحصول على الكتب بدون الانضمام الى احدى المكتبات ، الامر الذى لم يخطر فى بال اى منا . وكنت اتدبر الامر بطريقة واحدة فقط ، ألا وهـــى سؤال كل من القاه ، مثل اى متسول . وذات يوم أعطانى ناظر الاطفائية كتابا لليرمنتوف ، فكانت مطالعته بالنسبـــة الي‍ّ برهانا حيا على قوة الشعر ، والتأثير العظيم الذى يتمتع به على الكائنات البشرية .

وأذكر ان سيتانـــوف ، حين شرعت فى قراءة قصيـــدة

«الشيطان» ، حدّق اولا فى الكتاب ، ثم فى وجهى ، ومن بعد القى فرشاته ، ودفع ذراعيه الطويلتين بين ركبتيه ، وراح يترنح الى الامام والوراء مبتسما ، ومقعده يصرصر تحته .

قال لاريونيتش ، وهو يدع عمله جانبا ايضا ويقترب من طاولة سيتانوف حيث كنت اقرأ :

- صه ، ايها الاخوة .

غمرتنى القصيدة بسعادة حادة ، فتكسّر صوتى ، وبتّ لا استطيع رؤية الاسطر بسبب من الدموع فى عينىّ . لكن سعادتى كانت اعظم ايضا بنتيجة الحركة المكبوتة الحذرة فى الغرفة ، وتراءى لى ان كل ما يحيط بى يثقل ويكبر فكأن مغناطيسا جبارا يجذب هؤلاء الناس نحوى . وحين انتهيت من القسم الاول من القصيدة كان سائر الرسامين تقريبا يتجمعون حول الطاولة ، باسمين مقطبين ، واذرعهم فوق اكتاف بعضهم بعضا .

قال جيخاريف ، وهو يدفع رأسى بين دفتى الكتاب :

- اقرأ . تابع .

عندما انتهت القراءة تناول الكتاب منى ، وقرأ عنوانه ، ودفع به تحت ابطه قائلا :

- يجب ان تقرأ هذا مرة اخرى . غدا . سوف أعنى بالكتاب .

وابتعد ، وقفـــل بالمفتاح على ليرمنتوف فى احد ادراج طاولته ، ورجع الى عمله . وخيّم الهدوء على المعمل ، فيمـا الحاضرون يعودون الى أماكنهـــم المعتادة دون ضوضاء على الاطلاق . واتجـــه سيتانوف الى النافذة ووقف عندها دون

حراك ، وقد ألصق رأسه بزجاجها ، فيما اعلن جيخاريف بصرامة ، وقد وضع فرشاته جانبا مرة اخرى .

– هذا ما أسميه حياة ، يا عبيد الله – انه الحياة حقا !

وهزّ كتفيه ، واحنى رأسه ، واسترسل :

– وانا استطيع ان اصوّر هذا الشيطان : جسد أسود أشعث ، وجناحان بلون اللهيب – بلون الصدأ – والوجه والقدمان واليدان زرق شاحبة ، مثل الثلج فى ليلة مقمرة .

ظلّ حتى موعد العشاء يتلوى على كرسيــــه فى قلق غير مألوف منه ، ينقر على الطاولة بأصابعه ، ويتمتم باشياء غير واضحة عن الشيطان ، وعن حواء ، والنســاء ، والفردوس ، وعن كيف ارتكب القديسون الخطيئة .

قال مؤكدا :

– هذا كله صحيح ! اذا كان القديسون يأثمون مع نساء خاطئات ، فمن المؤكد ان الشيطان سيفخر وهو يضلل روحا طاهرة . . .

لم يردّ أحد عليه : لعلهم كانوا جميعا ، مثلى ، عازفين عن الحديث . وكانوا يعملون دون حماسة ، وعينهم الواحدة على الساعة . فما ان دقت التاسعة حتى توقفوا جميعا عن العمل دفعة واحدة .

خرج سيتانوف وجيخاريف الى الباحــــة الخارجية ولحقت بهما . وهناك قال سيتانوف ، وهو يرسل ابصاره الى النجوم :

قوافل تائهة
عبر الفراغات السديمية . . .

وأردف :

– من اين للمرء ان يجد مثل هذه الكلمات ؟

فعقّب جيخاريف ، وهو يرتعش من جراء البرد القارس :

– انا لا اتذكر الكلمات مطلقا ، لا أتذكر شيئا ، لكنى ارى الشيطان ! ما أغرب ان يجعلك شخص ما تشفق على الشيطان ! ذلك انك «تشفق» عليه ، أليس كذلك ؟

فوافق سيتانوف :

– اجل . انت تشفق عليه .

وهتف جيخاريف ببهجة لا تنسى :

– انظر اذن ماذا يعنى ان تكون انسانا !

وحين رجع أدراجه الى المدخل حذرنى قائلا :

– لا تحدث احدا فى الدكان عن هذا الكتاب ، يا مكسيميتش ، فلا ريبة انه كتاب محرم !

غمرتنى سعادة فائقة : اذن هذا هو الكتاب الذى سألنى الكاهن عنه فى الاعتراف !

مضى العشاء بتثاقل ، دون الضوضاء والحديث العاديين ، فكأن امرا جللا وقع يريد كل منا ان يقلب وجوه الفكر فيه . وبعد العشاء ، حين انسحب الجميع الى اسرّتهم ، اخرج جيخاريف الكتاب وخاطبنى بقوله :

– اليك . اقرأه ثانية ، ببطء ودونما عجلة . . .

فنهض عدد من الرجال من اسرّتهم واقتربوا صامتين من الطاولة ، وجلسوا حولها دون ان يرتدوا ثيابهم ، وقد طووا أرجلهم تحتهم .

مرة اخرى ، وقــد انتهيت مـــن قراءة القصيدة ، قال جيخاريف وهو يضرب الطاولة بأصابعه :

– تلك هى الحياة ! آ خ، ايهـــا الشيطان ، ايهـــا الشيطان . . . كيف وقع مثل هذا الامر ، لك ، يا أخ ؟

انحنى سيتانوف فوق كتفى كى يقرأ بضعة اسطر جعلته يضحك بسرور ويقول :

– سوف انسخها فى دفترى . . .

ونهض جيخاريف واخذ الكتاب الى طاولته ، لكنه توقف فجأة وقال بصوت متألم مضطرب :

– نحن نعيش مثل جراء عُمى ، لا أحد منا يعرف شيئا ، مرفوضين مـــن اللــه ومن الشيطان على السواء . هــل تسموننا عبيدا لله ؟ لقد كان ايوب عبدا ، لكن الله نفسه خاطبه . كذلك خاطب موسى . لكن ، الى من ننتسب نحن ؟

أغلق على الكتاب وشرع يرتدى ملابســـه ، مناديــا سيتانوف :

– أتذهب الى الحانة ؟

فاجاب سيتانوف فى هدوء :

– انا خارج للقاء فتاتى .

حين خرجا تمددت على الارض قرب الباب ، بجانب بافل أودينتسوف الذى ظلّ برهة من الوقت يشخر ويتنحنح ، ثم طفق يبكى فى صوت مخفوت على حين غرة :

– ما بالك ؟

فاجاب :

– انا اشفق عليهم . لقد مضى عليّ أربع سنوات تقريبا بينهم ، وانا اعرفهم جميعا . . .

اشفقت انا الآخر على هؤلاء القوم . وبقينا مضطجعين فترة مديدة ، نناقش هؤلاء القوم همسا ، متذكرين ما يملؤهم من طيبة قلب ودماثة خلق ، مكتشفين فيهم صفات كانت تزيد فى عمق شفقتنا الصبيانية .

ربطت صداقة متينة بينى وبين بافل اودينتسوف الذى أصبح فيما بعد معلما من الدرجة الاولى ، لكنه لم يشتغل بمهنته طويـــلا . لقد صار مدمنا على الخمرة وهو بعد فى الثلاثين . وشاهدته بعد ذلك بوقت قصير فى سوق خيتروف فى موسكو وقد بات شريدا ، وسمعت قبل فترة من الزمن انه مات بالتيفوس . ومما يبعث الذعر فى نفسى ان اتذكر كم من الاشخاص الرائعين قضوا دونما اية غاية حسنة خلال فترة حياتى ! ان الناس فى كل مكان يشيخون ويموتون ، وهذا امر طبيعى جدا . لكنهم لا يهترئون فى اى مكان بمثل السرعـــة والعبث اللذين يهترئون بهما فى روسيا . . .

وكان بافل ، فى ذلك الحين ، فتى مستدير الرأس يكبرنى بحوالى سنتين . وكان يتمتع بموهبة فنية ، الى جانب رشاقته وذكائه وأمانته . وكان له ميـــل خاص الى رسم القطط والكلاب والطيور ، كما انه كان يصنـــع صورا هزليـــة لرسامينا ، فيمثلهم دوما شخصيات ذات اجنحة وريش . كان سيتانوف عنده خجلا كئيبا يقف على رجل واحدة ، وجيخاريف ديكا مقطوع العرف أصلع الجبين ، ودافيدوف العليـــل نحيفا صغيرا حزينا . وكان أفضل رسومه لوحته عن غوغوليف ،

الحفار العجوز ، الذى يرسمه كخفاش بأذنين عريضتين ، وأنف هائل ، وقدمين رقيقتين فى كل منهما ستة مخالب . وكانت الدائرتان البيضاوان لعينيه ، بحدقتيهما الأشبه بعدستين ناتئتين ، تطلان من وجهه المدور القاتم وتعطيانه مظهرا حذرا لا يخلو من اللؤم .

لم يبد اى من الرسامين ادنى غضب عند الاطلاع على هذه الصور ، لكنهم جميعا وجدوا ان رسم غوغوليف يبعث على الاشمئزاز ، فخاطبوا الفنان فى صرامة :

– يفضل ان تمزق هذه الصورة ، والا رآها العجوز وسبب لك المتاعب !

كان العجوز ، القذر ، الدنيس ، السكران ابدا ، تقيا بصورة لجوجة ، شريرا بصورة لا تتعب ، نماما على الرسامين فى خدمة مساعد المعمل الذى يعتبر نفسه رئيسا للمؤسسة وجميع العاملين فيها لان صاحبة المتجر تنوى ان تزوجه ابنة اختها . وكان الجميع يخافونه ويكرهونه ، ولهذا السبب يخافون غوغوليف ايضا .

كان بافل يلاحق الحفار دون انقطاع ، وكان هدفه الوحيد هو الا يترك غوغوليف يستمتع بلحظة وحيدة من الراحة . ولقد وجد فيّ شريكا كفوءا . وكان الجميع يتسلون بجهودنا التى كانت دائما قاسية فجة . بيد ان الرسامين كانوا يقولون :

– انتبها ، أيها الفتيان ! ان كوزما الخنفس سينتقم منكما !

وكان اسم «كوزما الخنفس» هو اللقب الذى أطلقه الرسامون على المساعد .

بيد اننا لم نعر هذه التحذيرات أدنى انتباه . وكثيرا ما كنا نضع الاصبغة على وجه الحفار اثناء رقاده . وذات مرة ، فيما هو غارق فى غيبوبة سكر ، طلينا أنفه الشبيه بالاسفنج . ولم يستطع طوال ثلاثة ايام ان ينزع الطلاء عن المسام . لكننى كنت أتذكر ، كلما أثرنا غضب العجوز الشديد ، المركب البخارى والجندى الصغير القادم من فياتكا ، فكان ضميرى يؤنبنى . ولقد كان غوغوليف ، رغما عن تقدمه فى السن ، قويا جدا ، فما أكثر ما كان يغدر بنا ويجلدنا بشدة . وفى كل مرة يشكو الى المعلمة .

كانت سكيرة مدمنة ، ولهذا تبقى مرحة النفس طيبة الخلق دائما . وكانت تبذل جهدها فتروح تضرب المنضدة بيديها السمينتين ، وهى تصيح :

– عدتم الى مشاغباتكم مرة اخرى ، ايها الشياطين ! انه رجل شيخ ، ويجب عليكم ان تحترموه ! من صبّ فى كأسه حبرا بدلا من الخمرة ؟

– نحن . . .

فتطرف المعلمة بعينيها :

– ايتها السموات ، وهم يعترفون ايضا ، اولئك الملاعين ! أفلا تعرفون ان الشيوخ يجب ان يُحترموا ؟

كانت تطردنا ، وعند المساء ترفع شكواها الى المساعد ، فيزجرنى بعنف وقسوة :

— كيف ذلك ؟ انت تقرأ الكتب ، وحتى المقدسة منها ، وتسلك هذا السلوك الفاسد ! حذار ، يا أخى !

كانت المعلمة وحيدة تثير الشفقة ، وتجلس احيانا بعد ان تتجرع كمية كبيرة من الخمرة الى جانب النافذة ، وتروح تنشد :

لا يشفق أحد على أحزانى ،
ولا يعرف أحد شيئا عن كآبتى
ولا أحد يحبنى ، أو يحنو على
ولا أحد يؤاسينى .

وتشهـــق باكيـــة وتئن فى صوت مضطرب : أو . . . و . . . و

ذات يوم رأيتها تهبط الدرج حاملة جرة من الحليب . كانت تهبط درجة درجة بتثاقل ، والجرة محضونة بقوة بين ذراعيها الممدودتين ، والحليب يتدفق على ثوبها ، وهى توبخ الجرة وتعنّفها بقولها :

— أنظرى كيف تنسفحين ، انت ، ايتها الشيطانة !

لم تكن سمينة ، بل رقيقة مترهلة ، أشبه بقطة عجوز لم تعد لها قدرة على اصطياد الفئران ، بل هى عاجزة ، وقد أ'تخمت كفاية ، الا عن الاسترخاء والهرير وهى تستعيـــد ذكريات ولائمها وغزواتها المنتصرة .

ويهمهم سيتانوف فى عبوس :

— هم مم ! كان هذا المكان محلا رائعا يدير تجارة طيبة ذات يوم ، حين كان على رأسه رجل ذكى . اما اليوم فضاع

كل شيء ، وجميع المدخول ينصب فى جيبى كوزما الخنفس . يا لعملنا ! نعمل فى سبيله ! هذه هى النتيجة . وحدها هذه الفكرة تفرقع شيئا فى صدرك ، بحيث لا ترغب الا فى ترك عملك والتسلق الى السطح ، وهنالك تضطجع وتروح تحملق فى السماء الصيف بطوله . . .

اصيب بافل اودينتسوف بالعدوى من افكار سيتانوف . فيروح ينفث دخان لفافته على غرار ما يفعل الكبار ، ويتفلسف فى موضوعات الله ، والسكر ، والنساء ، وثمار العمل : ان بعض الناس يقضون جل أوقاتهم يصنعون أشياء لا يفعل آخرون غير تدميرها ، دون ان يلقوا اى اهتمام الى فضائلها وقيمتها .

فى مثل هذه اللحظات يبدو وجهه الصغير الجذاب هرما يعج بالغضون . وغالبا ما كانت هذه الافكار تستولى عليه بينا هو قابع فى سريره على الارض ، وذراعاه ملفوفتان حول ركبتيه ، وعيناه تحدقان مدة طويلة من خلال مربعات النوافذ الزرقاء فى النجمات فى السماء الشتوية ، وفى سقف المظلة المثقل بكميات من الثلج .

كان شخير الرسامين وقرقرتهم يتعاليان وهم غارقون فى سباتهم . يهذى أحدهم ويتلفظ بكلمات ، بجمل متقطعة فى احلامه ،ودافيدوف يسعل آخر ما تبقى من حياته على الالواح الخشبية المعلقة عاليا . وهناك فى الزاوية يرقد «خدام الله» كابنديوخين وسوركين وبيرشين ، بعضهم الى جانب بعضهم ، وقد كبّلهم النوم والادمان على السكر . وعلى الجدران ايقونات بلا وجوه ، او ايدى ، او ارجل ترمقنا بنظراتها . ورائحة

الزيت والبيض العفن والطين القذر تفعم الجو ، وتعشش فى شقوق الارض الخشبية ، وتجعل التنفس شبه مستحيل .

ويهمس بافل :

– ما أشد اشفاقى عليهم ! آه ، يا الهى !

كان سعير هذه الرأفة بالبشر يزداد فى نفسى أنا الآخر . جميعنا ، كما سبق وقلت ، نجد هؤلاء الناس طيبين ، ولكن الحياة التى يعيشون سيئة لا تليق بهم ، وضجرها يثقل على القلوب . وحينما تدق النواقيس المكتئبة ايام الشتاء ، وتهبّ العواصف فتجعل البيوت والاشجار وكل ما على الارض يرتعش ويزأر ويبكى ، يتفجر السأم فى المعمل مثل ستارة رصاصية ويهيمن عليه ، فيخنق الرسامين : ويكتم انفاسهم ، ويطردهم الى الحانات ، او احضان النساء ، فيساعدهم ذلك على النسيان ، مثله مثل الفودكا .

فى مثل هذه الامسيات لا تجدى القراءة . فاحاول انا وبافل ان نسلى العمال بوسائلنا الخاصة : فنقوم بتمثيل بعض الفصول الهزلية من تأليفنا بعد ان يطلى كل منا وجهه بالألوان والسخام ، ونضيف الى رؤوسنا شعرا مستعارا وسوالف من نبات القنب . وهكذا نكافح السأم فى بطولة ، ونجبر الناس على الضحك . تذكرت «أسطورة الجندى الذى أنقذ حياة بطرس الأكبر» وحوّلتها الى حوار قصصى . كنا نتسلق سرير دافيدوف العالى ونمثلها فوقه ، فنقطع فى فرح رؤوس الجنود السويديين الموهومين . وكان جمهورنا ينفجر ضحكا .

كان الرسامون يتمتعون خاصة بأسطورة الشيطان الصينى تزينك يوتونغ . كان باشكا يقوم بتمثيل دور الشيطان

المسكين الذى يبغى عمل الخير ، واقوم انا بتمثيل اى دور آخر : الاشخاص من الجنسين ، واشياء المسرح ، وروح الخير ، وحتى الحجر الذى ينتصب عليه الشيطان الصينى ، الغارق فى لجة اليأس بعد كل محاولة من محاولاته الفاشلة فى عمل الخير .

كان المشاهدون يضحكون ، وكنت انشده فى ألم وانا اكتشف السهولة التى يمكن ان تجعل الناس يتسلون .

كانوا يصيحون بنا :

– آه ، ايها المهرجون آه ، ايها المزاحون !

وكلما ازدادت فترة وجودى بينهم زادت فكرتى عن ان الحزن أقرب الى نفوس هؤلاء الناس من الفرح .

لم تكن الغبطة تعمر طويلا ، ولم تكن قيمتها تنبع من مجرد كونها غبطة ، بل نحن نحصل عليها بعد جهد باعتبارها ترياقا ضد اوجاع القلب الروسى . لم يكن هنالك شىء معوّل عليه بالنسبة الى هذه التسليات التى لم تكن لها حياة خاصة بها ، او رغبة فى الحياة ، ولكنها تنبعث لاضاءة ايامنا الموحشة .

وما أكثر ما تتحوّل الغبطة الروسية بطريقة مفاجئة وسريعة الى مأساة وحشية . فى منتصف احدى الرقصات ، وحين يبدو الراقص كمن يحاول التحرر من قيوده ، ينطلق الوحش الكاسر الكامن فيه من عقاله بغتة ، وينقض بوحشية على كل انسان وكل شىء ، مزمجرا ، غاضبا ، ممزقا . . .

هذه الغبطة المزيفة التى تثيرها العوامل الخارجية تقضّ مضجعى وتغيظنى . فأندفع فى الكلام وتمثيل الادوار التى

ابتكرها وأحققها فجأة وأنا مهتاج . لشد ما كنت اتوق ان ابعث فى نفوس الناس فرحا أصيلا طويـــل الامد ! ولم تكن جهودى تضيع هباء احيانا ، فالرسامون يمتدحوننى ويغتبطون منى ، غير ان السأم الذى أخالنى تغلبت عليه يتكاثف من جديد ، ويوطد أركانه ويشرع فى ارهاقنا كالسابق .

كان لاريونيتش الهادئ يقول فى صوت رقيق :

– يالك من خبيث صغير ، باركك الله !

ويؤكد جيخاريف :

– تسلية حقيقية ! لم لا تنضم الى السيرك ، او ربمـــا المسرح ؟ قد تصبح مهرجا رائعا !

كابنديوخين وسيتانوف وحدهما ، من بين سائر العاملين فى المعمل ، يذهبان الى المسرح ، فى موسم الميلاد او ايام المرافع لا غير . وكان المعلمون الأكبر سنا ينصحون لهما بالتكفير عن هذه الخطيئة بغطس نفسيهما فى النهر او البحيرة عبر ثغرة المعمودية فى الجليد . وكان سيتانوف لا ينى يردد على مسمعى :

– اطّرح عنك كل شيء وصر ممثلا !

ويروح يسرد عليّ منفعلاً عن «حياة الممثل ياكوفليف» الحزينة .

– تستطيع ان تحيا مثل هذه الحياة ، انت ايضا !

كان يحب ان يتحدث عن مارى ستيوارت ، فيدعوهـــا «الثعلبة» ، وكان يفيض حماسة بصورة خاصة فيما يتعلق «بالنبيل الاسبانى» :

— كان الدون سيزار ده بازان النبيل بين النبلاء ، يا مكسيميتش . كان نسيج وحده حقا !

وكان فيه ، هو نفسه ، شيء من «النبيل الاسباني» . ذات يوم ضرب ثلاثة من رجال الاطفاء أحد الفلاحين ، بدافع التسلية ، في الساحة القائمة قرب برج المراقبة . وشاهد عملية الضرب جمهور من قرابة أربعين شخصا ، يثيرون حماسة رجال الاطفاء . واندفع سيتانوف في معمعان الشجار . وجعل يضرب المعتدين بذراعيه الطويلتين ، وحمل الفلاح ودفعه في ملء الجمهور ، صائحا :

— خذوه بعيدا !

وبقي وحده يتابع القتال ، واحدا ضد ثلاثة .

لم يكن مركز الاطفاء يبعد أكثر من حوالى عشر خطوات بحيث ان في مقدور رجال الاطفاء بمطلق السهولة طلب النجدة وتلقين سيتانوف درسا لا ينساه في الجلد . ومن حسن حظه انهم لاذوا باذيال الفرار خائفين .

هتف وراءهم :

— يا ابناء الكلاب !

كان الشبان ينطلقون ايام الاحاد الى «ساحات الاخشاب» فيما وراء مقبرة القديسين بطرس وبولص للمشاركة في الملاكمة ضد اعضاء «الفريق الصحي» والفلاحين المقيمين في القرى المجاورة . وكان للفريق ملاكم مشهور — عملاق موردوفي ذو رأس صغيرة متقرّح العينين . كان يتخذ موقفه امام معاضديه ، وقد بدّ بين ساقيه كثيرا ، يهتف هتافات

ودية بأبناء المدينة وهو يمسح عينيه المتقيحتين بكميه القذرين :

– تعالوا ان كنتم راغبين قبل ان اصاب بالبرد !

وكان كابنديوخين يصارعه على الدوام نيابة عنا ، ولكن الموردوفى يتغلب عليه على الدوام .

كان كابنديوخين يصيح ، وهو يلهث وينزف دما :

– ما هى قيمتى ان لم أستطع انزال الهزيمة بذلك الفتى المردوفى ؟

غدا انزال الهزيمة بذلك الفتى هدفه الوحيد فى الحياة . فجعل يتدرب بقسوة : كف عن تعاطى الخمرة ، وشرع يلتهم اللحم وحده طعاما ، ويفرك نفسه بالثلج فى كل مساء قبل لجوئه الى فراشه ، ويتمرن على حمل الأوزان لتنمية عضلاته . لكن هذه الامور لم تساعده فى شىء . واخيرا ربط قطعا من الرصاص فى قفازيه وتفاخر امام سيتانوف قائلا :

– هذه الجولة ستضع نهاية للموردوفى !

حذّره سيتانوف بشدة :

– أخرج هذه القطع والا فضحت سرك قبل المباراة !

لم يصدق كابنديوخين انه يفعل ذلك . ولكن سيتانوف هتف بالموردوفى على حين فجأة قبل المباراة :

– رويدك لحظة ، يا فاسيلى ايفانوفيتش ! سألاكم كابنديوخين أولا !

فتضرّج وجه القوزاقى حمرة ، وهتف :

– انا لا أتلاكم معك ! أخرج من هنا !

قال سيتانوف ، وقد جمّده بنظرته المتحدية وهو يخطو اليه :

— بلى ، أنت تلاكمنى .

تردد كابنديوخين برهة ، ثم نزع قفازيـــه ودسهما فى صدرية معطفه ، وابتعد بخطوات سريعة .

كانت تلك مفاجأة غير سارة بالنسبة الى الطرفين ، وتوجه رجل محترم المظهر الى سيتانوف يخاطبه فى غضب :

— ضد قواعد اللعبـــة ، ايهـــا الشاب ، ان تسوّى الحزازات الخاصة فى مباراة عامة !

وجعل الناس يصيحون فى وجه سيتانوف من كل جانب . جنح الى الصمت فترة طويلة ، ثم خاطب الرجل المحترم المظهر قائلا :

— ماذا لو أننى أوقفت جريمة قتل ؟

استوعب الرجل المحترم المظهر الأمر على الفور ، فرفع قبعته ، وهو يقول :

— فى هذه الحال تقبل الشكر من قبلنا .

— لكن ، ارجو ألا تتحدث عن هذا الموضـــــوع من فضلك !

— وفيم أفعل ذلـــــك ؟ ان كابنديوخين مصارع نادر المثال ، وان ينزل الضرب بانسان دائما أمر يثير الغضب — نستطيع فهم ذلك . من الآن فصاعدا سنلقى نظرة على قفازيه قبل المباراة .

— هذا شأنكم .

حين ابتعد الرجل المحترم المظهر شرع جماعتنا يلومون سيتانوف :

– فيم فعلت ذلك ، أيها المغفل ؟ كان القوزاقي سيهزمه ، وهؤلاء نحن الآن قد حلّت الهزيمة بنا . . .

وبخناه طويلا ودون هوادة مما أهرق الغبطة فى جوانحنا . أرسل سيتانوف تنهيدة ، وقال :

– آه ، يا لحثالة . . .

وعندها تحدى الموردوفى ، الامر الذى أثار دهشة الجميع . اتخذ الاخير موقفه ، ولوح بقبضتيه ، وهتف مازحا :

– مباراة صغيرة – لمجرد بعث الدفء فى جسدى !

أمسك بعض المتفرجين بأيدى بعضهم بعضا ودفعوا أولئك الواقفين وراءهم لتشكيل حلقة واسعة .

بدأ المتلاكمان يراوحان ، وتبادلا النظرات باهتمام ، وقبضة يد كل منهما اليمنى ممتدة الى الامام ، والقبضة اليسرى ملتصقة بصدريهما . واعلن المتفرجون الخبيرون على الفور ان ذراعى سيتانوف أطول من ذراعى الموردوفى . وخيّم الصمت على كل شيء فيما عدا تحطّم الجليد تحت قدمى المتلاكمين . همهم أحدهم فى شكوى جشعة ، وقد عجز عن تحمل ذلك المشهد :

– حان الوقت كى يهاجم أحدهما الآخر فى عنف . . .

لوّح سيتانوف بيمناه ، فرفع الموردوفى يسراه دفاعا ، فتلقى ضربة مباشرة من قبضة سيتانوف اليسرى فى مقدمة معدته . تراجع وهو يخور ويقول فى استحسان :

– لست أحمق ، خصوصا وانت فتى !

واستمرا فى الصراع ، يهاجم كل منهما الآخر فى صدره . ولم تمض لحظات قليلة حتى جعل الجانبان يصيحان فى هياج :

– عليك به ، يا رسّام الله ! زخرف له وجهه !

كان الموردوفى أكثر قوة من سيتانوف ، لكن أقل رشاقة . ولما كان عاجزا عن التمايل فى سرعة فقد كان يتلقى ضربتين او ثلاث ضربات مقابل كل ضربة يوجهها . وبدا ان اللكمات أثرت فيه قليلا ، فهو يوالى زمجرته والسخرية من خصمه ، ومن ثم ، وعلى غير انتظار ، وجه ضربة عنيفة أصاب بها ذراع سيتانوف اليمنى ، فخلعها من وقبها .

هتفت عدة أصوات على الفور :

– أبعدوهما عن بعضيهما . تعادل !

واندفع المتفرجون وفصلوا بين المتلاكمين .

قال الموردوفى فى نبرة ودية :

– ليس قويا رسام الله هذا ، بيد انه سريع الحركة . لسوف يغدو ملاكما رائعا ، ولست أخجل من الاعتراف بذلك .

بدأ الشبان الذين كانوا يشاهدون المباراة مشاجرة عامة ، فى حين صحبت أنا سيتانوف الى مجبّر المعظام . ان ما قام به قد زاده سموا فى تقديرى وضاعف من تعلقى به واحترامى له .

كان منصفا وشريفا ، يبدو وكأنه يشعر ان ذلك من واجبه . بيد ان كابنديوخين الفالت جعل منه أضحوكة .

كان يقول :

– آه ، انت تعيش حياة مزيفة ، يا سيتانوف ! لقد صقلت نفسك مثلما يصقلون السماور ، وجعلت تتبجح بهذا

الخصوص – انظروا ما أنا عليه من نور براق فحسب ! اما في الواقع فليست روحك أكثر من روح نحاسية ، تبعث في الانسان الضجر والملل . . .

كان سيتانوف يلتزم الصمت وينصرف الى عمله ينسخ اشعار ليرمنتوف في دفتر صغير . كان يمضي اوقات فراغه كلها في اعمال النسخ ، فقلت له مرة :

– انت تملك مالا . فلم لا تشترى لنفسك كتابا ؟

فأجاب :

– كلا ، الشعر يحلو حينما تنسخه بخط يدك !

ويروح يقرأ في عذوبة ، وهو ينتظر ان يجف الحبر بعد ان ينهي صفحة خطّتها يده :

من دون وداع او احساس
ستفارق دنياك الصغرى
وتخلّف طيب وجوه الناس
وحلاوة ايام كبرى

وكان يقول ، وهو يضيق فرجتي عينيه :

– هذه هي الحقيقة . آه ، ما أروع كيف يستطيع الشاعر ان يرى الحقيقة !

ادهشني الاسلوب الذي كان سيتانوف يعامل به كابنديوخين . فحينما يكون هذا الأخير ثملا ويروح يقاتل سيتانوف يبذل هذا جهده في أناة وصبر محاولا ان يثنيه عن عزمه :

– ابعد عني ! لا تلمسني !

ويبدأ سيتانوف اخيرا بضرب السكير من دون شفقة ، من دون شفقة حقا ، بحيث ان الرسامين الآخرين ، الراغبين حقا فى مشاهدة معركة تدور رحاها ، يندفعون ويفرّقون بين الصديقين .

كانوا يقولون :

– ان لم نوقف سيتانوف فى الوقت المناسب فلسوف يضربه حتى الموت ، دون ان يفكر فى نفسه أدنى تفكير .

وحتى حين يكون كابنديوخين صاحيا فهو لا يكفّ عن مضايقة سيتانوف ، ساخرا من حبه للشعر وقضية غرامه التعيسة ، ويبذل جهودا قذرة ، لكن لا طائل منها ، فى اثارة غيرته . ويصغى سيتانوف الى اغاظة القوزاقى دون ان يجيب عنها او يغضب منها ، بل هو احيانا يشارك كابنديوخين ضحكه .

كانا ينامان الى جانب بعضيهما ، فيستلقيان ساهرين يتهامسان حتى ساعة متأخرة من الليل .

هذه الاحاديث الليلية كانت تكيدنى : فأتساءل ماذا يمكن ان يتحدث به شخصان ، مختلفان الاختلاف كله ، بمثل تلك الطريقة الودية . ولا أكاد أقترب منهما حتى يبادرنى القوزاقى قائلا :

– ماذا تراك تفعل هنا ؟

ويتجاهلنى سيتانوف .

نادیانی مرة اليهما . قال القوزاقى :

– مكسيمتش ، لوكنت تملك كفاية من المال فماذا تراك تفعل بها ؟

- أشترى كتبا .
- وماذا ايضا ؟
- لست أدرى .

فتنهد كابنديوخين ممتعضا ، واستدار عنى .

قال سيتانوف فى هدوء :

- أرأيت ؟ لا أحد يدرى - سواء كان شيخا ام صبيا . اقول لك ان الشراء وحده لا يمكن ان يعنى شيئا . على كل شيء ان يتمتع بفائدة . . .

سألت :

- عماذا كنتما تتحدثان ؟

أجاب القوزاقى :

- لا شيء يذكر . نقتل الوقت فحسب - فالنوم يجافينا .

واستطعت فيما بعد ان اصغى الى حديثهما ، فاكتشفت انهما يقضيان الليالى يتباحثان فى ذات الامور التى يتباحث فيها الناس خلال النهار : الله والعدالة والسعادة ، مكر النساء وغباؤهن ، جشع الأثرياء ، وحقيقة ان الحياة على وجه العموم ليست سوى تشوش مبهم لا يُدرك غوره .

كنت على الدوام مستمعا غيورا . فأحاديثهم تثيرنى فى عمق ، فأغتبط حين أراهما يوافقاننى ان الحياة فاسدة وينبغى ان تكون أفضل . وكنت أرى ، فى الوقت ذاته ، ان الرغبة وحدها فى جعل الحياة أفضل لا تلقي شيئا من العبء على كاهل اى كان ، كما انها لا تبدل مجرى الحياة فى المعمل او العلاقة بين الرسامين . هذا الحديث بأكمله ، فيما هو يمدنى بشيء من التبصّر فى شؤون الحياة ، كشف هذه الحياة باعتبارها نوعا

من خواء موحش يندفع الناس فيه ، مثل أوراق جافة على سطح بحيرة يحركها الريح ، من دون هدف او غاية ، وهم أنفسهم ، مستاؤون يشجبون اندفاعهم الذى لا هدف له .

كان الرسامون يتباهون على الدوام ، او يتحسرون ، او يلومون بعض الناس ، او يندفعون فى مشاجرات حادة عنيفة حول توافه الامور ، ويجرحون بعضهم بعضا الى درجة الايذاء . ويقضون أوقاتهم فى احاديث طويلة يخمّنون ما سيقع لهم فى العالم الآخر ، بينا هنا ، قريبا من دلو فضلات الطعام جانب الباب ، ثمة عارضة خشبية من عوارض الارض قد تعفّنت تاركة مكانها ثغرة ينسلّ منها هواء بارد رطب من الارض الموحلة فيجمّد أقدامنا . وقد سددت وبافل الثغرة بالقش والخرق . وكان الرجال يتحدثون احيانا كثيرة بخصوص وضع عارضة جديدة ، فى حين راحت الثغرة تزداد اتساعا يوما بعد يوم . وفى الايام العاصفة تهب الريح وتنفخ من خلالها مثلما يُنفخ فى بوق فتصيبنا بالسعال والزكام . وكان القرص المعدنى الموضوع على كوة التهوية يرسل صريرا مريعا يجعل الرجال يلعنونه بأقبح الكلمات . وحين دهنته بقليل من الزيت نصب جيخاريف أذنه ، وقال :

– انه الآن أكثر وحشة من دون ذلك الصرير !

بعيد العودة من الحمام كان الرجال يطوّحون أنفسهم على أسرّتهم القذرة . ان القذارة والروائح الكريهة لا تثيران انتباه احد هنا . فثمة عدد لا يستهان به من الاشياء الدنيئة السافلة تشوه الحياة وتجعلها صعبة معقدة . ان تبديلها أمر سهل يسير ، ولكن احدا لا يفكر فى ذلك .

ما أكثر ما كانوا يقولون :

– من تراه يشفق على البشر ؟ لا احد ، حتى ولا الله نفسه !

حين قمتُ وبافل بتغسيل دافيدوف المشرف على الموت ، وكانت الاوساخ والحشرات تأكله ، كثر الاستخفاف بنـــا والسخرية منا ، ولقبونا بأجيرى الحمام ، وخلع الرسامون على سبيل الهزء بنا قمصانهم وطلبوا منا ان نغليها من القمل ، وعاملونا معاملة من يأتى أمرا معيبا ومضحكا للغاية .

بقى دافيدوف منذ عيد الميلاد حتى الصوم الكبير ملتزما فراشه ، يسعل سعالا عنيفا ، ويبصـــق على الارض كميات كبيرة من الدم تتساقط الى جانب برميل المياه القذرة . وفى الليل يوقظنا بهذيانه الشديد .

كانوا يقولون فى كل يوم تقريبا :

– يجب ان ننقله الى المستشفى !

تبين لنا ان جواز سفر دافيدوف يحتاج الى تجديد ، ولن يقبلوا به فى المستشفى من دون هذا الجواز . ومن ثم طرأ على صحته تحسن ملموس . وفى النهاية قرروا فيما بينهم :

– ما أهمية ذلك ؟ لسوف يموت قريبا على اية حال !

وكان المريض نفسه يعدهم قائلا :

– أجل . سوف يتم ذلك سريعا !

كان هو الآخر مزاحا يبذل جهده فى ازالة السأم المرهق المغيظ المهيمن على المرسم . فيميل علينا عن حافة سريره العالى برأسه العظمى ، الترابى اللون ويخطب فينا بصوته الصافر :

— ايها الطيبون ، أصغوا الى صوت هذا الذى صعد الى السرير الاعلى . . .

ومن بعد ينشد سخافات على الغرار التالى :

وجلستُ على تختى العالى
فى صمت يشبه صمت القبرْ
صرصار ينهش فى لحمى
صبحا ومسا وأوان الظهرْ . . .

ويقول المستمعون معجبين :

— ليس هو بمكتئب !

كنت وبافل نتسلق اليه ، فيحيينا فى ابتسامة مقتضبة :

— ما عسى ان اقدم لكما ، ايهـــا الضيفان العزيزان ؟ أتريدان عنكبوتا طازجا ظريفا ؟

أخذت شعلة الحياة تنطفئُ فيه فى بطء ، وهذا ما كان يقشعر له بدنه ، فيغمغم فى مرارة صادقة :

— انا لا اجد للموت سبيلا !

كان عدم اكتراثه بالموت يصبّ الذعر فى نفس بافل ، فيوقظنى فى الليل هامسا :

— مكسيميتش ! أظنـــه مات . . . لسوف يموت ذات ليلة على هذا الغرار ، ونحن ننام هنا . آه ، يا الهى ، ما أشد خوفى من الاموات !

وكان يردف :

— فيمَ كان يجب ان يعيش ؟ انه يموت ولما يبلـــغ العشرين من عمره !

أيقظني في ليلة قمراء وعالنني ، وقد جحظت عيناه خوفا :

– اسمع !

كان دافيدوف يحشرج على سريره العالي ، ويقول في صوت سريع شديد الوضوح :

– هنا ، فلنحصل عليه ، هنا . . .

وأخذ يشهق شهقة الموت .

همس بافل ، وقد جنّ جنونه :

– انه يموت ، وحق الله ! لسوف ترى !

كنت قضيت النهار بطوله أنقل الثلج من الباحة الى الحقول . وكنت متعبا وفي حاجة الى النوم ، ولكن بافل توسّل اليّ :

– أستحلفك بالمسيح ، لا تنم ! أرجوك ، لا تنم !

وانتصب فجأة على ركبتيه ، وجعل يزأر :

– هبوا من نومكم ! مات دافيدوف !

استيقظ بعض منا ، وغادر بعض مضاجعهم ، وتشابكت الاسئلة القلقة .

تسلّق كابنديوخين حتى وصل الى السرير ، وقال في انشداه :

– حقا يبدو انه ميت . مع ان جسمه دافئ قليلا . . .

ران الصمت . ورسم جيخاريف اشارة الصليب ، وقال وهو يلتف بلحافه :

– حسنا . لترقدنّ روحه في سلام !

اقترح أحدهم :

– يحسن ان ننقله الى الرواق . . .

نزل كابنديوخين ، ونظر من النافذة وقال :

– لنتركه فى مكانه حتى الصباح – فهو لم يزعج احدا فى حياته . . .

ودفن بافل رأسه تحت الوسادة ، وانخرط فى بكاء موجع .

أما سيتانوف فلم يستيقظ قط .

١٥

ذابت الثلوج فى الحقول وذابت فى السماء سحب الشتاء وانصبت على الارض ثلوجا وامطارا . وصارت الشمس تتطلب زمنا أطول للقيام بدورتها اليومية ، وازداد الجو حرارة ، وبدا ان الربيع المرح حلّ اخيرا ، ولكنه مختبئ فى مكان ما بين الحقول مازحا ماجنا ، متحفزا للوثوب على المدينة . وكانت الشوارع مغطاة بوحل بنى محمر ، وجداول صغير مخرخرة على جوانب الارصفة ، وعصافير دورية تتواثب مرحة بين برك الماء المتناثرة على ساحة أريستانسكايا . وانتعش الناس فأشبهوا العصافير الدورية . وجعلت نواقيس الصوم الكبير ، من الصباح الى المساء دون كلل او فتور ، ترسل رناتها متهادية فوق انغام الربيع ووراءها ، تهدهد القلب بألحانها الناعمة . فى هذا الرنين ، كما فى احاديث الشيوخ ، نكهة ممضـــة فكأن النواقيس تعلن عن كل شيء فى يأس بارد :

– من قد يـ . . . م قديم . . . من قد يـ . . . م . . .

فى يوم عيدى أهدانى المعمل ايقونة صغيرة رسمت بصورة

فنية تمثل ألكسى خادم الله . وألقى جيخاريف فى صوت وقور خطابا ، طويلا ظلّ منقوشا فى صفحة ذاكرتى .

قال ، وهو يرفع حاجبيه وينقر بأصابعه على المنضدة :

– من يمكن ان تكون انت ؟ انت ولد صغير ، يتيم ، فى الثالثة عشرة من عمرك . ومع هذا فأنا ازيد عنك اربعة اضعاف عمرك ، اهنئك واصفّق لك لانك لا تهرب من الحياة بل تواجهها مباشرة ! هذا هو الاسلوب الصحيح ! واجه الامور مباشرة على الدوام !

وتحدث عن خدام الله ورجاله ، ولكن الفرق بين أولئك وهؤلاء أغلق علىّ كما خطر لى انه أغلق عليه من دون ريب . كان خطابه رتيبا ، سخر منه الرجال . وكنت واقفا والايقونة بين يدىّ وقد نال منى التأثر والارتباك فلم اعرف ماذا يجب ان اصنع . اخيرا صاح كابنديوخين فى الخطيب ، وقد عيل صبره :

– يبدو انك تلقى مرثاة رجل تعيس ! يحسن ان تكفّ – فقد ازرقت أذناه !

وضربنى على كتفى ، ووجه الىّ شيئا من مديح :

– افضل خصالك انك تعرف كيف تتصرف مع الجميع ! وأنا احب ذلك منك . ولكنه يجعلنا نتألم لضربك او تقريعك حتى حين تستحق ذلك !

كان الجميع يصوّبون اليّ نظرات ودية ويسخرون فى لطف من ارتباكى . ولو طال الاحتفال قليلا لانفجرت ، دون ريب ، باكيا منتحبا وقد أثارنى ذلك الفرح المفاجىء عندما رأيت نفسى ذا فائدة لهؤلاء جميعا . ومع ذلك قال البائع لبيوتر

فاسيليفتش فى ذلك الصباح ذاته فى الدكان ، وهو يومئ اليّ بهزة من رأسه :

– ولد كريه . . . لا يستفاد منه !

كنت قد ذهبت على مألوف العادة الى الدكان منذ الصباح الباكر ، غير ان البائع قال لى بعد الظهر مباشرة :

– امضى الى البيت واجرف الثلج عن سطح المخزن وكدسه فى القبو . . .

كان يجهل ان ذلك اليوم هو يوم عيدى . وكنت اظن ان الجميع لا يعرفون ذلك .

انتهت حفلة التهانى فى المعمل فأسرعت وبدّلت ثيابى ، وركضت الى الباحة ، وتسلقت الى سطح المخزن . وألقيت على الارض بالثلج الذى أثلجتنا السماء وفرة غزيرة منه ذلك الشتاء . ونسيت فى غمرة اضطرابى ان افتح باب القبو ، فغطاه الثلج الذى جرفت . وحين أدركت غلطتى أسرعت على الفور الى تحت وبدأت أرفع الثلج عن الباب . كان قد تندّى وغدا قاسيا ، فما عادت المجرفة الخشبية تصلح الا لرفع كمية قليلة منه ، ولم يكن لدىّ مجرفة حديدية ، فانكسرت مجرفتى من ثقل الثلج . فى هذا الوقت انتصب البائع امام البوابة فتحقق المثل الروسى القائل : «ما بعد السعادة الا الشقاء !» .

قال غاضبا ، وهو يدنو منى :

– آه ! أكرم بك من عامل ، أخذك الشيطان ! لو ضربت ضربة على رأسك الطائش القليل التفكير . . .

التقط قبضة المجرفة المكسورة وهددنى بها . رجعت القهقرى ، ونبرت غاضبا :

– انا لم اشتغل عندك منظفا للباحة !

قذف العصا على قدمى ، فأمسكت كتلة من الثلج ورميته بها فى وجهه . هرب وهو يبصق ، فتركت أنا عملى ورجعت الى المعمل . بعيد دقائق هبطت خطيبة البائع راكضة ، وهى فتاة فى ريعان الصبا ، طائشة ، بطرة ، تغطى الحبوب وجهها .

– مكسيميتش ، انت مطلوب هنالك فوق !

اجبتها :

– لن أذهب !

سألنى لاريونيتش فى صوت خفيض عرته الدهشة :

– ما هذا ؟ لن تذهب ؟

رويت له ما حدث . قطب حاجبيه متفكرا ، وصعد بعد ان همس قائلا :

– تلك وقاحة منك ، يا بنىّ !

ضجّ المعمل باللعنات تنصبّ على البائع .

أعلن كابنديوخين :

– لا ريبة انهم سيتخلصون منك الآن !

لم يكن ذلك يرعبنى . فمنذ فترة من زمن وعلاقاتى بالبائع متوترة لا تطاق ، وهو يضمر لى الكره ويظهره باصرار كثير وخبث متزايد . ولم يكن فى مقدورى ان اتحمله واصبر عليه ، بل كنت أفضل الوقوف على سبب معاملتى هذه المعاملة الحمقاء .

كان ينثر على ارض المخزن قطعا نقدية بحيث أعثر عليها حين أكنس . وكنت اضعها دائما فى علبة موضوعة على المنضدة جمعت فيها كوبيكات قليلة مخصصة للتوزيع على

المتسولين . ولما حزرت اخيرا سبب نثره لها خاطبته قائلا :
– لن ينجم شيء من القاء هذه الدراهم على الارض !
فاستشاط غضبا ، وتضرج وجهه ، وصاح فى صفاقة :
– كيف تجرؤ على موعظتى ! انا اعرف ماذا افعل !
وسرعان ما استدرك قائلا :
– ما الذي يجعلك تظن انى أفعـــــل ذلك عن قصد ؟ الدراهم تسقط وحدها على الارض . . .
كان قد حرّم عليّ القراءة فى الدكان قائلا :
– ليست هذه مهمتك ! او ربما تود ان تصير عالما ، ما ؟ ايها الطفيلى !
تابع جهوده للقبض عليّ بتهمة سرقة قطعــــة نقدية ، وتحقق لديّ انه لو تدحرجت قطعة من فئة العشرين كوبيكا خلال مسحى الارض واندست فى أحد الشقوق فلن يألو جهدا فى اتهامى بسرقتها . اقترحت عليه مرة اخرى ان يكفّ عن تلك اللعبة التى يلعب معى ، ولكنه حصل فى ذلـــك اليوم ذاته ، وفيما انا عائد من الحانة احمل وعاء للشاى يطفح ماء غاليا ، انى سمعته يخاطب الوكيل الجديد فى المخزن المجاور لنا قائلا :
– اجعله يسرق كتاب المزامير – لسوف نحصل قريبـــا على طبعات جديدة – ثلاثة صناديق كاملة .
عرفت انهما يتحدثان عنى . فما ان دخلت حتى ارتبك كلاهما . وقد خمنت من زمن بعيد انهما يهيئان للقيام بمؤامرة خبيثة ضدى .
كان وكيل جارنـــا ، وهو مخلوق ضعيـــف مهزول عيناه

ماكرتان ، يعمل بين فترة واخرى فحسب . فقد كان مدمنا على الشراب فى ذات الوقت الذى يعتبرونه فيه وكيلا ممتازا . وكلما استسلم لنوبة من نوبات الشراب يعمد المعلـــم الى طرده ، ومن ثم يعيده الى عمله من جديد . كان متواضعـــا ظاهريا ، يطيع رغبات معلمه مهما كانت تافهة ، ويخلع على وجهه على الدوام ابتسامة متكبرة ترتسم فى زاوية فمه ، ويحب ان يدلى ملحوظات حادة . وكانت أنفاسه ملوثة مثل انفاس الناس الذين تعفنت أسنانهم على الرغم من ان اسنانه سليمة .

أدهشنى تصرفه ذات يوم الى درجة بعيدة : اقترب منى وفى ملامحه ابتسامة وداد ، وطوّح على غير انتظار قبعتى عن رأسى وأمسكنى من شعرى . وبدأنا نتقاتل . جرنى من الممر الى الدكان حيث حاول ان يرمينى على بعض الايقونات الكبيرة ، الموضوعة على الارض . لو نجح فى فعلته لاضطررت الى تحطيم الزجاج من دون ريب ، وكسر النقوش ، واتلاف الرسومات الثمينة . وباعتبار انه لم يكن قويا فقد تمكنت من التغلب عليه بسهولة . ولكم كانت دهشتى عظيمة حينما شاهدت ذلك الرجل الملتحى يشرع فى الانتحاب بمرارة من حيث اقتعـــد الارض ، وهو يمسح انفه المجروح .

فى صبيحة اليوم التالى ، وكنا وحيدين ، ذهب معلمانا معا ، فقال لى فى نبرة ودية وهو يحك الانتفاخ على جسر أنفه وما تحت عينه :

– أتظنّ أنى ألاحقك من تلقاء نفسى ؟ لست أحمق . كنت اعرف انك اقوى منى . فانا ضعيف ، وسكير . المعلم

هو الذى أمرنى بذلك . قال لى : «اضربه وحاول ان تجعله يحدث اكبر ضرر ممكن فى دكانهم . ولسوف يتأتى عن ذلك خسارة كبيرة تلحق بهم» . اما بالنسبة الي – فما كنت لافعل ذلك من تلقاء نفسي . انظر هذا الوجه الذى صنعته بى !

صدقته ، وبدأت اشعر الاسف من اجله . كنت اعرف انه نصف ساغب ويعيش مع امرأة تنزل به صنوف الضرب . ورغم ذلك سألته :

– لو انهم امروك ان تسم شخصا ، فهل تفعل ذلك ؟

أجاب الرجل فى عذوبة ، وقد ابتسم ابتسامة رثاء :

– قد يرغمنى . . . فهو – قادر على ذلك . . .

وقال لى فى مرة اخرى :

– لست املك كوبيكا واحدا . وليس فى البيت شيء آكله ، وامرأتى تظلّ تنقّ عليّ . اذا سرقت ايقونة من مخزنكم فلسوف أبيعها . هل تسرقها من اجلى ؟ أوربما كتاب مزامير ؟

تذكرت مخزن الاحذية وحارس الكنيسة ، فهمست فى نفسى : لسوف يخبر عنى هذا الفتى من دون ريب . ولكن قلبى لم يطاوعنى ان ارفض طلبه . أعطيته ايقونة . بدا لى ، لسبب ما ،انها جريمة عظمى ان اسرق كتاب مزامير ثمنه عدة روبلات . بلى ، فان من الغرابة بمكان ان جميع مثلنا الاخلاقية مشوبة برائحة حسابات تجارية . وتشريعنا الجزائى ، بكل ما فيه من سذاجة بسيطة ، يفضح هذا السر الصغير ، ويختبئ وراءه الكذب الافدح للملكية الخاصة .

تذكرت سرقة هذه الايقونة حينما سمعت بائع دكاننا

يستحثّ هذا الفتى الجدير بالشفقة على اغوائى بسرقة كتاب المزامير ، فساطنى الرعب بسوطه . كان واضحا ان البائع يعرف الاريحية التى أبديها على حسابه . وبكلمات اخرى ، فقد اخبر رجل جارنا عن فعلتى .

ان تفاهة اظهار الشهامـــــة على حساب الآخرين وحقارة المؤامرة التى دبراها ضدى اثارت سخطى وشعورى بالامتعاض من نفسى ومن الناس جميعا . قاسيت العذابات الى وصول الكتب الجديدة . وهذه هى قد وصلت اخيرا . وبينما رحت أفتح رزمها فى المخزن انضمّ وكيل جارنا اليّ وسألنى ان اعطيه كتاب مزامير .

استفسرت قائلا :

– هل أعلمت معلمى بموضوع الايقونة ؟

فاعترف فى دناءة :

– اجل . انا لا استطيع كتمان الاسرار ، يا أخى . . .

صعقت . اقتعدت الارض وحملقت فيه وهو يتمتـــم فى نبرات عجولة ، يبدو مضطربا جديرا بالشفقة حقا :

– خمنّ معلمـــك ، او بالاحرى خمّن معلمـــى وأخبر معلمك . . .

احسست انى انتهيت . لقد خدعنى هؤلاء الاشخاص ، وسوف أرسل الآن من دون ريب الى اصلاحية للاحداث . فاذا انتهى الامر على هذا الغرار فليس ثمة ما يشغل بالى ! اذا كان علىّ ان اغرق فلاغرقنّ فى المياه الاكثر عمقا ! دفعت كتاب مزامير فى يد الوكيل ، فأخفاه فى معطفه وخرج ، وسرعان ما رجع أدراجه فسقط كتاب المزامير عند قدمىّ .

قال ، وهو يبتعد خارجا :

– لا استطيع ان آخذه ! لسوف تكون سببا فى هلاكى . . .

لم افهم معنى كلماته . فيم اكون انا سببا فى هلاكه ؟ لكن سرورى كان فائقا لانه لم يأخذ الكتاب . وبعيد هذا الحدث صار بائع دكاننا الصغير ينظر اليّ فى مزيد من العداوة والارتياب .

تذكرت هذه الامور كلها فيما لاريونيتش يتسلق درجات السلّم . سرعان ما عاد أكثر عبوسا وهدوءا منه فى اى يوم آخر ، وقبيل العشاء مباشرة ، وفيما انفردنا معا لا ثالث معنا ، قال يخاطبنى :

– حاولت ان اجعلهم يفصلونك من العمل فى الدكان ويتركونك تعمل فى المعمل . غير اننى فشلت ! لم يصغ كوزما الى اقوالى . فهو ضدك . . .

كان لى عدو آخر فى ذلك البيت ايضا : خطيبة البائع التى تحبّ العبث والتدلل . فجميع الرسامين الشبان فى المعمل يداعبونها وينتظرونها فى الممر لضمها وعناقها . فلا تثور ، بل تكتفى بان تنبح فى لطف كالكلب الصغير . وهى لا تفتر من الصباح الى المساء عن مضغ الفطائر والسكاكر التى تخزنها فى جيوبها دائما . وكان وجهها المتبلّد ، الخاوى من اى معنى ، ذو العينين الصغيرتين الرماديتين القلقتين ، كريه يبعث الاشمئزاز . كانت تطلب منى ومن بافل دائما ان نحزر الغازا تكون أجوبتها سافلة قذرة ، وتعلمنا عبارات اذا تلفظ المرء بها سريعا دلت على أوسخ المعانى وأحطّها .

قال لها مرة أكبر الرسامين سنا :

– انت فاجرة قليلة الحياء !

فأجابت فى جرأة باقوال مستعارة من اغنية سفيهة :

اذا الفتاة تحلّت بالحياء
هجرها الفتيان دون مراء !

تلك اول مرة ارى فيها فتاة من هذا النوع ، فهى تثير فيّ النفور والرعب باعمالها الفظـــة . وحين تيقنت ان هذه الوسائل لا تقع من نفسى موقع الرضى غدت أكثر الحاحا واشد وقاحة .

كنا نساعدها ذات يوم انا وبافل فى تبخير براميل المخلل فىالقبو ، فاقترحت علينا :

– أتحبان ان أعلمكما التقبيل ، ايها الصبيان ؟

فاجاب بافل ، وهو يرسل ضحكة قصيرة :

– اعرف التقبيل افضل منك .

أما انا فأشرت عليها فى شيء من القحة ان تقبّل خطيبها .

احتدمت غيظا :

– ايها الجلف ! بهذا الاسلوب تحاول الفتاة ان تلاطفك . وأنت تدير لها أنفك !

واردفت تتوعدنى باصبعها :

– رويدك فحسب . فلن أنسى منك هذا !

واضاف بافل يشدّ أزرى :

– لو وقف خطيبك على سلوكك لكان له معك شأن واى شأن !

فارتسمت على وجهها المغطى بالحبوب معانى الاحتقار :

– انا لا اخافه ! بمثل مهرى أتمكن من العثور على عشرات الازواج وجميعهم يفضلونه كثيرا . الفتاة لا يتاح لها العبث والتلهى الا قبل يوم زفافها .

وجعلت تتلهى وبافل . ومنذ ذلك الحين اصبحت من اكثر الوشاة بى ، لا تملّ او تستريح .

غدت معيشتى فى الدكان عسيرة جدا ، فقد قرأت سائر الكتب الدينيـــة ولم تعد المناقشات واحاديث الخبراء تثير اهتمامى . فهم يتحدثون دائما عن الموضوعات ذاتهـــا دون تغيير او تبديل . وظلّ بيوتر فاسيليفتش وحده يجذبنى اليه باطلاعه الواسع على الخفايا السوداء للحياة البشرية ، واجادته فن الكلام اجادة عنيفة ، وكنت احدث نفسى قائلا احيانا ان النبى ايليا عاش هكذا هو ايضا على هذه الارض ، وحيدا ناقما .

وحينما كنت احدث الشيخ بصراحـــة عـــن افكارى او ملحوظاتى حول الناس فهو يعيرنى سمعه فى انتباه ، ثم يعيد كل شىء على مسمعى بائع الدكان الذى يوبخنى او يسخر منى .

أخبرت الشيخ ذات يوم اننى اكتب أحيانا ما يقول لى فى الدفتر الذى انسخ فيه قصائد الشعر او مقطوعات من الكتب . أخافه ذلك ، فمال عليّ على الفور وشرح يستجوبنى فى فزع :

– فيم تفعل هذا الامر ؟ هذا ليس عدلا ، يا صاح . كيما تتذكره ؟ أوه ، كلا ، يجب ألا تفعل ذلك ! يا لك من مكار صغير ! ولكنك ستعطينى هذا الدفتر ، أليس كذلك ؟

استحثنى طويلا ، وفى اصرار ، لتسليمـــه الدفتر ، او

احراقه على الاقلّ . ثم شرع يهمس مهتاجا فى أذن بائـــع الدكان .

فى طريقنا الى البيت قال لى الاخير :

— يبدو انك تحتفظ بما يشبه المذكرات . حاول ان تضع حدا لذلك ، هل تسمعنى ؟ وحدهــم رجال المخابرات يفعلون هذا !

قلت فى غفلة منى :

— وماذا بشأن سيتانوف ؟ انه يحتفظ بمذكرات ايضا .

— هو ايضا ؟ يا للاحمق المسلوع !

بعيد صمت طويل اقترح فى دماثة غير عادية :

— هيا ، الآن ، أطلعنى على دفترك ، ودفتر سيتانوف ايضا . سادفع لك نصف روبل ! افعل ذلك فى هدوء مطلق ، ودون ان تجعل سيتانوف يدرى . . .

يبدو انه كان واثقا من اننى سأستجيب لطلبه ، فقد راح يتواثب على ساقيه القصيرتين مبتعدا دون ان يزيد حرفا واحدا .

حين بلغت البيت أخبرت سيتانوف بما اقترحه بائـــع الدكان . فقطب وجهه :

— لماذا أخبرته ؟ لسوف يبعث من يسرق دفترينـــا ، دفترك ودفترى . هيا ، أعطنى دفترك فأخبئه بعيدا عن متناول اليد . لسوف يتخلص منك سريعا ، لسوف ترى !

لم اكن اشك فى ذلك . فقرّ عزمى على الانصراف حالما تعود جدتى الى المدينة . كانت قد قضت الشتاء بأسره فى بالاخنا حيث دعيت لتعليم بنات شخص أجهله فن التطريز .

وكان جدي قد آب الى كونافينو من جديد ، ولكنني لم اذهب لرؤيته .ولم يكن هو ايضا يأتي لزيارتي حين يؤمُّ المدينة في مناسبات نادرة . صادفته ذات يوم في الشارع يسير في رزانة متماهلا في معطفه الضخم المصنوع من جلد الراكون وكأنه كاهن من الكهنة . بادرته بالسلام . فرفع احدى يديه يحمي بها عينيه ، وتمتم في صوت شارد :

– آه ، هذا انت اذن . بلى ، بلى ، يبدو انـــك غدوت رساما للآلهة . حسنا ، تابع سيرك ، تابع سيرك !

أبعدني عن طريقه وأكمل سيره بخطواته المتزنة ذاتها .

قلما كنت ارى جدتي هذه الايام ، فهي منصرفة الى عملها الانصراف كله ، تعضد جدي الذي أخذت قواه الفكرية في الانهيار ، كما كانت تعنى بشؤون اولاد ولديها . كان ساشا ابن ميخائيل ، وهو شاب جميل الطلعة غارق في الاحلام مفتتن بالكتب يجرّ عليها كثيرا من المتاعب . كان يعمل في المصبغات ويتنقل من معلم الى آخر دون استقرار ، وفي فترات انتقاله يعيش عالة على جدتي وينتظر في اطمئنان تام ان تجد له عملا جديدا . وكان يترتب على جدتي ايضا ان تؤمن حاجات أخت ساشا التي بليت بزواج بائس ، فزوجها السكير يضربهـــا ويطردها من البيت .

فاذا اجتمعت بجدتي تمليت من جمال روحها بصورة أشد وعيا واطرادا . لكنني بدأت احسّ ان هذه النفس الساحرة غشت عليها القصص الخيالية ، فهي ليست جديرة ان ترى او تفهم الحقائق المرة الأليمة . وظلت همومي وآلامي غريبـــة وبعيدة عنها .

– علينا ان نتحمل الاعباء ، يا أليوشا .

هذا ما كان فى طوقها ان تقول لى جوابا عن حديثى حول شناعة الحياة وآلامها ، وعن عذابات الناس وضجرهم – كل ما يمضنى فأحتج ضده فى عنف وشدة .

كنت قليل النزوع الى الصبر ، وان ابديت احيانا هذه الصفة التى يتميز بها الحيوان والشجر والحجر فى ذلك الا كيما امتحن نفسى بنفسى ، امتحن مدى قواى ودرجـــة مقاومتى فى سبيل البقاء على الارض . كان الغلمان احيانا ، يدفعهم عامل الفتوّة الاحمق او الغيرة من قوة الكبار ، يقدمون على رفـــع أثقال لا تتناسب وقوة عضلاتهم وعظامهم ، فهم يتباهون مثلما يتباهى الابطال الذين يستطيعون التلهى برفع أثقال من وزن كبير .

هذا ما فعلت انا ايضا ، بالمعنيين الصحيح والمجازى ، من الناحية الجسدية والنفسية ، والحظ السعيد وحده هو الذى حال بينى وبين ايذاء نفسى حتى الموت ، او اصابتها باى عته حتى نهاية ايامى على الارض . فليس من شىء يجهز على الانسان أكثر من الرضوخ للقوى المتفوقة المتسلطة .

واذا عدت اخيرا الى الارض وقد تناوشتنى العلـــــل ، فلسوف يكون فى مقدورى ان اقول قبل موتى على اقل تقدير ، وفى شىء من الفخر ، انى ظللت طوال أربعين عامـــا صخرة صلدة فى وجه جميع الجهود العنيدة للناس الذين شاؤوا ان يضللوا روحى ويشوّهوها .

وكانت رغبة جامحة متزايدة تدفعنى دفعـــا مطردا الى ارتكاب اعمال صبيانية ، الى ادخال المرح على النفوس وتحريض

الناس على الضحك ، وقد أفلحت فى هذا المسعى . كانت لى موهبتى فى وصف وتقليد التجار فى «السوق السفلى» ، وأجيد تقليد الفلاحين ونساءهم وهم يشترون الايقونات ويبيعونها ، وكيف يخدعهم البائع فى ذكاء وفطنة ، وكيف يوالى المتحذلقون مناقشاتهم التى لا نهاية لها .

كان الناس فى المعمل ينفجرون ضاحكين ، وما أكثر ما يتركون عملهم لمراقبة تمثيلياتى . بيد ان لاريونيتش يلاحظ قائلا عندما أنتهى من ذلك :

– يفضل ان تقدم تمثيلياتك بعد العشاء بحيث لا يتعطل العمل .

فاذا فرغت من «التمثيل» شعرت براحة حقيقية وكأننى ازحت عن صدرى عبئا ثقيلا . وأبقى ساعة وأكثر وقد خلا رأسى من كل همّ ، ولكننى لا البث ان أشعر ، بصورة تدريجية ، كأن مسامير صغيرة تنهال على دماغى .

كل ما حواليّ يغلى كالعصيدة الملوثة ، فأشعر بنفسى اغور فيها . وأهمس فى جوانحى قائلا :

«أمن الممكن ان تكون حياتى بأسرها على هذا النحو ؟ هل قـُدّر عليّ ان أقضى حياتى مثل هؤلاء الناس دون ان اعرف ودون ان أرى شيئا احسن ؟»

قال لى جيخاريف ، وهو يتأملنى فى انتباه :

– غدوت سريع الغضب ، يا ألكسى .

وما أكثر ما يسألنى سيتانوف :

– ماذا أصابك ؟

فلا ادرى ماذا اجيب .

كانت الحياة تقسو فتزيل من نفسى افضل ما تركته فيها ، وتضع فى مكانها وهى عاتية ساخرة سخافات وبلاهات غامضة . وأقاوم قسوتها فى عناد وغضب . كنت اعوم على ذات النهر الذى يعوم عليه الآخرون ، غير ان الماء فى نظرى أبرد وأقل قدرة على احتمالى ، فيخيل اليّ احيانا انى أغوص الى الاعماق فى بطء .

كنت ألقى من الناس معاملة مطردة فى تحسنها ، فلا يصرخون فى وجهى كما يفعلون ببافل ، ولا يعبثون بى ، ولا يسخرون منى . كانوا يسموننى باسمى الكامل وباسم ابى احتراما لى . وكان ذلك يقع على نفسى بردا وسلاما . وكنت أتألم من رؤية ادمان بعض الناس الكثيرين على الفودكا ، ومدى انحطاطهم فى سكرهم ومن ثم نظرتهم الى النساء ، وادركت ان الخمرة والنساء هما التسليتان الوحيدتان فى متناول ايديهم .

تذكرت كثيرا فى أسى ان ناتاليا كوزلوفسكايا ، هذه المرأة الحصيفة الحكيمة ، الشجاعة ، خطر لها هى الاخرى ان تكون النساء مجرد أُلهية .

وماذا اذن عن جدتى ؟ والملكة مارغو ؟

تذكرت الملكة مارغو بشعور قريب من الذعر . فهى جزء غريب عن كل شىء حوالى ، بحيث يخال لى انى رأيتها فى حلم .

لجّ بى التفكير المتواصل فى النساء ، وفكّرت جديا فى امكانية قضائى اليوم التالى حيث ينهل الجميع ملذاتهم . لم يكن ذلك ناجما عن شهوة جسدية . كنت صحيح الجسم ، عيوفا ، لكننى أشعر احيانا بحاجة ملحة الى ضم مخلوق رؤوم

حنون ، مخلوق استطيع ان احرق امامه جميع عذاباتى مثلما يكشفها الابناء لامهاتهم .

كنت احسد بافل . ذات ليلة ، وقد اضطجعنا جنبا الى جنب ، قص عليّ قصة حبه مع خادمة فى البيت المقابل لنا .

– فكر فحسب ، يا صديقى : كنت منذ شهر أقذفها بكتل الثلج . وكانت لا تروق لى . وهذا انا الآن ، حينما أشعر بها جالسة على المقعد الى جانبى – اما الآن فلا ارى فى الدنيا أعز منها على قلبى .

– عن اى شىء تتكلمان ؟

– عن كل شىء . تحدثنى هى عن نفسها ، واحدثها انا عن نفسى ، ومن ثم نقبّل بعضنا . ولكنها – شريفة . . . ليتك تعلم ما أعذبها ! هاى ، انت تدخن مثل جندى عتيق !

كنت أكثر من التدخين . وكان التبغ يضرب رأسى ويبدد أفكارى القلقة . اما طعم الفودكا ورائحتها فهما ، لحسن الحظ ، لا يتركان فى نفسى الا الاشمئزاز والنفور . ولكن بافل يقبل على الشراب بملء نفسه . وحين يثمل يروح ينتحب قائلا :

– اريد الذهاب الى البيت ! دعونى اذهب الى البيت !

كان يتيما . مات أبواه منذ زمن بعيد ، ولم يكن له أخوة او أخوات ، فهو يعيش منذ ان بلغ الثامنة من عمره بين أكناف الغرباء .

فى هذه الحال النفسية القلقة ، وقد زادها نداء الربيع سوءا ، عقدت العزم على ايجاد عمل من جديد على ظهر أحد

المراكب ، بحيث لا اكاد اصل الى استراخان حتى أفر الى بلاد فارس .

لست أذكر السبب الذى حدا بى الى انتقاء بلاد فارس - لعل التجار الفرس الذين يفدون على سوق نيجنى نوفغورود يروقون لى كثيرا ، فهم يجثمون على الارض يستدفؤون بأشعة الشمس ويدخنون النرجيلة - أصنام منحوتـــة من حجارة ، لحاها مصبوغة وعيونها كبيرة سوداء تعرف كل شيء .

من المرجح اننى كنت حققت رغبتى فى الفرار لو لا انه فى بحر اسبوع سيطلّ عيد الفصح ، وقد نزح قسم من الرسامين الى قراهم الاصلية ، وأخذ الآخرون يزجون اوقات فراغهم فى الحانات . التقيت بمعلمى القديـــم ، ابن اخت جدتى ، يقوم بنزهة على ضفاف نهر الأوكا فى يوم أشرقت شمسه . كان يسير وحيدا وقد ارتدى معطفا رماديا خفيفا ، ويداه فى جيبى سرواله ، واللفافة بين اسنانه ، وقبعته على مؤخرة رأسه . لما اقتربت منه رانت على وجهه بسمة ودية . كان مظهره مشجعا مغريا ، مظهر رجل طليق ، مرح ، ونحن وحدنا فى ذلك الحقل .

- آه ، بشكوف ! المسيح قام !

بعدما تبادلنا قبلات الفصح سألنى عن صحتى وعملى ، فاعترفت له بصراحة تامة ان المعمل والمدينـــــة وكل شيء بصورة عامة يبعث السأم فى نفسى ، واننى وطدت العزم على السفر الى فارس .

قال فى صوت جدى :

- اطرح عنك هذه الفكرة ، فلتكن فارس ملعونة ! انا

اعرف ، يا صديقى ، حين كنت فى سنك تقت انا ايضا الى الفرار ، ووحده الشيطان يعرف الى اين !

راقت لى طريقته اليسيرة فى التندّر بالشياطين . ان كل ما فيه ينمّ عن خفة الربيع واغرائه ، وهو من رأسه الى اخمص قدميه مرح مستهتر .

سألنى ، وهو يمد لى علبة من الفضة عامرة بلفائف غليظة :

– أتدخن ؟

كانت هذه التقدمة عاملا كبيرا فى اقناعى .

– اسمع ، يا بشكوف . ما رأيك فى العودة الى عملك عندى ؟ عندى فى هذه السنة اعمال فى المعرض تقدر بأربعين الفا من الروبلات . ستقيم فى المعرض ، وتقوم باعمال المراقبة من قبلى . تستلم مواد البناء وتسعى ان يتم تسليم كل شىء فى مكانه الصحيح ووقته المحدّد ، وتسهر على العمال كيلا يسرقونى . هل اتفقنا ؟ الاجر – خمسة روبلات شهريا وخمسة كوبيكات من أجل غدائك ! ولن يكون لأمى وزوجتى ادنى شأن معك – تذهب صباحا وترجع مساء – فهما خارج الصورة . لا تقل لهما فحسب اننا التقينا ، بل تعال فى أحد القديس فوما – فنتدبّر الامر !

افترقنا كما يفترق الاحباب . صافحنى قبل ذهابه ، بل أومأ لى من بعيد ملوحا بقبعته بصورة ودية .

حين أعلنت فى المعمل نبأ اعتزامى ترك العمل سرت بادىء الامر موجة أسف شديد اغبطتنى . وكان تأثر بافل بصورة خاصة بالغا . قال مؤنبا موبخا :

– ولكن فكّر فى الامر . كيف تفارقنا لتعيش مع أولئك الرجال . نجارون ودهانون . . . تفو ! أنسيت المثل القائل «يتسلق من رئيس أساقفة الى قندلفت» ؟

ودمدم جيخاريف :

– الشباب يبحثون عن المتاعب مثلما يبحث السمك عن الاعماق . . .

كان وداع الرسامين لى محزنا كئيبا .

قال جيخاريف ، وقد اخضّر وجهه من فرط الشراب :

– لا شك ان عليك ان تجرب هذا الشىء وذاك . ولكنه يحسن بك ان تتشبث بشىء واحد منذ البداية وتظل متشبثا به .

وأردف لا ريونيتش فى صوت هادىٔ :

– وينصرف اليه حياته بأسرها .

غير اننى شعرت انهم يتحدثون فى جهد وعلى سبيل الواجب والمجاملة ، فكأن الصلات التى تربطنى بهم تعفّنت وانفصمت عراها فجأة .

تقلّب غوغوليف المخمور على سريره العالى ، وغمغم فى صوت خشن :

– لو شئت لطرحتكم جميعا فى السجن ! انا اعرف سرا : انتم لا تؤمنون بالله ! آه . . ها !

كانت الايقونات التى لم يتم صنعها او ترسم وجوهها مسندة الى الجدران ، وكرات الزجاج معلقة بالسقف ، منذ فترة من الوقت ، ونحن نعمل دون ضوء ، بحيث لم يعد ثمة حاجة الى تلك الكرات فعلتها طبقة رمادية من الغبار والاوساخ الدهنية . كل شىء لا يزال محفورا على صفحة ذاكرتى بشدة

وقوة ، حتى اذا أطبقت اليوم جفنيّ رأيتُ الغرفة المظلمة بمناضدها ، واوانى الالوان على اطراف النوافذ ، وحزم ريش الرسم فى اماكنها ، والايقونات ، وسطل النفايات فى الزاوية تحت المغسلة النحاسية أشبه ما يكون بخوذة رجال المطافئ . ورأيت قدم غوغوليف الحافية ، زرقاء مثل قدم رجل غريق مدلاة من السرير العالى .

وددت ان انصرف بسرعة ، بيد ان الروسيين يحبون اطالة أمد الساعات الحزينة ، فاذا افترق الناس عن بعضهم أقاموا ما يشبه المآتم .

خاطبنى جيخاريف قائلا ، وقد اربدّ وجهه :

— لا استطيع ان اعيد اليك كتاب «الشيطان» . اذا شئت فى مقدورك ان تتلقى عشرين كوبيكا ثمنا له .

كانت قسوة بالنسبة اليّ ان افترق عن ليرمنتوف ، خاصة وان كتابه أُهدى اليّ من رئيس فرقة المطافئ الشيخ . ولكننى رفضت ان أقبض النقود لانه اصابنى شئ من الاستياء لسلوكه هذا وأعادها جيخاريف الى كيس نقوده فى هدوء ، وأعلن فى برودة :

— كما تشاء . ولكننى لن اعيد الكتاب اليك ! ذلك خطر بالنسبة لك . تستطيع ان توقع نفسك فى المآزق اذا حملت مثل هذا الكتاب .

— ولكنهم يبيعونه فى جميع المخازن . رأيته بنفسى .

فأجاب فى قناعة :

— وماذا فى ذلك ؟ انهم يبيعون مسدسات فى المخازن ايضا .

فى آخر المطاف لم يرجع الكتاب الي ّ .

حين صعدت أودّع أرملة صاحب المكان التقيت فى الممر ابنة أخيها ، فعالنتني :

– يقولون انك نويت الذهاب . . .

– نعم !

فأنبأتني فى شيء من عدم التهذيب ، لكن فى صدق واخلاص :

– لو لم تنصرف من تلقاء نفسك لطردوك طردا .

قالت لى صاحبة المحل ، وهى فى نشوة الثمالة :

– وداعا . كان الله معك ! انت ولد شرير – وقح جدا ! انا لم أرك تسيىء الىّ ، ولكن الجميع يقولون انك ولد شرير !

وانثالت تبكى بغتة . قالت من خلال عبراتها :

– لو كان المرحوم زوجى المسكين ، روحى الحبيبة ، فى قيد الحياة لفرك أذنيك وأنزل على رأسك ضربة . لكنه ما كان يطردك من هنا . أما اليوم فكل شيء تبدل . ما ان تقترف ذنبا صغيرا حتى يطردوك ! يا الهى ! ماذا يكون مصيرك ، يا صغيرى ؟

١٦

اتخذنا سبيلنا ، انا ومعلمى ، فى قارب على طول شوارع ارض المعرض ، بين بنايات حجرية غمرتها حتى منسوب الطابق الثانى فيها المياه المرتفعة من النهر مع حلول الربيع . كنت أجدف ، وكان معلمى الذى جلس فى مؤخرة القارب يوجه

الدفة فى خراقة . وكانت الدفة عبارة عن مجداف غاص عميقا فى الماء وراح القارب يدسّ أنفه فى هذا الشارع مرة وفى ذات مرة على سطح المياه العكرة الهادئة المكتئبة .

زمجر معلمى ، وهو يشعل سيجارا رائحة دخانه تشبه الخرق المحترقة :

– لكم ارتفعت المياه عاليا هذا الربيع ، أخذها الشيطان ! ستؤخر اعمالى !

وهتف فى رعب :

– حذار ! نحن نتجه الى عمود للكهرباء !

واعلن ، بعدما اصلح وجهة سير القارب :

– اعطونا قاربا رديئا ، اولئك الملاعين !

واشار الى المكان حيث يترتب علينا ، بعيد انحسار المياه ، البدء باصلاح الدكاكين . لم يكن يشبه متعهدا ، بذقنه الحليق وشاربه المقصوص والسيجار العالق بين أسنانه . كان يرتدى معطفا جلديا وحذاء يصل الى ركبتيه ، وقد ألقى محفظة للطرائد على كتفه ، فى حين وُضعتْ عند قدميه بندقية ثمينة مزدوجة الفوهة ماركة ليبل . كان يوالى لمس قبعته الجلدية فى اضطراب ، فيشدها حينا الى ما فوق عينيه بقليل ، ويزمّ شفتيه ويحدق حواليه فى قلق ، وحينا يدفعها الى مؤخرة رأسه فيلوح على حين غرة أصغر سنا ، ويبتسم بينه وبين نفسه من مجرد فكرة سارة خطرت له . وتحمله موجة من التفكير على هذا الغرار ويصعب تصديق ان له كثرة من الاعمال وقيودها ، فلا يعود يبدى اية دلالة على تعجله العمل او قلقه بشأن انحسار المياه المتباطئ .

وكنت انا ، من ناحيتى ، أسير شعـــــور من التساؤلات الهادئة : ما أغرب رؤية هذه المدينة المائتة المغمورة بالماء بصفوف أبنيتها التى فغرت أشداق نوافذها تسبح فى عذوبة وهى تمرّ عبر قاربنا !

كانت السماء رمادية . وقد انحبست الشمس فى شبكة من السحب ، التى تطلّ من بينها بين فترة واخرى كقرص فضى عريض .

المياه ايضا رمادية باردة ، وتدفق التيار لا يكاد يدرك . يبدو وكأنه تجمّد وأغفى مع الابنية الخاوية وصفوف الدكاكين الصفراء الوسخة . وحين استرقت الشمس الضاربة الى البياض النظر من خلال الغيوم سطع كل شيء بنور خفيف ، وعكست المياه صفحة السماء الرمادية وبدا قاربنا معلقا فى الهواء بين سمائين . ونهضت الابنية الحجرية بدورها وسبحت بخفة فى اتجاه الفولغا والأوكا . وكانت براميل محطمة ، وصناديق ، وسلال ، وقطع من الاخشاب والقش تتأرجح على السطح ، فى حين ان جذوعا واعمدة خشبية تمر بنا طافية وكأنها أفاعى مائتة .

ههنا وههناك نافذة مفتوحة ، وثياب كانت معلقة لتجف على سطح الخان التجارى ، وبعض الاحذية اللبادية عالقة بين حديد الدرابزون ، وثمة امرأة جالسة الى احدى النوافـــذ تشخص بابصارها الى المياه الرماديـــــة ؛ وفى قمة احدى الدعامات الحديدية للخان ربط قارب وجانباه الأحمران يلقيان انعكاسا واضحا على المياه .

أومأ معلمى الى علاقات الحياة هذه ، وأوضح قائلا :

– ههنا يعيش حارس ارض المعرض . كان يتسلق الى السطح من النافذة ، ويركب فى قاربه ، ويجذف هنا وهنالك بحثا عن اللصوص . فان لم يعثر على أحد منهم عمد هو نفسه الى السرقة . . .

كان يتحدث بنبرة كسولة ، وذهنه يعمـــل فى موضوع آخر . كل شيء غارق فى الصمت والفراغ ، وبعيد عن التصديق فكأنه حلم من الاحلام . واختلط نهر الفولغا ونهر الأوكـــا فشكلا بحيرة واحدة ضخمة . وعلى هضبة شعثاء فى البعد نهضت المدينـــــة مغطاة ببساتين سوداء غير مثمرة ، لكنها عامرة بالبراعم ، بحيث ان الاشجار تطوق المنازل والكنائس بعباءة مـــن الخضار . وفوق منبسط المياه تتردد اصداء نواقيس اسبوع الفصح ، وهمهمات المدينة ، أما هنا فكل شيء صامت فكأنه مقبرة مهجورة .

انحرف قاربنا بين صفين من الاشجار المظلمة فيما نحن نتخذ سبيلنا على طول الشارع الرئيسى المؤدى الى الكاتدرائية القديمة . وظلّ الدخان المنبعث من سيجار معلمى يدخل فى عينيـــــه والقارب يصطدم بجذوع الاشجار الى ان صاح فى سخط :

– لعنة الله على هذا القارب !

– كفّ عن توجيه الدفة .

فزمجر :

– كيف أستطيع ذلك ؟ حين يكون فى القارب شخصان يجب على أحدهما ان يجذف وعلى الآخر ان يوجـــه الدفة . اليك – انظر : دكاكين الصف الصينى .

كنت اعرف ارض المعرض معرفة جيدة منذ زمن بعيد ، كما كنت اعرف حق المعرفة تلك الدكاكين المضحكة بسقوفها الغريبة ، وحيث تقعى عن جوانبها تماثيل شخصيات صينية من الجص ، سبق لى ورفاقى ان ألقينا عليها حجارة ، فى حين عمدت انا نفسى الى تجريد بعض هؤلاء الصينيين من رؤوسهم وأيديهم ، ولكننى لم اعد افخر بهذا العمل . . .

قال معلمى ، وهو يدلّ على الابنية :

– أكواخ . لو انهم يتركوننى أبنيها الآونة . . .

وأطلق من فمه صفرة ، ودفع قبعته الى مؤخرة رأسه .

لسبب ما أحسست انه سيبنيها بالطريقـــة ذاتها ، وفى تلك المنطقة ذاتها ، المنخفضة ، والتى تنغمر فى كل ربيع بمياه نهرين اثنين . ولسوف يخطر له اقامة شىء بغيض مثل دكاكين الصف الصينى .

ألقى بالسيجار من فوق حافة المؤخرة ، وألحقه ببصقة من فمه تدل على امتعاضه ، وقال :

– يا لها من حياة مضجرة ، يا بشكوف ، يا للضجر ! ليس ثمة أناس مثقفين ، وليس هنالك من تحادثه . يطيب لك احيانا ان تتباهى قليلا ، فلا تلقى هنالك من تتباهـــى امامه ! ليس هنالك أحد ! ليس غير النجارين ، والبنائين ، واللصوص . . .

وألقى نظرة ناحية اليمين ، حين بدا مسجد أبيض اللون بهىّ المظهر فوق هضبة مغمورة ، واسترسل فى حديثه كمن يتذكر شيئا طواه النسيان :

– بدأت اشرب الجعة وادخن السيجار مثـــل الالمان . الالمان رجال اعمال ، يا أخي ! شرب الجعة – ذلك زمن لطيف مضى ، ولكنه يبدو انني لم آلف تدخين السيجار . وكلما شرعت تدخن تشرع زوجتك في ارسال الشكوى ، فتقول : «ما هذا الذي يجعل رائحتك مثل رائحـــة السرّاج ؟» آه ، بـــلى ، يا للأشياء التي نأتيها لنجعل الحياة باعثة على الاهتمام ! . . . اليك ، قم بتوجيه الدفة بنفسك . . .

اراح مجذافه على جانب القارب ، وامسك بندقيته واطلق النار على احد التماثيل على السقف . لم يصب الصيني باى أذى . تناثرت الطلقة على السقف والجدار مثيرة سحابة من الغبار .

اعترف فى لامبالاة ، وهو يعاود تذخير البندقية :

– أخطأت . كيف تسير امورك مع الفتيات ؟ هل تسير رخاء ؟ كلا ؟ بدأت قضايا غرامى وانا فى الثالثة عشرة . . .

وسرد عليّ ، كمن يستعيد ذكريات حلم من الاحلام ، قصة حبيبته الاولى ، وهى خادم تعمل لدى المهندس المعمار الذى تمرّن لديه .وكان يرافق حديثه رشاش الماء اللطيف وهو يصطدم بزوايا الابنية . وفيما وراء الكاتدرائية كان ثمة متسع مائى عريض يتلألأ بالقطع الخشبية السوداء من شجر الصفصاف التى تبرز هنا وهنالك فيه .

كان الرسامون فى معمـــل الايقونات ينشدون فى اغلب الاوقات اغنية طلابية :

البحر الازرق الازرق ،
البحر العاصف . . .

لكم كان ذلك البحر الازرق الارزق باعثا على الضجر من دون ريب !

قال معلمى :

– كان النوم يجافينى فى الليالى ، فأنهض عن سريرى وأقف عند بابها ارتعش مثل جرو صغير . فقد كان البيت باردا واى برد ! وكان معلمها يزورها ليلا فى اغلب الاوقات ، وقد يمسك بى هنالك بكل سهولة ، ولكننى لم اكن اخاف – ابدا على الاطلاق .

كان يتحدث فى نبرة تأملية كمن يتفحص بعض الثياب القديمة ليرى مدى صلاحية ارتدائها مرة اخرى .

– ولمحتنى ، فأخذتها الشفقة بى . ففتحت الباب ونادتنى : «تعال ، ايها الصبى الاحمق !» .

كنت قد سمعت كثيرا من امثال هذه القصص بحيث سئمت منها ، رغم ان فيها جميعا نقطة واحدة طيبة مشتركة : فالناس يتحدثون عن تجربتهم الاولى فى الحب دون تفاخر ، ودون فحش ، وفى شيء من الاسف العميق غالبا بحيث تأكد لى انها كانت اللحظة الاكثر روعة فى حياتهم . وكانت تلك اللحظة تبدو ، حقا ، وكأنها الشيء الوحيد الطيب الذى عرفوه .

أوضح معلمى مشدوها ، وهو يضحك ويهز رأسه :

– لكننى لم أجرؤ على اخبار زوجتى بهذه القصة ! أوه ، أبدا ! ليس بسبب من وجود شيء من الخطأ فيها ، ولكننى لم أجرؤ على اخبارها . حسنا . . .

لم يكن يروى القصة لى ، بل لنفسه . لو انه لزم الصمت لما فعلت انا مثله . فى ذلك الصمت والفراغ لا بد لك من الحديث ، او الغناء ، او العزف على الأكورديون ، والا أغفيت الى الابد فى تلك المدينة المائتة ، المغمورة بالمياه الرمادية الباردة .

حذرنى قائلا :

— قبـــل كل شىء . . . حذار من ان تتزوج صغيرا ! فالزواج ، يا أخى على جانب كبير كبير من الاهمية ! فحيثمـــا وكيفما كنت تعيش — سواء كنت مسلما من سكان فارس او شرطيا فى موسكو ، تعمل نساجا او سارقا ، ففى مقدورك على الدوام ان تبدّل الامور ان لم تلائم مزاجك . ولكنك لا تستطيع تبديل زوجتك ! فزوجتك أشبه بالطقس ، يا أخى — لا يمكن تبديلها ! الزوجة ليست جزمة ، تخلعها وتلقى بها جانبا حينما يطيب لك !

وغشيت وجهه سحابة . جلس يحملق فى المياه الرمادية عابس الحاجبين ، يحك أنفه المحدّب باصبعه ، وهو يتمتم :

— أجل ، يا أخى . . . يجب ان تكون حاد البصر ! لربما تكون ممن ينحنون مع الريح ورغم ذلك تبقى صلب الجذور . ومع هذا فلكل امرىء كبوة يكبوها . . .

انطلقنا حتى شجيرات بحيرة ميشيرسكويه وقد اختلطت مياهها الآونة بمياه الفولغا .

همس معلمى ، وهو يصوب بندقيته الى الادغال :

—جذف على مهلة .

اطلق عدة طلقات على دجاجات الارض الهزيلة ، وقال :
– لننطلقنّ الى كونافينو ! سأبقى هنالك حتى المساء ، وقل لهم انت فى البيت ان لديّ اعمالا مع متعهد .

تركته فى احد شوارع القرية التى غمرتها المياه بدورها ، ورجعت أدراجى عبر ارض المعرض الى ستريلكا . هنالك ربطت القارب وقعدت أحدق فى ملتقى النهرين ، فى المدينة ، والمراكب البخارية ، والسماء . السماء الآونة مزركشة بسحب بيضاء أشبه بجناحى طائر كبير . ومن خلال صدوعها تبرز الشمس الذهبية ، هذه الشمس التى يكفى شعاع واحد من شعاعاتها كى يغير العالم بأسره . كان كل ما يحيط بى يفور فى حركة رشيقة ، وثمة سلسلة لا نهاية لها من الارماث * منطلقة بسرعة مع انطلاقة التيار ، وقد انتصب على هذه الارماث رجال اقوياء ملتحون يستخدمون مجاذيف طويلة ويصيحون ببعضهم بعضا ، وبركاب مركب بخارى عابر . كان المركب البخارى الصغير يجر قاربا كبيرا فارغا ضد التيار ، وفيما النهر يتقاذفه فهو يدفع بقيدومه من جانب الى جانب وكأنه سمك كراكى ، يلهث وينفخ وهو يدفع عجلاته فى عناد فى قلب المياه التى تهاجمه دون شفقة . كان اربعة من الرجال جالسين فى القارب الكبير كتفا الى كتف ، وقد دلوا سيقانهم من فوق حافته ، أحدهم يرتدى قميصا أحمر اللون ، وهم يغنون

---

* خشب يضم بعضه الى بعض ويركب فى المياه . **المترجم** .

جميعا كلمات لاغنيـــة لم تصـل الى سمعـي ، ولكننى كنـت أعرفها .

خيل الي ّ ان هنالـــك ، على النهر ، ليس ثمة شيء لا أعرفه ، فكل شيء مألوف لديّ ، وكل شيء يمكن ادراكـه وفهمه . ولكن المدينة المغمورة بالمياه ورائى هى حلـم مشؤوم ، ابتداع من ابتداعات معلمى ، عصية على الادراك والفهم مثله تماما .

حينما ثملت من مشهد النهر أبت الى البيت وكنت احسّ اننى رجل كبير جدير بان افعل اية مهمة تلقـى على عاتقى . توقفت خلال الطريق على هضبة تقع عليها قلعة السراى ألقى آخر نظرة على الفولغا . من هذا المرتفع تبدو الارض ممتدة الى لا حدود ، غاصة ببشير النجاح .

عندى بعض الكتب فى البيت . ان الشقة التى كانت تقيم فيها الملكة مارغو تقطنها الآن أسرة كبيرة العدد مؤلفة مـن خمس فتيات كل منهن أجمل من الاخرى ، وأخوين تلميذين فى المدرسة الثانوية . كان هؤلاء الاشخاص يعطوننى كتبا . فالتهمت تورجنيف وافتتنت به ، فكتابته قريبة من الافهام ، بسيطة شفافة مثل هواء الخريف . وابطاله نبلاء شرفاء ، وكل ما يصفه بكثير من العطف عظيم وجميل .

قرأت «حياة المدرسة الدينية» ، من تأليف بوميالوفسكى وشدهت مرة اخرى حين اكتشفت شدة شبه ما يصفه فيها بحياتنا فى المعمل . فخيبة الأمل التى يولدها السأم حين يتحول الى ثورة جامحة خبرتها بنفسى جيدا وعشت فيها .

كنت احب قراءة الكتب الروسية ، أتلمّس فيها دائمـا

روحا حزينة مألوفـــة كأن اجراس الصوم الكبير توارت بين صفحاتها ، فلا اكاد افتح كتابا حتى تشرع تدق دقاتها فى بطء وهدوء .

وقرأت «الارواح الميتة» بلا مبالاة . كان مثله مثل كتاب «مذكرات من بيت الموتى» . ان «الارواح الميتـــة» و«بيت الموتى» و«الموت» و«ثلاثة أموات» و«المومياء الحية» — جميع هذه الكتب المتشابهة فى عناوينها استوقفت انظارى رغمـــا عنى ، وبعثت فى نفسى النفور منها جميعا . كما اننى كرهت «اشارة الازمة» و«خطوة خطوة» و«ما العمل» و«حوادث قرية سموورين» وكتبا اخرى من هذا النوع .

اما ديكنز وولتر سكوت فقد سيطرا على مشاعرى . قرأت كتب هذين المؤلفين فى سرور عظيم مرتين او ثلاثـــة مرات . وذكرتنى كتب ولتر سكوت بصلاة احتفالية اقيمت فى كنيسة فخمة — طويلة قليلا ومتعبة بعض الشىء ، ولكنها احتفاليـــة دائما . وبقى ديكنز حتى اليوم فى نظرى الكاتب الذى انحنى امامه اجلالا — كاتب بلغ اسمى درجات الكمال فى فن مـــن اصعب الفنون — فن خلق المحبة بين الناس .

كانت عصبة منا تجتمع فى الامسيات عند الوصيد : الاخوة والاخوات فى شقة الملكة مارغو ، وطالب افطس الانف يدعى فياتشسلاف سيماشكو ، وبعض الآخرين . وقد تنضـــم الى الجماعة احيانا ابنة موظف كبير تدعى الآنسة بتيزينا . ونتطرق فى احاديثنا الى الكتب والشعر ، موضوعات محببة الىّ سهلة على افهامى — فانا اكثرهم جميعا مطالعة وقراءة . بيد انهم كانوا بصورة عامة يسردون علىّ حوادث المدرسة ، ويتذمرون من

اساتذتهم . فاشعر وانا اصغى اليهم انى اكثر حرية ، ويأخذنى العجب من صبرهم . ولكننى احسدهم : فهم منصرفون الى الدراسة .

كان رفقائى هؤلاء اكبر منى سنا ، ولكنه خيل الى انى اكثرهم جميعا نضجا وخبرة . وكان هذا يربكنى قليلا ، فقد وددت ان اشعر اننى اقرب الى قلوبهم . كنت اعود مساء الى البيت فى ساعة متأخرة ، معفرا بالغبار والوحل ، مستغرقا فى مشاعرى المختلفة عن مشاعرهم التى كانت فى جوهرها متماثلة تماما . فهم كثيرا ما يتحدثون عن البنات ، ويتعلقون بحب هذه تارة وحب تلك تارة ، ويحاولون نظم القصائد . فيلجأون الى فى اغلب الاوقات . وتمرنت انا على نظم الشعر بكل سرور ، وكنت اعثر على القافية دون عناء ، ولكننى لا اعرف السبب الذى يجعل قصائدى على الدوام مطبوعة بطابع العبث . كنت اشبه الآنسة بتيزينا – وكانت القصائد مهداة اليهـــا على العموم – بالخضار او ببصلة بصورة خاصة .

قال لى سيماشكو :

– اتسمى هذا شعرا ؟ انه مسامير احذية . . .

ولما كنت تواقا الا ادع احدا يتفوق على فى شىء ، فقد تعلقت انا ايضا بحب فتاة بتيزينا . ولا اذكر كيف بثثتها هذه العاطفة ، الا ان خاتمة هذه القصة الغرامية كانت محزنة . اقترحت على الفتاة ذات يوم ان اقوم معها بنزهة على لوحة خشبية تعوم على سطح المياه الآسنة لمستنقـــع زفيزدين . ادنيت اللوحة من الشاطئ وامتطيتها . كانت قوية متينة بحيث احتملت وزنى . ولكن ما ان اتخذت الفتاة مكانها برشاقـــة

ولطف على الطرف الآخر ، مزهوة بما تتحلى به من شرائط وتخاريم ، حتى مالت اللوحة اللعينة تحت قدمها . ووجدت الصبية نفسها فى البحيرة . لحقت بها فى جرأة واقدام وسحبتها الى الشاطئ على الفور .

غير ان الذعر والطين افسدا جمال الفتاة الاخاذ .

صاحت بى ، وهى تتوعدنى بقبضتها المبللة :

– تعمدت اغراقى !

ابت ان تقبل اعتذارى ، وغدت لى خصما لدودا .

لم تكن الحياة فى المدينة باعثة على الاهتمام . فالمعلمة العجوز لا تزال تنظر الى بعين السخط ، والصبية تسيئ فى الظن ، وفكتور الذى تزايد احمراره بما يغشاه من النمش يتأفف من الجميع كمن اثيرت اعصابه .

اما معلمى فمشاريعه اكثر من ان يتمكن من انجازها حتى بمؤازرة اخيه . وهذا ما حدا به الى طلب مساعدة عمى ، زوج امى .

رجعت يوما من السوق فى وقت مبكر . وما ان ولجت غرفة الطعام حتى ابصرت هذا الرجل ، وقد نسيته تماما ، جالسا امام منضدة الشاى الى جانب معلمى . مدّ لى يده مسلما ، وقال :

– كيف حالك ؟

صعقتنى المفاجأة ، فأرتج علىّ . وبغتة استعرت نيران الماضى فى جوانب نفسى مثلمـــا يشب لهب الحريق ولذعت قلبى .

هتف معلمى :

– لقد ارعبته !

حدقّ زوج امي في وعلى وجهه المهزول ابتسامة . لقد اتسعت في وجهه العظمي الهزيل عيناه القاتمتان وبدا لي كالمصعوق الذابل . دفعت يدي بين اصابعه الناحلة المحمومة .

قال ، وهو يسعل :

– حسنا . هذان نحن نلتقي من جديد .

غادرت الحجرة خائر القوى وكأنني اعاني الآلام في ضرب مبرّح .

غدت الصلات التي ربطتنا مشوّشة حذرة . كان يناديني باسمي الاول واسم ابي ، ويكلمني كما لو كان يكلم ندا له :

– اذا ذهبتم الى البقالية فأرجو ان تبتاعوا لي ربع اوقية من تبغ «لافيرم» ، ومائة من ورق «فيكتورسون» للسجاير ، واوقية من السجق . . .

كانت النقود التي يعطينها دائمة الدفء من يديه المحمومتين بصورة تبعث على الاشمئزاز . وكان واضحا انه مصاب بالسل ولن يعيش طويلا . وهو يعرف هذا ويقول بلهجة هادئة عميقة ، وهو يملس عثنونه الصغير الاسود الرفيع :

– مرضى لا شفاء منه . على الرغم من ان من يأكل لحما كثيرا قد يشفى منه . ومن يدرى – لعلى اجد الشفاء .

كان يبتلع كميات لا تحصى من الاغذية . يأكل ويدخن ولا يرفع اللفافة من فمه الا ليحشوه طعاما . وكنت ابتاع

له كل يوم سجقا ، وفخذا مقددا ، وسردينـــا . ولكن اخت جدتى تقول فى خبث اجهل سببه :

– لا يمكن مكافحة الموت بالتوابل والمقبلات . الموت لا يمكن خداعه ! كلا ، لا يمكن خداعه !

كانت المرأتان تصرفان على زوج امـــى اهتمامـــا يثير الضيق ، فهما تنصحان له دائما ان يتناول هذا الدواء او ذلك ، غير انهما لا تتورعان عن الهزء به منذ ان يغيب عنهما .

وتقول الصبية ساخرة :

– رجل نبيل ، لا اقل ! فهو يقول : «يجب ان نقوم دائما بجمـــع فتات الخبز التى تتناثر على المائدة» . وهو يقول : «الفتات تجذب الذباب !» .

وتضيف العجوز قائلة :

– آه صحيح . انه سيد نبيل ! انظروا كيف سترته مهلهلة تلمع من كثرة الاستعمال ، ومع ذلك فهو لا يفتر عن تنظيفها بالفرشاة . يا للمخلوق الموسوس ! يخاف شيئا من الغبار !

ويقول معلمى ، وكأنه يرمى الى التخفيف من ثورتهما :

– صبرا ، ايتها الدجاجتان الصاخبتان . لسوف يموت عما قريب !

هذا الموقف السمج البغيض الذى يبديه هؤلاء الناس الجاهلون ازاء الرجال المثقفين اهاب بى ان اتقرب من زوج امى . قد يكون نبات فطر الغاريقون ساما ، ولكنه جميل على اية حال !

فى هذا الجو الخانق لامثال هؤلاء الناس احس زوج امى

انه اشبه بسمكة فى قن للدجاج – تشبيه سخيف لا يقل عن سخافة الحياة التى نحياها .

اخذت اكتشف فيه سمات شبيهة بسمات «هذا رائع» ، الرجل الذى لن انساه ما حييت . وانا ازين ذكرياتى عن «هذا الرائع» وعن الملكة مارغو بكل الجمال الذى زودتنى به الكتب . واكرس لهما انقى ما فى نفسى من مزايا – سائر ما ولدته فى المطالعة من خيال وصفاء . فزوج امى يشبه «هذا رائع» لانه رجل غريب لا ينعم بحب هؤلاء ، يعامل كل من فى البيت معاملة سواء ، اذا تكلم فلا يكون البادئ فى ذلك ، واذا سئل اجاب فى ادب جم وصراحة فائقة . كنت شديد الولع بالاصغاء اليه وهو يعظ معلمى ، اذ ينحنى على المنضدة ويطرق بظفره الطويل على الورق السميك ، وهو يشرع فى هدوء :

– لا مناص عند هذه النقطة من ربط العوارض بقنطرة ، كيما يتوزع الضغط . فان لم نفعل هكذا فقد تنهار العوارض على الجدار .

فيتمتم المعلم :

– هذا صحيح . عليه اللعنة !

وتبادر زوجته قائلة ، حين يغادر زوج امى الحجرة :

– كيف تتركه يلقى عليك مثل هذه الدروس ؟

لسبب ما كانت الصبية تهتاج بصورة خاصة من رؤية زوج امى ينظف اسنانه بالفرشاة بعد العشاء ، ويغسل فمه متغرغرا بالماء بصورة تجعل تفاحة آدم فى حلقه تبرز بشكل ظاهر .

خاطبته مرة قائلة فى صوت جاف :

– فى رأيى ان من الخطر بالنسبة اليك ان تنحنى الى الخلف على هذا الغرار !

فابتسم لها ، واستفسر فى تأدب :

– فيم يخطر لك هذا الامر فى بال ؟

– حسنا ، هكذا .

وتناول عظمة صغيرة وشرع ينظف بها اظافره الضاربة الى الزرقة .

اهتاجت المعلمة بعد ذهابه :

– فكروا فحسب ! وهو ينظف اظافره ايضا ! احدى قدميه فى القبر ، وهو . . .

وتنهد معلمى :

– آهhh ! ما احمقكما ، ايتها الدجاجتان الصاخبتان !

اعترضت زوجته :

– فيم تقول هذا الكلام ، وحق الله ؟

وفى الليل تروح العجوز تشكو امرها بمرارة لله :

– لقد دسوا علىّ هذا المخلوق المتقيح غصبا عنى ، وفكتور الآن بدون عناية من جديد .

شرع فكتور يقلد اساليب زوج امى – مشيته المتأنية ، وحركات يديه الارستقراطيتين ، وموهبته فى عقد ربطة عنقه ، وقابليته لالتهام الطعام دون ان يصدر عن شفتيه ادنى صوت . وكان يسأله على الدوام فى خشونة :

– مكسيموف ، كيف تقول «ركبة» باللغة الفرنسية ؟

فيصحح له زوج امى فى هدوء :

– اسمى هو يفجينى فاسيليفيتش .

– اوه ، حسنا . و«ثديان» ؟

على مائدة العشاء يصدر فكتور اوامره الى امه باللغة الفرنسية :

– اماه ، اعطينى ايضا من اللحم المملح .

فتوضح العجوز ، وقد اهاجها الاغتباط :

– اوه ايها الفرنسى ، انت !

ويسترسل زوج امى فى مضغ اللحم على مهله ، فكأنه اصم اخرس ، دون ان يلقى نظرة على اى من الحاضرين .

ذات يوم خاطب الاخ الاكبر اخاه الاصغر قائلا:

– الآونة وقد تعلمت كيف تتكلم اللغة الفرنسية يحسن ان تجد لنفسك عشيقة .

فى تلك البرهة وحدها اذكر انى لمحت زوج امى يرسم على شفتيه ابتسامة رضية .

القت زوج معلمى الملعقة فى سخط وزعقت فى وجـــه زوجها :

– كيف تجرؤ على ان تقول مثل هذا الكلام المخجل فى حضورى ؟

فى بعض الاحيان كان زوج امى يأتـــى للاجتماع بى فى الرواق الخلفى حيث كنت انام تحت سلّم الطابق العلوى . هنا ، عند نافذة طريق السلّم ، كنت اقرأ كتبى .

سألنى مرة ، وهو يستنشق كمية كبيرة من الدخان بحيث از شىء فى صدره مثل خشبة تحترق :

– اتقرأ ؟ ما هو الكتاب ؟

القى نظرة خاطفة على العنوان قائلا :

– آه ، اظن اننى قرأته . اتريد ان تدخن ؟

دخنا معا ونحن نسرح الطرف فى النافذة فى الباحة القذرة . قال :

– من المؤسف انك لا تستطيع الدراسة . يلوح ان لديك قابلية . . .

– ولكننى اتعلم . واقرأ كثيرا . . .

– هذا وحده لا يكفى . لا بد من المدرسة . لا بد من نظام . . .

اردت ان اخاطبه قائلا :

«وانت حظيت بمدرسة وبنظام ، يا سيدى الرائع ، فماذا عاد عليك ذلك من نفع ؟»

اردف قائلا ، وكأنه ادرك ما يجول فى خاطرى :

– اذا كان المرء موهوبا فالمدرسة تساعد كثيرا فى تنمية شخصيته . وحدهم المتعلمون المتعمقون فى العلم يستطيعون التقدم فى سلّم الحياة . . .

اشار علىّ اكثر من مرة :

– يحسن بك ان تبارح هذا المكان ، فانا لا ارى ادنى معنى او ادنى فائدة لك فى البقاء هنا . . .

– لكننى معجب بالعمال .

– ماذا يعجبك فيهم ؟

– انهم يبعثون على الفضول .

– ربما . . .

وفى يوم آخر قال :

– فى حقيقة الامر يا لمعلمينا من حيوانات – يا لهم من حيوانات !

تذكرت المكان والاسلوب اللذين كانت امى تنطق فيهما بهذه العبارة . وابتعدت عنه بصورة عفوية .

سألنى باسما :

– الا توافقنى الرأى ؟

– بلى ، اوافقك .

– من دون ريب . . . هذا ما اراه .

– بيد اننى معجب بالمعلم رغم ذلك .

– هو ، ربما كان رجلا طيب النفس . ولكنه سخيف .

حاولت ان اتطرق معه الى التحدث عن الكتب ، وبدا لى انه لا يحبها . كان يقول لى غالبا :

– لا تصرف عليها اوقاتا طويلة . كل شىء فى الكتب مبالغ فيه – فهو محرف الى هذه الجهة او تلك . ان اكثر المؤلفين لا يختلفون كثيرا عن معلمنا هنا . اناس ضيقو التفكير . . .

كنت اجد تلك الآراء شجاعة حقا ، فيزداد شعورى بالاعجاب به .

سألنى يوما :

– هل قرأت غونتشاروف ؟

اجبت :

– رواية «الفرقاطة بلادا» .

– «الفرقاطة بلادا» تبعث على الضجر . غونتشاروف هو الكاتب الاكثر ذكاء فى روسيا . انصح لك ان تقرأ روايته

«اوبلوموف» – فهى اروع كتبه جرأة وحقيقة . وعلى العموم فهى العمل الافضل فى الادب الروسى . . .
وقال عن ديكنز :
– هراء . . . اسمع كلامى بهذا الخصوص . لكن ثمة شيئا باعثا على الاثارة ينشر الآن فى ملحق صحيفة «الازمنة الحديثة» : «اغواء القديس انطوان» . يجب ان تقرأه . يبدو انك مولع بالكنيسة والاشياء الاكليريكية . سوف تفيد من قراءة «الاغواء» .
حمل الىّ بنفسه كدسة من الملاحق ، فقرأت ذلك العمل الحصيف لغوستاف فلوبير . ذكرنى بسيرة حياة القديسين التى لا تحصى وقد قرأتها ، وبعض الاقاصيص التى رواها لى المتدينون المتعصبون . لكنها لم تترك فى نفسى اثرا على الاطلاق . ابتهجت اكثر من قراءة «مذكرات اوبيليو فايمالى مدرب الحيوانات» المطبوعة فى الملاحق .
حين اعترفت بذلك لزوج امى اعلن فى هدوء :
– هذا يعنى انك لا تبرح اصغر من ان تقرأ مثل هذه الاشياء . لكن ، حذار ان تنسى ذلك الكتاب .
فى بعض الاحايين كان يمكث الى جانبى طويلا ، دون ان ينبس بحرف ، مكتفيا بالسعال وارسال سحب الدخان . كانت عيناه الجميلتان تستعران وينبعث منهما لهيب مزعج . وفيما انا جالس ارنو اليه فى هدوء كنت انسى ان هذا الرجل الذى يدنو من الموت بمثل هذه البساطة ، دون تذمر او شكوى ، كان عزيزا جدا على قلب امى واساء اليها بصورة فاضحة . عرفت انه كان يعايش امرأة خياطة فانتقل بى الخاطر الى هذه

المرأة ، واعتورتنى الشفقة عليها والتعجب منها . كيف لم تأنف من ضم هذا الجسد الهزيل الاعجف وتقبيل هذا الفم الذى تنبعث منه الانفاس العفنة الكريهة ؟

كان زوج امى مثل «هذا رائع» يلقى عبارات ارتجالية مفاجئة لا ارتباط بينها :

– احب كلاب الصيد . هى غبية ، ولكننى احبها حبا جما . فهى بارعة الجمال . اما النساء الجميلات فهن فى اغلب الاحايين سخيفات .

كنت افكر ، ليس من دون زهو :

«كان ينبغى ان تعرف الملكة مارغو !»

قال مرة :

– جميع من يطيلون المكوث فى مكان واحد يكتسبون مع الزمن وجها واحدا متشابها .

فدونت هذه الملحوظة فى دفترى .

كنت ارقب هذه الاحكام كمن يرقب سعادة بالغة – كانت سعادة ان تسمع هذه العبارات المرصوفة البديعة فى بيت لا تتردد فيه الا احاديث فارغة لا لون لها تحجرت فى قوالب رتيبة مملة .

لم يتحدث زوج امى ابدا عنها ، واحسب انه لم يذكر اسمها ابدا . وهذا ما جعلنى له ممتنا شاكرا ، اكن له شعورا يقارب الاحترام .

سألته مرة عن رأيه فى الله – ولا تحضرنى الآن تلك المناسبة ، رنا الىّ بنظرة خاطفة واجاب فى هدوء تام :

– لست ادرى . لا اؤمن بالله .

تذكرت سيتانوف ، وجعلت احدث زوج امى عنـــــه ، فاجابنى باللهجة الهادئة ذاتها بعدما اصاخ فى اهتمام :

– انه يناقش الامور . ومن يناقش الامور لا بدّ انه مؤمن بشيء من الاشياء . اما انا فلا اؤمن ابدا .

– ولكن هذا مستحيل !

– ولم لا ؟ كما ترى تماما – انا لا اؤمن فى شيء . . .

لم اكن ارى فيه غير شيء واحد – انه يعانى سكرات الموت . لا يمكن القول انى رثيت له ، بيد انها المرة الاولى التى احسست باهتمام طبيعى بالغ بهذا المشرف على الموت العاجل ، باحجية الموت ذاته .

هذا مخلوق حى جالس الى جانبى ، ركبته تلامس ركبتى ، يتنفس ويفكر ، ذكى ، ينظر الى الناس بحسب علاقاته بهم ، ويتحدث عن كل شيء كمن يتمتع بقوة محاكمة الامور وتقرير مصيرها . انى اجد فيه عضدا ضروريا لى ، اجد فيه عنصر صلاح ورعاية . انه مخلوق حى يحتدم فيه صراع لا يتصوره عقل . انه مثال عاصفة فكرية لا ينضب معينها . ومهما كانت احاسيسى تجاهه فهو يمثل جزءا من نفسى ، يعيش فى وافكر فيه ، وتمتزج نفسه بنفسى . وغدا يتوارى عن الانظار – يتوارى باجمعه ، بكل ما يتردد فى رأسه وقلبه ، بكل ما يبدو انى استطيع قراءته فى ناظريه الجميلين . حين يتوارى عن الابصار ستنفصم عرى احدى الروابط الحية التى تصلنى بالعالم ، ولن يبقى منه سوى الذكرى . لكن ذكراه ستبقى حية فى ، لا يقوى شيء على تبديلها او ازالتها ، اما الجسد الفانى المتحول فلسوف يتلاشى .

تلك كانت مجرد آراء وافكار . . . يكمن خلفها سبب الاسباب ، السبب الاول الذى يولد الافكار ويجعل المرء يتأمل فى ظواهر الحياة ويتساءل : لماذا ؟

قال زوج امى ذات يوم ماطر :

– احسبنى مكرها على ان الزم الفراش بعد وقت قصير . ما ارذل الضعف ! لا اشتهى ان افعل شيئا !

بعد تناول الشاى مساء الغداة التقط بعناية فائقة ما تبقى من فتات الخبز على المائدة . وعلى ركبتيه فى رهافة بالغة من الحساسية ، وبدا كأنه يبعد عنه شيئا خفيا . فرمته المعلمة العجوز بنظرة شزراء من تحت حاجبيها ، وهمست فى اذن كنتها :

– انظرى – انه يهندم نفسه ويزينها ، ويتأهب !

بعد يومين لم يأت الى العمل ، فسلمتنى المعلمة الكبيرة مغلفا كبيرا ابيض اللون ، وهى تقول :

– اليك هذا . جاءت به فتاة حوالى ظهر البارحة ، ولكننى نسيت ان اعطيك اياه . كانت فتاة صغيرة لطيفة – ولا اعرف حقا ما يربطك بها . . .

داخل الغلاف ، على ورقة تحمل اسم المستشفى ، وجدت الرسالة التالية مكتوبة باحرف كبيرة :

«ان سنحت لك فرصة تعال قابلنى . انا مقيم فى مستشفى مارتينوفسكايا . ى . م .» .

فى صباح الغداة كنت جالسا عند قدمى سرير زوج امى فى عنبر المستشفى . كان اطول قامـــة من الفراش ، برزت قدماه من بين قضبان السرير بجوربيهما الرماديين المفتولين .

شردت عيناه الجميلتان على الجدران الصفراء ، واستقرتا على وجهى وعلى اليدين الصغيرتين لتلك الصبية القابعة على كرسى صغير عند رأس السرير . وكلما وضعت يديها على الوسادة يحك زوج امى خده على اصابعها وينفغر فمه . كانت الفتاة ممتلئة الجسم ، ترتدى ثوبا اسود على غاية من البساطة ، والدموع تنهمر بطيئة على وجهها البيضوى ، وعيناها الزرقاوان المخضلتان لا تفارقان وجه زوج امى بخديه الهزيلين ، وانفه الذاوى ، وفمه الذى غاض لونه .

قالت هامسة :

– لو انه يرضى باستدعاء كاهن ولكنه يرفض – انه لا يفهم . . .

رفعت يديها من فوق الوسادة وضمتهما على صدرها كأنها تصلى .

مرت برهة ثاب خلالهـــا زوج امى الى رشده . حدق فى السقف عابسا ، كأنه يتذكر امرا كان منسيا ، ثم بسط الى يده المعروقة قائلا :

– انت ؟ شكرا لك . انت ترى . . . انا احس . . . اننى سخيف للغاية .

اضناه الجهد فاغمض عينيه ، واخذت اداعب اصابعـــه الطويلة الباردة ، ذات الاظافر الزرقاء . والتمست الفتاة فى صوت خفيض :

– يفجينى فاسيليفيتش ، هلا ابديت موافقتك ؟

تمتم ، وهو يشير الى الفتاة بعينيه :

– اريدك ان تتعرف عليها انها فتاة لطيفة . . .

ولزم الصمت . وانفرجت شفتاه عن آخرهمـــا ، وصاح بغتة صيحة نكراء مثل نعيق الغراب ، واضطرب على فراشه وقد انتزع عنه الغطاء وتشبث بالفراش . وصاحت الفتـــاة بدورها ايضا ، ودفنت وجهها فى الوسادة المتجعدة .

لفظ زوج امى انفاسه الأخيرة سريعا ، وما لبثت ملامحه ان ازدادت جمالا ورونقا .

بارحت المستشفـــى والفتاة تتوكأ علىّ . ذرفت الدموع وترنحت فى مشيتها فكأنها مريضة ، وقد امسكت فى يدهـــا منديلا شدته على شكل كرة ، وجعلت تضغطـــه على احدى عينيها ثم على الاخرى . ظلت تجمعه على بعضه اكثر فاكثر وتحملق فيه كأنه اثمن وآخر وديعة تحتفظ بها .

توقفت عن سيرها فجأة والتصقت بى ،و قالت فى نبرة حزينة يائسة :

– لم يعش حتى الى فصل الشتاء . . . آه ، يا الهـــى العزيز ،يا الهى العزيز !

وبسطت لى يدا بللتها العبرات قائلة :

– وداعا ! ما اكثر ما كان يمتدحك ! الدفن . . . غدا .

– اتسمحين لى بمرافقتك الى البيت ؟

القت على ما حولها نظرة خاطفة ، وقالت :

– لماذا ؟ النهار لم يغب ضوؤه بعد .

وقفت فى الزاوية اراقبها تهبط الشارع . كانت تسير على مهلتها كمن فقد كل غاية .

كنا فى شهر آب ، وقد اخذت اوراق الاشجار تتساقط .

لم يتح لى المجال لحضور دفن زوج امى ، ولم يقع بصرى على الفتاة بعد ذلك . . .

١٧

كل صباح ، فى الساعة السادسة ، كنت انصرف الى عملى فى المعرض . هنالك كنت التقى اشخاصا ممتعين : النجـــار اوسيب ، الرمادى الشعر ، الحاد اللسان ، وهو عامل ماهر مفتن فى عمله يشبه القديس نيقولاى ؛ وهنالـــك صانـــع السقوف ييفوموشكا الاحدب ، والبناء بيوتر الورع ، رجـــل حالم يشبـــه هو الآخر احد القديسين ؛ والطيان غريغورى شيشلين ، الفتى الجميل الطلعة الازرق العينين ، الاشقر اللحية الطافح بشرا .

تعرفت الى هؤلاء الناس خلال دورة عملى الثانية لدى أسرة الرسام . فهم يقبلون كل يوم احد على المطهـــى ، بوقار ورزانة ، وعلى شفاههم عبارات لطيفة جديدة الوقع على اذنى . فى تلك الايام بدا لى ان الرجال الرزينين على جانب عظيم من الطيبة والصلاح ، وكل منهم ممتع فريد فى نوعه ، يختلفون جميعا الاختلاف كلـــه عن الرجال المرائين الدنيئين المدمنين على الخمرة فى سكان كونافينو .

استأثر الطيان شيشلين باعجابى دون رفاقه ، وهذا ما اهاب بى ان اطلب اليه الموافقة على قبولى متمرنا لديه ، ولكنه ابى علىّ ذلك فى لطف ، قائلا وهو يحك حاجبه الذهبى باصبعه المبيضة :

– لا تبرح صغيرا بعد . مهنتنا شاقة مضنية – انتظر ايضا عاما او عامين .

ثم رمى رأسه الجميل الى الوراء ، واضاف :

– ألست سعيدا فى حياتك ؟ لا بأس . حاول ان تتذرع بالصبر . اضغط على نفسك ، وسوف تتدبر امرك .

لا ادرى اذا كنت جنيت من هذه النصيحة اللطيفة شيئا من الخير ، الا اننى اذكرها بامتنان واكبار .

جميع اولئك الناس يفدون على معلمـــى صباح كل يوم احد ، فيمكثون على المقاعد الخشبية حول المنضدة فى المطبخ ، وفى فترة انتظارهم هذه يتبادلون الاحاديث الممتعة الشيقة . ويستقبلهم المعلم استقبالا حافلا ويصافح ايديهم القويـــة ، ويأخذ مكانه فى زاويـــة الايقونات . فتظهر اذاك رزم النقود الورقية والمعداد ، ويبسط الرجال على المنضدة فواتيرهـــم ودفاترهم المهترئة : وينجزون حساب الاسبوع كله .

كان المعلم يحاول ، وهو مسترسل فى نكاته ومزاحه ، ان يغشهم ؛ ويجهدون هم ايضا ان يخدعوه . ويحتدم فى بعض الاحايين نقاش حاد بينهم ، ولكنهم يضحكون عادة ، ويمزحون مزاحا وديا ويقولون لمعلمى :

– ايه ، ايها الصديق ، لقد خُلقت شيطانا خبيثا .

فيجيبهم فى ضحكة قصيرة مرتبكة :

– حسنا ، وانتم لستم سيئين فى سرقة احد غيركم ، ايها الفراخ الصاخبة !

فيقول ييفوموشكا معترفا :

– هذا شيء طبيعي .
ويضيف بيوتر في اتزان :
– يعيش المرء مما يسرق . وما يكسب بعرق جبينه يذهب كله في سبيل الله والقيصر . . .
فيضحك معلمي :
– ولذلك لا يعوقني شيء عن ان احلق لنفسي اشياء قليلة .
فيوافقون على قوله ضاحكين :
– وبكلمات اخرى ان تسلخ جلودنا .
– تغشنا ؟
اما غريغوري شيشلين فيطبق بيديه الاثنتين على لحيته الكثيفة التي تغطي صدره ، ويقترح في صوت غنائي :
– ماذا لو قمنا بعملنا دون خداع ، ايها الرفاق ! الا ترون كم يكون ذلك رائعا وسهلا ، ايه ؟ ماذا تقولون ، ايها الناس الطيبون ؟
وتندى عيناه الزرقاوان وتظلمان . ويزداد جمال وجهه في هاتيك اللحظة . ويبدو الارتباك على الجميع من هذا الاقتراح ، فيدير عنه كل منهم رأسه مستاء .
ويغمغم اوسيب الوسيم ، وهو يطلق تنهيدة فكأنه يشفق على جماعته :
– لا يستطيعن العمال ان يغشوا المرء كثيرا .
وينحني البناء الاسود المدور الكتفين على المنضدة ، ويقول في خشونة :
– الخطيئة مثل المستنقع – وكلما ذهبتم في ذلك مسافة اطول غرقتم اعمق فاعمق .

ويجيب معلمي في نبرة تماثل نبرتهم :
– اضم اصدائي الى هتافاتكم !
ويسترسلون في تفلسفهم على هذا الغرار فترة من زمن ، ثم يعودون من جديد الى محاولة سرقة بعضهم بعضا . فاذا انتهت الحسابات ينهضون ، وقد ارهقهم التعب ، وتسايل عرقهم ، وينصرفون الى الحانة لاحتساء الشاى ، ويعزمون معلمي الى مجالستهم .

كانت واجباتي في المعرض ان اسهر كيلا يقدم هؤلاء المتعهدون على سرقة شيء من المسامير ، او القرميد ، او الالواح الخشبية . فان كل واحد منهم يتعهد ، فضلا عن عملهم لدى معلمي ، اعمالا مختلفة في اماكن اخرى ، ويبذلون قصارى جهدهم ان ينشلوا بمهارة ما يمكن ان يفيدهم في تلك الاعمال .

كانوا يستقبلونني في وداد ، ويقول شيشلين :
– اتذكر حين طلبت الىّ ان أقبلك متمرنا ؟ فانظر الآن الدرجة التي رقيت اليها – تصلح ان تصير مناظرا علىّ ، أليس كذلك ؟

ويمزح اوسيب قائلا :
– طيب . هذا حسن . تجسس علينا . وليكلأك الله برعايته .

ويغمغم بيوتر في شيء من الاستياء :
– فيم يبعثون الينا بقط صغير يراقب فأرا كبيرا ؟

كانت واجباتي عبئا مرهقا على فؤادي ، فاشعر بالخجل في حضرة اولئك الناس ، وجميعهم ، فيما يخيل الىّ ، مطلعون

على شيء من معرفة خاصة بهم . اما انا فمن واجبي ان انظر اليهم نظرتي الى لصوص وخداعين . كانت الايام القليلة الاولى مرهقة مضنيـــــة ، وسرعان ما لمس اوسيب مني ذلـــك ، وصارحني في خلوة بيننا :

– اسمع ، يا بني ، كف عن عبوسك – فهو لا يجدي نفعا . افهمت ما اقول ؟

لم افهم شيئا ، بالطبع ، ولكنني شعرت ان هذا الشيخ يرى عن كثب حراجة موقفي ، وسرعان ما توثقت بيننا صلات الصراحة .

اسر في اذني ، في زاوية بعيدة عن مرمى الانظار :

– اكبر لص بيننا ، اذا شئت ان تعلـــم ، هو البنّاء بيوتر : فهو لص شره ورب اسرة كبيرة العدد . لا تغفل عنه ، فكل شيء في نظره مفيد ،فهو لا يعف عن شيء مهما حقر ، سواء كان اوقية من المسامير او عشر قرميدات او كيســا مـــن الكلس – كل شيء مفيد ! وهو رجل طيب النفس ، ورع ، صاحب مبدأ ، يجيد القراءة والكتابـــــة ، ولكنه نزوع الى السرقة . اما ييفوموشكا – فهو لا يحيا الا في سبيل النساء . هو وادع الخلق لا ضرر منه . فهو يحمل على كتفيه رأســـا طيبا . كل من كان احدب فهو ذكي . اما غريغوري شيشلين فرجل مشوش الذهن ، لا يستطيع الحفاظ على ماله الخاص فكيف هي الحال بالنسبة الى اموال الآخرين ؟ وفي وسع كل امرئ ان يخدمه ، اما هو فلا يتمكن من خداع احد ! فهو يعيش من دون تفكير . . .

– وهل هو طيب النفس ؟

نظر الى اوسيب كمن ينظر من مكان قصى ، والقى على مسمعى هذه الكلمات الخالدة :

– نعم ، هو طيب . الطيبة اسهل شيء فى نظر الكسالى . الطيبة لا تتطلب تفكيرا ، ايها الفتى .

وسألت اوسيب :

– حسنا ، وانت ؟ كيف انت ؟

فابتسم اوسيب ابتسامة قصيرة ، واجاب :

– انا مثل فتاة . حين اصبح جدة احدثك عن نفسى ، وينبغى عليك ان تنتظر حتى ذلك الحين ، او حاول بتفكيرك وحدك ان تكتشف من عساى اكون . هيا ، حاول ذلك !

لقد افسد جميع انطباعاتى عنه وعن اصدقائه . لم اشك ابدا فى حقيقة ما قال . كنت استطيع ان ارى ان ييفوموشكا ، وبيوتر ، وغريغورى يعتبرون ان هذا الشيخ الوسيم اكثر ذكاء ومعرفة بالامور العملية منهم جميعـــا . كانوا يطلبون نصيحته فى كل شيء ، ويصغون اليه فى اهتمام بالغ ، يكنون له كل احترام وتبجيل .

كانوا يخاطبونه قائلين :

– كن لطيفا ، واعطنا نصيحتك .

بعد احد هذه الالتماسات ، وحينمـــا غادرنا اوسيب ، سمعت البناء يخاطب غريغورى هامسا :

– انه مهرطق !

واضاف غريغورى ساخرا :

– مهرج !

حذرنى الطيان مثل صديق :

– احذر من ذلك الشيخ ، يا مكسيميتش . ينبغى ان تكون على حذر منه . لسوف يلفك حول اصبعه الصغيرة فى غمضة عين ! اولئك الشيوخ الذين لا يفتر حنكهم عن العمل – وحده الله يدرى الاذية التى ينزلون بالمرء !

لم استطع ان اميز لما قال رأسا من ذنب .

بدا لى ان بيوتر ، البناء ، اكثرهم شرفا وفضيلة . كانت ملحوظاته كلها موجزة ، قوية الحجة ، وتفكيره يحوم بصورة خاصة حول الله والجحيم والموت .

– آه ، ايها الاخوة . يحاول الانسان ما يشاء ، يعتوره من الآمال ما يشاء ، ويبقى مصيره القبر والكفن !

كان يشكو من آلام فى معدته . وتمر ايام بطولها يعجز فيها عن تناول اى شىء من انواع الطعام ، فكسرة صغيرة من الخبز قد تسبب له آلاما مبرحة وغثيانا .

بدا لى ايضا ان ييفوموشكا الاحدب لا يقل عنه شرف نفس ، وطيب خلق ، رغم انه يبعث على الضحك قليلا . واحيانا يبدو ساذجا بحيث اراه متبلدا . فهو لا يتورع عن الهيام بسائر انواع النساء ويتحدث عنهن جميعا بالعبارات ذاتها :

– سأقول لك بصراحة – انها ليست امرأة ، بل هى زهرة تقوم فى قصعة من القشدة . هذا ما هى عليه !

واذا وفدت فتيات كونافينو الثرثارات لمسح الارض وغسلها يهبط ييفوموشكا من فوق السطح وينتحى زاوية لا يبارحها حيث يخرخر فى سرور ، وقد ضاقت عيناه الشهلاوان اللماعتان ، وانفغر فمه حتى اذنيه :

– اوه ، يا للطبق الشهى الذى ساقه الله الىّ هذا النهار ! اوه ، يا للغبطة التى هبطت بين يدىّ ! انظروا ما اجمل هذه الزهرة ! هى زهرة فى قصعة قشدة ، باى لسان ارفع شكرى الى القدر لارساله مثل هذه الهدية ، ايه ؟ افلن يحرقنى مثل هذا الجمال !

كانت النسوة يسخرن منه بادئ الامر ، ويتصايحن قائلات :

– تأملى هذا الاحدب الذى يذوب ! ما اطرفه !

لم يكن صانع السقوف يتأثر بهذه العبارات التهكمية ، فوجهه الناتىء الوجنتين يبدو ساهما ، وهو يتابع حديثه كمن يحلم ، فتتهاوى عباراته الحلوة فى سيل نشوان يفتن النسوة افتتانا ظاهرا . واذا اكبرهن سنا تقول فى النهاية مخاطبة رفيقاتها فى شيء من الدهشة :

– قد يتحول هذا الرجل الى شاب اذا استمر على هذا الغرار الذى يبهجه .

– يغرد كالعصفور . . .

واصرت كبراهن فى صوت خشن :

– او اشبه بمتسول عند باب كنيسة .

بيد ان ييفوموشكا لا يشبه البتة متسولا ، فهو يشرئب على الارض بقامته المنتصبة ، كالقرمة الثقيلة ، وصوته يتزايد قوة واقناعا ، وعباراته فتنة وسحرا . فتسكت النساء ويصغين لاقواله . فهو يبدو فى الواقع وكأنه يذوب بأسره فى خطاب ساحر يفتن الالباب .

وتنتهى الحادثة بعودته اوان العشاء او بعد انتهاء

الاعمال ، وهو يهز رأسه الكبير المربع ، ويوضح لرفاقه متسائلا :

– آه ، ما اعذب المرأة اللذيذة ، ما احلاها ! لاول مرة فى حياتى احصل على امرأة مثلها !

ويسرد ييفوموشكا اخبار غزواته دون تبجح او استخفاف بمن سلمته نفسها كما اعتاد الآخرون ان يفعلوا ، بل يبتسم بعينيه المتسعتين ، سعيدا مشدوها .

اوضح اوسيب ، وهو يهز رأسه :

– آه ، يا من لا يقوّم اعوجاجك ! كم بلغت من العمر حسب قولك ؟

– اربع واربعون سنة عمرى ! ولكن هذا لا دخل له . انا اليوم اصغر بخمس سنوات . استحممت بماء الحياة ، وخرجت بكاملى وقد رانت الطمأنينة على قلبى . اواه ، ما اجمل النساء !

فاجابه البناء فى حدة :

– حذار – سترى ان حياتك الخليعة ستترك فى فمك طعما مريرا حين تجتاز عتبة الخمسين من عمرك !

وزفر غريغورى شيشلين قائلا :

– انت مخلوق عديم الحياء ، يا ييفوموشكا .

وخيل الىّ ان هذا الشاب الوسيم يحسد الاحدب على ما يلقاه من فوز فى غزواته .

شخص اوسيب الى الجميع من تحت حاجبيه الفضيين المجدولين ، وهدر فى صوت مرح :

– جميع فتياتك اغواهن الفلاحون القرويون – بعضهن

بالحلوى ، وبعضهن باللالىء . ان فتياتك جميعا سرعان ما يصبحن جدات .

كان شيشلين متزوجا ، غير ان زوجته آثرت البقاء فى الريف ، واخذ هو الآخر يشخص بعينين تواقتين الى ماسحات الارض . كن سهلات المنال جميعا ، تقوم كل منهن «بعمل اضافى» لرغبتها فى جمع قليل من المال . كان هذا المصدر للدخل يعتبر فى هذا الحى الفقير البائس عملا جيدا كبقية انواع الاعمال . غير ان هذا الفلاح الجميل المحيـــا لم يكن يمس النساء ، بل يكتفى بالنظر اليهن من بعيد نظرة خاصة ، كأنه يرثى لحالهن ، او يرثى لنفسه . فاذا كن البادئات فى مغازلته ومطارحته الهوى فهو يضحك ضحكة مرتبكـــة ويفر ، وهو يقول :

– هيا ، هيا الآن . . .

فيزجره ييفوموشكا ، وهو غير مصدق :

– هل انت ابله ؟ كيف تترك مثل هذه السانحة تفلت من بين يديك ؟

فيذكره غريغورى قائلا :

– انا رجل متزوج !

– ولكن زوجتك لن تعلم بما تفعل .

– الزوجة تكتشف دائما ما اذا خانها زوجها . لا سبيل الى خداع الزوجة او التغرير بها ، يا اخى !

– وكيف تراها تكتشف ذلك ؟

– هذا ما لا اعرفه ، ولكن لا بد لها ان تكتشف ذلك ان كانت هى نفسها تعيش شريفة امينة . فان كنت انا اعيش

شريفا تعيش هى فى الخطيئة فسوف اعرف ايضا . . .
فصاح ييفوموشكا :
- كيف ؟
غير ان غريغورى ردد فى هدوء :
- هذا ما لا ادريه .
لوح صانع السقوف بيده فى سخط ، وقال :
- انظروا الى هذا فحسب ! «عش شريفا» ، «لا ادرى» . يا للرأس الذى تملكه !

كان عمال شيشلين ، وعددهم سبعة ، يشعرون بالارتياح لديه ، فكأنه لم يكن معلما لهم . ولكنهم كانوا يلقبونه وراء ظهره بالعجل . فاذا جاء وشاهد انهم يتباطؤون فى العمل ، فهو يمسك مالجا ويشرع فى العمل فى مهارة ، وهو ينادى بنبرة ودية :
- هيا ، يا شباب ، هيا !

ذات يوم توجهت ، فى استجابة لاوامر معلمى نافذ الصبر ، الى غريغورى قائلا :
- عمالك هؤلاء ليسوا من طينة جيدة .
فاستوضح ، كمن لم تخطر له هذه الفكرة فى بال :
- حقا ؟
- هذا العمل كان ينبغى ان ينتهى البارحة ظهرا ، وهو لن ينتهى حتى فى هذا اليوم .
فوافق قائلا :
- هذا صحيح . لن يتدبروا هذا الامر .
واضاف بعد صمت قصير فى صوت متردد :

– انا ارى ما يحدث هنا حتما ، ولكننى اخجل من جرهم الى العمل – فهم جميعا ابناؤنا ، من قريتى الاصلية . وقد امر الرب ان يكسب المرء خبزه بعرق جبينه . وهذا ينطبق علينا جميعا ، أليس كذلك ؟ بما فينا انت وانا ؟ اما انت وانا فنعمل اقلّ مما يعملون . ولهذا السبب اشعر بالخجل من جرهم الى العمل .

كان يستغرق فى التأمل ، فيمشى احيانا على طول احد الشوارع الخالية فى ارض المعرض الى ان يصل الى جسر فوق قناة اوبفودنوى ، حيث يتوقف فجأة مستندا الى الدرابزون محدقا فى المياه ، والسماء ، والمساحات المترامية وراء نهر الاوكا . فاذا لحق احدهم به ، وسأله : «ماذا تفعل ؟» ، فهو يجفل وقد ارتسمت على ملامحه ابتسامة مرتبكة ، ويقول : «اوه ، لا شىء على وجه التحديد . توقفت ارتاح قليلا والقى حوالى نظرة» .

وكان يلاحظ احيانا كثيرة بقوله : «الرب بنى كل شىء كما ينبغى ان يكون : السماء ، والارض ، والانهار تتدفق فيها ، والقوارب . فى مقدورك ان تركب قاربا وتبحر به حيثما تشاء – الى ريازان او ريبينسك ، الى بيرم او استراخان . كنت فى ريازان مرة – وهى ليست مدينة سيئة ، ولكنها موحشة – اكثر وحشة من نيجنى نوفغورود . ان مدينتنا نيجنى مكان بهيج . واستراخان اكثر وجوما ايضا . الشىء الرئيسى هو ان استراخان تعج بالكالميكيين ، وانا اكرههم . اكره الموردوفيين والكالميكيين والفارسيين والجرمانيين وجميع الذين منبتهم اجنبى» .

كان يتحدث فى بطء ، وكلماته تبحث فى حذر عن شخص يوافقه الرأى . استجاب له البناء بيوتر عادة :

– انهم ليسوا من منبت اجنبى . بل هم غرباء .

واكد بيوتر بنبرة قارصة :

– ولدوا خارج الحدود ، لا يعترفـــون بالمسيـــــح ، ويعيشون من دونه .

فاشرق وجه غريغورى :

– قل ما تشاء ، اما بالنسبة الىّ ، يا اخى ، فانا احترم انقياء الارومة ، الروسيين ، مستقيمى العيون . وانـــا اكره اليهود ايضا ، وعلى مدى حياتى لم اكن استطيع ان افهم فيم خلق الله الاجانب . انها حكمة عميقة . . .

واضاف البناء فى جهمة :

– قد تكون عميقة ، ولكن هناك اشياء كثيرة فى هذا العالم نستطيع ان نفعلها من دونها .

وبعد ان يصغى اوسيب الى هذه الملحوظات يدلى بدلوه فى سخرية ونبرة قارصة :

– بلى ، ثمة اشياء كثيرة نستطيع ان نفعلها من دونها – ملحوظاتك هذه على سبيل المثال . دائما تقعقع وما انت فى حاجة اليه هو جلد بالسوط !

ويبقى اوسيب متحفظا ، لا يعلن اية كفة يرجح واية كفة يرفض . ويخال احيانا انه يوافق الجميع وكل شىء ، ولكنك تلمح فى اغلب الاحيان انه يبدى سأمه بكل بساطة من كل شىء ويعتبر جميع الناس حمقى .

يميل على بيوتر وغريغورى وييفوموشكا قائلا :

– ايه ، يا صغار الخنازير ، انتم !

فيطلقون ضحكة صغيرة ، ليست على شيء كثير من البهجة او الحماسة ، ولكنهم يطلقونها على اية حال .

كان معلمى يدفع لى يوميا خمسة كوبيكات ثمن طعامى . ولم يكن ذلك الاجر يسد حاجتى ، فانا اشعر بشيء من الجوع فى اغلب الاحيان . ويرى العمال ذلك ، فيدعوننى الى تناول الفطور والعشاء معهم . وكان المتعهدون احيانا يدعوننى الى الحانة لاحتساء الشاى . كنت اقبل دعوتهم بسرور ، فانا اتوق الى مجالستهم والاستماع الى احاديثهم الفاترة وقصصهم الغريبة . وقد راقتهم كفاءتى فى الاطلاع على الكتب الدينية .

كان اوسيب يقول ، وهو يحدجنى بعينيه الزرقاوين بحيث يستعصى عليّ فهم مغزاهما :

– أكلت كفايتك من الكتب فملأت جوفك حتى التخمة .

وكانت حدقتاه تبدوان وكأنهما تذوبان فى لون ابيض .

– احتفظ بمعرفتك واخزنها ، فقد تحتاج اليها ذات يوم . حينما تكبر يغدو فى مقدورك ان تصبح راهبا ، فتخفف عن آلام الناس بمواعظك اللطيفة . . . او كن مشبرا . . .

فيصحح له البناء فى صوت يبدو لسبب ما مجروحا :

– مبشرا .

ويسأل اوسيب :

– ايه ؟

– اقول انهم يسمون بالمبشرين . وانت لست اصم .

– حسنا . . . مبشرون . . . لمقارعة الهراطقة . ربما

تستطيع الانضمام الى الهراطقة انفسهم – فهذه مهنة تدر الخير على صاحبها . اذا استخدمت رأسك استطعت ان تجنى مالا وفيرا حتى من الهرطقة ذاتها .

كان غريغورى يضحك مرتبكـــا . ويجمجـــم بيوتر بين شعرات لحيته :

– والسحرة يعيشون عيشة حسنـــة ايضا ، وجميـــع المخلوقات التى لا تؤمن بآله .

ويعترض اوسيب سريعا :

– السحرة ليسوا علماء – لا يحتاجون الى العلم مـــن الكتب .

وعندها يلتفت الىّ :

– اليك . اسمع ما يلى : كان يعيش فى قريتنا مرة رجل اعزب – اسمه توشنيكوف – متبلد الذهن ، رقيق الحال ، يحيا كريشة فى مهب الريح – تراه تارة هنا وطورا هناك حيثما تهب الريح . ولم يكن كسولا ولا مجدّا . ضاقت به الحال يوما ، ولم يعد يعرف ماذا يصنع ، فمضى الى الحج . وتشرد طوال عامين ، وبغتة ظهر فى هيئـــة جديدة – شعر مسترسل حتى كتفيه ، وقبعة صغيرة على رأســـه ، وسترة قصيرة صنعت من قماش قطنى متين . اخذ ينظر الينا جميعا من ذروة عظمته مرددا على مسامعنا بلا هوادة : «توبوا ، ايها الملاعين ثلاثا !» ومن تراه يمنع الناس عن التوبة – ولا سيما النساء ؟ شرعت الامور تسير امامه على ما يرام . توشنيكوف لديه ما يأكل . توشنيكوف لديه ما يشرب . توشنيكوف لديه وفرة من النساء . . .

فقاطعه البناء غاضبا :

– الطعام والشراب ليسا كل شيء !

– وماذا اذن ؟

– الكلمات . . . هذه كل شيء !

– حسنا ، انا لم افطن الى كلمته . فلديّ من الكلمات اكثر مما اعرف ماذا افعل بنفسى .

وقال بيوتر فى نبرة مجروحة ، فى حين ارخى غريغورى عينيه فى صمت وانشأ يحدق فى قدحه :

– نحن نعرف هذا ، توشنيكوف . اسمه دميترى واسم ابيه فاسيلى .

اعلن اوسيب على سبيل الاسترضاء :

– ليست لديّ رغبة فى المناقشة . اردت فحسب ان اطلع مكسيميتش على مختلف الوسائل التى يكسب بها خبزه اليومى . . .

– بعض هذه الوسائل تؤدى الى السجن . . .

فوافق اوسيب :

– بل كثير منها . والقليل القليل منها يؤدى الى الكهانة . ينبغى عليك ان تعرف الى اين تنصرف . . .

كان على الدوام ميالا الى السخرية فيما يتعلق بالناس الانقياء من امثال الطيان والبناء ، لربما هو يكرههم ، بيد انه يخفى هذا الشعور فى عناية بالغة . وبصورة عامة كان من الصعب ان تتبين موقفه من الناس .

كان اكثر حنوا ولطفا بالنسبة الى ييفوموشكا . فالسقاف

لم يكن يشارك فى المناقشات المتعلقة بالله ، والعدالة ، والطوائف ، واحزان الحياة البشرية – هذه الموضوعات الاثيرة المحببة لدى رفقائه . كان ييفوموشكا يضع كرسيه جانبيا بحيث لا يحتك مسنده بحدبة ظهره ، ويروح يرتشف شايه على مهلة قدحا بعد قدح . وما اسرع ان ينشط على حين غفلة ، فيدير عينيه فى الغرفة العابقة بالدخان ، ويرهف سمعه من خلال همهمة الاصوات ، ومن بعد يثب واقفا على قدميه ويختفى خارج الغرفة . ذلك يعنى ان احد دائنيه ، ودائنوه يعدون اكثر من عشرة ، قد دلف الى الحانـــــة . وباعتبار ان عددا منهم ينتوى الحصول على دينه عن طريق استخدام الضرب فقد كان السقاف دائم الوثوب على قدميه .

كان يقول منشدها :

– يبعث على الضحك اسلوبهم فى مطاردتى . يسرنى حقا ان اسدد ما علىّ لو كنت املك مالا .

وينبر اوسيب فى اعقابه :

– تفو . يا لتلك الحدبة !

وكان ييفوموشكا يجلس احيانا غارقا فى بحران افكاره ، وقد عمـــــى عن كل شىء ، وانسدت اذناه عن كل حديث ، واسترخت ملامح وجهه المتغطـــم ، وازدادت رقة عينيـــه اللطيفتين .

كانوا يسألونه :

– فيم انت مستغرق فى التفكير ، ايها الصديق ؟

– افكر انى لو كنت ثريا لتزوجت امرأة حقيقية ، امرأة نبيلة ، ابنة كولونيل مثلا . لكم كنت احبها ! يا الهى ، لكم

كنت احترق سريعا الى جانبها ! لقد حدث ما يلى ، ايها الاخوة : صنعت مرة سقفا جديدا فى بيت ريفى يخص كولونيلا . . .

فقاطعه بيوتر محاولا اثارته :

– وله ابنة مترملة . لقد سمعنا هذه القصة !

ولكن ييفوموشكا تابع حديثه فى هدوء ، وهو يفرك ركبتيه براحتى يديه ويشق الهواء بحدبته وهو يتأرجح الى امام والخلف :

– كانت قد الفت الخروج الى الحديقة ، بيضاء البشرة رقيقة الملامح ، فاروح ارنو اليها من السقف وافكر بينى وبين نفسى : ما فائدة الشمس ، ما فائدة العالم بأسره من دونها ! اواه لو اننى استطيع ان افرد جناحىّ فى الهواء مثل حمامة وأرتاح عند قدميها ! كانت برعما ، برعما عذبا ازرق فى قصعة من القشدة ! اه ، يا رفقائى ، الحياة تكون ليلة واحدة طويلة طويلة مع سيدة من امثالها !

استفهم بيوتر فى حدة :

– وماذا تفعل للحصول على طعام ؟

لم يؤثر هذا الكلام فى ييفوموشكا على الاطلاق .

اوضح قائلا :

– يا الهى ! هل نحتاج الى وفرة من الطعام ؟ علما انها ثرية !

ضحك اوسيب :

– ومتى يحين الوقت الذى ستكف فيه يا ييفوموشكا عن الاهتمام بالنساء ؟

لم يكن ييفوموشكا يتحدث عن غير النساء ، كما انه لم

يكن عاملا مثابرا فى عمله . كان فى بعض الاحايين يشتغل بسرعـــة وبصورة جيدة ، وفى احيان اخرى تعوزه الكفاءة ، ويستخدم مطرقته الخشبية فى كسل وفتور ، مخلفا ثغرات واضحة بين الالواح المركبة . وكان يعبق دائما برائحة زيت دهن الحوت ، كما كانت له رائحته الخاصة ، رائحة طيبة لطيفة تشبه رائحة جذوع الاخشاب المقطوعة حديثا .

كان الحديث مع النجار حول شتى الموضوعات يبعث على الاهتمام ، يبعث على الاهتمام ولا يبعث على كثير من السرور . وكلماته على الدوام مربكة مشوشة ، ويصعب ان تعرف ما اذا كان يمزح ام يتحدث جادا .

وكان الحديث الاثير عند غريغورى هو الحديث عن الله الذى يحبه ويؤمن فيه ايمانا راسخا .

قلت مرة :

– غريغورى ، أتدرى ان هنالك اناسا لا يؤمنون بالله ؟

فاطلق ضحكة قصيرة :

– ما هذا ؟

– يقولون ان الله غير موجود .

– آه ، اجل . اعرف ذلك .

واسترسل قائلا ، وهو يلوح بيده كمن يدفع شيئا غير منظور :

– أتذكر كيف قال الملك داود : «الاحمق يقول فى سره ان الله غير موجود» ؟ انظر فحسب كيف ان الدينونة قضت على مثل اولئك الجهلة . انت لا تستطيع الحياة من دون الله .

فلاحظ اوسيب ، كمن يوافقه الرأى :

– حاول ان تجرد بيوتر من ايمانه بالله – فيضربك !
ويكتئب وجه شيشلين الوسيم ، فيلمس لحيته باصابعه الملطخة بالحص ، ويقول فى نبرة خفية المعنى :
– الله يسكن فى جميع الكائنات الحية . الوجدان والكيان الداخلى هما من عطايا الله .
– والخطيئة ؟
– الخطيئة خلقت من الجسد ، من الشيطان . الخطيئة هى من الخارج ، مثلها مثل البثرة على الجلد . هى ليست اكثر من ذلك . يخطئ اكثر من يفكر فى الخطيئة اكثر . اذا تجنب ذهنك التفكير فى الخطيئة فلن تقع فيها . التفكير فى الخطيئة رجس من اعمال الشيطان ، سيد الشهوة فى الجسد .
قال البناء متشككا :
– الامر ليس تماما . . .
– بل هو تماما . فالله لا يعرف الخطيئة ، والانسان خلق على صورة الله ومثاله . والخطيئة ترتكب من قبل الصورة ، من قبل الجسد . والمثال عاجز عن الخطيئة . فالمثال هو الروح . . .
وابتسم ابتسامة انتصار ، فى حين غمغم بيوتر :
– يخال لىّ ان الامر ليس تماما . . .
قال اوسيب مخاطبا البناء :
– عطفا على اقوالك ، اذا لم تكن هنالك خطيئة فليست هنالك توبة ، واذا لم تكن هنالك توبة فليس هنالك خلاص .
– هذا صحيح . «اذا غاب الشيطان عن النظر غاب الله عن الذهن» ، كما اعتاد الشيوخ ان يقولوا . . .

لما كان شيشلين لم يألف الشراب فقد كان يسكر من مجرد قدحين من الخمرة . فيتضرج وجهه ، وتزداد عيناه براءة ، ويتفاقم صوته جذلا :

– آه ، يا اخوتى ، يا للحياة الرائعة التى نحيا – نعمل قليلا ، ولا نجوع ، فلنشكرنّ الرب ! انها حياة رائعة !

بكى ، فتهاطلت العبرات على وجنتيه ولحيته الحريرية ملتمعة مثل حبات الخرز .

اشمأززت من تلك العبرات الزجاجية ، ومن واقع انه كان على الدوام يمتدح الحياة . كانت مدائح جدتى لها اكثر اقناعا – اكثر بساطة واقل تخمة .

هذه الاحاديث تتركنى فى حال من توتر متواصل وتثير فىّ مخاوف مبهمة . عن العمال قرأت قصصا كثيرة ، واعرف حق المعرفة الفارق الكبير بين عامل الكتب والعامل الحقيقى . ان جميع العمال فى الكتب مخلوقات تعيسة ، وجميعهم طيبون وغير طيبين على حد سواء ، يفتقدون ثراء التفكير والحديث وهما الصفة المميزة للعمال الاحياء . عامل الكتاب يتحدث قليلا عن الله والطوائف والكنيسة ، وكثيرا عن اشيائه المفضلة ، عن الارض ، وعن صعوبات الحياة ووجودها . كما انه يقل من الحديث عن النساء ، وموقفه منهن اقل قساوة واكثر استعدادا للتعاطف . المرأة بالنسبة الى رجل حقيقى هى ملهاة ، ولكنها ملهاة خطرة ، ينبغى ان يكون خبيثا معها كيلا تتفوق عليه وتدمر حياته . رجل الكتاب طيب او شرير ، ولكنه موجود باكمله هنالك ، فى الكتاب ، بينا الرجل الحقيقى ليس طيبا او شريرا ، بل هو يثير اهتمامك الى ابعد

الحدود . ومهما يكن الرجـــل الحقيقى مهذارا فى الكلام فانت تشعر على الدوام ان ثمة شيئا بخصوصـــه لم يتم الحديث عنه ، وان هذا الشيء يحتفظ به لنفسه وحده ، وان هذا الشيء الذى لم يتم الحديث عنه بخصوصه قد يكون الشيء الذى يمثل جوهره الخاص .

من بين جميع عمال الكتب تولّهت ببيوتر من قصة «عصبة النجارين» . اردت ان اقرأ هذه القصة على زملائى ، فحملت الكتاب معى الى ارض المعرض . وما اكثر ما كنت امضى الليل فى مجمع هؤلاء العمال او اولئك ، احيانا بسبب فى النّصب الذى نال منى بعد اعباء العمل اليومية بحيث ارغب عن القيام برحلة العودة الى البيت .

حين اعلنت انى املك كتابا عن النجارين ابدى الجميع اهتماما بالغا ، وخاصة اوسيب . افرج الكتاب من بين يدىّ وجعل يقلّب صفحاته ، وهو يهزّ رأسه الشبيـــه برأس القديسين متشككا :

– كما لو ان الكتاب مكتوب عنا ! فكروا فى هذا الآونة ! من كتبه ، واحد من السادة ؟ هِمْ ، هذا ما خطر لى ! السادة والموظفون لا يتورعون عن شيء ! ما يتركه الله لا يتركه موظفك ؛ لهذا السبب تجدهم ههنا !

لاحظ بيوتر :

– انت لا تتحدث عن الله بما يجب من احترام .

– هذا سواء . فكلماتى لا تساوى فى نظر الله اكثر مما تساوى نثرة من البلح تساقط على رأسى الاصلع . لا يقلقنّك الامر ، فانت وانا لن نستطيع ان نفهم الله حق الفهم !

اضطرب على حين فجأة ، فشرع يطلق كلمات حادة تشبه شرارات تنطلق من حجر القداحة ، ويصبها على الاشياء التى يكره . وكان يستفسر عدة مرات خلال النهار :

– هلا قرأت علينا شيئا ، يا مكسيميتش ؟ حسن . حسن جدا . كان ذلك امرا من الروعة التفكير فيه .

حينما كان العمل ينتهى فنحن ندلف عائدين الى مجمعه لتناول العشاء ، وبعد العشاء يزورنا بيوتر مع حرفييه أرداليون وشيشلين وغلام صغير يدعي فوما . ويشعل مصباح فى السقيفة حيث ينام العمال ، واشرع انا فى القراءة . ويرهفون اسماعهم دون ان يندّ عنهم صوت او حركة الى أن يهتف أرداليون مهتاجا :

– لقد اكتفيت !

ويدلف خارجا . ويستسلم غريغورى الى النوم قبل الجميع ، وقد انفغر فمه فى تعبير من الانشداه . وسرعان ما يفعل النجار مثله ، أما بيوتر وأوسيب وفوما فيتحلّقوننى ، ويصغون الى ما اقول فى انتباه مركز .

عندما انتهى يطفئ أوسيب المصباح على الفور . ونعرف من النجوم ان الوقت لا يبرح منتصف الليل .

ويسأل بيوتر فى الظلمة :

– ما هو الهدف من مثل هذا الكتاب ؟ ضدّ من هو ؟

ويقول أوسيب ، وهو يخلع حذائيه :

– حان اوان النوم .

فينسحب فوما الى احدى الزوايا وقد غلبه الصمت .

ويكرر بيوتر فى الحاح :

انني اسأل – ضدّ من كتب هذا الكتاب ؟

ويجيب أوسيب ، وهو يهيئ لنفسه فراشا على بعض السقالات :

– هم يعرفون !

ويصرّ البنّاء قائلا :

– اذا كان مكتوبا ضد زوجات الآباء فليس فيه من هدف اذن : فمثل هذا الكتاب لن يصلح زوجات الآباء . واذا كان مكتوبا ضد بيوتر ، فما فيه شيء من المعنى ايضا . فهو ينبغي ان يتلقى ما هو مكتوب له فى لوح القدر . لقد ارتكب جريمة مرة ، واستحقّ عليها اقامة فى سيبيريا ، وكان ذلك جزاء عادلا بالنسبة اليه . والكتاب لا يمكن ان يساعده فى مثل هذه القضية . . . لا يمكن ، أليس كذلك ؟

ما اعطاه أوسيب جوابا ، فختم البنّاء حديثه قائلا :

– هؤلاء الكتّاب لا يملكون ما يشغلهم على الدوام ، فيروحون يدسون اصابعهم فى مشاكل الآخرين . انهم يشبهون عصبة من النسوة اجتمعن سوية . حسنا ، ليلة سعيدة ، فقد حان وقت النوم . . .

انتصب طوال برهة واقفا فى مربع الباب الذى ينيره قمر ازرق ، واستوضح :

– ما رأيك ، يا أوسيب ؟

اجاب أوسيب ناعسا :

– ماذا ؟

– أوه ، حسنا . نم .

استلقى شيشلين على الارض حيث كان جالسا . واضطجع

فوما على كومة من القش الى جانبى . ونام الحى باسره . ودف من بعيد صوت صفير القطر ، وضجيج عجلات حديدية صاخبة ، وقعقعة مصدّات . وعجت السقيفة باصوات الشخير من شتى الالحان . وتضايقت : فقد توقعت شيئا من المناقشة ، ولكن شيئا من ذلك لم يقع . . .

قال أوسيب فجأة فى هدوء ووضوح :

– لا تبالوا كثيرا لهذه الامور ، ايها الاصدقاء . انتم شبان بعد ، وامامكم حياة مديدة . اختزنوا افكاركم الخاصة . ففكرة تبتدعونها تساوى فكرتين من ابتداع الآخرين . أنائم انت ، يا فوما ؟

اجاب فوما فى حيوية :

– كلا .

– كلاكما تعرفان كيف تقرآن ، فلا تكفّا عن القراءة . لكن لا تصدقا ما كُتب . فهم يطبعون ما يعنّ لهم فى بال – فقوتهم هى القوة الاغلب .

وارخى ساقيه عن طرف السقالة ، وقبض على الحافة بيديه ، وانحنى صوبنا وهو يسترسل فى حديثه :

– الكتاب – ما هو الكتاب بعد ذلك كله ؟ انه مصدر للاخبار ، هذا ما هو عليه الكتاب . انه اشبه بمن يقول : انظر ، اليك ما يشبه رجلا عاديا – نجارا او مثيلا له . ومن بعد انظر ، اليك ما يشبه السادة ، فكأنهم يختلفون عن الناس الآخرين . الكتاب لا يكتب من دون مقصد . لقد كتب للدفاع عن هذا الانسان او ذاك . . .

فاسرع فوما يقول :

— فعل بيوتر حسنا حين قتل ذلك المتعاقد .

— فيمَ تقول مثل هذا الكلام ؟ ليس من العدالة ان تقتل امرا . أعرف انك تكره غريغورى ، لكــن عليك ان تطرح هذه الفكرة من رأسك . ليس فينا من هو ثرىّ . اليوم انا هو المعلم ، وغدا انا عامل عادى بسيط مرة اخرى . . .

— انا لا اتحدث عنك ، أيها العم أوسيب .

— الامر سواء .

— انت رجل عادل .

فقال أوسيب ، مقاطعا كلمات فوما الممتعضة :

— رويدك . ساحدثك عن ماهيــة الكتاب . انه كتاب خبيث . ههنا نبيل من دون عامل ، وههناك عامــل من دون نبيل . فالقِ نظرة — النبيل شرير ، والعامل ليس افضــل منه . النبيل يزداد ضجرا وضعفا ، والعامــل يغدو سكيرا متبججا فى قلبه ضغينة وحقد . هذا ما ترويه القصة . انها تحاول ان تظهر ان من الخير ان يكون المرء عبدا يخدم سيده : فالسيد اختبأ وراء العبد،والعبد وراء السيد ، وراح كلاهما يعيش ويعيش ، وقد اشبع بطنه وعقله . أوه ، انا لا انكر ان الحياة هى اكثر امنا فى ظل العبودية . والملاكون لا يجدون منفعة من اقتناء العمال الفقراء . صحتهم جيدة ورؤوسهــم خاوية — على هذا الغرار يريدونهم . انا اقول ما اعرف . أفلم اعش حوالى اربعين عامــا تحت نير الملاكين ؟ لقد انهمرت فى جلدى كمية كبيرة من الحكمة .

تذكرت ان السائس بيوتر ، هذا الذى حزّ عنقه ، تحدث عن الاسياد بالاسلوب ذاته ، اشعر بالقلق ان افكار أوسيب

تتفق وهذه الافكار التى ينادى بها ذلك الشيخ الاثيم .

وضع أوسيب يده على ساقى ، وهو يسترسل قائلا :

– ينبغى ان تكون قادرا على ادراك معانى ما هو مكتوب فى الكتب والكتابات الاخرى . فان احدا لا يفعل شيئا من دون غاية ، حتى ولو حاول ان يخفيه . وهنالك غاية فى كتابة الكتب ، هذه الكتب التى تشوّش ذهنك . كل شىء يتطلب عمل الذهن ، بما فى ذلك اقتطاع الاخشاب وصنع الاحذية . . .

واستمرّ يتحدث زمنا طويلا ، آونة يضطجع على فراشه وآونة يثب كيما يبعثر فى رقة اقواله المحكمة فى ملء السكينة والظلمة :

– قيل : ثمة فارق كبير بين الملاّك والعامل . هذا ليس صحيحا . فنحن سواء ، ولكنه هو فى الذروة . ولا ريبة ان النبيل يتعلّم من كتبه ، فى حين اتعلّم انا من رضوضى وكدماتى ، فضلا عن ان مؤخرته اكثر بياضا ولكنه ليس اكثر اشراقا . أوه ابدا ، يا رفقائى ، لقد حان الوقت لنشر نظام جديد فى هذا العالم . اطّرحوا هذه الكتب ، القوا بها بعيدا . وليسألنّ كلّ منكم نفسه : من ترانى اكون ، على اية حال ؟ انا انسان . ومن هو يا ترى . وما هو الفارق بيننا ؟ او ربما يسأله الله اداء أعمال أخرى بخمس كوبيكات ؟ أوه ابدا ، حينما يصل الامر الى الدفع فنحن ، جميعنا ، سواء فى نظر الله . . .

اخيرا ، فى بكرة الصباح ، حين طرد الفجر لألأ النجوم ، خاطبنى أوسيب قائلا :

– أفلا اتكلم كما ينبغى ؟ هرفت باشياء كثيرة هذه

الليلة لم تخطر لى فى بال من قبل قط . لا تأخذوا حديثى مأخذ الجدية ، يا رفقائى – فلقد ثرثرت به لعجزى عن النوم اكثر من اى شيء آخر ، وليس لاننــى كنت ارمى اليــه واقصده . حينما يستلقى احدكم ههنا وعيناه مفتوحتان فهو يبتدع اشياء لمجرد اللهو : كان يا ما كان فى قديم الزمان ، كانت بقرة هربت من الحقول الى التلال ، ومن مزرعــة الى مزرعة ، وقضت حياتها ، ومرضت وماتت ، وتعفنت وجفّت . ما هو مغزى مثل هذه القصة ؟ ليس فيها شيء من الشعور على الاطلاق . حسنا ، فلننم . فينبغى أن ننهض من النوم بعد قليل . . .

١٨

كبر أوسيب فى عينىّ مثلما كبر الوقاد ياكوف مرة بحيث حجب رؤيتى لاى انسان آخر . كانت ثمة اشياء مشتركة كثيرة بينه وبين الوقاد ، ولكنه يذكرنى فى الوقت ذاتــه بجدى والمتدين بيوتر فاسيلييف والطاهــى سمورى ؛ وفى الوقت الذى جعل يذكرنى فيه بجميع هؤلاء الناس راح يحفر عميقا فى ذاكرتى مخلفا فيها نموذجه ينهش اعمق فاعمق مثلما يحتفر الحمض النحاس . كان من الجلىّ انه يمتلـــك وسيلتين فى التفكير : فخلال العمل اليومى يكون تفكيره البسيط السريــع اكثر عمليا وافهاما منه فى الليــل حين يجفوه النوم ، او فى العشية حينما نروح نسير انا وهو فى طريقنا الى المدينــة لزيارة احدى قريباته ، بائعة الفطائر . كانت له فى الليل آراء خاصة . تشعّ براقة من مختلف نواحيها ، مثلها مثـــل

الضوء فى المصباح ، ولكننـــــى اعجز عن استخلاص جانب الصواب فيها ، او الجانب الذى يؤثره هو على غيره .

كان يخال لى انه اكثر ذكاء من اى رجل آخر التقيته ، فاروح ارفرف حواليه فى عناد مثلما كنت افعل حول الوقاد ياكوف ، محاولا معرفة الرجل وفهمـــــه ، بيد انه يتملّص وينزلق مبتعدا هاربا منى . اين ترى تكمن حقيقته ؟ اى مظهر فيه ينبغى ان اقبله على انه المظهر الحقيقى ؟

تذكرت ما عالننى به مرة :

– استخدم دماغك كيما تكتشفنى . هيا ، حاول ذلك !

جرح كبريائى ، ولكن ذلك كان شيئا اكبر من الكبرياء . فهو شىء ينحدر من اهمية حيوية بالنسبة الىّ ان افهم ذلك الشيخ .

كان شخصا متوازنا على الرغم من جميع مراوغاته . وكان يخال لى انه لو عاش مائة سنة اخرى لما تغيّر فيه شىء على الاطلاق ، بل سوف يصون نفسه من التبدّل بين ذلك الرهط من الناس الذين يتبدلون بصورة تبعث على الدهشة . وقد اثار فىّ بيوتر فاسيلييف ذلك الانطباع ذاته من التوازن ، غير اننى لم اجد فيه شيئا يبعث على السرور . كان توازن أوسيب من صنف آخر ، صنف اكثر جذابية .

كان التقلّب البشرى يفقأ عينى على الدوام ، كما كانت تستثيرنى الوثبات الفجائية التى يقفزها الناس من مركز الى آخر . وكنت اضجر دائما من تساؤلاتى بخصوص تلك الوثبات التى يتعذّر علىّ تفسيرها ، فى حين انها تروح تطفىء تدريجيا اهتمامى الحيوى الذى كنت احسّ به تجاه الناس ، وتربـك الحبّ الذى اكنّه لهم .

ذات يوم فى بكور شهر تموز اندفعت فى المكان الذى نعمل فيه عربة مخلّعة الاوصال ، جلس على مقدمتهـــا السائس السكران ، عارى الرأس ، نازف الشفة ، يفوق مكتئبـا فى لحيته . وفى المقعد الخلفى تراخى المخمور غريغورى شيشلين تسنده فتاة سمينة مضرّجة الوجنتين وضعت على رأسها قبعة من القش حافتها مطرزة بشرائط قرمزية اللون وحبات كرز من الزجاج ، وقد انتعلت فى قدميهـــا العاريتين خفّين من المطاط . كانت تترنّح مع كل حركة تأتيها العربة ، ملوّحة بمظلة شمسية فى يدها المتحررة ، وهى تضحك وتصيح :

– هاى ، ايها الابالسة ! لقد أُغلق المعرض . لم يعد هنالك معرض . ولكنهم هنا يجروننى الى المعرض !

زحف غريغورى من العربـــة مقهورا مذلولا ، واقتعـــد الارض ، وعالننا والعبرات فى عينيه :

– هأنذا هنا ، جاثيا على ركبتىّ – لقد اثمت اثما كبيرا ! فكرت فى كل شىء واثمت – وهذا انا ! ييفوموشكا يقول : غريغورى ، غريغورى . هو يقول . . . وصحيح ما هو يقول ، ولكن . . . سامحونى ! احب ان استضيفكم جميعا . صحيح ما هو يقول : نحن نعيش مرة واحدة . . . ولا يمكن ان نعيش اكثر من مرة واحدة . . .–

واسترسلت الفتاة فى عاصفة من الضحك وهى تتواثب هنا وهناك ففقدت خفيها ، فى حين جعل سائق العربة يصيح :

– هيا ، فلننطلـــق ! هيا – لا استطيع كبح جماح جوادى !

وبدا ان الحصان ، وهو فرس هرم هزيل مزبد الشدقين ،

قد تسمّر بالارض ، والمشهد باسره يثير السخرية . وانفجر عمال غريغورى ضاحكين وهم يشخصون الى معلمهم ، وسيدته المتألقة ، والسائق المنبهر .

الوحيد الذى لم يضحك كان فوما . وقف الى جانبى فى رواق المخزن يتمتم :

- لقد افلت اخيرا ، ذلك الخنزير ! وله زوج جميلة تنتظره فى القرية !

ظلّ السائس يستحثهما على الانطلاق ، فهبطت الفتاة من العربة وجرّت غريغورى وراءها فأضجعته عند قدميها . ورفعت مظلتها الشمسية ، وصاحت :

- نحن ذاهبان !

استأنف الرجال عملهم نتيجة الصيحة التى اطلقها فوما ، هذا الذى بدا مجروحا من جراء رؤيته غريغورى الذى جعل من نفسه ابله . تبادلوا بعض الملحوظات الودية على ذمة معلمهم ، فى الوقت الذى بدا فيه انهم يحسدونه حقا .

غمغم فوما :

- ويسمى نفسه معلما . لم يبق امامنا الا شهر ننهى خلاله عملنا ونرجع الى قريتنا ، ولكنه لم يستطع الانتظار . . .

كنت ، بدورى ، قد تضايقت من غريغورى - فتلك الفتاة ذات الكرز الزجاجى بدت متنافرة معه !

ما اكثر ما تساءلت لماذا كان غريغورى شيشلين هو المعلم ، وفوما توشكوف مجرد عامل .

كان فوما قوى البنية ، اشقر الشعر اجعده ، معقوف

الانف ، رمادى العينين ذكيّهما ، مدور الوجه . لم يكن يشبه احدا من الفلاحين ، ولو كان يرتدى ثيابا لائقة لما ظنّه الناس غير ابن احد التجار المنحدرين من اسرة ثرية . كان نكـــد المزاج ، قليل الكلام ، واقعيا . وباعتبار انه يجيد القراءة والكتابة فهو يمسك حسابات المتعهد ويسجل الصرفيات . وكان فى مقدوره ان يجعل رفقاءه ينكبون على العمل رغم انه لم يكن يبدى تجاهه شيئا من الود .

كان يقول فى هدوء :

– انا لا استطيع انجاز كل شيء فى دورة حياتية واحدة .

وكان يزدرى الكتب :

– كل شيء يُطبع . اليكم . . . فى مقدورى ان اؤلف لكم قصة اذا رغبتم فى ذلك – فليس ثمة شيء من الصعوبة فى هذا . . .

وكان يرهف اذنيه مصغيا الى كل ما يقال ، فاذا اثار شيء اهتمامه فهو يلحّ على معرفة جميع دقائقه ، ومن ثم يضع لنفسه نتائجه ويقيس الامور بمقاييسه .

قلت لفوما مرة انه يجب ان يصير متعهدا ، فاجابنى فى كسل :

– لو كنت املك الف روبل منذ البداية لما كانت الامور سيئة . أما أن يقلقك تسيير شؤون عدد من العمال لقاء حصة تافهة – فما جدوى ذلـــك ؟ كلا ، لسوف انتظر فرصتى الملائمة ، ومن ثم احمل نفسى الى الدير فى أورانكا . انا كبير وجميل الطلعة ، ولربما وقعت فى هواى ارملة احد التجار . تحدث مثل هذه الامور . لقد تزوج احد الشبان من سيرغاتشى

زواجا رائعا ، وخلال سنتين تحققت آماله ، فتزوج من آنسة من بنات المدينة لمحته حين كان يحمل الأيقونة من بيت الى بيت . . .

تلك كانت خطته . سمـــع قصصا كثيرة تتعلّق برجال غنموا عيشة رضية من مجرد ترهبنهم فى احد الاديار . كنت امقت هذه القصص ، واكره اسلوب فوما فى التفكير ، ولكننى كنت واثقا من دخوله الى الدير .

صار فوما لدى افتتاح المعرض خادما فى احدى الحانات ، الامر الذى اثار دهشة الجميع . لا استطيع ان اقول جازما ان هذا الامر ادهش رفقاءه ، ولكنهم جعلوا يسخرون منه . فى ان يعزموا على الانطلاق لشرب الشاى ايام الآحاد او الاعياد حتى يخاطب بعضهم بعضا وقد استرسلوا فى الضحك :

– فلنذهبنّ نتيح لفوما قليلا من العمل !

وحين يصلون الى الحانة فهم ينادون فى تغطرس :

– انت ، ايها النادل – انت ، ايها الاجعد الشعر – تعال الى هنا !

فيقترب منهم ، ملقيا رأسه الى الوراء ، ويسأل :

– ماذا تطلبون ؟

– أفلا تعرف زملاءك القدامى ؟

– انا مشغول جدا . . .

كان يدرك ان رفقاءه يزدرونه ويرغبون فى اغاظتـــه ، فيرمقهم فى جَلَد وضجر ، وقد تجمّد وجهـــه فى تعبير يكاد يقول :

– حسنا ، عجلوا ولننتهينّ من الامر . . .

وكانوا يقولون ، وهم يبحثون فى اكياس نقودهم فترات طويلة :

– اعتقد انك تريد بقشيشا !

ويغادرون الحانة دون ان يمنحوه كوبيكا واحدا .

سألت فوما فيمَ عمل نادلا فى الوقت الذى خطّط فيه ان يصير راهبا . فاجاب :

– لم اخطط لاصير راهبا على الاطلاق . كما اننى لا انتوى البقاء نادلا فترة طويلة . . .

بعيد اربع سنوات التقيته فى تساريتسين ، نادلا فى حانة ، ثم قرأت اخيرا فى احدى الصحف ان فوما توشكوف اعتقل بسبب من محاولته اقتحام احد المنازل لسرقته .

تأثرت على الخصوص بقصة البنّاء أرداليون ، العامل الاكثر شيخوخة وبراعة فى مجمع بيوتر . هذا الرجل المرح الاسود اللحية الذى يغازل الاربعين من العمر جعلنى ، هو الآخر ، اتساءل فيمَ يكون بيوتر معلما بدلا منه . لم يكن يشرب الا فى النّدرى ، واذا شرب لا يثمل ابدا . وكان بارعا فى عمله ، يشتغل فى حميّة ، جاعلا القرميد يتطاير بين يديه مثل سرب من الحمام الاحمر . وكان بيوتر الصارم الملامح المتوعك البنية يبدو الى جانبه وكأنه لا شيء على الاطلاق . وكان مغرما بهذا القول :

– انا ابنى بيوتا قرميدية للآخرين كيما ابنى كفنا خشبيا لنفسى .

وكان أرداليون يصيح ، وهو يضع القرميد فى حيوية مرحة :

– هيا ، يا شباب ، ساعدونى ، فى سبيل مجد الله !

ويروى لهم كيف انه لينتوى الذهاب الى تومسك فى الربيع المقبل ، حيث وقع صهره عقدا لبناء كنيسة وعرض عليه العمل رئيسا للعمال . قال :

– لقد سوّيت جميع الامور . بناء الكنائس – هذا العمل احبّه !

والتفت ناحيتى :

– تعال معى . فالحياة رخية فى سيبيريا لمن يجيد القراءة والكتابة . يدفعون اجرا كبيرا للمتعلمين هناك .

وافقت على الذهاب ، فهتف أرداليون منتصرا :

– عظيم ! لكنك جاد ، ولست تمزح .

كان تصرفه حيال بيوتر وغريغورى وديا يمازجه شىء من شعور بالتفوّق مثلما يتصرف الكبار مع الصغار . وقال مخاطبا أوسيب :

– يا للمتبجّحين ! يطلعون بعضهم بعضا على كل ما يجول فى رؤوسهم ، كما لو كانوا يلعبون بالورق . يقول احدهم : انظر هنا ، يا للاوراق التى لدىّ ، ويقول الآخر : القِ نظرة خاطفة على هذه المجموعة الرابحة من الاوراق بين يدىّ !

فاجاب أوسيب اجابة مبهمة :

– لِمَ لا ؟ التبجّح شىء بشرى وحسب . جميع الفتيات يتباهين فى مشيتهن . . .

قال أرداليون مضطربا :

– هم يقولون الله هنا ، والله هناك ، ويدخرون المال طوال الوقت !

– لا تستطيع ان تقول لى ان غريغورى يدخر شيئا .

– انا اتحدث عن الآخر . فيمَ لا ينطلق الى الغابات ، الى الفلاة ، ويبقى مع الله ؟ يا الهى ، ولكننى سئمت من كل شيء هنا . فى الربيع سارحل الى سيبيريا . . .

وكان العمال الآخرون يقولون ، وقد نهشتهم الغيرة من أرداليون :

– لو كان لدينا من نعتمد عليه ، مثل صهرك هذا ، فلن تفزعنا سيبيريا فى شيء .

اختفى أرداليون على غير انتظار . غادر المعرض ذات يوم احد ، ومرّت ثلاثة ايام لم يعرف احدنا خلالها ماذا حدث له .

راحوا يخمنون فى شيء من الرهبة :

– لربما قتله احدهم ؟

– ربما ذهب يسبح وغرق .

وجاء ييفوموشكا اخيرا واعلن فى شيء من الخجل :

– لقد انغمس أرداليون فى اغتباق الشراب .

فصاح بيوتر فى ارتياب :

– هذا كذب !

– انه يغتبق الخمرة ، انه يسكر . لقد اشتعل دخانا ، مثل المتبن ، من قلبه بالضبط لكأن زوجته ماتت . . .

– لقد عاش ارملا فترة طويلة من حياته . اين هو ؟

انطلق بيوتر غاضبا لنجدة أرداليون ، ولكنه تلقى ضربة منه .

وكزّ أوسيب على شفتيه ، ودسّ يديه فى جيبيه ، واعلن :

– ساذهب لالقى نظرة بنفسى – ساستجلى السبب . فهو من نبعة طيبة .

وذهبتُ برفقته .

قال أوسيب ، ونحن فى الطريق :

– انظر الى هذا الزمان . رجل يعيش ، وبصورة جد محترمة ، ومن ثم على غير انتظار – يرفع ذنبه ويتهاوى فوق كومة من النفايات . ابقِ عينيك مفتوحتين ، يا مكسيميتش ، وخذ من هذا عبرة ودرسا !

وصلنا الى واحد من ارخص المواخير فى «مدينة ملاهى كونافينو» ،حيث التقينا عجوزا حذرة . همس أوسيب بعض كلمات فى اذنها فقادتنا الى غرفة صغيرة خاوية مظلمة قذرة فكأنها اسطبل . وكانت ثمة امرأة سمينة تتقلب فى نومها على سرير نقّال . دفعتها العجوز فى خاصرتها ، وقالت :

– انهضى ، هل تسمعين ؟ اخرجى ، ايتها العلجوم !

هبت المرأة مرعوبة ، وهى تفرك وجهها وتصيح :

– يا الهى ، ماذا جرى ، مَنْ هنا ؟

قال أوسيب فى وقار :

– جاء الشرطة السريون .

فاختفت المرأة لاهثة ، فبصق فى اثرها . واوضح قائلا :

– انهن يخفن رجال الشرطة السريين اكثر مما يخفن من الشيطان ذاته . . .

تناولت العجوز مرآة صغيرة عن الجدار ورفعت قطعة من ورق الجدران :

– الق ِ نظرة . أهذا هو ؟

فاسترقّ أوسيب النظر من خلال الثغرة .

– هذا هو . تخلصى من الفتاة . . .

القيت بدورى نظرة . كان ثمة قنديل يحترق على حافة نافذة اغلقت درفتاها الخشبيتان فى غرفة صغيرة قذرة تشبه غرفتنا . وبالقرب من القنديل تنتصب فتاة تتارية حولاء عارية تخيط قميصها الداخلى . وكان يبدو من ورائها وجه أرداليون المتورم ملقى على وسادتين ، ولحيته السوداء المتيبسة متوزعة فى جميع الاتجاهات . جفلت التتارية ، وسترت عريها بقميصها ، واجتازت السرير ، وظهرت فى غرفتنا فجأة .

شخص أوسيب اليها ، وبصق مرة اخرى :

– تفو ، ايتها الفاجرة الوقحة !

فاجابته ضاحكة بلغة ركيكة :

– انت احمق عجوز !

وضحك أوسيب بدوره وهزّ اصبعه فى وجهها .

دلفنا الى حجرة التتارية الصغيرة القذرة ، وجلس الشيخ عند قدمى أرداليون . حاول فترة طويلة ان يوقظه ، فى حين ظلّ أرداليون يتمتم :

– أوه ، حسنا . . . رويدك لحظة ، لسوف نذهب . . .

استيقظ اخيرا ، وحدّق فىّ وفى أوسيب بنظرات وحشية ، ثم اغلق عينيه الملتهبتين ، وجمجم :

– حسنا ؟ . .

استوضح أوسيب فى هدوء وحبور ، لكن من دون شىء من التوبيخ :

– ماذا حدث ؟

اوضح أرداليون ، وهو يسعل سعالا خشنا :
– اضعت رأسى .
– كيف ؟
– ببساطة مطلقة . . .
– يبدو الامر سيئا .
– اعرف . . .
تناول أرداليون زجاجة مفتوحة من الفودكا عن المنضدة وشرع يهرق محتواها فى حلقه ، ثم قدمها الى أوسيب :
– هل لك فى جرعة ؟ ينبغى ان يكون ههنا شىء يؤكل ايضا . . .
شرب الشيخ جرعة ، واكتأب ، وجعل يمضغ كسرة من الخبز فى هوادة ، فى حين راح أرداليون يتشدّق فى كلامه :
– أترى . . . لقد تصادقت وهذه الفتاة التتارية . انها فعلة ييفوموشكا . قال انها صبية . . . يتيمة من كازيموف – رغبت فى الذهاب الى المعرض .
عبر الجدار كانت ثمة كلمات طائشة تصل الى آذاننا يطلقها لسان متكسّر :
– التتارية هى المثلى ! اشبه بفروج صغير . تطرد الشيخ بعيدا . فهو ليس والدك .
تمتم أرداليون ، وهو يحدق فى الجدار بنظرة جوفاء :
– انها هناك . . .
قال أوسيب :
– لقد رأيتها .
التفت أرداليون الىّ :

– انظر الى ما ارتكبتُ ، يا اخى . . .

توقعت ان يشرع أوسيب فى تعنيف أرداليون ، او اسماعه موعظة ، وان على الاثمة أن يتوبوا . لكنّ شيئا من ذلك لم يقع . جلسا هنالك كتفا الى كتف ، يتبادلان ملحوظات مختصرة فى هدوء ورقة . كانت رؤيتهما هنالك فى تلك الحجرة الصغيرة المظلمة القذرة تبعث على الحزن . ظلت التتارية تتحدث بلكنة روسية مكسرة من خلال الثغرة فى الجدار ، ولكنهما تجاهلا وجودها . تناول أوسيب سمكة مجففة عن المنضدة وضربهـا على حذائه ، وجعل يقشرها . سأل :

– هل بدّدت اموالك جميعا ؟

– ان بيوتر يدين لى بقليل منه .

– يجب ان ترحل الى تومسك سريعا . هل تتدبر الامر الآن ؟

– لست واثقا بخصوص تومسك .

– لماذا ، هل بدلت رأيك ؟

– او لم يكن اقربائى من دعانى . . .

– ماذا ؟

– شقيقتى وزوجها . . .

– حسنا ؟

– لا يبعث على التسلية ان تعمل فى خدمة اقربائك . . .

– المستخدمون جميعا على شاكلـة واحدة ، اقرباء كانوا ام غير اقرباء .

– ومع ذلك . . .

جلسا هنالك يتحدثان فى نبرات ودية رزينة بحيث امتنعت

التتارية عن اغاظتهمـــا . دلفت الى الحجرة ، واخذت فى صمت ثوبها عن المسمار ، واختفت .

قال أوسيب :

– انها صبية .

نظر أرداليون اليه ، واعلن فى صوت ودود :

– كلها فعلة ييفوموشكا . انه لا يفكر فى غير النساء . . . الفتاة التتارية مرحـــــة حقا ، ولكنها تلغو بسخافات عـــلى الدوام . . .

حذّره أوسيب :

– احذر ، والا فشلت فى تدبير امورك . . .

وانصرف بعدما مضغ آخر لقمة من السمكة .

قلت له ونحن فى طريق الاوبة :

– لماذا جئت ؟

كرر أوسيب ما سبق له ان قال :

– جئت اطّلع على ما كان يحدث . فهو صديقى . لقد عرفت كثيرا من امثال هذه القضايا : المرء يعيش ، وعندئذ ، على غير انتظار ، يبدو وكأنه يهرب من سجن .

واسترسل قائلا :

– ابتعد عن الفودكا !

واضاف بعد لحظة :

– ولكن الحياة مملة من دونها !

– من دون الفودكا ؟

– اجل . ما ان تجرع جرعة حتى يخال اليك انك تعيش فى عالم آخر . . .

لم يعد فى مقدور أرداليون ان يدبر امره . فرجع بعد عدة ايام الى العمل ليختفى من جديد حيث اجتمعت به فى الربيع مع بعض المتشردين الآخرين يحطمون الجليد حول مركب لنقل البضائع فى النهر . كانت غبطتنا شديدة بلقاء بعضينا ، وانتقلنا الى الحانة لتناول الشاى .

تباهى ، وهو يشرب الشاى :

– أتذكر العامل الذى كنته ؟ ليس من ينكره ، فقد كنت بارعا فى عملى . وكان يمكن ان اجمع مئات الروبلات . . .

– ولكنك لم تجمع شيئا .

صاح متباهيا :

– طبيعى انى لم افعل . فانا لا اهتم بالعمل !

واطلق ريحا عاصفة جذبت انتباه رواد الحانة الينا .

– أتذكر ما اعتاد بيوتر ، ذلك اللص الهادئ ، ان يقول بخصوص العمل ؟ بيوت قرميدية للآخرين وتابوت خشبى لنفسك ! اليك هذا . هذا هو عملك !

قلت :

– بيوتر رجل مريض . وهو يخاف من الموت .

صاح أرداليون :

– وانا رجل مريض ايضا . روحى مريضة !

ايام الآحاد كنت اغادر مركز المدينة واهبط الى شارع الميليونايا حيث يعيش جميع المتشردين . ورأيت كيف غدا أرداليون سريعا واحدا من اولئك المنبوذين . قبيل سنة واحدة فحسب كان عاملا مرحا رصينا ، وهذا هو الآن يتحدث بصوت عال ، ويمشى مشية مترنحة ، ويلقى حواليه نظرات

غير هيّابة فكأنه يتحدى الجميع ان يخاصموه ويعاركوه .

كان يتفاخر قائلا :

– انظر فحسب كيف يصغى الناس الىّ . فانا قائد هنا .

لم يكن يوفر شيئا مما يكسب من مال ، فهو يستضيف المنبوذين ، ويشارك على الدوام فى الدفاع عن الخاسر . وغالبا ما كانوا يسمعونه يصيح :

– هذا غير عادل ، يا شباب ! يجب ان نتصرّف بصورة عادلة !

وهكذا اطلقوا عليه لقب «العادل» ، الامر الذى اهرق سرورا كبيرا فى قلبه .

حاولت ان افهم أولئك الناس المحشورين فى ذلك الكيس الحجرى فى ذلك الشارع القديم القذر . كانوا جميعا من اولئك الناس الذين انفصلوا عن المجرى الرئيسى للحياة ، ولكنه يبدو انهم خلقوا لانفسهم حياة خاصة ، حياة مرحة ومستقلة عن حياة الآخرين . كانوا شجعان لا يعرفون هما ، فذكرونى باقاصيص جدى عن عمال الجر على الفولغا ، اولئك الذين سرعان ما انقلبوا الى قطاع طرق او ناسكين . حين لا يكون لديهم عمل فهم لا يترددون فى القيام بسرقات طفيفة من مراكب النقل والمراكب التجارية ، ولم يكن عملهم هذا ليستفزنى على الاطلاق . كنت ارى ان الحياة مرفوّة بالسرقة فكأنها معطف قديم مرفوّ بخيط رمادى اللون ، ولكننى كنت ارى ايضا انه يحدث احيانا ، مثلما يحدث خلال الحريق ، او تحطيم الجليد على صفحة النهر ، او تحميل عاجل للمراكب ، ان اولئك الناس يشتغلون فى حماسة فائقة وتضحية عظيمة ، ولا

يوفرون شيئا من جهدهم على الاطلاق . وكانت حياتهم على العموم اكثر مرحا وسطوعا من حياة الناس الآخرين جميعا .

وحين لحظ أوسيب صداقتي لأرداليون قال لى بلهجة ابوية :

– اصغِ هنا ، يا بنىّ ، أفلا تراك اقمت صداقة حميمة مع اولئك من شارع الميليونايا هناك ؟ حذار من ان يلحقوا بك ضررا . . .

اوضحت له قدر طاقتى اننى احببت هؤلاء الناس ، المنطلقين فى الحياة دون ان يعرفوا هما ، ودون ان يقوموا باى عمل .

قاطعنى ضاحكا :

– احرار كالعصافير ! هذا بسبب من انهم كسالى لا يصلحون لشىء . فالعمل ، بالنسبة اليهم ، عقوبة !

– ليس فى عملنا فائدة ! «ليس هنالك من يبنى لنفسه قصرا من عمل شريف» ، على ما يقول المثل .

استشهدت بذلك المثل بصورة عفوية ، فلطالما سمعته وبدا لى صحيحا لا غبار عليه . ولكن أوسيب انفجر غاضبا ، وصاح :

– من يقول مثل هذه الاقوال ؟ الحمقى والكسالى ، ولا ينبغى عليك ان تصغى الى مثل هذا الهراء ، ايها الجرو الصغير ! وحدهم الحاسدون او الخائبون يتحدثون بمثل هذا اللغو . يحسن بك ان تنمى قليلا من الريش قبل ان تحاول الطيران ! أما بالنسبة الى صداقتك هذه فلسوف اخبر معلمك بها ، ولن تلومنّ غير نفسك عندئذ .

وقد اخبره . قال لى معلمى فى حضور أوسيب :

– ابعد عن الميليونايا ، يا بشكوف . فهم جميعا لصوص وعهرة فى ذلك الشارع الذى يقود مباشرة الى السجن او المستشفى . فابعد عنهم !

وشرعت اخفى حقيقة اننى زرت شارع الميليونايا ، لكننى ما اسرع ان كففت عن ذلك .

ذات يوم كنت اجلس وأرداليون وزميله الملقب «بالوليد» على سطح السقيفة فى باحة نزل . وكان «الوليد» يقدّم لنا حسابا مسليا حول كيف شقّ طريقه راجلا من روستوف على الدون الى موسكو . كان جنديا سابقا خدم فى سلاح الهندسة ، ونال وسام صليب القديس جورج واصيب بجرح فى ركبته خلال الحرب التركية جعله يعرج بقية حياته . كان قصيرا ممتلئ الجسم ، يملك قوة كبيرة فى يديه ، قوة لا تجد لها متنفسا باعتبار ان عرجه يمنعه عن العمل . وتناوشته بعض الامراض التى ساقطت شعره ولحيته بحيث غدا رأسه اصلع اجرد مثل رأس طفل مولود للتو .

كان يقول ، وفى عينيه الكهرمانيتين بريق :

– وهكذا وصلت الى سيربوخوف ، وهنالك رأيت كاهنا جالسا فى الساحة الخلفية ، فاتجهت اليه ، وقلت : هلاّ اعطيت قليلا من المال لبطل من ابطال الحرب التركية . . .

هزّ أرداليون رأسه ، وقال :

– أوه ، يا للكذاب ، يا للكذاب !

استفسر «الوليد» دون ان يغضب :

– لماذا كذاب ؟

واسترسل أرداليون فى نبرة توبيخية كسولة :

– ينبغى ان تحيا حياة مستقيمة . ينبغى ان تحصل على عمل كحارس ليلى ، مثل جميع الذين يعرجون ، ولكنك بدلا من ذلك تروح تطوف خلسة هنا وهنالك وتكذب . . .

– لقد فعلت ما فعلت على سبيل الفكاهة – كيما اثير ضحك الناس . . .

– يجب ان تضحك من نفسك .

دلفت الى الساحة المظلمة القذرة على الرغم من الشمس المشرقة امرأة اخذت تلوّح شيئا فوق رأسها ، وتنادى :

– انتنّ ، ايتها الفتيات ، من تريد ان تشترى تنورة !

وزحفت النساء من بين الشقوق فى المنازل وتجمهرن حول البائعة . عرفتها على الفور ، فقد كانت الغسالة ناتاليا . ولكن الوقت الذى استغرقته للوثوب عن السطح جعلها تتهيأ لمغادرة الساحة بعد ان باعت التنورة لاول امرأة عرضت فيها ثمنا .

صحت فى صوت مشرق ، وانا الحق بها خارج البوابة :

– مرحبا !

سألت ، وهى ترمقنى بنظرة جانبية من طرف عينها :

– أهذا كل ما تستطيع ان تقول ؟

وتوقفت فجأة ، وصاحت فى صوت غاضب :

– يا الهى ! ماذا تفعل هنا ؟

تأثرت وارتبكت من صيحتها المجفلة . فالخوف والدهشة مرسومان بوضوح على وجهها الذكى ، وتأكدت انها كانت

خائفة عليّ . شرحت لها فى عجلة اننى لا اقطن فى ذلك الشارع ، ولكننى جئت عرضا اجيل فيه نظرة .

كرّرت تقول فى خشونة ساخرة :

– تجيل فيه نظرة ؟ تنظر فى هذا المكان ؟ فى جيوب المارة وقمصان النساء ، أليس كذلك ؟

بدا وجهها ذابلا ، وشفتاها مسترخيتين ، وثمة دوائر سوداء تحت عينيها .

توقفت عند باب الحانة ،وقالت :

– ادخل نشرب قدحا من الشاى . فانت تلبس ثيابا نظيفة ، ولا تشبه هؤلاء الناس ، غير اننى لا اصدقك على كل حال . . .

وما ان دلفنا الى الحانة حتى لاح انها استردت ثقتها فىّ . صبت الشاى وانهمرت تروى فى اكتئاب كيف انها استيقظت من نومها قبل ساعة فحسب ، ولم تعثر على شىء تأكله او شىء تشربه .

– الليلة الماضية زحفت الى فراشى سكرى مثل سائق عربة ، ولكننى لا اذكر اين شربت او مع من شربت .

احسست بالاسف عليها والارتباك فى حضرتها ، ورغبت فى توق ان اسأل عن ابنتها . وبعدما رشفت قليلا من الشاى وجرعت قليلا من الفودكا اخذت تتحدث بالخشونة المشتركة بين جميع النساء فى ذلك الشارع . ولما استفسرتها عن ابنتها رصن حديثها على الفور ، وقالت :

– فيمَ تسأل ؟ أوه ، كلا ، يا صغيرى ، سوف لن تصل الى ابنتى ، ابدا طوال حياتك !

ونهلت جرعة اخرى ، واسترسلت :

– لم تعد لابنتى علاقة بى . فمن انا ؟ مجرد غسالة . واى صنف من الامهات انا بالنسبة الى امثالها ؟ هى متعلمة ومثقفة . وهذا شىء له قيمته ، يا اخى ! وهكذا تركتنى وذهبت تعيش مع احدى صديقاتها ، مع فتاة ميسورة الحال ، كيما تصير مربية للاطفال فيما يبدو . . .

وقالت فى عذوبة بعد صمت قصير :

– ليس هنالك من يجنى فائدة من غسالة . فربما يحتاجون الى بغى مومس ، ما ؟

خمّنت على الفور انها غدت بغيا – فجميع النسوة ههنا من البغايا . وجرحنى ان اسمع اليها تطلق ذلك اللقب على نفسها بحيث تفجرت عبرات الخجل والشفقة فى عينىّ . ورنّ الاعتراف بصورة مؤذية بالنسبة الىّ وخاصة انه على لسان ناتاليا ، هذه المرأة التى كانت قبل فترة قصيرة شجاعة ذكية متحررة !

نبرت ، وهى ترمقنى وتطلق زفرة :

– ايها الاحمق الصغير . اهرب من هنا ! وانا انصح لك ، اتوسل اليك ألا تعود مرة ثانية ! لسوف يكون فى ذلك دمارك !

انحنت من بعد على المنضدة ، ورسمت شيئا باصبعها على الصينية ، وشرعت تتحدث فى عذوبة وكلمات متفككة ، كمن يخاطب نفسه :

– ولكن ما اهمية نصيحتى بالنسبة اليك ؟ لو ان ابنتى تصغى الىّ . . . فقد اعتدت ان اقول لها : «لا يمكنك هجران

امك ! لا تستطيعين ذلـــــك !» ، وكانت تردّ عليّ : «اذن ساقتلنّ نفسى !» . وهكذا ارتحلت الى قازان - وقد عزمت ان تدرس التمريض . ذلــك حسن ورائــع . ولكن ، ماذا بشأنى ؟ . . أما بالنسبة الىّ ، حسنا ، فهأنذا . الى من يمكن ان الجأ ؟ الى الرجال الذين يعيشون فى هذا الشارع . . .

جلست هنالك غارقة فى افكارها ، تتحرك شفتاها من دون صوت ، جاهلة وجودى فيما يبدو . تهدلت زاويتا شفتيهـــا فجعلتا فمها اشبه بالهلال ، فآلمتنى رؤية التواء شفتيهـــا وارتعاش غضون ملامحها التى تتلو رسالة صامتة . كان وجهها مجروحا طفولى المظهر . وانسلت خصلة من شعرها من تحت شالها عن رأسها واستلقت على وجنتها وتجعّدت فيمـــا وراء اذنها الصغيرة . وسقطت عبرة فى قدح شايها البارد . فلمـــا لمحتها ابعدت القدح واغلقت عينيها فى احكام ، فعصرت عبرتين اخريين ، ومسحت وجهها باطراف شالها .

لم احتمل الجلوس اليها اكثر ممـــا فعلت ، فنهضت فى هدوء :

- وداعا !

قالت ، وقد اشارت الىّ ان ابتعد دون ان ترفع رأسها فخيّل الىّ انها نسيت على الارجح من اكون :

- ايه ؟ امضِ ، اذهب الى الشيطان !

رجعت الى الساحة ابحث عن أرداليون الذى اتفقت معه على الذهاب الى صيد السمك . اردت ان احدثه حديث المرأة ، ولكننى لم اعثر عليه او على «الوليد» على السطح . وفيما انا

ابحث عنهما فى الساحة المشوّشة سمعت ضجة صاخبة تنطلق من شجار مألوف فى ذلك الشارع .

خرجت من البوابة وكدت اصطدم بناتاليا . كانت تترنح متعثرة على طول الرصيف كمن فقد بصره ، تشهق وتمسح وجهها المرضوض بوشاحها باحدى يديها ، وتدفع شعرها الى الخلف باليد الاخرى وكان أرداليون و«الوليد» يدلفان وراءها .

صاح «الوليد» :

– فلنذقها اياها مرة اخرى ، هيا !

لحق أرداليون المرأة وهزّ قبضته امامها . فواجهته ، مشوّهة الوجه ، وعيناها تلتهبان حقدا .

صاحت :

– هيا ، اضربنى !

امسكت يد أرداليون ، فتطلّع الىّ مشدوها :

– ماذا اصابك ؟

لهثت فى صوت واهن :

– لا تلمسها .

فانفجر ضاحكا :

– من تكون ، خليلتك ؟ آه ، يا ناتاليا ، ايتها الحقيرة ، لقد تصيدّت كاهنا !

وقهقه «الوليد» ، وضرب خصريه بيديه ، وشرع الاثنان يوبخاننى معا بكلمات بذيئة . فاعطى ذلك ناتاليا فرصة للنجاة . وحين شعرت انى لم اعد اطيق صبرا القيت «الوليد»

على الارض بضربة من قبضتى حطت فى صدره ، واطلقت للريح ساقىّ .

بقيت فترة طويلة بعد ذلك بعيدا عن شارع الميليونايا ، ولكننى اجتمعت بأرداليون مرة اخرى – على ظهر معدّية هذه المرة .

قال ، مشرق الاسارير :

– مرحبا ، ماذا اصابك ؟

حين رويت له انى غضبت من الطريقة التى ضرب بهـــا ناتاليا واهاننى ، اطلق ضحكة ودية ، وقال :

– هل حسبت اننا قصدنا ذلك ؟ لقد اغظناك على سبيل السخرية فحسب . اما بالنسبة اليها – ففيم لانضربها ؟ انها مجرد بغىّ . اذا كان فى مقدور الرجل ان يضرب زوجتـــه ، ففيمَ يوفر فاحشة مثلها ؟ ولكننا كنا نمزح فحسب . القبضات لا تعلمك شيئا ، فانا اعرف هذا حقّ المعرفة .

– ماذا تحسب انك تستطيع ان تعلمهـــا ؟ فانت لست افضل منها .

القى ذراعه على كتفى ، وهزنى .

قال ، وهو يسخر :

– ذلك هو الشرّ فى هذا . ليس هنالك من هو افضل من غيره . انا استطيع رؤية هذا كله ، يا اخى – الامر كله ، داخله وخارجه . فانا لست واحدا من فلاحى قريتك الاجلاف .

كان سكران وضاء الملامح ، فحدّق فىّ فى لين ودود مثل معلم يدرّب تلميذا غبيا .

. . . كنت بين حين وحين التقى بافل أودينتسوف . كان اكثر حيوية منه قبلا ، يرتدى مثل شاب غندور ويعاملنى فى كياسة وتودّد . وقد عالننى مرة فى نبرة مستنكرة :

– فيمَ اتخذت مثل هذا العمل ؟ انت لن تعل الى اى مكان اذا رحت تعمل مع هؤلاء الفلاحين . . .

ثم قصّ علىّ فى حزن انباء المعمل :

– ما برح جيخاريف يعاشر السمينـــــة . ويبـــدو ان سيتانوف يتوق الى هذا الشيء او ذاك – فهو يعاقر الخمرة اكثر مما ينبغى . وقد اكلت الذئاب غوغوليف – كان ثمـــلا خلال وجوده فى البيت فى فترة الميلاد ، فمزقته الذئاب شرّ تمزيق .

وهدر بافل فى موجة عاصفة من الضحك ، وهو يطلـــق العنان لمخيلته :

– التهمته فسكرت بدورها ! فانطلقت مسرورة تسير فى الغابة على قائمتيها الخلفيتين مثل كلاب السيرك . وفى اليوم التالى سقطت مائتة !

ضحكت بدورى وانا اصغى اليـــه ، ولكننى تأكدت فى اعماقى ان المعمل وكل ما اهمنى فيه كان شيئا من الماضى . وكان ذلك يبعث على الحزن حقا .

١٩

حين اقبل الشتاء تعطلت اعمالى كلها تقريبـــا فى ارض المعرض . وفى البيت كان علىّ ان اقوم بذات الاعمال القديمة .

كانت هذه الاعمال تستنزف النهار بطوله ، أما فى العشيات فاكون حرا . وهكذا عدت اقرأ لاسيادى خلالها روايات منشورة فى «النيفا» و«كراسة موسكو» لم تكن تروقنى على الاطلاق . أما ساعات الليل فخصصتها لمطالعة الكتب القيمة ، ومحاولاتى فى نظم الشعر .

ذات يوم ، بعدما خرجت معلمتاى لحضور صلاة الغروب ، ولبث معلمى فى البيت بسبب مما يعانيه من بعض الاوجاع ، قال لى :

– فكتور يداوم المزاح ويقول انك تنظم اشعارا . فهل هذا صحيح ، يا بشكوف ؟ فلنسمعنّ شيئا مما تكتب !

لم اجرؤ على الرفض . انشدته بعض الاشعار التى يبدو انها لم ترق له . ولكنه قال :

– اكمل . اكمل . لعلك تصبح بوشكينا آخر . هل قرأت لبوشكين ؟

هل تتزوج الساحرات
ام يموت العفاريت ؟

– كان الناس فى عصره لا يبرحون يؤمنون بوجود العفاريت ، ولكننى لا اعتقد انه ، هو ، كان يؤمن بها – ولكنه كتب هذا من قبيل السخرية .

واكمل متمتما بنبرة تنمّ عن التفكير :

– اجل ، يا اخى . كان من الواجب ان تنال ثقافة ، ولكن الاوان فات الآن . وحده الشيطان يعلم ما كنت قد تصبح فى هذا العالم . خبئ دفترك عن عيون النسوة ، والا ما تركن

للراحة اليك سبيلا . النساء ، يا اخى ، مولعات بالسخرية من المرء !

كان معلمى ، منذ حين ، قد غدا كثير التفكير قليل الجلبة ، يرمق ما يحيط به بنظرات مرعوبة ، ويرتعش من رنين جرس الباب . وقد تثور ثائرته احيانا لاسباب تافهة ، فيزجر الجميع دون استثناء ، ويلوذ بالفرار من البيت ليعود فى ساعة جدّ متأخرة يتعتعه السكر . كان واضحا ان ثمة شيئا عكّر عليه مجرى حياته ، ومزّق شغاف قلبه على ما يلوح ، ولكن السرّ ظلّ دفينا بين طيات نفسه ، واستمرّ يعيش بتأثير من العادة وحدها .

اعتدت بعيد ظهيرة ايام الآحاد ان اقوم بنزهة حتى الساعة التاسعة ، ثم اعرّج على حانة فى شارع يامسكايا . كان صاحب الحانة غليظ الجسم يتصبب عرقا على الدوام ، شغوفا بالغناء . وكان المرتلون ، من سائر الكنائس تقريبا ، يعرفون ذلك فيه ، فيجتمعون عنده ، فيقدّم لهم الفودكا والجعة والشاى مكافأة عن اغنياتهم . والمرتلون جميعا ، على وجه التقريب ، مدمنون على السكر ، مبتذلون ، يسترسلون فى انشاد متواصل لا ذوق فيه ، ولا يبغون من ورائه غير جرّ مغنم . ولما كان المدمنون المتدينون يعتبرون ان الحانة ليست مكانا يليق بترديد مثل تلك الموسيقى ، فقد عمد صاحب الحانة الى دعوة المنشدين احيانا الى غرفته الخاصة . وما كنت اسمع ذلك الا بالاصغاء من وراء الباب .

وفى احيان كثيرة كان الحرفيون والفلاحون من القرية يمثلون فى الحانة لان صاحبها يمضى بنفسه الى المدينة سعيا

وراء المغنين ، باحثا عن ذوى الاصوات الجميلة بين القرويين القادمين من جهات مختلفة مجاورة فى ايام الاسواق ، ويدعوهم الى زيارته .

وكان المغنى الجديد يُعطَى مقعدا قرب المشرب امام برميل الفودكا ، وترتسم صورة رأسه على جدار البرميل وكأنها محاطة باطار .

كان كليتشوف المغنى الافضل ، وهو سرّاج صغير نحيل العود يختزن كمية غريبة من الاغنيات الجيدة . كانت هيئته تشبه الورقة الذاوية ، وخصل شعره حمراء ، وانفه لماع كأنه انف ميت ، وعيناه صغيرتين خاملتين لا تتحركان فى وقبيهما .

كان يغمضهما احيانا ، ويريح رأسه على بطن البرميل ، وينفخ صدره ، ويشرع فى الغناء بنبرات سريعة مجلجلة :

تراخى الضبابُ فغطى السهول
وضاعَ الطريقُ . . وضاع الاثرْ . . .

وكان ينهض ويتكئ على المشرب ، ويدفع رأسه الى الخلف ، ويسترسل فى الغناء وقد شخصت عيناه نحو السقف :

الى اين امضى ، وكيف انا
ألاقى طريقى والمنحدرْ ؟

كان صوته ضعيفا ، ولكنه جلىّ واضح النبرة ، فيهيمن على ما فى الحانة من جلبة سوداء مبهمة كأنه شعاع فضى ، ولا تبقى روح واحدة تصمد فى وجه كلمات الموسيقى الشجية

ونبراتها العاطفية . ويغدو السكارى انفسهم خاشعين ، غارقين في تأملاتهم ، شاخصين في صمت الى المنضدة امامهم . واشعر انا ان قلبى سيتحطم ويطفح عاطفة جياشة تتدفق على الدوام حين تمسّ الموسيقى الرائعة اعماق الروح .

ويسود الحانة سكون رهيب يشبه سكون الكنيسة ، ويبدو لى المغنى وكأنه كاهن صالح وقور ، لا يعظ الناس وعظا بل يصلى بكل جوارحه من اجل البشرية جمعاء ، ويفكر بصوت جهورى فى سائر ما يعتور الحياة البشرية المسكينة من بؤس وشقاء . ومن كل صوب يشخص اليه هؤلاء الرجال الملتحون وعيونهم الطفولية تطرف متأملة فى وجوههم الوحشية . وفى بعض الاحايين يرسل احدهم زفرة عميقة تعبر عن ظفر قوة الغناء وانتصاره . فى هذه الاوقات يخال لى دائما ان هؤلاء الناس جميعا قضوا حياة بهيمية يائسة مزيفة ، فى حين ان الحياة الحقيقية — آه ، ها هى هنا !

فى احدى الزوايا جلست ليزوخا السمينة الوجه ، وهى امرأة متهتكة تنغمس فى حمأة الفجور . امالت رأسها بين كتفيها العريضين وانهمرت تبكى ، فراحت عبراتها المترعة تغسل عينيها الوقحتين . وفى مكان لا يبعد عنها كثيرا انبطح متروبولسكى المنشد فى الكورس ، وهو عملاق اهلب متجهم الوجه صوته جهير الجرس لا يسبر له غور ، وعيناه ضخمتان فى وجهه المتبلّد — انه يشبه كاهنا مطرودا من الكنيسة . كان يحملق فى قدح الفودكا على المنضدة امامه ، ويلتقطه ، ويرفعه الى شفتيه ، ويرجعه الى مكانه دون ان يمسَه ودون ضجة وفى حذر شديد ، فلم يعد فى مقدوره ان يشرب .

كان كل مَنْ في الحانة منكمشا على نفسه وكأنهم جميعا يرهفون السمع الى شيء عفى عليه النسيان منذ زمن بعيد ، شيء قريب وعزيز على قلوبهم .

واذا فرغ كليتشوف من انشودته غرق في مقعده متواضعا ، فيقدم له صاحب الحانة قدح فودكا ويقول ، وهو يبسم راضيا ممتنا :

– عمل رائع ، من دون ريب ! رغم انك تنشد قصة وليس اغنية ، في الحقيقة أنك فنان ، وهذه حقيقة لا يستطيعنّ احد انكارها !

ويفرغ كليتشوف فودكاه دونما اسراع ، ويسعل ، ويقول في عذوبة :

– في مقدور كل امرئ ان يغني ان كان صوته جميلا ، وانا وحدي من في وسعه الافصاح عن روح الاغنية !

– لا تفاخر بنفسك الآونة !

فيردّ المغني بالعذوبة ذاتها ، لكن في عناد اشد :

– فليمسكنّ لسانه ذلك الذي ليس لديه شيء يفاخر به الناس !

ويهتف صاحب الحانة في شيء من التبرّم :

– انت مزهوّ بنفسك ، يا كليتشوف !

– انا ازهو بمقدار روحي ، ولا اتسامى اكثر من ذلك .

ويزمجر متروبولسكي من حيث جلس في الزاوية :

– كيف يمكن ان تمتدحوا غناء هذا الملاك القبيح ، ايتها الحشرات ، ايتها الاشياء الزاحفة ؟

كان على اختلاف دائم مع الجميع ، يخاصمهم ، ويلصق

التهم بهم ، الامر الذى يتلقى عنه فى كل يوم احد تقريبا ما يستحق من عقاب على ايدى المغنين وغيرهم ممن يوسعونـــه ضربا .

فصاحب الحانة شغوف باغانى كليتشوف ، ولكنه لا يطيق الرجل نفسه . فهو يضيق به ذرعا ، ويتحامل عليه ما سنحت له الفرص ، ويسعى بصورة مكشوفـــة الى الحط من قدره وجعله هزأة لمن يهزأون ، وجميع رواد الحانة وكليتشوف نفسه يستشعرون ذلك ويعرفونه .

كان صاحب الحانة يعبّر عن رأيه دائما :

– انه من المغنين الناجحين ، ولكنه كثير التبجح . يجب ان نسعى الى تهذيب طباعه .

ويوافق رواده على قوله :

– لا مراء . انه فتى متبجح !

ويصرّ صاحب الحانة :

– وماذا لديه يتبجح به ! الله اعطاه الصوت – وهو لم يصنعه بنفسه . وليس صوته عظيما مع ذلك .

ويردد الجمهور :

– حقا ، ان نبوغه اقوى من صوته . . .

حدث ذات يوم بعد انصراف المغنى ، وقد ارهقه التعب ، ان بدأ صاحب الحانة يلتمس ليزوخا قائلا :

– يجب عليك ، يا ماريا ييفدوكيموفنا ، ان تعبثى به – ان تغازليه قليلا ، ها ؟ هذا لن يصعب عليك كثيرا !

فاجابت المرأة ، وقد اطلقت ضحكة قصيرة :

– لو كنت اصغر سنا .

فردّ صاحب الحانة بحماسة يستحثها :

– فيمَ ينفع الصبايا ؟ انت من تفعلين ذلك ! يفرح قلبى حينما يراه يهوّم حواليك ! اطلقى أوجاع فؤاده ! أفلن يجيد الغناء عندئذ ؟ حاولى ، يا ييفدوكيموفنا ، واكون لك شاكرا ممتنا !

ولكنها رفضت . كانت تبقى جالسة هنالـــك ، كبيرة سمينة ، وقد ارخت اجفانها ، وجعلت تلعب باهداب شالها ، وتردّد فى صوت رتيب متراخ :

– انت فى حاجة الى من هى اكثر صبى منــــى . لو كنت اصغر سنا لما ترددت فى ذلك .

ظل صاحب الحانة يسعى على الدوام ان يجعل كليتشوف يسكر ، ولكن هذا لا يلبث بعد ان ينشد مقطوعتين او ثلاثا ، ويحتسى عن كل اغنية قدحا من الشراب ، ان يلفّ رقبته فى عناية بالغة بشال صوفى ، ويشدّ قبعته على رأسه الاشعث ، وينصرف .

فى كثير من الاحيان كان صاحب الحانة يعثر على منافسين لكليتشوف ، وفى هذه المناسبات ، وبعدما يفرغ السرّاج من غنائه ويتلقى المديح الذى يكال له ، يضيف صاحب الحانة فى تهلل مندفع :

– بهذه المناسبة فان لدينا اليوم صوتا جميلا آخر هنا . تعال اقترب ، ايها الصديق . . كن لطيفا ! فنحن نتوق الى سماع صوتك !

ويحدث احيانا ان المغنى الجديد يتمتع بصوت عذب ،

ولكنى لا اذكر احدا من منافسى كليتشوف قيّض له ان يغنى بمثل بساطة هذا السرّاج الصغير وعاطفته .
ويتمتم صاحب الحانة فى شيء من الاسف :
– هِمْ ، لا بأس به ، حقا ! انت تملك صوتا ، أمـا الروح . . .
ويضحك الجميع :
– يبدو انه ليس فى مقدور احد ان يتغلّب على السرّاج !
ويدير كليتشوف فى الحاضرين نظرة فاحصـة من تحت حاجبيه الاحمرين الكثيفين ، ويخاطب صاحب الحانـة بنبرة هادئة تنمّ عن ادب جمّ :
– انت تذهب بوقتك ادراج الرياح ، فلن تجد من يتفوّق علىّ بين المغنين ، لان قدرتى هبة من عند الله . . .
– كلنا جئنا من عند الله !
– لن تجد لى مثيلا ولو هدرت جميع ما فى محلك مـن خمور .
ويزحف على وجه صاحب الحانة تورّد داكن ، ويجمجم :
– سنرى هذا الموضوع ، سنرى . . .
ويزيد كليتشوف ملحا :
– الغناء ليس من قبيل مصارعة الديكة الذى تثيره ، كما تعلم . . .
– من تراك تعطى دروسا ؟
– انا لا اعطى دروسا ، بل انا ابين لك : الغناء نبعته الروح .
– كفاك هذرا ! واسمعنا اغنية بدلا منه .

ويوافق كليتشوف على طلبه :

– انا لا احجم عن الغناء حتى ولو كنت نائما . . .

ويسعل سعلة خفيفة ، ويبدأ يغني .

كل صغائر الامور ، وكل دناءة الكلمات ، وكل ما في الحانة من سخافة وابتذال يزول ويمحّى سريعا كالدخان كأنما بفعل نفحة عجائبية . وتهبّ على الحاضرين نفحة طازجة من حياة من صنف جديد ، حياة نقية سمحاء تحمل بين طياتها روح المحبة والاسى .

كنت احسد هذا الرجل ، احسده من جماع قلبي على نبوغه ومقدرته في السيطرة على الآخرين ، والطريقة الرائعة التي يستخدم فيها تلك المقدرة . وددت لو اقيم بيني وبين هذا السرّاج اواصر صداقة ، واتحدث معه عن كل شيء ، ولكنني لم اجد الجرأة على الاقتراب منه ، فما اغرب اسلوبه في التطلع حواليه بعينيه الشاحبتين وكأنه لا يبصر احدا امامه . ان فيه شيئا ينفرني ، ورغم ذلك تمنيت ان ابدي له عجبي حتى حين لا يغني . كان له اسلوب منفر حين يشدّ قبعته على اذنيه مثل شيخ هرم ، ويلف متفاخرا رقبته بشال احمر اللون ، ويقول :

– حبيبة قلبي حبكته لي – سيدة في ريعان الشباب . . .

حين لم يكن يغني ترتسم على محياه علائم للكبرياء والعظمة ، ويحكّ انفه المتجلد ولا يردّ على نداء الآخرين الا تكلفا وبعبارات مقتضبة . وحين مكثت مرة الى جانبه وسألته عن شيء اجاب دون ان يتنازل فيلتفت اليّ :

– اذهب عني ، ايها الصبي !

كان متروبولسكى اقرب الى قلبى . فاذا وفد على الحانة مشى صوب احدى الزوايا بخطوات من تثقله الاعباء ، وازاح كرسيا بقدمه ، وجلس ومرفقاه على المنضدة ، ورأسه الضخم المشعث الشعر مسند الى كفيه . ويجرع فى صمت قدحين او ثلاثة من الفودكا ، ويطقطق بشفتيه فى صوت عال يجفل منه الجميع ويلتفتون اليه ، فيرميهم بنظرات مثيرة وذقنه بين يديه ، وقد تساقطت على وجهه المتورّم خصلة من شعره المتناثر .

ويقول بغتة مستفهما فى صوت رنان :

– الى ماذا تنظرون ؟ ماذا ترون ؟

وقد يجيبونه احيانا :

– اننا نرى الشيطان !

كانت هنالك عشيات يشرب الخمرة فيها دون ان يتلفظ بكلمة ، وينصرف دون ان يفتح فمه مجررا اقدامه المتثاقلة . وسمعته مرات عديدة يعنف الناس وينهاهم على طريقة الانبياء :

– انا خادم الله الامين ، واندّد بكم مثل أشعيا النبى القديم . الويل لمدينة أريول فان اللصوص والزناة جعلوا منها موطنا لهم غارقين فى حمأة شهواتهم الدنيئة ! الويل لسفينة الارض المبحرة على الطرق البحرية فى العالم محملة بالملوّثين الذين هم انتم ، انتم ايها السكارى والنهمون ، انتم حثالة هذا العالم ! جمعكم غفير غفير ، ايها الملعونون ، وستلفظ الارض بقاياكم !

كان رنين صوته يهزّ زجاج النوافذ ، الامر الذى يهرق

الغبطة فى افئدة مستمعيه ويجعلهم يغنون مدائحه :

– أفلا يحسن الهجوم هذا الشيطان الشيخ الاشعث ؟

كان توثيق الصلات معه امرا سهلا – يكفيك ان تقدم له كأسا فتتعرف اليه . كان يطلب زجاجة فودكا وشطيرة من كبد الثور مع التوابل ، وهو طعامه المفضل لانه يلسع الفم والاحشاء . وحين طلبت اليه ان يرشدنى الى الكتب التى يجدر بى مطالعتها اجابنى على الفور بطرح سؤال آخر :

– فيمَ يجب ان تقرأ ؟

واعذبَ نبرة صوته حين اجفلنى سؤاله ، فاردف مغمغما :

– أقرأت كتبا عن الكهنوت ؟

– نعم .

– أعد قراءتها . هذا كل شيء . فهى تضمّ حكمة الاولين والآخرين . ولكن رؤوسكم المربعة لا تفهمها ، اعنى انه لا يوجد من يفهمها . من انت ؟ مغن ؟

– كلا .

– لِمَ كلا ؟ يجب عليك ان تغنى . انها المهنة الاكثر سخافة بين المهن .

قال رجل على المائدة الاخرى :

– وماذا عنك – أفلستَ مغنيا ؟

– انا ؟ انا شريد . حسنا ؟

– لا شيء .

– من دون ريب . فالجميع يعرفون انه ليس هنالك شيء فى قبّة جسدك . وسوف لن يكون فيها شيء . آمين !

كان يستخدم هذا الاسلوب فى الحديث حتى معى ، رغم انى بعدما دعوته مرتين او ثلاث مرات غدا اكثر رقة فى معاملتى ، حتى انه قال يوما فى شيء من الانشداه :

– كلما نظرت اليك احاول ان افهم من تكون ، وماذا تكون ، ولماذا ؟ وفى مقدورك ان تمضى الى الشيطان ، فلست ابالى !

لم استطع ان اتبيّن موقفه من كليتشوف . كان يصغى الى غنائه فى نشوة واضحة ، واحيانا فى ابتسامة ودية ، لكن من دون ان يسعى الى التعرّف اليه ، بل يتحدث عنه فى فظاظة واحتقار :

– انه مهرج ! يجيد التنفس ويدرك ما يغنى ، ولكنه مع ذلك حمار !

– لماذا ؟

– لانه ولد حمارا .

كنت ارغب فى مخاطبته وهو صاح ، ولكنه لا يزيد فى تلك اللحظات عن ان يجأر بصوت عريض وهو يرنو الى الناس بعينين غائمتين بائستين . وفهمت من احدهم ان هذا الانسان ، السكران دائما وابدا ، انهى دروسه فى أكاديمية قازان واوشك ان يغدو اسقفا . لم اصدق تلك القصة بادئ الامر ، ولكننى ذات يوم ، وأنا احادثه ، اتيت عرضا على ذكر اسم الاسقف كريسانت .

قال متروبولسكى ، وهو يهزّ رأسه :

– كريسانت ؟ لقد عرفته . كان معلمى وحامىّ . حدث ذلك فى قازان ، فى الاكاديمية – على ما اذكر . وكريسانت تعنى

«الوردة الذهبية» على ما اوضح بامفا بيريندا بصدق . ولقد كان حقا من الذهب ، كريسانت هذا !

استوضحت :

– ومن هو بامفا بيريندا ؟

فاجاب متروبولسكى فى فظاظة مقتضبة :

– ليس هذا من شأنك .

حينما وصلت الى البيت دوّنت فى مذكرتى : «لا بد من قراءة بامفا بيريندا» . وقد تكوّن لدىّ ، لسبب من الاسباب ، فكرة تقول ان بيريندا سوف يجيب عن جميع الاسئلة التى تعذب روحى .

كان المنشد فى الكورس يحب ان يستخدم اسماء شاذة وخليطا غير عادى من الكلمات . وكان ذلك يضايقنى .

قال مرة :

– الحياة ليست أنيسيا .

فسألت :

– ومن تكون أنيسيا ؟

اجاب ، وقد اضحكه ارتباكى :

– واحدة من الناس .

كان استخدام مثل هذه الكلمات وحقيقة انه درس فى الأكاديمية قد قادانى الى التفكير انه يختزن كمية كبيرة من المعرفة ، وكان يغيظنى انه يضطر الى الحديث على مضض وفى كثير من التلغيز . لربما لم افقه كيف اتقرّب منه .

ورغم ذلك ترك اثره فى روحى . كنت احب جرأة تحذيراته المخمورة المصاغة على غرار اسلوب أشعيا النبى .

كان يزمجر :

– آه ، يا بذاءة الارض ونتانتها ! الآونة يمجّد الشرير ويدمّر الصالح . لكن ما اسرع ان يحين اوان يوم الدينونة ، وعندها يكون الاوان قد فات ، قد فات تماما !

حينما كنت اسمع هذه الصيحة اليائسة اتذكر «هذا رائع» والغسالة ناتاليا التى حكم عليها باخفاق مهين ، والملكة مارغو المكللة بسحب من الاشاعات القذرة . فلقد كانت لدىّ اشياء كثيرة اتذكرها ! . .

غير ان اواصر معرفتى القصيرة بمتروبولسكى انفصمت بصورة غريبة .

صادفته يوما من ايام الربيع فى الحقول ، قرب معسكر للجنود . كان يسير وحيدا ، منتفخا ، يهزّ رأسه مثل الجمل . سأل فى صوت اجش :

– تستنشق الهواء ؟ فلنفعلنّ ذلك معا . فانا اتنزه ايضا . وانا رجل مريض ، يا صديقى ، مريض حقا .

مشينا بضع خطوات يرين علينا الصمت ، فعثرنا بغتة على رجل فى اعماق حفرة . كان منبطحا على جانبه يتكئ على جدار ، وقد رفع معطفه من جهة واحدة الى ما فوق اذنه فكأنه حاول ان يخلعه .

قرر المنشد فى الكورس ، وقد توقف عن سيره يلقى نظرة :

– انه سكران !

غير اننى ابصرت على العشب الفتى غير بعيد عن الرجل مسدسا كبيرا وقبعة وزجاجة فودكا لم تنقص الا قليلا تكاد

تبرز بين الاعشاب . كان وجه الرجل مدفونا فى ياقة معطفه فكأنه خجلان .

لبثنا هنيهة صامتين ، ولكن متروبولسكى وتّد قدميه فى الارض مباعدا ما بينهما ، واعلن :

— لقد انتحر !

ادركت على الفور ان الرجل لم يكن سكران بل هو ميت ، ولكننى لم اصدق عينىّ لهول المفاجأة . واذكر اننى لم اشعر آنئذ بخوف او اشفاق وانا انظر الى هذه الجمجمة الضخمة الملساء والاذن الزرقاء الباديتين من تحت ياقة المعطف . لم اصدّق ان انسانا يستطيع ان يقدم على الانتحار فى مثل هذا اليوم الربيعى الساحر .

فرك متروبولسكى خديه المنتفخين بسرعة كأنه مصاب ببرد شديد ، وقال بصوته الاجش :

— رجل هرم . قد تكون زوجته هجرته ، او انه وقع فى صعوبات مالية . . .

ارسلنى الى المدينة لاحضر شرطيا ، واقام هو على طرف الحفرة ، وقدماه متراخيتان فوقها ، وقد لفّ كتفيه بمعطفه المهلهل . وما ان اخبرت الشرطى بحادث الانتحار حتى عدت ادراجى عاجلا ، ولكن المنشد فى هذه الفترة تجرّع ما فى زجاجة المنتحر من فودكا ، واستقبلنى ملوحا بالزجاجة الفارغة فى الهواء .

جأر صارخا :

— هذا كان سبب خرابه !

ورمى الزجاجة على الارض فى غضب وهياج ، فتحطمت قطعا متناثرة .

جاء الشرطى يركض فى اثرى ، والقى نظرة خاطفة عـــلى الحفرة ، وخلع قبعته ، ورسم اشارة الصليب مترددا ، ثم التفت الى المنشد :

– من انت ؟

– هذا لا يعنيك .

فكر الشرطى برهة واستدرك متأدبا :

– ما معنى هذا – رجـــل ميت مضطجـــع هناك وانت سكران . . .

فقال المنشد متباهيا ، وهو يدقّ صدره :

– منذ عشرين سنة وانا سكران !

كنت واثقا انهم سيلقون القبض عليه لاقدامه على احتساء الفودكا . وكان بعض الناس قد هرولوا من المدينة ، واقبل مفوض شرطة قاسى الملامح فى عربة ، فنزل الى الحفرة ورفع ياقة معطف المنتحر ، واطال النظر فى وجهه .

– من كان اول من شاهده ؟

فقال متروبولسكى :

– انا .

القى عليه مفوض الشرطة نظرة سريعة ، وتمتم فجأة وقد شابت كلماته نبرة تهديد :

– آه ، ما اسعدنى برؤيتك ، يا رجلى الرائع !

تجمع المستطلعون ، وكانوا حوالى خمســـة عشر رجلا

وأخذوا ينظرون الى الحفرة لاهثين ، مهتاجين ، يزاحم بعضهم بعضا حول حافتها . وهتف احدهم :

– انه موظف يقطن فى شارعنا . وانا اعرفه !

كان المنشد واقفا امام المفوض عارى الرأس ، يحاوره ويناقشه بكلمات مبحوحة لا يفهم لها معنى . دفعه المفوض فى صدره ، فتهادى المنشد وترنّح وهوى الى الارض ، فاخرج الشرطى على مهلة من جيبه حبلا شدّ به وثاق المنشد الذى مدّ يديه وراء ظهره فى حركة طبيعية مألوفة . وصاح المفوض بالمتجمهرين متذمرا :

– انصرفوا من هنا ، ايها الاوغاد !

واقبل شرطى آخر احمر العينين الدامعتين راكضا ، وقد انفغر فمه من شدة تعبه ، وامسك بطرفى الحبل الذى يقيد يدىّ المنشد ، وقاده متمهلا صوب المدينة .

وانصرفت انا من الحقل ثائر النفس مروّع الخاطر . وظلت ذاكرتى ترجّع تلك الكلمات مثل نعيب غراب قاس :

«الويل لمدينة أريول !»

لم استطع ان احرّر فكرى من تلك الصورة الحزينة لشرطى يخرج فى تؤدة من جيبه حبلا ، فى حين مدّ النبى المتجهّم يديه الحمراوين المكسوتين بالشعر فى خنوع وراء ظهره وكأنه يكرّر هذه الحركة للمرة الالف . . .

علمت بعد ايام قليلة ان النبى نفى من المدينة ، ولم تمض فترة طويلة حتى اختفى كليتشوف عن الانظار بدوره . فقد تزوج زواجا سعيدا ، ورحل ليعيش فى الريف حيث افتتح محلا لصنع السروج .

. . . قبيل رحيله خاطبني معلمي ، وكنت قد امتدحت امامه كثيرا غناء ذلك السرّاج ، قائلا :

– ينبغي ان اذهب الى الحانة للاصغاء اليه .

وهذا ما فعله مرة ، فجلس الى منضدة قبالتي ، وقد اتسعت عيناه ، وارتفع حاجباه دهشة .

كان يغيظني طوال الطريق الى الحانة ، ولم تفتر سخريته حتى بعد دخولنا اليها ، كما انه هزئ بالحاضرين جميعا وبالروائح الكريهة . وحين شرع السراج بالغناء ارتسمت على صفحة وجهه ابتسامة استخفاف ، وجعل يصب لنفسه قدحا من الجعة . وما اسرع ان توقف على حين غرة ، وقال :

– هه ! . . يا له من شيطان !

واعاد الزجاجة الى مكانها في هدوء ، وبيد مرتعشة ، وقعد يصغي بانتباه .

قال متنهدا حين انتهى كليتشوف من غنائه :

– انت على حق ، يا اخي . فهو يعرف كيف يغني ، لعنة الله عليه ! لقد جعلني اعرق .

وغنى السراج مرة اخرى ، وقد طوح رأسه الى الخلف ، وعيناه شاخصتان الى السقف :

على الدرب مرت فتاة خجول
تطير هربا من الاثرياء

جمجم معلمي ، وقد اطلق ضحكة قصيرة وهز رأسه :

– اجل ، انه يجيد الغناء !

واسترسل كليتشوف شاديا مثل المزمار :

تجيبه الفتاة
يتيمة انا ، لا احد يحتاج الىّ

همس معلمي ، وهو يطرف بعينيه المحمرتين :
– انه روعة ! لعنة الله على ذلك ! انه طرفة !
راقبته وقد افعمت الغبطة جوانحى ، فى حين راحت كلمات الاغنية الحزينة تتسامى منتصرة فوق صخب الحانة وضجيجها ، وتزداد قوة ، وروعة ، وحنانا :

اعيش انا . . . لا خليل لدىّ
ولا لي حبيب ولا لي رفيق
ولا من يطلّ هناك عليّ ،
ولا يطرق الباب يوما صديق
ارادوا زواجى من ارملٍ
وهذا المصير . . . اترضاه لي ؟

بكى معلمى دون ان يشعر بشيء من الخزى . جلس وقد احنى رأسه ، وجعل يشهق بصوت مرتفع ، تاركا الدموع تتساقط على ركبتيه .
قال لى بعد الاغنية الثالثة ، وقد اضطرب انفعالا :
– لم اعد اطيق البقاء هنا – فليس ثمة هواء – وهذه الروائح الكريهة – هيا نعود الى البيت !
وما ان بلغنا الشارع حتى بدل رأيه :
– اخذ الشيطان ذلك كلـــه ، يا بشكوف ! فلنقصدن الفندق ونصيبنّ شيئا نأكله ! لا اشعر برغبة فى العودة الى البيت !

تسلق زلاجة دون ان يساوم على الاجر ، وجلس صامتا الى ان وصلنا الى الفندق ، حيث جلس الى منضدة فى احدى الزوايـــــا وشرع يتحدث على الفور فى صوت هادئ ، وهو يختلس حواليه نظرات اثارها شيء من الاذية العميقة :

— لقد هد كيانى ذلك التيس العجوز — واثار فى نفسى افكارا سوداء قاتمة . اصغ ، فأنت تقرأ كثيرا وتفكر فى الامور كثيرا — كيف تستطيع ان تفسر ذلك ، وحق الشيطان ؟ ههنا ظللت اعيش ، سنة بعد سنة ، مع زوجتى واولادى ، غير اننى لم اعتد على من اخاطبه . تمر بى لحظات يخال لي فيها اننى سأخرق نفسى امام اى كان ، واروى له جميع ما ينبغى ان يروى ، و . . . لكننى لا اجد من اخاطبه . اذا انت رحت تخاطبها — زوجتك — فهى لا تدرك ما تقول . فما يعنيها من ذلك الموضوع ؟ فان لها بيتها ، واولادها ، ومشاكلها . انها بعيدة عن نفسى . تبقى زوجتك صديقتك حتى يطل طفلها الاول على الوجود . . . هذه هى الامور . وعلى وجه العموم ، فان زوجتى — حسنا ، انت تستطيع ان ترى ذلك بنفسك — فلا مجال للمزاح معها — انها عبارة عن كتلة من اللحم ، عليها اللعنة ! اه ، يا اخى ، للآلام فى القلب !

جرع فى عصبية الجعة الباردة المريرة وبقـــى معتصمـــا بالصمت وهو يماوج شعره الطويل الى ان اردف قائلا :

— الناس على العموم ، يا اخى ، انذال اوغاد . رأيتك تحب الحديث الى اولئـــك العمال — حول هذا الموضوع او ذاك ، وانا اعرف حق المعرفـــة ما فى هذه الامور من خطأ ، ومقدار ما هى عليه من عفونة — هذا صحيح ، يا اخى . جميع

اولئك الرجال لصوص . فهل تظنن ان كلماتك تمس قلوبهم؟ ابدا على الاطلاق ! بيوتر واوسيب وغيرهم . . . فهم يجيئون الى ينقلون كل ما تقول لهم – حتى ولو كان الحديث عنى . حسنا ، ما رأيك فى ذلك ؟

لزمت الصمت وقد انبهرت انفاسى .

قال معلمى ، وهو يضحك ضحكة مبتسرة :

– هكذا هى الامور ! تلك كانت فكرة طيبة خطرت لك – ان تذهب الى بلاد فارس . على اقل تقدير فأنت لا تفهم ما يقوله الناس هناك –فلغتهم لغة اجنبية . اما فى لغتك الاصلية ، فليس ثمة غير الوحل . .

سألت :

– هل ينقل اوسيب اليك ما اقول ؟

– طبعا . هل يدهشك ذلك ؟ انه ينقل الى اكثر مما ينقله الاخرون جميعا ، فهو ثرثار . انه ثعلب ماكر ، يا اخى . كلا ، يا بشكوف ، فالكلمات لا تمس قلوب الناس . الحقيقة ؟ من تراه ينبغى ان يسمع الحقيقة ، وحق الجحيم ؟ انها تشبه الثلج فى الخريف – تساقط على الوحل والطين . فلا تزيد الطين الا بلة . يحسن بك ان تمسك لسانك . . .

كان يجرع الجعة ، قدحا بعد قدح ، ويتحدث بلكنة سريعة وحماسة متزايدة دون ان ينال منه السكر .

– يقول المثل : الكلام من فضة والسكوت من ذهب . آه يا اخى – انها حياة حزينة ووحيدة ! وصحيح ما انشده المغنى : ولا لي حبيب ولا لي صديق . . .

القى نظرة حواليه ، وخفض صوته :

– كنت عثرت على روح لطيفـــة قبل فترة قصيرة من الزمن – اجتمعت بامرأة هنا ، ارملة – حكم زوجها بالنفى الى سيبيريا بسبب تزييفه نقودا – وهو لا يبرح هنا فى السجن. حسنا ، تعرفت اليها – ولم يكن لديها كوبيك واحد لحسابها الخاص – وهكذا قررت – كما تعلم . . . كانت واسطـــة التعارف بيننا وسيطة . . . القيت عليها نظرة واحدة – يا لها من مخلوق صغير محبب ! رائعة الفتنـــة – فتية ، باهرة الحسن ! وهكذا شرعت اقابلها – مرة او مرتين – ثم توجهت اليها قائلا : كيف هذا ، زوجك فى السجن وانت تخونينـــه معى ، فيم تبغين اللحاق به الى سيبيريا ؟ كانت تخطط للحاق به الى منفاه . فقالت لى : كائنا من كان فهو طيب بالنسبة اليّ لاننى اهيم به حبا . لربما فعل ما فعل من اجلى انا ، ومن اجله هو انا افعل هذا معك . وقالت : انه يحتاج الى مال . فهو نبيل وقد الف ترف العيش . وقالت : لـــو كنت وحيدة لعشت حياة شريفة . انت رجل طيب ايضا ، وقد اغرمت بك ، ولكن اياك ان تحدثنى فى هذا الموضوع بعد الآن . . . اللعنة على كل شيء ! . . اعطيتها كل ما كان معى – ما يزيد عـــن ثمانين روبلا ، وقلت لها : اصفحى عنى ، ولكننى لن استطيع رؤيتك بعد الان ، لا استطيع ذلك فحسب . . . وذهبت فى سبيلى ، هكذا . . .

بعيد فترة من صمت ، بدت عليه خلالها امارات السكر وبدا ان العياء ارهقه ، جمجم قائلا :

– خلوت بهـــا ست مرات . . . وليس فى مقدورك ان تتصور مبلغ ما كان عليه ذلك اللقاء ! وذهبت الى شقتهـــا

ست مرات اخرى على ما اظن ، ولكنني لم اجرؤ على الدخول – لم يكن ذلك في مقدوري . وقد رحلت الآن . . .

وضع يديه على المائدة ، وطفق ينقر عليها باصابعه . همس قائلا :

– اسأل الله الا أراها مرة اخرى . لا سمح الله بذلك ! فاللقاء يكون نهاية كل شيء اذن ! هيا نرجع الى البيت – هيا بنا !

خرجنا ، فراح يتعثر ويتمتم :

– الاونة انت ترى ، يا اخي . . .

لم يدهشني ما رواه لي . فمنذ فترة من الزمن وانا استشف شيئا غير عادي طرأ على حياته .

بيد انني شعرت بالكآبة العظيمة من وجهة نظره الى الحياة ، وخاصة بسبب ما حدثني به عن اوسيب .

٢٠

ثلاثة فصول من فصول الصيف قضيتها اعمل مراقبا في المدينة المائتة ، بين ابنية خاوية مقفرة ، اراقب العمال يهدمون في كل خريف الدكاكين الحجرية المشوشة ويعيدون بناءها كل ربيع .

حرص معلمي على ان اشتغل ما استحق عليه الخمسة روبلات التي يدفعها لي شهريا . فحين نوضع ارض خشبية في احدى الدكاكين عليّ ان ارفع التراب عن مساحة الارض كلها على عمق قدمين . كان العمال غير الماهرين يقبضون روبلا

للقيام بهذا العمل ، بينا انا لا اتناول عنه شيئا البتة . وحين اقوم بهذا العمل لم اكن استطيع ان اراقب النجارين الذين يهتبلون هذه الفرصة فيفكون قبضات الابواب واقفالها ، ويسرقون ما تقع عليه ايديهم من اشياء رقيقة .

فالعمال والمتعهدون ، معا يبذلون الجهد لخداعي بوسائل شتى ، ويسرقون بصفاقة وكأنهم يذعنون لحاجة ملحة قاهرة . فلا ينزعجون او يتكدرون اذا فأجأتهم متلبسين ، بل يقولون بكل بساطة وقد تلبست الدهشة وجوههم :

– انت تتعب نفسك في سبيل خمسة روبلات وكأنها عشرين . حقا ان رؤيتك تجعل المرء ينفجر ضاحكا !

بينت لمعلمي انه في سبيل كسب روبل واحد على حساب عملي انا فيما يخسر هو اكثر من ذلك بكثير . فاجابني غامزا بعينه :

– لا تحاول ان تخدعني !

ايقنت انه يشك فيّ ويتهمني بالتعاون مع اللصوص ، وهذا ما جنح بي الى احتقاره من دون ان أتأثر من اساءته . هذا ما كانت عليه الامور . فالجميع يسرقون ، ومعلمي نفسه لم يكن يتردد مقدار ذرة في سرقة اموال الآخرين .

حين ينتهي المعرض يقوم بجولة على الدكاكين لرؤية ما تحتاجه من اصلاحات . وغالبا ما كان يقع بصره على اشياء منسية من سماورات وصحون وسجاد ومقصات ، واحيانا صناديق وعلبا ملأى بالبضائع . فيقول ، وهو يطلق ضحكة قصيرة :

– نظم جدولا بهذه الاشياء واخزنها في المستودع !

ومن المستودع يحمل اشياء معينة الى بيته طالبا مني تنظيم نسخ جديدة من ذلك الجدول بعد حذف هذه الاشياء .

لم تكن لدي رغبة في امتلاك اي شيء او الحصول على اي شيء ؛ والكتب ذاتها كانت عبئا بالنسبة الي . لم اكن املك غير مجلد صغير من تأليف بيرانجيه وقصائد هاينه . كنت ارغب في شراء بوشكين ، ولكن العجوز المشاكس الذي كان البائع الوحيد للكتب المستعملة في البلدة طلب فيه ثمنا باهظا . وكنت ابغض الاثاث ، والسجاد ، والمرايا ، والاشياء الاخرى التي تزدحم بها شقة معلمي . كانت تربكني بأحجامها المختلفة وروائح الدهان والبويا المنبعثة منها . وعلى وجه العموم فقد كنت اكره غرف معلمي التي تذكرني بصناديق محشوة بمختلف اصناف النفايات . واشد ما كان يسوؤني اذن هو رؤية معلمي ينقل الى بيته حاجيات الناس الآخرين واضافتها الى الاثاث الذي لا جدوى منه في بيته . كانت شقة الملكة مارغو مزدحمة ايضا بالاثاث ، ولكنها كانت جميلة على اقل تقدير .

كانت الحياة نفسها تبدو في عينيّ مفككة منحلة تزخر ببلاهة واضحة . ههناك كنا نصلح الدكاكين التي لا تلبث فيضانات الربيع ان تغرقها ، فتفكك ارضياتها الخشبية وتنفخ ابوابها . وحين تنحسر المياه تتعفن العوارض الخشبية . سنة بعد سنة ، على مدى اكثر من عشر سنوات ، غمرت الفيضانات ارض المعرض ، وخربت الابنية والارصفة . كانت تلك الفيضانات السنوية تلحق بالناس اضرارا جسيمة ، وكان الجميع يعلمون ان هذه الفيضانات لا مفرّ منها .

في كل ربيع كان تحطيم الجليـــد يتلف عددا من مراكب النقل وعشرات من القوارب الصغيرة . ويرسل الناس زفرات حرّى ويبنون قوارب جديدة غيرها لا يلبث الجليد يحطمها من جديد . ما اسخف تلك الحلقـــة المفرغـــة التى كان الناس يدورون فيها !

حينما استوضحت اوسيب عن هذا الامر ركبته علائـــم الحيرة وضحك منى :

– انظروا هذا الغراب كيف يطلق نعيبه ! ما شأنـك فى هذا ؟ وما يعنيك منه ؟

ثم اجابنى فى مزيد من الجدية ، ودون ان تخمد ، مـــع ذلك ، تلك الجذوة الصغيرة من السخرية فى عينيه الزرقاوين اللتين كانتا اكثر صفاء ووضوحا ، بالنسبة الى عمره من عيون الآخرين :

– لكم انت ذكى بحيث تلفت انتباهك مثل هذه الامور ! قد لا يكون هذا من شأنك ، ولكن قد تفيد منه مجددا فى يوم من الايام . اليك شيئا آخر ينبغى ان يسترعى اهتمامك . . .

وراح يصب فى اذنى كلمات صغيرة جافة مرصعة باقاويل الناس ، ومقارنات غير متوقعة ، ونكات لطيفة :

– اسمع الى ما يشكو منه الناس : ارض صغيرة جدا ، والفولغا يمزق الضفاف فى كل ربيع ، ويجرف التراب ويترك مياها ضحلة . واليك هذا النموذج الآخر من الشكاوى : لقد غاضت مياه الفولغا ! فسيول الربيـــع وامطار الصيف تحفر الاخاديد ، وتغور الارض فى الفولغا من جديد !

كان يتحدث دون اشفاق او تذمر ، فكأنه يباهى بمعرفته

المطلقة بالتهم الموجهة ضد الحياة ، ومـع ان افكاره كانت متطابقة مع افكارى الا انها ترددت ثقيلة فى مسمعى .

– وهنالك شيء آخر – الحرائق !

كنت اعرف انه لا يمر صيف واحد دون ان تندلع النيران فى الغابات القائمة وراء الفولغا . ففى كل سنة تحجب وجـه السماء سحب من دخان زعفرانى اللون ، فى حين تروح شمس ارجوانية لا اشعة لها تحدق فى الارض مثل عين منتفخة .

قال اوسيب :

– الغابات . . . انهـا لا شيء . فالغابات ملك النبلاء والقيصر . والفلاح لا يملك غابات . حين تحترق المدن لا يكون الامر جسيما ايضا – فالاثرياء يتخذون منها موطنا ، وليس هنالك من يشفق على الاثرياء . لكن خذ القرى والدساكر – فما هو عدد القرى التى احترقت خلال الصيف ! ليس اقل من مائة ، وهذه خسارة جسيمة !

واطلق ضحكة لطيفة .

– ان لدينا اوجاعا ، ولكنه ليس فينا عقول ! انت وانا نستطيع ان نرى ان المنفعة الناجمة عن عمل الانسان لا يجنيها هو نفسه او تجنيها الارض منه ، بل تذهب طعامـا للنار والماء !

– ما الذى يضحكك ؟

– وفيم لا اضحـك ؟ انت لا تستطيـع اطفاء النيران بالدموع ، ولكنها تزيد الفيضان قوة !

كنت واثقا ان ذلك الشيخ الوسيـم هو الانسان الاكثر

حكمة الذى التقيت ، ولكننى لم اتمكن من اكتشاف ما يحب او يكره .

وفى الفترة التى كنت اتساءل فيها عن هذه الامور استرسل يغذى نيرانى بفيض من الكلمات :

– انظر ما هم عليه الناس من قوة مدمرة – قواهم وقوى الآخرين ! خذ معلمك مثلا ، وكيف ينهب قواك . او الاذية التى تسببها الفودكا . ليس هنالك من يستطيع احصاء ذلك – فهى اكبر من ان يحصيها عقل مثقف . اذا احترق كوخ ففى مقدورك ان تقيم بديلا عنه ، اما اذا تدمر امرؤ فلن تقوى على اصلاحه من جديـــد . خذ ارداليون او غريغورى مثلا . انظر فحسب كيف يغلفه الدخان . ليس غريغورى من الاذكياء ، ولكنه رجل مفعم عاطفة ! قد يكون يلتهب مثلما تلتهب كومة مـــن القش . والنساء يتهافتن عليه مثلما يتهافت الدود على جثة .

سألته بدافع من الفضول ، وليس بدافع من زعلى منه .

– فيم تنقل الى معلمى كل ما اقول لك ؟

فاجاب فى بساطة ، وفى كثير من اللطف :

– كيما يلم بالافكار الشريرة التى تجول فى ذهنك . فمن واجبه ان يعلمك . من يعلمك ان لم يعلمك معلمك ؟ لم اكن انقل له ذلك بدافع من الخبث اوالمكر ، بل بدافع من الشفقة عليك . انت لست غبيا ، لكن ثمة شيطانا يثير الامور فى الرأس الذى تحمله . ان انت سرقت شيئـــا فلسوف اسكت عن الوشاية به ؛ واذا خرجت مع الفتيات فلسوف اتجاهل الامر ايضا ؛ ولن اتفوه بحرف واحد ان رأيتك تسكر . ولكننى لن

اتوانى عن اعلام معلمك عن هذه الافكار الصفيقة التى تراود ذهنك ، ولهذا يحسن بك ان تكون على بينة .

- لن اتحدث اليك بعد الآن !

صمت برهة ، وهو ينكش بعض القطران فى راحة يده ، ثم ارسل بصره اليّ فى وداد ، وقال :

- بل سوف تحدثنى ، فأنت تكذب . من سواى ستتحدث اليه ؟ ليس هنالك انسان آخر . . .

بدا لى اوسيب فى تلك اللحظة ، على الرغم من نظافته ونقائه ، اشبه بالوقاد ياكوف ، لا يبالى بأى شىء او اى انسان .

كان يذكرنى احيانا ببيوتر فاسيلييف ، واحيانا بسائق العربة بيوتر ، وفى احيان اخرى يبدو ان ثمة شيئا مشتركا بينه وبين جدى - كان يشبه على هذا الشكل او ذاك جميع العجائز الذين عرفت . جميعهم كانوا شيوخا يبعثون على الاهتمام الى درجة مذهلة ، بيد اننى شعرت ان الحياة معهم تكون صعبة مثيرة للقرف . كان يبدو انهم يأكلون من روحك وينخرون من فؤادك بتعليماتهم الاخلاقية الحكيمة . هل كان اوسيب رجلا طيبا ؟ كلا . رجلا شريرا ؟ كلا . كان ذكيا - هذا ما كنت اراه بوضوح . وفيما رحت انذهل من تقلبات ذهنه البارعة تحقق لدى ان اسلوبه فى التفكير يملك تأثيرا قليلا على ، وفى نهاية الامر شعرت بالكره نحوه . .

وراحت افكار قاتمة تضطرب فى باطنى :

«جميع الناس غرباء عن بعضهم بعضا ، على الرغم من كلماتهم وابتساماتهم الودودة ؛ جميعهم غرباء عن الارض وعما

عليها . ويبدو ان احدا منهم لا يرتبط بالارض باواصر متينة من الحب . وحدها جدتى كانت تحب الحياة والناس وكل شيء على الارض حبا صادقا . جدتى ، والملكة مارغو الرائعة .»

احيانا كانت هذه الافكار وافكار اخرى مماثلة تتكدس فى سحب قاتمة وتجعل الحياة خانقة كئيبة . لكن ، ما هو شكل الحياة الآخر الذى كان متوافرا ؟ وكيف استطيع ان انجو بنفسى ؟ لم يكن هنالك من استطيع التحدث اليه غير اوسيب ، فرحت الجأ اليه اكثر واكثر .

كان يصغى الى هذيانى المحموم باهتمام ظاهر ، ويطرح عليّ اسئلة ويكتشف الامور ، ومن بعد يقول فى وداعة :

– نقار الخشب طائر حرون ، ولكنه لا يبعث على الرهبة ، وليس هنالك من يخافه . انصح لك باخلاص صادق ان تدخل الى الدير . هنالك تستطيع ان تعيش الى ان تبلغ سن الرشد ، فتجد السلوى عن طريق الكلمات الرائعة . ويسربل السلام ذهنك ، ويفيد الرهبان منك . باخلاص قلبى صادق انصح لك ان تفعل هذا . انا اخشى انك غير قادر على التغلب على المشاكل فى هذا العالم ...

لم تكن بى رغبة فى الدخول الى الدير ، ولكننى اشعر اننى تائه فى مغارة الحياة . وكنت ابحث عن مخرج . كانت الحياة فى نظرى تشبه الغابات فى فصل الخريف وقد انقضى اوان قطف الفطر ، وليس لدى ما افعله فى ذلك الخواء حيث كل زاوية وكل صدع مألوف لدى الالفة كلها .

لم اكن اغتبق الفودكا او اغازل الفتيات – فقد حل محل هاتين الوسيلتين اللتين تثملان الروح الشغف بالكتب . فكلما

ازدادت قراءة ازدادت صعوبة الاستمرار في العيش عيشة فارغة لا فائدة منها كما يعيش اكثر الناس .

كنت قد بلغت الخامسة عشرة ، وتمر بى اوقات اشعر اننى اصبحت عجوزا . وكان يلوح ان فؤادى انتفخ وثقل بما يئيد عليه من الايام التى عشتها والاشياء التى قرأتها والامور التى تراود افكارى فتخبلنى . وكان مخزون انطباعاتى اشبه بمخزن قاتم للاخشاب تكدست فيه اشياء شتى لم اجد قدرة او قابلية على ترتيبها وتصنيفها .

ان ثقل هذه الانطباعات ، على الرغم من وفرتها ، لم تثبتنى ، بل راحت تؤرجحنى وتديرنى معها مثلما يفعل الماء بمركب متداع .

كنت اكره الشكاوى ، والمرض ، والاذية ، فى حين ان رؤية الوحشية – الدماء ، والضربات ، والمشاجرات الكلامية – تثير فيّ اشمئزازا غريزيا . وتحول ذلك فى يسر الى ضرب من الغضبة الباردة ، فأتخبط واهتاج اهتياج الحيوان المتوحش كيما اقاسى فيما بعد من غصات خجل وحشى .

وكانت هنالك احايين تغلبنى فيها مثل تلك الرغبة العارمة بضرب احد الظالمين المعتدين ، فأطوح نفسى بصورة عمياء فى الشجار ، وانا ، الى هذا اليوم ، اسير حزن وخجل عارمين من جراء استذكار تلك اللحظات من اليأس المنبعث من العجز .

كان يكمن بين جوانحى مخلوقان : احدهما اختبر شؤون النذالة والسفاهة فغدا مذهولا محتشما ؛ وجعلت منه رتابة الحياة المرعبة متشككا مرتابا ، وينظر الى الناس ، والى نفسه ايضا ، نظرة حنو واشفاق لا رجاء فيها . كان هذا

الانسان تواقا الى حياة وادعة آمنة بعيدة عن المدن والناس . كان يحلم بالارتحال وهو يحمل الكتب وحدها معه ، الى بلاد فارس ؛ بالاعتكاف فى دير ، بالاقامة فى كوخ فى غابة او كوخ لاحد حراس السكك الحديدية ، او الصيرورة حارسا ليليا فى مكان ما على تخوم المدينة . وكلما قل عدد الناس حواليه ونأى عن البشر كان ذلك افضل بالنسبة اليه .

وكان الآخر الذى عمدته الروح المقدسة لحكمة الكتب الصادقة ، وتيقن ان رتابة الحياة المرعبة تمارس قوة غاشمة قد تطوح رأسه عن كتفيه فى سهولة او تدوسه تحت عقبها المكسو بالسخام . وهكذا جمع قواه بأسرها للدفاع عن نفسه ، كازا على اسنانه ، جامعا قبضتيه ، متأهبا لاى قتال او نقاش . وكان حبه وحنانه يجدان لنفسيهما تعبيرا فى العمل ، فيمتشق حسامه ، مثلما يفعل البطل الصنديد فى الروايات الفرنسية ، ويضرب به لدى اقل اثارة . . .

فى هاتيك الفترة كان لى عدو لدود – بواب احد مواخير شارع مالايا بوكروفسكايا . كنت قد تعرفت اليه اول مرة ذات صباح عند منصرفى الى ارض المعرض حين لمحته يجر من العربة الواقفة امام الباب فتاة سكرى . كان يشدها من ساقيها اللتين سقط عنهما جورباهما ، يشدها فى شراسة ، معريا جسدها حتى خصرها ، يجعر ويضحك ويبصق عليها ، بينا الفتاة ، منبوشة الشعر ، فاقدة الوعى ، منفغرة الفم ، تنحدر درجة درجة . وكانت ذراعاها المرخيتان ، العاريتان ، تتجرجران وراء رأسها الذى اصطدم بمقعد العربة ، ثم

بدرجتها ، واخيرا بالرصيف .

ساط السائق ظهر جواده وانصرف به ، فى حين امسك البواب ساقى الفتاة مثلما يمسك عريشى العربة ، وجعل يجرها على طول الرصيف . اندفعت اليه فى جنون ثائر ، ولحسن حظى انى اسقطت من يدى الشاقول الافقى الذى يبلغ طوله سبع اقدام او سقط من تلقاء ذاته عرضا ، وهذا ما انقذنى والبواب من ورطة جسيمة . اندفعت صوبه بأقصى سرعة ، ورميته ارضا ، ووثبت على درجات السلم وضغطت على زر الجرس فى حنق يائس ، فظهر على الاثر اناس متوحشو الطلعة . لم اتمكن من اعطاء اى تفصيل فالتقطت آلتى ومضيت فى سبيلى .

على الدرب الى النهر ادركت العربة . نظر اليّ من على مقعده واثنى عليّ قائلا :

– احسنت صنعا !

سألته فى غضب لماذا سمح للبواب ان يعامل الفتاة تلك المعاملة المخزية .

اجاب فى نفور هادئ :

– فلتذهب الفتاة الى الجحيم . لقد دفع السادة لى الاجر عندما وضعوها فى العربة . وهذا ما يهمنى اكثر من اى شيء آخر .

– وماذا لو قتلها ؟

فقال فى طريقة رجل تخصص فى قتل البغايا والسكارى :

– ليس من السهولة بمكان قتل مثيلاتها .

بعد ذلك غدوت ابصر البواب كل صباح تقريبا . فكلما

جعلت اقطع الشارع اراه يكنس الرصيف او يجلس على درجات السلم وكأنه ينتظرني . فاذا دنوت منه ينهض واقفا ، ويشمر عن ساعديه ، ويقول متوعدا :

– سأحطمنّ وجهك شر تحطيم !

كان قد تجاوز الاربعين من العمر ، صغير القامة ، معوج الساقين ، برزت بطنه الى الامام مثل امرأة حامل . كان يقف هنالك يضحك مني ، وكانت عيناه تطفحان طيبة ومرحا ، الامر الذي يثير دهشتي . لم يكن يجيد فن القتال ، كما ان ذراعيه اقصر من ذراعي ، وهكذا فهو يستسلم بعد هجمتين او ثلاث هجمات ، ويتراخى على السور ويلهث في انشداه :

– رويدك ، لحظة ، ايها القط المتوحش !

مللت هذه المناوشات ، فقلت له مرة :

– اسمع ، ايها الابله . دعني وشأني . هل تفعل ذلك ؟

استوضح في نبرة تأنيب :

– لماذا بدأت القتال ؟

فسألته لماذا اساء الى الفتاة .

– وما يعنيك منها ؟ هل تشفق عليها ؟

– بكل تأكيد .

صمت قليلا ، ومسح شفتيه ، وقال :

– هل تشفق على القطط ايضا ؟

– اجل ، من دون ريب .

فاستتلى قائلا :

– انت معتوه وكذاب ! انتظر فحسب ، ولسوف ترى !

كان عليّ ان اسير في ذلك الشارع ، فهو اقصر طريق

للوصول الى عملي . ولكنني بدأت استيقظ في الصباح باكرا كيما اتجنب رؤية البواب . ورغم جهودي كلها فقد رأيته بعد عدة ايام جالسا على درج السلم يربت على ظهر قطة رمادية تراخت في حجره . وحين لم يعد يفصلني عنه اكثر من ثلاث خطوات وثب على قدميه ، وقبض على القطة من قائمتيها الخلفيتين ، وضرب رأسها بالجدار الحجري بقوة جعلتني اتلطخ بدمها الحار . ثم رماها عند قدمي ، وانتصب عند الباب ، وقال :

— حسنا ؟

ماذا كان عليّ ان افعل ؟ رحنا نتدحرج في الساحة مثل كلبين . وفيما بعد ، وقد تملكني يأس قاتل ، وطوحت نفسي على حشائش الطريق اعض شفتي لكيلا اصيح او انشج . اتذكر هذه الحادثة فيقشعر جسدي اشمئزازا ، وانشده لانني لم اصب بالجنون او ارتكب جريمة .

فيم ينبغي عليّ ان اسرد اشياء بذيئة ؟ افعل ذلك كيما تعرفوا ، يا قرائي الاعزاء ، ان هذا ليس شيئا من الماضي البعيد ! انتم مولعون بالحوادث المرعبة ، وتستلذون قراءة روايات الرعب ، ولا تنفرون من ان تدغدغ احاسيسكم النزوات المعذبة . ولكنني عرفت اهوالا حقيقية ، اهوال الحياة اليومية ، واعرف ان من حقي ان ادغدغ مشاعركم واثير فيها الخوف بأن اروي عليكم هذه الاهوال بحيث تعرفون حق المعرفة اين تعيشون وكيف تعيشون .

نحن نعيش جميعا حياة قذرة وضيعة ، وليس من يستطيع نكران ذلك !

انا مغرم بحب المخلوقات البشرية ، وارفض ان اكدر انسانا ، وارى انه لا ينبغى علينا ان نكون عاطفيين ، او ان نخفى الحقيقة الاليمة وراء عبارات زائفة خداعة . يجب ان نقف فى صف الحياة ، واقرب ما يكون اليها ! وينبغى ان نهرق فيها كل ما فى قلوبنا واذهاننا من خير وسمو انسانى .

. . . ان ما كان يثير ثائرتى بصورة خاصة هو الاسلوب الذى تعامل به النساء . علمتنى قراءاتى ان الحياة لم تحمل اروع من المرأة وانقى . وقد توطدت هذه النظرة بتأثير من جدتى وحكاياتها عن العذراء والحكيمة فاسيليسا ؛ وبتأثير الغسالة البائسة ناتاليا ؛ وبتأثير المئات والالوف من الابتسامات والنظرات التى رأيت النساء ، امهات الحياة ، يجملن بها وجودا ضنيننا بالفرح والحب .

كانت كتب تورجنيف تغنى مجد المرأة ، وكانت ملكتى بالنسبة الى تجسيدا لجميع الاشياء الطيبة التى تعلمتها عنهن — ثروة من المعرفة اسهم فيها اسهاما جديا كل من تورجنيف وهاينه .

عند عودتى الى البيت من ارض المعرض كنت اتوقف فى اغلب الاحيان على تلة الى جانب جدار القلعة القديمة اراقب الشمس تغرق وراء الفولغا ، مخلفة انهار ملتهبة تسيل من كبد السماء ، فى حين ان نهرى الارضى الحبيب يصطبغ بلون ارجوانى داكن . فى هاتيك اللحظات اشعر احيانا ان الارض ليست اكثر من مركب نقل ضخم مترامى الاطراف يعج بالمحكومين ، او خنزيرة يشدها حبل غير مرئى .

وفى احيان كثيرة تنتقل افكارى الى اتساع الارض ، الى

تلك المدن الاخرى التى قرأت عنها فى الكتب ، والى تلــــك الاراضى الغريبة حيث الناس يعيشون بصورة مختلفة عنا . كانت كتب المؤلفين الاجانب تصور الحياة اكثر نقاء وجمالا واقل عناء من الحياة التى تدور حولى فى بطء ورتابة . وكان ذلك يطمئن مخاوفى ويولد فيّ آمالا ملحة بامكان وجود حياة افضل .

دأبت على التفكير ان لا بد ان يكون ثمة يوم القى فيه انسانا حكيما بسيطا يأخذ بيدى ويقودنى على طريق عريضة مشرقة .

ذات يوم ، وفيما انا جالس على دكـــة الى جانب جدار القلعة ، انضم خالى ياكوف الى . لم اره يقترب منى ، كما لم اعرفه على الفور . وعلى الرغم من اننا كنا نقيم فى البلدة ذاتها سنينا طويلة ، فنحن لم نكن نلتقى ، الا لماما ، ولا يحدث ذلك الا مصادفة واقتضابا .

قال مازحا ، وهو يلكزنى لكزة خفيفة :

— لقد كبرت سريعا !

وشرعنا نتجاذب الحديث كشخصين لا يربط بينهما شىء من القربى ، ولكنهما يعرفان بعضيهما منذ زمن بعيد .

كانت جدتى قد اخبرتنى ان الخال ياكوف بدد اموالــــه كلها . وعمل منذ فترة من زمن مساعدا لحارس احد السجون ، ولكن عمله انتهى نهاية سيئة . فحين اصيب الحارس بمرض اقام خالى ياكوف حفلات صاخبة للمحكومين فى شقته . وحين اكتشف ذلك فصل من العمل وادين بتهمـــة اطلاق حريـــة المحكومين خلال الليل . لم يفر احد منهم ، ولكنه القى القبض

على سجين وهو يحاول خنق شماس . استغرق الاستنطاق زمنا طويلا ولكنه لم يصل الى المحكمـــة — فان السجناء وحراس السجن تدبروا الامر وانقذوا خالى طيب القلب من ورطته . وهذا هو الآن من دون عمل ، يمده ولده بالعون ، وهو يعمل منشدا فى خورس كنيسة ، وهو كورس روكافيشنيكوف الذى طارت له شهرة فى ذلك الحين . وكان يتحدث عن ابنـــه باسلوب غريب :

— لقد غدا رزينا تماما فى الفترة الاخيرة ، وعلى جانب من الاهمية . صار عازفا منفردا . يتكدر ان انا تماهلت فى تهيئة السماور او تنظيف ثيابـــه بالفرشاة . انه ولـــد نظيف . وعاداته صافية نقية . . .

كان خالى نفسه ، وقد بدت عليه دلائل الشيخوخـة ، قذرا ، اشعث الهندام ، مترهل الوجه . نحلـت خصـــل شعره الجميلة ، ونفرت اذناه ، وغطت شبكـــة من الاوردة الحمراء بياض عينيه وجلد خديه الحليقين الناعمين . كان يتحدث بلهجة مرحة ، لكنه يبدو ان ثمة شيء ما فى فمه يعيق حديثه على الرغم من ان اسنانه سليمة .

تهللت لهذه السانحة التى اتاحت لى الحديث الى رجل عرف كيف يكون مرحا ، رجل شاهد اشياء كثيرة ، ولا بد انه مطلع على امور كثيرة . وتذكرت جيدا اغنياتـــه المرحة الجريئـــة والكلمات التى يرددها جدى عنه :

«انه كالملك داوود وهو يغنى ، وكأبشالوم عندمـــا يعمل !»

كان سكان البلدة المحترمون يمرون امامنا وهم يتنزهون

على طول الشارع : ضباط وموظفون وصبايا رقيقات . كان خالى يرتدى معطفا مهلهلا ، وقبعة ممزقـــة ، وحذاء صدئ المنظر ، وكان يلتف على نفسه فوق الدكة خجولا فى نفســه فيما يبدو . اتجهنا الى احدى الحانات فوق وادى بوتشاينسكى حيث جلسنا الى منضدة قريبة من نافذة تطل على السوق .

- اتذكر كيف كنت تغنى :

علق شحاد بنطاله ليجف
فسرقه شحاد آخر . . .

فيما انا اكرر كلمات الاغنية استشعرت لاول مرة مغزاها الساخر ، فخيل الى ان خالى الممراح فى حقيقته كان خبيثا مرير النفس .

اجابنى فى صوت متفكر ، وهو يصب لنفسه قدحا من الفودكا :

- اه ، بلى ، لقد عشت حياتى وتمتعت بسخرياتى ، ولم اشبع منها . تلك لم تكن اغنيتى . فلقد كتبها احد الاساتذة فى معهد ثانوى - ولكن ، ماذا كان اسمه ؟ لقد نسيت . كنا صديقين حميمين - هو وانا . ولكنه ظل يشرب حتى مات - تجلد فى البرد . ما اكثر افواج الناس الذين رأيتهم يسكرون حتى الموت ! لا استطيع احصاء عددهـــم ! هل تشرب ؟ لا تشرب . رويدك لحظة . هل تلتقى كثيرا بجدك ؟ انه شيخ حزين . يبدو انه اضاع رشده .

تناول جرعة او جرعتين ، واتلع عنقه ، وشد كتفيه ،

وبدا اصغر سنا مما هو عليه ، وهو يتحدث فى مزيد من الحيوية .

سألته عن قصته مع السجناء . فاستفسر :

– اذن فأنت سمعت بها ؟

واخفض صوته ، تطلع حواليه ، وقال :

– وماذا اذا كانوا محكومين ؟ فلست انا قاضيهم . كنت ارى انهم اناس مثلنا جميعا ، وهكذا خاطبتهم قائلا : هيا بنا ، ايها الاخوة ، فلنعش حياة الاصدقاء ، ولنمرحن قليلا على ما تردده الاغنية :

غنوا ، يا اصحابى ، غنوا !
والخمرة صبوها صبا .
لا يحزن فيكم مجنون ،
فاللهو اتخذناه الربا !

ضحك ، ورمى نظرة من النافذة الى الوادى الذى بدأ يلفه الظلام ، وقد اقيم فيه صف من الاكشاك . واستتلى يقول ، وهو يمسد شاربه :

– لا ريبة انهم تهللوا – فالحياة مضجرة فى السجن . وما ان تنتهى تلاوة قائمة الاسماء حتى يقبلوا لزيارتى . فودكا ، وطعام ، احيانا من عندى واحيانا من عندهم ، وامنا روسيا تسمو كالقبّرة ! كنت مولعا بالاغانى والرقص ، وكان فى عدادهم بعض المغنين والراقصين . كانوا رائعين حقا . ولا يمكن لك ان تصدق ذلك ! وكان بعضهم مكبلين بالسلاسل . حسنا ، انت لا تستطيع الرقص وانت مكبل بالسلاسل ، وهكذا

كنت اسمح لهم بانتزاع تلك السلاسل ، وهذه حقيقة . كانوا يفعلون ذلك بأنفسهم ، ودونما حاجة الى حداد . كانوا اذكياء ، اذكياء جدا من دون ريب ! ولكن الادعاء انى اطلقت سبيلهم للتجول فى البلدة والسرقة امر عار عن الصحة . وليس هنالك من يستطيع ان يأتى ببرهان على ذلك . . .

واعتصم بالصمت ، وقعد يشخص الى الوادى حيث راح باعة الاشياء المستعملة يغلقون حوانيتهـــم باقفال تقعقع ، واخرى تزقزق ، وعوارض خشبية تسقط فيرتفع لها ضجيج . ومن بعد تابع يقول ، وهو يغمز لى فى مرح :

– اذا اردنا ان نقول الحقيقة فان واحدا منهم فحسب كان يخرج ليلا ، ولكنه لم يكن من المكبلين بالسلاسل – كان لصا من نيجنى نوفغورود . كانت له عشيقة تعيش قريبا من السجن ، عند نهر بيتشوركـــا . والصدام مع الشماس كان حادثا عرضيا . فقد حسب الشماس تاجرا . وحدث ذلك فى ليلة شتوية عاصفة – والجميع يرتدون معاطفهم الثقيلة . فمن كان يستطيع ان يفرق بين الشماس والتاجر ؟

اضحكنى ذلك ، وضحك بدوره ، واضاف :

– طبيعى ان احدا لا يستطيع ذلك . . .

على حين غرة ، وفى سهولة غريبة ، انقلب صفاء خالى الى غضب . فدفع الصحن من امامه ، وكشَّر وجهه ، وغمغم وهو يشعل لفافة :

– انهم يسرقون بعضهم بعضا ، ثم يقبضون بعضهم على بعض ، ويرسلون بعضهم بعضا الى السجن ، او الى الاشغال الشاقة فى سيبيريا . لكن ، فيم يدسوننى فى هذا الموضوع ؟

ابصق عليهم جميعا . . . فان لى روحى الخاصة اعنى بها !

تراءت امامى صورة الوقاد الاشعث . هو الآخر كان مغرقا بكلمة «ابصق عليهم» ، وهو الآخر كان اسمه ياكوف .

سأل خالى فى لطف :

— فيم تفكر ؟

— هل تشعر بالاسف على اولئك المحكومين ؟

— سهل ان تشعر بالاسف عليهم . فهم فتيان رائعون . رائعون جدا فى الحقيقة ! احيانا ادنو اليهم وافكر : «لست اهلا ان اطلى احذيتكم ، ولكن هذا انا هنا ، سجانكم» . وانهم ثعالب ماكرة وشياطين . . .

اعادته الخمرة والذكريات الى ما فطر عليه من انشراح . وضع مرفقيه على حافة النافذة ، ولوح يده الصفراء التى تحمل لفافة بين اصبعيها ، واسترسل يقول فى صوت حماسى :

— آه لو انك سمعت كيف كان احدهم يتحدث ! كان اعور ،يعمل فى حفر الرواسم واصلاح الساعات ، واعتقلوه بتهمة تزييف النقود ، فحاول ان يهرب . كان يلتهب على الدوام مثل مشعل من النار ! وكان يغرّد مثل عصفور . كان يقول : «اشرحوا لى هذا : لماذا يحق لدار الصك ان تضرب عملة ، ولا يحق ذلك لى ؟ ايه ؟ هيا ، بينوا لى ذلك» . وما كان احد منا يستطيع ان يشرح له ذلك . ابدا ، حتى ولا انا . وانا حارسهم ! ثم كان هنالك واحد آخر ، لص موسكوفى شهير — هادئ ، نظيف ، غندور قليلا . وكان على الدوام يتحدث بلهجة مؤدبة . كان يقول : «الناس يعملون حتى يطيش صوابهم ، وليست بى رغبة فى ان احذو حذوهم . حاولت ذلك مرة —

فأعملت اصابعي ، ومن اجل ماذا ؟ من اجل شيء تافه . كنت اشرب ملء كشتبان ، اخسر مبلغا ضئيلا في لعب الورق ، وانفح امرأة بعض النقود لقاء تدليلها لي ، وهذا انا من جديد محطما جائعا . وكان يقول : كلا ، انا لن العب تلك اللعبة مرة ثانية !

انحنى الخال ياكوف على المنضدة وهو يتابع الحديث ، وقد عراه الاحمرار حتى جذور شعره ، وتملكه الهياج بحيث ارتعشت اذناه الرقيقتان :

– ليسوا حمقى ، يا اخي . انهم ينظرون الى الحياة نظرة صحيحة . لتذهبنّ هذه المهزلة بأسرها الى جهنم ! خذني انا مثلا : كيف كانت حياتي ؟ اني لاخجل حتى من مجرد تذكرها . كل ما هو جيد يتفتت ويتلاشى . وقد حصلت فيها على الحزن ، وعلى اويقات سعادة منهوبة . وكان والدي يصيح بي لا تفعل هذا ، وزوجتي تصيح بي لا تفعل ذاك ، وانا نفسي خائف من ان احطم عنقي في سبيل روبل واحد . وهكذا انزلقت الحياة ، وهذا انا الان وقد ذرّف بي العمر ، اعيش عالة على ولدي . فيم احاول ان اخفي ذلك ؟ انا اخدمه في تواضع ، يا اخي ، وهو يصرخ في وجهي مثلما يفعل سيد حقيقي . انه يناديني «يا ابي» ، ولكنني اسمعها «يا خادمي» ! ألهذا خلقت في هذا الوجود ؟ ألهذا قاسيت ما قاسيت وتحملت ما تحملت ؟ ألكي انتهي خادما عند ابني ؟ حتى لو لم تكن الامور على هذا الغرار – ففيم كانت حياتي ؟ وما هي المسرات التي نهلت من الحياة ؟

لم اكن اوليه سمعي . قلت كيفما كان ودون ان افكر في جواب :

– **لست ادري كيف اتابع حياتي انا الآخر . . .**

فشخر :

– هَه ْ ! من يدرك ذلك ؟ لم اصادف شخصا واحدا يدرى ! الناس يتابعون الحياة بتأثير العادة وحدها . . .

مرة اخرى زحفت فى صوته رنة الغضب والاهانة :

– كان هنالك شاب من أريول – سجن بسبب من الاغتصاب – انحدر من السادة وكان راقصا لا يجارى ، كان يسرى عن الجميع باغنيته عن فانكا :

وفانكا يطوف بمقبرةٍ
حزينَ الملامح مكتئبا
لماذا تراكَ تجولُ هنا
على جثث الناس فوق الرُبى ؟

– فى رأيي انه ليس فى هذه الاغنية شيء يبعث على السخرية بل هى الحقيقة بعينها ! مهما جاهدت وناضلت فلن تفلت من المقبرة فى آخر المطاف ! وحين اصل اليها فلن ابالى البتة ، سواء كنت سجينا او سجانا !

تعب من الحديث ، فعب فودكاه وتأمل القدح الفارغ طارفا مثل عصفور ، وهو يدخن فى صمت ، والدخان يلتف حول شاربيه .

ان البنّاء بيوتر ، هذا الذى لا يشبه خالى ياكوف فى شيء ، كان مغرما ان يقول : ابذل الجهد الذى يبذله المرء وترجى مثلما يترجى ، ومصيرك آخر الامر القبر والنعش . وما اكثر الاقوال الشعبية الشبيهة بهذا القول !

لم تكن بى رغبة ان اسأل خالى عن شيء آخر . اشفقت

عليه وشعرت بالاسى فى رفقته . لم استطع الا ان اذكر اغنياته المرحة ورنات قيثارته التى تهرق الغبطة فى ملء العبوس والكآبة . كما انى لم انس تسيجانوك الممراح . كلا ، انا لم انسه ، وفيما انا انظر الى وجه خالى المغضن لم اقوَ ان امتنع عن التساؤل ما اذا كان لا يبرح يذكر كيف انسحق تسيجانوك تحت ذلك الصليب .

لكننى لم اطرح عليه ذلك السؤال .

سرحت طرفى فى الوادى الذى يغشاه الآونة ضباب شهر آب . كانت تنبعث من اعماقه رائحة التفاح والبطيخ . واشتعلت المصابيح على طول الدرب الضيقة المؤدية الى البلدة ، وبدا كل شىء حوالى مألوفا : جاءت هذه الصفرة من المركب البخارى المتجه الى ريبينسك ، وجاءت تلك من المركب البخارى المتجه الى بيرم . . .

قال خالى : — آه ، حسنا — ينبغى ان اذهب .

هز يدى عند باب الحانة مصافحا ، وقال مازحا :

— لا تحمل نفسك اكثر من طاقتها الآن . يلوح انك ستفعل ذلك . ابتهج ، فأنت شاب بعد . وتذكر : «غنوا ، يا اصحابى ، غنوا» . حسنا ، وداعا . انا فى سبيلى الى كاتدرائية اوسبينسكى !

انصرف خالى الممراح ، وخلفنى فى حيرة اشد مما عرفت من جراء حديثه .

تسلقت التلة الى البلدة ، ويممت وجهى شطر الحقول . كان القمر بدرا ، وسحب منخفضة تسبح فى السماء ، فتمحو ظلى من جراء ظلالها . درت حول البلدة فى الحقول ووصلت الى

الفولغا عنـــد المنحدر حيث تمددت على العشـــب المترب وشخصت طويلا الى النهر ، الى المروج ، الى الارض الجامدة دون حراك . وسبحت ظلال الغيوم فى حركة بطيئة عبر الفولغا . وهى تزداد التماعا كلما اقتربت من الحقول ، فكأنها اغتسلت فى المياه . كان كل ما يحيط بى ساهما سادرا ؛ وكل شىء يتحرك على مضض ، وبقوة الحاجة ، لا حبا منه ولا شغفا فى الحياة والحركة .

احببت ان اركل الارض واركل نفسى ركلة طيبة بحيث يروح كل شىء – وانا نفسى ايضـــا ، يدور ويلف فى دورة سعيدة ، فى الرقصــــة الطروب التى يرقصها الناس الذين يحبون بعضهم بعضا ويحبون الحياة ، هذه الحياة التى تعـد بحياة اخرى اكثر براءة وشجاعة وجمالا . . .

وهمست فى نفسى : «اذا لم افعل شيئا فقد قضى علىّ» .

ما اكثر ما تجولت فى الغابات فى ايام الخريف العبوسة ، حين لم اكن استطيع ان ارى او احس الشمس ، بل انسى وجودها على الاطلاق . فاذا اضعت سبيلى فلسوف ابحث فى حماسة عن اية سبل جانبية تعود بى ادراجى ، واذا اخذنى العياء من البحث فلسوف اصر باسنانى واندفع فى شجاعة فى ملء قلب الغابات ، واشق طريقـــى عبر الشجيرات الصغيرة المتبلدة والمستنقعات المحفوفة بالمخاطر . ولسوف ينتهى بى المطاف دائما وابدا ، وبصدفة محتومة ، الى الدرب !

وهذا ما صح عليه عزمى .

فى خريف ذلك العام انطلقت الى قازان ، يحدونى امل خفى فى انى سأجد وسيلة ارشف فيها العلم هناك .

جامعيـــــاتـــــي

وهكذا كنت فى طريقى الى قازان اطلب العلم فى الجامعة – ولا شيء غير ذلك !

فكرة الدراسة الجامعيـــة حشرها فى رأسى طالب ثانوى يدعى ن . ييفرينوف – وهو شاب محبوب ، بادى الوسامة ، عيناه وادعتان كأنهما عينا امرأة . كان يقيم فى علية المنزل الذى اقطن فيه . ولما كان يرانى كثيرا متأبطا كتابا فقـــد تفاقم اهتمامـــه بى ، والتمس التعرف الىّ . ولم تمر فترة طويلـــة حتى شرع يدغدغنى ان لى «فى العلـــم استعدادات خارقة» .

اعلن ، وهو يقذف الى الوراء شعره الطويل ، فى تأكيد لبق :

– خلقتك الطبيعة لتخدم تعزيز العلم .

لم اكن اعرف ، يومئذ ، ان المرء يمكن ان يعزز العلم وهو لا يملك من القدرة الفعلية اكثر مما يملـــك الخنزير الهندى ؛ فاوضح لى ييفرينوف بكل جلاء ان الجامعات فى حاجة قصوى الى شبان من امثالى . فلا تزال ذكرى اومونوسوف ، من دون ريب ، تتخذ قدوة مشرقة . وقال ييفرينوف انـــى سأقيم فى بيته فى قازان ، واتابع خلال فصلى الخريف والشتاء دروسى لاستوعب البرنامج الثانوى . ومن بعد اقدم «بعض» الامتحانات – هكذا اعلن قائلا : «بعض» الامتحانات ؛ وتهب لى الجامعة منحـــة ؛ وفى غضون خمس سنوات اغدو «رجلا مثقفا» . كان هذا كله بسيطا بسيطا ، لان ييفرينوف كان فى

ذلك الوقت فى التاسعة عشرة ، وهو ذو قلب طيب .

انهى امتحاناتـــه وسافر . ولحقت به بعيـــد حوالى اسبوعين .

قالت لى جدتى ساعة الفراق :

– اياك والتنازع مع الناس . فأنت مشاكس على الدوام . لقد بدأت تتجهم ، وتقسو فى طلباتك . وهذه الامور انحدرت اليك من جدك . و . . . حسنا ، ما هو جدك ؟ لقد عمر طوال هذه السنوات، وانتهى الى لاشىء ، ذلك الشيـــخ المسكين . تذكر على الدوام شيئا واحدا : ليس الله من يدين البشر . بل هى تسلية الشيطان . حسنا ، وداعا . . .

ومسحت عبرات طفيفـــة عن وجنتيهـــا المترهلتين السوداوين ، واستتلت :

– لن نلتقى مرة اخرى . فلسوف تنتقل بعيدا فأبعد ، ايتها الروح التى لا تعرف هدوءا ، واكون انا انفض يدى من هذا الوجود . . .

كنت قد ابتعدت عن جدتى العزيزة فى الاونة الاخيرة ، فلا اراها الا لماما . واتضح لى الآن ، فى شىء من مرارة الالم ، انى لن اجتمع مرة اخرى بصديق حميم هو جزء من نفسى .

القيت من مؤخرة القارب نظرة الى حيث وقفت عند حافة رصيف الميناء – وهى ترسم اشارة الصليب وتمسح بطرف شالها المهترئ القديـــم وجهها وعينيهـــا السوداويـــــن العامرتين بحب ازلى تجاه الانسان .

وهذا انا اخيرا فى بلدة نصف تتارية . غرف ضيقة فى بيت من طابق واحد ينتصب وحيدا فوق تلة منخفضة فى نهاية شارع

ضيق خيم عليه الفقر . كان البيت يشرف من جانب واحد على قطعة ارض مهجورة تكاثفت فيها الاعشاب - ارض التهمها الحريق مرة . وهنالك ، عميقا بين نبات الافسنتين ، ثمة فصائل من نباتات راعى الحمام والحماض محاطة بأدغال هرمة ، ترتفع بينها انقاض بناء من القرميد تحيا في قبوه الكبير الكلاب الشاردة وتموت . وانا اذكره تماما ، ذلك القبو : فلقد كان واحدا من جامعياتى .

كانت عائلة يبفرينوف - الام وولداها - تعيش على حساب مرتب تقاعدى شحيح . وقد ادركت ، منذ ايامى الاولى فى دارها ، الكآبة المفجعة المتبدية فى ملامح تلك الارملة الصغيرة المرهقة حين تعود ادراجها من السوق ، فتلقى مشترياتها على منضدة المطهى ، وتمعن النظر فى مشكلتها العويصة : كيف تخلق من قطع صغيرة من لحم كريه طعاما طيبا فاخرا يكفى ثلاثة فتيان اصحاء - اما هى فلا تخطر لها نفسها فى حساب .

ما اندر ما كانت تفتح فمها ، يتجمد فى عينيها الشهباوين عناد وديع ميؤوس لحصان تلاشت قواه حتى آخر قطرة . كان ذلك الحصان المسكين ، وهو يجر عربته متسلقا الهضبة ، يعرف انه لن يبلغ القمة ، ولكنه لا ينى يجر حمله على الرغم من ذلك !

وذات صباح ، بعيد ثلاثة او اربعة ايام من قدومى ، كنت اساعدها فى تنظيف بعض الخضروات فى المطهى ، وكان ولداها نائمين ، فتوجهت الىّ مستفسرة فى هدوء وتحفظ :

- فيم قدمت الى البلدة ؟

- للدراسة . فى الجامعة .

ارتفع حاجباها فى بطء ، وتجعدت جبهتها الشاحبة . وسقطت سكينها فجرحت اصبعها . فألقت نفسها فى احد المقاعد تمص جرحها ، وما لبثت ان نهضت على قدميها من جديد هاتفة :

– اه ، يا للشيطان !

واثنت علىّ ، بعد ان لفت اصبعها بمنديل ، هذا الثناء العاطر :

– انت تقشر البطاطا بصورة رائعة !

هل كان من الممكن الا استطيع ان اقشر البطاطا بصورة رائعة ! رويت لها قصة عملى على سطح قارب نهرى . فاستوضحت :

– افتحسب هذا تحضيرا كافيا لدخولك الى الجامعة ؟

لم اكن املك فى هاتيك الايام استيعابا كافيا للمزاح . فاعتبرت سؤالها جديا ، فعرضت عليها عرضا مفصلا الخطوات القمينة ان تفتح امامى بوابات معبد العلم .

زفرتْ :

– آه ، نيقولاى ، نيقولاى !

فى تلك البرهة دلف نيقولاى الى المطهى للاغتسال – ناعسا ، اشعث الشعر ، ممراحا مثله ابدا .

قال :

– بعض فطائر اللحم تكون وجبة فاخرة ، يا اماه !

فوافقت الام قائلة :

– اجل ، سأصنع ذلك .

فاعلنت ، تحدونى رغبة فى عرض براعاتى فى فنون الطهى ،

ان اللحم لا يصلح لصنع هذه الفطائر ، فضلا عن انه غير كاف .

ههنا استبد الغضب بفارفارا ايفانوفنا ، وقذفتنى بعدة كلمات حادة بحيث احمرت اذناى وبدا انهما استطالتا . والقت باقة الجزر التى كانت تغسلها ، وخرجت من المطهى . وغمزنى نيقولاى ، وفسر لى موضحا :

– انها حادة المزاج . . .

واتخذ مجلسه مرتاحا على دكة ، وشرح لى ان النساء ، على العموم ، اكثر عصبية من الرجال ، وتلك هى طبيعة الانثى ، وهو ما اوضحه بما لا يقبل الشك عالم شهير – فى سويسرا ان لم تخننى الذاكرة . وثمة رجل انكليزى هو جون ستوارت ميل قال شيئا فى ذلك الموضوع ايضا .

كان نيقولاى يحرص على تعليمى حرصا بالغا ، ويغتنم كل فرصة سانحة ليزرع فى دماغى هذا التعبير الجوهرى او ذاك ، وهو ما تغدو الحياة معه مستحيلة اذا جهله الانسان . وكنت انهل كلماته فى شره ، ولم تمر فترة قصيرة حتى اختلط فى فكرى فوكولت ولارشفوكولد ولاروشجاكلين فى شخص واحد ، ولم اعد استطيع ان اتذكر اى الرجلين قطع عنق الآخر لافوازييه ام ديمورييه . كان قرينى اللطيف قد عزم مخلصا على ان يجعل منى «رجلا» . ووعدنى بذلك وعد المؤمن الموقن . لكن . . . الوقت ينقصه ، وتعوزه الشروط الضرورية ، كيما يوجه تثقيفى الوجهة المنسقة . كانت انانيته وطيشه يحجبان عنه ما تكابد امه من جهد وحيلة فى تدبير شؤون البيت . وكان شقيقه التلميذ البليد الصموت اقل منه

شعورا بهذه الامور . اما انا فكنت متمرسا فى حيل الطهـــى الاقتصادية المعقدة . وكنت ارى فى جلاء تلك الجهود اليائسة التى تبذلها تلك المرأة وهى تخدع كل يوم معدتى ولديها ، ولتشبع فوق ذلك فتى غريبا موحش الطلعة حركاته لا تبعث على سرور . وكان طبيعيا ان كل كسرة خبز ابتلعها فى هذا البيت تثقل على ضميرى بقسوة . فشرعت ابحث عـن عمل . فأبرح البيت فى بكور الصباح واتغيب حتى اتأكـــد ان الغداء انتهى . واذا اكفهر الجو وعبس فأنا اقضى تلـــك الساعات ملتجئا الى قبو تلك الارض المقفرة . فأقعد هنالك بين الكلاب والقطط المائتة ، انشق روائح النتن والعفونة ، واصغى الى المطر المتهاطل وانين الرياح ، ولم البث ان فهمت ان الجامعة ليست غير وهم خداع ؛ وانى لكنت فعلت حسنا لو هربت الى بلاد فارس . وهكذا تصورت نفسى ساحرا اشهب اللحية ، اخلق الوسائل فأنبت الحنطة والجودار حتى تماثـــل التفاح حجما ، وبطاطا تزن الواحدة منها بودا واحدا – وعلى العموم اخترعت العديد من الكرامات الاخرى فى سبيل هذه الارض التى لن اكون وحيدا فى كفاح متاعبها واهوالها .

تعلمت كيف احلم بمغامرات خارقة وافعال باهرة ، الامر الذى كان امدنى بعون عظيم فى تحمل الآلام فى هاتيك الايام السود . ولما كانت الايام القاسيـــة كثيرة فقد غدوت اكثر فأكثر مهارة فى اختراع تلك الاحلام . لم اكن انتظر غوثـــا خارجيا ، ولم اتوسل شيئا من الحظ او المصادفة . بل رحت انمى فى نفسى عناد ارادة لا تقبل الخضوع والاستسلام ، وكلما ازدادت الحياة عنتا احسست اننى ازداد قوة ، بله حكمة .

واستبان لى فى وقت مبكر من الحياة ان مقاومة البيئة هـــى وحدها التى تخلق الانسان .

اذا عصف الجوع وشئت ان اقاومه فأنا اتخذ سمتى الى ضفاف الفولغا حيث يستطيع المرء ان يكسب خمسة عشر او عشرين كوبيكا مــن دون كثير عناء . ههنـــا ، بين الحمالين والمتشردين واللصوص ، اشعر بنفسى وكأنها قضيب مــن الحديد مغموس بين فحمات متأججة ملتهبة ؛ فقد كان كل يوم مشبعا بانفعالات شديدة حادة . ههنا كنت القى نظرى الى عالم مضطرب غرائز الرجال فيه غليظة فجة ، وجشعهم عار سافر . جذبتنى مرارة هؤلاء الناس ضد الحياة ، وسخريتهم بكل ما هو كائن على وجه البسيطـــة ، فضلا عن انهم لا يكترثون بأنفسهم او يعبأون . كان كل ما اختبرته بنفسى يشدنى الى اولئك الناس فى عنف ، ويزين لى ان انغمس بكليتى فى عالمهم الخشن . فروايات برت هارت ، وغيرها من عديد الروايات الرخيصة التى قرأت ، لا تبرح تشدد فى تأثير جاذبية هذا العالم علىّ .

وكان هنالك باشكين ، اللص المحترف والتلميذ السابق فى دار المعلمين – وهو رجـــل مسلول ينزلون به الضرب بوحشية بين حين وحين . وكان يحذرنى فى فصاحة مطلقة :

– ما الذى يجعلك كثير الخجل والحياء ، فكأنك فتاة جفول نفور ؟ اتخاف ان تفقد شرفك ؟ الفتاة . . . شرفها هو الشىء الوحيد الذى تخاف ان تفقده . اما انت ، فالشرف ليس اكثر من نير فى عنقك . الثور شريف ، ولكن الثور لا يملأ معدته الا بالشوفان !

كان باشكين صغيرا ، احمر الرأس ، يتجول حليق الذقن ابدا – مثل ممثل . تذكرنى حركاته اللدنة الرقيقة بالهرة . وكان ينصب من نفسه استاذا لى ومحاميا عنى . وشعرت انه يتمنى فى اخلاص عميق نجاحى وسعادتى . كان شديد الذكاء ، قرأ كثيرا من المؤلفات القيمة ، سره منها كثيرا رواية «الكونت ده مونت كريستو» .

كان يقول :

– فى ذلك الكتاب قلب وهدف ايضا .

كان مولعا بالنساء ، يشقشق لسانه بحديثه عنهن فى شغف وذهول ، ويتلمظ شفتيه فى لذة شرهة ، وتأخذ جسده المحطم رعشة متشنجة . كان فى تلك الرعشات شىء وبيل ، شىء تشمئز منه نفسي ويزعجنى . ولكننى ارهف سمعى الى حديثه فى غيرة وحماسة مستشعرا روعة جماله .

كان يعالننى ، وخداه الغائران يتضرجان ، وعيناه السوداوان تلتهبان حمية :

– النساء ، النساء ! فى سبيل امرأة واحدة افعل اى شىء . المرأة كالشيطان لا تعرف الخطيئة . عش فى نعيم الحب – فليس ثمة اختراع افضل منه !

كان يملك موهبة نادرة فى رواية القصص . وكان يؤلف للعاهرات فى سهولة ويسر ايضا اغنيات قصيرة بسيطة مؤثرة عن اوجاع الحب وآلامه . وقد طارت شهرتها فى جميع مدن الفولغا وغنّاها الناس على شاطئيه ، وكان من بين منظوماته هذه الاغنية الشائعة :

ان كنتُ شوهاء الجمال
لا ثوب لى ، او بعض مال
فهل انا فى حال حال
يكون لى زوج ؟ محال !

احبنى رجل يدعى تروسوف – كان شخصيـــة غامضة ، وسيم الملاح ، مسرفا فى اناقته ، اصابعه ناعمة موسيقية ، يدير حانوتا صغيرا فى حى الاميرالية . كانت اللافتة على الحانوت تقول «تصليح ساعات» ، اما عمله فبيع البضائع المسروقة .

كان يخاطبنى قائلا ، وهو يداعب فى وقار لحيته الشهباء ويضيق فرجتى عينيه الخبيثتين النافرتين :

– حذار من ان تمارس حيل اللصوص ، يا مكسيميتش . انا ارى ان هذا ليس سبيلك . فانت عاطفى النزعة .

– ماذا تقصد بعبارة عاطفى النزعة ؟

– اقصد الناس الذين لا يعرفون الحســـد والذيـن يحدوهم فضول المعرفة . . .

لم يكن حكمه على صحيحا . كنت اشعر بالحسد فى كثير من الاحيان ومن كثير من الاشياء . وهكذا كنت احسد باشكين على موهبته فى الحديث – لغته التى تشبه الشعر ، بالمقارنات الغريبة لكلماته المؤثرة . واتذكر بداية واحدة من رواياته على مغامراته العاطفية :

– فى ليلة مضببة وجدتنى جاثيا مثل بومة فى جوف شجرة ، فى احد الفنادق فى بلدة سفياجيسك الفقيرة . كنا فى الخريف ، فى شهر تشرين الاول . والسماء تمطرنا فى رخاوة وكسل ،

والريح تئن مثلما يغنى التتارى حين يهان – اغنية لا نهاية لها او – و – وو – وو – وو . . . وهذه هى تجىء ، هفيفة الخطو موردة الطلعة ، اشبه بسحابة عند شروق الشمس ، وفى عينيها تلتمع طهارة الروح . قالت تخاطبنى ، فجاءنى صوتها صادقا لا شائبة فيه : «يا حبى الغالى . انا لم اخطىء فى حقك» . كنت اعرف انها تكذب ، ورغم هذا . . . صدقتها . كان عقلى يعرف ذلك حق المعرفة ، ولكن قلبى لا يؤمن انها خداعة .

كان يتحدث وقد اغمض عينيه نصف اغماضة ، وجسده يهتز بصورة ايقاعية رتيبة ، ويده ترتفع فى لطف ، فى حركة متكررة فى فترات قصيرة ، فتلمس صدره ، فوق القلب مباشرة .

وكان صوته فاترا لا لون له ، واما كلماتـــه فتنبض بالحياة ، عامرة بخفقان موسيقى عندليب .

كنت احسد تروسوف ايضا . كان يروى حكايات اخاذة عن سيبيريا ، وخيوا ، وبخارى . يتحدث فى عبارات مسلية ، لكن مشوبة بمرارة مروعة ، عن حياة رجال الكهنوت . وقد اعلن ذات يوم فى نبرة سريـــة يحدثنى عن القيصر الكسندر الثالث :

– هذا القيصر . . . خبير ماكر فى عمله !

وخطر لى ان تروسوف لا بد ان يكون واحدا من اولئك «الاوغاد» الذين ينقلبون فى خاتمة الرواية ، لدهشة القارىء واستغرابه ، الى ابطال شرفاء .

كان اولئك الناس ، اذا اشتد الحر فى الليالى احيانـــا واختنق الهواء ، يعبرون نهر كازانكا الصغير . وهنالـــك فى المروج ، بين الادغال والاجمات ، يشربون ويأكلون ويتحدثون

عن قضاياهم – او يتحدثون ، فى اغلب الاحيان ، عن تعقيدات الحياة ، عن التشابك الغريب فى العلاقات البشرية . ويتحدثون ، اكثر ما يتحدثون ، عن النساء : يتحدثون عنهن فى خبث او فى كآبة ، احيانا فى صبابة وفى اكثر الاحيان وكأنهم يسترقون النظر الى مكان مظلم قد تكمن فى جنباته امور شريرة ومجهولة . قضيت مع هذه الجماعة ليلتين او ثلاث ليال تمتد فوقى سماء قاتمة مبقعة بنجمات باهتة . كنا نستلقى فى الحرارة الخانقة لحفرة صغيرة تكسوها ادغال الصفصاف بكثرة . وفى هذه الظلمة التى يرطبها الفولغا القريب تترامى اضواء المراكب زاحفة مثـــل عناكب مذهبة فى جميع الاتجاهات ؛ وعلى طول الشاطئ الاسود المتحدر تتبعثر كتـــل وشرايين من النار – هى نوافذ بيوت وحانات قرية اوسلون الغنية . وكانت ضربات عجلات القارب البخارى ترن فى ايقاع اصم على صفحة الماء . والبحارة يصيحون فى قطار عابر من مراكب نقل البضائع فتشبه صيحاتهم الخشنة عواء الذئاب . وفى مكان ما مطرقة تطرق الحديد . واغنية حزينة تسبح فوق منبسط المياه – روح تحتضر وتموت فى رفق . وتذر الاغنية فى القلب كآبة رمادية .

واشجب من ذلك كله ان تسمع الحديث الرفيق المناسب من افواه رفقائى . كانوا يفكرون فى الحياة ، وكل منهم يتحدث عما يهم فؤاده من امور ، ولا يكاد يصغى الى احاديث الآخرين . كانوا يجلسون او يستلقون فى ظلال ادغال الصفصـــاف ، يدخنون ويشربون بين الفينة والاخرى ، من دون نهم ، الفودكا او الجعة ، يعودون الى مسارب ذكرياتهم الغامضة .

قد يقول احد منهم ، من قلب ظلمة الليل التى سحقته على الارض :

– حسنا ، كان يا ما كان مما وقع لى . . .

وما ان ينتهى من سرد حكايته حتى يروح الاخرون يهرون مصدقين على كلماته :

– بلى ، مثل هذه الامور تحدث ايضا . جميع اشكال الامور قد تحدث . . .

«حدث» و«يحدث» و«وقد كان يحدث» ترن فى اذنى الى ان يخيل الى ان العالم فى هذه الليلة قامت قيامته ، وان كل شيء حدث حقا ، وانه لن يحدث من بعد شيء جديد !

كان هذا الشعور ينزع الى اقصاء افكارى عن باشكين وتروسوف . وكانا يجذبان اهتمامى على اية حال . فى حين ان منطق الامور التى اختبرتها يحتم على السير على منوالهما . كان املى الطاغى فى الارتقاء الى المكان الاسمى ، وفى تحصيل العلم – يدفعنى ، بدوره ، الى الاقتداء بهما . وفى ساعات الجوع والمرارة واليأس اشعر بنفسى قادرة قدرة تامة على ارتكاب الجريمة – ليس ضد «حق الملكية المقدس» فحسب . الا ان رومانطيقية روح الشباب قد حالت بينى وبين ان احيد عن السبيل الذى على ان اتخذ عليه طريقى . كنت قد قرأت عدا برت هارت بحبه العارم للانسانية ، والروايات الرخيصة العديدة الاخرى ، عددا طيبا من كتب محترمة ، فأيقظت فى نفسى طموحات الى اشياء اخرى : اشياء تخيلها واهم غامض ، ولكنه اكثر اهمية وابعد اثرا من كل ما رأيت حوالى .

وفى الوقت ذاته كنت انشىء نموذجا جديدا من العلاقات ،

واتلقى انطباعات جديدة . فقد كان طلاب المدرسة الثانوية يتجمعون فى تلك الارض المقفرة القريبة من بيت ييفرينوف ويلعبون الغورودكى ، وكنت انجذب الى واحد منهم بصورة خاصة هو غورى بليتنيوف . كان شابا داكن البشرة مزرورق الشعر كاليابانيين ، تغطى وجهه نقط سود صغيرة كأنها آثار بارود فرك به جلده . كان ممراحا الى ابعد الحدود ، ماهرا فى اللعب ، نشيطا فى الحديث ، تكمن فيه بذور عبقريات مختلفة . كان ، كأكثر ذوى المواهب الروسيين ، يعيش على ما وهبت له الطبيعة ، ولا يقوم بأى جهد لانمائهـا او زيادتها . كان يعشق الموسيقى ، يهب لها اذنا مرهفة ويحس لها تفهمـا رقيقا ، ويعزف عزفـا شيقـا على الغوزلى والبلاليكـا والاكورديون - ومع هذا لم يحاول يوما ان يعزف على آلة اكثر منها رقيـا وصعوبة . كان فقيرا ، رث الثياب ، ولكن قميصه الاجعد الممزق وسرواله المرقع وحذاءه المثقوب تلائم تماما ما فى روحه من لباقة ، وما فى حركات جسده من خفة ، وما فى اشاراته من سعة وفيض .

كان اشبه برجل نفض عنه مرضا طويلا موجعا ، او سجين اطلق سراحه نهار البارحة . كان كل ما تعرضه عليه الحياة جديدا بالنسبة اليه ، ويثير فى روحه شعورا بالغبطة . وكل شيء يثير مرحه الى درجة صاخبة . وكان يطفر فرحا مثـل خذروف رنان .

عندما عرف ما فى حياتى من عناء وخطر عرض على ان اقطن معه ، وان ادرس بحيث اغدو معلما قرويا . وهكذا القيت نفسى فى ذلك المنزل الغريب الممراح المزدحـم بالسكان ،

«الماروسوفكا» ، الذى ربما كان مألوفا لاجيال عديدة متعاقبة من طلاب قازان : بنـــاء كبير تهدم نصفـــه فى شارع ريبنوريادسكايا ، ملأه ، حتى ابعد تخومه ، مالكوه بجموع من طلاب نصف ساغبين وعاهرات ، يضاف الى هذا كله حطام بشرى من شتى الاصناف - مخلوقات بدا ان الحياة ارهقتها واناخت عليها . وكان بلديتنيوف يسكن ردهة تحـــت درج العلية . اقام فراشه تحت الدرج ، والى جانب النافذة فى نهاية تلك المساحة مائدة وكرسيا . ولم يكن لديه شيء آخر . وكان ثمة ثلاث غرف تنفتح على تلك الردهة ، يشغل اثنتان منها عاهرتان ، اما الثالثة فيشغلها مدرس رياضيات مصدور كان فيما غبر من الزمان تلميذا ثانويا - طويل العود ، نحيل القوام ، يبعث الرعب فى قلب الناظر اليه ، يغطى رأسه شعر خشن احمر ، ويلبس خرقا بالية لا تكاد تستر عريه . ومن خلال ثغرات هذه الخرق يلمـــح المرء جلده الازرق المخيف واضلاع هيكله العظمى .

كان يلوح ان غذاء هذا الانســـان كان من اظافره التى يقضمها على الدوام حتى نهاياتها . ليل نهار يعمل فى انجـــاز بعض الرسومات والحسابات ، وسعاله لا ينقطـــع - سعال كئيب اخرس . وكانت العاهرتان تخافانه وتحسبانه مجنونا . ولكنهما تشفقان عليه ، فتتركان له الخبز والشاى والسكر عند بابه . فيخرج ويحمل هاتيك الرزم ، وهو ينفخ كالحصان المتعب . واذا غاب عن بالهما ذلك ، او عجزتا عـن تأمين ذلـــك له لسبب من الاسباب ، فهو يقف فى ممشى الباب ، ويصيح بصوت خشن فى ملء الردهة :

– الطعام !

اما عيناه الغائرتان فى محجريهما المظلمين فتشعان بكبرياء مأفون ، وهو يمزح لمعرفته بعظمته . وبين حين وحين يزوره مسخ احدب ضئيل معوج الساقين – مخلوق اشيب الشعر ، يضع نظارة ضخمة على انف منتفخ ، وله وجـــه خصى شاحب تفرشه بسمة ماكرة . كانا يغلقان الباب فى احكام ، ويجلسان صامتين ساعات طويلة . ويلوح ان همهمة غريبة تنبعث من الغرفة . وذات مرة ، فى ساعة متأخرة من الليل ، هببت من غفوتى على صوت الرياضى الاجش يزمجر فى نقمة عارمة :

– وانا اقول : انها سجن ! الهندسة هى قفص . هذا ما هى عليه ! بلى ، مصيدة فأر ! سجن !

ونبر المسخ الاحدب فى صيحة ثاقبة بكلمة غريبة لم افقه لها معنى جعل يكررها زمنا طويلا . وما لبث الرياضى ان عوى على حين غرة :

– اذهب الى الجحيم ! اخرج !

وبينا الزائر يتقهقر على مدى الردهة ، وهو يدمدم ويصفر غامضا ، ويلف نفسه بعباءته الفضفاضة ، انتصب الرياضى على عتبة الباب طويلا مخيفا تغور اصابعه فى شعره الاجعد ، وهو يؤز :

– اقليدس احمق ! احمق ! سأثبت ان الله يملك دماغا اكبر من دماغ ذلك الاغريقى !

ودلف داخلا بعد ما ضرب الباب ضربة وحشية جعلت شيئا فى الغرفة يهوى على الارض متحطما .

ما اسرع ان اكتشفت ان هذا الرجل كان يحاول اثبات وجود الله عن طريق الرياضيات العليا . ومات ، على ايــة حال ، قبل ان يحقق غايته .

كان بليتنيوف يعمل فى مكتب للطباعة كمصحح ليلى لاحدى الصحف ، ويتقاضى احد عشر كوبيكا فى الليلة الواحدة . فاذا رجعت خاوى الوفاض فنحن نعيش النهار بطوله على اربعــة ارطال من الخبز ، وبما يعادل كوبيكين من الشاى ، وثلاثــة كوبيكات من السكر . ولم يكن لدى وقت طويل اصرفه على اكتساب ما يقيم اود العيش لاننى كنت مضطرا الى الدراسة . كانت الدراسة تتطلب منى جهدا شاقا ، وكنت القى عنتا فى استيعاب النحو بصيغه المتحجرة الضيقة اللعينة التى كنت عاجزا تماما ان اجمع بينها وبين اللغة الروسية — هذه اللغة الحية الصعبة ، الطليقة الى ابعد الحدود . وسرعان ما اكتشفنا بعد حين ، لحسن حظى ، انى بدأت دراستى «فى وقت مبكر جدا» — وانى ولو اجتزت الامتحانات التى تخولنــى ان اغدو معلما ريفيا فلن يتاح لى اشغال هذا المنصب بسبب مــن صغر سنى .

كنت انام وبليتنيوف على فراش واحد — هو ينام نهارا ، وانا انام ليلا . حين يصل الى البيت فى بكور الصباح ، وقد هده عمل الليل واضناه ، ووجهه اكثر دكنة منه عادة ، وعيناه ملتهبتان ، فقد كنت اعجل خطواتى الى الحانة سعيا وراء ماء حار — فلم يكن لدينا سماور من دون ريب — وعندها ، عند مائدة تقوم امام النافذة ، نتناول طعام فطورنا المؤلف من خبز وشاى . ويسمعنى غورى اخبار الصباح ، ويتلو آخر الاشعار

الساخرة التى ينظمها المحرر المدمن على الشراب ، الذى يلقب نفسه «بالدومينو الاحمر» . كان غورى يدهشنى دائما بموقفه اللامبالى من الحياة . ويخال لى انه يعامل الحياة بمقدار ما يعامل المرأة غالكينا سمينة الوجه ، القوادة والتاجرة فى كشك لثياب النساء المستعملة .

من هذه المرأة استأجر جحره الصغير تحت الدرج . ولما لم يكن يملك نقودا يسدد بها اجر هذه «الحجرات» ، فقد كان يسدده بواسطة النكات ، وموسيقى الاكورديون ، والاغنيات العاطفية – يغنيها فى صوت صادح رقيق ، وفى عينيه وميض احتقار مهين . وكانت غالكينا تعمل فى كورس فى الاوبرا ايام شبابهـــا ، وتعرف كيف تقدر الصوت حق قدره . وكانت تستسلم لنوبة من البكاء فى احيان متفرقة . فتساقط عبراتها الصغيرة غزيرة من عينيها الوقحتين على وجنتيها الارجوانيتين المنتفختين – دلالة على السكر والشره . وكانت تمسح الدموع عن وجنتيها بأصابعها السمينة ، ومن ثم تمسح اصابعها بعناية بمنديل قذر .

وتقول موضحة ، وهى تزفر متنهدة :

– آه ، غورى ، غورى . انت فنان حقيقى ! بلى ، ولو كنت على شىء من الوسامة لكنت تدبرت الامور بالنسبة اليك . لقد اتخذت الترتيبات الكفيلة بتدبير امور بعض الشبان الظرفاء مع نساء موجعات القلب بسبب من وحدتهن !

كان واحد من هؤلاء «الشبان» يعيش فوقنا ، فى العلية . كان طالبا وابنا لاحد معاونى الفراء : شاب لا هو طويل ولا هو قصير ، عريض الصدر ، ذو وركين ضيقين على نحو غير

سوى . كان يبدو اشبه بمثلث متوازن على قمته ، ولكن ذروة هذه القمة انشدخت مفترقة عن بعضها . وكانت قدماه صغيرتين مثل قدمى امرأة . وكان رأسه الغارق عميقا بين كتفيه صغيرا ايضا ، تتوجه قبعة من الشعر الاحمر الاشعث اللماع . وكانت عينان خضراوان منتفختان تلتمعان بكآبة فى وجهه الشاحب المصغر .

وقد نجح ، نتيجة جهوده المكثفة ، رغم جوعه الدائم مثل كلب شريد ، ورغم ، ارادة والده ، ان ينجز دراسته الثانوية وينتسب الى الجامعة . وفى الجامعة اكتشف انه يملك صوتا جهيرا مخمليا عميقا ،فغالبته رغبة فى دراسة الغناء .

كانت هذه الرغبة ترهقه بهجماتها المتواصلة ، فأسلمته غالكينا الى احدى زبائنها : امرأة ثرية من طبقة التجار ، تغازل الاربعين من عمرها ، لها ابن فى السنة الثالثة من سنوات الجامعة ، وابنة تنهى الصف الاخير فى الدراسة الثانوية . كانت المرأة نحيلة العود ، مسطحة الصدر ، منتصبة الجذع مثل جندى ، لها وجه جامد مثل وجه راهبة متنسكة . وكانت عيناها الرماديتان الكبيرتان مختبئتين فى وقبين اسودين . وهى ترتدى السواد على الدوام ، تصنع على رأسها منديلا حريريا عتيق الطراز ، وفى اذنيها قرطين ينتهيان بحجرين اخضرين .

كانت هذه المرأة تحضر ملتمسة تلميذها بين حين وحين فى آخر المساء او بكور الصباح . وقد الاحظها دائما – مندفعة بسرعة متهورة عبر البوابة ، منطلقة فى عزيمة ثابتة على طول الساحة . وكان ثمة ما يبعث على الخوف فى طلعتها : الشفتان ، المنضغطتان بشدة بحيث تختفيان عن النظر تقريبا ؛ والعينان

القانطتان المحدقتان الى الامام – المفتوحتان عن آخرهمـــا وتبدوان رغم ذلك كأنهما فقدتا القدرة على البصر . لم يكن فى مقدورك ان تنعتها بالقبح . ولكن توترها الملحوظ هو الذى يشوه منظرها ، فتلوح وكأنها تشد اوصالها وتقرص قسماتها فى قسوة وعنف .

وكان بليتنيوف يقول :

– انظر . انها اشبه بامرأة فقدت صوابها !

كان التلميذ يكرهها ويتهرب منها ، فتلاحقه مثل جاسوس ، او دائن عنيد صلب الرأى .

كان يئن ، حين يتناول قليلا من الخمرة :

– انا رجل لحقنى خزى وعار . ما حاجتى الى الغناء ؟ لن يأذنوا لى بالاقتراب من المسرح بهذا الجسم والوجه الذى احمله . سوف لن يأذنوا لى بذلك على الاطلاق !

فينصح له بليتنيوف قائلا :

– تخل عن هذا العمل كله !

– اعرف . ولكننى اشعر بالاسف من اجلها . بلى – لا استطيع ان اردها ، ومع هذا فأنا اشعر بالاسف من اجلها ! لو كنت تعرف كيف هى . . .

كنا نعرف . فقد كنا نسمعها ليلا وقد وقفت على درجات العلية وهى تترجى فى صوت عميق متهدج :

– محبة بالله . . . يا قلبى العزيز ، محبة بالله !

كانت صاحبة معمل كبير ، وتملك عقارا ، وتربى خيولا .

وقد تبرعت بآلاف الروبلات اعانة لمدرسة للقابلات . كانت تترجى ، مثل متسول ، ان يوهب لها الحب .

كان بليتنيوف يأوى الى فراشه بعـــد الفطور ، فى حين انطلق انا بحثا عن عمل ، واعود فى ساعة متأخر من الليل حين يحين اوان ذهابه الى مكتب الطباعة . فاذا حملت معى شيئا من الطعام - خبزا وسجقا او كرشا مسلوقا - فنحن نقتســـم ذلك ، فيحمل حصته معه الى العمل .

وما ان يذهب حتى اروح انـــا اتجـــول فى ردهـــات «ماروسوفكانا» وطرقها الفرعية ، اراقب فى فضول حياة هؤلاء الناس الذين هم ، بالنسبـــة الى ، جدد غير مألوفين . كان البيت يزدحم بقاطنيه ، فهو اشبه بكثيب نمل حقيقى . كان يعبق بروائح لاذعة كريهة لا يعرف لها منشأ ؛ وفى كل زاوية منه تنسل اخيلة ثقيلة لا تحمل للانسان شيئا من الود . ومنذ بكور الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل يستمر ضجيج الحياة ويتوالى : القعقعـــة المستمرة لماكينات الخياطات ؛ واصداء جوقة فتيات الاوبريت ؛ والصوت الجهير المخملى للتلميـــذ القاطن فى العليـــة وهو يتمرن على الغناء ؛ والهذيان الطنان لممثـــل سكير نصف مخبول ؛ وصيحات العاهرات السكرى الهستيرية . وكان يهب فى فكرى سؤال طبيعى لكن لا جواب له :

- ما هى جدوى هذه الاشياء كلها ؟

كان ثمة رجل فى البيت ، يطوف هنا وهنالك دونما هدف بين الشبان الساغبين : بارز البطن ، جزرى الشعر ، المفروش حول بقعـــة منتشرة صلعـــاء ؛ وله ساقان مستطيلتان

مستدقتان ، وعظام وجنتيه عالية ، وفمه ضخم يعج بأسنان صفراء تشبه اسنان الحصان ، اطلقوا عليه من جرائها لقب «الفرس الجزرى» . كان متورطا فى قضية جزائية مر عليها حتى الآن ثلاث سنوات ضد عدد من اقاربه من تجار سيمبيرسك . وكان يوضح لكل من يبدى استعداد للاصغاء اليه :

– لنأملن انى سأموت ، ولكننى سأدمرهم حتى اخر كوبيك لديهم ! سأجعلهم يتسولون ، ويعيشون على الصدقات . وعندما ، عندما تنتهى ثلاث سنوات كاملات – عندها ارد لهم جميع الاموال التى كسبتها عن طريق القانون ، اردها لهم بكاملها ، وسأعالنهم قائلا : «حسنا ، عليكم اللعنة ! ماذا تقولون الآن» ؟ هذا ما سأفعله !

ويسأله الناس :

– اهذا هو هدفك فى الحياة ، ايها «الفرس ؟»

ويجيب :

– لقد انصرفت بكليتى اليها ، قلبى كله منصرف اليها ، حتى اننى لا استطيع ان افكر فى شىء آخر !

كان يقضى نهاره فى محكمة المقاطعة او المحكمة العليا ، او فى مكتب محاميه . وغالبا ما يعود مساء فى عربة محملة بالصناديق والرزم والزجاجات ، يحيى فى غرفته القذرة ، بسقفها المنخفض وارضها المتصدعة ، حفلات صاخبة ، فيدعو الطلاب والخياطات – وكل من يرغب فى وقعة طعام مرضية يصاحبها قليل من الشراب . وكان هو نفسه ، «الفرس الجزرى» ، يشرب الروم وحده ، وهو شراب يترك لطخا سوداء لا تمحى او تزال على غطاء المنضدة ، وثيابه ، وحتى على

الارض . وبعدما ينهل عدة جرعات يشرع فى العواء قائلا :

– ايتها الطيور الصغيرة ! ايتها الطيور الصغيرة العزيزة ! انا احبك ! انت جماعة شريفة ! انا نذل شرير وتمساح ! اننى احاول تدمير اقربائى الاقربين ، ولسوف افعل ذلك ايضا ، وحق الله ، سوف افعل ذلك ! لتأملين انى سأموت ، ولكن . . .

من عينيه الطارفتين الحزينتين تنحدر عبراته الثملى على وجهه القبيح الغريب . فيمسح هذه العبرات عن وجنتيه براحة يده ويجفف يده على ركبتيه . وكان سرواله على الدوام مغطى بلطخ دهنية .

كان يصيح :

– أية حياة هذه التى تعيشون ؟ جوع وبرد ، وخرق مهلهلة على ظهوركم . أهذا عدل ؟ ماذا فى مقدوركم ان تتعلموا وأنتم تحيون على هذه الوتيرة ؟ آه ، لوكان القيصر يدرى نمط هذه الحياة التى تحيون . . .

ويخرج من جيبه حزمة من الاوراق النقدية ، ويعوى صائحا :

– من يحتاج الى مال ؟ اليكم ، خذوه ، ايها الاشقاء !

وتتدافع فتيات الجوقة والخياطات على الاوراق النقدية فى جشع محاولات اختطافها من قبضته المكسوة بالشعر . فيحتج ،وهو يطلق قهقهة مدوية :

– هذه ليست لكم ! انها للطلاب !

ولكن الطلاب لا يأخذون شيئا من نقوده .

ويخور ابن الفراء غاضبا :

– لتذهبن النقود الى الجحيم !

وقد جلب هو نفسه مرة لبليتنيوف ، وقد تعتعه السكر ، حزمة من فئة العشرة روبلات جعدها فى كرة صلبة ، وقال وهو يطوح النقود على المنضدة :

– اليك ! أتريدها ؟ أنا لا اريدها . . .

استلقى على فراشنا وشرع ينتحب ويزمجر بصوت عال اضطرنا ان نصب عليه الماء ونرغمه على الشرب . وما ان اغفى حتى راح بليتنيوف يحاول تمليس النقود . وكان ذلك عملا مستحيلا . كانت الاوراق النقدية قد انضغطت بشدة بحيث لم يكن ثمة بد من نقعها بالماء قبل فصلها عن بعض .

غرفة حقيرة تعج بالدخان ، تنفتح نوافذها على جدار البيت المقابل المصنوع من القرميد ، مزدحمة ، فاسدة الهواء ، صاخبة ، وروعة ، و«الفرس» يزمجر بصوت يطغى على جميع الاصوات . سألته :

– ما الذى يدعوك الى الاقامة هنا ؟ لم لا تقيم فى فندق ؟

– يا قلبى العزيز ، ذلك بسبب من روحى ! ان روحى تحس الدفء ههنا معكم . . .

فوافق ابن الفراء قائلا :

– صحيح ايها «الفرس !» وأنا مثلك . كان يمكن ان يقضى علىّ لو كنت فى مكان آخر . . .

وترجى «الفرس» بليتنيوف :

– اعزف لنا شيئا . غننا اغنية .

وشرع غورى يغنى ، والغوزلى على ركبتيه :

اشرقى ، آه اشرقى ايتها الشمس البراقة
واصبغى السماء حمرة . . .

كان صوته الرخيم ينفذ الى القلب مباشرة .

ويخيم على الغرفة هدوء ، وتجلس الجماعة بأسرها تنهل متفكرة كلمات الاغنية الحزينة ، وانغام الغوزلى النابضة فى عذوبة .

ويهدر صوت ابن الفراء حبيب التاجرة التعيس :

– يا للروعة ، حلت عليه اللعنة !

كان غورى بليتنيوف ، بين سكان ذلك البيت الغريبين ، الوحيد الذى يتحلى بحكمة المرح ، يلعب دور الجنى الطيب فى الاساطير الخرافية . وكانت روحه الفتية المليئة بنضارة الشباب تضىء الحياة بالعاب نارية متوالية من النكات المختلفة ، والاغنيات الرائعة والسخريات اللاذعة عن الطبائع والعادات البشرية ، والاحاديث الجريئة عن جور الحياة الفادح . لم يكن قد جاوز بعد العشرين من عمره ، ويبدو مثل طفل صغير . ورغم هذا فقد كان جميع سكان البيت يعتبرونه واحدا ممن يلجأون اليهم ، حين تقسو الحياة ، طلبا للمشورة المتزنة الرصينة ، على قدر ما يستطيع انسان قادر ان يمد يده بالمعونة على هذا النحو او ذاك . وكان الناس الطيبو الطبع يحبونه ، والناس السيئو الطبع يهابونه . فضلا عن ان الشرطى نيكيفوريتش العجوز يبتسم على الدوام ابتسامته الثعلبية المزيفة حين يلتقى غورى .

كان «الماروسوفكا» ينحدر صعدا وينفتح على شارعين :

ريبنوريادسكايا ، والى الابعد منه عاليا ستارو-غورشيشنايا . وفى هذا الشارع الاخير ، فى كوة صغيرة غير بعيد عن البوابة ، يقوم محرس نيكيفوريتش .

كان كبير الشرطيين فى ضاحيتنا – وهو شيخ طويل نحيل يعلق مجموعة من الميداليات البراقة على صدره . وكان له وجه ذكى ، وابتسامة عذبة حلوة ، وعينان ماكرتان .

كان نيكيفوريتش يبدى اهتماما ملحوظا بمستعمرتنـــــا الصاخبة التى تجمع بشرا لهم ماض وآخرين ينتظرهم مستقبل . وكانت طلعته العجفاء تتخايل مرات عديدة على مدى النهار عند البوابة . يخطو متماهلا عبر الساحة ، ويستدق النظر من كل نافذة ، اشبه ما يكون بناظر فى حديقة للحيوانات يقوم بجولته التفقدية على الاقفاص . وخلال الشتاء القى القبض على اثنين مـــن القاطنين : سميرنوف ، وهو ضابط بذراع واحـــدة ، وموراتوف العسكرى . وقد اشترك الاثنان فى حملة سكوبيليف على آخال-تيكه ويحمل كل منهما صليب القديس غيورغى . وقد اتهمـــا ، بالاضافـــة الى زوبنين وأوفسيانكين وغريغوربيف وكريلوف وآخرين ، بمحاولة اقامة مطبعة سرية عمد موراتوف وسميرنوف بسبب منها ، وفى وضح نهار يوم احد ، الى محاولة سرقة بعض الحروف المطبعية من مكتب كليوشنيكوف للطباعة فى احد شوارع المدينة الاكثر حركة ونشاطا . فى هذا المكتب تم اعتقالهما . وفى «الماروسوفكا» ، ذات ليلة ، قبض رجال الدرك على رجل طويل هزيل ادكن الطلعة كنت قد اطلقت عليه لقب «برج الجرس الجوال» . وحين عرف غورى بذلك فى صباح

اليوم التالى خاطبنى قائلا ، وهو يدفن اصابعـــه فى شعره الأسود مهتجا :

– انظر هنا يا مكسيميتش – سبعة وثلاثون شيطانا ! – اهرب بأقصى ما تستطيع من سرعة . . .

وبعد ما اوضح لى اين ينبغى ان اهرب ، اضاف قائلا :

– لكن حذار ! قد يكون هنالك جواسيس فى الجوار . . .

افعمتنى هذه المهمة السرية غبطة ، فانطلقت راكضا ، خفيفا مثل السنونو ، الى حى الاميرالية . وههنا ، فى مخزن نحاس عاتم ، عثرت على شاب اجعد الرأس له عينان زرقاوان تلفتان النظر . كان يعمل فى مقلاة نحاسية ، لكن دون ان تبدو عليه ملامح العمال . وفى الزاوية القصية ثمة شيخ ، شعره الابيض مربوط بشريطة من الجلد ، ينتصب فوق ملزمة لا ادرى ماذا يفعل بحنفية فى يده .

سألت :

– أثمة عمل هنا ؟

فأجاب النحاس الشيخ فى فظاظة :

– ثمة عمل كثير . لكنه ليس لك !

رشقنى الشاب بنظرة سريعة ، ثم حنا رأسه فوق عمله من جديد . دفعت قدمه بقدمى بصورة سرية ، فادار عينيه الزرقاوين صوبى فى انشداه مغيظ ، واحكم قبضته على مقبض المقلاة النحاسية كمن سيضربنى بها . واعلن فى صوت هادىء بعدما لمح غمزتى له :

– أخرج ، اخرج . . .

غمزت له مرة اخرى ، وخرجت من المحل . وقفت خارج

الباب منتظرا . نهض النحاس الاجعد الرأس ، ومدد اطرافه المتقلصة ، ولحق بى . اشعل لفافة ، والتفت الى فى ترقب صامت .

– أأنت تيخون ؟

– هذا صحيح .

– لقد اعتقل بيوتر .

انعقد حاجباه غضبا . وبحثت عيناه عن عينى .

– عماذا تتحدث ؟ اى بيوتر ؟

– الشاب النحيل . الشبيه بالشماس .

– حسنا ؟

– هذا كل شىء .

سأل النحاس :

– وما علاقتى انا ببيوتر ، والشماس ، وجميع هذا الهراء الذى تلغو به ؟

اثبتت لى صيغة سؤاله ذاتها صحة اعتقادى ان هذا الرجل ليس عاملا عاديا . رجعت ادراجى الى البيت خفيف الخطو فخورا بنجاحى فى تأدية مهمة غورى . هكذا كانت اول مساهمة لى فى القضايا «السرية» .

كان غورى بليتنيوف على صلة بهذه القضايا ، ولكنه كان يجيب عن استفساراتى عن كيفية اشتراكى قائلا :

– انت صغير بعد ، يا أخـــى . التفت الى كتبـــك وحسب . . .

كان يفريينوف قد قدمنى الى شخص يتسم بالغرابة – تقدمة جرت فى حذر واحتراس كيما تجعلنى اترقب حدثا جليل

الخطر . وكى يكمل يفريينوف مهمته صحبنى الى أرسكويه بوليه ، وهو حقل مكشوف يقع وراء حدود البلدة ، وحذرنى طوال الطريق ان اللقاء الذى سأحظى به يستدعى ان اوليه كل الحذر والكتمان . وأخيرا اشار الى شبح صغير شاحب يمشى وئيدا عبر الحقل المهجور على مسافة بعيدة وهمس وهو ينظر من فوق كتفه نظرة تمهيدية :

– هذاك هو . فاتبعه . فاذا وقف اقترب منه وقل له : «انا من خارج البلدة» .

الامور السرية دائما تغرى وتفتن ؛ ولكنها بدت الآن على شيء من السخافة : نحن فى يوم قائظ مشرق ، وهذا رجل ضئيل يترنح وحده مثلما يترنح العشب الذاوى فى الحقل – ولا شيء غير ذلك . ادركته عند بوابة المقبرة ، ورأيت نفسى أواجه فتى صغير القسمات قليل اللحم حاد النظرات مدور العينين كأنهما عينا عصفور ، يرتدى معطفا رماديا من معاطف الطلبة الثانويين المألوفة ، ولكنه استبدل بأزراره المعدنية البراقة ازرارا سوداء مصنوعة من العظم . وكانت على قبعته الشعثاء ايضا بقعة سوداء حيث كانت شارة المدرسة معلقة سابقا . لقد اوحى الى ، وانا انظر اليه ، بشيء مبتسر – فكأن صبره نفد كى يرى نفسه وقد صار كبيرا .

جلسنا بين القبور فى ظلال بعض الادغال الكثيفة . كان اسلوبه فى الحديث باردا عمليا . لم يقع فى قلبى موقع الرضى ، ولم احب شيئا فيه . وبعدما سألنى فى قسوة عما قرأت عرض على ان اشترك فى حلقة دراسية نظمها هو ،

فقبلت . ثم افترقنا . مضى امامى بعد ان القى على الحقل المقفر نظرة محترسة .

كان هنالك ثلاثة او اربعة منا فى تلك الحلقة . كنت اصغرهم سنا ، واقلهم استعدادا وتأهبا لدراسة جون ستوارت ميل ، او الحواشى التعليقية التى كتبها تشيرنيشيفسكى عنه . وكنا نلتقى فى غرف ميلوفسكى - وهو طالب فى دار المعلمين غدا فيما بعد من كتاب القصة القصيرة ويوقعها باسم مستعار هو ايليونسكى . وبعدما كتب قرابة خمسة مجلدات اقدم على الانتحار . لطالما تعرفت الى اناس هجروا الحياة طائعين مختارين !

كان ميلوفسكى رجلا هادئا ، حييا فى تفكيره ، حذرا فى كلامه ، يسكن فى قبو بيت قذر ، يشتغل فى النجارة «ليحافظ على التوازن بين الجسد والروح». وكانت صحبته تبعث على السأم . اما ميل فلم تكن دراسة كتابه تستلفت اهتمامى . فان المبادئ الاساسية فى علم الاقتصاد بدت لى مألوفة تمام الألفة ، وقد تمثلتها فورا عن طريق التجربة ، فهى منقوشة على جلدى . وكان يخال لى ان من العبث ان تؤلف مثل هذه الكتب الكبيرة ، المحشوة بكلمات صعبة ، حول اشياء تتضح عناصرها الوضوح كله لكل من جهد فى ان «الآخرين» - وليس هو - قد يعيش فى رخاء ويسر . وكان عناء كبيرا ، بالنسبة الى ، ان اجلس ساعتين او ثلاث ساعات على نحو موصول فى تلك الحفرة القبو ، استنشق رائحة الغراء ، واراقب عثّ الخشب يزحف فوق الجدران القذرة .

تأخر مدرسنا ذات يوم عن الظهور فى موعده المألوف .

خطر لنا انه لن يحضر على الاطلاق ، فأعددنا لمأدبة صغيرة : زجاجة فودكا ، وقليل من الخبز ، وخيار . وعلى حين غرة مرت ساقاه الرماديتان بسرعة امام النافذة ، فتدبرنا أمرنا واخفينا الفودكا تحت المنضدة قبل ان ينضم الينا . وبينا هو يشرح النتائج التى توصل الى تشيرنيشيفسكى جلسنا نحن متخشبين كالحمقى ، خائفين من الاتيان بأى حركة ، مرتجفين خشية من ان يدلق الزجاجة احدنا بقدمه . وفى النهاية دلقها معلمنا نفسه . سمعها تتدحرج ، فمد بصره تحت المنضدة — ولم ينبس بحرف . آه ، ما كان اسعدنا لو انه صب علينا لعناته دون انقطاع !

ان صمته ووجهه الجامد ، والحيف العميق فى عينيه الضيقتين ، هذه الامور كلها ملأتنى رهبة وهلعا . اجلت بصرى اختلاسا فى وجوه رفاقى المضرجة خجلا ، يملؤنى شعور اننى اذنبت فى حق معلمنا ، واننى اشعر بالأسف من اجله ، على الرغم من ان شراء الفودكا لم يكن فكرتى .

اضجرتنى هذه الجلسات الدراسية . رغبت فى الهرب والتجوال فى الحى التتارى . ههنا قوم طيبون مسالمون يعيشون حياة فذة شريفة خاصة بهم . وهؤلاء الناس يتحدثون لغة روسية محرفة بصورة تثير السخرية . وحين يتراخى المساء تنطلق اصوات المؤذنين الغريبة سابحة من اعالى المآذن الشاهقة تدعو الناس الى الصلاة . وخيل الى ان حياة التتار بأسرها تختلف الاختلاف كله عما ألفنا ، وبعيدة عما اعرف من حياة ، هذه الحياة التى لم تكن تعرفنى على شىء من السعادة .

شدنى الفولغا بأواصر المحبة ايضا - واسرتنى موسيقى العمل عليه . هذه الموسيقى لا تبرح حتى الآن تهرق فى قلبى نشوة ما بعدها نشوة ؛ فأظل اتذكر اطيب الذكرى تلك الساعات التى تذوقت فيها ، اول ما تذوقت ، شعر العمل البطولى .

ارتطم مركب كبير للنقل محمل ببضائع فارسية باحدى الصخور ، غير بعيد عن قازان ، فتكسر قاعه . انضممت الى جماعة الحمالين التى تم استئجارها لتفريغ ذلك المركب . كنا فى ايلول ، وريح عاتية تهب على طول النهر حاملة معها مطرا رهيبا . وراحت الامواج تتواثب صخابة على طول النهر الرمادى ، والريح تنزع ذراها بقسوة . وكان حمالونا ، ويعدون حوالى خمسين شخصا ، قد اجتمعوا على سطح مركب نقل فارغ ، متراكمين برّح بهم الحزن تحت الاقمشة المشمعة والاكياس . وكانوا يقطروننا فى اتجاه مجرى النهر بواسطة قارب بخارى صغير للجر يقذف فى المطر حزما من شرارات حمراء .

اقبل الليل . وغرقت السماء الرصاصية المشبعة بالماء مستلقية فوق النهر . وجعل الحمالون يهرون ويشتمون ويلعنون المطر ، والريح ، والحياة . وشرعوا يزحفون متكاسلين على سطح المركب ، باحثين عن مأوى من البرد والرطوبة . وخيل الى ان هذه المخلوقات الناعسة غير اهل لانجاز العمل المكلفة به ، ولن يكون فى مقدورها انقاذ المركب الغارق .

فى حوالى منتصف الليل وصلنا المياه الضحلة ، وتوقف مركبنا الى جانب المركب المحطم . ونزع رئيس الحمالين - وهو شيخ ماكر ، مجدور الوجه ، بذئ اللسان ، عيناه

وانفه المستدق كأنهما فى رأس حدأة - قبعته المبللة عن رأسه الاصلع وصاح فى صوت مرتفع يشبه صوت امرأة :

- صلوا ، يا اولادى !

تجمهر الحمالون جميعا على سطح المركب ، اشبه بجسد اسود فى ليلة رمادية ، وشرعوا يهمهمون مثل الدببة .

زمجر قائدهم ، وقد انهى صلواته قبل الآخرين :

- المصابيح ! هاتوا الآونة ، يا شباب ، برهانكم على ما تستطيعون ان تفعلوا . البرهان الحقيقى ، يا صغارى ! ابدأوا ، بمعونة الله !

وبدأ اولئك الرجال الكسالى المتوانون المبللون بالمطر يعطون «برهانهم على ما يستطيعون ان يفعلوا» . بدوا وكأنهم فى معركة - يهتفون ، ويصيحون ، ويتمازحون - فألقوا بأنفسهم على السطح وفى عنابر المركب الغريق . وراحت اكياس من الارز ، وبالات من الزبيب والجلود المدبوغة وجلود الخراف تتطاير حوالى فى الهواء خفيفة مثل الريش . وتراكضت هنا وهناك اشباح قصيرة يشجع بعضها بعضا بالصياح والصفير والشتائم المغلظة . وكان عسيرا ان يصدق المرء ان مثل هذه السهولة المرحة والمهارة الفائقة يمكن ان تظهرا من ذات تلك المخلوقات المكتئبة البليدة التى كانت قبل لحظات معدودة تشكو من مرارة الحياة فى وحشة مثلما تشكو من المطر والبرد . وازداد المطر برودة وانهمارا ، واشتدت الريح اعصارا ، تنتزع قمصاننا ، تجعلها تلتف فوق رؤوسنا ، معرية بطوننا . وفى تلك الظلمة الندية ، على ضوء ستة مصابيح معتمة ، اندفعت تلك الكائنات السود التى تصدر اقدامها حفيفا

خافتا على سطح المراكب . يعملون وكأنهم جياع الى العمل ، كأنهم يترقبون منذ امد بعيد لذة الصراع مع اكياس ثقيلة تتطاير من يد الى يد ، والتراكض ببالات من البضائع ملقاة على اكتافهم . كانوا يعملون وكأنهم يلعبون ، مفعمين حماسة تشبه حماسة الاطفال ، واندفاع غيور الى العمل لا تعادله فى لذته وعذوبته غير احضان النساء وملاطفاتهنّ .

وهذا رجل ضخم ملتح ، بلله المطر وقلقله ، يرتدى معطفا طويلا – ربما كان صاحب البضائع او وكيله – يزعق فجأة بأعلى ما فى صوته من قوة :

– هاى ، ايها الرفاق ! لكم ملء سطل ! وانتم ، ايها القراصنة ، لكم ملء سطلين ! فأنجزوا هذا العمل !

فردت عليه زمجرة من الاصوات انطلقت من قلب الظلمة :

– ثلاثة سطول !

– ثلاثة ! فأنجزوا هذا العمل !

وانطلقت دوامة العمل فى قوة جديدة متنامية .

انا ، ايضا ، امسكت الاكياس ، وجررتها ، وقذفتها ، وركضت وحملت من جديد . وخيل الى انى انا ، وكل ما يحيط بى ، قد أُخذنا فى دورة رقص غاضب وحشى ؛ وان اولئك الناس قادرون على الاستمرار فى عملهم المرح المذهل ، فى طاقة لا يعتورها فتور او راحة ، طوال شهور – بل طوال سنوات ؛ وانهم قادرون ، لو وضعوا ايديهم على ابراج الكنائس ومآذن المساجد ، ان يحملوا المدينة بأسرها من قواعدها الى المكان الذى يطيب لهم .

تذوقت فى تلك الليلة سرورا لم اشعر بمثله من قبل قط . والتهب قلبى برغبة جارفة فى ان ابقى ما حييت فى هذه النشوة من العمل ، وهى نشوة زادت فكادت ان تكون نصف جنون . كانت الامواج تتراقص تحتنا . والمطر لا يبرح يمسح جوانب المركب ، والرياح تعصف فوق النهر . وفى ملء الضباب الرمادى الذى ينشره الفجر راح الرجال المبللون ، انصاف العراة ، يتابعون تراكضهم ، فى غير كسل ولا وناء ، يصرخون ويضحكون ، فخورين بقواهم معجبين بعملهم . وعندهـــا — عندها فرقت الرياح حجب الغيوم الرصاصية الى شقين ، وومض شعاع متورد فى الشمس عبـر رقعـة السمـاء الزرقـــاء — حيتها تلك البهائم المرحة بزمجرة صاخبة ، وهى ترفـــع اخطامها المكشرة المؤطرة بشعورها ولحاها المنداة . اردت ان اضمها الى صدرى ، هاتيك الحيوانات ذوات الساقين ، الماهرة الذكية فى انجاز عملها ، المستغرقة فيه استغراقـــا كليا .

وشعرت انه ليس ثمة شىء فى الوجود يمكن ان يقاوم هذه الطاقة الممراحة من القوة . كان فى مقدورها ان تخلق المعجزات على الارض ، ان تغمر الارض بأسرها فى ليلة واحدة بقصور رائعـــة ومدن زاهرة مثلمـــا تذكر اساطير السحر جذبته . وعلى مدى دقيقة او دقيقتين ، تأمل شعاع الشمس عمل هؤلاء الرجال ، ثم جبته شحنة الغيوم الفسيحة فغرق فى اعماقها مثلمـــا يغرق طفل فى اليـــم . وغدا المطر انهمارا متواصلا .

صاح احدهم :

— كفى !

فأجابته اصوات متوحشة :

— من يقول كفى ؟

حتى الساعة الثانيـــــة من بعد الظهر ، حين تم نقل آخر حمولة ، ظل الرجال يوالون العمل دون راحة ، نصف عراة فى ذلك الانهمار المطرى وعتو الريح ، ففهمت فهما عميقا القوة الجبارة التى يجيش بها ثراء العالم البشرى .

انتهى العمل ، فتسلقنا جميعا قارب الجر ، واستغرقنا فى النوم كأننا سكارى وحين بلغنا قازان تدفقنا على الشاطئ الرملى مثل مجرى مائى طينى رمادى ، ومشينا الى الحانة لنشرب ثلاثة دلاء من الفودكا .

هنالـــك دنـا منى اللص باشكين ، وحـدق فى البصر ، واستفهم :

— ماذا كانوا يفعلون بك ؟

اخبرته فى طرب حديث العمل . فأصغى الى ، وزفر ، وقال فى نبرة مشمئزة :

— احمق . اكثر من احمق ! معتوه !

ومضى ينساب وهو يصفر لحنا بين الموائد التى جعـــل الحمالون يصخبون حولها محتفلين . وغنى صوت جهير ، من احدى الزوايا ، اغنية فاحشة :

فى الليل الاسود فى البستانْ
تمشى تتخطر غصن البانْ

ودوّت عشرة اصوات صماء ، وراحات ايديها تعزف على الموائد :

والحارس مر بها فرأى . . .
أهٍ . . ورأى . . آه . . ما كانْ . .

وارتفعت قهقهات صاخبة ، وصفرات متوحشة . واهتزت الجدران من كلمات ربما لم يكن ثمة مثيل فى اى مكان على الارض لتعابيرها الساخرة المتهورة .

عرفنى احدهم بأندريه ديرينكوف ، وهو صاحب دكان بقالة صغيرة ضائعة فى نهاية شارع ضيق فقير ، على ضفة اخدود ملىء بالنفايات .

كان ديرينكوف ضامر الذراع ، وجهه لطيف ، وله لحية وسيمة وعينان ذكيتان . وكان يملك اروع مكتبة فى قازان تحوى كتبا نادرة وادبا محرما ، وهى مجموعة يتداولها الطلاب فى عدد من المؤسسات الثقافية المختلفة ، الاشخاص النازعون الى الثورة فى افكارهم .

كانت بقاليته قائمة فى جناح خفيض ملحق بمنزل يملكه خصى يتعامل فى اقراض المال . وكان ثمة باب يصل بين الدكان وغرفة كبيرة لا تكاد تنيرها نافذة تطل على باحة الدار . وكانت الغرفة بدورها تؤدى الى مطبخ ضيق . ووراء هذا المطبخ ، فى زاوية من ممر عاتم بين الجناح الخفيض والبيت ، مستودع صغير يضم المكتبة الشريرة . بعض هاتيك الكتب كانت منسوخة بخط اليد على دفاتر سميكة . من بينها «الرسائل التاريخية»

للافروف ، و«ما العمل ؟» لتشيرنيشيفسكى ، وبعض مقالات لبيساريف ، و«الملك مجاعة» و«اعمال معقدة» . وكانت جميع هذه المخطوطات مجعدة ممزقة من كثرة قراءتها .

حين دخلت الدكان اول مرة اومأ ديرينكوف ، وقد شغله بعض الزبائن ، برأسه الى الباب الداخلى . فدلفت الى غرفة كبيرة نصف عاتمة ، ورأيت رجلا عجوزا صغيرا جاثيا على ركبتيه فى زاوية الايقونات يصلى فى حرارة . فذكرنى بصورة سيرافيم ناسك ساروف . وحين وقفت اراقبه احسست شيئا خاطئــا يستولى على – انه شعور بالتناقض .

كانوا قد وصفوا لى ديرينكوف انه من «الشعبيين» . وكنت افهم ان الشعبى هو ثورى ، والثورى لا يؤمن بالله . فبدا لى ان ذلك الشيخ التقى لا مكان له فى ذلك البيت .

انهى صلاته ، فمسد شعر رأسه ولحيته الابيض ، والقى على نظرة فاحصة ، وقال :

– انا والد اندريه . فمن تكون انت ؟ . . اه ، هكذا اذن ! ولقد حسبتك طالبا متخفيا .

سألت :

– وفيم يتجول طالب متخفيا ؟

فأجاب الشيخ فى دعة :

– حسنا . لست ادرى . ورغم هذا كله فمهما تخفيت فان الله يعرفك !

اختفى فى المطهى . وجلست عند النافذة ، وسرعان ما غرقت فى افكارى . وعلى حين فجأة سمعت احدهم يقول موضحا :

– هذا هو اذن !

كانت فتاة فى ثيابها البيضاء تستند الى اطار باب المطهى ، شعرها الاشقر قصير ، ووجهها الريان شاحب . وثمة ابتسامة تشع من عينيها الزرقاوين الغامقتين . كانت اشبه ما تكون بملاك من الملائكة المرسومين فى الكتب الرخيصة .

استوضحت :

– ما الذى أدب الذعـــــر فى فؤادك ؟ أانا ممن يثيرون الخوف ؟

جاء صوتها رقيقا متهدجا . ومشت نحوى على حذر وفى وناء ، وهى تستند الى الجدار ، فكأن الارض الصلبـة تحت قدميها عبارة عن حبــــل متأرجح ممدود فى الفضاء . وكانت قلقلتها فى السير تزيدها شبها بمخلوق من عالم آخر . ارتعد جسدها بأسره فكأن ابرا حادة تنغرز فى اسفل قدميها ، او ان الجدار يحرق يديها الممتلئتين الطفوليتين . وكانت اصابعهـــا تتحرك بصورة غريبة .

وقفت امامها أبكم ، مرتبكا بصورة عجيبة ، يتملكنـــى شعور بشفقة غريبة . يا لغرابة كل ما هو موجود فى هذه الغرفة العاتمة !

جلست الفتاة على مقعد فى حذر فكأنها تخشى ان يطير قبل جلوسها . وحدثتنى فى بساطة لم اعهدها فى مخلوق آخر انها بدأت تتجول منذ اربعة او خمسة ايام ليس غير بعد ما فقدت عادة استخدام اطرافها فلزمت فراشها قرابة ثلاثة شهور .

قالت ، وهى تبتسم :

– انه نوع من مرض عصبى !

تمنيت فيما اذكر لو أُعطيت تفسيرا آخر لمرضها . مرض

عصبى – انه تعبيير مبتذل بالنسبة الى فتاة مثلها ، وفى مثل هذه الغرفة الغريبة ، غرفة تلوح الاشياء فيها وكأنها تضغط على الجدران فى رقة ،ولهب قنديل الايقونة يسطع فى زاوية الايقونات فى ضوء باهر ، وظلال سلاسله النحاسية المتساقطة على الغطاء الابيض المنشور فوق منضدة الطعام الكبيرة تتأرجح وتتلوى من دون سبب واضح .

واسترسل الصوت النحيل الطفولى قائلا :

– سمعت عنك كثيرا ، فاردت ان اراك لاعرف من تكون .

شعرت بالضيق – ضيق لا استطيع احتماله – من جراء تلك النظرة التى خلعتها الفتاة على . كان ثمة شىء ، فيما وراء عينيها الزرقاوين الغامقتين، يبدو وكأنه ينفذ الى اعماقى اكثر فأكثر . ما كان فى مقدورى ان اتحدث مع فتاة مثلها . لم اكن اعرف كيف يكون ذلك . فجلست هنالك اخرس اللسان ، ارنو بعينىّ الى الصور المعلقة على الجدران : هرتزن ، وداروين ، وغاريبالدى .

وجاء من الدكان فتى يماثلنى عمرا ، اشقر الشعر وقح النظرات ثم خرج الى المطهى ، وهتف وهو يمر بنا فى صوت طفولى متبدل :

– ماذا تفعلين هنا ، ياماريا ؟

قالت لى الفتاة :

– هذا شقيقى الاصغر ألكسى . كنت ادرس كيما اغدو قابلة . ولكننى مرضت . لم لا تقول شيئا ؟ هل انت خجلان ؟

ودخل أندريه ديرينكوف ، وذراعه الضامرة مركونة فى صديرية معطفه . داعب شعر شقيقته الحريرى ، واشعثه فى لطف ، وبدأ يستجوبنى عن العمل الذى ارغب فيه .

ودخلت فتاة رقيقة لها شعر احمر وعينان خضراوان ونظرت الى نظرة قاسية . وتأبطت ذراع الفتاة البيضاء وخرجت بها ، وهى تقول :

– هذا يكفى ، ياماريا !

لم يكن الاسم ملائما . كان فظا .

خرجت بدورى وقد اربكنى الاضطراب . بعيد يومين حملنى المساء الى تلك الغرفة مرة اخرى يستحثنى الفضول الى اكتناه ماهية الحياة التى يعيشها الناس هناك ، وكيف هو مسارها ومعناها . كانت حياة شاذة غريبة حقا .

وجلس ستيبان إيفانوفيتش ، وهو شيخ وديع كثير اللطف ، ابيض الرأس ، شاحب اللون الى درجة الشفافية ، فى احدى زوايا الغرفة ، يبتسم فى وداعة ، ويتلمظ بشفتيه السوداوين – كمن يترجى :

«دعونى وشأنى !»

كان اسير رعب مستديم ، فكأنه يترقب فاجعة تحل به . وكنت ارى ذلك بوضوح جلى .

اما اندريه ضامر الذراع فيتجول فى الغرفة فى معطف رمادى اللون ملطخ عند الصدر بسبب من تلطخه بالطحين والزيت ، يمشى مترددا فى حياء ، وقد ارتسمت على صفحة وجهه ابتسامة تبريرية تشبه ابتسامة طفل عفوت عنه بعد ما ارتكب هفوة غير مؤذية . وكان يساعده فى الدكان ألكسى – وهو شاب كسول جلف . اما الاخ الثالث إيفان فهو طالب فى دار المعلمين يقيم فى القسم الداخلى فيها ولا يزور البيت الا ايام الاعياد . كان إيفان انيق الثياب ، يصفف شعره تصفيفا جميلا

فكأنه موظف قديم متقاعد . اما ماريا ، الاخت المريضة ، فتقضى ايامها فى العلية وقل ان تخرج منها . فاذا هبطت الدرج اشعر بالارتباك دائما وكأنى مغلول بقيود غير منظورة .

كانت شؤون منزل ديرينكوف تدبر بواسطة امرأة فارعة القوام رقيقة العود ، وجهها وجه لعبة من خشب وعيناهـــــا قاسيتان مثل عينى راهبة مغيظـــة ، تخدم صاحب البيت . وكانت تساعدها فى ذلك ابنتها ، وهى فتاة حمراء الشعر بارزة الانف تدعى ناستيا . واذا ادارت ناستيا عينيها الخضراوين فى اتجاه اى انسان جعلت فتحتا انفها ترتعشان ارتجافـــا .

اما السادة الحقيقيون فى منزل ديرينكوف فهم الطلاب — طلاب الجامعة ، وطلاب الاكاديمية اللاهوتيـــة ، والكليـــة البيطرية : جمهرة صاخبة من الشباب الذين عمرت افكارهم بالقلق على مصير الشعب الروسى ، والقلـــق المستمر على مستقبل روسيا . فاذا ارهقتهم المقالات المنشورة فى الصحف اليومية ، ونتائج الكتب التى يقرأونها حديثا ، واحداث البلدة والجامعة ، فهم يهرعون فى المساء الى دكان ديرينكوف ، من جميع اطراف قازان ، للانهماك فى جدال عنيف ، او التهامس فى هدوء فى زوايا الغرف . وكانوا يحملون كتبا ضخمـــة ، ويشيرون بأصابع مهتاجة الى صفحات منها ، ويتصايحون فى وجوه بعضهم بعضا ، وكل منهم يثبت الحقائق التى يتصور انها اكثر صحة وصوابا .

لم اكن أفقه من تلك المناقشات الا اشياء قليلـــــة . فالحقائق موضوع البحث تضيع منى فى غزارة الكلمات ، مثلما تضيع كريات الدهن الصغيرة فى حساء الفقير الغنى بالماء .

ذكرني بعض اولئك الطلاب ببعض اصحاب اللحى الشائبة لطوائف دينية على ضفاف الفولغا . ولكنني تأكدت هنا اني وجدت الناس الذين اتخذوا من تبديل حياتنا هدفا لهم — ابدال هذه الحياة واصلاحها . وعلى الرغم من ان اخلاصهم كان يتخبط في سيل متدفق من الكلمات — غير انه لم يكن يغرق في تياره على الاطلاق . وكنت ارى في جلاء ما يجتهدون في حله من قضايا : قضايا كنت احس في حلولها الناجحة اهتماما شخصيا قويا . ولطالما خيل الى ان احاديث الطلاب كانت تعطي تفسيرا لأفكاري الخرساء ، كما كنت انظر الى اولئك الناس في احترام فائق مثلما ينظر الاسير الى اولئك الذين وعدوا باطلاق سراحه .

اما هم فكانوا ينظرون الى مثلما ينظر النجار الى قطعة من خشب قد يشعر انه قادر على ان يجعل منها عملا غير عادي .

كان احد الطلاب يقول :

— موهبة فطرية !

ويقدمني الى طالب آخر في فخار يرتسم على ملامح احد الفقراء وهو يطلع رفاقه على قطعة من العملة النحاسية وجدها في بالوعة في الشارع . ولم اكن احب ان يسمونني «موهبة فطرية »، او «ابنا للشعب» . كنت احس اني ربيب للحياة . وكنت اضيق في بعض الاحيان ذرعا ايضا بذلك الاسلوب الاعتباطي الذي كانت تلك القوى الجديدة توجه به تطوري الفكري . وهكذا ، فقد لاحظت ذات يوم في واجهة احدى المكتبات مجلدا بعنوان «امثال وحكم» . ورغم اني لم اكن افقه معنى هذه الكلمات فقد تملكتني رغبة جامحة في قراءة الكتاب ،

وسألت طالبا من طلاب الاكاديمية اللاهوتية ان يعيرنى نسخة منه .

– وماذا ايضا ؟

هكذا كان جواب مطران المستقبل الساخر ، وهو شاب فتى له رأس زنجى : شعر اجعد وشفتان غليظتان ، واسنان بيضاء براقة .

– هراء ، يا اخى . انت تقرأ ما تُعطاه ، ولا تدسن انفك فيما لا يعنيك !

اثارتنى نغمة معلمى القاسية فى الصميم . اشتريت الكتاب من دون ريب بما جمعت من مال على ارصفة الميناء واكملت الثمن بما استدنت من اندريه ديرينكوف . ولا ازال احتفظ بالكتاب : فهو اول كتاب محترم اشتريه .

كانت المعاملة التى لقيت قاسية حقا . حين قرأت «ابجدية علم الاجتماع» احسست ان المؤلف غالى فى اهمية القبائل الرعوية فى تنظيم الحضارة ، واهمل تماما تلك القبائل الجوالة ، الا وهى الصيادون . وافصحت عن مشاعرى لاحد المعلمين ، وهو طالب فى فقه اللغة – فجعل يحدثنى ساعة كاملة مجهدا نفسه كيما يسبغ على وجهه الانثوى سيماء من هو ذو مكانة وشأن وذلك عن الحق فى النقد :

– على من يريد ان يتمتع بحق النقد ان يؤمن بحقيقة محددة . فبأية حقيقة انت مؤمن ؟

كان هذا الطالب منكبا على القراءة دائما – حتى فى الشارع . وكنت اشاهده فى اغلب الاوقات يمشى على الرصيف وقد دفن وجهه فى كتاب ، فيصطدم بكل من يمر فى طريقه .

وكان يقطن فى غرفة تحت السقف مباشرة فأصابه التيفوس وتناوشته الحمى ، وكان يصيح فى هذيان :

– ينبغـــى على الاخلاق ان توحد فى انسجام بين عناصر الحرية والاكراه ! فى انسجام ! فى انسج . . . ج . . . ام . . .

كان يجد دائما ، وهو الرقيق القلب ، الموهون من جراء نقص التغذية الدائم ، المنهمك فى بحث دؤوب عن حقيقـــة ثابتة ، متعة حقيقية فى الحياة فى قراءة الكتب . واذا خيل اليه انه وفّق بين المتناقضات القائمـــة فى عقلين قويين اشرقت عيناه السوداوان بابتسامة سعادة طفولية . بعيد عشر سنوات من تعارفنا فى قازان التقيته فى خاركوف حيث كان يتابـــع دراسته الجامعية بعيد خمس سنوات من النفى فى بلدة كيم ، فبدا لى مثل رجل لا يبرح يعيش فى قرية من قرى النمل من الافكار المتناقضة . كان السل ينهش جسده نهشا ويرغمه على ان يبصق دما ، ولكنه لا يبرح يحاول التوفيق بين نيتشه وماركس . نبر ، وقد امســـك يدىّ بين راحتيه الباردتين النديتين :

– حياة من دون تركيب – هذا امر مستحيل !

ومات فى عربة تراموای وهو فى طريقه الى الجامعة .

لقد عرفت كثيرين من امثال هؤلاء الشهداء فى سبيـــل قضية الفكر . واحمل ذكراهم مقدسة فى قلبى .

كان حوالى عشرين من امثال هؤلاء يجتمعـــون فى بيت ديرينكوف ، وفى عدادهم يابانى يدعى بانتاليمون ساتو ، وهو طالب فى الاكاديمية اللاهوتية . وبين حين وحين ، خلال هذه اللقاءات ، كنت اشاهد رجلا كبيرا عريض الصدر حليـــق

الرأس – على الطريقة التتارية – له لحية كثيفة مسترسلة . كان يبدو وكأنه خيط بمعطفه الرمادى الطويـــل الذى كان مزررا حتى ذقنه . وكان يجلس على الدوام فى زاوية وحيدا ، يدخن غليونه القصير ويجيل عينيه الرماديتين فى تأمل صامت فى الناس المتواجدين فى الغرفة . كانت نظرته الثاقبة المغلقة تنصب كثيرا على وجهى . فأشعر ان افكار هذا الرجل الرصينة تزننى ، فأخافه وانا لا ادرى لخوفى مبررا . كان صمتـــه يحيرنى . فالجميع يتحدثون فى اصوات صاخبـــة ، مهذارة ، حازمة . وكلما كان الحديث شديد اللهجة كان افضـــل – فى رأيى – وكنت احبه . ولقد بقيت فترة طويلة قبل ان اخمن ما كان يكمن تحت كلماتهم الحازمة من افكار فقيرة خداعة . فماذا ترى يختبئ وراء صمت هذا العملاق الملتحى ؟

كانوا يسمونه «خوخول» . وحده اندريه ، فيما اعتقد ، يعرف اسمه الحقيقى . وما اسرع ان اكتشفت ان هذا الرجل رجع قبل امد قريب من مقاطعة ياكوتسك حيث امضى عشر سنوات فى المنفى . وضاعف هذا من اهتمامى به ، ولكن ذلك لم يجرؤنى على التعرف اليه . رغم أننى لم اكن مبتليـــا بالخجل او الحياء . بل على العكس من ذلك مفعما حماســـة وفضولا لا يستكين الى هدوء ، أظمأ دائما الى معرفة كل شى – وفى اقصر زمن ممكن : وهى صفة حالت طوال حياتى بينـــى وبين ان اركز اهتمامى جديا على امر واحد فى زمن واحد .

حين كانوا يتحدثون عن الشعب اصغى اليهم اصغاء تاما وقد اخذتنى الدهشة ، وفقدت ثقتى بنفسى ، ومع هذا فأنا احسُ انى لا استطيع ان افكّر فى هذا الموضوع على النحـو

الذى يفكرون . كان الشعب بالنسبة اليهم يمثل تجسيدا للحكمة ، واللطافة ، والجمال الروحى ؛ كائنا إلهيا ينبوعا لكل ما هو جميل وعادل وعظيم . ولم اكن ارى الشعب على هذا الغرار . كنت لا ارى حوالى غير نجارين ، وحمالين ، وبنائين . وكنت اعرف ياكوف ، واوسيب ، وغريغورى . اما هنا فهم يتحدثون عن الشعب ككل . وكان المتحدثون يضعون انفسهم تحت هذا الشعب ، ويخضعون لارادته . كان يخيل إلىّ على اية حال ان جمال الفكر وقوته بأسرها تتجسدان تماما فى هؤلاء المتحدثين وقد تركزتا فيهم ، ولا تنى تلتهب فى قلوبهم رغبة حارة وكريمة فى الحياة ، وفى بناء الوجود بحرية على قواعد جديدة فى حب الانسان .

كان ذلك الحب شيئا لم اعثر عليه قط فى تلك الكائنات الصغيرة التى عشت معها حتى اليوم . فهنا كان ذلك الحب يرنّ فى كل كلمة ، ويشعّ فى كل نظرة .

كان حديث عبّاد الشعب اولئك يهبط على قلبى بردا وسلاما ، وكان عزائى الكبير ان اصغى الى الادب الحمىّ يصف حياة الريف القاتمة ، وتضحيات الفلاحين الشهداء . وشرعت اشعر ان بواسطة حب البشرية العنيف القوى يستطيع المرء ان يمتلك القدرة للكشف عن معنى الحياة الحقيقى واهملت التفكير بنفسى ، وبدأت انصرف الى الاهتمام بالآخرين .

شرح لى ديرينكوف فى ثقة ان الارباح المتواضعة التى يجنيها من دكانه تنفق كلها على اعانة المؤمنين بعقيدة : «سعادة الشعب فوق كل شىء آخر» . ولقد كان يجعل من نفسه ، حين

يكون بينهم ، اشبه بقندلفت تقى اصيل خلال الصلوات التى يقيمها رئيس الاساقفة . ولم يكن يبذل شيئا من الجهد لاخفاء اعجابه بحكمة هؤلاء المطلعين على الكتب . كان يدفـــع يده الضامرة فى صديرية معطفه ، ويضئ وجهه بابتسامة مشرقة ، ويسألنى وهو يعبث بلحيته الحريرية :

– أليس هذا رائعا ؟ أليس هو رائع الآن ؟

وحين كان لافروف ، البيطرى – المتميز بصوته الغريب الشبيه بقوقأة الاوز – ينغمس فى جدال هرطقى ضـــــد الشعبيين ، فان ديرينكوف يغمض عينيه ويهمس فى خوف :

– يا له من مثير للشغب !

كان موقف ديرينكوف من الشعبيين مماثلا لموقفى منهم . وكان الطلاب يعاملونه معاملة قاسية تلوح فى عينىّ على شيء من الفظاظة والتهور : معاملة الارستقراطيين لاحد الخدم ، او لنادل فى حانة . ولم يكن ذلك ليخطر فى بال ديرينكوف . وغالبا ما كان يستبقينى للمبيت عنده بعد رحيل زائريه . فنرتب المكان ، ومن ثم نضطجع على الارض فوق حصائر من اللباد ، ونروح نتهامس فترة مديدة من الليل ، وظلمة الغرفة من حولنا لا يبددها غير وهج ضئيل يلقيه لهب الايقونة فى الزاوية . واسمعه يتمتم فى غبطة المؤمن الوادعة :

– لسوف يحين زمن يكون لنا فيه مئات من مثل هؤلاء الناس الطيبين ، بل الوف منهم . ولسوف يملأون جميـــع المناصب القيادية فى روسيا بأسرها ، وعندها سيبدلون لنا حياتها بكاملها دفعة واحدة !

كان يكبرنى بعشر سنوات ، وكنت ارى انه مغرم بناستيا

حمراء الشعر . كان يحاول ان يتجاهـــل النظر فى عينيهـــا المثيرتين ، ويخاطبها فى حضرة الآخرين فى نبرة جافة تسلطية تشبه نبرة السيد لخادمه . ولكنه يُتبعها نظراته فى هيام وتوق ، وحين ينفرد بها فهو يخاطبها فى ابتسامة خجل واعتذار ، ويده لا تكف عن العبث بلحيته .

كانت شقيقته الصغرى تراقب المعارك الكلامية من احدى زوايا الغرفة ، وقد اتسعت عيناها وامتد وجهها الطفولى بصورة مضحكة فى محاولة للاصغاء . وحين تنفلت فى الحديث كلمات حادة اكثر من المألوف فهى تتنفس تنفسا سريعا صاخبا كمن انهمر عليه فجأة ماء مثلج . وكان ثمة طالب فى كلية الطب رملى الشعر يحب ان يتمخطر روحة رجعة امامها فى خطوات تشبه خطوات الديك الصغير . وحين يخاطبهـــا فهو يخفض صوته الى ما يشبه الهمس الغريب ، ويرفع حاجبيه بصورة مؤثرة . وكان ذلك كله مسليا عجيبا .

وجاء الخريف ، وغدت الحياة مستحيلة من دون عمـــل ثابت . كنت مأخوذا بما حولى من اهتمامات ، فبدأت مواردى تقل وتنضب ، وصرت اعتمد على الآخرين فى الحصول على قوت يومى ، وخبز الناس صعب ابتلاعه على الدوام . وحان الوقت للبحث عن «مكان» لقضاء الشتاء . فعثرت على هذا المكان فى مخبز فاسيلى سيميونوف .

هذه الفترة من حياتـــى وصفتهـــا فى قصص «المعلم» و«كونوفالوف» و«ستـــة وعشرون رجلا وفتاة» . كانت فترة بائسة ! ولكنها ثقفتنى .

كانت بائسة جسديا ، واكثر بؤسا اخلاقيا .

حين انحدرت الى المخبـــز فى القبو انتصب «جدار مـــن النسيان» بينى وبين اولئك الناس الذين غدت رفقتهم مـــن الامور الضرورية فى حياتى . لم يحضر احد منهـــم لرؤيتى فى المخبز . وكنت اشتغل اربع عشرة ساعة يوميا بحيث اعجز عن زيارة بيت ديرينكوف فى ايام العمل . اما فى ايام الاعياد فقد كنت انام او اقضى الوقت مع رفاقى فى المخبز . بعض هؤلاء الرفاق اعتبرنى على الفور مهرجا يبعث على التسلية ، فى حين احبنى آخرون حب الاطفال العنيف لرجل يقص عليهم قصصا ممتعة شيقة . وحده ابليس يعرف ماذا كنت اجد لاقول اولئك الناس . غير اننى بذلت جهدى لاصب فى نفوسهم رجاء بحياة اخرى قد تكون ممكنة – حياة اقـــل عسرا ، حياة حافلـــة بالاحساس والهدف . كنت انجح احيانا ؛ فاذا لمحت وميض الحزن الانسانى يبرق فى وجوههم المنتفخة ، وشرارة الغضب والنقمة تلتهب فى عيونهم ، فأنا اغتبط وتنفخنى الكبرياء لاننى كنت «اعمل بين الناس» و«انير لهم سواء السبيل» .

وكنت اجد نفسى فى احيان كثيرة – وهذا امر طبيعى – واهن القوى ، اخرق المعرفة ، عاجزا عن الاجابـــة عن اكثر الاسئلة بساطة مما تطرحه الحياة والبيئة . ومن بعد كنت احس انى ترديت فى حفرة موحلة يتخبط فيها الناس مثـــل ديدان عمياء – حيث يعمهون عن الحقيقـــة ، ويعثرون على النسيان الذى يبحثون عنه فى الشراب ، او بين احضان البغايا الباردة .

كانت زيارة المواخير قاعدة لا مناص منها فى كل شهر حين يستلم الناس اجورهم . وكانوا يحلمون باصوات عالية بتلك

اللذاذات طوال اسبوع كامل قبل ذلك اليوم السعيد . وحين يؤول ذلك اليوم الى نهاية فهم يسردون على بعضهم بعضا تلك المسرات التى ذاقوا افاويقها فترة طويلـــة . ويفتخرون فى احاديثهم بكلمات داعرة عن فحولتهـــم ، ويطلقون سخريات وحشية عن النساء ، ويبصقون فى اشمئزاز وهـــم يتحدثون عنهن .

والامر الذى يبعث على الغرابة حقا انى كنت اسمع وراء هذا كله ، او خيّل الىّ انى كنت اسمـــع ، آثارا من الاسى والخجـــل . ففى «بيوت السلوان» ، حيث يستطيع المرء ان يشترى امرأة ليلة كاملة مقابل روبل واحد ، كنت ارى رفاقى يشعرون بالارتباك كأنهم ارتكبوا ذنبا . وكان ذلك يبدو لى طبيعيا . وكان آخرون يتميزون بوقاحة ، ويختالون اختيالا اشعر انه اختيال زائف يصطنعونه اصطناعـــا . كنت ابدى اهتماما زائدا بالعلاقات بين الجنسين ، فاراقب ذلك كلـــه مراقبة خاصة شاذة . لم اكن قد خبرت مداعبات النساء ، وقد وضعنى تقشفى المتواصل فى مركز حرج ، وكان النســـاء ورفاقى يسخرون بى سخرية مريرة . وسرعان ما كفّ رفاقى عن دعوتى الى «بيوت السلوان» . خاطبونى فى فظاظة قائلين :

— يحسن الا تذهب معنا ، يا اخى .

— لماذا ؟

— لانه . . . لان الناس لا يرتاحون الى وجودك .

اصررت بحماسة على تفسير هذه الكلمات ، وقد شعرت انها تحمل اهمية خاصة بالنسبة الىّ . ولكنى لم احصل على ايضاح كاف .

38—285

– يا للفتى ! قلنا لك مرة – لا تذهب معنا ! فالناس يضجرون من رفقتك .

وزمّ ارتيوم شفتيه مبتسما ، وقال :

– لكأن راهبا يرافقنا ، او والد احد اصدقائنا .

سخرت الفتيات بادئ الامر من تحفظي . ثم شرعن يسألنني في امتعاض :

– اتحسب نفسك افضل منا ؟

وقالت تيريزا بوروتا ، وهي «فتاة» بولونية سمينة حسناء في الاربعين من عمرها ، «مدبرة المنزل» ، وهي تراقبني بعينين ذكيتين تشبهان عيني كلب كريم النسب :

– لا تضايقنه ، يا فتيات . ان له حبيبة من دون ريب . اليس كذلك ؟ شاب قوي لطيف مثله – انها حبيبته من دون ريب ، هذه التي تضبطه عنا . ومن غيرها ؟

كانت مدمنة على الخمرة . تشرب شربا عنيفا يائسا ، فاذا ثملت غدت كريهة الى ابعد الحدود . واذا صحت من سكرها فهي تدهشني بموقفها المتبصر تجاه الناس ، وباسلوبها الهادئ في البحث عن المنطق القائم فيما يأتون من اعمال .

كانت تخاطب رفاقي قائلة :

– اشد الناس غموضا على الفهم هم طلاب الاكاديمية من دون ريب . بلى ، هذا ما هم عليه . ماذا يفعلون بالبنات ! انهم يطلبون مسح الارض بالصابون ، ويحملون البنت على ان تركع عارية على اربعها وقد وضعت كلا من قدميها ويديها في صحن خزفي ، ثم يدفعونها من الخلف ، وينظرون مقدار

المسافة التى تنزلقها . ثم يعيدون الكرة مع بنت ثانية ، وبنت ثالثة . بلى . فيم يفعلون ذلك ؟

اعلنت قائلا :

– انت تكذبين !

فاوضحت تيريزا ، فى هدوء وسكينة :

– اوه ، كلا ، انا لا اكذب !

وكان فى هدوئها وسكينتها شيء يوقع الكآبة فى النفس .

– انت اختلقت ذلك كله !

استفهمت ، وهى تحملق فىّ بعينين متسعتين :

– كيف تختلق فتاة مثل هذا الشيء ؟ ام هل تظنني مجنونة ؟

كان الناس يصغون الى حديثنا فى لهفة شرهة . وتابعت تيريزا حديثها تقص علينا العاب الضيوف فى نغمة باردة مثل برودة انسان لا يتوخى اكثر من امر واحد : ان يفهم لماذا ؟

بصق السامعون شتائمهم ، وكدسوا اللعنات الوحشية ضد الطلاب . اما انا . . . فقد رأيت ان تيريزا كانت تثير حملة شعواء على اولئك الذين تعلمت ان احبهم بجماع قلبى ، فاجبت ان الطلاب احبوا الشعب ، وانهم تمنوا مساعدة الشعب .

– اولئك هم الطلاب من شارع فوسكريسنسكايا – وهم علمانيون من الجامعة . اما الذين عنيتهم انا – فهم من رجال الاكاديمية من ارسكويه بوليه . وهم ايتام جميعا ، طلاب الاكاديمية اولئك ، واليتيم لا بدّ ان ينمو لصا ، او مثيرا للشغب – وبذلك يغدو رجل شر وفساد . وباعتبار انه يتيم فلن يكون ثمة ما يردعه .

لم تكن قصص «مدبرة المنزل» الهادئـــة ، او اتهامات الفتيات الغاضبة ضد الطلاب وموظفى الحكومة ، وعلى العموم «الشعب المتنور» ، لتثير فى رفاقى ، فضلا عن الحقد والمقت ، غير شعور آخر اقرب ما يكون الى السرور — شعور يجد تعبيره الصحيح فى هذه الكلمات :

— اذن ، فان الشعب المثقف اكثر منا سوءا !

كان عسيرا علىّ ، بل مؤلما ، ان اسمع مثل ذلك الحديث . كنت قد بدأت ارى فى مثل تلك الغرف الصغيرة المظلمة ، مثلما ارى فى بحيرات من الطين ، جميع قذارة البلدة ، كيما تغلى وتصير لهبا داخنا كريها ، وتتشبع بالعداوة والحقد ، كيما تعود فتتدفق على البلدة مرة اخرى . فى تلـــك الحفر الضيقة التى تحشر فيها الناس حشرا الغريزة الحيوانية وسأم الحياة شاهدت تحول انعطافات الكلام المنافية للعقل الى اغنيات مؤثرة عن عذابات الحب واضاليله ، وشاهدت بداية الاساطير البشعة عن حياة «الشعب المثقف» ، وتطبيع الاذهان بالكراهية والعداوة ضد كل ما هو غير مفهوم . وغدا واضحا لدىّ ان «بيوت السلوان» كانت عبارة عن جامعة فيها تلقى رفاقى العلم عن الحياة الاكثر حقدا وسميّة .

راقبت «فتيات البهجة» وهنّ يجررن اقدامهنّ فى تراخ على الارض القذرة — واجسامهنّ المترهلة تهتز على نحو بغيض على نغمات اكورديون ملحاحة ، او قرقعة مزمجرة ونبضات مكسرة لبيانو محطم خرب . وفيما انا اراقب ذلك ولدت فى نفسى افكار جديدة غامضة ولكن قلقة مزعجة . فكل ما يحيط بى يرتج ضجرا ويسم الروح برغبة واهنة فى الفرار .

وفى المخبز ، حين كنت اشرع فى الحديث عن اولئك الذين يبحثون فى اخلاص عن الطرق المؤدية الى حرية الشعب وسعادته ، فقد كان الجواب يأتينى على هذا الغرار :

– آه ، ولكن الفتيات يروين حكايات مختلفة عنهم !

كانوا يسخرون منى سخرية لا رحمة فيها ، وكنت اغضب واثور . فلم اكن غير كلب صغير مشاكس ، احس انى لست اقل حكمة ، وانى اكثر شجاعة من الحيوانات الكبيرة . وكنت ، بدورى ، اغلى غضبة . وحين افكر فى الحياة فانا اشرع افهم ان ذلك العمل ليس اقل سهولة من الحياة ذاتها ، وكان ثمة اوقات احسست فيها فوارات من الحقد على هؤلاء الناس الصابرين الجلودين الذين اعمل معهم . وكنت اسخط ، اكثر ما اسخط ، من قدرة احتمالهم الصابر ، من استسلامهم اليائس لما يكيل لهم مستخدمهم العربيد من سباب وهوان .

وقد حدث فى هذا الدور العصيب من حياتى انى عرفت فكرة جديدة تماما بالنسبة الىّ : فكرة رغم مغايرتها الاساسية لمنحى طبيعتى فقد هزتنى هزا عنيفا .

فى احدى هاتيك الليالى العاصفة حين يلوح وكأن السماء الرمادية ذاتها ، وقد تصدعت قطعا متناثرة بفعل الرياح المدوية العنيفة ، جعلت تنكسف ارضا لتدفن العالم تحت نثار من اكوام جليدية مسحوقة ؛ حين تلوح دورة الحياة وكأنها انتهت ، والشمس غربت فلا شروقا لها من جديد – فى مثل تلك الليلة من ايام المرافع كنت فى طريق عودتى الى بيتى فى المخبز قافلا من بيت ديرينكوف . كانت الريح تصفع وجهى ، فاندفع وقد اغمضت عينى فى ملء التشوش المضطرب الرمادى

الكثيف . عثرت فجأة فوقعت . ثمة رجل يضطجع على الثلج ، عند طرف الرصيف ، وقد اصطدمت قدماى به . واطلق كل منا شتيمة – انا باللغة الروسية وهو باللغة الفرنسية :

– آه ، يا للشيطان !

بدا لى ذلك غريبا . انهضت الرجل على قدميه – نحيل البنية ، قصير القوام ، خفيف الوزن . تشبث بذراعى ، وصاح فى غضب :

– قبعتى ، لعنك الله ! ارجع لى قبعتى ! لسوف اتجمد !

وجدت قبعته على الثلج ، فنفضتها ، ووضعتها على رأسه الخشن . ولكنه نزعها عنه وطفق يهزهـــا امامى ، يشتـــم باللغتين ويصيح لى متوعدا :

– اغرب عن وجهى !

انطلق امامى فجأة فابتلعته الظلمة المتراكمة . غير انى عثرت عليه من جديد يقف تحت عمود مصباح منطفىء . كان يستند الى العمود الخشبى ، ويغمغم فى حماسة :

– انا اموت ، يا لينا . . . اوه ، يا لينا !

لا ريبة انه ثمل . وكان يمكن ان يتجلد او لم ارفعه عن ارض الشارع . استفسرتـــه اين يعيش . فصاح فى صوت تفعمه الدموع :

– ما اسم هذا الشارع ؟ انى اجهل طريقى .

لففته بذراعى وسرت به ، وسألته من جديد اين يعيش . غمغم قائلا ، وهو يرتعش :

– فى بولاك . فى بولاك . . . هنـــاك حمـــام . . . منزل . . .

كان يترنح ، فيتعثر ويتمايل ، ويعوق سيرى . وكنت اسمع اسنانه تصطك .

جمجم ، وهو يدفعنى ، باللغة الفرنسية :

– لو عرفتَ . . .

– لست افهم .

وقف ، ورفع يده ، ونبر بالفرنسية فى صوت واضح – فيما خيل الىّ – فى شئ من فخار :

– لو عرفت الى اين أسير بك . . .

ودفع اصابعه فى فمه ، وتمايل ، وكاد ان يهوى على الارض . جثوت على عقِبىّ ، ورميته على ظهري . وفيما انا احمله جعل يتمتم من جديد ، وذقنه تضغط على جمجمتى :

– لو عرفت . . . ولكننى اتجلّد . آه ، يا رب !

حين بلغنا بولاك اضطررت ان استوضحه مرارا وتكرارا عن سكنه . واخيرا ولجت به رواق بيت صغير تخفيه اكوام الثلج فى باحته الخلفية . شقّ طريقه الى الباب الداخلى ، وقرع عليه فى دقة ، وهمس فى اذنى :

– هُس ! هدوءاً !

فتحت الباب امرأة فى ثوب احمر ، وفى يدها شمعة ملتهبة . تحركت جانبا تفسح لنا السبيل وهى صامتة ، واخرجت منظارا صغيرا من جيب فى ثوبها ، وبدأت تتفحصنى به .

قلت لها ان يدى الرجل تجمدتا فيما يبدو ، وانه ينبغى ان يخلع ثيابه وينام .

سألت :

– ماذا ؟

كان صوتها ثريا فتيا واضح النبرات .

— يجب ان نغطس يديه فى ماء بارد . . .

اشارت بمنظارها ، فى هدوء ، الى زاوية من زوايا الغرفة . لم اجد فى الزاوية غير حامل للرسم ، وعلى الحامل ثمة لوحة : نهر واشجار . تطلعت مشدوها فى وجه المرأة عن قرب . كان هادئاً هدوءا غريبا . ابتعدت عنى الى زاوية اخرى حيث ثمة على المنضدة مصباح يتوهج تحت ظلة وردية اللون . وجلست . وتناولت ورقة الولد الكوبة عن المنضدة وجعلت تتفحصها فى اهتمام .

سألتها فى صوت مرتفع :

— ألديك شيء من الفودكا ؟

لم تعطنى جوابا . انهمكت فى بسط اوراق اللعب على المنضدة . وجلس الرجل على كرسى ، وقد حنى رأسه على صدره ، وتراخت يداه الحمراوان دون حركة . اضجعته على اريكة وبدأت انضو عنه ثيابه . لم استطع ان افهم ماذا كان يحدث . شعرت وكأننى فى حلم . كان الجدار فوق الاريكة مغطى كله بمجموعات من الصور ، وبين هذه الصور ينشر الضوء اكليلا ذهبيا باهتا مربوطا بشريطة بيضاء . فى نهاية الشريط قرأت هذه الكلمات مكتوبة بحروف مطلية بالذهب :

«الى غيلدا التى هى نسيج وحدها»

أنّ الرجل حين بدأت افرك يديه التماسا للدفء :

— رويدا ، لعنة الله عليك !

بسطت المرأة اوراقها على المنضدة مستغرقة صامتة . كان انفها يخلع على وجهها ما يشبه وجه العصفور ، تضيئه

عينان واسعتان جامدتان. ورفعت يديها، يدى فتاة مراهقة، لتصفف شعرها – وكان كثيفا حتى حسبته لـُمّة مستعارة. استعلمت فى صوت خافت لكن واضح النبرات :

– هل رأيت ميشا، يا جورج ؟

فاعتدل جورج سريعا فى جلسته، ونحّانى جانبا، واجاب فى عجلة مضطربة :

– كيف، ولكنك تعرفين انه سافر الى كييف.

فكرّرت المرأة، وعيناها مثبتتان على اوراق اللعب :

– بلى، الى كييف.

لاحظت ان صوتها ينطلق على وتيرة واحدة من دون اى تعبير.

– سيعود عما قريب . . .

– نعم ؟

– أوه، نعم ! فى اقرب وقت.

فكرّرت المرأة :

– نعم ؟

هبّ جورج عن الاريكة نصف عريان وهرول اليها. ركع عند قدميها، وخاطبها بالفرنسية.

فاجابته باللغة الروسية :

– انا رابطة الجأش تماما.

اخبرها جورج متعجلا، وهو يمسح على يدها الموضوعة على ركبتها :

– انت تعلمين . . . لقد اضعت الطريق. مثل هذه العاصفة الثلجية، والريح القوية. وحسبت انى تجلدت.

كان رجلا فى حوالى الاربعين، وثمة تعبير من الخوف والقلق

على وجهه الاحمر ، وعلى شفتيـــه الكثيفتين تحت شاربـــه الاسود . وظـــلّ يفرك الشعر الرمادى الخشن الذى يفرش رأسه المدور . وكان يصحو من سكره فى سرعة .

قالت المرأة :

– سنسافر غدا الى كييف .

قد يكون كلامها سؤالا طرحتـــــه . وقد يكون تأكيدا للسفر .

– هذا صحيح ، غدا ! وهكذا ينبغى ان تستريحى الآن . لم لا تذهبين الى فراشك ؟ فالوقت قد تأخر .

– ولن يعود ميشا الى هنا اليوم ؟

– أوه ، كلا ، كلا ! فهنالك هذه العاصفة . . . تعالى ، ينبغى ان تنامى قليلا . . .

حمل المصباح عن المنضدة ، ومضى بالمرأة يقودها عبر باب صغير تحجبه المكتبة . وظللت هنالك وحيدا فترة طويلة من الزمن ، لا افكر فى شىء ، اصغى قليلا الى صوته الابح الخفيف فى الحجرة المقابلة . كانت مخالب العاصفة القويـــة تخرمش النافذة . وعلى الارض ، فى بحيرة من الثلج الذائب ، يتأرجح انعكاس لهب الشمعة فى حياء . وكانت الغرفة تغص بالاثاث ، تفعمها رائحة دافئة غريبة تهدهد الذهن للاستغراق فى النوم .

رجع جورج اخيرا وهو يترنّح ، وفى يده مصباح . كانت ظلة المصباح تقعقع على زجاج المدفأة .

– لقد أوت الى فراشها .

وضع المصباح على المنضـــــدة . وبدا كالمستغرق فى افكاره . وقف فى وسط الغرفة وانشأ يتحدث ، لكن من دون ان ينظر الىّ :

– حسنا ، ماذا يمكن ان يُقال ؟ كان يمكن ان اموت فيما يخال لى لو لم اجتمع بك . . . شكرا ! و . . . من انت ؟

امال رأسه جانبا يصغى ، وقد اجفل فى عصبيـــة ، الى الخشخشة الخافتة التى تنسرب من الحجرة الاخرى .

سألته فى عذوبة :

– أهذه زوجتك ؟

فاجاب فى بطء وهدوء ، وهو يحدق فى الارض :

– اجل . زوجتى . كل ، كل ما خبأته لى الحياة !

وشرع يفرك رأسه من جديد .

– ينبغى ان نشرب قليلا من الشاى ، أليس كذلك ؟

ومشى صوب الباب ضائع النهى – ولكنه توقف ، وتذكر ان الخادم مرضت فنقلوها الى المستشفى .

عرضت عليه ان اشعل السماور ، فأومأ برأسه موافقا ، ومضى بى ، ناسيا فيما يبدو انه نصف عريان ، بقدميـــــه العاريتين عبر الارض الندية ليوصلنى الى مطبخ صغير . وفى المطبخ استند الى الفرن ، وقال من جديد :

– كان يمكن ان اتجمد لو لاك . شكرا !

وحملق فىّ مضطربا بعينين اوسعهما الرعب .

– ما عسى ان يحل بها لو متّ ؟ يا إلهى الطيب !

وقال فى همسة سريعـــة ، وقد التفتت عيناه الى الثغرة السوداء التى هى الباب :

- انها مريضة . رأيت انت ذلك . كان لها ابن - وكان موسيقيا فى موسكو - وقد قتل نفســــه . ولا تزال تنتظر عودته الى البيت . وقد مرّ على ذلك سنتان حتى الآن . . .

بعيد ذلك ، ونحن نشرب الشاى ، اكمل الحديث بكلمات متفككة ، كلمات لا يسمعها المرء فى حديث عادى : كيف كانت من نبيلات الارياف ، وكان هو استاذا للتاريـــــخ ؛ وكيف تعاقدت معه ليغدو مربيا لولدها فوقع فى غرامهـــا ؛ وكيف تركت زوجها من أجله - وهو بارون المانى ؛ وكيف راحت تغنى فى الأوبرا ؛ وكم كانا سعيدين معا رغم ان البارون بذل وسعه كيما يسمم حياتها .

اخبرنى هذه الامور كلها ، وهو يرنو بعينيه محدقا فى شىء ما فى اخيلة المطبخ العاتـــم ، وخلف المكان ، الى جانب الفرن ، حيث الارض تعفنت . كان يشرب الشاى حارا بحيث يلذع لسانه ، ويتغضن وجهـــه ألما ، ثم تطرف عينـــاه المدورتان فى قلق .

سألنى من جديد :

- و . . . من انت ؟ أوه ، اجل . عامل فى مخبز . فى مخبز للكعك . هذا امر غريب . يبدو انك فى غير مكانـــك المناسب . فيمَ هذا ؟

احسست فى كلماته الاضطراب والقلق ، كانت نظراته تنم عن عدم الثقة ، وتشبه نظرات من يطارده شخص ما .

رويت له فى اختصار شيئا من قصتى . فاوضح فى لطف :

- هكذا اذن ! آه ، هكذا اذن !

وسأل ، وقد دبت فيه حيوية مفاجئة :

– تلك الاسطورة الخرافية ، عن البطة البشعة ، اعتقد انك تعرفها ؟

انقلبت اسارير وجهه على نحو غريب . وافعم الغضب كلماته وهو يوالى حديثه ، وظل صوته الخشن يزداد ارتفاعا بحيث امسى صراخا غريبا غير طبيعى :

– انها تغويك ، قصة مثل هذه القصة . وقد شعرت مثل هذا الشعور ، انا ايضا ، عندما كنت اماثلك فى العمر – اننى ربما انقلبت بجعة . حسنا ، و . . . كان يفترض فىّ ان ادرس فى الاكاديمية ، ولكننى دخلت الجامعة بدلا منها ولم يعد والدى الذى كان قسيسا يعتبرنى ابنا له ، وكان قسيسا . ومن بعد ، فى باريس ، درست تاريخ المصائب الانسانية – تاريخ التقدم . وكتبت شيئا منه ، انا نفسى . بلى ، آه ، كان ذلك كله . . .

اجفل ، وجلس مرهفا سمعه برهة . ومن ثم استتلى :

– التقدم . . . الناس هم الذين اخترعوه كيما يستحمقون انفسهم ! ليس فى هذه الحياة معنى ، ولا فيها منطـــق . لا يمكنك الحصول على التقدم من دون عبودية . وما ان تخضع الاقلية للاكثرية حتى تقف الانسانية عن متابعة السير . حين نحاول ان نبسط حياتنا ، وان نسهل عملنا ، فنحن لم نفعل الا تعقيد الامور ، وانهكنا انفسنا بمزيد من العمل . المصانع والآلات ، ان نصنع مزيدا ومزيدا من الآلات – يـا للغباوة والسخف ! يزيد عدد عمال المصانع فى العالم يوما بعد يوم ، ولا حاجة بالعالم إلا الى الفلاحين ، زراع القمح . الغذاء – هذا هو الشىء الوحيد الذى يحتاج المرء ان يستخرجه من الطبيعة

بعمل يديه . وكلما قلّت حاجات الانسان زادت سعادته ، وكلما تعاظمت رغباته تناقصت حريته .

لربما كانت كلماته الحقيقية غير هذه الكلمات . لكن هذه الافكار هى الافكار المذهلة التى عبّر عنها . وكنت قد سمعتها المرة الاولى – على مثل هذا الوضوح وذلك الشكل الصريح .

كان يصمت بعد ان يرتفع صوتها الى ابعد الحدود مهتاجا ويدير عينيه فى قلق صوب الباب المفتوح المؤدى الى الغرف الاخرى ، ثم يصغى لحظات فى ملء ذلك السكون . ومن بعد يسترسل ، هامسا ، فيما يشبه الغضب :

– خذ عنى ما اقول لك واخزنه فى رأسك – فليس هنالك من يحتاج اشياء كثيرة . رغيف من الخبز ، وامرأة . . .

تحدث عن المرأة فى همهمة سحرية ، فى كلمات لم افقه لها معنى ، فى شعر لم اسمعه من قبل قط . وبدا لى فجأة انه يشبه اللص باشكين الشبه كله .

همس قائلا ، وهو يذكر لى اسماء اجهل كل شىء عنها :

– بياتريس ، فياميتا ، لورا ، نينون .

حدثنى عن ملوك وشعراء ملحميين مفتونين ، وانشد شعرا بالفرنسية ، وهو يلوّح بذراعه النحيلة العارية حتى المرفق حركة موزونة مع الايقاع .

وجاءنى همسه المنفعل :

– الحب والجوع يحكمان العالم .

كنت اعرف هذه الكلمات . كانت مطبوعة فى اول صفحة منشور ثورى عنوانه «الملك مجاعة» – وقد احلّها ذلك من نفسى محلا خاصا واسبغ عليها اهمية خاصة .

– الرجال ينشدون النسيـــان ، والسلوان – وليس المعرفة !

اذهلتني هذه الفكرة الاخيرة الى ابعد الحدود .

كان الفجر قد بزغ حين غادرت المطبخ : بعيد الساعـــة السادسة بقليل على ما كانت تشير اليه الساعة الصغيرة على الجدار . ورحت ارفع خطواتي عبر ندف الثلج في الوحـــل الرصاصي ، وعصف الرياح حوالىّ ، والغضبة المزمجرة لذلك الرجل المحطم لا تبرح ترن فى اذنيّ ، وانا اشعر ان الامور التي تحدث عنها ليست اكثر من جرعة لا اقوى على ابتلاعها . انها تقف في حلقي ، في مكان ما – تخنقني . كرهت ان اعود الى مأواي في المخبز فاكون بين الناس . حملت على كتفي عبئـــا متعاظما من ندف الثلج المتماسكة ، ورحت اطوف في شوارع الحي التتاري حتى اقبل النهار وشرعت اشباح الناس تظهر بين كتل الثلج .

لم اجتمع باستاذ التاريخ مرة اخرى ، ولم يطب لي ان أراه . ولكنني سمعت فيما بعد مثل هذا الحديث عن حماقة الحياة ، وعدم جدوى العمل – سمعتها من شفاه جوابي آفاق جهلة ومتشردين لا مأوى لهم ، من «انصار تولستوى» ، من رجال ونساء نالوا من العلم اشرف الدرجات . سمعت مثل هذا الحديث من كاهن نال درجة الدكتوراه في اللاهوت ، ومـــن كيماوي يعمل في صناعة المتفجرات ، ومن عالم في البيولوجيا ، ومن آخرين كثيرين . غير ان تأثير هذه الافكار ، في مثل هاتيك اللقاءات الاخيرة ، لم تكن مرهقة على ما كان عليه لقائي الاول معها .

قبيل سنة او سنتين - اى بعد اكثر من ثلاثين عاما من حديثى مع استاذ التاريخ - فوجئت انى اسمع هذه الافكار ذاتها ، مصاغة فى التعابير ذاتها ، وذلك من فم صديق قديم لى هو احد العمال .

كنا نتحدث حديث القلب الى القلب ، وكان ذلك الرجل - ويلقب نفسه «رجل السياسة الكبير» ويبتسم فى شىء من العبوس ، - واخبرنى فى صراحة لا يعرفها ، فيما يبدو لى ، غير الروس انفسهم :

- ألكسى مكسيميتش ، يا صديقى العزيز ! ماذا ترانى ابغى من هذا العمل كله - العلم ، والمعاهد ، والطائرات ؟ انها عبء جديد . ولست اريدها . كل ما اريد هو ركن هادئ و . . . امرأة اقبلها حين يطيب لى ذلك ، وتجيبنى على قبلاتى فى شرف واخلاص - جسدا وروحا . اليك ! انت تزن الامور مثل المثقفين . انت لم تعد واحدا منا بعد الآن . لقد سرى فيك السمّ . والافكار بالنسبة إليك تعنى شيئا اكبر من شىء صغير مثل الشعب . انت تفكر مثل اليهود - الانسان خلق من اجل يوم السبت . أليس الامر على هذا الغرار ؟

- اليهود لا يفكرون مثل هذا التفكير .

فاجاب :

- الشيطان يعرف كيف يفكرون . فهم اكثر صعوبة من ان نفهمهم .

ورمى لفافته فوق النهر ، وراح يراقب سقوطها فى صمت .

كانت ليلة خريفية مقمرة . وكنا جالسين على ضفة حجرية من ضفاف نهر النيفا ، وقد نال الارهاق كلا منا بعد يوم من

الجهد العاطفى الذى لا طائل منه ، ومن رغبة متواصلة غير مجدية فى ان نؤدى عملا طيبا : عملا طيبا نافعا .

استرسل يقول فى هدوء متفكر :

– انت معنا ، ولكنك لست منا – فاسمـــع ما اقول . المثقفون – انهم يحبون الحركة والنشاط . على مدى العصور كانوا يلتحقون بالثوريين . مثل المسيح . كان مثاليا ، وقد ثار فى سبيل عالم آخر . وعلى المنوال ذاته يثور جميع المثقفين فى سبيل المدينة الفاضلـــة . المثالى يثور ، ويثور معـــه الطفيليون والاشقياء والانذال – يثورون جميعا لانهم يحسون بالفراغ ولا يجدون لانفسهـــم مكانا فى الحياة . والعمال – يثورون فى سبيل الثورة . وما يحتاجون اليه هو الحصول على توزيع نظامى لادوات العمل ومنتجاته . وحين يمتلكون السلطة كلها – هل تظنهم يوافقون على انشاء دولة ؟ كلا ابدا ! سوف ينفجرون ويتبعثرون ، ويحاول كل منهم ان يجد لنفسه ركنا هادئا بوسائله الخاصة . . . هل تقول الآلات ؟ والتقنية ؟ ولكنها لا تفعل اكثر من إحكام الانشوطة حول اعناقنـــا . لا تفعل اكثر من زيادة اعبائنا وقيودنا . كلا . ينبغى ان نحرر انفسنا من العمل الذى لا جدوى فيه . فما يحتاج اليه الانسان هو الهدوء . المصانع ، والعلوم – انها لا تمنحنا الهدوء . المرء لا يحتاج الى اشياء كثيرة حين يكون وحده . فيم ترانى اكدس المدن حين لا احتاج الى اكثر من بيت صغير ؟ اما يعيش الناس جماعات تجد انهم يحصلون على اشياء مثل المياه الجاريـــة ، وانابيب المياه ، والكهرباء . لكن – ان انت حاولت ان تطرح عنك هذه الاشياء كلها ، فما اسهل الحياة واهنأها اذن ! اننا

نملك اشياء كثيرة لا حاجة لنا بها ، وهذه الاشياء كلها جاءنا بها المثقفون . ولهذا اقول ان المثقفين – فئة ضارة !

لاحظت انـــه ليس هنالك شعب على الارض يعرف كيف يجرد الحياة من معانيها على مثل هذا الشمول والعمق مثلمـــا نفعل ، نحن الروسيين .

اكمل صديقى يقول ، وهو يضحك ضحكة قصيرة :

– نحن اكثر شعوب الارض حرية من الناحية الروحية . لكن ، لا تغضب ، فانا على حق كامل . هذا هو الاسلوب الذى يفكر فيه الملايين منا ، ولكنهم يجهلون كيف يصوغونه فى كلمات . . . يجب ان تكون الحياة اكثر بساطة . وعندهـــا تعاملنا بمزيد من الرقة .

لم يكن محدثى من «انصار تولستوى» ، كما انه لم يبد شيئا من اعراض الفوضوية . فانا ادرى الناس بمجرى تطوره الفكرى .

بعيد هذا الحوار معه وجدت نفسى مضطرا ان اتساءل : لنفرض ان الامر صحيح من حيث ان ملايين الرجال والنساء الروسيين لم يحتملوا ما فى الثورة من آلام وحرمان الا لانهم ، فى اعماق قلوبهم ، يدغدغون الامل فى التحرر من العمل ؟ اقل ما يمكن من الجهد واكثر ما يمكن من المتعة : هذا شعار يغرى الناس كثيرا . انه يطير بالناس ، مثله مثل اى شىء عسير التحقيق ، مثل اى شىء طوباوى .

وتذكرت السطور التى كتبها هنريك ابسن :

تقول انى غدوت «محافظا» .
انا ما كنت عليه طوال حياتى .
ابدا لم اكن رجلا يمارس المراهنات .
اوقفوا اللعبة كلها ! وانا لكم بكليتى .
الثورة الوحيدة التى اتذكرها
لم تكن ثورة غش او خداع على الاطلاق ،
بل كانت ثورة اسبغت الفخار على ابطالها ،
ثورة حملت معها ، ولا ريب ، الطوفان الاكبر .
ولكن الشيطان نفسه انخدع بها ،
فقد غدا نوح ، على الفلك ، ديكتاتورا .
وهكذا — لنجربن من جديد ، يا اصدقائى ،
وكيما نفعل ذلك فلنحصلن اذن على مقاتلين وخطباء .
بلى ، اغرقوا العالم بطوفان آخر كبير ،
اما انا . . . فلسوف انسف الفلك فى سرور !

كان الدخل الذى تحققه دكان ديرينكوف ضئيلا تافها ، فى حين ان عدد الاشخاص والمشاريع التى تحتاج الى العون المادى يتزايد باستمرار .

كان اندريه يقول ، وهو يعبث بلحيته باصابعه بانتباه :

— ينبغى ان نفكر فى مخرج .

ويبتسم ابتسامته الاعتذاريـــــة ، او ربما اطلق زفرة حزينة .

بدا لى هذا الانسان كمن يعتبر نفسه محكوما مدى الحياة بالاشغال الشاقة فى سبيل البشرية ، وعلى الرغم من انه روض

نفسه على هذا الحكم فقد كانت تمرّ به احيان يثقل عليه فيها الى ابعد الحدود .

لكم كنت اسأله هذا السؤال الواحد فى صيغ متعددة :

– وفيم تفعل ذلك ؟

لم يكن يستوعب مغزى سؤالى ، فهو يرد على هذا السؤال دائما فى نبرة متفككة مشوشة متحدثا عن حياة الشعب وآلامه وعن ضرورة التعليم واهمية المعرفة .

وباعتبار ان الافكار ماضية حادة فقد كان من الخطورة ان تندس فى رؤوس شبان فى السابعة عشرة من اعمارهم . فالافكار تغدو كليلة فى مثل هذه المناوشات ، كما ان الشبان لا ينتفعون بها .

وبدأت اتخيل انى لاحظت – انى كنت الاحظ دائما – هذا الشيء ذاته فى كل مكان : فالقصص ، مهما كانت شيقة ممتعة ، يحبها الناس لانها تتيح لهم ان ينسوا ساعة من الزمن حياتهم البائسة ، لكن المألوفة . وكلما كانت القصة «ملفقة» زاد الاقبال على الاصغاء اليها . والكتب تلقى رواجا اكثر حين تزوق بالابتداعات الظريفة . وباختصار ، فقد كنت «احوم فى ضباب بغيض» .

عزم ديرينكوف على افتتاح مخبز . وخيل اليه ، فيما اذكر ، ان المشروع سيؤمن له لا اقل من خمسة وثلاثين بالمائة فى كل روبل . وكان علىّ ان اعمل «صبيا» للخباز ، و – «واحدا من الحلقة» – اعنى كيلا يعمد ذلك الخباز الى سرقة الطحين ، والبيض ، والزبدة ، او البضاعة الجاهزة .

وهكذا انتقلت من قبو – كبير وقذر – الى قبو آخر اصغر

سعة واكثر نظافة . وكان الحفاظ على نظافته احدى المهمات الجديدة التى انيطت بى . وبدلا من العمل مع مجموعة من اربعين عاملا صار علىّ ان اعمل الآن مع رجل واحد ، له صدغان اشيبان ، ولحية قصيرة مدببة ، ووجه نحيل ناضب ، عينان قاتمتان متأملتان وفم غريب الشكل ، صغير مثل فم سمكة ، وشفتان غليظتان ناعمتان مكورتان فكأنهما تجمعتا ، فيما يخال له ، لتقبيل شخص ما . وكان فى اعماق عينيه وميض ساخر . كان يعمد الى السرقة من دون ريب . ففى الليلة الاولى لوجودنا فى المخبز وضع جانبا عشر بيضات ، وثلاثة ارطال او اكثر من الطحين ، وقطعة من الزبدة .

– وفِيمَ هذا كله ؟

فردّ علىّ فى لهجة ودية :

– أوه ، هذا من اجل فتاة صغيرة اعرفها .

وتغضنت جبهته ، واضاف :

– فتاة صغيرة ظر . . . يفة !

بذلت جهدى لاقنعه ان العالم يعتبر السرقة جريمة . لكن جهودى البلاغية كانت عبثا فيما يبدو ، او ربما لم اكن انا نفسى مقتنعا بالحقيقة التى رغبت فى توكيدها . وعلى اية حال ، فقد ضاعت كلماتى هباء .

كان قد استلقى على ظهره . على حافة صندوق العجين يحدق من خلال النافذة الى النجمات ، ويتمتم فى انشداه :

– هِمْ ! تلقى علىّ موعظة ! اول مرة انت ترانى ، وهذا انت ! تلقى علىّ موعظة ! وانا اكبر منك سنا ثلاث مرات . يا للسخرية !

وانهى استطلاعه للنجمات ، واستفسر :

– اين اشتغلت قبل هذا المكان ؟ يخال لى انى رأيتك فى مكان ما . عند سيميونوف تقول ؟ حيث كانوا مضربين ؟ اوه ، حسنا اذن ، لا بد انى رأيتك فى احد احلامى . . .

اكتشفت خلال عدة ايام ان هذا الرجل يملك موهبة فى النوم لا حدود لها . كان يستطيع ان ينام كيفما كان وحيثما كان – حتى ولو كان واقفا على قدميه حيث يعتمد على الرفش الخشبى الذى يستخدم لوضع الخبز فى الفرن . وحين يكون نائما يرتفع حاجباه ، وتخضع ملامح وجهـــه لتبدل غريب ، وتنطبع عليها سخرية لا حدّ لشذوذها . وكان حديثه المفضل يتعلق بالثروات المدفونة فى جوف الارض والاحلام ، فيعلن فى قناعة راضية :

– انى ارى فى الارض عميقا وعميقا ، فتلوح لى مثل ابنية محشوة بالكنوز . جرار وصناديق واوانى ملأى بالنقود وكلها مدفونة فى الارض . وبين فترة واخرى احلم ببعض الامكنـــة التى اعرفها . كان هنالك حمام مرة . ورأيت فى الحلم ان ثمة صندوقا مليئا من فضة ، مدفونا فى احدى زواياه . حسنا ، هببت من نومى ، ومضيت الى هناك مباشرة ، فى ظلمة الليل ، وجعلت احفر . حفرت كثيرا ، وماذا تحسبوننى وجدت هناك ؟ قطع من الفحم ، وجمجمة كلب . هذا كل شىء ! لقد كنت فى المكان الصحيح ! وعلى حين فجأة – بانغ ! تحطمت النافذة ، وشرعت امرأة مخبولـــة تصيح باعلى صوتها : «اللصوص ! النجدة !» طبيعى انى هربت ، والا كنت تعرضت لضرب مبرح . يا للامر المسلّى !

طالما سمعت هذه العبارة : «يا للامر المسلى !» . ولكن إيفان كوزميتش لوتونين لم يكن يضحـــك . بل هو يفرك جبهته ، ويوسع منخريه ، ويضيق عينيه على شكل ابتسامة .

لم يكن هنالك شيء غريب فى احلامه . كانت كئيبة غبية مثل الحقيقة ذاتها . ولم افهم كيف يجد لذة فى روايتها وهو لا يحب ، فى الوقت ذاته ، ان يتحدث عن الحياة التى تحيط به * .

كان هنالك ابنة تاجر ثرى من تجار الشاى تزوجت مكرهةً فقتلت نفسها بُعَيْدَ الاحتفال الكنسى مباشرة . وهاجت البلدة بأسرها . واجتمع حشد من الشبان – عدة آلاف – وشارك فى جنازتها ، والقى الطلاب خطبا على ضريحها . وفى النهاية فرّقهم رجال الشرطة . وتحدث الجميـــع فى دكاننا الصغيرة عن هذه الفاجعة فى اصوات عالية ، وعجت الغرفة الواقعة وراء الدكان بطلاب ثائرين . وسبحت الينـــا فى القبو اصوات ساخطـــة وكلمات لاذعة .

اعلن لوتونين :

– كان ينبغى ان يوبخوا الفتاة اكثر يوم كانت صغيرة بعد .

ولم يلبث ان خاطبنى بعد قليل :

– حلمت انى كنت اصطاد السرطان فى مستنقع . وعلى

---

* فى اواخر التسعينيات قرات فى احدى المجلات الاثرية ان لوتونين – كوروفياكوف قد عثر فى مكان ما فى قضاء شيستوبول على جرة مليئة بالقطع النقدية العربية . **ملحوظة من غوركى .**

غير انتظار – ثمة شرطى : «قف ! باى حق ؟» ولم يكن ثمة مكان للهرب ! وهكذا وثبت الى المـــاء ، واستيقظت مـــن نومى . . .

ومع هذا ، ورغم ان كل ما حول صديقى من واقع يجرى دون ان يشعر به ، فلم ينقض وقت طويل حتى بدأ يشعر ان فى مخبزنا شيئـــا غير عادى . فالفتيات يخدمن الزبائن فى الدكان مع ان هذا العمل لا يلائمهن – فتيات يقرأن الكتب . كانت احداهن شقيقـــة صاحب الدكان ، والاخرى – احدى صديقاتها ، فارعة القوام ، موردة الخدين ، لطيفة العينين . وكان الطلاب يحضرون يوميا ويقيمون ساعات طويلة فى الغرفة القائمـــة وراء الدكان ، يتحدثون فى اصوات عاليـــة ، او يتهامسون . وكان صاحب الدكان لا يظهر الا لماما ، فيمـــا انا – «الصبى» – اقوم باعمال الادارة على شكل او آخر .

استوضح لوتونين :

– أأنت من اقارب المعلّم ؟ او ربما يريد ان يجعل منك صهراً ؟ كلا ؟ يا للامر المسلى ! و . . . فيم يجتمع الطلاب هنا ؟ من اجل السيدتين الصبيتين ؟ همْ . . . حسنا ، قد يكون الامر كذلك . ولكنهما ، على اية حال ، غير جميلتين ، سيدتيك الصبيتين . اولئك الطلاب الشبان – ليطيب لى ان اقول انهم يسعون وراء ارغفة الخبز أكثر من مغازلـــــة الفتاتين . . .

فى الساعة الخامسة او السادسة صباحـــا ، وفى كل يوم تقريبا ، كان ثمة فتاة تظهر عند نافذة المخبز : قصيرة الساقين فكأنها من كرتين مختلفتى الحجم – تشبه كيسا من البطيخ

الى ابعد الحدود . كانت تقعد على حافة نافذتنا ، وتدلى ساقيها العاريتين ، وتنادى وهى تتثائب :

– فانيا !

وكان شعر اجعد خفيف ، ينسرب من تحت منديل زاهى الالوان ، يساقط فى حلقات صغيرة فوق جبهتها المنخفضة ، ووجنتيهـــا المضرجتين ، المنفوختين مثل بالونين . وكانت الخصلات تندفع فى عينيها الناعستين ، فتطردها ، فى كسل ، بيديها الصغيرتين – تاركة اصابعها منفردة بصورة تبعث على الضحك مثل اصابع مولود جديد . وكنت اتساءل فى اغلب الاوقات : عماذا يمكن ان يتحدث المرء مع مثل هذه الفتاة ؟ وحين اوقظ الخباز من نومه ، فهو يتوجه اليها مستعلما :

– اهذه انت ؟

– هذه انا .

– هل نمت جيدا ؟

– ولماذا لا انام جيدا ؟

– وبماذا حلمت ؟

– لست اذكر .

كل ما فى البلدة هادئ ساكن . هذا صحيح ، ولكن ليس فى كل مكان : فان عصا الحارس تقرقع فى مكان ما ، وعصافير الدورى التى استفاقت لتوها بدأت تغريدها ، والشعاعات الدافئة اللطيفة للشمس المشرقة تنحدر لتلقى بخيالها عـــلى زجاج النافذة . كنت احب تلك الاويقات الحالمة ، حين يكون النهار قد طلع قبل لحظات فحسب . كان الخباز يمدّ ذراعه العامرة بالشعر من النافذة المفتوحة ويدغدغ ساقى الفتاة .

فتستسلم لتلك التجربة فى لامبالاة ، ودون ان تنفرج شفتاها عن ظل ابتسامه ، بل تطرف بعينيهـــا الخاويتين الشبيهتين بعينى خروف .

– بشكوف ، اخرج الحلوى من الفرن . فقد حان الاوان !

فاخرج الصحائف الحديديـــة من الفرن . فيلتقط الخباز نصف دزينة من الكعك المحلى ، والارغفة ، والفطائر ويلقى بها فى حضن الفتاة . فتروح تنقل كعكة ساخنة من يد الى يد فى حذر شديد ، ثم تغرز فيها اسنانهـــا الصفراء – فيحترق فمها ، فتئن ، وتخور وقد نفد صبرها .

ويراقبها الخباز فى هيام ، ويقول :

– انزلى تنورتك ، ايتها الوقحة !

وما ان تذهب الفتاة حتى يروح يتبجح امامى :

– انها اشبه بنعجة ربيعية – ملفوفة كلها ! هل رأيت ؟ انا ، يا اخى – انا احب النظام والنظافة . انا لا احب النساء . بل اهوى الفتيات . وهذه الثالثة عشرة بين عشيقاتى . انها ربيبة نيكيفوريتش .

كنت اصغى الى نجاواه فى صمت ، وانا اسأل نفسى :

«وانا ؟ هل علىّ ان اعيش على هذا الغرار ؟»

ما ان تخرج الارغفة الكبيرة البيضاء التى تباع بالوزن من الفرن حتى اضع عشرة او دزينة منها على لوح خشبى طويل واسرع بها الى دكان ديرينكوف القديمـــة . وحين انجز هذا العمل املأ سلة مما يسع ثلاثين كيلوغراما بالارغفة والكعك المحلى واركض بها الى الاكاديمية اللاهوتية لاصل فى الوقت الذى يتناول فيه الطلاب طعام الفطور . كنت اقف داخل ممشى

الباب فى ردهة الطعام الضخمة ، وازوّد الطلاب بالأرغفة – «نقدا» او «نسيئة» – وانهل جميع ما استطيع ان التقطه من مناقشات عن ليف تولستوى . كان احد اساتذة الاكاديمية ، ويدعى غوسيف ، عدوا لدودا لتولستوى وتعاليمه . وكنت احمل فى سلتى احيانا بعض الكتب تحت ارغفة الخبز – اسلمها سرا الى هذا الطالب او ذاك . وفى احيان اخرى ايضا كان الطلاب يدسون كتبا او منشورات فى سلتى .

وفى يوم واحد من ايام الاسبوع كنت احمل خبزى الى ابعد من ذلك : الى «مستشفى المجانين» ، حيث يلقى طبيب الامراض العقلية بيختيريف دروسه ويستعرض المرضى . كان يحاضر طلابه يوما عن مريض بجنون العظمة . حين ظهر ذلك الرجل فى رواق صالة المحاضرات ، وهو طويل القامة ضامر العود ، يرتدى ثوبا ابيض من ثياب المستشفى وقلنسوة ليلية طويلة مخروطية الشكل ابتسمتُ مكرها . ولكنه ، وهو يمر بى فى طريقه الى الصالة ، وقف امامى لحظة ورنا الى وجهى . فتراجعت متقهقرا . بدا وكأن نظرته الثاقبة ، الباردة السوداء لكن الملتهبة ، قد اخترقت جدران قلبى . وخلال الوقت الذى استغرقته المحاضرة ، وبيختيريف يتحدث الى المجنون فى احترام وهو يداعب ذقنه ، ظللت انا امسح وجهى بيدى بحركة مختلسة . كنت اشعر ان موجة من الرماد الحارق هبّت عليه .

ظل الرجل يسأل بيختيريف شيئا فى صوت عميق اجش . مد ذراعا نحيلة فى حركة مهيبة ، فسقط كمّ ثوبه بعيدا بعيدا عن اصابعه الهزيلة . وخيّل الىّ ان قامته تطول بصورة غير

طبيعية الى ان بدا لى ان تلك الذراع الداكنة يمكن ان تعبر الغرفة ساعة يشاء وتقبض عليّ من عنقى . وكان الحقد والسلطان يشعان فى نظرته النافذة المنطلقة من عينيه السوداوين الغارقتين فى وقبتين سوداوين فى وجهه العظمى . وكان ثمة عشرون طالبا او اكثر جالسين يراقبون ذلك الرجل فى قلنسوته الليلية التى تثير السخرية . كانت الاقلية فيهم تبتسم ، اما الاكثرية فحزينة مستغرقة فى التفكير . وكانت عيونهم تبدو عادية جدا اذا قورنت بنظراته الملتهبة . كان يرسل الهلع فى اعماق القلب . وكان فيه شىء جليل مهيب من دون ريب !

كان صوت الاستاذ يرن واضحا جليا فى ذلك السكون الثقيل الذى يرين على الطلاب . وكل سؤال يستدعى صرخات حادة من ذلك الصوت العميق الذى يبدو وكأنه ينطلق من تحت الارض – من وراء الجدران البيضاء المتينة . وكانت حركات ذلك المريض بجنون العظمة بطيئة متسمة بالابهة فكأنها حركات مطران .

فى تلك الليلة نظمت عنه شعرا ، اسميته فيها «سيد السادة ، صديق الله ومستشاره» . وظلّ زمنا طويلا يهوم فى افكارى ويجعل الحياة صعبة بالنسبة الىّ .

كنت انهمك فى العمل منذ الساعة السادسة مساء حتى الظهر ، واقضى بعد الظهر فى النوم ، ولا أجد وقتا للقراءة الا بين فترات العمل ، حين تنتهى احدى وجبات العجين ولا تكون الثانية نضجت بعد ، والخبز قد وضع فى الفرن . وباعتبار انى بدأت اتعلم اسرار الصنعة فقد جعل الخباز يقلل من نوبات

عمله اكثر فاكثر ، ويلقيه على عاتقى – «كيما يعلمنـــــى كيف» . وكان يخاطبنى قائلا فى نبرة ودية مشدوهة :

– انت موهوب . وفى مدى سنة او سنتين ستغدو خبازا ماهرا . يا للامر المسلى ! شاب مثلك – من تراه يحترمك او يلبى اوامرك ؟

لم يكن يوافق على شغفى بالكتب . فهو ينصح لى وقد اخذ منه القلق مأخذه :

– كف عن القراءة واحصل على شىء من النوم .

بيد انه لم يسألنى مرة عن ماهية الكتاب الذى أقرأ .

كانت تستغرقه الاحلام والاوهام عن الكنوز المدفونة ، وفتاته القصيرة الساقين المكورة الجسم . الفتاة تزورة ليلا بين فترة واخرى ، فيرافقها الى الرواق حيث تتكدس اكياس الدقيق . فاذا كان الجو باردا طلب الى ، وهو يحك جبهته :

– هلا خرجت نصف ساعة من الزمن !

فاخرج وانا افكر فى الاختلاف الكبير بين هذا النوع من الحب والحب الذى اقرأ فى الكتب . . .

كانت شقيقة صاحب الدكان تقيـــم فى الغرفـــة الصغيرة الواقعة وراء الدكان . وكنت اشعـــــل لها السماور بصورة منتظمة ، واجتهد فى ان أراها اقل ما يمكن . كانت تشيع فى الاضطراب . تحط عيناها الطفوليتان على وهما تشعان بتلك النظرة التى لا تحتمل والتى عرفتها خلال اول لقاءاتى معها . كنت افترض فى اعماق تينك العينين ابتسامة مخبوءة : ابتسامـــة تسخر منى .

كانت قوتى الجسدية الكبيرة تجعلنى اخرق التصرف ،

فاذا رآنى الخباز احمل اكياس طحين زنة الواحد منها خمسة بودات * يخاطبنى راثيا مؤاسيا :

– انت تملك قوة ثلاثة رجال ، ولكنك – اخرق ! انت مثل الثور ، ولكنك طويل وهزيل . . .

انهيت فى تلك الفترة قراءة عدد من الكتب . شغفت بقراءة الشعر ، وشرعت انظم بعض القصائد بنفسى . اما فى الحديث فقد دأبت على استخدام «كلماتى الخاصة» بدلا مما كنت أقرأ فى تلك الكتب . وهى كلمات اعرف انها قاسيـــــة ثقيلة ، ولكنها ، كما بدا لى ، قادرة على التعبير عن تشوش افكارى . وكنت فى بعض الاحيان اصطنع القسوة احتجاجا ضد شيء ما – لا اتمكن من تحديد هويته على وجه الدقة – اشعر انه غريب يثير غضبى .

وبخنى استاذ من اساتذتى ، كان يدرس الرياضيات ، ذات مرة :

– يا لأسلوبك فى الحديث ، اخذه الشيطان كله ! انت لا تنطق بكلمات ، بل بأوزان حديدية !

لم اكن راضيا عن نفسى مثلما يحدث غالبا مع المراهقين ، فقد كنت اجد نفسى فظا غليظا . اما وجهى فهو وجه ناتـــى الوجنتين مثل وجوه الكالميكيين ، وصوتى اعجز عن السيطرة عليه .

وكانت شقيقة معلمى ، على العكس ، رشيقة الحركة حلوة

---

* البود يساوى ١٦،٣ كيلوغرام . **الناشر** .

الشمائل فكأنها سنونوة طائرة ، ولكن خفة حركاتها تبدو لى متنافية وجسدها الصغير المدور السمين . كان فى حركاتها ، وفى خطواتها ، شيء غامض مصطنع ، وصوتها يرن راضيا مسرورا ، وهى تضحك كثيرا . فاذا سمعت ضحكتها الصافية اقول فى نفسى انها تحاول بكل بساطة ان تجعلنى انسى يوم رأيتها اول مرة . ولم اكن اود نسيان ذلك . كان يغرينى كل انطباع عن الاشياء غير المألوفة . وكنت فى حاجة ملحة الى التحقق من ان ما هو غير مألوف ممكن ، وانه موجود حقا .

كانت تسألنى احيانا :

– ماذا تقرأ ؟

فأجيبها فى اختصار–وانا اشعر برغبة تدفعنى الى سؤالها بدورى :

«وما علاقتك بالموضوع الذى أقرأه ؟»

قال لى الخباز ذات ليلة وهو يداعب حبيبته ، وكان صوته اشبه بمن هو سكران :

– أخرج قليلا . آه ، لماذا لا تذهب وتتلهى مع شقيقة المعلم ؟ انت تضيع هذه الفرصة من بين يديك ! فى حين ان الطلاب . . .

فأجبته انى سأكسر له رأسه بمثقال حديدى ان هو عاود مثل هذا الحديث مرة اخرى . جلست على اكياس الدقيق فى المدخل ، وسمعت صوته من خلال فرجة الباب :

– وما يدعونى الى الغضب ؟ هذه نتيجة الانكباب على الكتب طوال حياته – فالفتى يعيش مثل رجل اصابه الجنون . . .

كانت الجرذان تخشخش وتصييء فى المدخل . وفى المخبز تخور الفتاة وتئن . خرجت الى الساحة . ثمة مطر رخى ينهمر فى كسل فلا يند عنه صوت ، ولكنه لم يرطب الهواء الخانق ، المثقل برائحة الحريق . كانت الغابات تحرق فى مكان ما ، والزمن قطع شوطا بعيدا بعد انتصاف الليل ، ونوافذ البيت المقابل للمخبز مفتوحة تتسرب من حجراتـــه نصف المضاءة اغنية تقول :

القديس فارلامى العجوز
بهالته الذهبية يجوز
يوزع البسماتْ
على كل الطرقاتْ

حاولت ان اتخيل ماريا ديرينكوفا مضطجعـــة على ركبتى مثلما تضطجع فتاة الخباز على ركبتيه – فأحسست فى كـل خلية من خلايا جسدى ان هذا مستحيل . كانت الفكرة وحدها مخيفة مرعبة .

من الشروق الى الغروبْ
هو يروح وهو يؤوبْ
مغنياً كيفما كانْ . . .
كان ما كان فى قديم الزمانْ . . .

بين هاتيك الاصوات كان ثمة صوت جهير ثرى عميـــق يردّد بين حين وحين همهمة لعوبـــة «هِمْ !» . انحنيت الى الامام ، واعتمدت بيدى على ركبتىّ ، فرأيت من خلال الستارة

المخرمة الجدران الرمادية لغرفة مربعة يضيئها قنديل صغير ذو ظلة زرقاء . وامام القنديل جلست فتاة تكتب وقد أدارت وجهها ناحية النافذة . رفعت رأسها الاونة وصفّفت بذؤابــة ريشتها الحمراء خصلة من الشعر فوق صدغها . كانت عيناها نصف مغلقتين ، ووجهها يشرق بابتسامة . طوت رسالتها فى تراخٍ ، وبللت طرف الغلاف بريق لسانها ، واغلقته . ثم القت به على المنضدة ، وهزت اصبعهــا تتوعده – هزت سبابتها التى هى اصغر من خنصرى . لكن – ها هى قد عادت فأخذت المغلف وقد اربد وجهها ، فمزقته ، وقرأت الرسالة مرة اخرى ، ووضعتها فى مغلف آخر ، وانحنت على المنضدة ، وكتبت العنوان . ثم لوّحت بالمغلف فى الهواء ليجف الحبر عنه وكأنها تلوّح بعلم هدنــة صغير ابيض . ودارت على عقبيها ، كانت خالعة قميصهــا ، وكتفاهــا ريانين ممتلئين ومدورين . حملت القنديل عن المنضدة وتوارت فى الركن مرة اخرى . ان تعرف فان المرء ، حين يحسب نفسه وحيدا ، قد يبدو لعينى من يراقبه شيطانية . رجعت الى الساحة أطويها فى جيئة وذهوب وانا افكر فى الحياة الغريبة التى تحياها هذه الفتاة عندما تكون وحيدة فى حجرتها الصغيرة .

حين كان الطالب الرملى الشعر يحضر لزيارتها ، ويجلس يتحدث اليها فى صوت خافت ، بل مهموس فى اغلب الاحيان – فهى تنكمش على نفسها وتبدو أصغر مما هى عليه عادة . كانت تنظر اليه نظرة وجل ، وتخفى يديها وراء ظهرها او تحت المنضدة . كنت اكرهه ، ذلك الطالب الرملى الشعر . اكرهه الكره كله . . .

جاءت فتاة الخباز تتعثر فى خطواتها ، متلفعـــة بشالها ، وخارت فى وجهى :

– أدخل . . .

كان الخباز يلقى بالعجين على لوحة خشبية فحدثنى متفاخرا عن حبيبته ، وعن قدراتها الدائمة على العبث واللهو . غير اننى وقفت أتساءل :

«الى اين ترانى أسير ؟»

وخيل الى ان فى مكان جـــد قريب – حول منعطف ما – تنتظرنى احدى المصائب .

كانت اعمال المخبز تزدهر مما دفع ديرينكوف الى البحث عن فرن اكبر . وقد عزم ايضا على تعيين مساعد جديد . وكان ذلك منه عملا طيبا . كنت احمل عبئا كبيرا ينهك قواى بدرجة مذهلة .

وعدنى الخباز :

– لسوف تكون المساعـــد الاول فى الفرن الجديـــد . وسأخبرهم ان يزيدوا اجرك الى عشرة روبلات فى الشهـــر . نعم ، اعدك .

عرفت بما فيه الكفاية لماذا ارادنى ان اكون المساعـــد الاول . فهو يكره العمل ، فى حين اعمل انا متطوعـــا . كان التعب يفيدنى . فهويبدد قلقى الفكرى ويعقل رغباتى الجنسية الملحة . ولكن – ولكنه يحول بينى وبين القراءة ويجعلها مستحيلة بالنسبة الى .

قال الخباز :

– فعلت حسنا عندما اطرحت كتبك . انها طعام الجرذان .

هذا ما تصلح له ! لكن . . . الا تراك ترى فى منامك احلاما ؟ لا شك انك تحلم ! ولكنك اخرس لا تتكلـــم . يا للامر المسلى ! ليس ثمة أذية فى روايـــة الاحلام . فهى لا تؤذى احدا . . .

كان ودودا على الدوام ، ويخال لى انه يحترمنى الاحترام كله . او ربما كان يخافنى لاننى ابدو وكأننى تحت حماية معلمنا — ولكن هذا لم يمنعه عن سرقاته النظامية .

ماتت جدتى . تسلمت الرسالة بعد سبعة اسابيع مـــن دفنها . كانت من احد ابناء خالى وفيها ينبئنى بوفاتها . تلك الرسالة المختصرة — العارية من اية فاصلة — اعلنت ان جدتى سقطت عن سلم الكنيسة وهى تستعطى فكسرت ساقهـــا . وبعيد ثمانية ايام «اصابها التهاب عام» . وعلمت فيما بعد ان ابنى خالى واختهما مع اولادهما ، وهم اصحاء وشبان عاشوا مما كانت تجمع من صدقات ، قد غاب عـــن بالهـــم وجوب استدعاء الطبيب .

كتب ابن خالى :

«دفناها فى مقبرة بيتروبافلوفسكى حيث دفن جميع افراد عشيرتنا وذهبنا الى الجنازة وكان فيها الشحاذون ايضا وكلهم يحبونها وبكوا بمرارة . بكى جدى ايضا ثم طردنا وبقى وحده على القبر وراقبناه من خلال الادغال يبكى ولسوف يموت عما قريب» .

انا لم اذرف شيئا من دموع . ولكننى — على ما اذكر — بدوت كمن انهمرت فوقه ريح جليدية . جلست على كومة من الحطب فى الساحة فى تلك الليلة ، واحسست بلهفة طاغية فى

ان احدث كائنا من كان عن جدتى ، وان اذكر له مقدار ما كانت عليه من دماثة ،وحكمة ، ورأفة بالناس فكأنها أمهم . حملت هذه اللهفة الطاغية فى قلبى امدا طويلا . غير انه لم يكن هنالك من استطيع ان احدثه عن هذه الاشياء ، فاضمحلت واضمحلت الى ان انطفأت دون تحقيق .

رجعت هاتيك الايام الى ذاكرتى حين اتيح لى ان أقرأ بعد عدة سنوات قصـــة انطون بافلوفيتش تشيخوف الحقيقيـــة الرائعة عن حوذى حدث حصانـــــه عن موت ولده . فأسفت لاننى ، فى ايام الحزن المريرة تلك ، لم اكن املك حصانـــا احدثه او كلبا اشكو اليه . واسفت على انه لم يتح لى ان ابث حزنى للجرذان ، وكان فى المخبز اعداد كبيرة منها ، وكنت لها الصديق المخلص الوفى .

بدأ الشرطى نيكيفوريتش يحوم حولى مثلما يحوم الطير الجائع حول فريسته . كان شيخا متين البنية شديد البأس على رأسه فرشاة من شعر فضى ولحية عريضة يشذبهـــا ويسرحها بصورة رائعة . كان ينظر الى مثلما ينظر المرء الى بطة مسمنة لعيد الميلاد وهو يتمطق بلسانه .

وكان يبدأ حديثه قائلا :

– أرى انك مولع بالقراءة . حسنا ، وما هى الكتب التى تطالعها الآن ؟ الانجيل على ما اعتقد ، او حياة القديسين ؟

بلى . كنت اعرف الانجيل والتعاليم اليوميـــة ايضا . وبدا نيكيفوريتش مشدوها من ذلك ، بل ابدى شيئا من الضيق .

– هم م م . حسنا ، انها قراءة مشروعة ونافعة . وماذا عن الكونت تولستوى – هل قرأت كتاباته ؟

كنت قرأت تولستوى ايضا ، ولكن هذه الكتب كلها ، فيما يلوح ، لم تكن هى التى يبحث الشرطى عنها .

– هذا كل شيء . . . حسنا ، هراء مألوف ، مثل كل ما يكتبه الناس . ولكن هنالك هراء آخر كتبه ويتحدث الناس عنه تبين انه موجه ضد الكهنة . وهذا شيء يستأهل القراءة !

كنت قد قرأت هذا «الهراء الاخر» ايضا فى نسخ مطبوعة بطريقة خاصة . وبدت لى باعثة على الضجر ، وعرفت انهـــا ليست مما يمكن مناقشتها مع رجال الشرطة .

بعيد عدد من امثال هذه الاحاديث المختصرة معـــه فى الشارع شرع ذلك الرجل الشيخ يدعونى الى زيارته فى منزله .

– تعال زرنى فى كشكى ، ولسوف نتناول قليلا مـــن الشاى .

فهمت من دون ريب ما يرمى اليه . ومع ذلك . . . رغبت فى زيارته . استشرت المخلصين لى ، فاتفقوا على ان رفض حسن ضيافة شرطى قد لا يفيد الا فى تكثيف شكوكه ضـــد المخبز .

وهكذا قمت بزيارة الى كشك نيكيفوريتش . كان ثلث تلك الغرفة الصغيرة المنخفضة يشغله موقد روسى ؛ والثلث الثانى سرير كبير مزدوج مزدحم بمجموعة من الوسائد اغطيتها حمراء براقة ، وتفصله عن بقية الغرفة ستائر من القطن ؛ اما الثلث الاخير فقد وضعت فيه خزانة ومنضدة وكرسيان ودكة خشبية تحت نافذة صغيرة . قعد نيكيفوريتش على الدكة وقد حل ازرار سترته الرسميـــة ، وسد بظهره النافذة الوحيدة باكملها . وجلست انا قبالتـــه عبر المنضدة ، الى جانب

زوجته – وهى امرأة فتية عامرة الصدر مضرجة الوجـــه فى العشرين من عمرهـــا ، لهـــا عينان خبيثتان لعينتان فى لون اردوازى غريب . ظلت تزم شفتيها القانيتين فى نزوات مفاجئة وترن فى صوتها نبرة ماكرة جافة .

كان الشرطى يقول :

– تناهى الى علمى ان ربيبتى سيكليتيـــــا تحوم حول مخبزكم . هى ساقطة طائشة ، وآثمة . وجميع النساء آثمات .

فسألت امرأته :

– جميعهنّ ؟

فكرر نيكيفوريتش ، وهو يقرقع باوسمته مثلما يقرقع الحصان بعدته :

– دون استثناء !

ورشف قليلا من الشاى من قدحـــــه ، واعاد القول فى تلذذ :

– آثمات ساقطات من آخر مومس تجوب الشوارع – صعودا الى الملكات انفسهن ! فلقد سافرت ملكة سبأ مسافة الفى فرسخ فى الصحراء الى الملـــــك سليمان كيما ترتكب الفجور . وقيصرتنا ايكاترينا ايضا ، التى يلقبونها «العظيمة» ، ولكن . . .

وسرد علينا ، فى تفصيل دقيق ، قصة خادم من خدم القصر قضى ليلة واحدة مع القيصرة فرفعته رتبة رتبة فى الجيش من عريف الى جنرال . كانت امرأته تصغى فى استغراق ، وتلعق شفتيها بين حين وحين ، وتدفع قدمهـــــا صوب قدمى تحت

المنضدة . تحدث نيكيفوريتش فى رقة متناهية ونكهة خاصة .
ثم انتقل ، ودون ان اشعر ، الى موضوع جديد ، فقال :
– هنا ، مثلا ، ثمة طالب فى شارعنا . فى السنة الاولى فى الجامعة . اسمه بليتنيوف . . .
فتدخلت زوجته فى الحديث ، وهى تزفر فى اكتئاب :
– ليس جميل الوجه ، ولكنه . . . ظريف !
– من هو الظريف ؟
– السيد بليتنيوف .
– قبل كل شيء كفى عن هذه «السيد» . لسوف يكون «السيد» حينما ينهى تحصيله العلمى ، وفى هذه الاثناء فهو عبارة عن طالب مثل اى طالب آخر . هنالك الوف من امثاله .
وثانيا ماذا تقصدين بانه ظريف ؟
– انه مرح . وشاب .
– اولا ، المهرج فى السيرك رجل مرح ايضا .
– المهرجون . . . انهم يدفعون لهم نقودا ليكونوا مرحين .
– اخرسى ! وثانيا ، فالكلب كان جروا فى اول حياته . . .
– المهرجون . . . انهم ليسوا اكثر من قرود . . .
– قلت لك اخرسى ان كنت تذكرين . هل تسمعين ؟
– انى اسمعك .
– حسنا ، اذن . . .
واستدار نيكيفوريتش الىّ بعدما خنعت زوجته :
– هذا البليتنيوف . . . مثلما كنت اقول هو شاب يبعث على الاهتمام . يحسن ان تتعرف اليه !

ولما كان نيكيفوريتش يشاهدني مرارا عديدة مع بليتنيوف ، فقد اجبته قائلا :

– انا اعرفه .

– انت تعرفه ، ايه ؟ هم مم . . .

وكان ثمة كراهية في صوته . تحرك فجأة على مقعده ، فقرقعت اوسمته . واخذت حذري . فقد اتيح لي ان اعرف من مصدر موثوق ان بليتنيوف يطبع بعض المنشورات على الة خاصة .

كانت المرأة ، وقد دفعت قدمي بقدمها ، تشجع بملاحظاتها الرجل الشيخ . اما هو فينفخ نفسه كالطاووس ، ينشر امامي مخزون كلماته مثلما ينشر الطاووس ذيله المتقزح . لكن حركات امرأته تحت المنضدة منعتني من الاصغاء بدقة ، واخطأت مرة اخرى برهة تحوله عن الحديث ، حيث انخفض صوته وغدا اشد رغبة في الاقناع .

راح يقول ، وهو يحدق في وجهي بعينين متسعتين مدورتين كأنما استولى الرعب عليهما :

– خيط غير منظور – هل تفهم ؟

ثم استرسل :

– اذا اخذنا جلالته ، الامبراطور ، باعتباره عنكبوتا . . .

فصاحت المرأة :

– أوه ! ماذا تقول ؟

– انت . . . اخرسي ! ايتها الحمقاء الغبية ! اضرب هذا المثل للايضاح ، وليس للتشهير ، ايتها البغي ! انقلي السماور !

وتابع حديثه فى صوت مؤثر ، وقد عقد ما بين حاجبيه وضيق فرجة عينيه :

– خيط غير منظور . .. مثل خيط العنكبوت اذا شئت ان تصفه . وهو يخرج من قلب صاحب الجلالة الامبراطورية ، القيصر ألكسندر الثالث ، امبراطور جميع روسيا والخ . . . الخ . . . ويخترق السادة الوزراء واصحاب السمو ، وصاحب السمو الحاكم ، ومن بعد جميع اصحاب المناصب ، ومن بعد يصل الى ، والى اصغر جندى فى الجيش . ويصل بعد ذلك الى كل شىء ، ذلك الخيط .و هوينثنى ويلتف حول كل شىء . وقد يكون عن طريق لا منظوريته جرت حراسة الدولة وحمايتها عبر جميع القرون . لكن تلك الملكة الانكليزية الماكرة رشت البولونيين واليهود وبعض الروسيين ايضا ، فبذلوا جهودهم لتمزيق ذلك الخيط حيثما اتيح لهم ، وهم يدعون انهم يعملون فى سبيل الشعب !

انحنى على المنضدة ناحيتى ، وهو يسأل فى همس مهموس :

– أتفهم ؟ حسنا ، اذن ! فيم تحسبنى اخاطبك على هذا النحو ؟ ان خبازك يمتدحك ، ويقول انك فتى ذكى وشريف ، وتعيش وحيدا فى معزل عن الناس . حسنا ، وما بال جميع اولئك الطلاب الذين يحومون حول المخبز ! وهم يقضون فى غرفة اخت ديرينكوف ساعات الليل بطولها . او كان الامر يتعلق بواحد منهم – اذن لهانت الحال . لكن . . . هنالك عدد كبير منهم . فماذا يعنى هذا ؟ ايه ؟ انا لا اقول شيئا ضد الطلاب . فطالب اليوم قد يصير مساعدا للنائب العام

غدا . الطلاب – هم على احسن ما يرام . ولكنهم يسرعون لأخذ دورهم فى الحياة ، واعداء القيصر . . . يثيرونهم ويحرضونهم ! أترى ؟ وثمة شىء آخر اخبرك به . . .

وقبل ان يخبرنى بذلك الشىء انفتح الباب على مصراعيه ، ودخل منه شيخ رقيق احمر الانف ، تنحدر عن رأسه جمة من الشعر الاجعد يربطها بشريط من الجلد عند جبهته . كان يحمل زجاجة من الفودكا فى يده ، كما انه ابتلع كمية اخرى من هذه الفودكا فى جوفه على ما يبدو .

سأل فى تظرف :

– هل تلعب الداما ؟

وسرعان ما التهب فى رشاش من النكات الطريفة .

قال نيكيفوريتش ، وقد اكتأبت طلعته وبدا عليه الضيق:

– عمى ، والد زوجتى .

خرجت بعد لحظات . شيعتنى المرأة الشيطانية الى الباب ، وقرصتنى ، وقالت :

– انظر الى الغيوم ! حمراء كالنار !

كانت السماء صافية فيما عدا غيمة واحدة مذهبة .

لا بدّ لى ان اقرّ ، ودون اية رغبة من قبلى فى الاستخفاف باساتذتى ، ان ذلك الشرطى قدّم لى فى شكل جامع مانع لم يبلغوا ، هم ، شأوه تفسيرا كاملا عن الآلة الحكومية . فى مكان ما يترصد عنكب ،ومنهذا العنكب يخرج «خيط غير منظور» يحيط بكل مظاهر الحياة ويصيدها فى شباكه . وسرعان ما

صار فى طوقى ، وحيثما كنت ، ان اميّز عقده اللزجة المتماسكة ولفائفه .

فى ساعة متأخرة من ذلك الليل ، حين اغلقت الدكان ، نادتنى ماريا ديرينكوفا الى غرفتها واعلمتنى فى اقتضاب انها كلّفت بالاستفسار منى عن موضوع حديثى مع الشرطى .

صاحت فى قلق بعدما قدمت لها تقريرا كاملا :

– يا الهى الطيب !

وشرعت ، مثل فأرة مأسورة ، تراوح فى الغرفة وتغادى وهى تهز رأسها فى قرف .

– لكن . . . هل يحاول الخباز ان يغريك باحاديثه ؟ ان خليلته تمت بصلة قربى الى نيكيفوريتش ، أليس كذلك ؟ ينبغى ان نتخلص منه .

كنت اقف مستندا الى طرف الباب وأراقبها متجهم الطلعة . كانت تستخدم كلمة «خليلته» وكأنها امر مبتوت فيه . ولم احب ذلك . كما لم احب قرارها بالتخلص من الخباز .

قالت :

– كن على حذر .

وكنت ، كعادتى ، مضطربا من جراء نظرتها الثاقبة . كان يبدو وكأنها تسألنى عن امر من الامور – اما ما هو هذا الامر فشىء لم استطع له فهما . وهذه هى قد وقفت امامى ويداها وراء ظهرها .

– فيم انت حزين على الدوام ؟

– ماتت جدتى منذ امد قصير .

بدا ان جوابى اضحكها . ابتسمت وسألت :

– اكنت مغرما بها ؟
– اجل . هل تريدين شيئا آخر ؟
– كلا .

فخرجت . واذكر ان الابيات الشعرية التى نظمت فى تلك الليلة تضمنت هذا السطر المتكرر :

ولست كما رغبت . . . ولن تكونى . . .

تقرر ان يبعد الطلاب عن المخبز قدر المستطاع . لم اكن اراهم الا لماما ، اما الآن فلا تتاح لى فرصة الاستفسار عن اشيـــــاء استغلقت علىّ فى الكتب التى اقرأ . فجعلت أدون اسئلتى فى دفتر . وذات يوم ، وقد ارهقنى العمل ، غفوت فوق الدفتر ، فقرأ الخباز كل ما هو مدون فيه . ايقظنى ، واستوضح :

– ما هذا اللغو الذى تخربشه دائما ؟ «لماذا لم يطرد غاريبالدى الملك ؟» من هو غاريبالدى ؟ ومن سمع عن مثل هذا الامر – طرد الملوك ؟

القى بالدفتر على صندوق العجين غاضبا ، واستدار عنى . وزمجر على من فوق الموقد :

– الملوك هم الذين يريد ان يطردهم . يا للامر المسلى ! خلّ عنك هذا النوع من الحيل . الكتب فى العقل ! هنالك فى ساراتوف ، قبيل اربع او خمس سنوات ، كان رجال الدرك يجرون واحدا من عشاق الكتب مثلـــــك ذات اليمين وذات اليسار . ونيكيفوريتش يراقبك تماما . فانس حديث ملوكك . هم ليسوا طيور حمام تطاردها !

كان يحدثنى فى صفاء نية . ولكننى لم استطع ان اردّ

عليه مثلما كنت اودّ . كان محرما على ان اتحدث الى الخباز في «موضوعات خطرة ».

ثمة كتاب مثير ينتقل في البلدة من يد الى يد . والناس في كل مكان يقرأونه ويتخاصمون بشأنه . رجوت لافروف ، البيطرى ، ان يحصل لى على نسخة ، فأجابني يائسا :

— أوه ، كلا ، يا صديقي . هذا خارج نطاق البحث . ولكنني ، اذ افكر في ذلك ، اؤمن اننا سنقرأه ، في احد هذه الايام ، في مكان اعرفه . لربما يتاح لى ان ارافقك الى هناك .

في منتصف ليل عيد انتقال العذراء وجدتنى اخطو في الظلمة عبر ارسكويه بوليه متبعا خيال لافروف القاتم على مسافة خمسين خطوة سبقنى بها . كان الحقل مهجورا تماما . ومع هذا ، وبناء على نصيحة لافروف ، فقد اتخذت بعض «التدابير الوقائية» : فانا اصفر ، وأغني ، وأتمايل بين فترة واخرى متخذا مظهر عامل سكران . وكانت سحب سود عارمة تسير متوانية فوق رأسى ، والقمر يختال بينها كرة من ذهب ، ويلقى ظلالا كثيفة تنحدر على الحقل وتطلق توهجا من فضة وفولاذ على كل بركة صغيرة . وفيما ورائى تدوى ضوضاء البلدة الصاخبة .

توقف دليلى عند بستان فيما وراء الاكاديمية اللاهوتية ، فأسرعت الحق به . وتسلقنا السور صامتين ، واخترقنا الاعشاب النامية مبتعدين عن قلب البستان ، ونحن نصطدم بالاغصان الواطئة التى تمطرنا قطرات كبيرة من الندى . ووصلنا الى بيت ، وقرعنا خفيفا على نافذة مغلقة المصراعين .

انفتحت النافذة . وبدا فيها وجه ملتح . ووراءه خيمت الظلمة . ولم يصل الينا اى صوت او همس .

– من هناك ؟

– اصدقاء لياكوف .

– ادخلوا .

احسست وسط تلك الظلمة المتراكمة وجود اشخاص آخرين . فهنالك خشخشة ثياب ووطء اقدام . وسمعت سعلة خفيضة تلاها حديث هامس . واشتعل عود كبريت فأضاء وجهى ، وتبينت عند الجدران هياكل سوداء .

– هل الجميع هنا ؟

– اجل .

– علّق شيئا على النوافذ بحيث لا ينفذ خيط من الضوء من خلال المصاريع .

واستعلم صوت ناقم فى نبرة غاضبة :

– اية فكرة نيرة هذه فى ان نلتقى جميعا فى بيت مهجور ؟

– لا ترفع صوتك !

اضاء احدهم قنديلا صغيرا فى زاوية . كانت الغرفة خاوية ، عارية من اى اثاث . وعلى لوح خشبى ممدود فوق صندوقين جلس خمسة رجال على صف واحد وكأنهم غربان فوق سياج . وكان ثمة صندوق آخر مقلوب وضع القنديل عليه . واقتعد ثلاثة اشخاص آخرون الارض عند الجدار . وعند النافذة وقف شاب طويل الشعر ، نحيل العود ، شاحب الوجه . كنت اعرف جميع الحاضرين فيما عدا ذلك الشاب النحيل والرجل الملتحى . واعلن هذا الاخير فى صوت جهير

عميق انه سيقرأ علينا منشورا عنوانه «اختلافاتنا» بقلم جورجي بليخانوف ، وهو «نصير سابق لجماعة ارادة الشعب»

شخر احدهم من الظلال المتراكمة عند الجدار :

– نحن نعرف هذا كله !

هزتني رعشة لذيذة بعثها في ذلك الجو من الاحاجي – هذا الذي يعدّ اسمى من جميع الاشعار واكثر فتنة . احسست انى مؤمن حقيقى يصلى اولى صلاته في محراب ايمانه . وتذكرت السراديب والمسيحيين الاوائل . وتوالى الصوت العميق الاجش ، وهو يلفظ كل كلمة بوضوح ودقة ، يملأ جنبات الغرفة .

ومرة اخرى شخر احدهم فى الزاوية :

– يا للتفاهة !

فوق تلك الاشباح فى تلك الزاوية لمعت اداة من النحاس لمعانا قاتما سريا فى قلب الظلمة . وجعلتنى افكر بخوذة محارب رومانى . وتأكد لى بعد فترة انه لا بدّ ان تكون يد باب الموقد .

توزعت فى الغرفة اصوات متهامسة ، واختلطت فى فوضى ممزقة من الكلمات الساخنة بحيث لم يعد فى المستطاع ان تميز فيها بين صوت وصوت . ومن جانب حافة النافذة ، فوق رأسى مباشرة ، سأل احدهم فى صوت ساخر عال :

– هل سنقرأ ذلك المنشور ام لن نقرأه ؟

كان ذلك صوت الشاب الطويل الشعر الشاحب الوجه وتلاشت الاصوات ، ومن جديد كان الصوت الوحيد المسموع هو صوت القارئ الجهير العميق . ولمعت اللفائف المحترقة

بضوء احمر ، وبين حين وآخر كان عود كبريت يومض فيضيء وجوها متفكرة وعيونا ضيقة متأملة ، او جاحظة محدقة .

مضت التلاوة زمنا ارهقنى فيه الاصغاء ، رغم ما احببت فى تلك الكلمات من حدة وعنف ، ورغم انها كانت تتحول فى بساطة الى افكار مقنعة .

ومن بعد – وعلى حين فجأة وبصورة غير متوقعة – توقف القارىء من القراءة . وامتلأت الغرفة على الفور باستفهامات ناقمة :

– مرتد !

– جعجعة فارغة !

– تدنيس للدم الذى اهرقه ابطالنا !

– بعد اعدام جنرالوف واوليانوف . . .

ومرة اخرى استفسر الشاب من جانب حافة النافذة :

– ايها السادة ! لنكفن عن السباب ونبدأن مناقشة جادة !

لست ممن يحبون الجدل ، ولم اتعلم كيف اصغى اليه . عسير على ان اتتبع القفزات المتقلبة فى التفكير الجامح ، واتميز غيظا من الزهو المجرد لمحبى الجدال .

مال الشاب الواقف الى جانب النافذة وخاطبنى قائلا :

– انت بشكوف ، أليس كذلك ؟ من المخبز ؟ انا فيدوسييف . وينبغى ان نتعارف . انظر – ليس ثمة ما نتعاطاه هنا . هذه الضجة الفارغة ستستمر زمنا طويلا هنا . فهل نخرج ؟

كنت قد سمعت عن فيدوسييف ، وعن الحلقة التى نظمها –

جماعة من الشبان المفكرين الوقورين . وجذبتنـــى عينـــاه العميقتان ، ووجهه العصبى الشاحب .

فيما نحن نسير على طول الحقل استوضحنى عن حياتى : ما اذا كان لديّ معارف بين العمال ، والكتب التى طالعتُ ، واوقات فراغى . وقال فيما قال :

– سمعت عن المخبز الذى تعمـــل فيه . ووجدت من الغرابة ان تقضى اوقاتك على التفاهات . فما رأيك فى هذا ؟

سبق لى ان شعرت منذ فترة ان ذلك لا يجدي . بسطت له رأي . فبدا مسرورا . وعندما افترقنا صافحنى فى وداد ، وهو يبتسم ابتسامة مشرقة مخلصة . كان سيرحل عن البلدة فى غضون يوم او يومين لفترة ثلاثة اسابيع . وحينما يعود فلسوف يخبرنى اين وكيف يمكن ان نلتقى .

ازدادت احوال المخبز ازدهارا ، ولكن الحياة بالنسبـــة اليّ ازدادت سوءاً يوما بعد يوم . انتقلنا الى فرن جديد ، وازدادت واجباتى واعبائى كثيرا . كان عليّ ، فضلا عن عملى فى المخبز ، ان اسلّم الخبز والكعـــك الى بيوت الزبائن ، وابيعهما فى الاكاديمية وفى مدرسة «الفتيات النبيلات» . كن يتناولن الكعك من سلتى ويدسسن فيها رسائل . وكنت انشده فى كثير من الاحيان وانا اجد كلمات داعرة مكتوبة بخط صبيانى على تلك الاوراق الانيقة . وكنت استغرب وانا اراقب سرب اولئـــك الفتيات الطاهرات العيون النظيفات الثياب يتزاحمن حول سلتى – يثرثرن مرحات ، ويكشّرن ، ويقلبن الكعـــك باصابعهن الصغيرة الموردة ، اراقبهن واتسأل من منهن تلك التى كتبت لى مثل تلك الرسائل الصغيرة الداعرة – مثل تلك

الكلمات البشعة المحظورة التى ربما كانت تجهل معانيها الحقيقية . فاروح اتساءل ، وانا اتذكر «بيوت السلوان» القذرة :

«أيمكن ان يكون ذلك «الخيط غير المنظور» خرج من تلك الاوكار ليصل الى مثل هذا المكان ؟»

اوقفتنى يوما فى الردهة واحدة من هاتيك الفتيات ، عامرة الصدر كثيفة الشعر تتدلى غدائرها السوداء على ظهرها وهمست فى صوت عجول :

— اعطيك عشرة كوبيكات اذا سلمت هذه البطاقة الى صاحبها .

واغرورقت عيناها السوداوان الرقيقتان بالدموع . عضت على شفتها ، واحمرّ وجهها واذناها . رفضت الكوبيكات العشرة فى شهامة ، واخذت البطاقة وسلمتها الى العنوان المطلوب : طالب نحيل القد ، كسا السل وجنتيه حمرة — هو ابن قاض من قضاة المحكمة العليا . عرض عليّ خمسين كوبيكا كان يعدها فى صمت ذاهل . وكانت كلها من فئات صغيرة نحاسية . حين ابديت رفضى للمال اراد ان يعيدها الى جيبه ، ولكن يده المرتعشة اسقطتها على الارض فتبعثرت .

راح يراقبها فى شرود وهى تتدحرج على ارض الغرفة . وفرك يديه حتى قعقعت مفاصلها ، وغمغم ، وهو يرسل زفرة عميقة :

— ما العمل الآن ؟ حسنا ، وداعا اذن ! يجب ان افكر . . .

لم اعرف الى اين وصل به التفكير ، غير انني اشفقت على الآنسة . وسرعان ما اختفت . وحينما رأيتها بعد حوالى خمس عشرة سنة كانت تعمل معلمة فى القرم . كانت مسلولـــة ، تتحدث عن كل شيء فى العالم فى نقمة غاضبة تشبه نقمة من آلمته الحياة إيلاما شديدا .

حين كنت انهى عملى فى توزيع الخبز اغفو قليلا . فإذا حل المساء اشتغلت فى الفرن لتهيئة الحلوى للدكان عند انتصاف الليل . كنا فى تلك الفترة فى جوار مسرح البلدة ، والناس ينكبون على الفطائر بعد انتهاء التمثيل . واذا انتهيت من ذلك العمل عمدت الى عجن العجين تهيئة لصنع خبز الصباح . ولم يكن عجن خمسة عشر او عشرين بودا من العجين بيديك شيئا من لعب الاطفال .

بعيد ذلك استطيع ان انام مرة اخرى – ساعتين او ثلاث ساعات . وانطلق بعدها لتوزيع خبز الصباح الجديد .

هكذا كانت تجرى الامور يوما بعد يوم .

فى خلال هذه الفترة كلها تلبستنى دوافع لا سبيل الى مقاومتها فى زرع بذور ما كنت اعتبره «الحكمـــة ، والحق ، والخلود» . كنت اجتماعيا بطبيعتى ، وراوية لا اكلّ ، ومخيلتى تحفزها تجربتى الشخصية والكتب التى قرأت' ولم تكن بى حاجة الاّ الى واقعة عادية طفيفة كيما استطيع ان اطورها الى رواية مؤثرة ، واؤلف لوالب وانعطافات غريبة من ذلك «الخيط غير المنظور» . كان لى اصدقاء بين عمال مصنع كريستوفنيكوف ومعامل الافوزوف ، وتوثقت اواصر الصلة الحميمة بينى وبين حائك شيخ يدعى نيكيتا روبتسوف – ذكى ، دائم القلق ،

طوّف فى روسيا كلها وعمل فى هذه الفترة الزمنية او تلك فى مناسجها جميعا .

كان يتحدث فى صوت مختنـــق وفى عينيـــه الرماديتين ابتسامة موجعة على الدوام تطل من وراء نظارته السوداء ، هذه النظارة التى يربطها سلك نحاسى بصورة خرقاء تترك آثارا خضراء من الزنجار على ارنبة انفه وفيما وراء اذنيه :

– طوّفت فى هذه الارض طوال سبعة وخمسين عامـا ، يا صديقى الكسى مكسيميتش – يا زهرتى الفتية ، ويا وشيعتى الجديدة الجديدة .

كان روبتسوف معروفـــا بين رفاقـــه الحائكين بلقب «الالمانى» لانه يحلق سالفيه ولا يترك غير خصلة من الشعر الرمادى تحت شفته السفلى وشاربـــه المتيبس ، عريض الصدر ، ربعة ، يفيض حيوية سوداوية .

وكان يقول ، وهو يميل رأسه الاصلع المحدودب حتى يستريح على كتفه اليسرى :

– انا احب السيرك . كيف تراهم يدربون تلك الخيول ، كيف ؟ هى بهائم من دون ريب . ذلك يبعث على السلوان . مجرد بهائم – وعليّ ان احترمها ! واقول فى نفسى : حسنا اذن ، لا بد ان تكون هنالك وسائل لتعليم البشر ايضا كيف يستخدمون عقولهم . البهائم – ان جماعة السيرك يدربونهـــا بواسطة السكر . اما نحن – ففى مقدورنا ان نشترى سكرنا من عند البقال حتما . ولكن ما نحتاج اليه هو صنف آخر من السكر – صنف يريح النفس . وهذا السكر يدعـــى . . . اللطافة . وهكذا اقول ، يا صغيرى : الاسلوب الذى تتغلب

بواسطته على الامور هو اللطف ، وليس بالهراوة كما تعودنا ان نفعل فى عالمنا هذا . ألا ترى هذا معى ؟

لم يكن ، هو ، يعامل الناس فى لطف . كانت له وسيلة ساخرة تقارب الاحتقار فى مخاطبته الناس ، فاذا خاطبوه جاء جوابه مختصرا مبتورا وكأنه يتقصّد منه الاهانة . حين التقيته اول مرة ، فى حانة ، كان الناس قد هموا ان يبادروه بالعنف والضرب . وكان قد ذاق ضربة او ضربتين . فتدخلت فى المعركة واخرجته من ذلك المكان .

سألته ، ونحن نمشى مبتعدين فى الظلمة تحت وابل من مطر الخريف :

– هل اصابك سوء ؟

فأجاب فى غير اكتراث :

– اصابنى سوء ؟ انهم لا يجيدون ذلك .

هكذا بدأت معرفتنا . سخر منى اول الامر سخرية ناعمة ماكرة . وما ان حدثته عن الدور الذى يلعبه فى حياتنا «الخيط غير المنظور» حتى اعلن متفكرا :

– ولكن ، ولكنك لست احمق ! يا لاسلوبك فى الحديث !

وتبدلت معاملتـــه لى فغدت اكثر ابوة وحنانا . وشرع يدعونى باسمى واسم ابى .

– افكارك . . . انها افكار صادقة ، يا صاحبى الكسى مكسيميتش ، يا مخرزى الرائع الطويل . انها افكار صادقة ، لكن احدا لن يصدقك . انها لا تلقى صدى .

– انت تصدقنى ، أليس كذلك ؟

– انا . . . انا جرو شريد . وقصير الذيل ايضا . لكن

اغلب الناس – هم مجموعة من الكلاب المنزلية ، واذيالهم تراكم فوقها الشوك : نساء ، واطفال ، واشياء صغيرة تافهة ، واشياء مهترئة . وكل كلب فيهـــم يعبـــد وجاره . هم لن يصدقوك . كان لدينا اضراب مرة . جرى ذلك فى مصنـــــع موروزوف . اولئك الذين اندفعوا اولا تلقوهــــا على ام" رؤوسهم . حسنا ، ورأسك ليس كالقفا . ولا تنسى الاذية سريعا .

تبدلت نبرة حديثـــــه بعــــــد ان تعرف الى ياكـــوف شابوشنيكوف ، وهو عامل فى مصنع كريستوفنيكوف . كان ياكوف مسلولا ، يجيد العزف على القيثارة وخبيرا فى الكتاب المقدس ، فصعق روبتسوف بطريقته الناقمة فى انكار وجود الله . كان ياكوف يبصق نفايات دموية من بقايا رئتيـــــه المهترئتين ويجادل فى حيوية وحماسة :

– فى المحل الاول انا لم اخلق على «صورة الله ومثاله» . لا شيء من هذا على الاطلاق . الحكمة ؟ لست اعرفها . القوة ؟ لست استطيع ان افعل شيئا . الطيبة ؟ انا لست طيبا . كلا . لست طيبا ! وفى المحل الثانى إما ان الله يجهل مقدار مـــا تعاملنى به الحياة من قسوة ، واما انه لا يجهل ذلك ولكنه لا يستطيع ان يمد لى يد المعونة ،او انه يستطيع ان يمد لى يد المعونة ، ولكنه لا يريد ان يفعل ذلك . وفى المحل الثالث الله ليس هو الحكمة كلها ، ولا القوة كلها ، ولا الرحمـــة كلها . انه غير موجود بكل بساطة . انه وهم ، كل شيء وهم ، حياتنا كلها وهـــم ، ولكن . . . ولكنهـــــم لا يستطيعون استحماقى !

صعق روبتسوف بحيث عجز عن الكلام بادئ الامر . ثم شرع يشتم مهتاجا وقد شحب وجهـــه غضبا . ولكن ياكوف جعل يستشهد بالانجيل . فجردت الكلمات المهيبة روبتسوف من سلاحه ، وارغمتـــه ان يعتصم بصمت اخرس غارق فى التفكير .

كانت ملامح شابوشنيكوف ، خلال هذه الخطب المسهبـة العنيفة ، تتبدل تبدلا مخيفا . كان وجهه الرقيق داكنا ، وشعره اسود مجعدا مثـــل شعر الغجر ، وشفتاه الزرقاوان تنقلبان فوق اسنانه اللامعة مثل اسنان الذئب ، وعيناه السوداوان تتركزان على عينى خصمه فى نظرة ثقيلة ساحقـــة لا يمكن للمرء ان يحتملها - نظرة تذكرنى بعينى المريض المصاب بداء العظمة .

قال لى روبتسوف ، ونحن فى طريق عودتنـــا من منزل شابوشنيكوف ، فى صوت اجش :

- لم يتحدث احد ضد الله فى حضورى قبـــلا . سمعت اشياء كثيرة ، ولكننى لم اسمع قط مثلما سمعت اليوم . هذا الرجل لن يعمّر طويلا من دون ريب . وهذا مؤسف ! لقد افنى نفسه حتى صار ابيض . . . هذا يبعث على الاهتمام ، يا اخى . بلى ، انه يبعث على الاهتمام .

سرعان ما تعلق بهوى ياكوف . ان حديث ذلك المريض المسلول اهرق فيه غليانا جديدا ، غليانا يضطرم فى داخله ، وجعله يرفع يده على الدوام يحك بها عينيه الملتهبتين .

كان يقول ، وهو يكشر :

- وه . . كذا . وهكذا فالامر ضد الله ، ها ؟ هممم .

اذا تحدثنا عن القيصر ، يا ابرتى البراقة ، فان لى رأيى فى هذا الموضوع : القيصر لا يزعجنى البتة . والمشكلة لا تتعلق بالقياصرة . بل بأصحاب الاعمال . فى مقدورى ان اتفاهم مع اى قيصر كان – حتى ايفان الرهيب . تربّع على عرشك ، يا قيصر ، واحكم اذا كان الحكم يجعلك سعيدا . لكن دعنى استخدم وسيلتى مع اصحاب الاعمال . هكذا الامر ! فاذا فعلت فلسوف اربطك بذلك العرش بسلاسل من الذهب . ولسوف ابجّلك . .

بعدما قرأ «الملك مجاعة» اوضح قائلا :

– كل ما فيه صادق من دون ريب !

سأل فى اول مرة يرى فيها منشورا مطبوعا بطريقة خاصة :

– من كتب لك هذا ؟ انه رائع وواضح . بلّغهم شكرى * .

كان روبتسوف ظامئا الى المعرفة ظمأ قتالا ، يصغى الاصغاء كله الى الآراء الهدامة التى يعرضها شابوشنيكوف ، وفى طوقه ان يقعد ساعات يصغى الى حديثى عن الكتب فيلقى رأسه الى الخلف مسرورا ، وهو يطلق ضحكة سعيدة فيما تتحرك تفاحة آدم فى عنقه ، ويوضح قائلا فى اعجاب :

– العقل الانسانى ، انه شىء ذكى ! شىء ذكى !

كانت عيناه المنتفختان المريضتان تجعلان القراءة صعبة

---

* شكرا لك يا الكسى نيقولايفتش باخ ! **ملحوظة من غوركى .**

بالنسبة اليه ، ولكنه يعرف اشياء كثيرة . ولطالما ادهشنى بمعلوماته غير المنتظرة :

– ثمة نجار بين الالمان يتمتع بعقل خارق . والملك نفسه يدعوه اليه ويسأله النصح .

بعد عدة استفسارات اكتشفت انه يقصد بيبيل .

– وكيف عرفت ذلك ؟

اجاب فى اقتضاب ، وهو يحك جمجمته المحدودبة :

– انا اعرف .

لم يكن شابوشنيكوف ليعير اهتماما بتلاطم الحياة المرهق . كان مستغرقا تماما فى مهاجمة الله ، والهزء بالكهنوت ، ويكره الرهبان كرها خاصا .

استفسر روبتسوف يوما فى وداد :

– فيمَ انت ، يا ياكوف ، تتحامل على الله من دون اى شىء آخر ؟

فصرخ بمرارة لم اعرفها منه قبلا :

– حسنا ، من يقف فى وجهى غيره ؟ من ؟ طوال عشرين عاما تقريبا وضعت فيه ثقتى وعشت فى خوف منه . قاسيت ما قاسيت لان السؤال كان محظورا عليَّ : كل شىء مقدّر مقضىّ من عالى السماء . وقضيت حياتى فى الاغلال . وعندها قرأت الانجيل فى عناية – ورأيت ان ذلك كله وهم ! وهم ، يا نيكيتا .

ولوح ذراعه وكأنه يريد تمزيق «الخيط غير المنظور» . واسترسل يقول والدموع تغلبه :

– وهذا انا اموت قبل اوانى بسبب من ذلك كله !

كانت لى علاقات اخرى لذيذة ، وكنت ازور كثيرا مخبز سيميونوف لأرى رفاقـــى القدامى ، فيستقبلوننى فى سرور دائما ويصغون اليّ فى لهفة . وكان روبتسوف يقيم فى حى الأميرالية ، وشابوشنيكوف فى حى التتار ، على مسافة بعيدة من كابان ، بحيث تبلغ المسافة بينهما حوالى خمسة فراسخ . ونادرا ما كنت اجتمع بهما . فان زيارتهمـــا لى ضرب مـــن المستحيل . وليس لى مكان استقبلهما فيه . وفضلا عن ذلك ، فان الخباز الجديد – وهو جندى متقاعد – كان صديقا لرجال الدرك . وكانت ساحتنا مشتركة ببناية مركز الدرك ، فتروح «المعاطف الزرق» المحترمة تتسلق السور لتحصل على ارغفة طازجة للكولونيل جاندارت ، وخبز اسود لانفسهم . وفضلا عن ذلك فقد نبهنى معلمـــى ألا «ابدى نفسى تحت الاضواء» خشية من ان الفت الانظار الى المخبز .

كنت ارى ان عملى اضاع كل ما يبرر وجوده . كان الناس يستنزفون كل ما فى الصندوق من مال دون ان يلقوا بالا الى الاعتبارات العلمية – وقد بلغ الامر احيانا اننّا لم نكن نجد ما يتبقى لتسديد ثمن الدقيـــــق . وكان ديرينكوف يوضح فى ابتسامة جافة ، وهو يعبث بلحيته :

– لسوف نفلس تماما .

هو الآخر يجد الحياة قاسية . وهذه ناستيا بجدائلهـــا الشقر ، وهى حامل ، تهس فى وجهه مثل قطة غاضبة ، وعيناها الخضراوان تحدقان فى نظرة متهمة الى كل ما فى الوجود .

كانت تمشى الى اندريه مباشرة وكأنها لا تراه . فيكشر عن ابتسامة مذنبة وهو يفسح لها الطريق ، ثم يتبعها انظاره وهو يزفر متنهدا .

كان يشكو اليّ امره احيانا :

– الامر كله . . . مجرد عبث اطفال .وكل امرئ ينهب ما يقع تحت متناول يديه . فما نفـــع ذلك ؟ لقد اشتريت بنفسى بعض الجوارب ، نصف دستة – فاختفت كلها فى يوم واحد !

كان الحديث عن تلك الجوارب يبعث على الضحـــك . ولكننى لم اضحك . رأيت ذلك الرجل المتواضع اللاانانى يصارع فى سبيل الحفاظ على مشروعه المثمر ، ورأيت كيف يعامل جميــــع الذين يحيطون به ذلك المشروع فى اهمال ولامبالاة ، وكيف يدمرونـــه مــــن دون اكتراث . لم يكن ديرينكوف يطمح الى شيء من العرفان بالجميل من اولئـــك الذين يضحى فى سبيلهم بما يقدم لهم من خدمات . وكان له الحق فى ان يقفوا منه موقفا اكثر ودادا واكثر مراعاة ممـــا يظهرون له . كانت اسرته تتفسخ فى سرعة . فالأب اصيب بكآبة سوداوية هادئة مردها المخاوف الدينية ؛ والاخ الاصغر انصرف الى الخمرة والنساء ؛ وبقيت الاخت اشبه بالغريبة . لعلها على علاقة حب تعيسة مع ذلك الطالب الرملى الشعر . فلطالما لاحظت عينيها وقد قرحتهما الدموع – فطفقت ابغض ذلك الطالب .

خيّل اليّ انى متيم بماريا ديرينكوفا . وكنت احب ايضا ناديجدا تشيرباتوفا التى تعمل فى دكاننا ، وهى فتاة ممتلئة الجسم ، موردة الخدين ، مكتنزة الشفتين المبتسمتين دائما فى بشاشة لطيفة . كنت عاشقا على وجه العموم . فسنـــى ، وشخصيتى ، وحياتى المعقدة تتطلب منى ان اصاحب النساء –

وهى حاجة جاءت متأخرة عن اوانها . كنت فى حاجة الى حنان نسوى ، او على الاقل الى عناية امرأة تعطف عليّ – فى حاجة الى شخص استطيع ان احدثه بصراحة عن نفسى ، على سجيتى ، شخص يساعدنى فى تنظيم تشوش افكارى المتنافرة ، وفوضى عواطفى المختلطة التى تملأ ذهنى .

لم يكن لى اصدقاء حميمون . واولئك الذين يرون فيّ «مادة من المواد الخام يمكن صقلها» لم ينالوا شيئا من حبى ، ولم يحملونى على الثقة بهم . حين حاولت التحدث اليهم عن اى شىء لا يتصل باهتماماتهم نصحوا لى فى اختصار :

– دع عنك هذا !

اعتقـــل جورى بليتنيوف ، ونقلوه الى سجن كريستى فى سان بطرسبورج . نقل اليّ النبأ نيكيفوريتش نفســـه حين رآنى فى الشارع فى بكرة الصباح . اجتاز ذلك الشرطى الطريق على مهلة متجها صوبى وقد ارتدى اوسمته كاملة – وكأنه عائد من استعراض رسمى – وبدا لى مستغرقا فى افكاره . رفع يده الى قبعته تحية عندما تصادفنا ، ثم اجتازنى دون ان ينطق بكلمة واحدة . وتوقف على مسافة منى وقال فى صوت اجش :

– اعتقل جورى ألكسندروفيتش ليلة البارحة .

تلفت حواليـــــه على طول الشارع ، واضاف فى صوت مهموس ، وهو يلوّح بيده فى حركة يائسة :

– لقد اضاع نفسه ، ذلك الشاب المسكين !

وخيّل اليّ ان دموعا تترقرق فى عينيه الخبيثتين .

كان بليتنيوف ينتظر ان يلقى القبض عليـــه . وكنت

اعرف ذلك . فقد حذرني منه ، ونصح لى الا ازوره . وطلب الىّ ان ابلغ التحذير الى روبتسوف الذى تربطه به ، مثلى ، صداقة ودية .

سألنى نيكيفوريتش مطرق الرأس فى صوت اجش :

– لم لا تزورنى ؟

ذهبت الى كشكه فى تلك الليلـــــة . كان قد استيقظ لتوه ، وجلس عـــلى سريره يشرب الكفاس ، فى حين وقفت زوجته عند النافذة ترقع له سرواله .

قال ، وهو يحك صدره من خلال شعره الكثيف الشبيه بالصوف :

– بلى ، هذا ما جرى .

والقى علىّ نظرة تأملية عبر الغرفة .

– قبضوا عليه ، وجدوا لديه قصعة يصنع فيها الحبر لطباعة منشورات ضد القيصر .

وبصق على الارض ، وصرخ فى امرأته :

– ناولينى ذلك السروال !

فاجابت ، دون ان ترفع رأسها :

– سآتيك به حالا .

اوضح لى الشيخ وهو يشير الى المرأة بعينيه :

– انها مشفقة عليه . وبكت طوال النهار . حسنا انا آسف لما حل به ايضا . ولكن . . . ماذا يستطيع طالب ان يفعل ضد قوة الامبراطور ؟

ارتدى ثيابه ، وقال :

– سارجع سريعا . . . انت ! هيئى السماور .

جلست امرأته دون حراك تحدق عبر النافذة . ولم يكد يغيب وراء الباب حتى التفتت فى حيوية وهزت قبضته وراءه . جمجمت فى كراهية مريرة من بين اسنانها المنقبضة :

– ذلك الشيطان العجوز ! آه !

كان وجهها منتفخا بتأثير الدموع ، وعينها اليسرى سوداء مزرقة تكاد تكون مغلقة . نهضت ومضت الى الموقد . وانحنت على السماور وهمست فى وحشية :

– سأخونه بعد ! آه ، لسوف اخونه الى ان يعوى مثل الذئب فى الليل ! لا تصدقه ، لا تصدق كلمة واحدة مما يقول ! انه ينصب لك فخا . كله اكاذيب" حديثه معك . وهو لا يشعر بالاسف على اى انسان كان . انه يصطاد فى المياه العكرة . وهو يعرف عنك كل شىء . هذا هو سبب حياته . صياد بشر .

اقتربت منى وقالت فى نبرة متسول يطلب صدقة :

– الا يمكن ان تكون لطيفا معى ؟ ايه ؟

كنت اكره تلك المرأة ، ولكن عينها الوحيدة التى تتطلع الىّ تومض بعذاب مرير عارم بحيث طوقتها بذراعى وجعلت اداعب شعرها الاشعث . كان خشنا وزلقا .

– من تراه يراقب اليوم ؟

– يراقب رجلا فى نزل ريبنوريادسكايا .

– وما اسمه ؟

اجابت وهى تبتسم :

– لنفرضنّ انى اخبرته بما سألت ؟ هذا هو قـــد

جاء ! . . هو الذى دل على المسكين .

ونفرت مبتعدة عني واسرعت صوب الموقد .

حمل نيكيفوريتش خبزا ، ومربى ، وفودكا . جلسنـــا نشرب . جلست مارينا الى جانبى تحيطنى بعنايـــة خاصة ، وعينها السليمة تنظر الى وجهى فى حنان ، فى حين جعل زوجها يعظنى :

— انه متغلغل فى اعماق قلوب الناس ، فى عظامهم — هذا الخيط غير المنظور . حاول ان تقطعه ! القيصر ، بالنسبة الى الناس ، شبيه بالله !

وسأل على حين بغتة :

— انت تعرف الآن اشياء كثيرة عن الكتب . هل قرأت الاناجيل ؛ حسنا إذن ، ما رأيك ؟ هل كل ما فيها صحيح ، ما هو مدوّن فيها ؟

— لست ادرى .

— انا ارى ان اشياء لا فائدة منها مدونة فيها . اشياء لا حصر لها . مثلا ما يتعلق بالفقراء : «طوبى للفقراء» . فماذا فيهم من طوبى ؟ شيء غير مفهوم مثل هذا الشيء . ولنأخذنّ الامر بمجملـــه — بخصوص الفقراء — فان امور كثيرة غير واضحة . وينبغى عليك ان تميز بين اثنين . فهنالك الفقراء والذين يفتقرون . اذا كان الرجل فقيرا فما فائدته ؟ لكنه اذا كان ثريا وافتقر فلربما يكون الامر نتيجة حظه البائس . هكذا يجب ان ننظر الى الموضوع . وهى افضل طريقة .

— لماذا ؟

صمت فترة وهو يتفحص وجهـــى . ثم عاود الحديث فى

صوت موزون واضح . لا ريبة ان ما حدثنى به كان افكارا اعمل فيها التأمل طويلا .

– فى الاناجيل رحمة كبيرة ، والرحمة امر ضار مؤذ . هذا هو رأيى . الرحمة تعنى انفاق مبالغ طائلة من المال على اناس لا ينفعون – اناس ضارين مؤذين . ملاجئ الفقراء ، والسجون ، ومستشفيات الامراض العقلية . يجب ان نمد يد المعونة الى الرجال الاقوياء ، الرجال الاصحاء – بحيث لا يهدرون قوتهم عبثا . اما الآن ، فاننا نمد يد المعونة الى الضعيف . لكأنك تستطيع ان تجعل من الضعيف قويا ! والنتيجة هى ان الاقوياء يفقدون قوتهم ، والضعفاء يركبون اكتافهم . اليك . . . هذه هى المعضلة ! هنالك اشياء كثيرة تحتاج الى اعادة النظر والتفكير . يجب ان ندخل فى عقولنا ان الحياة قد ابتعدت عن الاناجيل ، وذلك منذ زمن بعيد بعيد . وهى تسير فى طريقها الخاص . خذ بليتنيوف هذا مثلا – فى سبيل ماذا اضاع نفسه فى رأيك ؟ فى سبيل الرحمة . نحن نتصدق على الفقراء – ولا نفكر فى الطلاب على الاطلاق . فلتزل بهم القدم ! اين الحكمة فى هذا ؟

سمعت مثل هذه الافكار من قبل . انها اكثر تواصلا واكثر انتشارا مما يتصوره الناس . ولكننى لم اسمعها على هذا النحو الواضح الجلى . حينما قرأت نيتشه ، بعد حوالى سبع سنوات ، تذكرت على الفور فلسفة شرطى قازان . ويطيب لى ان اشير بهذا الخصوص الى اننى قلما وجدت فى الكتب افكارا لم اجدها من قبل فى الحياة العملية .

جعل «صياد البشر» يتحدث ويتحدث ، وينقر بأصابعه

على حافة صينية الشاى بما يتوافق وكلماته . كان وجهـــه النحيل قد انقلب عابسا ، ولكنه لم يكن يتطلع الىّ . كان يحدق فى المرآة النحاسية التى يقدمها له السماور الصقيـــل اللماع .

ذكرته زوجته مرتين :

– آن لك ان تذهب .

لم يعطها جوابا ، بل استرسل يكوّم كلمة فوق كلمة فى خيط افكاره المحكم – الى ان انعطف حديثه على حين بغتة ، ومن دون ان انتبه الى ذلك ، وجهة اخرى جديدة .

– انت لست شابا غبيا . انت مثقف . هل يناسبك ذلك العمل فى المخبز ؟ انت تستطيع ان تجمع المبلغ ذاته ، او ربما اكثر منه ، اذا قمت بعمل مغاير فى سبيل امبراطورية القيصر . . .

اصغيت الى حديثه ، ولكننـــــى كنت مشغول البال فى الوسيلة المثلى التى استطيع بها انذار الناس المجهولين منى فى شارع ريبنوريادسكايا ان نيكيفوريتش يتعقبهم . كان ثمة رجل فى النزل يدعى سيرجى سوموف رجع حديثا من منفاه فى يالوتوروفسك . سمعت عنه كثيرا انباء مذهلة .

– ينبغى ان يعيش الاذكياء مع بعضهم بعضا ، كالنحل فى الخلية ، او الزنابير فى العش . ان امبراطورية القيصر . . .

قالت المرأة .

– انظر الى الساعة !انها التاسعة .

– يا للشيطان !

وثب نيكيفوريتش وشرع يزرر معطفه على عجل .

– اوه ، حسنا ، سأركب عربة . وداعا ، يا صديقى . زرنى حينما تريد . . .

خرجت من بيتــــه وقد قطعت على نفسى عهدا الا ازور نيكيفوريتش مرة اخرى . كان الشيخ يبعث على الاهتمام ، ولكنه يثير الاشمئزار حقا . وكان حديثه عن الاذيـــة التى تسببها الرحمة قد اقلقنى كثيرا . فقد رسخت الكلمات فى ذهنى رسوخا عميقا بحيث لا يمكن ان انساها . وشعرت بشىء من الصدق فيها ، ولكن الذى غاظنى انها خرجت من شرطى .

لم تكن المناقشات فى هذا الموضوع نادرة . وقد اثارتنى احدى هذه المناظرات بصورة خاصة ، وجارت على ذهنـــــى كثيرا .

جاء احد انصار تولستوى الى البلدة – وكان اول مـــن لاقيت منهم . انه رجل طويل نحيل اسمر البنية له ذقن تيس سوداء وشفتان مثل شفتى الزنجى . كان يحدودب احيانا ويبدو كمن يحدق فى الارض ، وبين حين وحين يطوح رأسه نصف الاصلع الى الوراء فى حركة سريعة ، فيخترق قلبـــى ذلــك الوميض المستعر فى عينيه السوداوين النديتين . وكان الحقد يغلى فى نظرته النافذة . كان الحديث يدور فى منزل احـــد اساتذة الجامعة ، وقد حضره عدد غفير من الشبان من بينهم كاهن صغير ناحل انيق – استاذ فى اللاهوت – يرتدى غفارة حريرية تشد الانتباه الى شحوب ملامحه الوسيمة التى تضيئها ابتسامة صارمة فى عينيه الشهلاوين الباردتين .

ابتسامة صارمة فى عينيه الشهلاوين الباردتين .

تحدث نصير تولستوى فترة من الوقت عن الحقائق العجيبة

الموجودة فى الانجيل وعن صدقها الازلى . كان صوته عميقا ، وجمله مختصرة متقطعة ، اما كلماته فترن قوية تشعرك بقوة ايمان حقيقى . وما اكثر ما كانت يده اليسرى العامرة بالشعر تنزلق على جسده ، فى حركة متساوية لا تبدل . اما يده اليمنى فلا تفارق جيبه .

همس احدهم فى الزاوية ، غير بعيد عنى :

– ممثل مسرحى .

– اجل ، فيه شىء كثير من التمثيل المسرحى . . .

قبل فترة قصيرة قرأت كتابا ، من تأليف درابر فيما اظن ، يتحدث عن الصراع بين الكاثوليكية والعلم . وبدا لى ذلك نصير تولستوى واحدا من اولئك الرجال – اصحاب الايمان المتجلّد فيما يتعلق بخلاص العالم بقوة الحب – ولكنهم على اتم استعداد ، من جراء رأفة نقية ، لتمزيق وحرق اخوتهم فى البشرية .

كان يلبس قميصا ابيض واسع الكمين وفوقه سَحْق رمادى مشعث . وكان ذلك يميزه عن سائر الآخرين فى الغرفة . ختم موعظته ، وصاح :

– وهكذا فأنا اسألكم : هل انتم مع المسيح ام انتم مع داروين ؟

انقذف السؤال مثل حجر فى زاوية الغرفة حيث جلس الشبان متراكمين بعضهم فوق بعض – فى الزاوية حيث الخوف والترقب يلمعان فى عيون الشبان والفتيات المتسعة . ويبدو ان موعظة نصير تولستوى اخذت الجميع على حين غرة . فانحنت

الرؤوس متفكرة ، وصمتت الافواه فهي خرساء . واضاف بقسوة ، وهو يمسح الغرفة بعينين لاهبتين :

– وحدهم الفريسيون قادرون على محاولة الجمع بين هذين المبدأين اللذين لا يجتمعان . واذا وقفوا بينهما فهم يكذبون على انفسهم من دون خجل ، ويخدعون سواهم فيما يقترفون من كذب . . .

ونهض الكاهن الصغير ، وطوى فى عناية كمى غفارته ، وابتسم ابتسامة سخرية ، واسترسل فى حديث فياض ظاهر اللطف :

– ارى انكم تشاركون جميعا فى الرأى السوقى المتعلق بالفريسيين ، وهو رأى ليس فظا فحسب ، بل هو خاطىء ايضا . . .

وقد شدهت كثيرا حين تابع الجدال كى يثبت ان الفريسيين ينبغى ان ينظر اليهم باعتبارهم حفظة قوانين الشعب اليهودى الصادقين المخلصين ، وان الشعب ايدهم على الدوام ضد اعدائه .

– اقرأوا على سبيل المثال فلافيوس جوزيفوس . . .

وثب نصير تولستوى وتبرأ من جوزيفوس بحركة يد رشيقة ماحقة ، وصاح :

– اليوم تمشى الشعوب وراء اعدائها وضد اصدقائها . الشعوب لاتتصرف وفق رغباتها الخاصة . انها مسوقة ، مرغمة . ومن هو جوزيفوس بالنسبة الىّ ؟

وبتر الكاهن ، وبعض الحاضرين الآخرين ، السؤال الاساسى بترا فى مزق مبعثرة . فاكتفى من الحديث .

اعلن نصير تولستوى :
- الحقيقة هى الحب .
والتهبت عيناه حقدا واحتقارا .
اثملتنى الكلمات بحيث لم اعد استوعب لها معنى . ارتجّت الارض تحت قدميّ ، وجعلت تدور فى دوامة من الالفاظ . ورحت اجهد فكرى مرارا وتكرارا ، وانا يائس ، قائلا انه ليس على ظهر البسيطة من يمكن ان يكون غبيا بليدا اكثر منى .
مسح نصير تولستوى العرق عن خديه القرمزيين وصاح غاضبا :
- اطرحوا الانجيل جانبا ! انسوا الانجيل كاملا ! وعندها لن تكذبوا ! اصلبوا المسيح مرة اخرى . ذلكم يكون اكثر شرفا لكم !
انتصب امامى هذا السؤال مثل جدار سامق : كيف يكون هذا ؟ اذا كانت الحياة نضالا متواصلا فى سبيل السعادة على الارض ، فالرحمة والحب ليسا اكثر من معيقين لهذا النضال !
عرفت اسم ذلك الرجل من انصار تولستوى . فهو يدعى كلوبسكى . وعرفت اين يقطن فمضيت فى الليلة التالية ازوره . كان يقيم فى منزل فتاتين من اصحاب الاملاك فى الريف ، ووجدته فى الحديقة معهما جالسا الى منضدة فى فىء زيزفونة ضخمة عجوز . كان طويل القامة ، هزيل العود ، جاف البنية ، بارز العظام ، يرتدى ثيابا بيضاء ، وقميصه المفتوح يكشف عن صدر اسمر مفروش بالشعر - يتناسب تماما مع الصورة التى تخيلتها عن حوارى شريد يبشر بالحقيقة .

كان يأكل بملعقة من الفضة كرزا وحليبا من قصعة موضوعة امامه ، يأكل فى شراهة ، ويتمطق بشفتيه الغليظتين . وبعد كل ملعقة ينفخ قطرات الحليب البيضاء عن شاربه الخفيف الشبيه بشارب القط . وكانت احدى الشقيقتين تقف الى جانب المنضدة تقوم بخدمته ، وقد استندت بظهرها على الشجرة طاوية ذراعيها على صدرها وعيناها عالقتان بالسماء المغبرة الحارة تتطلع اليها حالمة . وكانت الفتاتان تلبسان ثيابا خفيفة ليلكية اللون وقد بدتا متشابهتين الى درجة بعيدة بحيث لا تستطيع التمييز بينهما .

حدثنى فى وداد ، وفى رقة عن قوة الحب الخلاقة ، وعن كيف ينبغى ان يطور المرء مثل هذا الحب فى نفسه باعتباره القوة الوحيدة القادرة على ان «تصل الانسان بروح العالم» — بالحب الذى ينغدق فى قلب الحياة .

— هذا هو الرباط الوحيد الذى يمكن ان يربط الانسان ! من دون حب تبقى الحياة عصية على الفهم . واولئك الذين يزعمون ان قانون الحياة هو النضال ليسوا غير نفوس بلا عيون كتب عليهم الموت والدمار . النار لا يمكن ان تطفأ بالنار ، ولا قوى الشر يمكن ان تنتصر على الشر !

وفيما بعد حين مضت الفتاتان عبر الحديقة الى البيت ، وقد لفت كل منهما خصر شقيقتها بذراعها ، اعلن ذلك الرجل وقد رنا اليهما بعينين ضيقتين :

— ومن يمكن ان تكون انت ؟

حدثته عن نفسى ، فشرع يتحدث ، وهو ينقر على المنضدة بأصابعه ، عن كيف ان الانسان هو انسان كيفما كان ، وكيف

يجب على المرء ان يسعى ليس فى سبيل تبديل وضعه فحسب ، بل ان يسمو بروحه فى سبيل حب الانسان .

– كلما كان الانسان منحطا كان اقرب الى حقيقة الحياة الصادقة ، الى حكمتها القدسية . . .

ورغم انى شككت قليلا فى معرفته الخاصة بهذه «القدسية» ، فقد صمت ولم ابد اية ملحوظة . لقد شعرت انه ضجر . رمانى بنظرة كالحة ، وتثاءب ، ووضع يديه وراء رأسه ، ومدد ساقيه ، واغمض عينيه متراخيا ، وغمغم مثل من هو نصف غفيان :

– الخضوع للحب . . . قانون الحياة . . .

القى ذراعيه وقد اجفل ، وكأنما هو يحاول ان يمسك بشىء فى الهواء ، ثم حدق فىّ مرعوبا :

– ما هذا ؟ اعذرنى ، ولكننى منهلك تعبا !

واغمض عينيه مرة اخرى ، وصرف بأسنانه مكشرا عنها فكأنه يتألم . ومط شفته السفلى ، وارتفعت شفته العليا بحيث نهضت شعرات شاربه الازرق المسود الخفيف وبدت كأنها انتصبت بخشونة .

حملت معى شعورا بالعداوة ضد هذا الرجل ، وشكوكا غامضة فى اخلاصه .

بعيد عدة ايام ، وانا اسلم عدة ارغفة من الخبز فى بكور الصباح الى معيد فى الجامعة تعرفت به ، هو عازب عربيد ، التقيت كلوبسكى مرة اخرى . كان اشبه بمن امضى ليلة لم يعرف الى النوم فيها سبيلا . وجهه شاحب ، وعيناه حمراوان منتفختان . شككت فى انه سكران . جلس المعيد السمين ،

وقد ثمل بحيث كان يبكى ، على الارض بثيابه الداخلية وقيثارة فى يديه ، بين فوضى من الاثاث المبعثرة ، والثياب المتناثرة ، وزجاجات الجعة الفارغة . راح يزمجر ، وهو يتأرجح الى الامام والخلف :

– الر . . حـ . . مة . . .

صاح كلوبسكى فى صوت اجش ونبرة غاضبة :

– ليس هناك رحمة ! سوف نضيع فى لجة الحب او يسحقنا النضال فى سبيله . هذا الطريق او ذاك ، فنحن على كل حال هالكون . . .

امسكنى من كتفى وشدنى ناحية المعيد :

– اليك ! سل هذا الشاب . . . سله ماذا يريد ! سله . . . هل يريد ان يحب الانسان ؟

رفع المعيد ابصاره الىّ بعينين دامعتين ، وضحك .

– انه من المخبز . وانا مدين له .

دفع يده فى جيبه وهو يتأرجح ، واخرج مفتاحا ومد يده به الىّ .

– اليك ! خذ كل ما وجدت !

وامسك نصير تولستوى بالمفتاح ، ودفعنى بعيدا .

– اذهب . سوف تحصل على نقودك فى مرة اخرى .

والقى ارغفة الخبز التى حملتها على كنبة فى زاوية الغرفة .

لم يعرفنى ، فاغبطنى ذلك . خرجت ، وفى ذاكرتى ما ذكره من هلاكنا فى الحب ، وفى قلبى شعور بالقرف منه .

عرفت بعد فترة وجيزة انه اعلن عن حبه لاحدى الشقيقتين اللتين يقيم فى منزلهما ، وفى اليوم ذاته اعلن الشىء

ذاته للفتاة الاخرى . افضت كل منهما بسرها للاخرى فانقلب سرورهما غضبا ونقمة ضد ذلك المتودد اليهما . فأمرتـــا البستانى ان يطلب الى ذلك المتودد بالحب مغادرة منزلهما فورا فاختفى من البلدة .

واجهتنى قضية الحب والرحمة ، ومكانهمـــا فى الحياة البشرية – وهى قضية موجعة معقدة – فى بكور حياتى : فى بادى الامر على شكل شعور متوقـــد ، ولكن مشوش غير واضح ، من التنافر الداخلى اما فيما بعد فاتخذت لنفسهـــا صورة واضحة فى سؤال صريح غير ملتبس :

«ما هى اهمية الحب ؟»

كل ما قرأت كان مفعما بالافكار المسيحية والانسانية ، محشوا بصراخ العطف على البشرية . وهذه الآراء ذاتها جرى التعبير عنها ، فى فصاحة ملتهبة ، من قبل افاضـــل الرجال والنساء الذين عرفتهم فى تلك الفترة .

كل ما كنت أراه حولى فى الحياة العملية كان غريبا ، فى جميع دقائقه ، عن فكرة العطف على الانسان . وكانت الحياة تقدم نفسها لى بصفتها سلسلة متوالية لا حدود لها من العنف والعدوان ، وباعتبارها نضالا مستمرا وغير شريف فى سبيل الصول على ما لا قيمة له من الاشياء . ولم اكن ارغب ، انا نفسى ، فى شىء اكثر من الكتب. اما جميع الاشياء الاخرى فلم تلن ، بالنسبة الىّ ، اكثر من اشياء تافهة لا قيمة لها .

كان يكفينى ان اجلس ساعةمن الزمن فى الشارع ، الى جانب بوابتنا ، كى ارى جميع اولئك الناس – الحوذيين ، البوابين ، والعمال ، والموظفين ، والتجار – يعيشون حياتهم

بصورة تختلف عن حياتى ، وعن حياة الناس الذين احب ؛ وانهم يتحركون بفعل رغبات مختلفـــة ويبحثون عن اهداف متغايرة . والناس الذين كنت احترمهم ، الناس الذين كنت اؤمن بهم – كانوا غرباء بصورة تبعث على الدهشة ، وحيدين ، غرباء غير مرغوب فيهم فى محيط تسوده اكثرية ساحقة ، بين جموع النمل العاملة فى مثابرة كؤود ، فى فحش ومكر ، لبناء تلة للنمل يسمونها الحياة . بالنسبة الىّ كانت تلك الحياة تبدو غبية مضجرة . لقد انبثقت ضجرا ميتا . ولطالما كنت اجد ان الناس الذين يتحدثون عن الرحمـــة والحب لا يفعلون اكثر من ارسال الكلام وانهـــم حين يأتون الى الافعال فهـــم يخنعون ، من غير ان يشعروا على الاطلاق لمجرى الحياة العام .

كان ذلك كله قاسيا علىّ .

قال لى مرة لافروف ، البيطرى ، الاصفر المنتفخ بفعـــل الاستسقاء اللاهث سعيا وراء التنفس :

– يجب ان تزداد القسوة الى ان يملها الناس فى كـــل مكان – الى ان تشرع كل نفس فى الوجـــود الى الاشمئزاز منها ، مثلما يشمئزون من هذا الخريف الملعون !

كان الخريف قد ابكر فى تلك السنة ، ماطرا باردا ، غنيا بالامراض والانتحارات . وفى النهاية عمد لافروف الى ســـم نفسه بسيانيد البوتاسيوم بدلا من ان ينتظر ان يخنقـــه الاستسقاء .

قال الخياط ميدنيكوف ، صاحب المنزل الذى عاش فيه لافروف :

– كان يعالج الحيوانات ، فمات مثلما يموت الحيوان !

كان الخياط رجلا نحيلا هزيلا ورعا ، في مقدوره ان يتلو عن ظهر قلب جميع الترنيمات التي تنشد للعذراء ام الله . كان ميدنيكوف ينهال بصورة منتظمة على ولديه ، فتاة في السابعة وفتى في الحادية عشرة ، بسوط جلدي له ثلاث شعب ، ويضرب زوجته على ربلتي ساقيها بعصا من الخيزران . ومن ثم يجأر بالشكوى :

– لقد ادان القاضي فعلتي هذه . قال اني اقتبست اسلوبي هذا عن الصينيين . وانا لم اشاهد صينيا واحدا في حياتي قط ، فيما عدا في الصور المرسومة على اللافتات واللوحات .

كان احد العمال في معمل ميدنيكوف ، وهو رجل معوج الساقين ، مكتئب الطلعة ، معروف باسم «زوج دونكا» ، قد قال عن معلمه :

– الخنوعون والورعون – هؤلاء هم النوع الذي اخافه . المشاكسون ، هؤلاء يمكن ان تقول ماذا يريدون ، وتتاح لك الفرصة للاختباء منهم . اما الخنوعون ، فهم يزحفون عليك ، في هدوء ومكر ، مثل الافعى بين العشب ، وقبل ان تنتبه تجد نفسك قد لدغت ، تماما حيث القلب منك على مصراعيه . هذا هو النوع الذي اخافه : الخنوعون . . .

كان «زوج دونكا» واشيا ماكرا خنوعا ، واثيرا لدى ميدنيكوف . وكان ثمة صدق فيما يقول .

كان يخال لي احيانا ان الخنوعين يزدادون مثل الاشنة على

قلب الحياة الحجرى ، وانهم يفككون بنيتها ، ويلطفونها ، ويجعلونها اكثر خصوبة . وفى كثير من الاحيان – وفيما انا اشاهد عددهم الوافر ، وتكيفهم الرشيق مع الخساسة ، وتقلبهم المنزلق ومرونة نفوسهم ، وانينهم الضعيف المتواصل – فقد كنت اشعر وانا بينهم بما يشعر به الحصان المقيد اذا حاقت به سحابة من ذباب الخيل .

كانت هذه الافكار مشحونة فى ذهنى وانا فى طريقى الى البيت من كشك الشرطى .

الريح عاصفة ، وانوار مصابيح الشارع تترنح ، وخيّل الىّ ان السماء الرمادية هى التى تضطرب ، وترسل على الارض رذاذا خريفيا كالغبار . ولمحت فى الشارع بغيا مبللة تجرّ رجلا ثملا من ذراعه ، وهو يدمدم ويرتعش . كان يغمغم شيئا فى شكوى وانين . فقالت المرأة ، فى كآبة متعبة :

– انه القدر !

فقلت فى نفسى :

«اليك ! فالامر سواء معى . انا انجرّ ايضا – الى الزوايا البشرية ، الملأى بالقذارة ، والحزن ، والاشخاص الغريبين من الرجال والنساء . لقد سئمت من ذلك كله .»

قد لا تكون الفكرة ارتدت هذه الالفاظ على وجه الدقة ، ولكنها هى التى عرضت لى فى تلك الامسية البائسة . فقد شعرت آنئذ للمرة الاولى بالسآمة تأكل نفسى ، واحسست للمرة الاولى بالتآكل يهرئ قلبى . منذ تلك اللحظة غدت حالتى الذهنية تزداد سوءا . وبدأت انظر الى نفسى بعينى متفرّج – عينين باردتين ومعاديتين .

شرعت استشعر فى كل نفس بشريـــة تعايشا عدوانيـــا مشوشا من التناقضات – التناقضات لا فى القول والعمـــل فحسب ، بل فى العواطف ايضا ، ولهوها التشنجى يئيد بثقله علىّ بصورة خاصة . وقد لاحظت هذا اللهو فى نفسى ايضا ، وكان هذا اقسى من كـــل شيء . كنت موزعـــا بين مختلف الاتجاهات : النساء والكتب ، الطبقـــة العاملـــة والطلاب الضاحكين . ولم يكن لدىّ وقت اشبـــع فيه ايا من هذه الرغبات ، كنت ادور من هذا الشيء الى ذاك مثل الخذروف ، وكانت يد مجهولة غير مرئية تلهبنى بسوط غير منظور .

علمت ان ياكوف شابوشنيكوف نقـــل الى المستشفـــى فذهبت ازوره . ولكن امرأة سمينة ملتويـــة الثغر تلبس نظارات وتربط منديلا ابيض وراء اذنيها الرخوتين الحمراوين اخبرتنى فى نبرة لامبالية :

– لقد مات .

حين وقفت هنالك فى صمت ولم ارحـــل ، بل سددت طريقها ، نفد صبرها فسألت فى غضب :

– حسنا ؟ ماذا تريد بعد ؟

وعندما نفد صبرى انا ايضا ، فقلت :

– انت حمقاء غبية .

– نيقولاى ، إرمه خارجا !

كان نيقولاى منهمكا فى صقل بعض القضبان النحاسيـــة بخرقة فى يده . فأهوى بأحدها على ظهرى وهو يلهث . فاذا انا قد لوّحته بين ذراعىّ ، وحملته خارج الباب ، واجلسته فى بركة صغيرة قريبة من درجات سلّم المستشفى . تلقى

ذلك فى هدوء . بقى قاعدا لحظة او لحظتين هنالك حيث اجلسته ، لا يندّ عنه صوت ، وهو يحملق فىّ . ثم نهض على قدميه ، وقال :

- إيه ! انت مجرد ابن . . .

مضيت الى حديقة درجافين ، وجلست على دكة الى جانب تمثال الشاعر . احسست رغبة ملتهبة فى ارتكاب عمل قبيح ، عمل نذل ، بحيث تهاجمنى جموع الناس ، وخلال هذا الهجوم ابيح لنفسى ان اضربهم واجلدهم . ولكن الحديقة مهجورة رغم ان اليوم عطلة ، ولم اجد انسانا واحدا فى الشوارع المحيطة بى . لم يكن ثمة غير الريح العاصفة تحمل اوراق الاشجار المائتة امامها وتخشخش زاوية احد الاعلانات فى عمود المصباح القريب .

كان الغسق يتراكم . وازداد الهواء برودة ، واسودت السماء تشوبها زرقة شفافة ، والتمثال يشمخ فوقى مثل شبح برونزى ضخم . رفعت ابصارى اليه ، وهمست فى نفسى : هذا الرجل عاش على هذه الارض - ياكوف ، روح وحيدة ، يقاتل الله بكل ما فى روحه من القوة وقد مات ميتة طبيعية . طبيعية تماما . ثمة شيء يبعث على الاستخفاف فى هذا كله ، شيء لا يحتمله الانسان ابدا .

«ونيقولاى هذا احمق مأفون . كان يجب ان يقاتل ، او ينده على الشرطة ويرسلنى الى المخفر . . .»

ذهبت لرؤية روبتسوف ، فلمحته منحنيا على منضدة فى حجرة ، يرفأ معطفه على ضوء مصباح هزيل .

- مات ياكوف .

رفع الشيخ يده وهى لا تبرح تحمل الابرة اوشـــك ان يرسم اشارة الصليب – ولكنه لوح بيده . واشتبك الخيط بشىء فجعل يجمجم فى صوت هادئ بلعنة فاحشة . ثم استرسل قائلا :

– فى هذا الخصوص جميعا سنموت حين يحين اجلنا . انها سيئة هذه العادة التى ألفها الناس . بلى ، هكذا تجرى الامور . ياكوف . . . لقد مات . حسننا ، كان ثمة نحاس هنا ، وقد مات هو الآخر . يوم الاحد الماضى . اخذه رجال الدرك . وقد تعرفت به بواسطة جورى – ذلك النحاس . فتى ذكى ! وكان يلتقى مع الطلاب . انهم يثيرون نوعا من جلبـــة وضجيج ، اولئك الطلاب . هل سمعت بذلـــك ؟ اليك ، ارفأ لى هذا المعطف . فانا لا ارى شيئا . . .

اعطانى معطفه المهلهل ، والابرة والخيط ، وشرع يذرع ارض الغرفة فى رواح ومجىء ، ويداه وراء ظهره ، مغمغما ، وهو يسعل .

– آونة هنا ، وآونة هناك ، يشب لهب ويرتفـــع . وعندها – ينفخ الشيطان عليه فيطفئه ، وتبدأ الرتابة من جديد مرة اخرى . هذه بلدة تعيسة . وسوف ارحل عنها قبل ان يتجلد النهر وتتوقف المراكب .

توقف فجأة ، ثم استفسر ، وهو يحك رأسه الاصلع :

– لكن . . . الى اين ؟ ليس هنالك مكان لم ازره ابدا . بلى ، تجولت هنا وهناك – واستهلكت نفسى . وهذا كل الخير الذى حصلت عليه .

وبصق ، واضاف :

– الحياة . . . عليها اللعنة ! عش ، واعمل ، واجهد ، و . . . لا شيء تربحه ، لا بالنسبة الى روحك ولا بالنسبة الى جسدك . . .

وجنح الى الصمت فترة ، وقد وقف فى الزاوية عند الباب ، منتصبا كمن يصغى الى شيء ما . ومن ثم اجتاز الغرفة عجلان الخطوات وجلس على حافة المنضدة :

– ما اقول هو التالى ، يا صديقى ألكسى مكسيميتش : عار على ياكوف انه افنى قلبه الكبير على ذلك الغرار ، ضد الله . الله لن يخسر شيئا ، مثله مثل القيصر ، عن طريق انكارى لهما . ما نحتاج اليه ان يغضب الناس من نفوسهم ، ويصرخوا «لا !» فى وجه جميع الحياة العفنة التى يعيشون . هذا كل شيء ! ايه ، انا رجل هرم . ولدت بعد وقتى . ولن يمر زمن طويل حتى اصبح اعمى . وهذا امر سيئ سيئ ، يا اخى . هل انهيت ذلك المعطف ؟ شكرا . . فلنذهب الى الحانة لنشرب قليلا من الشاى . . .

فى طريقنا الى الحانة اكمل يقول ، وهو يتعثر فى الظلمة ويتمسك بكتفى كى لا يقع على الارض :

– احفظ ما اقول لك . سوف يؤول صبر الناس الى نهاية ذات يوم . سوف ينفجر غضبهم ، فيهبون لتحطيم كل شيء – تحطيم جميع قماماتهم المتعفنة الى فتات متناثر . سوف يؤول صبر الناس الى نهاية . . .

لم نصل الى الحانة . فقد التقينا حشدا من بحارة النهر يطوقون بوابات الماخور التى يدافع عنها عمال من معمل ألافوزوف .

قال روبتسوف مستحسنا ، وهو يخلع نظارته :

– ثمة معركة هنا كل يوم عطلة !

ولما عرف بعض اصدقائه المدافعين انضم الى المعركة على الفور ، وهب يصيح مشجعا رفاقه :

– تماسكوا ، ايهـــا النساجون ! اسحقوا الضفادع ! اضربوا هذه الاسماك الصغيرة ! إيه !

كان غريبا ان تشاهد حماسته – ذلك الشيخ الذكى – والبراعة التى جعل يقاتل بها وسط حشد رجال النهر : ضربات دفاعية محكمة ، والقاء ارضا بدفعات قوية من الكتف . راح الحشد يقاتل فى سرور ، ودون تعمـــد للأذيـــة – لمجرد التسلية ، وكأنه تنفيس عن طاقة اضافية . وزحمت كتلة من الاجساد السوداء عمال المصنـــــع فتقهقروا بحيث صرصرت عوارض البوابة فى شيء من الشكـوى . وانطلقـــت اصوات مسرورة :

– اضربوا القائد الاصلع !

تسلـــق اثنان من المقاتلين الى سطـــح البيت وشرعوا ينشدون فى صوت قوى مرح :

لسنا لصوصا مارقينْ
او نحنُ قطّاعُ طريق
بل نحنُ ركّاب السفينْ
فى كل تيارٍ عميقْ !

دوت صفارة شرطى ، ولمعت ازرار نحاسية فى الظلمة . وانسحق الطين تحت الاقدام . وتتابعت الاغنية على السطح :

نلقى شباكا خاويَه ْ
نصطاد اسماك البحر
مجذافنا والساريه
شعر" ، وخمر" ، وسَمَرْ

– كفى ! لا تضرب رجلا هوى !
– جداه ! انظر ، هنالك !
اخيرا قادوا روبتسوف ، وانا ، وخمسة او ستة آخرون – من اصدقاء الاعداء – صوب مخفر الشرطة . وسبحت الاغنية المرحة وراءنا فى ملء تلك الليلة الخريفية الهادئة :

اسماكنا صيد" وفيرْ
فيها الكبيرُ والصغيرْ !

اوضح روبتسوف فى غرور ، وهو يبصق دما ويمسح انفه المكدوم :
– ما اطيب رجال الفولغا هؤلاء !
وهمس فى اذنى :
– اخرج انت من هذه القضية . اغتنم الفرصة ، و . . . اهرب ! لماذا تريد ان تذهب الى مخفر الشرطة ؟
اندفعت فى شارع جانبى ، وحذا حذوى بحار هزيل العود .

وثبنا فوق سور ، ومن بعد سور آخر ، و . . . كان ذلك آخر عهدى بذلك الصديق المحبوب نيكيتا روبتسوف .

كانت حياتى تزداد خواء يوما بعد يوم . بدأ اضطراب الطلاب . لم افهمه بادئ الامر ، او افهم سببا لاهدافه ونتائجه . رأيت الاهتياج المرح ، ولكنى فشلت فى استيعاب معنى النضال الحقيقى الكامن وراءه ، وشعرت انه فى سبيل التنعم بالدراسة فى الجامعة ينبغى تحمل النصب والعناء . لو اخبرونى قائلين : «قد تدرس ، ولكنك فى سبيل ذلك يجب ان تتلقى الضرب فى ساحة نيقولاييفسكايا كل يوم احد !» — اذن فقد كان يُحتمل ان اوافق على ذلك .

عندما كنت ارجّع البصر فى مخبز سيميونوف فقد كنت اتعلم ان العمال هنالك يخططون رحلة الى الجامعة لضرب الطلاب .

اعلن الخبازون ، فى حقد مسرور :

— سنحمل بعض الاثقال الحديدية معنا !

حاولت ان اناقش الامر معهم . فاكتشفت فجأة ، فيما يشبه الذعر ، انى لا املك رغبة فى المدافعة عن الطلاب ، وانى عاجز عن ايجاد ما اقول به دفاعا عنهم .

غادرت القبو فيما اذكر ، مريضا مرتبكا احمل فى فؤادى كربا مبرحا ماحقا لا سبيل الى التغلب عليه .

فى ساعة متأخرة من الليل جلست على ضفة الكابان ارمى حجارة فى المياه السوداء وافكر فى شيء واحد ، وفى كلمات واحدة ، وانا اردد دون انقطاع :

«ماذا ينبغى علىّ ان افعل ؟»

بدأت ادرس العزف على الكمان لكى املأ فراغ حياتى – فاروح اعزف فى الدكان ليلا فأقلق الحارس الليلى والفئران . احببت الموسيقى ، وانصرفت بكليتى الى هذه الهواية الجديدة. وذات ليلة تركت الدكان برهة خلال الدرس ، فأقدم استاذى ، وهو عازف كمان من فرقة مسرحية ، على فتح درج الصندوق الذى نسيت ان اقفله . وحين عدت وجدته يحشو جيوبه مالا . مد رأسه الى الامام حين رآنى فى المدخل وقدم لى وجهه الحليق المكتئب كمن يبدى استعداده لتلقى صفعة ، وقال فى هدوء :

– حسنا . اضرب !

كانت شفتاه تختلجان ، وعبرات زلقة كبيرة بصورة غريبة تنهمر من عينيه اللتين اضاعتا لونهما .

وددت ان اضربه . لكى اتجنب ذلك جلست على الارض ووضعت قبضتىّ تحتى ، وامرته ان يعيد المال الى الصندوق . فأفرغ جيوبه ، واتجه ناحية الباب ، ولكنه توقف ، وقال فى صوت هائل مخيف مأمون :

– اعطنى عشرة روبلات !

اعطيته عشرة روبلات . ولكننى اوقفت الموسيقى .

عزمت فى شهر كانون الاول ان انتحر . حاولت انذاك ان اصف فى قصة اطلقت عليها «حادث فى حياة ماكار» العوامل التى دفعتنى الى اتخاذ ذلك القرار . غير اننى لم اوفق . كانت القصة خرقاء تثير الاشمئزاز ، خالية من الحقيقة الداخلية . ويخيل الىّ ، رغم ذلك ، ان فقدان الحقيقة الداخلية فيها هو اول صفاتها . كانت وقائعها المروية صحيحة ، ولكن التفسير

بدا ليس تفسيرى ، وان القصة بأكملها لا تتعلق بى او تشير الىّ . ومهما يكن فى امر هذه القصة ادبيا فثمة شيء فيهـــا يرضينى ، الا وهو الانتصار على نفسى .

ابتعت مسدســـا من رئيس الطبالين ، مذخرا باربـــع رصاصات من السوق ، اطلقت رصاصته على صدرى . قصدت ان اصيب قلبى ، ولكنى لم انجح الا فى خرق رئتى . وفيما بعد شهر كامل ، وشعور فى الحماقة والخجل يسيطر علىّ ، رجعت ادراجى الى العمل فى المخبز من جديد .

لم يطل ذلك كثيرا . كنت خارجا من المخبز ذات عشية ، فى نهاية آذار ، فوجدت خوخول جالسا الى النافذة فى الغرفة وراء الدكان . كان يدخن سيكارة غليظـــة ويحدق متأملا فى سحابة الدخان حواليه .

سألنى ، دون ان يحيينى :

– هل لديك فراغ فى الوقت ؟

– لدىّ عشرون دقيقة .

– اجلس . اريد ان اتحدث اليك .

كان كعادته يتلفع بمعطفه الخشن المشدود ، ولحيتـه الشقراء منتشرة على صدره العريض ، وشعره القصير ينتصب فى خشونة فوق جبهته العنيدة . كان يلبس حذاء قرويا ثقيلا تفوح منه بقوة رائحة القطران .

بدأ يقول فى صوت هادىء :

– والآن ، أيضايقك ان تنتقل الى العمل عندى ؟ انـــا اعيش فى قرية كراسنوفيدوفو ، على مبعدة خمســـة واربعين

فرسخا من هنا . عندى دكان هناك . وسوف تكون مساعدى فى التجارة . . . ولن يأخذ ذلك منك وقتا طويلا . وعندى مكتبة جيدة ، وفى مقدورى ان اساعدك فى دراستك . موافق ؟

– اجل .

– كن على رصيف كورباتوف فى الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة ، واسأل عن مركب كراسنوفيدوفو – ومالكه فاسيلى بانكوف . رغم انه ليس ثمة ضرورة لسؤالك . فسوف اصل الى هنالك قبلك . نعمتَ مساء !

نهض يبغى الذهاب ، ومد لى يدا عريضة ، ثم اخرج ساعة فضية ثقيلة من جيب داخلى ، وقال :

– اخذ منا الحديث ست دقائق . اوه ، بلى ، اسمى هو روماس . ميخايلو انطونوفيتش . اليك .

مضى دون ان يلتفت ، يمشى فى خطوات متزنة ، وهو يؤرجح جسده الضخم المتين ارجحة هينة .

بعد يومين انطلقت الى كراسنوفيدوفو .

الفولغا – كان قد تحرر من اساره قبل زمن وجيز . وكتل جليدية رمادية رخوة تسبح مع التيار متأرجحة فى المجرى العكر . وبقى مركبنا يجتازها ، وهى تحتكّ ، صارفة ، بجوانبه . وبعض الشظايا التى نصطدم بها ترسل رشاشا من بلورات حادة مدببة . وريح عاصفة تهب تسوق الامواج ابعد من الشواطئ كثيرا . وشعاعات الشمس الساطعة تنعكس فى حزم بيضاء من النور على جوانب الكتل الجليدية الزرقاء . والمركب ، وقد اثقلته الصناديق والبراميل والاكياس ، يسرى تحت شراعه . وكان بانكوف يدير دفته ، وهو فلاح

شاب يلبس ثيابا فيها شيء من الخيلاء والغرور . كان معطفه المصنوع من جلد الخراف المدبوغ مزركشا عند الصدر بخيطان متعددة الألوان .

كان وجه بانكوف هادئا ، وعيناه باردتين ، يبدو متحفظا مثلما هم عليه الفلاحون . وفى مقدمة المركب وقف مساعد بانكوف المدعو كوكوشكين وقد حمل بيده خطافا ، وهو فتى اشعث الشعر صغير الجسم يرتدى معطفا ممزقا يحزمه حبل صغير ، وقبعة ممزقة كانت مثل قبعة كاهن . كان وجه كوكوشكين مجروحا مهروسا الى حد بعيد . كان يدفع الكتل الجليدية بخطافه الطويل ويشخر فى ازدراء :

– ابعدى . الى اين تحسبين نفسك تذهبين ؟

جلست وروماس على الصناديق المكدسة تحت الشراع . قال لى فى رفق :

– الفلاحون يكرهوننى . . . وخاصة الاثرياء فيهم . ولا بد لك ان تتحمل بدورك شيئا من هذه الكراهية .

وضع كوكوشكين الخطاف على قاع المركب وادار وجهه المضروب نحونا ، واعلن فى انبهار جلى :

– والكاهن يكرهك كراهية لا مزيد عليها ، يا انطونوفيتش . . .

فوافق بانكوف :

– هكذا هو الامر .

– انت اشبه بعظمة فى حلقه ، ذلك الجرو المنقط !

وتابع خوخول يقول :

– ولكن لى اصدقاء ايضا . وسيكونون اصدقاء لك .

كان البرد شديدا ، وشمس آذار الساطعة ترسل شيئا من دفء ؛ واشجار سوداء عارية من الاغصان تتأرجح على ضفتي النهر ؛ وهنا وهنالك ، في صدوع الضفة المتحدرة ، او في ظلال الادغال لا تبرح تستلقي كتل من الثلج المخملي ؛ والنهر مبقع بكتل جليدية طافية اشبه بقطيع الخرفان في مرعى . وخيل الي انى احلم .

تساءل كوكوشكين ، وهو يحشو غليونه بالتبغ ، في نبرة متفلسفة :

– انت لست زوجته ، هذا صحيح . لست زوجة الكاهن ، ولكنها مهنته ، أليس كذلك ؟ ان يحب جميع المخلوقات ، على ما ورد في الكتب .

سأله روماس مقهقها :

– من هرس لك وجهك على هذا الشكل ؟

اجاب كوكوشكين في احتقار كبير :

– لا شيء يذكر . انهم قوم سفلة . ولا اعجب ان تكون اللصوصية عملهم .

واضاف في كبرياء :

– ضربني بعض الجنود مرة – جنود المدفعية . حسنا ، ذلكم كان الضرب ! ولا اعرف كيف خرجت من بين ايديهم على قيد الحياة .

سأل بانكوف :

– لماذا ضربوك ؟

– متى . . . البارحة ؟ أم رجال المدفعية ؟

– البارحة .

– لكأنك تستطيـــع ان تعرف لماذا يضربونـــك ! الناس . . . اشبه بتيوس الماعز تماما . ينطحون لاتفـــه الامور . لكأن ذلك عملهم : استخدام قبضات ايديهم !

قال روماس :

– فى رأيى ان لسانك يدفعهم الى ضربك . فانت لا تبالى بما يهرف به .

– قد يكون هذا صحيحا . فأنا طُلعـــة . وهى عادة تملكتنى . . . اطرح اسئلتى على الناس دائما . يسعدنى ان استطيع سماع الاخبار الجديدة .

اصطدمت مقدمة المركب بكتلة جليدية صدمـــة عنيفة . واحتكت كتلة اخرى بجانبه . تأرجح كوكوشكين برهة ، ثم امسك بالخطاف . فقال بانكوف يلومه :

– انتبه الى عملك ، يا ستيبان !

فغمغم كوكوشكين ، وهو يدفع الجليد :

– اذن لا تخاطبنى . لا استطيع القيام بعمل ومخاطبتك فى الوقت ذاته . . .

وبدآ مشاحنة طيبة ، فاستدار روماس الى :

– الارض هنا اسوأ منها فى وطنى ، هنالك فى اوكرانيا . ولكن اهلها اكثر طيبة . موهوبون ، قادرون !

اصغيت منتبها ، وصدقته فيما قال . احببت اسلوبـــه الهادئ ، وحديثه المطمئن ، البسيط لكن القوى . ههنا ، على ما شعرت ، رجل على سعة من الاطلاع على الامور والاكثر من ذلك رجل ابتدع معيارا من تلقاء نفسه فيما يتعلق باشباهه من الرجال . وسرنى منه كثيرا انه لم يسألنى لماذا حاولت

ان اقتل نفسى . ان اى انسان آخر ، فى مكانـــه ، لا بد ان يسأل هذا السؤال منذ زمن بعيد . ولقد هدنى التعب مـــن هذا السؤال ! ولم يكن من السهل الجواب عنه . وحده ابليس يعرف لماذا رغبت فى هدر حياتى . لو سألنى خوخول لمـــا اعطيته غير جواب طويل وسخيف . وعلى اية حال ، فليست بى رغبة فى التفكير فى ذلك الموضوع الآن . فالفولغا جميل ، براق ، وفسيح .

كنا ننطلق بالمركب فى حماية الشاطئ المرتفع . عـــن يسارنا يقوم تيار النهر العريض وقد طغى على الشاطئ الرملى للضفة المقابلة الواطئة . وكنت اشاهد النهر ينهض مرتفعا ويسمو متعاليا ليرش ويداعب الادغال القائمـــة فيما وراء الرمال ، فتتراكض لملاقاته ، وهى تملأ كل صدع او فجوة فى الارض ، امواه الربيع المشرقة الهائجة . وتضحك الشمس ، ومن جراء اشعتها يلتمع ريش الغربان ذات المناقير الصفر – فيما هى تنعب وتصخب وهى تبنى اعشاشها – بالوان زرقاء مسودة فكأنـــه الفولاذ المصقول . ومن انبساطات فى الارض تروح براعم العشب ، خضراء نامية ، تندفع بشجاعة متطلعة الى الشمس . واوصالى تأخذها رعشة ، اما قلبى فتطفر منه سعادة غامرة ، وتنفتح فيه براعم عذبة من آمال متوهجة . والارض هى المكان الاكثر بهجة فى الربيع .

وصلنـــا الى كراسنوفيدوفو وقت الظهيرة . على الجرف العالى ، المسطح القمة ، تنتصب كنيســـة زرقاء . ومن هذه الكنيسة ، على طول حافة الجرف ، يمتـــد صف من البيوت الفلاحية الراسخة متينة البنيان ، تمسك اشعـــة الشمس فى

وميض اصفر من الالواح الخشبية والقش البراق على السطوح . ما اجمله وابهجه فى العيون !

كم ابديت اعجابى بهذه القرية وانـــا امر بها على ظهر مراكب الفولغا البخارية .

شرعت وكوكوشكين نفرغ المركب . وكان روماس يلاحظ وهو يناولنى الاكياس عن جانبه :

– انت قوى حقا !

وسألنى ، وعيناه على الكيس الذى يحمله

– ألا تشعر بألم فى صدرك ؟

– ابدا على الاطلاق .

شغفنى اسلوبه اللبق فى الاستيضاح . وكنت اكره حقا ان يلم الفلاحون بمحاولتى الانتحار .

قال كوكوشكين مثرثرا :

– بلى ، انت قوى بما فيه الكفاية ، او كما يمكن ان تقول تقوى على العمل وتسيطر عليه . ومن اين جئت ، يا صديقى ؟ من نيجنى نوفغورود ؟ انت واحد من مدمنى الشاى اذن ، هذا هو اللقب الذى يخلعه الناس عليك . او «قل هل تستطيع ان تقول اين تطير النوارس اليوم ؟» هذا عن مدينتكم ايضا .

جاء فلاح طويل نحيل فى قميص وسروال من القطن ، له لحيـــة جعداء وشعر احمر كثيف ، مسرع الخطوات على طول المنحدر كانت قدماه العاريتان ، المنزلقتان على الطين الندى ، تعكران الوميض الفضى للجداول التى لا يحصى لها عدد .

وصل الى الضفة ، وقال فى وضوح وبنبرة لطيفة :

– اهلا بك فى بيتك .

القى نظرة حواليه ، وانحنى ، والتقط عمودين كبيرين ، ووضعهما فيما بين الضفـــة وجانب المركب . ثم وثب الى المركب فى رشاقة وامر :

– اسند العمودين بقدميك لكيلا ينزلقا من جانب المركب وامسك البراميل . هيا يافتى تعال ساعدنا .

كان جميل الطلعة هرقلى البنية فيما يبدو . وجهه متورد الوجنتين وانفه كبير مستقيم وعيناه شهلاوان صارمتان .

خاطبه روماس قائلا :

– قد يصيبك البرد يا ايزوت .

– لا تخف على . لن يصيبنى شىء .

انزلنا برميل الغاز على الضفة . اجال ايزوت بصره فى وقال :

– هل تأتى لتساعدنى فى المخزن ؟

واقترح كوكوشكين :

– حاول ان تصارعه .

– ارى ان وجهك تهشم مرة اخرى .

– حسنا ، ماذا فى مقدورك ان تفعل بمثل هذا الصنف ؟

– مع اى صنف ؟

– الصنف الذى يهشم وجهك .

فرد ايزوت متنهدا :

– صه !

والتفت الى روماس ، وقال :

– ستصل العربات فى الحال . لقد رأيتكم فى طرف النهر مبحرين . لقد اجتزتم المسافة فى فترة جيدة . اذهب الى البيت ،

يا انطونوفيتش ، وسأتولى الامور هنا .

كانت معاملته لروماس ودية فيها شيء من عناية واضحة وحتى رعاية ، رغم ان روماس يكبره سنا بحوالى عشر سنوات .

كنت بعد نصف ساعة ادخل منزلا قرويا حديث البنـــاء جدرانه لا تبرح عابقة برائحة الراتينج والمشاقة . كانت غرفة الجلوس نظيفة وانيقة ، وقروية حادة العينين تتحرك برشاقة فيها ، تهيئ المنضدة للغداء . وكان خوخول يخرج كتبا من حقيبة ويرتبها على رفوف بجانب الموقد .

قال :

– غرفتك فى العلية .

من نافذة العلية كنت استطيع ان ارى جزءا من القرية ، ومقابـــل البيت اخدود مفروش بالادغال ، وسقوف الحمامات مبعثرة هنا وهنالك . وفى وراء الاخدود تمتد بساتين وحقول سوداء تستطيل الى صف ازرق من الغابات عند الأفق . على حافة سقف حمام جلس فلاح يرتدى ثوبا ازرق ويحمل بلطة قصيرة اليد . ظلل عينيه بيده وراح يشخص الى الفولغـــا . وصرت عجلات العربات . وخارت بقرة خوارا ثقيـــلا . وملأت الهواء خرخرة المياه . وامرأة عجوز ، متلفعة بالثياب السوداء ، خرجت من بوابة والتفتت تلقى نظرة الى الخلف وقالت بصوت عال :

– لعنة الله عليكم !

لدى سماعهما صوتها وثب صبيان صغيران كان يسدان فى حركات نشيطة مجرى ساقيـــة صغيرة بالحجارة والطين ، واطلقا للريح ساقيهما بقدر ما تستطيعان ذلك . والتقطت

العجوز عن الارض قطعة من الخشب ، وبصقت عليها ، واسقطتها فى المجرى الصغير . ثم انزلت قدمها المنتعلة حذاء فلاح ثقيلا على السد الذى اقامه الصبيان ، وراحت تهبط المنحدر فى طريقها الى الفولغا .

ما هو نوع الحياة المختزنة لى هنا ؟

دعيت الى الغداء . فى الطابق الارضى كان ايزوت جالسا الى المنضدة ، وساقاه الطويلتان ممدودتان الى الامام منه . وكانت قدمه العارية حمراء مزرقة . كان يحادث روماس ، فبتر الحديث عند دخولى .

سأل روماس ، كالح الوجه :

– حسنا ، ما بالك ؟ تابع حديثك .

– هذا كل شيء . وهكذا اتخذ القرار اذن : سنتدبر امورنا بانفسنا . احمل معك مسدسا ،او خذ عصا ثقيلة مناسبة ، حينما تدلف خارج البيت . لا تتحدث طويلا حينما يكون بارينوف قريبا . فهو وكوكوشكين يفلتان لسانهما مثل النساء . انت يا صغيرى ، هل تحب صيد السمك ؟

– كلا !

وشرع روماس يتحدث عن ضرورة تنظيم زارعى الفواكه الفلاحين الصغار وتحريرهم من بين اشداق السماسرة الكبار . اصغى ايزوت فى انتباه . وقال اخيرا :

– على هذا الغرار ، فان اصحاب البطون الكبيرة لن يتركوا لك فرصة للراحة على الاطلاق .

– سوف نرى .

– تذكر كلمتى !

فكرت ، وانا اراقب ايزوت :

«على امثال هؤلاء الفلاحين رسم كارونين وزلاتوفراتسكى الناس فى قصصهما . . .»

أيمكن ان اكون اتصلت هنا بأمر جدى ؟ واننى ساعمل الآن مع اناس يعرفون كيف يعملون ؟

انهى ايزوت طعامه وقال :

– لا تستعجل الامور ، يا ميخايلو انطونوفيتش . رب عجلة اورثت خسارة . اولى بك ان تترفق !

وحينما غادرنا ، اعلن روماس متأملا :

– انه لرجل ذكى . وشريف . ولكنه قليل الثقافة من سوء الحظ . فهو لا يكاد يجيد القراءة . ولكنه يبذل جهده كى يتعلم . وفى مقدورك ان تساعده فى هذا المجال !

وانشغلنا حتى المساء فى موضوع اسعار البضائـــــع فى المخزن . قال لى :

– انا ابيع باسعار اقل من اسعار البائعين الآخرين . ولا ريب ان ذلك لا يرضيهما . فهما يتحايلان على قدر طاقتهما . وهمـــا يدبران الآن لتحطيمى . ليس حب التجارة هو الذى يبقينى هنا ، او اية فائدة اجنيها منها . ثمة اسباب اخرى . فهذا المخزن شيء يماثل مخبزك ذاك . . .

قلت له انى خمنت ذلك من قبل .

– بلى ، من دون ريب . ينبغى ان يتثقف الناس ، باى شكل كان . أليس كذلك ؟

كانت الدكان مغلقة مقفلة . حملنا قنديلا وجعلنا ننتقل من رف الى رف . وفى الخارج كان ثمة شخص يتحرك معنا .

كنا نسمع صدى وقع اقدامه المحترس ، يخوض فى الطين ، او يجوس ارض الوصيد فى ثقل بين حين وحين .

— هل تسمعه ؟ انه ميجون — شاب وحيد ، لا ارض له ولا اقرباء . انه حيوان حقود . يحب ان يرتكب الشر ، مثلما تحب فتاة جميلة ان يغازلها الشباب . احذر من حديثك معه ، وليس معه فحسب . . .

بعيد ذلك ، حين رجعنا الى غرفة الجلوس مرة اخرى ، استرخى فى راحة ، وظهره العريض الى الموقد ، واشعل غليونه ، وارسل نفثات صغيرة من الدخان فى لحيته ، وضاقت عيناه بصورة تأملية ، وشرع يسبك الكلمات فى حديث واضح بسيط . قال انه منذ زمن طويل لاحظ كيف انى اضيع شبابى عبثا دون جدوى .

— انت كفوء حقا ، وعنيد ، واهدافك جديرة بالاطراء من دون ريب . وما انت فى حاجة اليه هو الدراسة — لكن ليس الدراسة التى تجعل من الكتب حاجزا بينك وبين الشعب الذى يحيط بك . كان هنالك رجل عجوز مرة ، متعصب ، اعلن ، وهو على صواب فيما اعلن ، قائلا : «الانسان مصدر كل تعليم وعلم» . وما يعلمك اياه الناس يأتيك فى ألم وفى قسوة اكثر من تعلمك الكتب . علم الناس جاف مؤلم . ولكن العلم الذى يأتيك على ذلك الشكل هو الذى تبقى جذوره راسخة .

وذكر لى فيما بعد الفكرة المألوفة من ان اذهان الفلاحين ينبغى ان تنشط من غفوتها اولا وقبل كل شيء . اما الآن فقد استشعرت فى تلك الكلمات المألوفة مغزى جديدا اكثر عمقا .

— طلابكم اولئك ، فى البلدة يكثرون فى الحديث عن حب

الشعب . حسنا ، وقد قلت لهم : كلا ، ذلـــك لا يمكن ان يكون . انتم لا يمكن ان تحبوا الشعب . وكلامكم ليس اكثر من مجرد لغو . مثل ذلك الحب ! . .

وضحك فى سره ، وهو ينظر الى نظرة متفحصة . وشرع يراوح فى الغرفة ويغادى ، ويكمل حديثه فى قوة وتأثير :

– الحب . . . هذا معناه : تعاون وتعاطف وتغاض ، ومسامحة . وهذا كله رائع حينما تحب امرأة . اما الشعب – هل يمكن ان نتجاهل جهل الشعب ، ونتجاوز عن سيئاته ، ونعفو عن كل انحطاطته ، ونسامح وحشيته ؟ هل نستطيع ان نفعل ذلك ؟

– كلا !

– أرأيت ؟ رفاقكـــم فى المدينـــة يقرأون نيكراسوف جميعا ، ويترنمون بنيكراسوف . حسنا ، لا استطيع الا ان اقول : انتم لن تذهبوا بعيدا مع نيكراسوف ! يجب ان نقول للفلاحين ما يلى : «انتظر هنا ، يا اخى ! انت لست انسانـــا شريرا فى صميمك ، ولكن الحياة التى تحياها سيئة ، وانت لا تعرف اصغر سبيل يمكن ان يجعلها اكثر سهولة واكثر خيرا . ان البهيمة المتوحشة تهتم بحاجاتها اكثر مما تهتـــم انـــت بحاجاتك حقا . وهى تدافع عن نفسها اكثر مما تدافع انت عن نفسك . ومع هذا فانتم الفلاحون . . . انتم مصدر كل شىء . النبلاء ، والكهنة ، والعلماء ، والقياصرة . . . جميعهم كانوا فلاحين فى الماضى . أترى ؟ هذا واضح تماما ؟ حسنـــا ، اذن ...تعلم كيف تحيا بحيث لا تداس بالاقدام . . .»

ذهب الى المطهى وطلب الى الطاهية ان تشعل السماور .

ورجع ادراجه ، وشرع يعرض على كتبه ، وكان اكثرها بحوث فى العلوم : بوكل ، وليبل ، ولوكيه ، ولوبوك ، وتايلور ، وميل وسبنسر ، وداروں ، وكتاب روسيين : بيساريف ، ودوبروليوبوف ، وتشيرنيشيفسكى ، وبوشكين ، وروايـة غونتشاروف «الفرقاطة «بالادا»» ، ونيكراسوف .

اخذت راحة يده العريضة تداعب الاغلفة فى حنان مثلما يداعب المرء عددا من القطط الصغيرة . وخرخر فى كثير من الوداد :

- كتب جيدة ، جميعها ! لنقل ان هذا الكتاب نادر تماما . امرت المراقبة باحراقه . اذا اردت ان تعرف حقيقة ماهيـة الدولة ، فاقرأه !

وناولنى كتاب هوبز «الدولة الديكتاتورية» .

- هذا الكتاب يعالج قضية الدولة ايضا . ولكنه اكثر سهولة وتسلية !

وتبين ان الكتاب المسلى هو كتـاب «الامير» لمكيافيللى . حدثنى ونحن نشرب الشاى عن موجز حياته . كان ابنا لحداد من تشيرنيغوف . كان يعمل مشحما للقطر الحديدية فى محطة كييف حين تعرف الى الثوريين ، فنظـم بين العمال فرقـة للدراسة . ثم ألقى القبض عليه ، وبعدما قضى فى السجن سنتين تقريبا نفى عشر سنوات الى مقاطعة ياكوتسك .

- حسبت بادئ الامر انى سأنتهى وانا احيا هنالك ، فى قرية الياكوتيين . الشتاء هنالك ، عليه اللعنة ، يكاد يجمد عقل الانسان فى رأسه . وعلى اية حال ، فان العقل لا نفع فيه

هنالك فيما يبدو . ولكننى اكتشفت بعد فترة ان ثمة عددا من الروسيين هنالك ، فى هذه القرية او تلك . كانوا قلـــة تباعد بينهم المسافات ، ولكنهم موجودون حقا ! وهكذا لن نشعر بالملل طالما ان اعدادا جديدة كانت تضاف اليهم على الدوام . كانوا طيبين ! وهذا امر لا مراء فيه ! وكان هنالك طالب على وجه الخصوص - يدعى فلاديمير كورولنكو . انتهت مدته بعدى بفترة قصيرة . كنت واياه صديقين حميمين فترة من زمن ، ولكننا افترقنا بعد ذلك . كنا متشابهين كثيرا فى امور كثيرة ، والصداقة المبنية على التشابه لا تعمر كثيرا . ولكنه كان جديا ، جلدا ، موهوبا فى كل عمل يأتيه . وقد حاول ان يرسم الايقونات . ولم اكن احب ذلك . وهو يكتب الآونـــة للمجلات الادبيـــة على ما يقولون ، ويكتب بصورة ناجحة .

تحدث روماس زمنا طويلا فى تلك العشية . حتى انتصف الليل . بدا لى انه ارادنى ان اتحقق تماما ، منذ البداية ، ان مكانى الى جانبه . بدا من قبل لم اكن قد اختبرت مثل هذه الفرحة العارمة من الرفقة . فمنذ محاولتى الانتحار فقدت شيئا من احترامى لنفسى . وجعلت اعتبر انى مخلوق فارغ عديـــم القيمة . وطغى على شعور بالذنب ، وشعرت بالخجل مـــن الحياة . ولا بد أن روماس فهم ذلك ، ففتح امامى ، فى بساطة انسانية ، باب حياته ، وأخذ بيدى يعيد الى توازنى . ذلك يوم لن انساه .

فتحنا يوم الاحد الدكان نزاول التجارة بعد انتهاء الصلاة ، وسرعان ما شرع الناس يتجمهرون عند الوصيد . كان اولهم

ماتفى بارينوف ، رجل وسخ اشعث غليظ طويل الذراعين مثل القرد ، تطل من عينيه الجميلتين الشبيهتين بعينى امرأة نظرة شاردة .

سأل بعدما حيا روماس :

– ماذا من جديد فى المدينة ؟

ولم ينتظر جوابا ، بل نادى كوكوشكين الذى كان يقترب لتوه :

– ستيبان ! لقد قتلت قططك ديكا آخر !

ولم يلبث ان روى لنا ان الحاكم غادر قازان الى سان بطرسبورج لمقابلة القيصر والطلب اليه ان يأمر بنقل جميع التتاريين الى القوقاز وتركستان . واثنى على الحاكم :

– انه رجل ذكى ! يعرف عمله . . .

فقال له روماس فى هدوء :

– انت اختلقت هذه الامور كلها .

– انا ؟ متى ؟

– هذا ما لست أدريه . . .

قال بارينوف ، وهو يهز رأسه موبخا :

– طبيعى انك لا تثق فى انسان ، يا انطونوفيتش . انا اشفق على التتاريين . فالحياة فى القوقاز عسيرة على من لم يألفها .

اقترب رجل صغير نحيل فى معطف مهلهل يبدو انه كان يخص رجلا اضخم منه بنية ، وهو يمشى فى خطوات محترسة ، وقد غيرت ملامح وجهه السمراء تقطيبة عصبية ، فابعدت شفتيه القاتمتين فى ابتسامة سقيمة . كانت عينه اليسرى

الثاقبة تطرف دون انقطاع ، ومع كل طرفة يهتز حاجبه الاشيب الذى يقطعه اثر جرح .

قال بارينوف ساخرا :

– سلاما ، يا ميجون ! ماذا سرقت الليلة الماضية ؟

أجاب ميجون فى صوت جهورى واضح ، وهو يرفع قبعته امام روماس :

– دراهمك .

وخرج بانكوف ، جارنا وصاحب البيت ، يرتدى معطفا مدينيا ، ويلف حول عنقه منديلا احمر ، وينتعل حذاء لماعا من المطاط ، وعلى صدره سلسلة فضية طويلة فكأنها لجامان موصولان . وران ميجون بنظرة غاضبة صعودا وهبوطا ، وقال :

– ان دخلت بستان خضارى مرة اخرى فلسوف أدقّ عنقك ، ايها الشيطان الهرم !

فأعلن ميجون فى هدوء :

– الحديث المعاد المكرور .

وأضاف ، وهو يزفر :

– الحياة تزداد سآمة ان لم يتح لك ان تسحق جمجمة احدهم .

وجعل بانكوف يصيح به غاضبا ، ولكن ميجون أكمل يقول :

– ومن يزعم انى هرم ؟ انا فى السادسة والاربعين . . فهل انا هرم ؟

صاح بارينوف :

– فى عيد الميلاد الماضى كنت فى الثالثة والخمسين . انت قلت انك فى الثالثة والخمسين ! فيم تكذب ؟

وجاء سوسلوف * ، وهو شيخ صارم ملتـــح ، ثم جاء ايزوت الصياد ، وجاء آخرون عشرة على اقل تقدير . وجلس خوخول على الوصيد ، قرب باب الدكان ، يدخن غليونـــه ويصغى فى صمت الى الفلاحين الذين اتخذوا مجلسهم عـــلى الدرجات والمقاعد من كل جانب .

كان النهار باردا مختلف الالوان . السحب تتسارع بخفة على طول السماء الزرقاء التى لا تبرح متجلدة بفعل الشتاء ، وبقع من الضوء تترجرج وتغرق فى البرك والغدران ، حينـــا يخطف وهجها الابصار وحينا تداعب العيون بعذوبة مخملية . ومشت الفتيات فى ألبستهن البراقة الخاصة بالاعياد على طول الشارع متجهات صوب الفولغا . كن يرفعن ثيابهن وهن يجتزن البرك فتظهر احذيتهن الجلدية المتيبسة . والصبيان يتراكضون حاملين عصى الصيد فوق اكتافهم . وبعض ذوى الوقار مـــن الفلاحين يختلسون النظر الى الحشـــد المتراص خارج الدكان ويرفعون فى صمت قبعاتهم او قلنسواتهم اللبادية .

وانهمك ميجون وكوكوشكين فى مناظرة ودية تتعلـــق بقضية مستعصية : من الذى يصرع الآخر بقوة أكثر – التجار ام النبلاء ؟ وكوكوشكين يزعم انه التاجر ، اما ميجون فيدافع

---

* لقد نسيت اسماء الفلاحين ويحتمل ان اخطئ فيهـــا . **ملحوظة من غوركي .**

عن الملاك ، وصوته الجهورى الرنان يغرق كلام كوكوشكين الخجول .

– والد السيد فينغورروف . . .جر نابوليون بونابرت من سالفيه . والسيد فينغورروف . . . قادر على ان يمسك برجلين من ياقتيهما ، ويطوح بهما معا ، ثم يضرب رأسيهما ببعضيهما . . . وهذا كل شيء ! ويهويان على الارض مثل جذمورين من خشب .

وافق كوكوشكين :

– هذا يكفى ان يسقطك .

أضاف :

– حسنا ، على أية حال ، فالتاجر يأكل اكثر مما يأكل السيد . . .

وفوق أعلى درجة كان سوسلوف البهى الطلعة يغمغم :

– الفلاحون . . . انهم يفقدون مواطئ أقدامهم ، يا ميخايلو انطونوفيتش ! تحت حكم السادة لا يحق لك ان تتكاسل ! فلكل انسان عمل ينبغى ان يعمله .

أجاب ايزوت :

– لم لا تبعث استرحاما كيما يعيدوا عهد العبودية ؟

فرماه روماس بنظرة خرساء ، وجعل يفرغ غليونه بضربه على الدرابزون .

ظللت انتظر ان يقول شيئا . كنت ، وانا اصغى فى انتباه الى احاديث الفلاحين الشاردة ، احاول ان اتخيل ما سوف يقول خوخول . وتراءى لى انه اضاع سلسلة من الفرص اتاحت له المساهمة فى الحديث . ولكنه لجأ الى صمت شامل ، جالسا فى

مكانه مثل صنم ، يراقب الريح تجعد المياه فى البرك وتسوق الغيوم فى كتلة كثيفة دكناء . وعلى النهر جعل مركب بخارى يطلق صافرته . وسبحت الينا اغانى الصبايا المتصاخبة من المنحدر على انغام ألحان الاكورديون . وهبط الشارع رجل سكران يترنح ويعربد ، يلوّح ذراعيه فى وحشية وقد انحنت ساقاه تحت ثقله بصورة غريبـــة . وظل يخوض فى البرك . وخفتت احاديث الفلاحين وتمشت فيها كآبة موحشة . وشعرت ، انا نفسى ، بانفعالات من الاكتئاب المبهم لان السماء الباردة تنذر بالمطر ، ولان ذهنى راح يتذكر ما فى المدينة مـــن ضوضاء متواصلة – اصوات متباينة ، وخطوات نشيطـــة للسابلة فى الشوارع ، والاحاديث الرشيقة ، وغزارة الكلمات المثيرة للتأمل .

اثناء ترشفنا الشاى سألت خوخول متى اجرى حديثه مع الفلاحين .

– حديث ؟ عن ماذا ؟

شرحت له ، فقال بعدما اصغى الى فى انتباه :

– أو ، حسنا ، انت ترى ، او كنت سأتحدث اليهم على هذا الغرار ، وفى الشارع ايضا ، لأعادونى اعيش مع الياكوتيين لا محالة .

حشا غليونه وأشعله ، ونفخ الدخان حتى تجلبب بسحابة كثيفة منه . ثم شرع يتحدث ، فى هدوء ، وبكلمات رسخت فى ذاكرتى . قال ان الفلاحين حذرون متشككون . فهو يرتاب فى نفسه ، ويرتاب فى جاره ، ويرتاب فى الغريب قبل كـــل شىء . لم ينل حريته الا منذ ثلاثين سنة ، وكل فلاح بلغ

الاربعين من العمر ولد فى ظل العبودية ، ويتذكرها تماما . وعسير عليه ان يفهم للحرية معنى . فاذا نظرت اليهـــا فى بساطة فقد يخال لك انها تعنى ان تعيش كما تهوى . لكن ، وحيثما ادرت بصرك ، فانت تجد موظفين وسلطات ، وتجد انهم يقفون جميعا فى طريق ان تحيا كما تهوى . القيصر هو الذى انقذ الفلاحين من الملاكين ، وهكذا يبدو ان القيصر هو وحده الآن السيد على جميع الفلاحين . ولكن فلننقل مرة اخرى : وماذا بشأن هذه الحرية ؟ قد يجىء يوم — يوم لا يترقبه انسان ، يشرح فيه القيصر معناها . الفلاح يؤمن بالقيصر كثيرا . . . فهو وحده مالك الارض وصاحب جميع الثروات فيها . لقد أخذ القيصر الفلاحين من الملاكين ، وقد يأخذ من التجار مراكبهم ومخازنهم . الفلاح مع القيصر . ويشعر ان كثيرين من السادة اشرار . وسيد واحد قد يكون اقل شرا . وهو ينتظر ان يجىء يوم يشرح له فيه القيصر المعنـــى الحقيقى للحريـــة . وعندها . . . فليأخذ كل انسان ما يستطيع ان يأخذ . كل انسان يرجو ذلك اليوم ، ومـــع هذا فكل انسان يخافـــه ويخشاه . كل انسان يحيا فى خشية مرتعشـــة من ان يضيّع يوم القسمة العامة الحاسم . وكل انسان يرتاب فى قدراتـــه وقابلياته . فهو يريـــد الكثير ، والكثير موفور ومعروض ، فكيف يأخذه ؟ كل انسان يريد الاشياء ذاتها ، وعندها ، وحيثما ادرت رأسك فانت تجد افواجا من الموظفين يناصبون الفلاحين العداء ، مثلما يناصبون القيصر العداء . ومـــع هذا فانت لا تستطيع الاستمرار من دون الموظفين ايضا ، والا امســـك الناس بخناق بعضهم بعضا .

كانت الريح تضرب بغضب نوافذنـــا بامطار الربيـــع السخية . وغطت سحابة رمادية الشارع بأكملـــه خارجا . وملأت كآبة موحشة قلبى . واسترسل الصوت الهادئ الخفيض قائلا :

– اجعل الفلاح يفهم انه ينبغى ان يتعلم ، شيئا بعـــد شىء ، ان يمسك بزمام سلطة القيصر بين يديه ؛ اشرح له ان الشعب ينبغى ان يملك الحق فى اختيار الموظفين من بين صفوفه . . . فى اختيار الشرطة والحاكم ، وحتى القيصر . . .

– ولكن هذا يتطلب مائة سنة !

فاستوضح خوخول فى وقار :

– وهل كنت تأمل ان يحدث قبل عيد الثالوث الاقدس ؟

خرج مساء الى مكان ما . وفى حدود الساعة الحادية عشرة سمعت فى الشارع طلقة نارية غير بعيد عن البيت . وثبت الى المطر والظلمـــة ، فرأيت ميخايلو انطونوفيتش يسير صوب البوابة – شبحا كبيرا قاتم اللون يخطو وئيدا وفى اتزان ، ويتجنب جداول المياه التى تعترض سبيله .

– ما الذى دفعك الى الخروج . . . اطلاق النار ؟ انا فعلت ذلك . . .

– ماذا حدث ؟

– حاول بعض الشبان مهاجمتى ، هنالك فى آخر الشارع ، بهراوات يحملونها . امرتهم ان يسقطوها من ايديهـــم والا اطلقت النار . فلم يستجيبوا لى . حسنا . اطلقت طلقة فى الهواء . وانت لا تؤذى الهواء بنيران طلقاتك !

وقف عند المدخل يخلع ثيابه المبللة ويعصر الماء عن لحيته ، وهو يهزّ رأسه ويشخر مثل الحصان .

– يبدو ان حذائى الملعون انثقب . يجب ان استبدله . هل تستطيع تنظيف مسدس ؟ اصنع معى هذا الجميل قبل ان يصدأ . امسحه بالكيروسين . . .

لكم اعجبنى هدوؤه الرزين ، والعناد الوقور الذى قرأت فى عينيه الرماديتين ! دلفنا داخلا . راح يمشط لحيته امام المرآة ، وهو يحذرنى بقوله :

– خذ حذرك حينما تخرج الى الشارع ، وخاصـــــة فى العشيات وايام الاعياد . احسب انهم يريدون تحطيمك ، انت ايضا . لكن حذار ان تحمل عصا فى يديك . ان فعلت ذلك اثرت نفوسهم ، وقد يحسبون انك خائف منهم . وليس هنالك ما يبعث على الخوف . فهم جبناء جميعا . . .

بدأت أعيش حياة شائقة حقا . وكل يوم جديد يحمل الى شيئا جديدا وحيويا . واستغرقت فى قراءة الكتب التى تبحث فى العلوم الطبيعية ، فقد نصح لى روماس :

– هذا ما ينبغى عليك ان تفهمه قبل كل شىء ، واكثر من كل شىء ، يا مكسيميتش . فقد وضع العلماء فى هذه العلوم احسن ما فى العقل البشرى .

كنت اساعد ايزوت ثلاث مرات فى الاسبوع فى تعلـــم القراءة والكتابة . لم يطمئن الى اول الامر ، وتلقى ارشاداتى فى شىء من السخرية . ولكنـــه بعد عدة دروس اعلن بادى الانشراح :

– انت رائع فى هذا ، يا صاحبى . معلم – هذا ما ينبغى ان تكون . . .

اقترح علىّ فجأة :

– أنظر . . . أنت تبدو قويا . فلنجرب العصا .

جئنا بعصا من المطبخ ، وجلسنا على الارض ، وقد اسند كل منا قدميه الى قدمى الآخر ، وكل منا يمسك العصا من احد طرفيها بيديه . حاولنا فترة من الزمن عبثا ، وكل منا يسعى الى ان ينهض زميله عن الارض ، فى حين طفق خوخول يقهقه ويستحثنا قائلا :

– هيا ! هيا ! ارفعه !

اقامنى ايزوت اخيرا ، فبدا ان ذلك جعله اقرب منى من اى وقت مضى .

قال لى :

– لا بأس . انت قوى بما فيه الكفاية . يؤسفنى انك لا تحب صيد السمك ، والا كنت رافقتنى الى الفولغا . انها الجنة . . . هنالك على الفولغا ، عند انسدال الليل !

كان يدرس فى جهد ، ويحرز شيئا من النجاح . واذ تدهشه معرفته بالامور فهو يعبر عن مشاعره فى نبرات ساحرة . كان يثب على قدميه احيانا فى منتصف الدرس ، ويلتقط فجأة كتابا عن الرفوف كيفما اتفق ، ويرفع حاجبيه ، ويتهجى فى جهد سطرين او ثلاثة اسطر فى صوت عال ، ومن ثم يلتفت الى وقد تضرجت وجنتاه ، ويستوضح فى انشداه :

– استطيع ان أقرأ ! هل سمعت احدا يقرأ قبلى ؟

ويغمض عينيه ، ويردد :

وينوح فوق السهل صوت حمامة
فكأنها الثكلى على قبر تنوح

– أتراني اقرأ هذا ؟

سألني ، مرات عديدات ، فى خجل وقد طافت حيطة من صوته :

– ألا تستطيع ان تفسر لى ، يا اخى ؟ كيف يحدث ذلك ؟ ههنا رجـــل ينظر الى هذه الخطوط والاشارات الصغيرة ، وتستحيل الى كلمات ، و . . . انا اعرف هذه الكلمات ! انها كلماتنا نحن ، الكلمات التى نستخدمها يوميا ! لكن ، كيف اعرفها ؟ ليس هنالك من يهمس بها فى أذنى . لو انها كانت صورا . . . حسنا ، فقد كان يمكن ان افهمهـــا . اما بهذه الطريقة ، فتبدو وكأننى ارى افكار انسان آخر ، مطبوعة هنا على هذه الصفحة . كيف يكون هذا ؟

ما هو الجواب الذى يمكن ان اردّ به ؟ وقد احزنتـــه جملة : «لست ادرى» .

كان يقول ، وهو يتنهد ، ويرفع الصفحات المطبوعة الى النور :

– انه لسحر مبين !

كان ثمة شيء من السذاجة اللذيذة المؤثرة فيه ، شيء شفاف وطفولى . ولطالما اعاد الى ذاكرتى الفلاح الطيب الذى يقرأ الناس عنه فى الكتب . كان شاعرا ، مثلـــه مثل اكثر الصيادين ، يحب الفولغا ، ويهوى هدوء الليل ، والوحدة ، وحياة التأمل .

كان ينظر الى النجوم ويسألنى :

– يقول خوخول انه ربما كان ثمة مخلوقات حية هنالك ايضا ، مخلوقات مثلنا . فهل هذا صحيح فى رأيك ؟ لو كان المرء يستطيع ان يتصل بهم . . . ويسألهم كيف يعيشون ! لعل حياتهم افضل من حياتنا ، اكثر مرحا . . .

كان سعيدا راضيا بحياته . فهو يتيم لم يتزوج ، لا علاقة له بانسان فيما يباشر من عمل هادئ يرتاح اليه : صيـــد السمك . ولكنه يكره الفلاحين ، ويحذرنى منهم .

– لا يغرنك حديثهم الناعـــم . فهم ثعالب منافقون ، مزيفون . حذار من ان توليهم ثقتك ! فهم اليوم ما ترى ، وغدا غير ما رأيت . لا يبالى احدهم بغير نفسه ، اما المصلحة العامة . . . فهى اسوأ الاغلال بالنسبة اليهم .

وتحدث عن اصحاب «البطون الكبيرة» القرويين فى حقد ندر ان تضم مثل هذه النفس النبيلة .

– كيف تسنى لهم ان يصبحوا اكثر من الآخرين ثروة ؟ ذلك انهم اشد ذكاء . حسنا ، اذا كان هؤلاء الاوغاد اكثر ذكاء فلا بدّ ان ثمة شيئا يجب ان يعرفوه : هذا الشيء هو انه وجب على الفلاحين ان يتحدوا ، فى مجموعة واحدة ، ودون ان يتخاصموا على الاطلاق . وبهذه الطريقة يصبحون قوة ! ولكنهم بدلا من ذلك فهم يمزقون القرية مثلما يشقون جذمورا من الخشب الى قطع صغيرة . هذا ما يفعلون ! هم اعداء انفسهم . هم ارذال أنذال ! انظر الى ما يقاسيه خوخول منهم !

كان وسيما ، قويا ، يلفت انظار النساء بقوة ، فيتهافتن عليه تهافتا ولا يتركنه فى سلام .

اعترف لى فى وداعة :

– لقد افسدونى ، هذا شىء صحيح . الازواج . . . لا يحبون ذلك . وانا لا احب ذلك لو كنت مكانهم ، لكن ، كيف تراك لا تكون لطيفا مع النساء ؟ المرأة هى أشبه بروح ثانية لك . والحياة تحياها . . . دون مرح ، ودون لطف . وهى تعمل كالحصان و . . . هذا كل شىء . والازواج لا يجدون وقتا للحب ، فى حين اننى حر طليق مثل الريح . ولقد تذوقن طعم قبضات ازواجهن ، كثيرات منهن ، قبل ان تمر سنة واحدة على الزواج . بلى ، لقد سلوت بهن . فعلت ذلك . لم اكن اسألهن غير شىء واحد : لا تختصمن . ففى مقدورى الاعتناء بكن جميعا . لا تحســـــد احداكن الاخرى . فجميعكن سواء بالنسبة الى . فانا اشفق عليكن جميعا . . .

واسترسل يقول ، وهو يبتسم فى خجل :

– لقد كدت ان ارتكب الاثم مع سيدة مرة . جاءت سيدة من المدينة الى هنا واستأجرت مكانا لقضاء عطلة الصيف . كانت جميلة ، جلدها ابيض كالحليب ، وشعرها مثل الحرير ، وعيناها زرقاوان بلون الزرقة ، تنبعث منهما نظرة لطيفة . كنت احمل اليها سمكا فتشتريه ، ولا استطيع ان ارفع عينى عنها . كانت تقول : «ما بالك ؟» ، فأقول : «انت تعرفين» . فتقول : «حسنا . ليكن لك ذلك . سأحضر اليك هذه الليلة . فانتظرنى !» ولقد جاءت حقا . ولكن البعوض ازعجها . كان يلذعها . فلم يحدث شىء بيننا . فقالت : «انا لا احتمل ذلك . ما أقسى لذعه وأشده !» . . . وكادت ان تبكى . وجاء زوجها

فى اليوم التالى . كان قاضيـــا . بلى ، على هذا الغرار هن النساء !

فختم ايزوت الحديث فى نبرة توبيخية :

– انهن يتركن البعوض يفسد حياتهن .

وكان يمتدح كوكوشكين كثيرا :

– راقبه . هذا انسان يملك روحا ، روحا طيبة ! الناس يكرهونه ، ولكن . . . ولكنهم على خطأ ! هو مهذار من دون ريب ، ولكنه . . . بعد كل شيء . . . ولكن لكل منا عيوبا !

لم يكن لكوكوشكين ارض ، فهو يعمل مساعدا لبانكوف . وكانت امرأته عاملة ايضا ، وهى امرأة تكثر من الشراب ، صغيرة البنية ، قوية سريعة الخاطر ، حادة المزاج . كانا قد اجرا منزلهما للحداد واقاما فى الحمام القائم فى الوادى . وكان كوكوشكين مولعا بالاخبار ، فاذا لم يجدها مرة اخترع شتى اساليب الروايات بنفسه ، وهى تحوم دائما حول موضوع واحد لا يتبدل .

– هل سمعت ، يا ميخايلو انطونوفيتش ؟ الشرطـــى تانكوف اقسم ان يصير راهبا ، ويترك وظيفته . وهـــو يقول : «انا لا استطيـــع ان اظلم الفلاحين بعـــد الآن . فلقد مللت ذلك» .

قال خوخول فى وقار مطلق :

– لسوف تخسرون جميع موظفيكم سريعا اذا استمرت الحال على هذا المنوال .

ويفكر كوكوشكين فى هذا الكلام ، وهو يلتقط عن شعره الاشعث الاشقر التبن والقش وارياش الدجاج .

– انا لا اقصد جميعهم حقا . لكن . . . اولئك الذين يملكون ضميرا سيكون من الصعب عليهم ، حقا ، ان يقوموا باعباء وظائفهم . انت لا تؤمن بالضمير ، يا انطونيتش . ارى انك لا تؤمن به . لكن الامر سيان ، فالمرء لا يستطيع الحياة من دون ضمير ، مهما يكن هذا المرء ذكيا . كان ثمة امرأة مرة . . .

ويروح يروى حكاية صاحبة املاك لم ير «اكثر منها ذكاء» :

– كانت خبيثة ، خبيثة ، قاسية ، قاسية ، بحيث قدم الحاكم نفسه لرؤيتها رغم سمو منزلته ورفعة عمله . قال : «سيدتى ، خذى حذرك ، كيلا يحدث ما تعرفين» . وقال : «لان الحديث عن قسوتك الخشنة وصل الى بطرسبورج !» حسنا ، لقد صبت له قليلا من الخمرة من دون ريب ، وكل ما يتبع ذلك ، وخاطبته قائلة : «ارجع الى بيتك فى سلام . فلن استطيع تبديل طباعى !» ومرت ثلاث سنوات ، واعقبها شهر واحد ، واذا بها تجمع فلاحيها جميعا ، وقالت : «اليكم ، خذوا ارضي كلها ، ووداعا . اغفروا لى . فانا ذاهبة . . .»

فقاطعه خوخول :

– الى الدير .

حدق كوكوشكين فى وجهه ، وأومأ مصدقا على كلامه :

– هذا صحيح . لتصبح رئيسة للدير . اذن لقد سمعت بهذا النبأ ايضا ؟

– كلا ، انا لم اسمع شيئا من هذا القبيل .

– وكيف عرفت به ؟

– انا اعرفك انت .

هزّ ذلك الحالم رأسه ، وهو يجمجم :

– انت لا تؤمن بانسان قط . . .

كانت أقاصيصه كلها على وتيرة واحدة : اشخاصه الاشرار الطغاة جميعا يملون من ارتكاب الشرور ، «فيختفون» ؛ او انه فى اكثر الاحيان يبعث بهم الى بعض الاديار . . . مثلما ترسل النفايات الى مخازنها .

كانت تنصب فى رأسه افكار غريبة غير متوقعة . فتراه يعبس فجأة ، ويعلن :

– ما كان ينبغى ان نهزم التتار . فالتتار افضل منا . . .

كان يحدث ذلك حين لا يتحدث أحد عن التتار ، بل يدور الحديث عن تنظيم جمعية تعاونية لمزارعى الفواكه .

وقد يحدث فى الاوقات التى يتحدث فيها روماس عن سيبيريا والفلاحين السيبيريين الاثرياء ان يغمغم كوكوشكين فجأة وقد استغرق فى التأمل :

– لو ترك الناس صيد سمك الرنكة سنتين او ثلاث سنوات اذن فهم يتيحون للبحار ان تفيض به بحيث يحدث طوفان آخر . ما اروع كيف يكبر السمك !

كانت القرية تعتبره فتى تافها لا قيمة له ، اقاصيصه وافكاره الغريبة تزعج الفلاحين . ومع ذلك ، ورغم اهاناتهم وسخرياتهم ، فقد كانوا يهبون له اذانهم فى انتباه واهتمام ظاهرين – وكأنهم يترجون ان يعثروا على شيء من الحقيقة من خلال تلك التصورات .

كان الناس المحترمون ينادونه : «الثرثار المتبطّل» ، فى حين يقول بانكوف الغندور فى رزانة :

- ستيبان . . . انه يتحدث الغازا واحجيات . . .

كان كوكوشكين عاملا ماهرا يصنع البراميل ، ويبني الافران القرميدية ، ويعرف اساليب تربية النحل ، ويعلم النساء تربية الدواجن ، وينقش الخشب في مهارة . من بين يديه يخرج كل عمل على احسن ما يرام رغم انه يعمل في كسل وتذمر . وكان مولعا بالقطط يربي عشرة منها في الحمام ، هي واولادها الصغار يدللها ويطعمها جيدا . كان يحمل اليها الغربان وطيور الزاغ ، وعوّدها ألا تأكل غير الطيور . . . وهكذا ازدادت عداوة القرويين . فقد كانت قططه تأكل دجاج الجيران وفراخهم ، فجعلت النساء يطاردنها ويضربنها ضربا مبرحا . وكان حمامه على الدوام يرنّ بأصداء شكاوى الجيران المتذمرين . ولكن ذلك لم يكن يزعجه .

- ايتها الرؤوس الغبية ! القطط حيوانات صيد افضل من الكلاب . حين اعلمها صيد الطيور نستطيع ان نربي مئات منها ، ونبيعها . وهذا يعني نقودا في جيوبكم ، ايها الحمقى !

كان قد درس مرة القراءة والكتابة ، ولكنه نسي هذين الفنين ورغب عن ان يفعل شيئا ينعش ذاكرته . كان ذكيا بالفطرة ، وكان اول من يسبق الآخرين في استيعاب المغزى الاساسي لاحاديث خوخول .

كان يقول ، وهو يغضّن وجهه مثل طفل تجرّع دواء مريرا :

- وهكذا ، وهكذا لم يكن ايفان الرهيب عدوا للشعب البسيط . . .

كان كوكوشكين وايزوت وبانكوف يزوروننا في المساء

ويمكثون حتى انتصاف الليل احيانا ، يصغون الى حديث خوخول عن بنيان العالم ، وعن الحياة فى البلدان الاجنبية ، وعن الانتفاضات الثورية للشعوب . وكان بانكوف يعشق الثورة الفرنسية .

قال مستحسنا :

– تلك الثورة كانت انقلابا حقيقيا فى الحياة .

قبيل سنتين طلب بانكوف من أبيه ان ينال حصته من املاك اسرته – وهو فلاح ثرى ناتىء الحنجرة جاحظ العينين الى درجة مخيفة – واستقلّ فى حياته وتزوّج «عن حب» فتاة يتيمة هى ابنة أخى ايزوت . كان يعاملها معاملة قاسية ، ولكنه يلبسها مثل امرأة من المدينة . وقد لعنه والده نتيجة عقوقه ، وراح يبصق ناقما كلما مر بمنزل ولده الجديد . وقد أجّر بانكوف منزله الى روماس وبنى الى جانبه دكانا رغم اعتراض أثرياء القرية . وقد كرهوه بسبب من ذلك . ولكنه تلقى كراهيتهم فى لامبالاة ظاهرة . وأخذ يتحدث عنهم فى قرف دائم ، ويخاطبهم فى نبرة عنيفة ساخرة . كان يمقت حياة القرية .

– لو كنت اعرف تجارة لهاجرت الى المدينة . . .

كان قوي البنية ، نظيف الثياب دائما ، وقور السلوك ، شديد الغرور . وكان كثير الشكوك قليل الثقة بالناس .

سأل روماس ذات مرة :

– ما الذى يجعلك تأتى هذا العمل ؟ قلبك ؟ ام رأسك ؟

– اى منهما فى رأيك ؟

– لست ادرى . اخبرنى انت .

– اى منهما هو الافضل فى رأيك ؟
– لست ادرى . ايهما تظن ذلك ؟
كان خوخول عنيدا . فانتهى الى جعل الفلاح يعترف له :
– رأسك ، من دون ريب ، هذا هو أفضل سبيل . عقل الانسان لا يجعله يعمل من دون فائدة مادية ، وحيث تكون هنالك فائدة مادية تكون هنالك صلابة . فاذا اتبعت قلبك فهو ناصح غير مؤتمن . لو فعلت ما أشار عليّ به قلبى لكنت وقعت فى . . . مصيبـة ! كنت اضرمت النار فى منزل الكاهن . لا ريب انى كنت فعلت ذلك كيما اعلمه الا يدسّ أنفه فيما لا يعنيه !

كان الكاهن ، وهو شيخ خبيث له وجه صغير مدبب مثل وجه الخلد ، قد أرهق بانكوف بتداخله فى نزاعه مع أبيه .

عاملنى بانكوف اول الامر فى غير رضى ، بل فى عداوة ، بل سمح لنفسه ان يصيح فى وجهى صارخا . وسرعان مـا كفّ عن ذلك ، ولكننى ظللت أشعر شيئا من عدم الثقـة الخفية فى موقفه منى . ولا مندوحة لى عن القول اننى كنت أعامله بالمثل .

لا تزال ذكراها حية فى ذهنى هاتيك العشيات فى تلك الغرفة الصغيرة النظيفة ، بجدرانها الخشبية العارية ، ونوافذها المغلقة مصاريعها ، ومصباحهـا الملتهب على المنضدة فى الزاوية . ووراء المصباح ذلك الرجل القصير الشعر ، بلحيته الثقيلة وجبهته المسطحة العالية ، وهو يقول :
– الشىء الجوهرى فى الحياة هو ان ينطلق الانسان أبعد فأبعد عن الحيوان . . .

كان الفلاحون الثلاثة يصغون اليه فى انتباه ، عيونهم صافية ، ووجوههم تشع ذكاء . كان ايزوت يجلس دائما دون ان يأتى حركة فكأنه يصغى الى صوت ناء بعيد لا يسمعه أحد سواه . ويضطرب كوكوشكين ويختلج كأنما البعوض يلذعه . أما بانكوف فيلمس باصبعه شاربه القصير الاشقر ويلاحظ فى هدوء ، وهو يتأمل فكرة ما :

— اذن ، فقد كان ثمة ضرورة ، بعد ذلك كله ، ان ينقسم الشعب الى طبقات .

كان يروقنى فى بانكوف الى درجة بعيدة انه لم يكن قاسيا فى معاملته مستخدمه كوكوشكين . وكان يصغى الى ابتداعات ذلك الحالم اصغاء كاملا .

كنت أتسلق بعد حديث العشية الى غرفتى فى العلية وأجلس فترة من الوقت عند النافذة المفتوحة ، أسرّح بصرى فى القرية الغافية والحقول البعيدة ، حيث تخيِّم السكينة لا يعكر صفوها شيء . كانت النجمات المتلألئة ، وهى تخترق دكنة الليل ، تلوح اقرب الى الارض رغم بعدها المتناهى عنى . ويغرق فؤادى فى الصمت المسترسل . وتسبح أفكارى فى الفضاء اللامحدود ، حيث آلاف القرى تستلقى على سطح الارض فى هدوء وسكون مثل قريتنا هذه .

أخذنى الفراغ المظلم بين ذراعيه الدافئتين ، وشدّ على روحى مثل ألوف من الشرايين غير المنظورة ، بحيث رحت أشعر ، تدريجيا ، انى أسير كسل نؤوم ، وقلق غامض يزحف على قلبى . كنت صغيرا صغيرا ، حقيرا حقيرا ، على ظهر كرتنا الارضية . . .

بدت لى الحياة فى القرية كئيبة لاسرور فيها . لكم سمعت ، بين فترة وفترة ، وقرأت ان الحياة فى القرية أكثر عافيــــة وأكثر صدقا منها فى المدينة . ومع هذا . . . فانـــا أرى الفلاحين منهمكين فى دوامة من الجهد لا تفتر او تنقطع . كثيرون هد المرض اجسادهم ، وكثيرون عجزت قواهم نتيجة العمل الشاق . ونادرا ما كنت ارى بينهم وجها مرحا . ان صناع المدينة وعمالها ، رغم انهم لا يعملون اقلّ منهم ، لكنهـــم يعيشون حياة أكثر سرورا . ما كانوا يشكون من الحياة مثلما يشكو هؤلاء الفلاحون المتشائمون باسلوب مضجر موحش . لم تكن حياة الفلاح تبدو لى حياة بسيطة . كانت تتطلب انتباها دائما للارض ، ودرجة عاليـــة من المهارة فى علاقات الناس بالناس . كما لم يكن هنالك شىء أنيس فى ذلـــك الوجود المرهق . كنت أرى ان جميع القرويين يعيشون وكأنهـــم يتلمسون طريقهم مثل العميان . وكانوا ، جميعا ، خائفين من شىء ما ، وكل منهم يرتاب فى الآخر ، وفى كل منهم ذئب من الذئاب .

كان يصعب علي ان افهم لماذا يكرهون ذلك الكره المقيت كلا من خوخول وبانكوف وكل «رفاقنا» — أولئك الذين ارادوا ان يبنوا الحياة مثلما أمر بها العقل .

ظهرت لى جلية مزايا المدينة : الرغبة التواقة فى السعادة ، والعقلية المستطلعة الجسور ، والتنوّع فى الاهداف والاعمال . ولطالما تذكرت فى مثل هاتيك الليالى شخصين من المدينة :

«ف . كالوجين وز . نيبى

خبيران فى الساعات ، ويقومان باصلاح مختلف
انواع الآلات ، والادوات الجراحية ، وآلات الخياطة ،
وعلب الموسيقى من كل الانواع والاشكال ، الخ . . .»

كانت هذه اللوحة معلّقة فوق مدخل باب ضيّق ، بين نافذتين مغبرتين لدكان صغيرة . وخلف احدى النافذتين جلس ف . كالوجين ، وهو غليظ البنية ، مدور الوجه ، لا تفارق الابتسامة وجهه تقريبا . وكان هنالك نتوء فى رأسه الاصلع الاصفر اللون ، فضلا عن نظارة مكبرة لا تفارق عينه الواحدة . وكان يروح يغنى أحيانا وهو يعبث باحدى الساعات بملقاط دقيق ، وشفتاه تحت هدّاب شاربه الرمادى . وعند النافذة الاخرى جلس ز . نيبى ، وهو رجل نحيل صغير داكن اللون ، يبدو كالشيطان بشعره الأجعد وذقنه المدببة ، وأنفه الضخم المعقوف ، وعينيه السوداوين ، الكبيرتين مثل خوختين . كان هو الآخر مستغرقا فى العمل على الدوام ، يفك او يربط جميع الاشياء الدقيقة . ويصرخ بين حين وحين فى صوت جهورى عميق :

– ترا – تا – تام ، تام ، تام !

وراءهما على الارض كنت ألمح فى فوضى مطلقة صناديق ، وآلات ، واطارات اضافية ، وعلب موسيقى ، وكرات ارضية مدرسية . وعلى الرفوف كثير من الادوات المعدنية من مختلف الاشكال . وعلى الجدران تتدلى صفوف من الساعات يتراقص بندول كل منها على حدة . كنت احب ان اقف هنالك اراقب هذين الشخصين وهما يعملان ، اياما بطولها . وكان جسمى

الطويل الهزيل يحجب عنهما الضوء ، فيعبس الساعاتيان بصورة مرعوبة ، ويلوّحان بذراعيهما فى حركات تطردنى . فابتعد ، وانا اتساءل فى حسد :

«ما اسعد من يعرف كيف يقوم بعمل يجد فيه لذة !»

كنت احترم هذين الساعاتيين ، وأؤمن ايمانا مطلقا انهما يعرفان اسرار جميع الآلات والادوات ، وانهما يستطيعان اصلاح كل شيء على وجه البسيطة . أولئك هم الرجال !

أما حياة القرية فلم احبها . وكان من الصعب عليّ ان افهم الفلاحين . فالنساء ، بصورة خاصة ، يتشكين على الدوام من سوء صحتهنّ ، آونة «من غرق فى قلوبهنّ» ، وآونة «من انقباض فى صدورهنّ» ، ودائما وابدا «من مغص فى بطونهنّ» . كان الحديث عن مثل هذه الاعراض يتردد فى حمية واكثر من اى حديث آخر حين يلتقين يوم أحد او عيد — هنالك على ضفة الفولغا او حين يجلسن على مصاطب امام بيوتهنّ . وكان الفلاحون يهتاجون كثيرا ، ويطلقون الشتائم بسبب من اشياء جد تافهة . وقد تقاتلت ثلاث عائلات مستخدمة العصيّ من اجل ابريق فخارى مكسور لا يسوى ثمنه ، وهو جديد ، أكثر من اثنى عشر كوبيكا . وقبل ان يسوى النزاع كسرت ذراع امرأة عجوز وانشقت جمجمة صبىّ . ولم يكن يمرّ اسبوع واحد من دون امثال هذه المعارك .

كان الشبان يعاملون الفتيات فى دعارة صريحة ، ويتحايلون عليهنّ فى وقاحة . كانوا يقبضون على احدى الفتيات فى الحقل ، فيرفعون فستانها فوق رأسها ويربطونه بحبل ، ويطلقون على ذلك «ربط الفتاة مثل زهرة» . وتروح

الفتاة العارية من وسطها حتى قدميها تصرخ وتشتم . ولكن هذه الألاعيب لم تكن تغيظهنّ فيما يبدو . فقد كنّ يباطئن من فك عقدة ثيابهن أكثر من المألوف . وفى الكنيسة ، خلال صلوات الغروب ، كان الشبان ينهمكـــون فى قرص أرداف الفتيات . ويبدو ان هذا العمل هو الذى كانوا يحضرون الى الكنيسة من اجله . وكان الكاهن يوبخهم يوم الأحد من فوق المنبر :

– بهائم ! أفلا تجدون مكانا آخر لفحشكم هذا ؟

أخبرنى روماس :

– فى اوكرانيا الناس أكثر حسنا ، أكثر شاعرية ، فى ممارسة شعائر الدين . هنا أرى ان الايمان بالله يخفـــى وراءه أحط غرائز الخوف والجشع . أما فيما يتعلق بحب الله محبة قلبية ، فيما يتعلق باى انجذاب صوفى الى قدرتــــه وجماله – فانت لا تجد منه ذرة فى هؤلاء الناس . قد يكون ذلك شيئا حسنـــــا . فهم يستطيعون التحرر من الدين فى سهولة . وهو اجحاف أشد تهلكة ، هذا الدين – انا اقول لك ذلك !

كان الشبان كثيرى التفاخر لكن جبناء . ثلاث مرات كمنوا لي فى الليل وحاولوا ان يضربونى ، ولكنهم فشلوا دائما . مرة واحدة اصابتنى ضربة من عصا على ساقى . طبيعى انى لم اخبر روماس عن مثل هذه الدعابات ، ولكن تلك الضربة جعلتنى أعرج ، وقد خمَّن هو ما حدث ، فقال :

– لقد داعبوك ؟ اخبرتك ان تأخذ حذرك !

على الرغم من انه نصح لى الا اتجول فى القرية ليلا فقد

كنت اتخذ طريقى احيانا فيما وراء حدائق الخضار الى ضفة الفولغا ، واجلس تحت شجر الصفصاف هنالك انظر من خلال حجاب الليل الشفاف الى ضفة المرج الواطئة المقابلة . كان الفولغا يتدحرج امامى بطيئا مهيبا ، وشعاعات الشمس غير المنظورة التى يعكسها علينا السطـــح الميت للقمر تذهِّب مياهه بغزارة . لم اكن احب القمر . كان فيه شىء حزين . كنت اشبه بالكلب ، تعيسا تحت ضيائه ، فاشعر بالرغبة فى اطلاق عواء مزعج . ولكم اغتبطت حين علمت ان ضوء القمر ليس ضوءه الخاص ، انه ميت ليس فيه حياة ، ولا يمكن ان تكون فيه حياة . قبل هذا الاكتشاف كنت اتخيله مسكونا باناس من نحاس ، اجسادهم مثلثـــة ، يمشون على سيقان طويلة دائرية يرنون بأصداء عميقة مثل اجراس الكنيسة يوم العيد . كل شىء على القمر من نحاس ، وكل شىء — الزرع والحيوان ، كل شىء — لا يفتر عن الرنين ، رنين خامـــد ، متواصل ، ينذر الارض بعداء . وكل شىء يدبر مكائد شريرة ضد الارض . وكان رائعا ان اعرف ان القمر عبارة عن شىء تافه فى السموات ، ومع ذلك كان يفضل لو ان نيزكا ضخما يضرب القمر — يضربه بقسوة بحيث ينفجر ملتهبا ويرسل الى الارض ضوءا جديدا من نوره الشخصى .

كنت اراقب الامواج المتماهلة تضرب الخط الفضى لضوء القمر ، اراقبها تولد من قلب المسافات المعتمة وتختفى فى الظلال السوداء على الشاطئ المتحدِّر ، فأروح اشعر بنشاط ذهنى جديد ، بوضوح فكرى جديد . فيفكر عقلى ، بصورة عفوية ، افكارا لا يمكن ان تعبِّر الالفاظ عنها ، افكارا غريبة

عن مجمل حياتى اليومية . كان تدافق الماء المهيب اخرس لا صوت له . وقد يمخر مركب بخارى رائحا او جائيا على المجرى المظلم العريض – مثل طائر خيالى له ريش من نار . وتسبح فى إثره خرخرة لطيفة تشبه خرخرة اجنحة ثقيلة . او قد ينتشر ضوء فوق ضفة المرج فيرسل شعاعات طويلة قرمزية اللون عبر المياه . وليس ثمة غير مصباح صياد قد يخاله المرء نجمة شاردة هوت من علياء السموات وانزلقت على النهر مثل وردة من نار .

ان ما اقرأه فى الكتب يستحيل الى احلام وهمية ، والمخيلة تنسج مشهدا بعد مشهد من البهاء الذى لا يضارعه جمال . وأخال اننى اسبح فى لجة الليل الهادئ ، اسبح وراء النهر .

لربما كان ايزوت يعثر عليّ هنا . فهو فى الليل يبدو اكثر طولا ، وأكثر بهجة .

كان يسألنى :

– خرجت مرة اخرى ؟

ويقعد الى جانبى ، ويغرق فى سكون متفكر طويل – يمد بصره فوق النهر ، او الى أعالى السماء ، وهو يمسّد لحيته الحريرية المذهبة .

كان يحلم احيانا بصوت عال :

– ساصيب شيئا من العلم ، وأقرأ شتى اصناف الكتب ، وعندها – ساركب جميع الانهار ، وافهم كل ما تقع عليه عيناى ! وسأعلّم الناس الآخرين ! بلى ، سأفعلنّ ذلك . انه شىء رائع ، يا أخى ، حين تستطيع ان تفتح ابواب قلبك ! حتى النساء – بعضهنّ لا غير – اذا رحت تحدثهنّ من جوارح

قلبك – فلسوف يفهمن . كانت معى واحدة منهنّ ، منذ عدة ايام ، وشاءت ان تعرف ماذا يحلّ بنا بعد الموت . قالت : «انا لا أؤمن بالجحيم ، ولا بالسماء» . أرأيت ؟ النساء ، ايضا ، يا اخى . . . انهن . . .

وصمت يبحث عن الكلمات ، واسترسل :

– بلى ، ارواح حية .

كان ايزوت رجلا سوداويا . يحسّ الجمال باحساسه الرائع ، ويتحدث عنه باسلوب بهيج – بكلمات ناعمة تشبه كلمات طفل حالم . كان يؤمن بالله ، يؤمن من دون خوف ، مثل ايمان الكنيسة به . كان الله حسب تصوراته رجلا شيخا كبيرا وسيما حكيما لطيفا مالكا على الارض . لا يستطيع ان ينتصر على الشرّ لانه – «لا يجد وقتا لكل شيء . . . فقد تكاثرنا نحن الناس كثيرا . ولكنه سيتدبر الامر ، بلى ، سيتدبر الامر – انتظر ولسوف ترى ! وحده المسيح ، الآونة . . . من لا استطيع فهمه ابدا . لا اعرف من اين جاء على الاطلاق . هنالك الله ، أليس كذلك ؟ حسنا ، هذا يكفينى . لكن لا ، فقد جاؤوك بأله آخر . ابن الله يقولون . وماذا اذا كان ابنه ؟ والله لم يمت بعد . هذا ماأعرفه جيدا» .

فى اغلب الاحيان يبقى ايزوت جالسا الى جانبى يلفه الصمت ، مستغرقا فى افكاره الخاصة . ويروح يقول بين حين وحين ، وهو يزفر :

– بلى ، هكذا هى الحال . . .

– ماذا ؟

– لا شيء . كنت احدث نفسى . . .

ويزفر مرة اخرى ، وهو ينظر الى المنتأى الغائم .

– انها رائعة . . . هذه الحياة !

فأوافقه :

– أجل ، الحياة رائعة !

كان شريط المياه المخملية المظللة يتدفق بقوة امامنا . وقد ارتسمت على صفحة السماء قوس المجرة الفضية . وتدلت نجمات كبيرات – كأنها قبرات ذهبية ملتمعة – فى السمـــاء السوداء . وغنى القلب فى عذوبة نزواته الهوجاء عن امور الحياة السرية .

عاليا فوق المروج تخترق الغيمـــات المصبوغـــة حمرة شعاعات تواقة ، وما أسرع ان تنشر الشمس ذيلها الطاووسى على امتداد السماء .

ويغمغم ايزوت ، وهو يبتسم ابتسامة المغبوط :

– مثل معجزة هى . . . هذه الشمس !

اشجار التفاح مزهرة ، والقرية تضطجـــع تحت غيمات مورّدة ، ورائحة مرة تتغلغل فى كل مكان ، وتخنق رائحـــة القطران والزبـــل . ومئات الاشجار ، وقد اكتست تويجات حريريـــة موردة ، تمتدّ فى صفوف منتظمـــة بين البيوت والحقول . وحينما يهب نسيم رَخْو" ، فى الليالى المقمرات ، وتتمايل الاغصان المثقلة براعم ، وحفيفهـــا لا يكاد يبلغ الآذان ، فيبدو وكأن موجات ذهبية مزرقة ثقيلـــة تتدحرج طافية فوق القرية . وكانت البلابل تشدو هائجة غير متعبة . وطوال النهار تتنازع الزرازير فى اصوات مرحة ، وقبرات غير مرئية تهرف على الارض الحانها العذبة المتواصلة .

وفى عشيات ايام الاحد تنطلـــق الفتيات والشابات فى الشارع رائحات جائيات وهنّ يرسلن أغنياتهنّ ، وأفواههنّ فاغرة كأنها مناقير العصافير ، وعلى وجوههنّ ابتسامات ثملى واهنة . وكان ايزوت يبتسم ايضا ابتسامة رجل مخمور . لقد غدا نحيلا ، وغرقت عيناه فى محجريهمـــا القاتمين العميقين . وازدادت ملامح وجهه صرامة ووسامة – فقاربت ملامح قديس أكثر منها قبلا . كان ينام اياما بطولهـــا ، ولا يحضر الى القرية – مستغرقا فى التفكير مشغول البال – الا عندما تتجمع عتمة المساء . وكان كوكوشكين يمازحه اثارةً ، فى خشونة لكن فى حب . فيردّ عليه فى تكشيرة مرتبكة :

– اخرس ، هل سمعت ؟ ماذا يمكن ان يعمل المرء ؟

ويوضح ، فى سورة من الاعجاب :

– آه ، حلوة هى الحياة ! و . . . عندما تفكر فيها . . . تجدها تموج حلاوة وجمالا ! والناس ينطقون كلمات جميلة تدفىء قلوب بعضهم بعضا ! وبعض هؤلاء الناس يبقون فى ذاكرتك الى يوم تموت ، ويوم تبعث من رقدة الموت فهم أول شيء يطوف فى بالك من جديد .

حذّره خوخول ، وهو يقهقه فى وداد :

– الحذر الحذر ! فالأزواج يتربصون بك لسلخ جلدك .

فيوافقه ايزوت :

– آه ، بلى . هم على حق فيما يفعلون .

ولا تمرّ ليلة تقريبا ، وغناء البلابل لا ينقطع له أوار ، لا ينصبّ فيها صوت ميجون الجهورى منتشرا من البساتين ، او الحقول ، او ضفة النهر . كان ينشد فى فن مدهش أغنيات

عذبة ترغم كثيرين من الفلاحين على غفران كثير من خطاياه .

واذا حلّت عشية السبت اجتمع حول الدكان نفر من الفلاحين يزدادون شيئا فشيئا – ومن بينهم ، على الدوام ، العجوز سوسلوف ، وبارينوف ، والحداد كروتوف ، وميجون . كانوا يجلسون ويثرثرون مستغرقين فى التفكير . وقد يذهب أحدهم ، ويجىء غيره ، وهكذا دواليك ، حتى انتصاف الليل . وربما بدأ سكران" شجارا – ويكون على الغالب الجندى السابق كوستين ، وهو أعور فقدت يده اليسرى اصبعين من أصابعها . يقترب من الدكان متبخترا مثل أحد ديكة القتال ، وقد شمَّر عن كميه ، ولوّح بقبضتيه . وكان يصرح فى صوت خشن مصرصر :

– خوخول ، ايها الاوكرانى ! يا سليل الشعب القذر ، عديم الايمان ! نريد ان نعرف لماذا لا تذهب الى الكنيسة ؟ لماذا ؟ هرطوقى ! مشاغب ! نريد ان نعرف اى صنف من الرجال أنت !

ويروح الناس يهزأون به :

– ميشكا ! ما الذى افقدك أصبعيك ؟ هل كنت خائفا من الاتراك ؟

وعندها يندفع فى الشجار . ويقبض عليه الفلاحون ، صارخين مقهقهين ، ويدفعونه من فوق حافة الوادى . فيتدحرج عن المنحدر وهو يصرخ صراخا مخيفا :

– قتلونى ! النجدة !

ويخرج من جديد وقد غطاه الغبار من رأسه حتى قدميه ، ويسأل خوخول ان ينفحه ثمن قدح من الفودكا .

— **لماذا ؟**

فيجيب كوستين :

— لأني سلَّيتكم !

وينفجر الفلاحون ضاحكين .

في صباح يوم من ايام العيد ، وقد اشعلت الطاهية النار في موقد المطهى وخرجت الى الساحة ، وانهمكت أنا في عملي في الدكان ، زفرت زفرة هائلة رنّ صداها في البيت بأسره . وارتجّت الدكان . وراحت علب الحلوى تتطاير عن الرفوف . ودوت قعقعة تكسُّر زجاج وأشياء تتدحرج على الارض . هرولت الى غرفة الجلوس ، فرأيت سحبا من الدخان الاسود تنفذ من المطهى ووراء الدخان شيء يهسّ وينفجر . وقبض عليّ خوخول من كتفي .

— رويدك . . .

وشرعت الطاهية تنوح في الرواق .

— ايتها المرأة الغبية !

واندفع روماس في قلب الدخان ، وحرّك شيئا داخل المطهى . وأطلق شتيمة ، ثم صاح :

— كفي عن هذا العويل ! هاتي قليلا من الماء !

كانت قطع من الاخشاب تحترق على الارض مرسلة دخانا ، وقرميدات وأشياء مشتعلة مبعثرة بينها . وكان فم الموقد فارغا . مشيت عبر الدخان الى حيث دلو الماء ، وأهرقته على

النار المنتشرة على الارض . وشرعت من بعد أرمى الحطب فى الموقد من جديد .

قال لى خوخول :

– انتبه !

كان يشد الطاهية خلال تلك الفوضى . ودفعها الى غرفة الجلوس ، وأمرها قائلا :

– اذهبى واغلقى الدكان !

والتفت اليّ :

– انتبه ، يا مكسيميتش ! قد يحدث انفجار آخر . . .

أقعى على عقبيه ، وتفحص فى عناية كل خشبة مدورة ملقاة على الارض . ثم اتجه صوب الموقد وشرع يخرج الاخشاب التى ألقيتها فيه .

– ماذا تفعل ؟

– اليك . . . أنظر الى هذه !

كانت الخشبة التى مدّ يده بها اليّ ممزقة بصورة غريبة . حدقت فيها عن قرب ، فرأيت انها مثقوبة ، وان جدرانها الداخلية سوّدها الهباب .

– أترى ؟ أحد الابالسة حشا هذه الخشبة بارودا . يا للحمقى ! ما هو الأذى الذى يمكن ان يحدثوه برطل من البارود ؟

ووضع الخشبة جانبا ، وشرع يغسل يديه . قال مضيفا :

– فعلت أكسينيا حسنا بخروجها من الغرفة . والا أصابها شرّ عظيم . . .

انقشع الدخان اللاذع اخيرا . فرأيت ان الصحاف على الرفوف تكسّرت ، وألواح الزجاج تحطمت . واقتلعت بعض القرميدات من حول فم الموقد .

لم تعجبنى رباطة جأش خوخول فى تلك اللحظة . كان يتصرف كما لو ان ذلك العمل الاحمق لم يثر غضبه فى شىء .

وراح الاولاد يتراكضون هنا وهنالك . ورنت اصوات عديدة :

– النار ! النار ! احترق خوخول !

وناحت امرأة . وصاحت أكسينيا فى حجرة الجلوس فى نبرة قلقة :

– ميخايلو أنطونوفيتش ! انهم يحاولون الدخول الى الدكان عنوة !

قال ، وهو يجفف بمنشفة لحيته المبللة :

– صه ! أنا قادم !

أطلت علينا من نوافذ حجرة الجلوس المفتوحة وجوه يكسوها الشعر شوّهها الخوف والغضب . . . وقد ضاقت عيونها من جراء الدخان الحارق . وصاح أحدهم فى صوت مهتاج ثاقب :

– لنطردهم من القرية ! ففى كل يوم لهم حادث ! ماذا يفعلون ! يا ربى !

وجاء رجل صغير أحمر الرأس يبذل جهده فى تسلق النافذة ، وهو يرسم اشارة الصليب ويغمغم كلمات غير مفهومة قبل كل محاولة . وكان يفشل فى محاولاته . كان يحمل

فى يمناه فأسا ، أمايسراه التى تمسّك بها بحافـــة النافذة يائسا فتنزلق فى كل مرة .

سأله روماس ، وهو يحمل الخشبة المجوفة فى يده :

– ماذا تراك تبغى ؟

– اطفاء النار . . .

– ليس هنالك نار . . .

فغر الفلاح فمه مذعورا ، واختفـــى . ومضى روماس الى وصيد الدكان . ورفع الخشبة وأخبر الحشد المتراص ّ :

– أحدكم حشا هذه الخشبة بارودا ، ودسها بين حطبنا . ولكنه لم يكن فيهـــا ما يكفـــى من البارود لاحداث أى ضرر . . .

وقفت وراء خوخول ، ونظرت الى الحشد . كان الفلاح الذى يحمل الفأس ، وقد استبدّ به الرعب ، يخاطب رفاقه قائلا :

– الطريقة التى يتوعدنى بالخشبة . . .

وظلّ الجندى كوستين ، وقد ملأ معدته خمرة من دون ريب ، يطلق عقيرته صائحا :

– اطردوه ، ذلك الهرطوقى ! جروه الى المحكمة !

كانت غالبية المتجمهرين جانحـــة الى الصمت ، تراقب روماس فى انتباه وتصغى الى كلامه متشككة :

– يحتاج نسف المنزل الى كمية كبيرة من البارود . بود ربما . حسنا ، لم لا تتفرقون الى بيوتكم ؟

وصاح أحدهم :

– اين العمدة ؟

– نادوا الشرطة !
وتفرق الناس رويدا رويدا ، على كره ونفور .
بدا انهم غير راضين .
دخلنا ، وصبت لنا أكسينيا الشاى . ابدا من قبل لم أرها على هذه الوداعة والوداد . رنت الى روماس فى عطف ، وقالت :
– أنت لم تقدم ضدهم اية شكوى ، ولذلك يعبثون بك على هواهم .
سألت :
– ألست غاضبا على الاطلاق ؟
– ليس لديّ وقت أغضب فيه على كل حادث تافه سخيف يقع لى .
همست فى نفسى : آه لو ان الناس قاموا بواجبهم فى مثل هذا الهدوء !
ظلّ يسألنى عن الكتب التى احب ان يحضرها لى من قازان ، فهو يخطط للقيام برحلة اليها فى غضون الايام القليلة المقبلة .
كان يخال ليّ احيانا ان فى هذا الرجل نوعا من آلة مربوطة مثل الساعة فى المكان الذى يجب ان تكون روحه ، وان هذه الآلة تدور وتدور ما بقيت الحياة مختلجة فيه . احببت خوخول ، واحترمته كثيرا . ولطالما تمنيت ان أراه غاضبا ذات يوم ، يصيح ، ويضرب الارض بقدمه ، سواء ضدى ، ام ضد اى انسان آخر . . . لا فرق لديّ . لم يكن قادرا على الغضب فيما يبدو ، او انه راغب عنه لوكان قادرا

عليه . واذا هزته حماقة او حقارة فهو يضيِّق فرجة عينيه الرماديتين فى شقين لوزيين ساخرين ، ويبدي بعض ملحوظات بسيطة مقتضبة لا أثر للشفقة فيها على الدوام .

توجه مرة الى سوسلوف سائلا :

– ما الذى يجعلك تنافق ، ايه ؟ وأنت شيخ عجوز !

احمرّت وجنتا الفلاح الشاحبتان وجبهته الصفراء . حتى ان لحيته الناصعة احمرت الى أقصى جذورها :

– ذلك لا يجديك نفعا فى ايـــة حال . ولسوف يذهب باحترام الناس لك .

اطرق سوسلوف برأسه :

– هذا صحيح . لا يجدى نفعا .

وعالن ايزوت بعد ذلك :

– يا لها من نظرة ثاقبة ! لو انهم يختارون الموظفين من أمثاله !

. . . أوضح لى روماس فى اختصار ووضوح كيف ينبغى ان اتصرف فى خلال غيبته . وخيِّل اليّ أنه نسي – مثلمـا ينسى المرء لدغة ذبابة – محاولة اخافته بالانفجار .

وجاء بانكوف ، وتفحّص الموقد ، وسأل فى اكتئاب :

– ألم تخافوا ؟

– ماذا ؟

– انها الحرب !

– اجلس واشرب الشاى معنا .

– زوجتى تنتظرنى .

– أين كنت ؟

- كنت أصطاد . مع ايزوت .

ذهب . ردّد ، فيما هو يجتاز المطهى ، فى صوت متفكر :

- انها الحرب .

كان بانكوف يختصر الحديث دائما عندما يتحدث مع خوخول - كأنه حدثه منذ زمن بعيد عن كل ما هو مهم عسير . وحين جعل روماس يحدثنا عن عهد ايفان الرهيب ، فانا اذكر ان ايزوت قال :

- قيصر مضجر .

وأضاف كوكوشكين :

- جزار !

ولكن بانكوف أعلن جازما :

- لم يُبدِ شيئا من الحصافة . ما فائدة قتله الامراء الكبار طالما انه رعى مكانهم حشدا كاملا من النبلاء الصغار ؟ وأحضر عددا منهم من خارج البلاد ايضا - من الأجانب . هذا العمل لا يدل على حصافة . والملاك الصغير أشد خبثا من الملاك الكبير . والذبابة ليست ذئبا ، ولا تستطيع ان تقتلها بالبندقية . ولكنها أشد ازعاجا بالنسبة اليك من الذئب .

جاء كوكوشكين يحمل سطلا من الطين الرطب . ووضع القرميدات فى مكانها حول فتحة الموقد ، وقال :

- ماذا اخترع أولئك الشياطين ! لا يستطيعون الخلاص من قملهم - أما اذا تعلق الموضوع بقتل انسان . . . فهم على استعداد عندئذ ! لا تخزن بضاعة كثيرة ، يا أنطونوفيتش . يحسن ان تجعل الرحلة هينة ، فلا تحضر فيها اشياء كثيرة دفعة واحدة . فقد يضرمون النار فى بيتك قبل ان

تنتبه الى ذلك . لا بد ان تقع متاعب ، طالما انك دبرت ذلك الموضوع !

«ذلك الموضوع» . . . وهو موضوع لا يسرّ اصحاب الثروات الكبيرة فى القرية . . . انما هو تعاونية مزارعى الخضار . كان خوخول بمعونة بانكوف وسوسلوف واثنين او ثلاثة آخرين من الفلاحين الاذكياء ، قد انهى او يكاد تأسيس تعاونيته . فغدا كثيرون من المزارعين يتعاطفون الآونة تعاطفا افضل مع روماس ، وزاد زبائن الدكان زيادة محسوسة . حتى ان «الصالحين للا شيء» مثل بارينوف وميجون بذلوا أقصى ما يستطيعون من جهد لمساعدة خوخول .

أحببت ميجون حبا جما . كانت أغنياته الحزينة الجميلة تنصب فى قلبى . حين يغنى ميجون فهو يغلق عينيه ، ويكفّ وجهه الحزين عن الارتعاش . كان يعيش حياته فى الليالى السوداء ، حين يغيب القمر ، او حين تكون السماء محجوبة بكتل كثيفة من الغيوم . وكان يهمس لى احيانا فى العشايا :

– تعال الى الفولغا .

على ضفة الفولغا أجد ميجون يهيئ لصيد سمك الحفش – وهو يرتب عدة الصيد المحرّمة . كان يجلس على طرف مؤخرة قاربه ، وقد دلى ساقيه القاتمتين المقوستين فى المياه السوداء . ويقول فى صوت هادئ هادئ :

– حين يعاملنى الاسياد معاملة سيئة فأنا . . . لعنة الله عليهم . . . أطيق ذلك منهم . النبيل – انه شخصية تُذكر . وهو يعرف اشياء لا اعرفها . لكن . . . الفلاحين ، من أمثالى . حينما يشرعون فى الاساءة اليّ ، فكيف يمكن ان

احتمل ذلك منهم ؟ ما هو الفارق بيننا ؟ هم يعدون أموالهم بالروبلات ، وانا أعدها بالكوبيكات . . . وهذا كل شيء !

كان وجه ميجون دائم التقلّص ، وحاجباه اللذان تخلفت عليهما ندوب يرتعشان . وكانت اصابعه ماهرة فى العمل ، تربط الخطافات فى عدة الصيد وتشحذ رؤوسها بالمبرد . وكان صوته الثرى يتدفق فى نعومة :

– يسموننى سارقا . هذا صحيح . انا اسرق . حسنا ، لكن ألا يعيش الناس جميعا على السرقة ؟ ألا يعتصر كل امرىء كل ما يستطيع من كل امرىء آخر ؟ هكذا سنّة الحياة . الله لا يحبنا ، والشيطان يغرينا !

كان النهر الاسود يزحف الى جانبنا ، والغيوم السوداء تجرى فوق رأسينا . وكأن الظلام يحول بيننا وبين رؤيـــة الضفة الاخرى . والامواج تندفع على الرمل فى حذر . وتغسل ما يحيط بقدمىّ ، وكأنها تريد ان تحملنى معها الى الظلمات المنجرفة التى لا شواطئ لها .

سأل ميجون ، وهو يتنهد :

– على المرء ان يعيش ، أليس كذلك ؟

هنالك فى أعلى الجرف كلب ينبح نباحا مخيفا . تساءلت ، كما لو فى حلم :

«ان تعيش حياة مثل حياة ميجون ؟ لكن . . . لماذا ؟»

كان الهدوء يخيِّم على النهر فاحم السواد المخيف . ولم يكن للظلمة الدافئة من نهاية .

غمغم ميجون :

– لسوف يقتلون خوخول . وقد يقتلونك ، انت ايضا .

وشرع يغنى فجأة ، فى صوت خفيض :

أمى تقول فى حنانْ
تقول فى صوتٍ رؤومْ
عش ، يا عزيزى ، فى أمانْ
فالعمر أياماً يدوم . . .

وينغلق جفناه . ويزداد صوته جهارة ، ويزداد كآبة . وتعمل اصابعه ، وهى ترتب عدة الصيد ، فى تراخ أكثر :

ولم أعش أنا الأمانْ
ولم أعش أنا الأمانْ

استبدّ بى شعور غريب : لكأن الارض تنهار ، وقد احتفرتها حركات تلك الكتل المائية الثقيلة . لكأننى أنزلق وأهوى عن الارض فى اعماق الظلمة التى غرقت فيها الشمس الى الابد .

بتر ميجون أغنيته فجأة مثلما بدأها ، وشدّ قاربه فى صمت عن الشاطئ ، وتسلّقه ، واختفى ، دون ان يندّ عنه صوت ، فى أسداف الظلام . واتبعته نظرى ، وانا اتساءل :

«فيم يعيش امثال هؤلاء الناس ؟»

صديقى الآخر كان بارينوف ، وهو فتى كسول ، مدع ، عديم الحيلة ، يهوى القيل والقال ، شريد لا يقر له قرار . عاش فى موسكو حينا ، ويتحدث عنها فى اشمئزاز :

– تلك مدينة الشيطان ! يالها من خبيص ! الكنائس . . . وعددها اربعة عشر الفا وست كنائس ، وسكانها . . .

نشالون جميعا ! وكلهم يحك جلدهم مثل الخيول التى أصابها الجرب - اقسم بالله ! التجار ، والجنود ، وسكان المدينة - جميعهم يمشون وهم يهرشون جلودهم فى كل ناحية من نواحى المدينة . وثمة شيء آخر ايضا - فهم يملكون مدفع القيصر هنالك ، وهو أكبر المدافـــع على الاطلاق . بطرس الأكبر صنعه بنفسه ليردّ به عادية الثوار . كان هنالك امرأة مرة ، سيدة ، اثارت تمردا ضده بسبب من حبها له . فقد عاش معها سبع سنوات ، ثم هجرها تاركا لها ثلاثة أطفال . فالتهب مزاجها ، وأثارت تمردا . حسنـــا ، يا أخى . . . لم يقف مكتوف اليدين ، فأخرج المدفع ، و . . . كانت نهاية تسعة آلاف وثلاثمائة وثمانين نسمة ! وقد ارتعب هو نفسه . قال يخاطب فيلاريت - وكان مطرانا - بقوله : «كلا . كان ينبغى ان نحبس ألعوبة الشيطان هذه ضد الغواية» . ولقد حبسوا تلك الألعوبة . . .

حين قلت له ان ذلك كله هراء غضب منى :

- يا الهى الطيب ! ان لك مزاجا مخيفا ! لقد سمعت ذلك كله من رجل عالم ، وهذا أنت تقول . . .

كان مرة فى كييف «لزيارة القديسين» . وقد قال عن هذه التجربة :

- المدينة . . . انها شيء يشبه قريتنا هنا . تقوم على جرف ، مثلنا هنا ، وثمة نهر ايضا ، ولكننى لا أذكر ماذا يطلقون عليه . انه ساقية اذا قيس بالفولغا ! وانها مدينة معقدة ، أقول لك . جميع شوارعها ملتوية ، وجميعها ترتفع صعدا . والناس . . . انهم أوكرانيون . ولكنهم ليسوا مثل

ميخايلو انطونوفيتش . انهم من طينة مختلفة : نصف بولونيين ونصف تتار . وهم لا يتحدثون ، بل يثرثرون . هم قذرون لايسرحون شعورهم . وهـــم يأكلون الضفادع – والضفادع عندهم تزن الواحدة منها عشرة أرطال . وهم يستخدمون البقر لجر العربات مثلما يستخدمونها فى الفلاحة ايضا . هم يربون نوعا رائعا من البقر هنالك – أصغر واحدة منها اكبر اربع مرات من ابقارنا . تزن ثلاثة وثمانين بودا . وهنالك سبعة وخمسون الف راهب ، ومائتان وثلاثة وسبعون مطرانا . . . والآن ، ألا تبعث على السخرية ! كيف تجادلنى فى ذلك ؟ رأيت ذلك بنفسى وبأمّ عينيّ . وأنت . . . هل كنت هنالك ؟ كلا ؟ حسنا اذن ! انا ، يا أخى . . . انا احب ان اكون دقيقا . هذا هو الشىء الرئيسى . . .

كـان يعشق الارقام ، وتعلّم كيف يجمـــع ويضرب . أما القسمة فلم يكن يطيقها . كان يكتب على الرمل بعصاه ، فيجمع الارقام الكبيرة فى حماسة ، ويرتكب الاخطاء فى شجاعة . وحين يستخرج النتيجة فهو يحدق فى ذلك الصف الطويل من الارقام فى تساؤل طفولى ، ويعلن موضحا :

– مثل هذا الرقم . . . أنت لا تستطيع قراءته ابدا !

كان بارينوف فتى أخرق ، مهترئ الثيـــاب ، أشعث الشعر . ولكن وجهه على شىء من الوسامة ، تحيط به لحية خفيفـــة متنافرة الشعرات تضيئهـــا عينان زرقاوان يشعان بابتسامة طفولية . وكان ثمة شبـــه بعيد بينـــه وبين كوكوشكين – وبسبب من ذلك الشبه كان كل منهما ينفر من الآخر ويبتعد عنه .

كان بارينوف قد زار بحر قزوين مرتين ، وصاد فيه ، ولا يبرح قبلة احلامه :

— البحر ، يا أخى . . . ليس مثلـــه شىء عـــلى وجه الارض ! المرء مثل ذبابة صغيرة أمامه ! تنظر اليه و . . . من تراك تكون ؟والحياة حلوة هنالك . وجميع اصناف البشر يلتقون عند البحر . وهنالك أرشمندريت ايضا . لم يكن شريرا . فهو يعمل مثلنا جميعا . وكانت هنالك طاهية ايضا . كانت خليلة النائب العام — اما الآن ، فماذا يمكن ان يريد المرء أكثر من ذلك ؟ ومع هذا لم تستطع ان تصمـــد امام البحر . «انت ظريف ، يا نائبى العام ،ومع هذا وداعا» . ان كل من يرى البحر ، ولو مرة واحدة ، فلا بد ان يزوره مرة اخرى . هنالك الانفساح الشبيه بانفساح السماء . وليس هنالك ازدحام . لسوف اعود الى هناك ايضا ، واقيم نهائيا . انا لا أحب ان يتحلقنى الناس — هذه بليتى . كان ينبغى ان أكون راهبا فى دير من الاديار حيثما كان . ولكن . . . ولكننى لا أعرف واحدا منها يلائمنى . . .

كان يجرر قدميه حوالى القرية مثل كلب شريد . وكان الفلاحون يحتقرونه ، ولكنهم يصغون الى أقاصيصه مثلمـــا يصغون فى لهفة الى أغنيات ميجون .

— كاذب ذكى ! ولكنه يثير الفضول !

بعض من خيالاته كانت تشوش احيانا افكار أكثر الناس من الفلاحين رصانة من أمثال بانكوف ، هذا القليل الثقـــة بالناس الذى خاطب الاوكرانى ذات يوم قائلا :

— يشكو بارينوف من ان الكتب لا تروى الحقيقة كاملة

عن ايفان الرهيب – ويقول بارينوف انه لم يكن دائما رجلا . فقد كان يتحول الى نسر . وهذا السبب ، منذ ذلك الوقت ، فى انهم ضربوا صورة نسر على عملتنا – اكراما له .

لاحظت – ربما للمرة المائة ! – ان الناس يظهرون مزيدا من الاهتمام بالامور الشاذة ، الامور الخيالية ، الامور التى هى مختلقة – وخرقاء فى اغلب الاحيان – أكثر من التفسيرات الجدية عن حقيقة الحياة الصادقة .

ابتسم الاوكرانى حين حدثته عن ذلك ، وقال :

– سيزول ذلك . الامر الرئيسى هو ان يتعلم الناس كيف يفكرون . وعندها يصلون الى الحقيقة عن طريق تفكيرهم الخاص . اما اولئك الذين هم نسيج وحدهم – بارينوف وكوكوشكين – فينبغى ان تتعلم كيف تفهمهم.هم فنانون كما ترى . مخترعون . لا بد ان المسيح كان من هذا النوع ، نسيج وحده ايضا . ولسوف تعترف ان بعض ما اخترعه المسيح لم يكن سيئا .

أدهشنى ان اولئك الناس جميعا لا يتحدثون الا قليلا ، وفى لا اكتراث ، عن الله . وحده الشيخ سوسلوف يلاحظ – بين حين وحين وفى شىء من القناعة الثابتة :

– انها مشيئة الله !

وكنت أستشعر فى هذه الكلمات ، دائما ، نبرة اليائس المستسلم .

كنت سعيدا بين اولئك الناس ، وثمة اشياء كثيرة تعلمتها منهم خلال أحاديثنا المسائية . وكان يخال لي ان كل مشكلة من مشاكل روماس تنبت وتمدّ جذورها ، مثل شجرة قوية ،

فى قلب الحياة ذاتها – هنالك ، فى قلب القلب ، كيما تختلط بجذور شجرة اخرى تضارعها قوة . وكل غصن من اغصانها ثرى ببراعم فكرية حية تنبجس منه كلمات قوية داوية . كنت اعبّ رحيق الكتب المنعش ، فشرعت اشعر اننى اتقدم تقدما رائعا . وصرت اتحدث فى ثقة متزايدة ، وقد امتدحنى خوخول اكثر من مرة وهو يقهقه :

– أنت تتقدم بصورة مطردة ، يا مكسيميتش !

لكم كنت له شاكرا على هذه الكلمات !

كان بانكوف يحضر زوجته معه احيانا ، وهى امرأة صغيرة القد ، رقيقة الوجه ، تلبس ثياب أهل المدينة ، لها عينان زرقاوان براقتان تشعان ذكاء . كانت تجلس هادئة فى زاوية من زوايا الغرفة ، وقد اطبقت شفتيها فى صمت متواضع ، ولا تلبث شفتاها ان تنفتحا بعد فترة ، وتتسع عيناها فى انشداه مرعوب . وبعدها ، حين تقال ملحوظة مثيرة ، تنفجر ضاحكة ، وتخفى وجهها بين يديها فى ارتباك فجائى ويقول بانكوف ، وهو يغمز لروماس :

– أراها تفهم !

وكان ثمة زوار حذرون يحضرون لرؤية خوخول ، فيصعد بهم الى عليتى ، ويجلس معهم هنالك طوال ساعات كاملة .

وتحمل اليهم اكسينيا الطعام والشراب ، ويناموا هنالك . ولا يعرف بحضورهم سواى وسوى اكسينيا . فهى مخلصة لروماس اخلاصا يشبه العبادة . وكان ايزوت وبانكوف يذهبان باولئك الزوار ليلا الى بعض المراكب المارة ، او الى مرفأ لوبيشكى . كنت أقف فى اعلى الجرف اراقب شكل القارب

العدسى الشاحب يغوص فى النهر الذى لفّته الظلمة ، او ربما صبغته أشعة القمر الفضية ، ومصباحه يترّنح كيما يرشد ربان المركب البخارى اليه . كنت أتأمل هذا كله ، واشعر بنفسى انى مشترك حقا فى مشروع سرى جليل .

وتجئ ماريا ديرينكوفا من المدينة ، فلا أحس فى نظراتها ما كان يقلقنى دائما . عيناها تبدوان الآن مثل عينى فتاة سعيدة تعرف انها بارعة الجمال ، فتاة تغبطها ملاطفات صديقها الكبير الملتحى . وكان يحادثها مثلما يحادث بقية الناس فى نبرة كثيرة الهدوء والسخرية ، ولكنه يكثر من العبث بلحيته خلال وجودها ، وتلتهب فى عينيه نظرة دافئة . أما هى — فيرنّ صوتها الهادئ فرحا مسرورا . وترتدى ثوبا أزرق فاتحا ، وتضع فى شعرها الاشقر شريطة زرقاء . وكانت يداها الطفوليتان لا تهدأ لهما حركة بصورة غريبة ، فكأنما تبحثان عن شىء تستقران عليه . وهى تهمهم بينها وبين نفسها بنغمات اغنية ، وتروّح وجهها المورد المضرّج بمنديل صغير ان فيها شيئا يوحى اليّ قلقا جديدا — عدائيا نكدا . وحاولت الا اراها ما استطعت الى ذلك سبيلا .

فى اواسط شهر تموز اختفى ايزوت . قال الناس انه غرق فيما يبدو وقد تدعمت هذه الفكرة بعيد يومين اثنين حين عثر على قاربه وقد تهشم جانبه وانثقب بطنه فوق ضفة المرج على مسافة سبعة فراسخ عن القرية . وتراءى للناس ان ايزوت استغرق فى النوم فألقى التيار قاربه فى وجه مجموعة من مراكب النقل على مبعدة خمسة فراسخ من القرية .

كان روماس غائبا فى قازان حين وقعت الحادثة . وجاء

كوكوشكين مساء الى الدكان ، وتراخى حزينا على مجموعة من الاكياس ، وبقى صامتا فترة من الوقت يطيـــــل النظر الى الارض ، ثم استفسر اخيرا وهو يدخن :

– متى يؤوب خوخول ؟

– لست أدرى .

رفع يده الى وجهه وجعل يفرك وجنتيه المخدوشتين ، ويسبّ فى خفوت بألفاظ داعرة ، وينخر بصورة غريبة بين فترة واخرى – مثل رجل غصّ وهو يلتهم عظمة .

– ماذا حدث ؟

رفع بصره اليّ ، وهو يعضّ على شفتيه . كانت عيناه حمراوين ، وذقنه ترتجف . لم يكن يستطيع ان يتحدث بكلمة واحدة . انتظرت متوترا ، وقد فهمت ان لديه انباء سيئة ، اخيرا القى على الباب نظرة سريعة ، وارغم نفسه على القول متلعثما :

– ذهبت الى هنالــــك . مع ميجون . وفحصنـــــا قارب ايزوت – لقد اخترقته ضربة فأس . أترى ؟ بفأس . لقد قتل ايزوت قتلا . هذا صحيح . . .

هز رأسه ، وبدأ يطلق شتائم بذيئة ، واحدة بعـــــد الاخرى ، يقطعها نشيج حار جاف . ثم لجأ الى الصمت ، ورسم اشارة الصليب عدة مرات . وكان النظر اليه يبعث على الالم . فجسده بأسره يرتعش وينتفض بالحزن والغضب . وهو يريد ان يبكى ، ولكنه لا يستطيع – لا يعرف الى ذلك سبيلا . ووثب على قدميه ، ومضى هازا رأسه .

عشية اليوم التالى عثرت مجموعــــة مــــن الاولاد كانوا

يستحمون فى النهر على جثة ايزوت . كان هنالك مركب نقل مكسور ، غير بعيد عن القرية ،يستلقى نصفه على الضفة الرملية والنصف الاخر فى النهر . وفى المياه تحت مؤخرة المركب ، بين بقايا الدفة المكسورة ، استلقت الجثة الطويلة – الوجه فى الماء ، والجمجمة محطمة فارغة . والماء قد حمل الدماغ معه . ضرب ايزوت من الوراء على رأسه بالفأس ، فانفلقت الجمجمة فلقتين . وراح التيار يؤرجح الجثة ، ويدفع الساقين صوب الضفة ويؤرجح الساعدين بحيث يبدو وكأنه يجاهد للخروج من الماء .

واحتشدت جمهرة من الفلاحين تعدّ حوالى عشرين شخصا عند شاطئ النهر وقد استبدّ بهم الحزن والتفكير . كانوا من القرويين الاثرياء . فالفقراء لم يرجعوا بعد من عملهم فى الحقول . وكان العمدة يراوح ويغادى فى عصبية وخوف وهو يهزّ عصاه . كان ينفخ بمنخريه ، ويمسح أنفه بكم قميصه الزهرى . وكان كوزمين ، التاجر المتين البنية ، يقف وقد بدّ بين ساقيه واندلقت بطنه أمامه ، يحدق فيّ مرة وفى كوكوشكين مرة على التوالى . وكان حاجباه مقطبين فى عبوس . ولكن عينيه اللتين غاض لونهما مغرورقتان بالدموع ، وحسبت ان وجهه المجدور يغمره الوهن والارتباك .

كرر العمدة ، وهو يجتاز الشاطئ فى غدوة ورواح على ساقيه المعوجتين :

– أوه ، يا للعمل السيىء ! أوه ، يا للعمل الحقير !

وجلست كنته السمينة على حجر قرب حافة النهر ، تنظر الى الماء فى ذهول وترسم اشارة الصليب على صدرها بأصابع

مرتعشة . وكان فمها يختلج ، وشفتها السفلى منتفخة حمراء ، تتدلى مرتخية بصورة تثير الاشمئزاز مثل شفة كلب عرى اسنانه الصفر البشعة . وتراكض الاولاد والفتيات – مثل بقع مزركشة من الالوان فوق ذلك الجرف . ومن بعد بدأ الرجال يتوافدون فى خطوات سريعة ، يلفهم الغبار ، آيبين من الحقول . وتعلّقت فوق الحشد همهمة خافتة محترسة .

– كان بغيضا .

– من . . هو ؟

– كوكوشكين . . . انه بغيض . . .

– ايزوت لم يؤذ احدا .

صرخ كوكوشكين ، وهو يلتفت الى الفلاحين فى ضراوة :

– لم يؤذ احدا ؟ لماذا قتلتموه اذن ؟ ايه ؟ فيمَ قتلتموه ، ايها الاوغاد ؟ ايه ؟

انفجرت امرأة فجأة فى ضحكة هستيرية ، فانهالت صيحاتها الوحشية مثل سوط يلهب اجساد الحشد . واستدار الفلاحون وهجموا على بعضهم بعضا ، يصيحون ، ويشتمون ، ويزمجرون . وانطلق كوكوشكين الى التاجر ، ووجه الى وجنته المجدورة لطمة قوية .

– خذها ، ايها الحيوان !

وابعد الناس بقبضتيه ، ومرق وسط الحشد المتنازع ، وصاح بى فيما يشبه السرور :

– ارحل . فلسوف تنشب معركة هنا !

كان احدهم قد ضربه . فانشدخت شفته ونزفت . غير ان وجهه شع سرورا .

– ارأيتنى كيف لطمت كوزمين ؟

وهرع بارينوف الينا ، وهو ينظر فى خوف من فوق كتفه الى الحشد الذى تراكم الآونة الى جانب المركب . وارتفع صوت العمدة النحيل فوق ذلك الضجيج :

– حسنا ، اثبت ذلك اذن ! على ماذا غمزت ؟ اثبته !

غمغم بارينوف ، ونحن نرقى فى المنحدر :

– كان يجب ان ارحل عن هذا المكان .

كان هواء العشية خانقا ثقيل الوطأة ، فعسر عليّ ان اتنفس . وكانت الشمس تجنح الى الغروب ، حمراء قانية ، بين الغيوم الزرق الكثيفة ، وهى ترسل شعاعا متوهجا على الاجمات المحدقة بنا . وزمجر الرعد فى مكان ما .

تأرجحت جثة ايزوت امام عينى . كانت تتأرجح مع حركة الماء ، وشعر جمجمته الخاوية يسبح مع التيار بحيث يبدو وكأنه وقف رعبا . وتذكرت صوته الخفيض وحديثه العذب :

– فى كل منا جانب من الطفل . ومن هذا الجانب ينبغى ان تبدأ عملك . خذ الاوكرانى مثلا – تحسب انه صنع من حديد ، ولكن له روح طفل صغير !

قال كوكوشكين غاضبا ، وهو يخطو الى جانبى :

– سوف يتخلصون منا ، بالطريقة ذاتها . وحق الله . . . ولكن هذا حماقة !

رجع خوخول بعد يومين او ثلاثة ايام من ذلك فى ساعة متأخرة من الليل . بدا مسرورا الى حد بعيد من شىء ما ،

وكانت تحيته ودية اكثر من المألوف . قال حين فتحت له الباب ، وهو يربب على كتفى :

– انت لا تنام كفايتك ، يا مكسيميتش !

– قتلوا ايزوت .

– ما . . . ذا ؟

انتفخت اوداجه وارتعشت لحيته بحيث لاحت وكأنها تطير وتحط على صدره . نسى ان يخلع قبعته . وقف فى وسط الحجرة وهز رأسه فى تثاقل . وضاقت عيناه .

– هكذا . قتله رجل مجهول ؟ حسنا ، هذا لا ريب فيه . . .

مشى فى تؤدة الى النافذة وجلس ، ومد ساقيه فى استرخاء :

– ظللت احذره . . . هل عرفت الشرطة ؟

– البارحة . جاء المفوض .

فاستفسر :

– حسنا ، وماذا كانت النتيجة ؟

واضاف يرد على سؤاله :

– لا شيء طبعا !

اخبرته ان المفوض نزل عند كوزمين على مألوف عادته ، وامر ان يوقف كوكوشكين لانه ضرب التاجر .

– هكذا . حسنا ، وماذا يمكن ان يقول المرء عن ذلك ؟

ذهبت الى المطهى لتهيئة السماور .

قال روماس ، وهو يرشف الشاى :

– انى ارثى لهؤلاء الناس الذين يقتلون اخيارهم . تبدو

وكأن . . . كلما كان المرء فاضلا ازدادت خشيتهم منه . انهم لا يستفيدون منه ، فهو يقف حجر عثرة فى سبيلهم . التقيت مرة محكوما . كانوا يسوقوننا الى سيبيريا . كان لصا ، هذا ما قاله لى . كان هنالك خمسة منهم — عصابة كاملة . حسنا ، وجاء يوم اقترح فيه احدهم قائلا : «فلنكف عن ذلك ، يا شباب . فما فائدة السرقة على كل حال ؟ انها لا تجعلنا اثرياء !» وخنقوه من اجل ذلك عندما سكر ونام . ذلك المحكوم الذى روى لى القصة اطرى ذلك الرجل القتيل اطراء كبيرا : «وقد قتلت ثلاثة بعده ، فلم يكدرنى ذلك . اما رفيقنا . . . فما زلت نادما عليه . كان رفيقا جيدا ، ذكيا ، مرحا ، نقى السريرة» . فسألته : «لماذا قتلتموه اذن ؟ هل خشيتم ان يشى بكم ؟» . ولقد اثارت كلماتى غضبته . قال «رفيقنا ؟ كيف ، ما كان يشى بنا مقابل اى شىء ، ولو وهبت له مال الدنيا ! لكن . . . حسنا . . . لم نكن نرتاح معه كثيرا الى درجة ما . جميعنا مجرمون ، فيما هو اشبه بالقديس . ما كان ذلك مقبولا» .

نهض الاوكرانى وشرع يراوح ويغادى فى الحجرة ، ويداه وراء ظهره ، وغليونه بين يديه وكل ما فيه ابيض ضخم ، وقد ارتدى قميصا تتاريا يصل الى عقبيه . وكانت قدماه العارتيان تضربان الارض فى تبلد ، وراح يتحدث فى هدوء وتامل :

— لقد اصطدمت به بين حين وآخر . . . هذا الخوف من «القديسين» ، وذلك التخلص من الناس الاشراف . انه واحد من اثنين عندما يضطر الناس الى التعامل مع مثل هذا

«القديس» : اما التخلص منه بهذا الاسلوب او ذاك حينما يتعبون من مضايقته ، او . . . وهذا قليل نادر . . . لا يمتنعون عن القاء نظراتهم اليه ، ويزحفون على بطونهم امامه مثل الجراء الصغيرة . اما ان يتعلموا منه ، ويترسموا خطاه فى الحياة ، فهذا ما لا يستطيعون . . . فهو شيء غريب . وهم لا يعرفون كيف يفعلونه . او . . . ربما . . . لا يرغبون فيه .

وتناول قدحه ، وكان قد برد ، عن المنضدة ، واكمل يقول :

– هذا شيء محتمل . ورغم هذا ، فانت حين تفكر فى ذلك ، تجد ان الناس ، وقد اجهدوا انفسهم كثيرا ، نظموا نمطا من انماط الحياة الفوه واعتادوه . وعند ذلك تثور ثائرة روح منعزلة ، وتعلن ان حياتهم ليست عادلة . ليست عادلة ؟ لماذا ، وقد انفقنا عليها كل ما لدينا ، ازهق الشيطان روحك ! ويهجمون على ذلك المعلّم ، ذلك القديس . اليك ! دعنا وشأننا ! ومع هذا فان الحق مع اولئك الذين يقولون : «حياتكم ليست عادلة» . الحق الى جانبهم . واذا راحت الحياة تتجه صوب الطيبات فان ذلك يجرى بجهودهم الخاصة .

واشار الى صفوف الكتب ، واضاف :

– جهودهم الخاصة بوجه خاص . آه لو كنت استطيع ان اكتب كتابا ! ولكننى لا استطيع . فافكارى ثقيلة خرقاء !

جلس الى المنضدة ، وقد امال رأسه على يديه :

– لكم سنفتقد ايزوت !

وتابع بعد صمت طويل :

– حسنا ، اعتقد انه آن اوان النوم . . .

مضيت الى عليتي ، وجلست الى النافـــذة . كان البرق يومض فوق الحقول ويغمر نصف السماء . وبدا القمر يرتجف فى خوف كلمـــا ومض الضوء الاحمر . وجعلت الكلاب تعول وتنبح . ولولا هذين العويل والنباح الموحشين لظننت نفسك فى صحراء قاحلة . وزمجر الرعد فى البعيد البعيد . وانصبت حرارة خانقة فى ثقل على النافذة .

رأيت ايزوت مرة اخرى مستلقيا على ضفة النهر تحت ادغال الصفصاف وجهه المزرق يتطلع الى السماء ، وعيناه الزجاجيتان تنظران اليها ، نظرة داخلية قاسية ولحيته الذهبية المحمرة متلبدة ، وفمه مفتوح فى انشداه .

– الطيبة والرقة ، يا مكسيميتش . . . هذا هو الشيء الجوهرى ! لذلك انا احب الفصح : فهو اعذب الاعياد جميعا !

كان سرواله الازرق قد جف بتأثير شمس العشية الحارة فالتصق بساقيه الزرقاوين اللتين غسلتهما مياه الفولغا ؛ والذباب يطن فوق وجهه ؛ وجثته تطلق رائحة كريهة ثقيلة .

ثمة اقدام ثقيلة تصعد السلم . وبرز روماس وقد حنى رأسه وهو يجتاز عتبة الباب المنخفض . جلس على فراشى ، ورفع يده يمسك بلحيته .

– اردت ان اخبرك . سوف اتزوج .

– لن تكون الحياة هينة هنا بالنسبة الى امرأة . . .

نظر الى فى ثبات كمن يتساءل عما سأضيف من قول . ولكنى لم اعثر على ما اقول . وغمر البرق الغرفـــة بوميض متوهج .

– سأتزوج ماشا ديرينكوفا . .

لم استطع حبس ابتسامتى . لم يخطر لى من قبل ان هنالك من يمكن ان يطلق على هذه الفتاة اسم ماشا . يا للسخرية ! فلا والدها ولا اشقاؤها ، فيما اعرف ، نادوها بهذا الاسم : ماشا .

– فيم تكشّر ؟

– لاشيء .

– اتحسبنى عجوزا بالنسبة اليها ؟

– ابدا ، ابدا !

– اخبرتنى انك كنت عاشقا لها .

– احسبنى كذلك .

– والآن ؟ هل انتهى ذلك ؟

– اجل . اظنه انتهى .

قال فى هدوء ، وهو يترك لحيته :

– فى مثل عمرك تخطر للمرء مثل هذه الاوهام . اما فى عمرى انا فليس هو من الاوهام فى شيء . انه يملك عليك قلبك وروحك بحيث لا تعود تفكر فى شيء سواه !

وعرّى اسنانه القوية فى ابتسامة جافة ، استتلى :

– لقد اضاع انطونيو معركة اكتيوم ضد اكتافيوس لانه هجر اسطوله وواجباته بصفته قائدا وادار سفنه ليلحق بكليوباتره حين خافت وهربت . وهكذا تستطيع ان ترى ما يصيب المرء من ذلك !

نهض ، وشد كتفيه ، وكرر مثل من يتصرف مكرها :

– حسنا ، على اية حال . . . سوف اتزوج !

– متى !

– فى الخريف . حين ينتهى موسم التفاح .

خرج ، وحنى رأسه عند الباب – اكثر مما ينبغى . اندسست فى الفراش وخيّل الى انه ربما كان يحسن بى ان ارحل عند حلول الخريف . فيم قال ما قال عن انطونيو ؟ انا لم احب ذلك .

سرعان ما بدأ موسم قطاف التفاح المبكر . كان الموسم طيبا ، اغصان الاشجار تنوء باثمارها حتى الارض . وكانت رائحة حادة تتدلى فوق البساتين حيث الاولاد يمرحون – يلتقطون الاثمار المدودة والتفاح الوردى والاصفر الذى اسقطته الريح .

فى بكور شهر آب رجع روماس من رحلته الى قازان وقد حمل معه قاربا محملا بالبضائع وقاربا آخر بسلال فارغة . كانت الساعة تقارب الثامنة من صباح يوم عادى . وكان خوخول قد اغتسل ، بدّل ثيابه ، وجلس يشرب الشاى ويقول فى صوت مرح :

– ما اجمل الابحار فى الليل . .

وفجأة جعل يتشمم الجو ، وبتر حديثه مستفسرا فى قلق :

– الا تشم رائحة دخان ؟

وفى الوقت ذاته صرخت اكسينيا فى الساحة :

– النار !

اندفعنا خارجين . كانت السقيفة تحترق فى الطرف الذى يقابل بستان الخضار . وفى تلك السقيفة جمعت مخزوناتنا من البترول والقطران والزيوت . وقفنا لحظة جامدين ، مذهولين ، نراقب السنة النار الصفراء وقد اشحبتها اشعة

الشمس تلحس الجدار حتى السقف . واحضرت اكسينيا سطلا من الماء . فالقى خوخول المياه فى قلب شعلة النار ، ورمى السطل من يده وقال :

— هذا لا يفيد فى شىء . اخرج البراميل ، يا مكسيميتش وانت ، يا اكسينيا اسرعى الى الدكان !

وسرعان ما دحرجت برميلا من القطران خارج السقيفة عبر الساحة ، ثم الى الشارع . ثم امسكت ببرميل من البترول ، ما ان شرعت ادحرجه حتى لمحت انه من دون غطاء ، وان البترول ينساب على الارض . وفيما انا ابحث عن الغطاء ادركتنى النار . اخترقت اصابعها الملتهبة الصدوع المتوزعة فى الواح الجدار . وبدأ السقف يقعقع ، ورنت فى اذنى همهمة ساخرة . خرجت من الباب وانا ادحرج البرميل نصف الفارغ فرأيت النساء والاطفال يركضون ناحيتنا من جميع اطراف القرية ، وهم يصيحون ويصرخون . وكان خوخول واكسينيا يخرجون البضائع من الدكان ويكدسونها فى الوادى . وفى وسط الشارع وقفت امرأة عجوز شيباء الشعر سوداء الثياب تهز قبضتها وتنوح فى صوت عال :

— آ . . . ه . . . ه ، ايها الابالسة !

حين رجعت الى السقيفة مرة اخرى كانت تعج بدخان كثيف فى وسطه شىء يفرقع ويزمجر . وتدلت شرائط ارجوانية من السقف وهى تتلوى ، ولم يبق من الجدار غير قضبان مشتعلة . تدبرت امرى ، والدخان يخنقنى ويعمينى ، ودحرجت برميلا آخر حتى الباب . وحينما وصلت الى المدخل استعصى ولم يعد يتزحزح . وجعلت تنثال على من السقف شرارات

تلذع وجهى وذراعى . استنجدت . فركض الاوكرانى ودفعنى الى الباحة .

– اركض قبل ان ينفجر !

اندفع الى المنزل . تبعته . وصعدت الى العلية لانقاذ كتبى . وحينما قذفت هذه الكتب من النافذة لمحت صندوق قبعات ، فحاولت ان اقذف به هو الآخر . كانت النافـــذة ضيقة . التقطت وزنـــة صغيرة وبدأت اكسر اطار النافذة . وعندها . . . شق الفضاء ، صوت انفجار اصم ، وسقط شيء على السقف مرسلا صوتا مدويا . انفجر برميـــل البترول . وشبت النيران فى السقف وجعلت تؤز فيه بصوت مقعقع . وانصب مجرى من اللهب احمر اللون امام نافذتى ، وتسلل الى غرفتى . وغدت الحرارة لا تطاق . ركضت ناحية السلم ، لكن سحبا كثيفة من الدخان هبت لملاقاتى ، انسابت افاعى حمر تتدحرج من درجة الى درجة . وسمعت ازيزا ينطلق من المدخل ، فكأن اسنانا من الحديـــد تقضم الخشب . فقدت صوابى . وقفت جامد الاطراف وقد اعمانى الدخان احاول ان اتنفس طوال ثوانى مديدة لا نهاية لها . واطل رأس اصفر بلحية قرمزية من النافذة فوق السلم ، وقد تقطبت ملامحه فى جنون ، ثم اختفى ولم تلبث السنة متوهجة الاحمرار من اللهب ان اشتعلت فى السقف .

اذكر انه خيل الى ان الشعر فى رأسى يحترق ، ولم اكن اسمع غير ذلك الصوت . وهتف ذهنى انى هالك لا محالة . وكانت قدماى مثل الرصاص ، وعيناى توجعاننى بشدة رغم انى حاولت حمايتهما بيدى .

وحدها غريزة البقاء هدتنى الى السبيل الوحيد للنجاة . قبضت بكلتا يدى على كل الاشياء الطرية التى عثرت عليها — فراشى ووسادتى وحزمة كبيرة من الليف والقيت معطف روماس المصنوع من جلد الخراف فوق رأسى وكتفى ، ووثبت من النافذة .

حين فتحت عينى كنت مستلقيا على حافة الوادى ، وقد اقعى روماس الى جانبى ، وهو يصيح :

— هل انت على ما يرام ؟

نهضت ، ووقفت اشخص الى بيتنا المتضائل مشدوها . لم يبق فيه غير شرائح حمر وهاجة ، والسنة قرمزية مستكلبة من اللهب تلحس الارض السوداء امامه . ونفثت النوافذ داخانا اسود . وتأرجحت على السطح ازهار صفر .

صاح خوخول مرة اخرى :

— حسنا ، هل انت على ما يرام ؟

بدا وجهه الملطخ بالهباب الراشح عرقا وكأنه يذرف عبرات قذرة . وطرفت عيناه فى توجس . وتدلت من لحيته قطع من لحاء الشجر . فغمرتنى موجة منعشة من الفرح ، . . . دفقة من الشعور المستفيض ! ثم احسست فى ساقى اليسرى الما لا يطاق . هويت على الارض ، وعالنت خوخول :

— كسرت ساقى .

جسّ لى فخذى ، ثم جذبه بقسوة على حين غرة . فصعقنى الم حاد — ووجدتنى بعد لحظات ، وانا اعرج قليلا تسكرنى الفرحة اساعد فى حمل ما انقذنا من متاعنا الى الحمام . وكان روماس وقد استبد به السرور ووضع غليونه بين اسنانه ،

يقول لى :

– كنت واثقا انى فقدتك حينما انفجر برميـــل البترول وطار الى السطح . فقد شبت النار فى عمود بالغ الطول ، ثم شكلت مظلة تشبه مظلـــة من الفطر كبيرة ، والتهب البيت بأسره . حسنا ، قلت فى نفسى : لقد ضاع مكسيميتش !

كان هادئا كعادته ، فرتب بضائعه التى تم انقاذها فى عناية . والتفت الى اكسينيا على الفور قائلا ، وكانت عابسة شعثاء مثله :

– ابقي هنـــــا واحرسى هذا المتاع . سأذهب لاطفاء النار . .

وتطايرت بعض صحائف من الورق فى الدخان فوق الوادى .

قال روماس :

– آه ، الكتب ! يا للعار ! كانت عزيزة على .

اشتعلت اربعة بيوت . كان الهواء ساكنا فامتدت اليها النيران على مهلة وهى تنتشر ذات اليمين وذات اليسار فى غير سرعة ، مرسلة حوالق رشيقة تتشبث ، على مضض ، بالسطوح والاسيجة المجدولة . وكان قش السطوح الجاف تمشطـــه اسنان متوهجة ؛ واصابع نارية ملتوية تعبث بالاسيجة صعودا وهبوطا ، وتقتلع العساليج المجدولة مثل اوتار العود ؛ وفى الهواء المشبع بدخان ترن معزوفة اللهيب – شرسة ، عاوية ، مهلكة – تصاحبها الطقطقة الرقيقة للخشب المحترق . وهطلت من سحب الدخان على الشارع والباحات شعل مذهبة . وراح الناس يتراكضون بوحشية ، وكل منهم خائف على بيتـــه وممتلكاته ، واصداء العويل لا تكف عن الرنين .

– هـ . . ا . . ء !

كان الماء بعيدا – اسفل الجرف ، فى الفولغا . واخـــذ روماس يشدهم واحدا من كمه ، آخر من ياقته ، ويجمعهم جماعات ويقسمهم قسمين ، ويرسل كلا منهما الى احدى نهايتى ذلك الحريق الهائل –يهدمون الاسيجة والسقائف . وكانوا ينفذون اوامره فى خضوع . فبدأ نضال اكثر عقلانية ضـــد اندفاعات النار المتوالية لاكتساح صف البيوت بأسره ، فى الشارع كله . لكن الناس يصارعون وكأن المعركة ليست معركتهم ، يخطون فى حذر وكأنهم يعملون دون امل بالنجاح فيما يبدو .

كنت طروبـــا ، شاعرا انى اقوى من اى وقت مضى فى حياتى .

فى نهاية الشارع لمحت جماعة صغيرة من اثرياء القرية وبينهم العمدة وكوزمين . وقفوا هنالك يصيحون ويحركون ايديهم حركات كبيرة ، ويهزون عصيهم . كانوا جماعة من المتفرجين الكسالى ، لا يبذلون شيئا من الجهد فى سبيل اطفاء النار . وراح الناس يتوافدون من الحقول على صهوات الجياد التى تتواثب فتجعل اكتافهم ترتفع حتى اذانهم . وجعلت النساء يصرخن . وتراكض الاطفال رائحين جائين .

اتصلت النار ببيت آخر فى الباحـــــة . فوجب هدم دار الاسطبل – وهو بناء مضفور من الاماليد الثقيلة – فى اسرع وقت ممكن . كان قد اكتسى اعمدة براقة من اللهب . فشرع الفلاحون يقطعون الاوتاد التى تدعمه ، غير ان الشرر والفحم المتأجج انهالا عليهـــم فتفرقوا هاربين يطفؤون الاماكن التى بدأت تحترق من قمصانهم .

صاح خوخول :
– لا تجبنوا !
ذهب نداءه سدى . اختطف قبعة احدهم ، ودفعها على رأسى :
– خذ ذلك الطرف . وسأخذ هذا انا !
اسقطت عمودا ، والحقته بالثانى ، فبدأ الجدار يتأرجح . تسلقته ، ووضعت يدىّ على قمته . جذبنى خوخول من قدمى – فتهاوى الجدار بأكمله وكاد ان يدفننى . وسحبه الفلاحون الى الشارع سريعا .
سألنى روماس :
– هل حرقت نفسك ؟
صبت فيّ عنايته المفرطة قوة جديدة وسرعة خاطر . واعتملت فى جوانحى رغبة عارمة تدفعنى ان اقدم عرضا شيقا امام هذا الرجل الذى يعنى شيئا كثيرا بالنسبة الى . فرحت اعمل كالمجنون كيما استحق مديحه وثناءه .
فوق رأسينا لا تبرح اوراق كتبنا تتطاير فى الدخان مثل حمامات .
ناحية اليمين انطفأت النيران . اما ناحية اليسار فانتشر اللهيب فى مساحة اكبر ، وبلغ البيت العاشر . ترك روماس عددا من الرجال ناحية اليمين للحيلولة دون اية حيل قد تلجأ اليها تلك الافاعى الحمر ، وقاد البقية الى البقعة الخطرة . وفيما نحن نجتاز جماعة الفلاحين الاثرياء راكضين سمعت احدهم يعلن فى نبرة شريرة :
– انه حريق عمد !
وقال كوزمين :

– حمامه . . . هنالك يجب القاء نظرة !

انطبعت هذه الكلمات فى ذاكرتى بصورة رهيبة .

الهيجان ، على ما يعرف الناس جميعا – وخاصة هيجان اللذة يزيدان قوة . وفى هياجى رحت اواصل العمل فى حماسة لا تعرف كللا ، الى ان وجدتنى اخيرا وانا فى الرمق الاخير . اذكر انـــى جلست على الارض ،اسند ظهرى الى شيء حار ، وروماس يرش الماء علىّ من سطل ، وحولنا الفلاحون يتمتمون فى احترام :

– ما اقواه !

– انه لا يكلّ ولا يملّ !

ضغطت رأسى على ساقى روماس ، وبكيت بكاء مخجلا ، فجعل يداعب رأسى المبلل قائلا :

– استرح الآن ! فقد نلت كفايتك .

وقادنى كوكوشكين وبارينوف ، وكلاهمـــا اسود اللون مثل الوقاد ، الى الوادى وهما يعزياننى :

– هوّن عليك ، يا اخى ! لقد انتهى كل شيء .

– لقد انتابك الخوف حقا !

كنت لا ابرح مضطجعا هنالك ، احاول ان استرد رباطة جأشى ، حين لمحت حوالى عشرة من الفلاحين الاثرياء يهبطون الى الوادى ، فى اتجاه حمامنا . وكان العمدة يمشى فى المقدمة . ووراءه اثنان من رجال الشرطة يقودان روماس من ذراعيه . كانت قبعته قد اختفت . وقد تمزق احد كمى قميصه المبلل . وغليونه بين اسنانه المنطبقة ، ووجهه مكشر عابس . وكان الجندى كوستين يعبث بعصاه فى جنون :

– القوا به فى النار ! هرطوقى !
امر احدهم :
– افتح الحمام . . .
صاح روماس فى صوت عال :
– اكسروا القفل . فقد اضعت المفتاح .
وثبت على قدمى ، وحملت عصا عن الارض ، ركضت الى جانب روماس . ابتعد حارساه وصاح العمدة فى صوت ثاقب مرعوب :
– ايها المؤمنون ! لا تستطيعون كسر الاقفال . . . ذلك مخالف للقانون !
اشار كوزمين الىّ ، وزعق :
– هذا واحد آخر ! اريد ان اعرف من يكون !
خاطبنى روماس قائلا :
– رويدك ، يا مكسيميتش . انهم يظنون انى خبأت البضاعة فى الحمام ، واشعلت النار فى الدكان عمدا .
– بل كلاكما فعلتما ذلك .
– اكسروا القفل !
– ايها المؤمنون . . .
– نحن مسؤولون !
همس روماس :
– قف وظهرك الى ظهرى كيلا يضربوننا من الخلف . . .
حطموا القفل . وتجمهر عدد من الفلاحين فى الحمام ، وسرعان ما خرجوا منه . فى هذه الاثناء وضعت عصاى فى يد روماس والتقطت عصا اخرى .
– ليس هنالك شىء .

– لا شيء ؟
– يا لمكرهما ! دمروهما !
قال احدهم فى خجل وحياء :
– لقد كنا مخطئين . . .
فنعبت تجيبه اصوات عديدة فى وحشية فكأنما مخمورة :
– ماذا تقصد بكلمة . . . كنا مخطئين ؟
– القوهما فى النار !
– انهما مثيران للفتنة !
– يؤسسان تعاونيات !
– لصوص ! عصابة من اللصوص !
صاح روماس فوق ذلك الحشد الصاخب .
– هدوء ! لقد رأيتم بأنفسكم انه ليس هنالك شيء فى الحمام . فماذا تريدون بعد ذلك ؟ لقد احترق كل شيء . وما انقذناه موضوع هناك . وفى مقدوركم رؤيته . ماذا يجدينى ان تلتهم النار جميع بضاعتى ؟
– تعويض التأمين !
وراحت عشرة اصوات تصرخ فى نبرة عنيفة :
– ماذا تنتظرون ؟
– لقد احتملنا كفاية !
ارتجفت ساقى ، واظلم كل شيء امامى برهة من الزمن . ورأيت من خلال ضباب محمر حشدا من وجوه وحشية لها حفر ملأى بالشعر مكان الافواه . وضبطت بالكاد رغبتى العارمة فى ضربها . وهذه هى تتواثب حوالى ، وتحيط بى ، وهى تطلق صرخات جديدة :

– آه ! انهما يحملان عصاوين !

– يحملان عصاوين !

قال خوخول ، وعرفت من صوته انه يبتسم :

– سوف ينتفون لحيتي . وانت ستنال نصيبك ايضا ، يا مكسيميتش . يؤسفنى هذا . لكن ، حذار ان ترتبك . حافظ على رباطة جأشك .

– انظروا ! ان الصغير يحمل فأسا !

صحيح انى كنت احمل فأس احد النجارين فى حزامى . وكنت قد نسيت كل شيء عنه .

همس روماس :

– يبدو انهم استشعروا الخوف . ومع ذلك . . . اذا بدأوك الهجوم فيحسن الا تستخدم الفأس . . .

وهذا فلاح لا اعرفه – اعرج ، صغير ، مجهول منى يثب وثبات تبعث على الضحك – يصيح باعلى صوته :

– ابعدوا عنهما وارجموهما بالحجارة ! لقنوهما درسا !

التقط قطعة من قرميدة وقذف بها بعنف ، فاصابنى فى بطنى اصابة مؤلمة . وقبل ان اتمكن من ان ارد له ضربته انقض كوكوشكين عليه من قمة الوادى . وتدحرج الاثنان الى اسفل الوادى يتعاركان . وظهر من بعد بانكوف ، فركض صوبنا برفقة بارينوف والحداد وعشرة فلاحين آخرين . وعلى الفور اعلن كوزمين عن تراجعه اللبق :

– ان لك رأسا ذكيا ، يا ميخايلو انطونوفيتش . انت تفهم . . . النار . . . انها تثير جنون الفلاحين . . .

قال روماس ، وهو يرفع غليونه من فمه ويدسه في جيبه :

– تعال معى الى النهر ، يا مكسيميتش . سوف نشرب الشاى فى الحانة .

ومشى متثاقلا على طرف الوادى ، مستخدما عصاه بمثابة عكاز . وحين لحق به كوزمين وحاول ان يبدى بعض ملحوظات عابرة ، خاطب قائلا دون ان ينظر اليه :

– حمار ! امض فى سبيلك !

حيث كان ينتصب منزلنا عثرنا على كومة ذهبية من الجمر المتأرث ، وبين هذا الجمر تنتصب مدخنة موقد المطهى سليمة لم تصب بأذى ، ودخان خفيف ازرق ينطلق منها صوب السماء الحارة . وكانت القضبان الحمراء الحارة لسرير حديدى تمتد فى كل اتجاه مثل ارجل العنكبوت . وكانت دعامتا البوابة المتفحمتان تقومان فوق ذلك المشهد مثل حارسين داكنى اللون – احدهما فى قبعة حمراء من الحجر متوجة بلهب مترجرج .

قال خوخول ، وهو يزفر :

– احترقت الكتب كلها . واأسفاه !

وكان هنالك اولاد يحملون عصيا يدفعون بها بقايا الجمر ، واشياء اخرى ، من باحات الدور الى الشارع الموصل ، فتروح تهس وتنطفئ مطلقة دخانا لاذعا ابيض اللون . وكان ثمة طفل اشقر الشعر ازرق العينين ، فى حدود الخامسة من عمره ، يجلس فى بريكة سوداء دافئة ، وينقر بقطعة من الخشب على سطل مخروق ، ويصغى فى نهم تواق الى نغمات

الضرب على الحديد . وراح ضحايا الحريق يتجولون فى وجوه كالحة يجمعون ما تبقى من حاجيات منازلهم . وهنالك نساء يشتمن ويتخاصمن على قطـــع من الخشب المتفحـــم . وفى البساتين تنتصب الاشجار بدون حراك . وهنا وهناك ذوت النباتات بفعل حرارة الحريق ، وبدت الفواكه الناضجة اكثر ما تكون غزارة ووضوحا .

هبطنا حتى النهر واستحممنا ، ثم جلسنا نشرب الشاى فى الحانة على ضفته .

قال روماس اخيرا :

– على اية حال ، فكما خسر اصحاب البطون الكبيرة موسم التفاح خسروا معركتهم .

وجاء بانكوف . بدا مستغرقا فى التفكير ، الطف منـــه قبلا .

سأله خوخول :

– حسنا ، ما هو شعورك ؟

هز بانكوف كتفيه .

– منزلى مؤمن عليه .

وخيم الصمت . جلسنا مثـــل الغرباء ، نتبادل النظرات الثاقبة .

– ماذا ستفعل الآن ، يا ميخايلو انطونوفيتش ؟

– لم اتخذ قرارا بعد .

– يجب ان ترحل من هنا .

– سأفكر فى الامر .

وقال بانكوف :

– لدى خطة فلنخرجن الى مكان ما ، ونتباحث فيها .
خرجا . وتوقف بانكوف عند العتبة ورجـــع النظر اليّ وقال :
– انت ايهـــــا الصغير ، انت غير جبان ! وفى مقدورك الاقامة هنا . وسيخافك الناس . . .
خرجت من الحانة بدورى . واضطجعت على ضفة فى ظلال بعض الادغال ، امد بصرى فوق النهر .
كان الجو حارا ، والشمس قد غربت فى الناحية الغربية . وانتشرت امام عينى حياتى فى هذه القرية بأسرها ، فكأنهـــا مرموقة بالزيت على صفحة النهر العريضة . كان قلبى حزينا مرهقا . وسرعان ما استسلمت للتعب ونمت نوما عميقا .
سمعت فى نومى نداء غامضا يهيب بى :
– انهض !
واحسست احدهم يهزنى ، محاولا جرى الى مكان ما :
– اميت انت ، ام ماذا ؟ إنهض !
كان القمر معلقـــا فوق الحقول وراء النهر . كان احمر اللون قانيه ، كبيرا مثل دولاب عربة . وكان بارينوف جاثيا قربى يهزنى من كتفى .
– هيا بنا ! خوخول يبحث عنك . انه قلق عليك !
ومشى ورائى على طول المنحدر ، مغمغما :
– ليس هذا اسلوبك . . . ان تنام حيثما كان ! افترض ان احدهم مر بك ، هنالك فوق الجرف ، وتعثر فسقط حجر عليك ؟ او ربما القوا هذا الحجر عن قصد ! نحن لا نعرف المزاح هنا . فان شعبنا ،يا اخى . . . انه يتذكر الضغائن .

فليس ثمة شيء افضل منها للذكرى .

ثمة من يتحرك فى لطف بين الادغال . فقد رأيت الاغصان تهتز .

وانساب الىّ صوت ميجون الجهورى :

– هل وجدته ؟

فرد عليه بارينوف قائلا :

– سليما معافى !

مشينا مسافة قصيرة فى صمت . وتنهد بارينوف ، وقال :

– انه يستعد لسرقة السمـــك . وميجون ايضا . . . حياته شقية .

عنفنى روماس بحدة حين انضممت اليهم :

– كيف تطرح عنك الحذر ؟ هل تريد ان يضربوك ؟

فيما بعد ، حين ذهب بارينوف ، اخبرنى فى صوت مكتئب هادئ :

– يعرض عليك بانكوف مكانا لديه . فهو ينتوى ان يفتتح دكانا . ولا انصح لك ان تقبل ذلك . اما انا . . . فقد بعته جميع ما تبقى لدىّ ، وسوف ارحل الى فياتكا . سأرسل فى طلبك حالمـــا استقر ، وفى مقدورك اللحاق بى هناك . موافق ؟

– سأفكر فى الامر .

– حسنا .

استلقى على الارض ، وبدّل ضجعته مرة او مرتين ، ثم خمدت حركته . وجلست عند النافذة ارنو الى الفولغا . كان انعكاس القمر على المياه اشبه بوميض ذلك الحريق . ومر

مركب بخاری عند الضفة البعيدة ، ودواليبه تضرب بثقل . وتراءت فى الافق ثلاثة مصابيح معلقـــة على الصارى فى ملء الليل ، فكأنها تمسح النجمات او تخفيها احيانا .

سأل روماس فى صوت وسنان :

– اكرهت الفلاحين ؟ لا تكرههم . فهم حمقى ، هذا كل شىء . والخبث ليس الا شكلا من اشكال الحماقة .

مثل هذه الكلمات لم تكن تؤاسينى ، لم تكن تهدهـــد مرارتى واحساسى الحاد بالاهانة . مرة اخرى رأيت، تلـــك الاشداق الوحشية المكسوة بالشعر تقذف صرختها المرعبة :

– ابقوا بعيدا ، وارجموهما بالحجارة !

فى ذلك الوقت لم اكن قد تعلمت ان امسح من ذاكرتى ما كان يحسن ان انساه . كنت ارى تماما كل واحد من اولئك الناس ، اذا اخذناه على حدة ، و لا يملك كثيرا من الخبث . وكثيرون لا يملكون خبثا على الاطلاق . فهم ، فى اعماقهم ، بهائم طيبة القلب . واى واحد منهم يمكن ان تجعله يبتسم مثل طفل صغير ؛ واى واحد منهم يمكن ان ينهل ، فى ثقـــة صبيانية ، حكايات عن التماس الحكمة والسعادة ، حكايات عن الاعمال النبيلة السخية . وقلوبهم الغريبة تقدر كل ما يشجع الحلم بحياة رغيدة تمثل فيها ارادة المرء قانونه الخاص .

اما حين يجتمعون سوية ، فى مجالس القرية او الحانة على ضفة النهر ، فهم يطرحون كل صفاتهم الحميدة ، ويتلفعون ، كالرهبان ، بثياب الاكاذيب والنفاق . وسوف يطورون خنوعا حقيرا تجاه الاقوياء فى القرية ، وفى مثـــل هاتيك الفترات لا يستطيع المرء الا ان يشمئز من رؤيتهم . او قد تستبد بهم ،

من جديـــد ، رغبات فى خبث مرير على حين فجأة . فيصكون اسنانهم ويعرّونها ، مثل قطيع من الذئاب ، وينبحون فى وجه بعضهم بعضا ، ويستعدون للضرب – بل هم يتضاربون – فى سبيل اتفه الامور . فى هذه اللحظات هم مخيفون ، قادرون على هدم الكنيسة التى سبق ان دلفوا اليها فى الليلة الفائتـــة وتجمهروا فى خنوع واستسلام مثلمـــا تؤوب الخراف الى حظيرتها . وكان ثمة شعراء اولئك الناس وقاصون موهوبون . وليس هنالك من يحبهم . فهم موضع سخريـــة فى القرية ، محتقرون منبوذون .

ما كان فى طوقى ان اعيش بين اولئك الناس . ابدا . وفى اليوم الذى افترقنا فيه عرضت على روماس جميع الانعكاسات المريرة .

قال يعنفنى :

– هذه نتيجة مبتسرة .

– حسنا ، لكن . . . ماذا ينبغى ان اعمـــل ان كنت توصلت اليها ؟

– نتيجة خاطئة ! لا اساس لها على الاطلاق .

تحدث الىّ طويلا ، فى صبر ودود ، محاولا ان يقنعنى انى مخطىء ، وان نتائجى كلها خاطئة .

– لا تعجل فى اصدار حكمك ! فالادانة هى الطريق الاكثر سهولة . فلا تنحرف وراءها مغمض العينين . خذ الامور فى هينه وتذكر : كل شىء يزول ، وكل شىء يتحسن . ببطء ؟ اجل لكن . . . بصورة ثابتة ! حاول ان ترى الامور بعينيك . حاول ان تلمس جميع الامور بيديك . كن جريئا . لكن . . .

لا تعجل فى اصدار حكمك . وداعا ، يا صديقى العزيز – والى لقاء جديد !

التقينا مرة اخرى فى سيديليتز بعد خمسة عشر عاما . فى غضون هذه الفترة امضى روماس عشر سنوات اخرى فى المنفى فى مقاطعة ياكوتسك بسبب من نشاطاته فى المنظمة الثورية «حق الشعب» .

ارهقنى سأم من رصاص بعد رحيله من كراسنوفيدوفو . فرحت اهيم فى القرية مثل جرو صغير اضاع معلمه . كنت ارافق بارينوف من قرية الى قرية نؤجر نفسينا للفلاحين الاثرياء : ندرس الحنطة ونقلع البطاطا ، وننظف البساتين . وسكنت فى حمام بارينوف .

قال بارينوف ذات ليلة ماطرة :

– يا الكسى مكسيميتش ، ايها الروح الوحيدة ! انظر . . . هل نرحل الى البحر غدا ؟ ايه ؟ ماذا يمنعنا ؟ انهم لا يحبون امثالنا ههنا. وانت لا تعرف ماذا قد يفعلون ، ذات يوم ، حين يكثرون من تعاطى الخمرة . . .

كان بارينوف قد عرض على هذا الاقتراح من قبل . كان هو الآخر ، عرضة لسأم قاتل . وكانت ذراعاه ، الطويلتان مثل ذراعى القرد ، تتدليان باسترخاء عن جانبيه ، وعيناه لا تكفان عن النظر حواليه مثل رجل ضائع فى الغابات .

المطر ينقر على النافذة . وجدول من الماء يندفع على منحدر الوادى بدأ ينصب فى احدى زوايا الحمام . وكان البرق الشاحب لآخر عواصف الخريف يومض فى وهن على طول السماء . وبارينوف يسألنى فى هدوء مرة اخرى :

– هل ننطلق ؟ غدا ؟
وانطلقنا .

. . . ما ابعث ذلك على الغبطة – ان نبحر على الفولغا فى ليلة خريفية ! جلست فى مؤخرة مركب النقل ، قريبا من مدير الدفة ، وهو حيوان اشعث عملاق الرأس . كان ذلك الوحش يلعلع فى خشونـــة ، وهو يتمشى على ظهر المركب بقدمين ثقيلتين خلال ارجحته ذراع الدفة :

– او – او – اووب ! . . . او – روو – وو !

وكانت المياه ، المترامية الى لا حدود ، اللزجة مثـــل الزفت ، تتدفق كالحرير ، وهى ترتطم بجانبه فى لطف . وفوق النهر تعلقت غيوم خريفية سوداء . وليس هنالك غير الظلمة التى تتحرك فى بطء . لقد محت الضفتين . وذابت الارض كلها فيها ، وانحلّت فى الدخان والماء . . . تتدفق الى اللاحدود ، وتجرى بصورة متواصلة الى مكان ساكن خاو حيث لا وجود للشمس او القمر او النجوم .

فى الظلمة الندية امامنا مركب بخارى غير مرئى يلتهـــم ويرشش الماء ، فكأنه يجهد نفسه لمقاومة قوة عنيدة تجره رغما عنه . وثلاثة اضواء . . . اثنان منها فوق الماء مباشرة والثالث عاليا عاليا . . . تدل على انطلاقه على صفحة الماء . واربعة اضواء اخرى اكثر قربا تسبح ، مثل سمكة شبوط ذهبية ، فيما تحت تلك السحب . كان احدها مصباح معلق فوق صارى مركبنا .

وجدتنى محبوسا فى فقاعة باردة زيتية ، تنزلق بطيئا على

سهل منحدر . وكنت انزلق معها مأخوذا ، مثل ذبابة ، فى داخلها . وكان يبدو لى ان كل حركة كانت تودى تدريجيا الى التوقف ، ولن يطول الوقت بنا حتى تتوقف نهائيا . وعندها يوقف المركب دمدمته ، يوقف ضرب دواليبه فى المياه اللزجة . وتتساقط جميع الاصوات مثلما تتساقط الاوراق عن شجرة — وتمحى مثلما تمحى خربشة بالحوّار واحتوى انا فى عناق مهيب مع الجمود والصمت .

والرجل الكبير يراوح ويغادى عند الدفة فى معطفه المهلهل المصنوع من جلد الخراف وقبعته الشعثاء — وكان يتوقف هو الآخر ، وينتصب الى الابد دون حراك ، مأخوذا مسحورا . ويكف عن الزمجرة :

— اورر — ووب ! او — او — اورر !

سألته :

— ما اسمك ؟

فاجاب فى جفوة :

— وما يعنيك هذا ؟

كان اخرق مثل دب . تمعنت وجهه فى ظلال اشعة الشمس المتلاشية ، فيما نحن نبرح قازان العشية الماضية . بدا كتلة عمياء خالية من العينين مفروشة بشعر كثيف . اتخذ مكانه عند الدفة ، وافرغ زجاجة من الفودكا فى مغرفة خشبية ، وشربها مثلما يشرب الماء ، واتبعها بتفاحة . وحين شرع المركب يتحرك امسك بالدفة ، وأسام بصره الى قرص الشمس الاحمر ، والقى رأسه الى الوراء ، واعلن فى حدة :

— تبارك الله !

كان مركبنا واحدا من اربعة مراكب يقطرها مركب بخارى من معرض نيجنى نوفغورود الى استراخان . وكانت الحمولة مؤلفة من صفائح حديدية ، وبراميـــل من السكر ، وبعض الصناديق الثقيلة – فى طريقها الى بلاد فارس . وكان بارينوف ينقر على الصناديق بابهام قدمه ، ويتشممها ، ويستغرق فى التفكير ، ويقول :

– بنادق . لا ريبـــة انهـــا بنادق . من مصنـــع ايجيفسك . . .

وسأل مدير الدفة ، وهو يدس قبضته فى اضلاعه :

– وما يعنيك من هذا ؟

– كنت افكر . . .

– اتريد ان يتحطّم راسك ؟

لما لم نكن نستطيع ان ندفـــع رسم السفر فى مركب للمسافرين فقد كان لا بد لنا من السفر فى مركب للنقـــل «بدافع من الرثاء» . ورغم اننا كنا نقوم بالنوبات كالملاحين الآخرين فقد راح الجميع على ظهر المركب يعتبروننا متسولين .

قال بارينوف فى غضب :

– وانت تتحدث . . . عن الناس ! الحياة . . . هـــى بسيطة . اذا صعدت الى القمة فانت تمتطيها . وان لم تفعل فهى تمتطيك . . .

كانت الليلة كثيفة جدا بحيث لم استطع رؤية المراكب الاخرى . فيما عدا قمم صواريها حيث علقت المصابيح واضحة المعالم امام السحب الداخنة . وكانت السحب تعبق برائحة البترول .

بدأ صمت مدير الدفة الكالح يثير الاضطراب فى جوانحى . ارسلنى الى الدفة عريف الملاحين كى اقف مناوبـــا مع هذا الحيوان وامدّه بالمساعدة حين الحاجة . وحينما كانت الانوار امامنا تتأرجح حول منعطف فهو يصيح فى هدوء :

– انت ! امسك جيدا !

فاقفز واعاونه فى عطف الدفة .

ويجمجم قائلا :

– انجزنا ذلك !

فاجلس على سطح المركب مرة اخرى . وتفشل كل محاولة للحديث ، يسحقها سؤاله الذى لا يتبدل :

– وما يعنيك من هذا ؟

ترى ما هى الافكار التى تثقل على ذهنه ؟ فيما نحن نجتاز النقطة التى تجتمع فيها مياه نهر الكاما الصفراء مع الشريط الفولاذى للفولغا ، عطف رأسه ناحية الشمال وغمغم :

– الحثالة !

– من ؟

لم يعطنى جوابا .

فى مكان ما ، هنالك ، فى مساحات الليل المترامية الى لا حدود نبحت كلاب واعولت . . . تذكرنا انه لا تزال بقية حياة تتردد ولم تسحقها بعد هاتيك الظلمات ، تلوح بعيدة بعيدة يتعذر الوصول اليها ، و . . . غير مرغوب فيها .

اعلن مدير الدفة على حين فجأة :

– كلاب لا نفع منها .

– اين تقصد . . . هنا ؟

– فى كل مكان . من حيث قدمت . . . هنالك تعثر على كلاب حقيقية .

– واين ذلك ؟

– فولوغدا .

وتساقطت الكلمات مثل تساقط حبات البطاطا من كيس ملآن . كلمات ثقيلة قذرة :

– من هذا الذى معك ؟ عمك ؟ انه احمق فيما يلوح لى . كان لى عم ، وكان ذكيا ! ولكنه خبيث ! وثرى ! يملك رصيفا فى النهر . فى سيمبيرسك . وحانة .

كان ينطق الكلمات متأنيا ، وفى جهد واضح . ثم يصمت من جديد ، ويشخص الى الامام منه ، يراقب المصباح فى قمة صارى المركب وهو يزحف مثل عنكبوت ذهبى ، فى ملء شبكة العتمة الفاحمة . ولم استطع رؤية عينيه .

– امسك جيدا ! . . . هل تستطيع القراءة ؟ وربما كنت تعرف . . . من كتب القوانين ؟

لم ينتظر جوابا ، بل استرسل يقول :

– الناس يقولون اشياء مختلفة . بعضهم يقولون القيصر . وبعضهم يقولون المطران ، او مجلس الشيوخ . لو كنت اعرف حقا من كتبها لذهبت وقابلته . وكنت اقول له : اكْتب القوانين بحيث لا استطيع ان القى نفسى على كائن ما – بحيث لا اتمكن حتى من رفع ساعدى . القانون . . . ينبغى ان يكون من الحديد . مثل القفل والمفتاح . تغلق قلبى علىّ ، وينتهى كل شىء ! وعندها اكون مسؤولا عن نفسى . اما على هذا الغرار . . . فلا استطيع ذلك ! لا استطيع ذلك .

كان يغمغم بينه وبين نفسه – فى صوت يزداد خفوتا ويزداد تفككا ، وهو يضرب على الدفة بقبضة يده .

صاح صوت من المركب بواسطة البوق ، فبدا ذلك الصوت البشرى الكئيب غريبا عن ذلك المكان ، فكأنه شيء من عواء الكلاب ونباحها – وابتلعه الاونة الليل الشره . وهوت انعكاسات زيتية صفراء لمصابيح المركب الثلاثة وغرقت فى المياه السوداء الى جانبه ، عاجزة عن اختراق الظلمة . وفوق رؤوسنا سبحت غيوم سوداء منتفخة ، لزجة ثقيلة ، مثل جدول من طين نهرى . وكنا ننزلق ، ننزلق اعمق فاعمق فى مهاوى الظلمة الخرساء .

جمجم مدير الدفة فى اكتئاب :

– فيم جاؤوا بى ؟ قلبى مأسور بقوة . . .

ارهقتنى اللامبالاة . اللامبالاة ، والاكتئاب البارد الموحش . ورغبت فى النوم فحسب .

زحف الفجر محترسا ، يشق طريقه عبر السحب : فجر خال من ضوء الشمس ، اسمر اللون واهى القوى ، فلون المياه بلون اسمر رصاصى . وكشف عن ضفتى النهر : خطين من الادغال المصفرة ، واشجار الصنوبر السوداء بجذوع من حديد صدىء ، وصف من بيوت قروية ، وقامة فلاح تبدو منحوتة من حجر اصم . ومر طائر نورس وجناحاه الطويلان .

تحررت ومدير الدفة من اعباء العمل . فدلفت تحت قطعة من قماش مشمع ، واستسلمت للنوم . ولم يمر وقت طويل ، فيما خيل الى ، حتى اهبتنى من غفوتى صيحات ثاقبة وخطوات ثقيلة . مددت بصرى من ملجأى ، فلمحت ثلاثة من البحارة

يدفعون مدير الدفة ضد جدار المقصورة وهم يزعقون فى جوقة مشوشة :

– دع ذلك عنك ، يا بتروشكا !

– فلينقذنا الله ! سوف ينتهى ذلك !

– كف عن ذلك !

وقف متصالب الذراعين ، واصابعه تنغرز فى لحم كتفيه ، واحدى قدميه تضغط على شيء يشبه حزمة على سطح المركب . لم يبد مقاومة ، بل راح يجيل عينيه فى كل من البحارة بدوره ، ويترجى فى صوت خشن :

– دعونى اذهب من دون اثم !

كان عارى القدمين ، حاسر الرأس ، لا يرتدى غير قميص وبنطال . كتلة سوداء من شعر اشعث تتدلى عن جبهته الحرون المتورمة . وعينان رقيقتان حمراوان كالدم – مثل عينى خلد تطلان من تحت الكتلة المشوشة ، مضطربتان وضارعتان .

قال البحارة :

– سوف تغرق !

– انا ؟ ابدا ! دعونى اذهب ، يا اخوتى . ان لم اذهب سأقتله ! حالما نصل الى سيمبيرسك ، فلسوف . . .

– كف عن ذلك !

– آه ، يا اخوتى . . .

هوى على ركبتيه ، ونشر ذراعيه حتى لمستا جدار المقصورة عن جانبيه . كان اشبه بانسان مصلوب . وترجى من جديد :

– دعونى اذهب ، من غير اثم او خطيئة !

كان صوته العميق بصورة غريبة ، عامرا برجاء قلبى . وبدت ذراعاه المنشورتان طويلتين كمجذافين ، ويداه ترتجفان وقد ارتفعت راحتاهما صوب الاعلى . وكان وجهه الفظ يرتجف بدوره فى اطار لحيته الشعثاء . ونتأت عيناه الغريرتان مثل كرتين سوداوين صغيرتين ، من محجريهما . وبدا كأن يدا غير منظورة امسكت به من عنقه محاولة خنقه .

ابتعد الرجال عن طريقه فى صمت . فنهض على قدميه فى حركات خرقاء ، وحمل حزمته .

قال :

– شكرا .

اجتاز سطح القارب ، ووثب عن جانبه بحركة رشيقة لم اتوقعها منه . ركضت الى جانب القارب بدورى فى الوقت المناسب لارى بتروشكا يهز رأسه المبلل ، ويضع حزمته عليه مثل قبعة ويسبح مقاوما تيار المجرى صوب الضفة الرملية . كانت الادغال على الضفة تنحنى من جراء الرياح لتحيته ، مرسلة اوراقها الصفر فوق الماء .

قال الرجال :

– انه تغلب على نفسه فى آخر المطاف !

سألت :

– هل جنّ ؟

– جن ؟ هو لا يجن ! انه يخلص نفسه !

وصل بتروشكا الآن الى المياه الضحلة . وقف هنالك برهة غاطسا حتى صدره ، وهز حزمته فوق رأسه .

صاح البحارة :

– ود . . ا . . ع . . ا !

واستفسر احدهم :

– ماذا تراه يفعل من دون جواز سفره ؟

اوضح لى بحار احمر الشعر معوج الساقين فى لذة واضحة :

– ان له عما فى سيمبيرسك احتال عليه فسرقه كل ما يملك . حسنا ، وهكذا عزم على قتل عمه لكن ، انت ترى . . . لقد خلّص نفسه ، وهرب من الخطيئة . انه اشبه بحيوان . . . لكنه طيب القلب . انه فتى طيب !

فى هذه الاثناء كان «الفتى الطيب» يخطو على طول شريط الرمال الضيق ضد التيار . وسرعان ما اختفى بين الادغال .

تبين لى ان البحارة فتيان طيبون . وهم جميعا من مواطنى الفولغا مثلى . وعند حلول المساء كنت قد انسجمت معهم تماما فكأننى بين اهلى . وفى اليوم التالى لاحظت نظرات حذرة مكفهرة – فخمنت على الفور ان لسان بارينوف لا بد قد خانه فروى للبحارة بعض القصص من نسج احلامه .

– هل كنت تتحدث اليهم ؟

حك اذنه ، اعترف فى ارتباك ، لكن فى ابتسامة حنون من عينيه النسويتين :

– حسنا . . . قليلا .

– الم اسألك ان تمسك لسانك ؟

– حسنا ، هذا ما فعلت . لكن . . . لكنها كانت قصة رائعة ! كنا نريد ان نلعب بالورق ، وكانت العلبة قد اختفت .

كانت مع مدير الدفـــة . وهكذا تكدّرنا . ووجب عـلى ان اتحدث . . .

طرحت عددا من الاسئلة فهمت بعدهـــا ان بارينوف - لمجرد تزجية الوقت - اختلق رواية تأسر الالباب كنت وهو وخوخول فى نهايتها اشبـــه بالفايكنغ القدامى ، نصارع فى معركة وفى يد كل منا فأس ، ضد حشد من الفلاحين .

لم يكن ثمة فائدة من الغضب . كانت الحقيقة بالنسبة اليه كامنة خارج مملكة الواقع . ذات يوم ، خلال جولاتنا بحثا عن عمل ، وكنا جلسنا نغتنم قليلا من الراحة على حافة احد الوديان ، قال لى فى نبرة ودودة وفى قناعة قوية :

- الحقيقة . . . ينبغى عليك ان تعثر على حقيقتـــك الخاصة بنفسك كى ترضى قلبك ! انظر : ثمة قطيع هنالك ، عبر الوادى يرعى العشب ، وكلب ، وراع . حسنا ، وماذا فى ذلك ؟ ماذا فى مقدورك او مقدورى ان نتخلص من ذلك لكى ندفىء قلبينا ؟ كلا ، يا صديقى العزيز . يجب ان تحاول رؤية الامور على ما هى عليـــه . الاناس الشريرون . . . هـــم حقيقيون . والطيبون ؟ اين تراهم يوجدون ؟ الطيبون . . . لا يزالون ينتظرون ان نعثر عليهم ! ارأيت ؟

عندما بلغنا سيمبيرسك اخبرنا البحارة فى نبرة فظة ان نغادر المركب .

اعلنوا موضحين :

- نحن لا نريد امثالكم هنا !

نقلونا الى الرصيف ، فجلسنا فترة على الضفـــة نجفف ثيابنا . وكنا نملك سبعة وثلاثين كوبيكا مناصفة .

ذهبنا من بعد الى الحانة وشربنا شايا .

– ماذا نفعل الآن ؟

فاجاب بارينوف من دون تردد :

– نفعل ؟ كيف ، نوالي مسيرنا .

ذهبنا من سمارا على ظهر مركب للمسافرين مختبيئن تهربا من دفع الاجر . وفي سمارا استؤجرنا للعمل على مركب للنقل حملنا خلال سبعة ايام دون ان يقـــع حادث يذكر الى شواطىء بحر قزوين . وهنالك عثرنا على عمل مع مجموعة صغيرة من الصيادين في مسمكة كالميكية قذرة في كابانكول – باي .

١٩٢٣ .

المحتويات

KMH

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب ، وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧ ،
موسكو ، الاتحاد السوفييتى